الصهيونية
وهم قد تبدد

تأليف

محمد مورو

مكتبة جزيرة الورد

الصهيونية

وهم قد تبدد

د. محمد مورو



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : **الصهيونية وهم قد تبدد**

المـــــؤلف : د. محمد مورو

رقـم الإيداع : ٢٠١٨/٨١٤٢م

الطبعة الأولى ٢٠١٨



القاهرة : ٤ ميـدان حليـم خلـف بنـك فيصـل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

إلى أمي الحبيبة.. أم عمر

وإلى أختي الكريمة.. أم نوارة

.. الإيمـــان والإرادة أقـــوى مـــن الطائرة والدبابة

الذي لا يكتفي بمراقبة السطح الخارجي للأحداث – خاصة بما يتصل بخبـرات شعوبنا في مواجهة التحديات الاستعمارية وآخرهـا أمريكـا وإسـرائيل – يـدرك عـلى الفور أننا نمتلك القدرة على المواجهة والصمود وتفشيل العـدو ومنعـه مـن تحقيـق أهدافه بوسائل غير تقليدية اكتشفها المجاهدون على مدى الصراع ، وأن قـوة أمريكـا وإسرائيل ليست قدراً ، بل هي قوة يمكن مواجهتها وهزيمتها ، ولو بمنعها على الأقل من تحقيق أهدافها وأننا إن كنا نتألم من جـراء ممارسـات تلـك القـوى ضـدنا فـإنهم يتألمون مثلما نتألم ، أي أننا قادرون على إنزال الألم بهم أيضاً ، ولكننـا نرجـو رضـا الله تعـالى والجنـة وهـم لا يرجـون شـيئاً ، وهـذا عامـل قـوة لنـا ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

حقيقة إمكانية مواجهة القوى الظالمة مهما كانت قوتها وجبروتها ، وأن الإنسـان أقوى من التكنولوجيا هي حقيقة يؤكدها الإيمان بمدد الله تعالى ، الذي يأتي للمؤمنين المجاهدين الصادقين ، الذين بذلوا غاية الجهد ، ومن ثـم فـإن القعـود عـن الجهـاد والمقاومة بدعوى عدم تكافؤ القوى هـي هجمـة مرفوضـة شـرعياً ومرفوضـة عـلى مستوى دراسة تاريخ وحوادث الصراع ، بل إن تلك الحجة ليست إلا وسيلة للهزيمة من قبل بدء المعركة وتوفير جهد الأعداء من ثم ، وهي لا تحقق قطعاً حقن دمائنا بل العكس هو الصحيح ، فالاستسلام عادة ما يؤدي إلى مذابح « مذبحة صـابرا وشـاتيلا

مثلاً » وكل المذابح التي تمت من قبل ومن بعد .

من الناحية القرآنية يقول الله تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ . إنها نفس الحجج الخوف من مواجهة الأعداء وانتقامهم بدعوى عدم تكافؤ القوى .

في مراحل الصراع مع العدو الصهيوني والأمريكي – ومن قبل مراحل الصراع مع الاستعمار الغربي ، أي منذ أن بدأت عناصر القوة تكون في صالح أعدائنا ، فإن الخبرات المتراكمة تقول أن مواجهة العدو بجيوش نظامية أو بدول وحكومات فشلت إلى حد كبير ، وأن الطريقة الوحيدة التي تم بها النجاح في المواجهة كانت الحرب الشعبية ، والأمثلة كثيرة متواترة متكررة ، مع أولى الحملات الاستعمارية مثلاً « الحملة الفرنسية ١٧٩٨ » نجحت المقاومة الشعبية التي نظمها الأهالي بقيادة علماء الأزهر في إخراج الحملة وهزيمتها حين فشل المماليك « الحكومة والدولة » في ذلك .

الأمر نفسه تكرر في حملة فريزر على مصر ١٨٠٧ ، في التاريخ الحديث مثلاً فشلت الدول العربية متفرقة ومجتمعة في التصدي لإسرائيل ، ولكن المقاومة الشعبية في مدينة السويس في مصر ١٩٧٣ نجحت في ذلك وهزمت القوات الصهيونية التي حاولت احتلال المدينة ، في الحملة العسكرية الأمريكية على العراق مثلاً ٢٠٠٣ فشلت حكومة العراق بجيشها الكبير وحزبها المنظم وقيادتها الصارمة في التصدي للعدوان ، واحتل الأمريكيون العراق ، ولكن المقاومة الشعبية اندلعت سريعاً ، ونجحت في إنزال أكبر الخسائر بجيش الاحتلال ، بل إنها صمدت رغم الظروف السيئة ، وخيانة أحزاب وطوائف وزعماء وقادة ، صمدت للحملات العسكرية المتكررة طوال تلك السنوات منذ عام ٢٠٠٣ وهي على وشك تحقيق اندحار القوات الأمريكية .

نفس الأمر حدث في أفغانستان ، فشلت الحكومة والدولة بقيادة طالبان في مواجهة الاحتلال الأمريكي ثم نجحت كحركة شعبية ، وبعد أربع سنوات على

الاحتلال الذي تم عام ٢٠٠١ ، أي تحديداً منذ نهاية عام ٢٠٠٥ كانت الحكومة والجيش الأمريكي ، وجيوش حلف الأطلسي لا تسيطر إلا على العاصمة ، وتزايدت قوة المقاومة التابعة لطالبان ، أي أن طالبان ذاتها نجحت كحركة فيما فشلت فيه كحكومة .

الأمر نفسه تكرر مع حماس التي صمدت لكل أنواع ومحاولات التصفية ، ولا تزال تنفذ عملياتها وتطلق صواريخها ضد إسرائيل .

نفس المنطق تم في لبنان ، فلم يستطع إخراج الاحتلال الصهيوني من الجنوب إلا المقاومة الإسلامية عام ٢٠٠٠ وفي عام ٢٠٠٦ حين نجحت إسرائيل في الحصول على ضوء أخضر أمريكي أوروبي دولي بل وعربي وجزء منه لبناني لتصفية حزب الله ونزع سلاحه وتنفيذ القرار ١٥٥٩ فإنها قد فشلت في ذلك .

لا يرجع ذلك بالطبع إلى قلة أو ضعف الإمكانيات لدى الجيش الصهيوني أو الجيش الأمريكي ، بل يرجع إلى أن تلك الجيوش قد تنجح مع جيوش مثلها هي بالضرورة أضعف منها ، أو تنجح في مواجهة دول وحكومات ولكنها تفشل بالضرورة في مواجهة حركات ومجتمعات . وهكذا فإن الخبرة الكبرى تقول أنه من الممكن هزيمة الأعداء بحرب المجتمعات وليس الجيوش والدول ، وبحرب المنظمات الصغيرة ، وبحرب الشعب ، وأن الإيمان والإرادة أقوى من الطائرة والدبابة . وهذا من رحمة الله طبعاً بنا وبالبشر جميعاً ، لأن من سننه تعالى أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، وأن المجتمعات أقوى من جيوش الظالمين .

مسألة أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، هذه حقيقة دللت عليها آلاف الحوادث ، فما معنى أنه في ظروف صعبة للغاية تنشأ حركات مقاومة مثل حماس والجهاد ، لا تملك إلا إمكانيات بسيطة ، وأنها تستطيع أن تقوم بعمليات استشهادية متكررة في الزمان والمكان ، لمدة طويلة وفي كل مكان من أرض فلسطين التاريخية ، في القدس وتل أبيب وحيفا على الساحل ، في الشمال والجنوب في غزة والضفة ، وبديهي أن ذلك اقتضى اختراق تحصينات وتجهيزات واستخبارات صهيونية هي

الأقوى من نوعها ، ما معنى أن تفشل إسرائيل في منع تلك العمليات رغم جيوش العملاء ، رغم الاستخبارات رغم الميزانيات الباهظة ، رغم الجيش القوي والتحصينات الضخمة ، رغم الأقمار الصناعية ، ورغم الدعم العسكري والاستخباراتي الأمريكي ، وأن تصل تلك العمليات في كل الظروف الصعبة والسهلة إلى داخل إسرائيل في القلب وعلى الساحل وفي الشمال والجنوب ، معناه ببساطة أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا – وهذا من رحمة الله .

ثم معنى أن تستمر حماس والجهاد رغم عشرات الحملات العدوانية واستخدام كل أنواع الطائرات والدبابات والمدفعية والمشاة ، واقتحام المدن ، وهدم البيوت والجسور والمرافق والضغط على المدنيين . . . . الخ ما معنى استمرار قصف إسرائيل بصواريخ القسام بعد ذلك كله . . . معناه إن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، وصاروخ القسام نفسه يؤكد ذلك فهو صاروخ بسيط صغير لا تستطيع شبكة الصواريخ الإسرائيلية « باتريوت وحيتس » والتي تكلفت المليارات من الدولارات أن تتصدى له ، ربما لأنه صغير ! ! ويحقق نوع من الخوف وعدم الأمان بالنسبة للإسرائيلي وهذا ينسف فكرة الصهيونية ذاتها .

الأمر نفسه ينطبق على سلاح الكاتيوشا ، وكل من الكاتيوشا والقسام سلاح بسيط يمكن تصنيعه بأبسط الوسائل والخبرات ، بل يمكن لطلاب العلوم والهندسة تطويره وزيادة مداه ، ولا يمكن كشفه أو التصدي له ، وسلاح الكاتيوشا وصواريخ حزب الله مثلاً وصلت إلى معظم المدن الإسرائيلية وحققت نوعاً من الردع وأسقطت قتلى وجرحى .

إنه الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، وهناك طريقة ما يستطيع بها الإنسان مهما كان ضعفه أن يواجه أعتى القوى ، إنها حرب النمل مع الفيل ! ! .

ليس هذا فحسب . . . فيمكننا أن نرصد عدداً من الحوادث دللت أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، حتى في مواجهة الجيوش الأمريكية الصهيونية مباشرة .

عملية نسف مقر قيادة القوات الأمريكية « المارينز » في بيروت عام ١٩٨٤ وقتل

وجرح مئات الجنود ، إنها عملية استشهادية نفذها فرد في مواجهة جيش محصن وقد سئل وقتئذ الرئيس الأمريكي دونالد ريجان في الكونجرس كيف يمكن حدوث ذلك، أين التحصينات ، أين الاستخبارات فأفاد ، أن كل التحصينات في العالم قائمة على فكرة خوف المهاجم من الموت ، فإذا انتفى هذا الخوف فإنه لا حل هناك . . . صدق وهو كذوب .

- عمليات نسف مقر الحاكم الإسرائيلي في صور عام ١٩٨٥ وغيرها من العمليات المماثلة .

- عملية أنصارية عام ١٩٩٨ ، والتي جاء فيها أقوى وحدة إسرائيلية على الإطلاق « وحدة خاصة يتكلف الجندي فيها ٥ مليون دولار » عن طريق الإبرار الجوي ، فوجدت رجال المقاومة بانتظارها ليبيدوا كل القوة الإسرائيلية ، وتضطر إسرائيل إلى إلغاء العملية . . . كيف علمت المقاومة بمكان وزمان العملية وكيف نجح رجال المقاومة في إبادة وحدة إسرائيلية من أفضل وحداتها العسكرية ؟ ! ! . . . إنه الإنسان أقوى من التكنولوجيا .

- في عملية الوهم المتبدد « يونيو ٢٠٠٦ » حيث حفر المجاهدون خندقاً بطول ٤٠٠ متر تحت الجدار العازل دون أن يحس بذلك العدو ولا استخباراته ، ووصلوا إلى موقع عسكري إسرائيلي في « كرم شالوم » وقتلوا وأسروا ورجعوا . . . ما معنى ذلك معناه أن الإيمان والإرادة أقوى من الجيش الصهيوني .

- عملية « الوعد الصادق » التي تم فيها الهجوم على وحدة صهيونية في جنوب لبنان « زرعيرت » في يوليو ٢٠٠٦ وتم قتل ٩ جنود وأسر جنديين ، وجرح العشرات . . . ما معنى ذلك معناه أنه حتى الجيش الصهيوني بات من الممكن إنزال الضربات به على يد المقاومة ، معناه أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، وأن هناك مدد الله دائماً يأتي للمجاهدين الصادقين بعد بذل كل الجهد .

وفي الحقيقة فإن الوقائع من هذا النوع أكثر من أن تحصى والحمد لله رب العالمين .

.. إسرائيل طليعة استعمارية .. أم طبيعة دينية؟

كي نستطيع أن نواجه التحدي الصهيوني الذي مثل ويمثل أكبر التحديات وأخطرها بالنسبة لأمتنا وهويتنا وحضارتنا ومصالحنا ومستقبلنا بل ووجودنا ذاته، ينبغي أن نعرف طبيعة هذا الكيان المغتصب وتوجهاته.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تعارضاً بين نظرتين لفهم طبيعة المجتمع الصهيوني:

الأولى: ترى أنه جزء من مشروع الهيمنة الغربية على المنطقة في إطار الصراع الحضاري.

والثانية: ترى أن المجتمع الصهيوني مجتمع توراتي قائم على الأسطورة الدينية، وأن اليهود؛ بما لهم من نفوذ مالي وإعلامي وغيره، نجحوا في السيطرة على صناعة القرار الغربي، فحصلوا على الدعم اللازم لمشروعهم.

والحقيقة أنه بشيء من التركيب يمكن أن نجد أن للمفهومين أصلهما التاريخي والواقعي؛ فالكيان الصهيوني نشأ أصلاً من رغبة غربية استعمارية لإقامة كيان أو مجموعة وظيفية في هذه البقعة الحساسة من قلب العالم العربي والإسلامي كجزء من مشروع الهيمنة الغربية على المنطقة، وكحلقة من حلقات الصراع الحضاري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية. وتلاقت هذه الرغبة الاستعمارية أو غذت مفهوم الحلم والأسطورة المزيفة لدى اليهود عن حق العودة إلى فلسطين وإقامة

وطن قومي لهم على أساس التفسير المحرف للتوراة المحرفة أصلاً، أو على أساس الدعاية الدينية اليهودية لجمع يهود العالم في هذه البقعة. وفي الحقيقة فإن الرغبتين والمصلحتين التقتا في محطة تاريخية تمخض عنها قيام هذا الكيان، ويجب هنا أن ندرك أن هناك وجداناً غربياً كارهاً ومعادياً لليهود أصلاً، ومارس الاضطهاد بحقهم طويلاً؛ وبذلك فإن إقامة وطن قومي لهم يحقق هدفين: الأول: هو التخلص من اليهود كزبالة بشرية غير مرغوب فيها في الغرب، ويحقق ثانياً: الاستفادة من هذا الكيان في تحقيق الأهداف الاستعمارية، والكيد للحضارة الإسلامية، وتمزيق وحدة المنطقة، ومنع نهوضها أو تطورها، واستمرار نهبها.

إذن فالكيان الصهيوني هو مشروع غربي في الأساس تم صياغته داخل أروقة المؤسسات الاستعمارية الغربية قبل أن يفكر فيه هرتزل بفترة طويلة. فهناك على سبيل المثال لا الحصر نداء نابليون بونابرت إلى يهود العالم من أجل إعادة إنشاء مملكة القدس القديمة «سنة ١٧٩٩م» في إطار المشروع الاستعماري في الشرق الذي كان يحكم به نابليون، وهناك دعوة الرئيس الأمريكي (جون آرامز) إلى استعادة اليهود لفلسطين «سنة ١٨١٨م». وهناك مذكرة سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية (بالمرستون) التي يقترح فيها دعوة أوروبا إلى إعادة اليهود إلي فلسطين «عام ١٨٣٩م». وهناك برنامج (اللورد سافتبري) إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين «سنة ١٨٤٠م». وهناك مشروع «إدوارد تنورد» لإقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين تحت الحماية الإنجليزية المؤقتة إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها «سنة ١٨٤٥م». وهناك كتاب (أرنست لاهان) المستشار الخاص لنابليون الثالث في المسألة الشرقية «إعادة بناء أمة اليهود» «سنة ١٨٦٠م». وهناك كتاب «أرض جلفاد» للورنس أوليفنت عضو البرلمان الإنجليزي ووزير الخارجية والذي يقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية على مساحة ١.٥ مليون فدان في الأردن وفلسطين «عام ١٨٨٠م». ثم هناك تأسيس بلاكستون في شيكاغو لمنظمة العثبة العبرية نيابة عن (إسرائيل) من أجل حث اليهود على الهجرة إلى فلسطين، ومذكرة بلاكستون إلى الرئيس الأمريكي بنيامين هاريسون ووزير خارجيته

جيمس لين بإنشاء وطن قومي لليهود عام ١٨٩١م، وصدور كتاب الدبلوماسي الإنجليزي وليمر هشلر «إعادة اليهود إلى فلسطين» الصادر عام ١٨٩٤م، كل هذا قبل صدور كتاب تيودور هرتزل «الدولة اليهودية» الذي صدر عام ١٨٩٦م.

وفي هذا الصدد يقول جمال حمدان في كتابه «استراتيجية للاستعمار والتحرير»، ص ١٦٨: «التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخياً على طريق واحد هو المصلحة الاستعمارية المتبادلة، فيكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة وحليفاً مضموناً أبداً يخدم مصالح الاستعمار؛ وذلك ثمناً لخلقه إياه وضمانه لبقائه، ويقول أيضاً في الكتاب نفسه، ص ١٧٦: «الاستعمار هو الذي خلق (إسرائيل) بالسياسة والحرب، وهو الذي يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال، وهو الذي يضمن بقاءهما ويحميها علناً».

ويؤكد (روجيه جارودي) على هذه الحقيقة أيضاً بقوله: «إن الأب الروحي للصهيونية ثيودور هرتزل أشعل الرغبة الاستعمارية في خلق (إسرائيل) وقدم لها مسوِّغات إقامة هذه الدولة على أساس أنه إذا قامت إحدى الدول الاستعمارية بحماية هذه الدولة اليهودية فسوف تتمتع بميزة على خصومها؛ لأن هذه الدولة ستعتبر رأس حربة مزروعة في المنطقة من أجل التغلغل الاستعماري. وكتب تيودور هرتزل سنة ١٨٩٥م في كتابه (الدولة اليهودية) قائلاً: «ستكون هذه الدولة بالنسبة إلى أوروبا متراساً ضد آسيا، وستكون بمثابة الحصن المتقدم للحضارة ضد البربرية».

وفي محاضرة لروجيه جارودي في ١٣/ ١٠/ ١٩٩٦م في فندق الماريوت بالقاهرة قال: «إن (إسرائيل) ستلعب دوراً هاماً في المواجهة الحضارية بين العالم الغربي والعالم الإسلامي نظراً لموقعها الاستراتيجي في قلب العالم الإسلامي».

وإذا كانت هذه هي أهداف السياسة الاستعمارية من خلق (إسرائيل) لتكون وكيلاً للاستعمار الغربي وجماعة وظيفية لأداء وتنفيذ أهدافه، فإن القادة الصهاينة لعبوا على تلك النقطة تجاه الرأي العام الغربي وقواه السياسية وأجهزته ومؤسساته الحاكمة، وفي نفس الوقت لعبوا على الأسطورة التاريخية لدى اليهود عن الوعد التوراتي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، سواء كان هذا السلوك من قادة

الصهاينة نوعاً من الدجل والدعاية، أو أنه يعبر عن اقتناعهم الحقيقي، سواء كان هؤلاء القادة الصهاينة ملحدين أو مؤمنين فإنهم عكسوا في سلوكهم وتصريحاتهم وبنائهم للكيان الصهيوني تفسيراً أسطورياً توراتياً ـ محرفاً بالطبع ومزيفاً وكاذباً، فجولدا مائير زعيمة حزب العمل التاريخية في تصريح لها لصحيفة لوموند الفرنسية ١٥/ ٥/ ١٩٧١م تقول: «نشأ هذا البلد تنفيذاً لوعد الرب ذاته؛ ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحاً عن شرعية هذا الوجود».

ومناحم بيجين «ليكود» يصرح لصحيفة دافار الإسرائيلية، ١٤/ ١٢/ ١٩٧٨م بقوله: «لقد وعدَنا الرب هذه الأرض، ولنا الحق فيها».

أما موشي دايان «ملحد» فيقول: «إذا كنا نملك التوراة، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضاً بلاد التوراة، بلاد القضاة أرض أورشليم وحيرون وأريحا» جيروزاليم بوست، ١٠/ ٨/ ١٩٦٧م.

وهكذا يتردد دائماً على ألسنة الزعماء الصهاينة نفس المنطق سواء كانوا من اليمين أو اليسار، أعضاء في حزب العمل أو في كتلة الليكود، ناطقين باسم الجيش أو الحاخامية؛ فالتوراة ترسم كل شيء في (إسرائيل)، ترسم ثقافة الأطفال في المدارس؛ فبناء على توجيه دافيد بن جوريون فإن الدين اليهودي في إسرائيل يدرس كمادة إجبارية في المدارس.

والزواج في (إسرائيل) زواج ديني، ولا يوجد في (إسرائيل) دستور؛ لأن التوراة هي القانون الأساس للدولة، والتوراة هي التي تعرّف المواطن وتحدد من هو الإسرائيلي، وهي ذاتها تحدد حدود الدولة، بل وتسوِّغ الحرب والإرهاب «علينا ألاَّ ننسى أجزاء التوراة التي تسوِّغ هذه الحرب؛ فنحن نؤدي واجبنا الديني بوجودنا هنا؛ فالنص المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً وهو أن نغزو أرض العدو» حاخام برتبة نقيب، هآرتس، ٥/ ٧/ ١٩٨٢م.

والمذابح من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا تُحِلُّها التوراة وتأمر بها: «وحرِّقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل ومسن وشيخ حتى البقر والحمير بحد السيف»

سفر يشوع، الإصحاح ٦ آية ٢١.

وبالطبع فإن هذا الفهم للتوراة ـ وهي محرفة أصلاً ـ هو بدوره فهم مغلوط، والحديث عن الوعد الإلهي في التوراة حديث مغلوط؛ لأن يهود إسرائيل أولاً ليسوا هم أبناء اليهود الأوائل من ناحية؛ فهم من يهود الخزر غالباً، وحتى لو فرض أنهم من أبنائهم فقد فقدوا أهليتهم بسبب عصيانهم التاريخي المستمر لأنبيائهم، ولأنه بعد الإسلام بالذات فإن الأمة الإسلامية هي الأمة الرسالية، ونحن من ثم أَوْلى من اليهود بإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، ويوشع، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم ـ عليهم السلام ـ وأن هؤلاء الأنبياء وغيرهم قد بايعوا محمداً الرسول -ﷺ- أثناء رحلة الإسراء والمعراج عندما أَمَّهم في تلك الليلة في الصلاة في بيت المقدس، وأن موسى وداود، وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل لو بعثوا اليوم ما كان بوسعهم إلا الدخول في الإسلام، باعتباره الدين الحق الحنيف الذي جاء به إبراهيم أصلاً من عند الله، وجاء به النبيون من قبله ومن بعده، والذي جاء محمد -ﷺ- ليكون به خاتم الأنبياء، وليكون المسلمون هم ورثة كل وعد إلهي.

والكيان الصهيوني كيان عنصري؛ فهو قائم في تعريف المواطنة وكذا في سلوكه السياسي على فكرة تجميع يهود العالم الذين يُزعم أنهم من أب واحد وكتلة قومية ودينية واحدة، وأنهم شعب الله المختار وبقية العالم عبيد لهم، والديمقراطية الإسرائيلية لليهود فقط.

والكيان الإسرائيلي كيان عسكري وعدواني؛ فـ(إسرائيل) تنفق ٥٠٪ من ميزانيتها على الجيش، والمؤسسة العسكرية تتحكم في كل شيء في (إسرائيل) تقريباً، وعلى حد تعبير بنيامين نتنياهو رئيس وزراء الكيان الصهيوني السابق «فإن القوة العسكرية مؤسسة لا بديل عنها للمحافظة على أمن إسرائيل. ونظريات السلام مع العرب ونظريات الخلاص اليهودي بالسلام يدلان على رؤية غير واقعية للواقع الإسرائيلي البائس، وعلى أحلام كاذبة تنبع من محاولة الهروب من الصراع المحتوم علينا نتيجة وجودنا فإنه بين الشعوب العربية» بنيامين نتنياهو ـ كتاب «فكان تحت الشمس».

وهكذا فالمفهوم الإسرائيلي للسلام يتلخص في التفوق العسكري والخضوع الفاعل عسكرياً وسياسياً من جانب العرب للهيمنة الإسرائيلية، وهذا بالطبع يشير إلى استمرار وجود قوة عسكرية هائلة، واستمرار توجيه ضربات إجهاضية لكل محاولة عربية لامتلاك القوة.

ولأن الكيان الصهيوني جماعة وظيفية أولاً لممارسة العدوان لحساب الاستعمار الغربي «الأمريكي حالياً» ولأن حقيقة وجودهم مصنوع وغير طبيعي فإن المجتمع الإسرائيلي الذي قام على سلب حقوق الآخرين يحس بهاجس الأمن أو ما يسمى بعقدة الأمن، وهي عقدة ناجمة عن شعور إسرائيلي داخلي بأن وجودهم على هذه الأرض غير شرعي ـ ولم تفلح محاولات زرع ثقافة مصطنعة في إعطاء الإسرائيليين الشعور بالانتماء أو المشروعية؛ ولذا فإن المجتمع الإسرائيلي مجتمع معسكر؛ فأنماط المعيشة في إسرائيل «المستوطنات، الكيبوتزات، الموشوفات» وطريقة التجنيد والتعبئة ونظام الاحتياط ووضع المؤسسة العسكرية السياسي من حيث كونها مصدراً للنخب السياسية والأمنية رفيعة المستوى، وأهمية حقيبة وزارة الدفاع في الحكومات الإسرائيلية، ونسبة مخصصات الميزانية العامة الإسرائيلية للاتفاق العسكري، توضح الوضع الذي تمثله المؤسسة العسكرية في (إسرائيل).

ويعاني المجتمع الإسرائيلي أيضاً من مسألة عدم تجانس اليهود القادمين من مختلف بقاع العالم، من غرب أوروبا وأمريكا، ومن شرق أوروبا، ومن اليمن والعراق والمغرب وروسيا، والحبشة وغيرها، وكل منهم يحمل ثقافة مختلفة، ولن يفلح الحديث عن الأسطورة التاريخية أو وحدة الأصل اليهودي في صهر هذا المزيج غير المتجانس، وكذلك فإن الوجود العربي الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لإسرائيل؛ فلا هي قادرة أو راغبة على إعطائهم حقوقهم السياسية كمواطنين إسرائيليين ومع تزايد معدلات النمو السكاني الفلسطيني فإن مشكلة ديموجرافية خطيرة ستواجه الكيان الصهيوني.

***

■ الكيان الصهيوني بعد الحرب الباردة:

إذا كان الصهاينة قد قبلوا أن يقوموا بدورهم كوكيل للاستعمار الغربي في المنطقة مقابل السماح لهم بإقامة كيانهم ودعمه مادياً ومعنوياً، فإن مرور عشرات السنين على هذا الكيان جعل قادته يفكرون في التحول من دور التابع إلى دور الشريك الاستراتيجي، وتواكب في تلك اللحظة حدوث متغير هام في الصراع الدولي ومعادلاته الإقليمية؛ فبسقوط الاتحاد السوفييتي السابق ونهاية الحرب الباردة، قلَّت أهمية (إسرائيل) الاستراتيجية بالنسبة للغرب عموماً وأمريكا خصوصاً، وتواكب ذلك مع الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة بعد حرب تحرير الكويت ١٩٩١م والاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣، أن أمريكا جاءت بجيوشها ولم تستخدم هذه المرة ـ لأسباب كثيرة ـ الصهاينة كجماعة وظيفية لأداء خدمات عسكرية نيابة عنها، وهذا بدوره قلل الأهمية الاستراتيجية للإسرائيليين، ولكي يعيد الإسرائيليون التأكيد على أهميتهم ودورهم ساروا على عدة محاور أولها زيادة التغلغل الصهيوني في الإدارة الأمريكية؛ وخاصة الخارجية والمخابرات والدفاع ومراكز البحث ومؤسسات صنع القرار الأمريكي عموماً بشكل لم يسبق له مثيل على الإطلاق في تاريخ العلاقة بين الطرفين.

ثم عملت (إسرائيل) على تقديم نفسها ليس كتابع لأمريكا بل كحليف استراتيجي ـ مستقل ـ لها، ولو كحليف صغير أو أقل حجماً.

يقول شمويل كاتز في بحثه المعنون: «وجهة نظر إسرائيلية للعلاقة الأمريكية الإسرائيلية»: «ما مدى صحة القول بأن (إسرائيل) تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية اعتماداً تاماً؟ إنه قول سخيف حتماً لو أخذناه على ظاهره؛ فإذا كانت إسرائيل توصف دائماً بأنها حليف؛ فمعنى ذلك أن هناك بين الولايات المتحدة وإسرائيل حالة من الاعتماد المتبادل لا تقل، بل إنها تزيد في بعض الجوانب عن العلاقة بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية»، ويضيف الباحث الإسرائيلي شمويل كاتز: «لا غنى لأمن أمريكا عن إسرائيل الصديقة، لا بسبب الحقائق الجغرافية السياسية وحدها؛ بل أيضاً لأن إسرائيل أصبح لديها القدرة على خدمة المصالح

الأمريكية بشكل إيجابي ولا سيما في الشرق الأوسط».

ويطرح كاتز أن علاقة الحلفاء هي الأكثر قبولاً بقوله: «ولا شك في أن بالوسع إقامة علاقة صحيحة ومتكافئة كالعلاقة بين الحلفاء بإبرام اتفاق تعاقدي لا يتأثر بالتحيزات السياسية ليضمن لإسرائيل أن تحصل لا على منح بل على مقابل للخدمات».

وطرحت (إسرائيل) نفسها بعد الحرب الباردة كذراع قوية وفعالة في مواجهة الصحوة الإسلامية، وإذا كانت دوائر حلف الأطلنطي وأمريكا بالذات قد اعتبرت أن الإسلام هو العدو الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق، وأن الصحوة الإسلامية تمثل خطراً على المصالح الأمريكية والغربية قيمياً وسياسياً وعسكرياً، واقتصادياً، فإن (إسرائيل) التي تحس بالخطر ذاته عليها مستعدة للقيام بدورها لحماية نفسها ولحماية مصالح أمريكا والغرب أيضاً. كما أكثرت (إسرائيل) من الحديث عن دورها الهام في موازنة الخطر الإيراني المرتقب

وقد طرحت (إسرائيل) نوعين من التكتيك لخدمة الأهداف الأمريكية بعد الحرب الباردة: الأول يتضمن سيطرة أمريكا اقتصادياً وكذلك سياسياً وعسكرياً على المنطقة من خلال إدماج المنطقة في تجمع اقتصادي وعلاقات اقتصادية «السوق الشرق أوسطية» تحقق لأمريكا أهدافها، وتكرس سيادتها على العالم والمنطقة، وتكون إسرائيل فيه أكبر الشركاء والقائد الإقليمي للتنمية التي تحقق بدورها من خلال رفع مستوى معيشة العرب نزع فتيل التطرف الإسلامي الذي يستمد مادته من تدهور الأوضاع الاقتصادية في المنطقة، وفي الوقت نفسه تحقيق نوع من السلام مع العرب يضمن لإسرائيل البقاء في المنطقة كجزء مندمج فيها من خلال شبكة قوية ومتنوعة من العلاقات الاقتصادية مع المحافظة على تقوية الذراع العسكري الإسرائيلي ونزع سلاح العرب؛ أي أن يحقق نوعاً من الربط بين (إسرائيل) والعرب يجعل من الصعب على الدول العربية أن تفكر في قطع صلتها بـ (إسرائيل) والتحول إلى علاقة عداء والرؤية الثانية تقوم على استمرار إسرائيل منفصلة عن الشرق الأوسط وليست مندمجة في نظام شرق أوسطي؛ لأن مستقبل إسرائيل والمصالح الغربية من

يتمحور حول إسرائيل ذاتها وقدرتها على الاحتفاظ بشخصيتها في وسط معاد، وأنه لا توجد وسيلة للتعامل مع هذا المحيط إلا بالقوة والردع والعنف. يقول نتنياهو في كتابه «مكان بين الأمم»: «السلام الوحيد الممكن تحقيقه بين العرب و (إسرائيل) هو السلام الذي يعتمد على ردع العرب، هو سلام حذر ومسلح يوفر لإسرائيل درجة كافية من القوة القادرة على ردع الجانب العربي عن التفكير في استمرار الحرب».

وفي الحقيقة فإن (إسرائيل) قد نجحت بوسائل عدة في إقناع واشنطن بأسلوب التحالف بدلاً من أسلوب التابع؛ وأصبح هناك انطباقا كاملا بين البلدين.

.. التحالف العنصري بين أمريكا وإسرائيل

يلخص الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه «الفرصة السانحة» – يلخص الموقف الأمريكي تجاه إسرائيل قائلا: «إنني أتذكر بوضوح اجتماعًا حدث في عام١٩٧٣ م مع المسئولين بخصوص حرب الشرق الأوسط، وكانت في بدايتها ولم تكن هذه البداية في صالح إسرائيل، وعندما سأل أحد أعضاء الكونجرس إذا كانت الولايات المتحدة ستتخذ أي إجراء في هذا الشأن؟ أجبته بلا مواربة «ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل».. وأمرت عندئذ بعمل جسر جوي ليدفع عن إسرائيل الهزيمة.. وعلينا الآن أن نسأل أنفسنا سؤالا عن مدى أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا لدرجة أنه ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل، ولدرجة أن يقوم الرئيس الأمريكي نيكسون في ذلك الوقت عام ١٩٧٣ م بعمل جسر جوي لنقل السلاح من المخازن الاستراتيجية للجيش الأمريكي لحماية إسرائيل.

هل أهمية إسرائيل هنا جيوبوليتيكية مثلا، أم أن هناك تحالفًا بين أمريكا وإسرائيل لأسباب أخرى ليست سياسية ولا عسكرية في جوهرها وليست بسبب أهمية أو عدم أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا، لنترك أيضًا الرئيس الأمريكي الأسبق يجيب على السؤال، يقول نيكسون: «إن التزاماتنا تجاه إسرائيل عميقة جدًا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق، نحن مرتبطون معهم ارتباطًا

أخلاقيًا، إن إسرائيل ليست مكسبًا استراتيجيًا للولايات المتحدة، بخلاف الرأي السائد في هذا الشأن، إن تعاوننا في أجهزة المخابرات والمناورات والمسائل الحربية مهم، ولكنه ليس حيويًا، لقد أثبتت الجيوش الإسرائيلية حقًا كفاءتها في الحروب إلا أن تأثير إسرائيل محدود في المنطقة، ولكن التزامنا تجاهها ينبع من ميراث قديم، فلن يستطيع أي رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل».

وإسرائيل هذه التي لا تمثل أي مكسب استراتيجي للولايات المتحدة، لا يستطيع لا الرئيس ولا الكونجرس التخلي عنها، وهي التي اعترفت بها أمريكا بعد دقائق من قيامها! وهي التي أسهم الغرب عموما وأمريكا خصوصا في قيامها واستمرارها وتوسعها، وإسرائيل تحصل على ما تريد من السلاح ومن المواقف السياسية والفيتو وغيرها من أمريكا بدون تحفظ، وقد حصلت إسرائيل من أمريكا منذ ١٩٧٤ م وحتى ١٩٨٩ م على حوالي ٤٩ مليار دولار كمعونة، وحصلت على ١٦.٤ بليون دولار على هيئة قروض من عام ١٩٧٤ م إلى عام ١٩٨٩ م ثم تحولت هذه القروض بعد ذلك إلى منح لا ترد، ناهيك عن المعونات غير الحكومية، أو ضمانات القروض الحكومية أو التي تقوم بها البنوك الأمريكية لصالح إسرائيل.

وأمريكا التي لا تطيق أن ترى مصنعا للكيماويات في العالم العربي حتى ولو كان ينتج مبيدات للحشرات هي ذاتها التي تشجع وتساعد وتتجاهل قيام إسرائيل بصناعة القنابل النووية وكافة أسلحة الدمار الشامل.

لماذا كل هذا الدعم والحماس لإسرائيل، مع أنها على حد تعبير نيكسون ليست مكسبا استراتيجيا لأمريكا؟!

إن ذلك يرجع لسبب بسيط جدا وهو وجود تحالف عنصري بين اليهود والأمريكان والغرب موجه ضد المسلمين، أي تحالف صليبي يهودي ضد الإسلام، وذلك في إطار الصراع التاريخي بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية الصليبية، بل إن هناك تفسيرا صهيونيا للمسيحية ينتشر بصورة متزايدة يوما بعد يوم وخاصة في أوساط البروتستانت، ويقول هذا التفسير: إن دعم إقامة إسرائيل وتحقيق إمبراطوريتها من النيل إلى الفرات هو واجب مسيحي؛ لأن هذا الوجود والتوسع

الإسرائيلي شرط لظهور المسيح في فلسطين وقيامه بقيادة الجيوش المسيحية في معركة ضد الكفار « المسلمين » وهي المعركة المذكورة في الإنجيل « المحرف طبعا» تحت اسم معركة «هرمجدون»..

أما على مستوى المسيحيين الكاثوليك، فإن الموالاة والتحالف مع اليهود يشق طريقه الآن على قدم وساق، فبابا الفاتيكان مثلا – وعلى خلاف كل التراث الكاثوليكي – أعلن تبرئة اليهود من دم المسيح!

وبابا الفاتيكان نفسه يعلن الآن أنه لا يمانع في الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل بشرط حرية زيارة الأماكن المقدسة، وحتى أسبانيا التي طردت اليهود مع المسلمين منذ ٥٠٠ عام اعتذرت رسميا عن ذلك لليهود، وطبعا لم تعتذر للمسلمين!!

على أية حال فإن التحالف المسيحي اليهودي أمر جديد ولم يحدث إلا في القرون الأخيرة، لأن التاريخ بين اليهود والمسيحيين تاريخ مفعم بالصدام، ولقد تعرض اليهود للعديد من المذابح والاضطهادات الدينية المسيحية في كل الدول المسيحية الأوروبية بدون استثناء، على أن هذا التحالف الجديد كان قد تنبأ به القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام وهذا نوع من الإعجاز القرآني:-

يقول الله تعالى في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(١) .

ونظرا لأنه كان هناك عداء مستمر واضطهاد من المسيحيين لليهود على طول التاريخ فإن المفسرين القدماء كانوا يفسرون هذه الآية في إطار أن الكفر ملة واحدة، أي تفسيرا إجماليا دون أن يجدوا أو يذكروا تفاصيل محددة لهذه الموالاة، أما الآن فقد تحققت هذه النبوءة القرآنية وخاصة بعد دعم قيام إسرائيل من الغرب المسيحي

(١) سورة المائدة: الآية (٥١).

واستمرار هذه الموالاة والدعم بين الطرفين في أكثر من مجال، وبذلك تحققت النبوءة القرآنية بصورة محددة تفصيلية، وهذا من إعجاز القرآن الكريم..

أما موقفنا الآن كمسلمين من هذه الموالاة بين اليهود والنصارى فيحددها الله تعالى لنا من خلال القرآن الكريم أيضا في هذه الآية وما بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [1].. و ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [2].. و ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [3].

أي هؤلاء الذين يقولون الآن نحن لا نستطيع مواجهة أمريكا ولا إسرائيل ونخشى أن يدمرونا بأسلحتهم!.

(١) سورة المائدة : الآية (٥١)

(٢)سورة المائدة : الآية (٥١)

(٣) سورة المائدة: الآية (٥٢)

.. التحدي الاستعماري الصهيوني

منهج لفهم الصراع

إن حديثنا عن الصراع العربي الإسرائيلي على أرض فلسطين إنما هو حديث عن مستقبل كل الأمة الإسلامية وبالتالي مستقبل العالم. ذلك أن الصراع الذي جرى على أرض فلسطين ليس إلا جزءا من تاريخ وجغرافيا العالم الإسلامي.

إن ذلك الصراع يمثل بشكل شبه كامل جدل العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فضلا عن التاريخية. بل ويمثل صراع القوى الكونية في تلك اللحظة من عمر التاريخ.

وإن فهمنا لطبيعة الصراع وتحليلنا للعوامل السابقة يقودنا إلى نتائج في غاية الخطورة والحسم.

مدخل تاريخي:

يظلل وجه التاريخ دوما ذلك الصراع المستمر والذي لم يتوقف لحظة بين القوى الربانية من جانب والقوى الشيطانية من جانب آخر. بما تملكه كل قوة من خصائص خاصة بها وأدوات وأساليب في الصراع خاصة بها أيضا ولكن ضمن سنن الله سبحانه وتعالى التي لا تستطيع أي قوة منها أن تتجاوزها.

فالقوى الربانية قوة الجماهير المسلمة بقيادة الطليعة المؤمنة وهي قوى تعمل

على:

- ربط مصير الإنسانية بأيدي كل الجماهير. أي أنها جماهيرية تعمل مع وبالجماهير.

- تحرير البشر كافة من الخوف والجهل والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والتخلف القبلي.

- قوى غير سلطوية بمعنى أنه لا إكراه لديها في أي شيء بل هي تعتمد في التفاف الجماهير حولها على تحرير تلك الجماهير من الاستبداد السياسي والتخلف القبلي والاجتماعي والظلم الاقتصادي ثم تترك للجماهير حقها في اختيار قناعاتها الدينية والسياسية والاجتماعية. فإذا بالجماهير تختار الإسلام لأن هذا يوافق فطرتها ولأن تصميم الكون والحياة والعقل البشري يقود إلى هذا تماما.

- قوى تعمل على إزالة كل أشكال التسلط من على وجه الأرض لتحرير كافة البشر (مفهوم الجهاد الإسلامي).

والقوى الشيطانية قوى غير جماهيرية. تعزل الجماهير باستمرار عن الوعي والعلم والمشاركة في بناء حياتها بل تمارس عليها استبدادا سياسيا بمعنى أنها تصادر حرياتها وحقها في الاختيار فهي تفكر لها. ثم هي تربطها بالقيود القبلية والاجتماعية ولا تترك لها فرصة للاختيار الحر وتقمعها اقتصاديا بمعنى أنها لا تلبي لها حاجاتها الاقتصادية المشروعة.

فهي في النهاية أن تمارس فئة من البشر التسلط والتحكم في الجماهير مستخدمة في ذلك إعلامها وشرطتها وأجهزتها القمعية المختلفة.

وبالتالي فإن أي نجاح في انتزاع حق من حقوق الجماهير في الحرية السياسية ورفع المعاناة الاقتصادية وتسليح الجماهير بالوعي هو في النهاية لصالح القوى الربانية. ضد القوى الشيطانية والعكس دائما صحيح.

ولقد حمل لواء القوى الربانية المستضعفون بقيادة الأنبياء وانتهى هذا اللواء إلى محمد بن عبد الله ﷺ. وكان ظرفا تاريخيا فلذا حققت القوى الربانية انتصارا ساحقا

على القوى الشيطانية وبدأت الجماهير تمارس حقها في العلم والوعي والحرية وبناء المجتمع اللاسلطوي واللاطبقي.

ولكن القوى الشيطانية بعد أن هُزمت. لم تستسلم وبدأت تطل برأسها من داخل المجتمع الإسلامي ذاته على مستويين:

المستوى الأول: هو إزاحة القيادات الواعية عن طريقها.

والثاني: هو ضرب النظرية السياسية الإسلامية وتزييف الإسلام المحمدي والصحيح لصالح إسلام أسري وطبقي.

وكان أن بدأت حركة القوى الشيطانية ضد الإمام علي رضي الله عنه لإزاحته ومن معه من طليعة مؤمنة باتجاه إقامة حكم انتهازي يصادر المفاهيم الإسلامية الصحيحة ويزيفها لصالحه.

وبدأت ضرب المفاهيم الإسلامية بلا هوادة، ويبدو أن تلك القوى قد أزاحت الطليعة المؤمنة عن قيادة الجماهير وكانت على وشك ضرب نهائي للمفاهيم، عن طريق بث العصبية القبلية وتزييف الإسلام وتفسيره تفسيرا طبقيا وعائليا لصالح المستكبرين. لولا أن الإمام الحسين رضي الله عنه قد حفر بدمه الذكي رافدا عميقا لاستمرار تدفق المفاهيم الإسلامية الصحيحة وحركة الجماهير بقيادة طليعتها المؤمنة في مواجهة الاستكبار. ولقد نجح الحسين عليه السلام في أن يفجر في لحظة تاريخية فذة وعي جزء من الأمة. ولولا ذلك لانتهى الإسلام برغم أن الإمام الحسين لم ينجح في إزاحة الاستكبار عن مواقع القيادة.

وهكذا تبدأ حقبة ذات طبيعة جدلية خاصة في الصراع تتمثل في جماهير مؤمنة بقيادة طليعة مؤمنة في مواجهة حركة استكبار وقيادة داخل الأمة الإسلامية وفي مواجهة قوى كفر خارجية – ولا يعني هذا أن ليس ثمة تناقض بين قوى الكفر الخارجية وبين قيادة الأمة الإسلامية من المستكبرين وإن كانوا في النهاية جزءا من القوى الشيطانية.

وبحسب قدرة الطليعة المؤمنة على دفع القيادة غير الشرعية للأمة الإسلامية على أخذ مواقف إلى الأمام بقدر ما كان يتحقق من انتصار خارجي على قوى الكفر المباشرة. وبهذا نفهم الفتوحات الإسلامية برغم إزاحة الطليعة المؤمنة عن القيادة. وما هذه الفتوحات إلا استمرار للدفعة القوية والمبدعة لحركة المسلمين بقيادة الرسول ﷺ والتي ما كان لها إلا أن تمتد. وهي أيضا أداة لتنفيس الضغط النضالي للقوى المؤمنة على القيادة الانتهازية وفي هذا الإطار أيضا علينا أن نفهم الانتصار على القوى الصليبية ومع بعض الاختلاف ويشاء الله سبحانه أن يدفع للأمة الإسلامية بقوة شابة صاعدة ممثلة في الدولة الإسلامية العثمانية. فتدفع الحدود الإسلامية باتجاه الاتساع وتوقف إلى أمد الهجمة الصليبية الشرسة على العالم الإسلامي بل وتنزل بها ضربات قاسية ومؤلمة. ولكن ما كان لهذه القوى أن تستمر حيث إنها فقدت شرطا أساسيا من شروط الاستمرار وهو أنها استبدلت بقوة الجماهير المؤمنة المجاهدة نظاما عسكريا نظاميا. كان لابد أن يتلاشى أو يسقط مهما كانت قوته. كما أنها لم تتمثل النظرية السياسية الإسلامية تمثلا صحيحا فغيبت الجماهير عن أداء دورها. وهكذا فمهما كانت قوة الدفع فإن الضمان النهائي والوحيد لاستمرار انتصار القوى الإسلامية هو عدم عزل الجماهير عن أداء دورها فالجماهير المؤمنة الواعية هي الضمان الوحيد لاستمرار رسالة الإسلام. وهي الضمان ضد الانهيار والضغط على بنيان الأمة سواء من الداخل أو من الخارج.

وهكذا فإن قوى الشيطان قد وعت درس الحملة الصليبية جيدا وأدركت أنه لن يكفي ضرب الأداة العسكرية للأمة الإسلامية لإسقاطها ولكن لابد من ضرب الجماهير المؤمنة وطليعتها عبر تدمير هويتها الإسلامية وتزييف وعيها وإخراج تلك القوة الاحتياطية الهائلة من الساحة تماما وإلا فإنها ستظهر من وقت لآخر من تحت الرماد وكنار عملاقة تحرق في طريقها كل شيء.

فكانت الحقبة الاستعمارية التي ركزت على هدفين:

١- محاصرة العالم الإسلامي جغرافيا (الكشوف الجغرافية) وضرب أداته العسكرية.

٢- عملية غزو ثقافي وحضاري شامل وغسيل مخ مستمر لتغييب وتدمير القـوى الاحتياطية الكامنة (قوة الجماهير المؤمنة وقيادتها الطليعية) وذلك عبر:

(أ) تشجيع إقامة حكومات غير جماهيرية لا تسمح للجمـاهير بالمشـاركة في أداء مهمات الحكم والحياة وذلك عبر خلق تناقضات طبقيـة واجتماعيـة، فتـارة يسـمح للبرجوازية (كطبقة) بالصعود إلى السلطة وتكريس تقييد الجماهير عـن أداء دورهـا. (المرحلة الليبرالية).

أو عبر خلق فئة العسكرتاريا بالتحالف مع قطاعات صغيرة من الطبقة المتوسـطة وتحقيق تغيرات اجتماعية محددة (دون مشاركة من الجماهير) ثم يتم مصادرة تلـك المكاسب مرة أخرى في مقابل الضرب المستمر لقواعد الحركة الإسلامية وجماهيرها وقياداتها.

(ب) خلق فئـة مـن الرأسـمالية الطفيليـة المرتبطـة بمصـالح الغـرب وفئـة مـن المثقفين المشوهين الذين يزاولون عمليـة غسـيل المـخ المسـتمر وليكونـوا الوجـه الآخر لعملية الضرب المستمر للإسلاميين والتبرير النظري لذلك.

وهكذا ضربت الحركات الإسلامية الشعبية بلا هوادة ولا رحمة على أيدي أنظمـة عميلة وتم تصفية واغتيال وشنق وسجن كل من ينتمي إلى الطليعة المؤمنة.

إلا أن ذلك الضرب ضد القوى المؤمنة تم عبر عدة مراحل:

المرحلة الأولى:

إسقاط الخلافة وضرب ما تبقى من النظرية السياسية الإسلامية.

المرحلة الثانية:

زرع كيان يهودي عنصري في قلب الأمـة يحـول دون ظهـور تلـك الطليعـة مـرة أخـرى ويشـكل ذراعـا فولاذيـا لضـرب تلـك الطليعـة، بـل وضـرب حتـى مجـرد احتمالاتها الجنينية في رحم الأمة.

وهكذا أصبح شكل الصراع في تلك الحقبة هو صراع بين القوى الشيطانية ممثلة

في الحركة الصهيونية بدعم كامل من الغرب الصليبي (أمريكا وأوروبا).

وذلك في مواجهة القوى الربانية التي تمثلها جماهير مؤمنة بقيادة طليعة واعية مع ملاحظة وجود حاجز قوي يمنع الطليعة من أداء دورها وهي أنظمة الحكم العميلة التي لا تكتفي بمجرد منع الطليعة من أداء دورها بل تطاردها وتنكل بها.

وفي إطار ما تقدم. فإن الهدف الحالي للقوى الشيطانية هو ضرب الجماهير المؤمنة وطليعتها وضرب حتى احتمالاتها الجنينية.

وبذلك يكون هذا الفهم مدخلا لفهم طبيعة الصراع في المنطقة. يأخذ الصراع الإسلامي الصهيوني شكله الخاص عبر مستويين:

المستوى الأول:

يمثل تناقضا جوهريا بين الطليعة المؤمنة وجماهيرها وبين رأس الحربة الشيطانية إسرائيل. كما ينبغي فهم تناقض رئيسي آخر بين الطليعة المؤمنة وبين الحكومات العميلة وبقدر ما تكون تلك الحكومات شرسة في منع الجماهير عن أداء دورها تجاه صراعها مع إسرائيل بقدر ما يزيد تناقض الجماهير مع تلك الحكومات.

المستوى الثاني:

هو التناقض الثانوي بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل وذلك يعني أنه برغم أن الطرفين في النهاية في خندق واحد ضد الجماهير المسلمة إلا أن ثمة تناقضا ثانويا موجودا بين تلك الأنظمة وبين إسرائيل.

وينبغي علينا الآن أن نفهم شروط وظروف كل من المستويين.

***

ولنبدأ بالمستوى الثاني:

١ - قلنا إن التناقض بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل ليس تناقضا جوهريا وبالتالي فإن ذلك التناقض يمكن أن يحل عبر التفاوض وبذلك يمكننا أن نقول إن التفاوض سمة أساسية من سمات الصراع بين الأنظمة العربية وإسرائيل.

٢- إن تلك الأنظمة بما أنها لا تملك تناقضا جوهريا مع الكيان الصهيوني فإنها لن تواصل القتال ضده حتى النهاية، ولكنها في إدارة الصراع مع العدو الصهيوني تحاول أن تكسب مجرد أوراق تساوم بها من ناحية ومن ناحية أخرى تسحب البساط من تحت أقدام الجماهير المؤمنة باعتبارها يمكن أن تكون نائبا عنها. وهكذا فإنها أنظمة مساومة تمتلك هامشا من المصالح يتطابق مع وجود إسرائيل وهامشا آخر تشكل إسرائيل خطرا عليها فيه، وبالتالي فإن شكل الصراع يأخذ ذلك المستوى.

٣- إن تلك القوى مهما كان شكلها ستسقط في النهاية في الحقبة الإسرائيلية لأنها لا تملك مبررا أيديولوجيا. للاستمرار حتى النهاية.

٤- إن تلك القوى والأنظمة تحاول استثمار حركات المد الجماهيري ضد إسرائيل لصالح تحسين ظروف التفاوض ليس إلا. بل وعلى استعداد أن تبيع دم الشهداء مقابل ثمن بخس.

٥- إن تلك القوى ليست على استعداد لترك الجماهير لممارسة حقها المشروع في مقاومة الغزوة الصهيونية لأن هذا خطر عليها هي أو صار هذا ما يحدث دائما في ضرب الأنظمة العربية لأبسط أشكال الرفض للغزوة الصهيونية وما حدث في منع حتى المظاهرات ضد إسرائيل في غزوها للبنان. منع وصول المتطوعين..

خصائص وشروط المستوى الأول:

١- التناقض الجوهري بين الجماهير المسلمة وبين إسرائيل يستمد أساسا من وعي تلك الجماهير أن إسرائيل ليست إلا آخر أشكال الصراع بين القوى الإلهية والقوى الشيطانية وأنها في هذه المرة تستهدف قلب الأمة المسلمة وعقلها معا وبالتالي فإنه صراع حضاري في جوهره وصراع فناء، فإما أن نكون وإما ألا نكون، وهكذا فإن الجماهير المؤمنة عاشت شعار «إن قضية فلسطين هي القضية المركزية للحركة الإسلامية». بطريقة فذة (فكل نظام يريد أن يقوم لابد أن يدخل من بوابة هذه القضية وكل نظام يسقط يسقط أيضا من هذه البوابة)...

٢- أن الجماهير المؤمنة بما أنها وعت شكل وحقيقة الصراع لا تملك أن تختار

إلا طريقا واحدا وهو حرب التحرير الشعبية الإسلامية طويلة المدى وإعلان الجهاد المقدس.

٣- أن الجماهير المؤمنة ترفض تماما طريق المساومات والتفاوض وخلافه بما أنها فهمت حقيقة الصراع.

٤- أن الجماهير المؤمنة يجب أن تعرف شروط وظروف عملها في إطار الأنظمة العميلة وفي إطار الهجمة الغربية الشرسة وفي إطار الزمان والمكان وعليها أن تدرس طبيعة التناقضات الموجودة في الساحة وتستفيد منها، وعليها أن تفرز حلفاءها وأعداءها بوضوح، وبالتالي فإن مهمات تلك الجماهير سنؤخرها إلى آخر الدراسة.

وانطلاقا مما تقدم ينبغي علينا أن نضع تحت الدراسة بعض الوقائع التاريخية الآتية التي توضح دور الجماهير المسلمة ودور الأنظمة كمحورين للصراع ضد إسرائيل ومراحل ذلك الصراع:

- ظهرت إسرائيل على يد اليهود وبدعم من الإنجليز البروتستانت (وعد بلفور).

- اعترف بها بمجرد إعلانها في ٤٨ أمريكا الصليبية وروسيا الشيوعية بل والأحزاب الشيوعية في العالم العربي والإسلامي.

- أيدها المسيحيون وبخاصة المارونيون في لبنان بمجرد قيامها بل دعوا إلى ذلك دعوات صريحة «يقول المطران مبارك في كتاب صدر سنة ١٩٤٨ إذا لم تقم لليهود دولة في فلسطين سوف يتعذر أن نعيش مع العرب في صعيد واحد ولم يكتف هذا المبارك بهذه الركلة فقط، ولكنه طاف بكل كنائس العالم وأمريكا ليلتمس من دولها في هيئة الأمم إنشاء وطن مسيحي في لبنان ليتعاون مع الوطن اليهودي في تأديب العرب.

وتحليل دور المسيحيين في إطار الحركة الإسلامية في آخر الدراسة.

- قامت الجماهير المسلمة بانتفاضات دموية قبل مطلع الثلاثينيات كانت الأولى سنة ١٩٢٠ والثانية ١٩٢٣ والثالثة سنة ١٩٢٩ وفهمت الجماهير المسلمة بحسها العميق أن الصراع ضد طرفي الهجمة بريطانيا والصهاينة مع ملاحظة أن التنظيمات

الداعية إلى مهاجمة بريطانيا كانت جمعية الشباب المسلم في حيفا ذات الصلة الوثيقة بالشيخ القسام.

وعلى الوجه الآخر تظهر الزعامات المحلية والعربية غارقة حتى أذنيها في الوسطية والتفاوض. بل وتقف كل القوى غير الإسلامية مواقف مشبوهة «يلاحظ موقف الشيوعيين الفلسطينيين من الانتفاضات».

– انتفاضة سنة ١٩٣٦ في حين كانت الجماهير تقدم دمها على ساحة الجهاد، وكانوا هم خارج الساحة يقودون المعركة وبعد ستة أشهر من الجوع والقهر، جاء الزعماء العرب في الممالك العربية (مصر والأردن والسعودية والعراق) ليأمروا الجماهير المسلمة التي تنزف دمها بإيقاف المعركة الأولى لأن الصديقة بريطانيا ستفهم مطالبنا في جلسات التفاوض القادمة.

– وعت الجماهير المسلمة في تلك اللحظات كيف أن الزعماء ليسوا على استعداد للذهاب حتى النهاية في النضال خوفا على مصالحهم فطرح عز الدين القسام نظريته الفذة في العمل التنظيمي الجماهيري الذي يعتمد على الجماهير الغفيرة المسلمة (عمال – فلاحين – بائعي جاز) ويتخذ الجهاد الإسلامي المسلح طريقا وحيدا. ولأن جماهير الأمة المسلمة هي صاحبة المصلحة في التصدي للغزوة الصهيونية ولأنها هي القادرة حتى النهاية فإن طريق القسام مازال يتحرك حتى اليوم عبر ذلك التاريخ. مع ملاحظة أن القوى السياسية خارج الإطار الإسلامي تتحرك لتحجيم دور الجماهير ومنعها من أداء رسالتها.

وقد تم ذلك عبر عدة مراحل:

(أ) المرحلة الليبرالية: الزعماء العرب يطرحون الليبرالية كشعار لهم ويمنعون الجماهير من الوصول إلى مراكز السلطة بالقمع والخداع مع ظهور تفاوت طبقي ضخم ولقد خاضت تلك الأنظمة مكرهة تحت ضغط الجماهير معركة سنة ١٩٤٨ ولكن ما كان أسهل على العصابات الصهيونية أن تضرب تلك الأنظمة ضربات قاتلة ليس لأنها أقوى من جيوشها ولكن لأن قادة تلك الجيوش بما يمثلونه من طبقات

وفئات اجتماعية ليس بينهم وبين إسرائيل تناقضا جوهريا فضلا عن أن ما يمثله هؤلاء من الليبرالية ليس إلا جزءا من الحضارة الغربية فكيف يستطيع أن يتحدى مثله الأعلى (لاشك أن إسرائيل تمثيل أكثر جودة للحضارة ولاشك أن الأنظمة العربية تمثيل متخلف للحضارة الغربية).

كما أن تلك الأنظمة قد دخلت الحرب كتنفيس لضغط الجماهير المسلمة عليها فهي ليست جادة في دخول الحرب.

وعلى الطرف المقابل تقوم الجماهير المسلمة والطلائع الواعية بالقتال البطولي مكملة طريق القسام (قام الإخوان المسلمون بقيادة البطل أحمد عبد العزيز بالقتال البطولي الرائع ضد اليهود وإلحاق قدر كبير من الخسائر بهم وكذلك المجاهد البطل فوزي القاوقجي وعبد القادر الحسيني. إلا أن الأنظمة العربية تمنع الجيوش الجماهيرية المسلمة من إكمال انتصارها فتوقع هذه الأنظمة اتفاقية الهدنة بل إن الملك عبد الله ينسحب من اللد والرملة تاركا إياها لليهود ليحتلوها.

وهكذا تنتهي حرب ١٩٤٨ لتدرك الجماهير المؤمنة أن عليها أن تناضل بشكل جذري ضد تلك الأنظمة العميلة التي حالت دون انتصارها وأدت بخياناتها إلى ضياع قلب الأمة الإسلامية وهكذا فإن حرب ٤٨ أدت إلى:

١- انتهاء حقبة الليبرالية العربية وإفلاس تلك الأنظمة وعدم قدرتها على الاستمرار فجاءت الخمسينيات لتحمل لنا أنظمة العسكر.

٢- أن التناقض الرئيسي هو بين الجماهير المسلمة وبين إسرائيل.

٣- أنه ليس ثمة تناقض رئيسي بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل.

مرحلة حرب ١٩٦٧:

لم تنقطع نضالات الجماهير المسلمة داخل الأرض المحتلة وخارجها ضد إسرائيل ولكن نلاحظ أن فترة ٤٩ – ٦٧ كانت تحمل بوجه خاص محاولة لسحق الكيان الإسلامي للأمة على كل المستويات حتى البسيطة منها، (اغتيال وشنق وسجن العديد من قيادات الحركة الإسلامية) مع تصاعد مد علماني قومي اشتراكي

على المستوى الثقافي والفني والمؤسسي. ويأتي عام ٦٧ لتتكرر نفس المأساة فالقيادة (هذه المرة الاشتراكية القومية) تترك جيوشها لتسحقها إسرائيل سحقا دون أن تطلق رصاصة تحت ستار مهزلة انسحاب مازالت تحمل الكثير من الأسرار غير المفهومة على المستوى التفصيلي، ولا داعي لأن نكرر أن نفس تلك الأنظمة بما تمثله من قوى وأيديولوجية غير قادرة على مواجهة مثلها الأعلى (الحضارة الغربية) التي هي جزء ممسوخ ومشوه لها كما أنها لا تملك في الأساس تناقضا مع الكيان الصهيوني (يلاحظ بعض الطروح الغربية في تلك الفترة عن وحدة البروليتاريا العربية والإسرائيلية وغيرها من الترهات التي صدعنا بها السادة اليساريون في تلك الحقبة).

وهكذا يأتي عام ١٩٦٧ لينهي رسميا حقبة الاشتراكية وإن كانت بعض تلك الأنظمة قد عاشت بعدها إلا أنها عاشت في الوقت الضائع من عمرها مهما طال ذلك الوقت. وذلك بسبب عدم قدرة الحركة الإسلامية على التقدم والقيام باستلام زمام الأمة لأسباب خاصة.

وهكذا فإن الهجمة الصليبية الصهيونية منذ عام ١٩٦٧ قد استطاعت أن تحل تناقضاتها مع الأنظمة العربية لصالحها وما عليها إلا أن تتقدم لتصبغ كل شيء بالصبغة الإسرائيلية ولتفتح عصر الحقبة الإسرائيلية وخصوصا أن الحركة الجماهيرية المسلمة قد تم ضربها ضربات موجعة وبدا أن تلك الحركة لم تعد قادرة على التصدي للهجمة الصهيونية داخل كيان الأمة وعقلها ووجدانها ولكن هيهات.

تبدو ملامح تلك الفترة في:

١- إقامة أنظمة عميلة مباشرة للقوى الإسرائيلية بمعنى أنها تتلقى أوامرها مباشرة من شارون وبيجين.

وهذه الأنظمة أنظمة تلفيقية لا تملك أيديولوجية محددة فهي تارة ديمقراطية اشتراكية أو قومية أو....

٢- أن تلك الأنظمة لا تملك أي تناقض مع إسرائيل بل إن تناقضها الأساسي مع الجماهير.

٣- أنه لتحرير الحقبة الإسرائيلية ينبغي تحقيق نوع من الانتصار المزيف لتلك الأنظمة تملك بعده أن توقع على صكوك الاستسلام الكامل لإسرائيل.

٤- يتم تزييف الثقافة والفن بشكل كامل لصالح إسرائيل (رفع كل ما يمت للتاريخ الحقيقي بصلة من المدارس – إغراق الأسواق بالأفلام والكتب والسلع ذات التوجه الإسرائيلي – منع خطباء المساجد من ترديد آيات القرآن التي تسب بني إسرائيل).. إلخ.

ملاحظة هامة جدا:

* ظهرت كثير من البطولات الإسلامية في سيناء والجولان بدوافع شخصية إسلامية بحتة بل وقام عرب سيناء المسلمون بكثير من العمليات العسكرية ضد إسرائيل ولم يفصح النظام عنها تمهيدا للحقبة الإسرائيلية.

* برغم الضعف الشديد للحركة الإسلامية في تلك الحقبة إلا أن الحركة الإسلامية قد تصدت لتلك الحقبة بشكل قوي جدا أسهم في تأخير الحقبة الإسرائيلية وتقليل كثافتها بشكل كبير جدا ممثلا في:

١- حركة الشيخ حافظ سلامة في الدفاع عن مدينة السويس الباسلة، والضرب الموجع للقوى العسكرية الإسرائيلية على مشارف السويس، وتنظيم حركة شعبية إسلامية داخل المدينة وقفت حائلا دون دخول اليهود للمدينة.

ولقد كان لموقف الجماهير بقيادة الشيخ حافظ سلامة أثر كبير في عدم حبك تمثيلية كيسنجر لطبخ التسوية.

ملاحظة:

اعتقل الشيخ حافظ سلامة في سبتمبر سنة ١٩٨١ وظل في السجن أطول مدة حيث لم يخرج إلا في يناير سنة ١٩٨٣ كان قد أفرج عنه ثم أعيد اعتقاله.

٢- حركة المقاومة المستمرة لاتفاقية كامب ديفيد من قبل الأطراف الإسلامية ويلاحظ حركة الشيخ أحمد المحلاوي في رفض كامب ديفيد. وكذلك جماهير الأرض

المحتلة بقيادة المشايخ الثوار.

وهكـذا فإنــه في الفتـرة مــن ســنة ١٩٦٧: ١٩٨٢ نلاحـظ أن نفـس الأشـكال والخصائص مازالت متمثلة.

- أنظمة وقوى سياسية جزء من الهجمة الغربية تسـقط تباعـا في كامـب ديفيـد - كامب فاس. مبادرة فهد.

- وعـلى الجانـب الآخـر حركـة الجمـاهير المسـلمة - حـافظ سـلامة - أحمـد المحلاوي - أسعد التميمي - عبد العزيز عودة.... إلخ.

* قلنا إن الأنظمة العربية لم تعد تملك تناقضا مع إسرائيل والهجمة الاستعمارية، ووقعت في شرك العمالة المباشـرة لإسـرائيل وسـحبت بنـادق جيوشـها مـن اتجـاه إسرائيل إلى اتجاه قلوب الجماهير المسلمة وإن وظيفتهـا في تلـك المرحلـة سـتكون ضرب الجماهير المسلمة بـلا هـوادة وتغييبهـا وتزييـف وعيهـا إلا أن سـقوط تلـك الأنظمة سيكون متفاوتا بحسب الظروف الذاتية والموضـوعية لكـل منهـا. وقلنـا إن الجماهير المسلمة هي وحدها التي تملك تناقضا جوهريا وبالتالي تملك القدرة عـلى التصدي لإسرائيل. وظهر مما سبق وطبقا لهذا التحليل أن الأنظمة العربيـة لم تخـض معركة واحدة مع إسرائيل وأنها كانت تهزم قبل أن تدخل المعركة وأن القوة الوحيـدة التي استطاعت أن تحقق انتصارات تكتيكية ضد إسرائيل هي قوة الجماهير المسلمة وأنها قادرة على الانتصار النهائي ما لم تحل الأنظمة العربية دون ذلك.

وهكذا تبدأ الثمانينيات وقد فرزت القوى على النحو الآتي:

(أ) قوة الجماهير المسلمة بما لها من مصلحة في الصراع وبمـا أنهـا تـدرك بعـده التاريخي والحضاري. وبما تملك من حصانة ربانية خاصة وهي غير قابلـة للهزيمـة وإن كانت حتى هذه اللحظة غير قادرة على النصر وغير مسموح لها بتحقيقه.

(ب) الأنظمة العربية بكافة تياراتها واتجاهاتها وهي تفقد كل تناقضاتها مع الكيان الصهيوني بل وتملك هامشا من المصلحة المشتركة مع الكيان الصهيوني وتعـرف إلى

من توجه بنادقها. وبالطبع تتفاوت هوامش المصلحة وتتفاوت سرعة السقوط ومداه من نظام إلى نظام وتفرز تلك القوى إلى:

١- الأنظمة الرجعية العربية بقيادة فهد. وهي الآن لم تعد تملك أي تناقض مع الكيان الصهيوني وعلى استعداد للذهاب إلى النهاية لتكريس الحقبة الإسرائيلية.

٢- بعض الأنظمة العربية ولظروف خاصة مازالت تملك تناقضا شكليا مع الكيان الصهيوني نظرا لبعض الظروف (النظام السوري مازال نظاما خائنا وعميلا وبشعا وقذرا حتى النخاع ولكن لأن شكل التسوية في المنطقة يستبعده بشكل أو بآخر ولا يعطيه نصيبا طيبا فإنه مازال يرفض دون أن يكون لديه مبررات أيديولوجية أو تاريخية للرفض).

٣- ليبيا مثلا يأخذ العقيد القذافي موقفا دون كيشوتيا بدون لا نظرية ولا أيديولوجية ولا حتى رغبة في البحث عن ذلك.

٤- المقاومة الفلسطينية وهي التي مازالت تحمل تناقضا ما مع الكيان الصهيوني، ولنعرف الآن لماذا برغم أن منظمة التحرير بتكوينها الحالي وتوجيهات قياداتها وأيديولوجيتها لن تختلف كثيرا عن الأنظمة العربية بمعنى أنها مازالت تطرح نفس الطروحات التي ثبت فشلها من ليبرالية يمينية (السرطاوي) – وقومية وطنية «فتح» ويسارية بمختلف الدرجات.

الجبهة الشعبية: جورج حبش – نايف خواتمة.. إلخ.

وبمعنى أنها مادامت جزءا من الطرح الغربي. فهي ليست قادرة على التصدي لرأس الحربة الغربية كما أنها وبسبب فقدانها لرؤية تاريخية علمية أيضا سيتناقض سريعا هامش تناقضها مع العدو الصهيوني

وما تلبث أن تسقط في النهاية. لأنها بتكوينها هذا لا تملك أن تظل حتى النهاية في مواجهة العدو الصهيوني.

* يلاحظ في هذا الإطار تحركات السرطاوي وطروحاته الأمريكية.

* استعداد عرفات لتبادل الاعتراف بإسرائيل فضلا عن طرح المنظمة لقضية الدولة العلمانية بمعنى فقدان الرؤية التاريخية تماما.

* تحركات عرفات باتجاه الملك الخائن حسين وباتجاه كامب ديفيد.

* استعداد نايف حواتمة لجذوره العلمانية لشكل ما من أشكال الدولة الديمقراطية العلمانية في إسرائيل وبالتالي فإنه لا يملك تناقضا تاريخيا مع الكيان الصهيوني.

وهكذا فإن منظمة التحرير والمقاومة الفلسطينية عموما سوف تسقط في النهاية في الحقبة الإسرائيلية نظرا كما قلنا لفقدانها الرؤية التاريخية وممارستها لهذا الوضع الاستكباري مدة طويلة وعدم فهم أبعاد الصراع ثم مباشرة الصراع بذات الأدوات التي ثبت فشلها في ٤٨ وفي ٦٧.

ولكن يبقى شيء هام، أن المقاومة الفلسطينية مازالت تملك قدرا من التناقض تجاه العدو الصهيوني. فضلا عن عدم قدرتها على ممارسة المرونة إلى آخر المدى تجاه العدو نظرا لـ:

١ - أن المنظمة والمقاومة قامت أصلا بفعل الشرعية الثورية وكرد فعل لإفلاس الأنظمة في مواجهة إسرائيل عسكريا وبالتالي فإن قدرة قيادة المنظمة على المهادنة أقل من قدرة أي نظام عربي.

٢ - أن جسم المنظمات وكوادرها هو في النهاية من الجماهير المسلمة ذات الحس التاريخي الخاص وبالتالي فإن قدرتها على المناورة تبدو أقل كثيرا وليس أمامها إلا استمرار التلويح بالقتال والجهاد والكفاح المسلح إذا أرادت أن تحافظ على وجودها على رأس المسلمين الشرفاء الذين أقسموا على الدم يوم أن أعطوها قيادتهم.

٣- أن جماهير الأرض المحتلة من المسلمين مازالوا متمسكين بالهوية الإسلامية للصراع ولا تستطيع إغفال ذلك المتغير.

٤- أن قادة المقاومة يملكون قدرة أقل على قمع الجماهير نظرا لظروف تركيب وتواجد المنظمة على أرض ليست هي أرضها في النهاية.

٥- أن الذين خاضوا المعارك مع المنظمة من الجماهير المسلمة في لبنان وغير لبنان مازال على المنظمة واجبا أدبيا تجاههم.

٦- أن الأرض الفلسطينية مستهدفة بالكامل من العدو الصهيوني في المرحلة الحالية. وبالتالي فهامش المناورة صغير.

واصطدام المصالح على تلك الأرض مازال موجودا.

طبيعة الكيان الصهيوني

لكي نستطيع أن نواجه التحدي الصهيوني الذي يمثل رأس الحربة الشيطانية بتحد مكافئ له ينبغي لنا أن ندرس طبيعة هذا الكيان من حيث نشأته ومن حيث طبيعته ومن حيث توجهاته.

المجتمع التوراتي:

تستطيع أن تقرر بكل حزم أن المجتمع الصهيوني هو مجتمع توراتي تماما من حيث نشأته، من حيث طبيعته ومن حيث توجيهاته ولا داعي أن نكرر أن الصهاينة يلغون النصوص ويحرفونها ليؤيدوا وجهة نظرهم فهذا ليس من موضوع بحثنا.

ومسألة توراتية المجتمع الصهيوني واضحة تمام الوضوح في كل قواه السياسية وكافة الاتجاهات من يمين ويسار وحتى ملحدين.

«نشأ هذا البلد تنفيذا لوعد العرب ذاته ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحا عن شرعية هذا الوجود».

جولدا مائير في تصريح لها لـ «لوماند» الفرنسية بتاريخ ١٥ مايو عام ١٩٧١ «لاحظ أن جولدا مائير رئيسة حزب العمل الإسرائيلي»:

«لقد وعدنا هذه الأرض ولنا الحق فيها».

بيجين في أوسلو ونشرته صحيفة دافار عدد ١٤ ديسمبر سنة ١٩٧٨ وبيجين من كتلة ليكود:

«إذا كنا نملك التوراة وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضا بلاد التوراة، بلاد القضاة، أرض أورشليم وحيرون وأريحا وأماكن أخرى» تصريح موشى ديان لجيروزاليم بوست في ١٠ أغسطس سنة ١٩٦٧.

وهكذا يتردد دائما على ألسنة الزعماء الصهاينة نفس الشعارات سواء كانوا من اليمين أم من اليسار، أعضاء في حزب العمل أو في كتلة ليكود ناطقين باسم الجيش أو باسم الحاخامية. التوراة ترسم كل شيء في إسرائيل.

ترسم ثقافة الأطفال في المدارس بناء على توجيه بن جوريون فإن الدين اليهودي في إسرائيل يدرس كمادة إجبارية في الدراسة.

الزواج في إسرائيل زواج ديني ولا يوجد زواج مدني كما أنه لا يوجد في دولة إسرائيل دستور لأن التوراة هي القانون الأساسي للدولة.

كما أن التوراة ذاتها تعرف المواطن وتحدد من هو الإسرائيلي وهي ذاتها تحدد حدود الدولة بل وتبرر الحرب والإرهاب.

* علينا ألا ننسى أجزاء التوراة التي تبرر هذه الحرب. فنحن نؤدي واجبنا الديني بتواجدنا هنا فالنص المكتوب يفرض علينا واجبا دينيا وهو أن نغزو أرض العدو. صحيفة هاريتس ٥ – ٧ – ١٩٨٢. على لسان حاخام برتبة نقيب.

والمذابح ابتداء من دير ياسين وحتى «صابرا وشاتيلا» تبررها التوراة.

«وحرقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل ومسن وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» سفر يسوع الإصحاح ٦ الآية ٢١.

وإن تصريح شعار دولة علمانية ديمقراطية في إسرائيل مجرد إلهاء ولهو. لأننا رأينا كيف أن الكيان الصهيوني، كيان توراتي حتى النخاع وبالتالي فإن من يطرح هذا الشعار كمن يدفن رأسه في الرمال أو يريد مواجهة مجتمع بأسلوب لابد أن يفشل

معه وليس مكافئا له وهو يسحب سلاح الجماهير المسلمة منها ولا يسحب سلاح الصهاينة منهم وبالتالي فهو طرح خائن ومرفوض فضلا عن أن هذا الشعار مرفوض تماما في إسرائيل فإسرائيل في نشأتها وطبيعتها لا تنفصل عن التوراة وإلا سقطت وبالتالي فإننا حين نطرح أن الصراع يجب أن يكون قرآنيا فإننا بالتالي نعطي تحديا مكافئا فضلا عن أن أمتنا لا تتحرك إلا من خلال قرآنها. وبالتالي فإنها حضارة توراتية بكل ما تملكه من إرهاب وعنصرية أمام حضارة قرآنية بكل ما تملكه من حرية وإخاء والصراع صراع حضاري.

المجتمع الصهيوني مجتمع عنصري يدعي الصهاينة أن كل يهود العالم اليوم من ذرية جنس واحد وكتلة واحدة بأمر الرب.

وهذه العنصرية تقوم أيضا على أساس توراتي وتستمد وجودها من عناصر التوراة التي حرفها اليهود، وهكذا فإن اليهود هم شعب الله المختار، وبقية العالم عبيد لهم. وهي فكرة مرفوضة من علم الأنثربولوجي وعلم الآثار ومرفوضة أيضا تاريخيا. ولكن يجب علينا كجماهير مسلمة. أن نطرح في مواجهتها شعار الأممية الإسلامية بمعنى أن نطرح شعار الظاهرة الثقافية في مواجهة الظاهرة العنصرية والظاهرة الرسالية المتفتحة على كل المستضعفين في مواجهة القومية الدينية الضيقة الأفق.

والإسلام يرفض فكرة العنصرية والعرقية ويطرح المسلمون أن كل مستضعفي العالم من مسلمين وغير مسلمين في خندق واحد أمام كل القوى الشيطانية حتى لو كان فيهم مستكبرون يتسمون بأسماء إسلامية. إن جماهير المسلمين تطرح رسالة يقوم بها الإسلاميون التي يمكن أن ينتسب إليهم أي شخص بصرف النظر عن جنسه ولونه ويتحالف مع الإسلاميين كل المستضعفين ويدافع هذا المعسكر عن كل المستضعفين حتى لو كانوا يهودا وهذا يسقط شعار القومية العربية في مواجهة القومية اليهودية.

الأسطورة التاريخية:

ووفقا لنصوص التوراة فإن الصهاينة يحاولون تلفيق التاريخ في المنطقة بشكل

يجعل لليهود حقا تاريخيا في فلسطين. وهكذا فإن اليهود يستعملون كل طاقتهم التاريخية في حشد قواهم ضد أمتنا وحضارتنا وبالتالي فإن أي طرح يجابه هذا التحدي يكون غير متكافئ ما لم يحشد طاقتنا التاريخية والحضارية أمامهم وهكذا فإن على الجماهير المسلمة أن تتسلح بالوعي التاريخي ابتداء من خيبر واقتحام القدس وتحريرها على يد عمر بن الخطاب لتستطيع مواجهة ذلك التحدي الحضاري.

أسطورة الصحراء الخالية:

روج الصهاينة لأسطورة أن أرض فلسطين شبه صحراوية وأنها لا زرع فيها ولا ضرع وعلى من شاء أن يأتي للحصول على ما يشاء من الأرض، هذا من ناحية ومن ناحية فإنهم يروجون للمعجزة الإسرائيلية الاقتصادية في أرض فلسطين.

وعلينا كجماهير مسلمة أن نواجه ذلك التحدي بما يلي:

- دراسة البيئة الاقتصادية للمنطقة وإثبات أنها لم تكن يوما ما صحراء.

- إثبات تآمر الرجعية العربية والأسر الإقطاعية مع الصهاينة في محاولة نهب الأراضي التي كانت مزروعة ولم تكن صحراء.

- التشبث بشدة بالبقاء بالأرض المحتلة ودعم صمود الأهالي داخل الأرض المحتلة، بل ودعمهم اقتصاديا لإقامة كيان اقتصادي عربي داخل الأرض المحتلة.

- دعم عملية التصنيع في دول المواجهة وبناء حائط اقتصادي صلب.

***

الكيان الصهيوني كيان استعماري

لابد أن نقرر هنا أن الكيان الصهيوني هو جزء من القوى الشيطانية التي تستهدف أمتنا بحضارتها ومصالحها ووحدتها وطبيعتها بوجود رأس الحربة الشيطانية.

يقول هرتزل في كتابه «الكتلة اليهودية ستكون جزءا من حائط يحمي أوروبا من

آسيا وستكون بمثابة حارس يقف في الطليعة ضد البربرية» لاحظ أن آسيا هـي القـارة المسلمة وأن كلمة البربرية تعني المسلمين.

وهكذا فقد حدد هرتزل دور الصهيونية كجزء من القوى الاستعمارية وكحليـف أساسي لها وأنه سوف يؤدي دوره في ضـرب حركـة الجمـاهير المسـلمة والوقـوف كحائط أمام امتدادها.

والكيان الصهيوني كيان استعماري من نـوع اسـتيطاني وهكـذا فإنـه يعتمـد عـلى الإرهاب والإفناء في محاولة التفريغ للأرض من سكانها والحلول محلها وهكذا فإن كل يهودي يقيم في أرض إسرائيل فهو عدو لي مهما كان انتماؤه السياسي.

وإسـرائيل تعتمـد سياسـة التوسـع وبالتـالي فهـي كيـان اسـتعماري باسـتمرار اسـتعماري بطبيعتـه، واسـتعماري بتركيباتـه، واسـتعماري بارتباطاتـه الاسـتعمارية وبدوره في المنطقة، وهكذا فإن مقولة التحالف بين البروليتاريا العربيـة والإسـرائيلية التي يروج لها اليسار هـي مقولـة خائنـة ومرفوضـة وعلينـا أن نسـقطها لأن الكيـان الصهيوني كله كيان استعماري بكل انتماءاته وطبقاته وهكذا فإن الطرح المكافئ لهذا يتمثل في:

- ضرب كل المصالح الاستعمارية وليس ضرب اليهود وحدهم.

- اعتبار كل يهودي على أرض فلسطين

مستباح الدم.

- إن كل أساليب التفاوض والمهادنـة إلهـاء وتضـييع للجمـاهير وصـرفها عـن دورها الحقيقي.

- اعتبار حرب التحرير الشعبية الإسلامية هي الحل الوحيد.

الكيان الصهيوني كيان عسكري

تنفق إسرائيل أكثر من ٥٠ ٪ من ميزانيتها على الجيش وبذلك يمكن اعتبار الكيان الصهيوني كيانا توراتيا اسـتعماريا عسـكريا وهـذا يـدعونا لأن نواجهـه بأيديولوجيـة

إسلامية وحرب تحرير شعبية وصراع حضاري متكافئ. ودراستنا لطبيعة المؤسسة الإسرائيلية توضح بجلاء عبث الدخول مع الكيان الصهيوني في حرب جيوش ولكن ترك الجماهير المسلمة لتواجه الكيان الصهيوني بحرب طويلة المدى.

الكيان الصهيوني كيان فاشي:

والكيان الصهيوني بتركيبته وطبيعته وتوجهاته، كيان فاشي فالديمقراطية الإسرائيلية ديمقراطية بالنسبة لليهود وليست ديموقراطية بالنسبة لغير اليهود والتحدي المكافئ لهذا هو النضال المستمر لجماهير المسلمين من أجل انتزاع حريتها داخل بلدانها ومزيد من إبراز الوجه الحقيقي للإسلام كرسالة تؤمن بحرية الجماهير ومساواتهم.

بعض الملاحظات الهامة:

قضية العداء للسامية:

- معاداة اليهودية ترجع إلى أصل مسيحي وهي من مخلفات الفكر القسطنطيني الذي ورث تقاليد كهنة المعابد اليهودية وتقاليد الإمبراطورية الرومانية، فبعد أن كانت تلك الكنيسة مستضعفة أصبحت تمارس الاضطهاد بمجرد استيلائها على السلطة وراحت تصب غضبها على كل الأديان الأخرى سواء كانت وثنية أم يهودية ووجدت في اليهودية منافسا خطيرا ينبغي القضاء عليه، واتهمت اليهود بأنهم عندما رفضوا الاعتراف بأن يسوع هو المسيح فقد أصبحوا في عداد «قتلة الرب» – من كتاب برنا ولازار (اللاسامية) نشر عام ١٨٩٤.

- معادة اليهودية (اللاسامية) فكرة تخدم الصهيونية حيث إن أعداء السامية يريدون التخلص من اليهود ولو على حساب إقامة دولة لهم في أراضي الغير.

- إنه لم يثبت في تاريخنا أي اضطهاد لليهود على يد المسلمين.

- إننا كجماهير مسلمة ترفض العداء للسامية ونعلن تضامننا مع كل مضطهد. وإننا نرفض فكرة اضطهاد اليهود من أساسها، لأن هذا موقف يأباه ديننا الحنيف

ولكننا بنفس القدر نرفض أن ندفع ثمن اضطهاد غيرنا لليهود.

***

إسرائيل والاستعمار الغربي

علينا أن نفهم أن هناك صراعا جوهريا بين القوى الإسلامية والقوى الشيطانية وأن القوى الشيطانية تمثل في العالم:

- استعمارا غربيا، صليبيا، شيوعيا.

- كيانا صهيونيا.

- وأن هناك تناقضا أيضا بين تلك القوى وبعضها، وبالتالي فعلينا ألا نقع في وهم أن إحدى القوى يعمل لحساب الأخرى، ولكن علينا أن ندرك أن هناك مصالح مشتركة تجمع بينها.

أهمية إسرائيل للاستعمار الغربي:

١- أن الغرب الأوروبي يعرف خطورة مد الجماهير المسلمة عليه وبالتالي فإسرائيل تبرز باستمرار أنها تعتبر بالنسبة لأوروبا الحارس ضد البربرية (البربرية تعني المسلمين).

٢- تقوم إسرائيل بمهمة الشرطي في الشرق الأوسط وذلك للحفاظ على المصالح الغربية البترولية التي لم يعد الغرب – الولايات المتحدة – بقادر على أداء هذا الدور.

٣- تصل إلى مراكز الأبحاث الغربية ووزارات الدفاع معلومات متصلة من إسرائيل بشأن أنواع الأداء لمختلف أنواع الأسلحة التي لم تستخدم بعد، وهكذا يستطيع الجيش الأمريكي مثلا تجربة أسلحته المتقدمة في جيش إسرائيل، وهكذا فإن مقولة اليمين بأننا نستطيع إقناع أمريكا أو المجتمع الأمريكي بحقنا المشروع هو قول من قبيل التضليل، فقضية أهمية إسرائيل الاستراتيجية بالنسبة للاستعمار الغربي قضية محسومة.

أن هذا يدفعنا لإسقاط مقولة إن أوراق اللعبة بنسبة ٩٩.٥ ٪ أو أي نسبة مئوية أخرى بيد أمريكا وعلينا أن ندرك أن علينا أن نعتمد على أنفسنا في مواجهة إسرائيل ومعرفة أن إسرائيل ليست وحدها في المعركة ولكن الغرب، كل الغرب ضدنا ووفقا لمصالحه وهكذا فإن دراسة بنيان وطبيعة وتوجهات الكيان الصهيوني لمواجهة التحدي بتحد مكافئ، أبرز:

- أن الحرب حرب حضارة ضد حضارة.
- حرب انتماء.
- أنه ما لم نتسلح بأيديولوجيتنا الإسلامية فلا فائدة.
- أن حرب التحرير الشعبية الإسلامية طويلة المدى هي الحل الوحيد.
- أن الحروب النظامية بالنسبة لنا خسارة مؤكدة.

وهكذا فإن التحدي يبرز شعار:

«أيديولوجية إسلامية وحرب تحرير شعبية»..

وهي نفس المقولة التي يفرزها إسلامنا وقيمنا وواجبنا تجاه ربنا فليس هذا هو واجبنا تجاه الله فحسب ولكن جزء من طبيعة رسالتنا كما أنه هو التحدي الوحيد المكافئ للتحدي الصهيوني كما سبق أن بينا.

***

تتبع مراحل الصراع

من الدخول – إلى ٤٨ لقد وافقنا بريطانيا على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب إلى اليهود في عام ١٩٣٤ ولولا الثورات العربية المتلاحقة لتم إنجاز هذا في الموعد المحدد..

د. حاييم وايزمان في مذكراته «التجربة والخطأ» الصادرة عام ١٩٤٩ :

إن دراسة تاريخ دخول اليهود إلى فلسطين والصراع التاريخي الذي دار على

أرضها يعطي للوهلة الأولى النتائج الخطيرة التالية:

– أن جماهير المسلمين الكادحين (فلاحين – عمال – فقراء المدن) هم الذين وقفوا بصلابة في وجه الغزوة الصهيونية وتصدروا لها منذ اليوم الأول.. وتحت شعارات إسلامية.

– أن الوجهاء – الإقطاع – البرجوازية. قد نهجوا جميعا منهجا مهادنا (حلول وسط – مفاوضات – وفود... إلخ) ولم يطرح هؤلاء يوما الكفاح المسلح، بل دائما يعتمدون على وعود الصديقة بريطانيا. كما أنهم لم يطرحوا الشعارات الإسلامية لمواجهة الغزوة، بل طرح قطاع كبير منهم العلمانية.

وعلى كل حال فهذا أمر طبيعي جدا فالتناقض بين البرجوازية – الوجهاء وكل العلمانيين من جهة والصهاينة من جهة ليس إلا تناقضا ثانويا (هامش من المصالح المشتركة وهامش من المصالح المتضاربة).

ولكن الجماهير المسلمة الكادحة كانت دائما تملك رؤية فطرية لطبيعة ذلك الصراع. فضلا عن أن توجهاتها الحقيقية كانت دوما إسلامية وبالتالي فإن تركيبتها الشخصية ومصالحها الذاتية تقف مباشرة ضد الاحتلال الصهيوني.

ولا تملك أي قدر من المصالح المشتركة معه.

وهكذا فقد مارست تلك الجماهير المسلمة منذ أول يوم خطها الصحيح – أيديولوجية إسلامية – كفاح مسلح.

على أنه ينبغي فهم الصراع من منظور التناقض الرئيسي والأخذ في الاعتبار التناقضات الثانوية. وأن القوى تتحدد على النحو التالي:

قوى استعمارية:

(بريطانيا – الصهاينة) تستهدف إقامة كيان في فلسطين لليهود. يكون حاجزا ضد البربرية لحماية أوروبا منها كما يحدد ذلك هرتزل بنفسه. وهذا يحقق الهدف البريطاني وفي ذات الوقت يكون هذا الكيان بمثابة دولة لجميع يهود الشتات الذين

عانوا من الاضطهاد طويلا. وهذا يحقق هدف اليهود.

والطرفين اليهود – الإنجليز يستهدفان بهذا الكيان حضارة الأمة بأسرها – وتدمير التوجه الإسلامي لدى الجماهير بما أن الجماهير هي الحائط الأخير والصلب والذي لم ينهر يوما ولن ينهار بإذن الله في مواجهة المحاولات الشيطانية الصليبية واليهودية لتدمير الإسلام.

ويكمن التكتيك الشيطاني (يهود – إنجليز) في دفع ظروف الصراع باستمرار في اتجاه تغييب الجماهير المسلمة عن أداء دورها بما أنها تدرك عدم جدوى مواجهتها وذلك عبر:

– طمس معالم التناقض الجوهري وتصوير المسألة على أنها ليست صراع بين جماهير المسلمين وبين الاستعمار كله واليهود ولكن على أنه صراع بين القومية العربية مثلا والقومية اليهودية – والإنجليز على الحياد.

أو على أنه صراع بين الوجهاء – الإقطاع – البرجوازية والعلمانية وبين اليهود، وأن الجماهير ليست مستهدفة. أي في النهاية دفع التناقضات الثانوية لتحل محل التناقض الجوهري.

– دعم العلمانية العربية لتحل تدريجيا محل الإسلامية وليس بغريب أن تشجع بريطانيا التوجهات القومية لدى اللاشريف حسين وغيره على طول المنطقة وعرضها – وتشجيع كل الفكر العلماني من قومي واشتراكي وغيره وهذا أمر واضح بما لا يدع مجالا للشك وليس هذا محل دراسة تطور ذلك الأمر وأبعاده ولكن يكفي أن نقول.

– إن قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ كان عقب قيام الجامعة العربية ١٩٤٥ بتشجيع من الإنجليز واضح جدا.

– إن كل رواد الفكر العلماني كانوا من غير المسلمين.

– إن الحركات الشيوعية في المنطقة عموما أنشأها يهود. هنري كورييل وهليل شوارتز في مصر مثلا مع ملاحظة أن كل تلك التوجهات تنشط في إبان ارتفاع المد

الجماهيري في فلسطين.

- نشأت الحركة الشيوعية ونشطت في مصر مثلا في أعقاب ثورة ١٩٣٦.

قوى عربية علمانية:

غير إسلامية بالمفهوم الصحيح ويمكنها استخدام الإسلام أحيانا بشكل رجعي ومتآمر لتبرير خياناتها ولخداع الجماهير. وهذه القوى إما رأسمالية - رأسمالية زراعية - برجوازية صغيرة - اشتراكية.. إلخ. وهذه القوى تملك تناقضا مع الجماهير جوهريا أيضا وتملك تناقضا ثانويا مع الغزوة الاستعمارية الصهيونية وهي في صراعها تتسم بـ:

- عدم قدرتها على مواجهة الغزوة مواجهة علمية وفقا لطبيعة الغزوة وظروفها وعدم قدرتها على ممارسة الكفاح المسلح.

- نهج الحلول الوسط التي بها تضمن مصالحها. فهي تفاوضية ويمكنها في هذا الإطار أن تلعب دورين بمسألة التفاوض:

١- أن تستفيد من حركة الجماهير في تحسين ظروف التفاوض.

٢- أن تستخدم التفاوض ذاته في تخدير الجماهير وصرف انتباهها وتدمير حركتها وتحجيمها بالتالي. وسوف نفرد فصلا مستقلا إن شاء الله لدراسة طبيعة هذا المعسكر.

قوة الجماهير المسلمة:

وهي كما سبق تحليلها تتكون من الفقراء وتملك تناقضا رئيسيا مع الاستعمار والصهيونية معا وتدرك أن حضارتها ودينها وكيانها ومصالحها جميعا مستهدفة وهذا الباب لدراسة تطور صراعها مع الاستعمار في فلسطين على أنه ينبغي أن ننوه بأن المشكلة الرئيسية التي واجهتنا في هذا الصدد ليس قلة المعطيات التي تثبت نظريتنا في فهم الصراع ولكن كثرة هذه المعطيات إلى درجة مذهلة ورائعة. فالحقيقة أن هذا الصراع كان من الاستمرار والتنوع والإبداع رغم الظروف الصعبة إلى درجة أذهلتنا

وكان يمكن أن نستدرج إلى استطراد لا نهائي في تسجيل ذلك وهذا إغراء كبير. ولكن موضوع بحثنا لا يحتمل ذلك الاستطراد ولا قدرة الكاتب تسمح به وبالتالي فإني أدعو أن يكون هذا موضوع بحث مستقل يقوم به من هو أقدر منا وأكثر تخصصا لأنه بصراحة شديدة وبلا مبالغة فإن عطاء الجماهير المسلمين في فلسطين كان عطاء أسطوريا يجعل أقل الناس ذكاء يحني جبهته إعجابا لهذا الشعب المسلم البطل. ويجعل أيضا أقل الناس ذكاء يصل إلى حقيقة أن الجماهير المسلمة هي وحدها التي قاومت وهي وحدها صاحبة الحق في المصادمة وبالتالي فإن تغييبها أو تحريكها عن غير طريق الإسلام. خيانة كبرى.

وهكذا فإننا سنركز في اقتصار على تتبع ذلك الصراع وإثبات استمراريته وأصالته وسنورد رءوس موضوعات ليس إلا والتي تحتاج كل منها إلى دراسة مستقلة أدعو من جهتي كل من هو قادر على القيام بها ألا يتأخر لحظة عن ذلك. لأن جلاء تلك المسألة يعد الخطوة الرئيسية الأولى في القضاء على إسرائيل.

بداية الغزوة والظروف الموضوعية لعمل الجماهير المسلمة:

أرى من جهتي أن الغزوة بما أنها جزء من التآمر الذي لم ينقطع يوما على العالم الإسلامي بدأت بمحاولة استعمارية من أساطين الدهاء الإنجليز باستغلال الحلم اليهودي لإقامة وزرع كيان صهيوني في قلب الأمة الإسلامية لمنع تطور حركة المد الإسلامي ولمحاولة القضاء على تلك الأمة وليكون اليهود حاجزا ضد البربرية. ولقد التقى ذلك مع رغبة أساطين الصهيونية الذين يرغبون نفس الرغبة بما يحملون من حقد على الإسلام. وكان أن بدأ العمل لتحقيق ذلك.

وهكذا وجدت الجماهير المسلمة نفسها أمام العوامل التالية:

- استعمار إنجليزي. يستهدف تحقيق دولة يهودية في فلسطين كجزء من التكتيك الاستعماري ضد العالم الإسلامي.

- تدفق يهودي على الأرض المحتلة.

– وجهاء – وحكومات. ومثقفين علمانيين. باردي الأعصاب تجاه ذلك. بل ويمكن أن يوءدوا دورهم في مساعدة ذلك عن وعي أو عن غير وعي.

– سقوط وانهيار الخلافة الإسلامية العثمانية وما يسببه ذلك من سحب رصيد الثقة بالنفس. بل وانهيار إسلامي شامل عبر محاولات العلمانية والاستعمار في طمس معالم الإسلام وأهمها الوحدة الإسلامية ومفهوم الجهاد تماما.

– غياب طليعة إسلامية قادرة على قيادة الجماهير وتطوير نظرية سياسية إسلامية ومنظمات لمواجهة أعداء شديدي التنظيم.

وبرغم كل هذا كانت الجماهير المسلمة أروع وأكثر تجاوزا.

الصدام يبدأ:

بوعي إسلامي فذ بدأت الجماهير المسلمة تصطدم بالمهاجرين اليهود منذ أول أيامهم على أرض فلسطين. فلقد قام أهالي قرى الخضيرة وبتاح تكفا (ملبس) بالهجوم على المهاجرين اليهود الذين حاولوا الاستقرار في فلسطين وقد حدث هذا عام ١٨٨٦م.

انظر إلى الوعي المبكر لدى الجماهير المسلمة وانظر إلى سلوك الوجهاء والعائلات الإقطاعية.

بداية بيع الأراضي:

رفض الفلاحون الفقراء بيع أرضهم إلى اليهود رغم ديونهم ورغم محاولات الحكومة الإنجليزية بالتضييق عليهم عبر فرض الضرائب ودفع الفلاحين إلى الإفلاس ليضطروا إلى بيع أرضهم وإصدار قوانين تجيز انتزاعها من أجل أغراض المنفعة العامة التي يحددها الإنجليز بالطبع. وبرغم أن الإنجليز قاموا بإغلاق المصرف العثماني الذي كثيرا ما كان يساعد الفلاحين على تسديد ديونهم وبرغم كل تلك الظروف فإن مسألة بيع الأراضي لم تسجل يوما قيام فلاح فقير ببيع أرضه إلى اليهود أما الذين باعوا فكانوا كالآتي:

- أسر إقطاعية غائبة عن فلسطين ومعظمها يعيش في لبنان مثل سرسق، يكان - تويني - مدور.

- عائلات مسيحية فلسطينية. كسار - روك - خوري - حنا. وهذا يشكل ٩٣ ٪ من مجموع الأراضي التي بيعت.

الجماهير المسلمة - رجال الدين الشرفاء - مثقفين مسلمين ثوريين يبدءون في التحرك منذ الغزوة وعقدوا الاجتماعات وطالبوا بـ:

- منع هجرة اليهود.

- منع بيع الأراضي.

- فرض حظر على اجتماعات اليهود.

كما قاموا بالتظاهر كوسيلة من وسائل الاحتجاج.

كما قاموا باستعمال الصحافة كسلاح تنوير وكشف لطبيعة الغزوة الصهيونية.

وكسلاح لتعريف الجماهير بأبعادها الدينية والحضارية.

وكسلاح لتعرية وجه بريطانيا القبيح واتهامها بأنها مسئولة مسئولية مباشرة عن الاستيطان اليهودي وبالتالي فيجب التوجه ضد الإنجليز واليهود معا (الكفار).

وكسلاح أساسي في حشد الجماهير لتكوين منظمات قادرة على التصدي للغزوة.

ولنأخذ على ذلك مثلا واحدًا يبين مدى وعي طليعة الجماهير بأبعاد الغزوة.

نشرت صحيفة الكرمل «على لسان أصحاب المنظمات التي أفرزتها حركة الجماهير» جاء في البيان:

«هل تقبلون أن تصبحوا عبيدا للصهاينة الذين جاءوا لطردكم من بلادكم مدعين أنها بلادهم.. أيرضيكم ذلك أيها المسلمون؟.. إننا نؤثر الموت على أن نسمح بأن يحدث ذلك.

ثم حث النداء الشعب على القيام بما يلي:

- توجيه الضغط على الحكومة للعمل على حظر بيع الأراضي الأميرية إلى الأجانب.

- محاولة تطوير صناعات ومهن وطنية محلية.. عدم التعامل مع الإنجليز واليهود.

- استخدام القوة واجب على الأهالي لمنع بيع الأراضي وقتل سماسرة بيع الأراضي.

- العمل بكافة الوسائل على وقف الهجرة اليهودية.

انظر إلى حركة الجماهير المسلمة سنة ١٩١٣ كيف أدركت:

- كون الصراع عقائدي.. «أيها المسلمون»..

- كون الصراع ضد الاستعمار الإنجليزي واليهود معا.

- كون الاستعمار الصهيوني ظاهرة عقائدية واستعمارية في نفس الوقت وبالتالي فإن مواجهتها بالمقاطعة الاقتصادية وبناء حائط اقتصادي في مواجهتها.

- استخدام الكفاح المسلح ليس ضد اليهود وحدهم، ولكن ضد عملائهم وسماسرة الأرض.

وفي الوقت نفسه كان الوجهاء يتبنون العمل في البرلمان.. سعيد الحسيني.. ووضع التشريعات راغب النشاشيبي وبعضهم يعجب بالصهاينة مثل سليم الحسيني، وهذا شيء طبيعي، وفقا لمنهجهم السابق فضحه، ليس لهم إلا هذا.

استمرت الجماهير في حركتها عبر وجود عدة منظمات سياسية وعسكرية مثل المنتدى الأدبي ـ والنادي العربي ـ ونادي الإخاء والتعارف ـ وجمعية الفدائية، وسوف ندرس جمعية الفدائية بشيء من الإيجاز.

***

جمعية الفدائية:

«تسعى الحركة إلى تسليح الأعضاء بالأسلحة الخفيفة وإعداد قوائم بأسماء اليهود البارزين والعناصر الموالية للصهيونية من غير اليهود مع تسجيل مكان إقامة كل منهم – متابعة ما ينشر ويقال باللغة العبرية بين اليهود».

يتضح من الكلمات السابقة الإعداد للكفاح المسلح والثورة المسلحة وهذا يوضح أن حركة الجماهير المسلمة لم تتوقف يوما ولم تفقد يوما قدرتها على فهم الواقع وطرح أسلوب الكفاح المسلح في مواجهة اليهود.

ولقد وصف وايزمان نفسه نشاطات هذه الجمعية وغيرها في تقرير بتاريخ ٨ شباط سنة ١٩١٥ ويستفاد من التقرير أن أعضاء الجمعيات.

«كانوا يوفدون أحيانا إلى القرى لإثارة الفلاحين ضد اليهود – وتحاول هذه الجمعيات كذلك تنظيم «الإرهابيين» والمؤسسات السرية لكي تقوم فيما بعد بحرب عصابات ضد اليهود. وقد انخرط نفر منهم في صفوف رجال البوليس».

انظر إلى ما سبق يتضح لك استمرار خط الجماهير المسلمة وطليعتها الواعية في:

- حشد جماهيري واسع ومعاد لليهود. إثارة فلاحي القرى.
- منظمات عسكرية – إرهابية. حرب عصابات مع اليهود. «كفاح مسلح».
- الانخراط في سلك البوليس – التغلغل إلى داخل المؤسسات..

قطعا هذا منتهى الوعي..

* انظر كلمات الأستاذ جودت الحلبي أحد زعماء هذه المنظمة..

«لقد ابتعنا من الأسلحة بقدر ما أردنا وسنتلقى المزيد أيضا. وإن عملنا الرئيسي ينبغي أن يكون ضد اليهود. ولكن إذا ساعدتهم الحكومة فسنكون ضدها أيضا».

انظر كيف وعى السيد جودت الحلبي الارتباط بين السلطة واليهود.

وجاء في تقرير آخر مقدم إلى دائرة الاستخبارات الصهيونية..

«دعا السيد محمود عزيز الخالدي إلى»:

أن شباب هذا البلد لا يخشون أحدا بما في ذلك الحكومة الاستبدادية نفسها. إنهم يريدون البدء بالعمل حالا وهم جميعا على استعداد لملاقاة الموت سعداء. وإن معظمهم يسألونني دائما عن الموعد الذي يشرعون فيه بالثورة ضد الكفار ويظهرون فيه قوتهم ويتخلصون منهم إلى الأبد.

لاحظ:

- الربط بين الاستبداد ومنع الجماهير من مواجهة اليهود.

- لاحظ كلمة الكفار – فهم طبيعة الصراع – أيديولوجية إسلامية – الكفاح المسلح.

- الاستعداد للموت – الاستشهاد.

وهكذا استمر خط أيديولوجية إسلامية – كفاح في التصاعد والنمو ويجدر بنا أن نشير هنا إلى محاولة اغتيال وايزمان والتي اكتشفت قبل وقوعها.

ولعل هذه الحركة قد تركت تراكمات وعي وإضاءة في عقول ونفوس الجماهير مما أدى إلى أن أصبح الوضع على وشك الانفجار في أية لحظة. فبدأت المظاهرات في مارس سنة ١٩٢٠ في القدس وأماكن أخرى بعدها.

وفي يوم ١ مارس شنت عصابتان مسلحتان هجوما على اثنتين من المستوطنات اليهودية الواقعة قرب الحدود السورية وهي المطلة وتل حي وقد قتل في هذين الهجومين الكابتن جوزيف ترامبلدور وهو عسكري صهيوني بارز وستة يهود آخرون».

ثورة العشرين:

وفقا للمناخ السابق ونتيجة لاستمرار حركة الجماهير المسلمة كان من الطبيعي أن تستفيد قيادات الجماهير المسلمة من الأعياد الإسلامية التي تشكل زخما كبيرا في نفس الجماهير، فكان أن بدأت مظاهرة ضخمة جدا ثم ما لبثت أن تحولت إلى هجوم

على اليهود بالحجارة. واشتباك معهم وظلت أعمال العنف طيلة الفترة الواقعة بين الرابع من نيسان والعاشر منه على الرغم من إعلان الأحكام العرفية.

وبدلا من استثمار تلك الانتفاضة الرائعة في زيادة حجم الثورة على اليهود والإطاحة بهم مع الإنجليز قام الوجهاء بمغازلة السلطة البريطانية ولقد طالبت مجلة الكرمل المعبرة عن ذلك الاتجاه بـ «أن الحكومة البريطانية، حكومة قوية ومن ثم فمن الصعب علينا أن نحاربها. فلابد لنا إذا من أن نجعل ثورتنا تقتصر على محاربة خصومنا».

ولكن حركة الجماهير المسلمة لم تتوقف وقامت المظاهرات في حيفا ثم بعدها في يافا وذلك خلال الأسبوعين الأولين من أيار سنة ١٩٢٠ ففي يوم ٥ آيار تجمع نحو ٣٠٠٠ عربي إلى الشمال من المستعمرة ملبس (بتاح تيكفا) اليهودية التي تبعد عن يافا نحو عشرة أميال. وتجمع حشد قوي آخر جنوب المستعمرة يتألف من عدة مئات من الرجال ولقد اصطدموا مع اليهود والسلطة البريطانية.

* وسوف نقرأ معا تقرير لجنة كرافت:

ففي مركز إسلامي صغير من هذا النوع نجد لدى الناس ذهنية سياسية تفوق ما يقابلها في قرية إنجليزية ونجد أن بحث الأمور السياسية هو محور اهتمامهم الفكري الأكبر إن لم يكن المحور الوحيد.

* صموئيل: يعرب عن شعوره بالامتنان لزعماء «الحركة الوطنية العربية». يقول صموئيل في تقرير رفعه إلى تشرشل: بذلت أقصى جهدي لتهدئة الحالة فلو أن الزعماء السياسيين عملوا على تأجيج نيران الاضطرابات الحالية بدلا من كبح جماحها فإن البلاد بأسرها كان يحتمل أن تعيش في حالة من الفوضى وما كان النظام ليعود إلا بأكبر قسط من الصعوبة.

انظر إلى الزعماء «يلعبون دورا في تهدئة الجماهير بدلا من إلهاب حماسها».

وهكذا فإن الجماهير المسلمة تنتفض وتثور، والوجهاء والبرجوازية العلمانية

تجتمع وتنفض لتقرر اختيار وفد فلسطيني عربي لشرح القضية العربية الفلسطينية في أوروبا ولندن« من مقررات المؤتمر الفلسطيني الرابع. مع ملاحظة أن المؤتمر يوصي بضرورة تجنب جميع الحركات غير المنظمة!!

وهكذا فإن البرجوازية العلمانية لا تخرج عن خطها التقليدي وهو «التفاوض» كطريق لحل القضية. والبرجوازية العلمانية لا تخرج عن هذا الخط أبدا، إلا أنها وأحيانا تحت دفع الجماهير ربما تتصلب شيئا ما.

الجماهير تقاوم الهجرة بواسطة العنف:

اكتشفت الجماهير أن الوفد الذي ذهب إلى لندن تاه في الحلول الوسط ويمكنه أن يقبل الانتداب البريطاني – وهكذا اكتشفت الجماهير أنها وحدها القادرة على وضع حد للهجرة وهكذا بدأت الجماهير في تنظيم نفسها لمقاومة الهجرة بالغارات على اليهود.

وعقدت الجماهير الاجتماعات في الخليل والرملة ولوبية وطولكرم وحددت طريقها في الكفاح المسلح. والأيديولوجية الإسلامية.

ولقد حاول الصهاينة أن يواجهوا هذا بحملة منظمة ضد المناضلين وذلك بعمل جمعيات شكلية تدعي معارضة اليهود ولكن دون اللجوء إلى العنف.

«وهدف هذه الجمعيات هي العمل مع الحكومة وتنمية علاقات طيبة بين مختلف قطاعات المجتمع».

«لاحظ الآن روابط القرى»..

ولقد تمخض ذلك عن قيام إضراب شامل بمناسبة وعد بلفور وقام المسلمون بإطلاق الرصاص على اليهود ووقعت صدامات عنيفة بين الطرفين.

وكالعادة قام الوجهاء بتهدئة الحالة.

واستمرت البرجوازية العلمانية متمثلة في الوجهاء وبعض القوى الوطنية والقومية في تحركاتها لدفع التفاوض إلى الأمام وتحقيق أفضل الشروط من ناحية

وتهدئة وتخدير الجماهير من ناحية أخرى. ولكن السؤال الذي يبرز حتى الآن. لماذا لم تنجح الجماهير المسلمة في تصعيد تحركها.

والإجابة على هذا التساؤل تدفعنا لفهم طبيعة السقوط الإسلامي عموما في تلك الحقبة. وكذلك عدم قدرة تلك الجماهير حتى هذه اللحظة في إفراز منظمة ثورية تتمثل فيها خصائص تلك الجماهير المسلمة.

١٩٢٣– ١٩٢٩ الهدوء

لاشك أن وجود الأحزاب العلمانية والغير جماهيرية وغياب تنظيم إسلامي ثوري لجماهير الكادحين. قد جعل فلسطين تمر بحالة من الهدوء في تلك الفترة. ولكن لا يعني هذا عقم الرحم الجماهيري عن ولادة حركة إسلامية.

وفي الحقيقة فإن مسألة المفاوضات وصلابة الأحزاب العلمانية أو عدم صلابتها تتوقف تماما على مدى تقدم الجماهير. ففي الفترة التي يشتد فيها المد الجماهيري تظهر أحزاب أشد صلابة في إطار التفاوض ولكن ما إن يحدث جذر في مد الجماهير حتى تظهر على السطح أحزاب عميلة بطريقة مباشرة أو أحزاب معتدلة مثل الحزب الذي أسسه عارف الدجاني «الحزب الوطني». وقام الحزب برفع شعارات تصالح مع اليهود والإنجليز.

انتفاضة ١٩٢٩ وثورة البراق

ما لبثت الجماهير المسلمة أن استعادت حيويتها وبدأت الحيوية تدب في جسد الأمة من جديد وهكذا انتفضت الجماهير المسلمة في وقتها ضد اليهود وضد الإنجليز على أثر محاولة اليهود الاعتداء على قدسية المسجد الأقصى والجماهير المسلمة بطبعها حساسة لتلك المواقف الخاصة بالمقدسات وهذا شيء طبيعي.

ثورة البراق:

وكالعادة واستثمارا للمخزون التاريخي الهائل الذي يدفع المد الجماهيري إلى الأمام وفي ذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام وفي يوم الجمعة ١٤ آب سنة

١٩٢٩ قامت الجماهير المسلمة بالتظاهر واستمرت حركتها إلى أن وصلت إلى أعلى مدها يوم ٢٣ آب وذلك بقيام الجماهير المسلمة بالهجوم على اليهود مسلحين بالعصى والمسدسات وحتى بالسيوف. وقد تجاوب معهم مسلمو نابلس والخليل فهاجموا اليهود حيث قام عرب الخليل بقتل ٦٠ يهوديا وجرح أكثر من ٥٠.

وامتدادا لحركة الجماهير الواسعة قام بعضهم بمحاولة عنيدة لانتزاع الأسلحة من مراكز البوليس في نابلس.

وفي يافا قامت ثورات مماثلة. وكذلك في حيفا قامت غارات على حي هادار هاكرمل ضاحية حيفا اليهودية.

وفي ٢٩ آب شن العرب هجوما على الحي اليهودي من صفر حيث قتل أو جرح نحو ٤٥ يهوديا وأضرمت النيران في عدة منازل وحوانيت يهودية.

وقد أدى تصاعد المد الجماهيري في تلك الثورة إلى زيادة تصلب بعض رجال الإفتاء ورجال الدين الرسميين.

ملاحظة:

يجب أن نرصد في ثورة حادث البراق الشهيرة ما يلي:

١- أن بواعثها ونقطة تفجيرها كانت بسبب ديني ولذلك كانت عنيفة جدا.

٢- بداية انتهاء سيطرة الزعماء على الجماهير.

٣- أن الجماهير بما تملك من رصيد تاريخي وتناقض حقيقي مع الكيان الصهيوني قادرة تماما على مواجهته.

٤- أن الجماهير تدرك أن الإنجليز واليهود في خندق واحد.

* من العجيب أن يدعو اليسار الفلسطيني في ذلك الوقت إلى توجيه المقاومة نحو الإنجليز لا نحو اليهود والإنجليز معاً.

* تخلى الوجهاء عن الثورة وأعلنوا تبرأهم منها في بيان رسمي وقعه النشاشيني

وموسى كاظم الحسيني.

الجماهير في حاجة إلى منظمة ثورية:

أحست الجماهير أنها في حاجة إلى منظمة ثورية تعبئ طاقاتها وتتبنى شعاراتها وتنهج خط الكفاح المسلح.

ولقد عرض شكيب وهاب القائد الثوري السوري «لاحظ البعد الأممي للحركة الإسلامية» في حديث أجراه مع المفتي الأكبر تنظيم عصابات للقيام بحملة ثورية يمكن أن تستمر طويلا. ولكن المفتي يقول إنه لا يعتبر ذلك ضروريا في الوقت الراهن.

وكذلك أفادت تقارير البوليس في تلك الفترة أنه يجري جميع التبرعات كما أنه وقع الاختيار بالفعل على ٤٠٠ عربي يشكلون نواة قوة مسلحة.

وبعدها أفادت التقارير أيضا أنه «تم تشكيل جماعات لمهاجمة الموظفين اليهود والبريطانيين وستعمل هذه الجماعات في حيفا ونابلس.

منظمة الكف الأخضر:

أعقب التحرك الإيجابي للحركة الجماهيرية المسلمة ظهور منظمة أطلق عليها اسم الكف الأخضر تتبنى خط الكفاح المسلح.

نشأت المنظمة بقيادة أحمد طافش في تشرين سنة ١٩٢٩ وشنت خلال الشهر نفسه هجوما على الحي اليهودي بصفد. وامتد نشاط المنظمة إلى عكا حيث بدءوا يعدون الكمائن لدوريات البوليس.

إلا أن تلك المنظمة قد انهارت بسرعة وذلك بمساعدة السلطات الفرنسية في المنطقة الخاضعة للانتداب الفرنسي.

ومازال أيضا الزعماء يتفاوضون في لندن!! وظهر الكتاب الأبيض ثم الكتاب الأسود وكلها لامتصاص مد الجماهير ومنعها من تنظيم نفسها وخلق جو من الضباب حول الأسلوب الصحيح المتمثل في أيديولوجية إسلامية وكفاح مسلح.

انتفاضة ١٩٣٣:

حيث إنه لا يمكن لحركة الجماهير المسلمة أن تنهار أو تتوقف وهكذا عمت فلسطين كلها انتفاضة عنيفة بدأت من يافا وامتدت إلى حيفا ونابلس. وصفد والناصرة وطولكرم.

* الوجهاء: أما في عكا فقد استخدم الشيخ الشقيري نفوذه لمنع وقوع مظاهرة كان من المقرر القيام بها.

ثورة القسام

وهكذا تزايد وعي الأمة بحقيقة الصراع وطبيعته وبدا أن الطرح الوحيد الصحيح هو منظمة ثورية إسلامية للكفاح المسلح ضد اليهود والإنجليز.

وهكذا نشأت حركة عز الدين القسام.

«عز الدين القسام. سوري المولد. إسلامي الثقافة – هاجر إلى حيفا عام ١٩٢١ بعد أن شارك في الثورة ضد الاحتلال الفرنسي لسوريا والذي كان فيها قائدا بارزا ولم يجد الشيخ القسام بفضل ما يتمتع به من ثقافة دينية واسعة وبراعة في الخطابة صعوبة في الانضمام إلى جهاز التعليم في المدرسة الإسلامية بحيفا. ثم انضم بعد ذلك إلى جمعية الشبان المسلمين التي تولى سنة ١٩٢٦ رئاستها ووقف القسام بوصفه مسلما تقيا ورجلا وطنيا ضد الصهيونية والحكم البريطاني وفي عام ١٩٢٩ أخذ يتجول في قرى شمال فلسطين بوصفه موظفا في المحكمة الشرعية بحيفا واستطاع بفضل اتصالاته هذه بالفلاحين في القرى وبالمصلين في المسجد أن يجند بعض العناصر الثورية التي نظمها في خلايا سرية لا يتجاوز عدد أفراد الخلية الواحدة منها خمسة أفراد. ثم أخذ ينشر بينهم الدعوة إلى الثورة ضد العبودية وضد الأجانب الكفار يهودا كانوا أم بريطانيين، وبعد حوادث عام ١٩٣٣ بدأ يجمع التبرعات لابتياع كميات صغيرة من الأسلحة استعدادا للقيام بثورة ضد الحكومة التي اعتبرها الحامية الحقيقية للصهيونية في فلسطين. وحافظ القسام في اتصالاته وإعداداته على السرية التامة. وكان معقل القسام هو الحي القديم من حيفا حيث يقطن فقراء الفلاحين

الذين نزحوا من قراهم إلى المدن واضطروا أن يعيشوا في مستوى منخفض وأبدى القسام اهتماما حقيقيا أصيلا بتحسين أحوال معيشتهم وبدأ يكافح الأمية في صفوفهم من خلال إعطاء دروس ليلية.

وسرعان ما أصبح فلاحو المنطقة الشمالية يكنون له أبلغ الاحترام والمودة بفضل زياراته المتكررة لهم وما يتسم به من أصالة في الخلق والتقوى.

وبحلول عام ١٩٣٥ كان القسام قد نظم خمس لجان لتحقيق الأهداف التالية.

الدعوة، الدعاية، التدريب العسكري، التموين، الاستخبارات، العلاقات الخارجية.

ولقد طلب الشيخ عز الدين القسام من المفتي أن يعلن الثورة المسلحة في الجنوب في نفس الوقت الذي يعلنها هو في الشمال ولكن الحاج أمين فضل أن يحل المشكلة بالشكل السياسي دون اللجوء لثورة مسلحة!!!

ولكن الشيخ قرر أن يبدأ الثورة في الشمال كرد حسيني على تخاذل المفتي مدركا أنه حتما سيفشل ولكنه سيخط ويحفر بدمه رافدا أصيلا للتوجه الحقيقي والطريق الصحيح للتعامل مع الغزو الصهيوني.

وهكذا في سنة ١٩٣٥ بدأت الثورة المسلحة لعز الدين القسام ضد البريطانيين واليهود.

غادر القسام يرافقه ٢٥ رجلا من أنصاره المسلمين في حيفا في الثامن عشر من تشرين الثاني قاصدا إلى ضواحي جنين لدعوة الفلاحين في تلك المناطق لحمل السلاح في وجه البريطانيين والصهاينة ولكنهم قبل أن يتمكنوا من تعميم دعوتهم ومفاجأة السلطات باحتلال حيفا. وقع صدام عرضي بينهم وبين البوليس نبه السلطات إلى وجود جماعات مسلحة وسارعت قوات الجيش والبوليس إلى ضرب نطاق حول المنطقة وعزلها.

بيد أن القسام، مدفوعا بإيمانه وحماسته وإخلاصه رفض الاستسلام وحث أتباعه

على القتال (كما الحسين) والاستشهاد في سبيل الله. وفي التاسع عشر من تشرين الثاني خاض المجاهدون معركة مواجهة مع القوات البريطانية في غابة «يعبد» بمنطقة جنين استشهد فيها القسام واثنان من أتباعه وأسر خمسة آخرون واختفى الباقون في الجبال.

تحليل لحركة عز الدين القسام

إن حركة عز الدين القسام تعكس الطرح الصحيح والتكتيك الموضوعي للنضال ضد الغزو الصهيوني. إن الحركة قد أدركت بوعي فذ طبيعة الكيان الصهيوني وطبيعة الظرف التاريخي وطبيعة حركة التاريخ التي تعني وقتها تفاؤل التاريخ رغم يأس المرحلة.

– الشيخ عز الدين القسام طرح الأيديولوجية الإسلامية لأنها الوحيدة القادرة على المواجهة بسبب كونها عقيدة الجماهير وبسبب طبيعة التحدي وهكذا فإن الشيخ الذي كان يطلق اللحية ويتمسك بالخلق والتقوى كان يفيض في الحديث عن الجهاد ضد الكفار.

– إن الشيخ عز الدين وعى بشكل فذ طبيعة الارتباط بين اليهود باعتبارهم ظاهرة استعمارية عنصرية وبين الإنجليز باعتبارهم ظاهرة استعمارية وهكذا فقد طرح أن الجهاد يجب أن يكون ضد الكفار من يهود وإنجليز.

– أدرك الشيخ عز الدين بوعيه الإسلامي طبيعة الصراع وأن الكفاح المسلح هو الحل الوحيد فقام ببناء تنظيم سري عسكري وجمع المال واقتنى السلاح.

– أدرك الشيخ حقيقة هامة جدا في سبيل التحرير وهي أن المنوط بالتحرير والكفاح المسلح هم الفقراء والكادحين. عمال وفلاحين فتوجه إليهم وعاش بينهم وشكل تنظيما منهم. مدركا أنه لكي تكون إسلاميا وثوريا فيجب عليك أن تكون كادحا، أما الأسر الإقطاعية فقد كان يدرك عدم جدواها وعدم قدرتها على الكفاح المسلح، لقد طرح عز الدين القسام أخطر شعار، وهو المسلمون الكادحون على طريق الكفاح المسلح.

– أدرك الشيخ عز الدين القسام أهمية العلم في مواجهة اليهود والإنجليز

واستسلام الزعماء، فقام بتعليم أتباعه وجماهيره، وذلك ليلا في المساجد.

- أدرك الشيخ ضرورة النضال السياسي كجناح آخر للتنظيم والعمل الجماهيري فقام به بنفسه عن طريق الشارع والمسجد كما ألف لجنة للدعاية والدعوة.

وهكذا فإن الشيخ قد طرح برنامجا متكاملا وفذا في مواجهة الغزوة الصهيونية ولكن طبيعة السقوط الإسلامي في العالم وقتها كان أقوى من أن يواجهه الشيخ فما كان منه إلا أن قرر الاستشهاد على النمط الحسيني ليحفر بدمه في ذاكرة الأمة الأسلوب الصحيح لمواجهة الكيان الصهيوني، وليفجر رافدا من الوعي والثورية يمكن أن يستمر بعدها.

- أدرك الشيخ عز الدين أن محاولة دفع الوجهاء إلى الثورة هو عبث لا طائل تحته بعد رفض المفتي أمين الحسيني لمطلب القسام بإعلان الثورة في الجنوب وهكذا فقد علمنا القسام أن الفقراء هم الذين يثورون.

***

ثورة ١٩٣٦

لقد فجر النهج الحسيني الذي اختاره القسام وعيا هائلا لدى الجماهير المسلمة وحسم المسألة وحددها في خط الكفاح المسلح ضد اليهود والإنجليز معا ولقد حاولت السلطة البريطانية امتصاص ذلك الوعي ومحاولة تشتيت الجماهير فطرحت قيام مجلس تشريعي وتشكيل وفد مفاوضات.

ولكن الجماهير ما لبثت أن أمسكت بالسلاح وسارت على خط القسام وبدأت الاصطدامات اليومية مع اليهود ولقد ظهر في تلك اللحظة فرحان السعدي. أحد أعوان القسام، وقتل ٣ يهود كإشارة لاندلاع حرب الجماعات ضد اليهود والإنجليز.

وفي ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦ حدث قتال بين العرب واليهود أدى إلى قتل ١٢ يهوديا وجرح ٦٥ منهم. وعمت الإضرابات (القدس – الخليل – حيفا) ومن حيفا بدأت

الدعوة للإضراب العام.

ولقد استمر هذا الإضراب العام من أبريل حتى أكتوبر (ستة أشهر) كما استمر الجهاد المسلح في كل مكان فألقيت القنابل وأطلق الرصاص واشتعلت الحرائق.

وهكذا نشهد ثورة من أعظم الثورات الجماهيرية في فلسطين: كفاح مسلح - إضراب - امتناع عن دفع الضرائب - مهاجمة معسكرات الجيش البريطاني والاستيلاء على البنادق والذخيرة.

في ١٢ يونيو ١٩٣٦ نشبت معركة ضخمة بين القوات الإنجليزية وبين الثوار المسلمين. اشتركت فيها الدبابات والطائرات.

وهكذا فإن الجماهير كانت قد أصبحت على وشك الإطاحة بالاستعمار الإنجليزي واليهود معا. وأصبحت الجماهير تملك الوعي والمنظمات الثورية ولكن وكالعادة يقوم الزعماء بدورهم التقليدي في إضاعة مكاسب الجماهير والتآمر عليهم.

في أكتوبر سنة ١٩٣٦ أذيع نداء بتوقيع كل من عبد العزيز آل سعود والملك غازي ملك العراق والأمير عبد الله أمير شرق الأردن على النحو التالي:

القدس - بواسطة رئيس اللجنة العربية العليا..إلى أبنائنا عرب فلسطين..

لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله. ندعوكم للإخلاد إلى السكينة حقنا للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيقها العدل وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم.

وفي الوقت الذي بلغت فيه الثورة مدى رائعا حتى أن صحف لندن ذاتها قالت «لقد بهر عرب فلسطين أنظار العالم أجمع بما قاموا به من أعمال عسكرية تدل على بالغ البطولة والمهارة في القتال».

وقال وزير المستعمرات: «إن فلسطين أسوأ بلد في العالم وإن أهلها يصبرون على

الثورة التي لا يمكن قمعها».

واستمر خط القسام وتمكن المناضلون من قتل أندروز حاكم لواء الجليل ومساعده. واستمر خط التفاوض والخيانة من الزعماء والملوك العرب.

***

مرحلة حرب ١٩٤٨

استمر خط الجماهير المسلمة في تصاعده التاريخي الرائع برغم يأس المرحلة ومهادنة الأحزاب والوجهاء والزعماء.

واستمر التآمر الاستعماري على قدم وساق ولقد تمثل التكتيك الشيطاني في تلك المرحلة في:

- استمرار تسليح اليهود متمثلا في مساعدات من الدول الاستعمارية وتواطؤ بريطاني يتم بموجبه تسليم عدد هائل من الأسلحة الموجودة في مخازن الحامية البريطانية في فلسطين إلى اليهود عن طريق تمثيلية محبوكة تسمى سرقة الأسلحة من المخازن البريطانية.

- إضعاف جبهة الجماهير المسلمة ونزع تسليحها ووضعها في أصعب ظروف للعمل.

- دفع الظروف في المنطقة بحيث يكون الجميع في حالة شلل تام ما عدا القوى الصهيونية.

ولقد بلغت المأساة ذروتها عندما صدر قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة بأغلبية الأصوات في ٢٩ - ١١ - ١٩٤٧ بشأن تقسيم فلسطين.

وبرغم انكشاف الوجه السافر لبريطانيا وأمريكا كقوى استعمارية معادية للأمم الإسلامية إلا أن الزعماء والوجهاء مازالوا يطرحون سياسة إقناع بريطانيا واستجداء العطف وإلهاء الجماهير المسلمة ومنعها من أداء دورها في الوقت الذي تقوم فيه القوى الصهيونية باحتلال مدينة بعد مدينة وموقع بعد موقع.

الجماهير المسلمة ترد:

أما الجماهير المسلمة – والموجودة عمليا في المعركة وبرغم كل ظروف اليأس والتآمر فمازالت تملك حيوية مذهلة، فقامت من طرفها بالرد كالتالي:

– في ١٥ ديسمبر ١٩٤٧ قام المجاهدون بنسف خط أنابيب المياه بين رأس العين والقدس.

– في ٢٧ ديسمبر ١٩٤٧ الجماهير المسلمة تقاتل اليهود في القدس.

– ١٢ يناير ١٩٤٨ مجاهد عربي يدخل مركز البوليس البريطاني بسيارة ملغومة مما أدى إلى نسفه.

– ١ فبراير ١٩٤٨ يتم نسف بناية (البالستاين بوست) اليهودية وبنايتان أخريان مجاورتان لها في شارع هاسوليل بالقدس وذلك بسيارة ملغومة.

– ٢٢ فبراير ١٩٤٨ يتم نسف شارع بن يهوذا بثلاث سيارات كبيرة تحمل كلا منها طنا من المفرقعات.

– ١٢ فبراير ١٩٤٨ يتم نسف حي المونيفوري بالقدس.

– ١١ مارس ١٩٤٨ يتم نسف مبنى الوكالة اليهودية.

– ٢٣ مارس ١٩٤٨ نسف باب الخليل.

القوى الصهيونية تتحرك لاستكمال احتلال المواقع والمدن الهامة والجماهير المسلمة المضروبة من الإرهاب الصهيوني وتواطؤ الاستعمار وخيانة الزعماء تقف وحدها بصلابة. ولنضرب عدة أمثلة:

معركة القسطل: – وللقسطل أهمية عسكرية كبيرة في الدفاع عن القدس وسوف نسرد تلك الحادثة كنموذج يدلل على صحة تحليلنا.

يذهب الشهيد عبد القادر الحسيني إلى اللجنة العسكرية العليا (برئاسة إسماعيل صفوت باشا) ويطلب أسلحة وذخائر للدفاع عن القسطل فيقول له الباشا شونو عبد

القادر. ماكو مدافع (ماكو تعني باللهجة العراقية لا يوجد).

ويقول لـه الشـرياتي وزيـر الـدفاع السـوري «إذا احتـل اليهـود القـدس فسـنأتي ونخرجهم منها أو نقتلهم فيها».

عندئذ تميز عبد القادر من الغيظ ورمى بالخريطة في وجـه الباشـا والـوزير وقـال بصوت سمعه الحاضرون «أنتم خائنون ومجرمون وسيسجل التاريخ أنكـم أضـعتم فلسطين – ستحتل القسطل وسأموت أنا وجميع إخواني المجاهدين».

وعاد عبد القادر إلى القسطل واستشـهد فيهـا في أبريـل عـام ١٩٤٨ بعـد معركـة خالدة استمرت ٦ أيام.

هل هذا يحتاج إلى تعليق؟!!..

معركة يافا:

ولقد دخلت جماهيرنا المعركة في جو غير متكافئ بشكل درامي تماما فلا أسـلحة ولا مؤن وتواطؤ إنجليزي. وسكوت عربي ومـع ذلـك تسـطر تلـك المدينـة البطلـة ملحمة رائعة من ملاحم البطولة ولنأخذ كلام بيجين نفسه وهو العدو الأكبر لنا دليلا على ذلك:

- بيجين يدرك أهمية يافا الاستراتيجية فهي مسدس محشـو بالرصـاص مصـوب إلى تل أبيب، وأن نجاحهم فيها يعني انتصارهم، وانهزامهم فيهـا هـو بمثابـة الهزيمـة الكاملة للصهيونية.

- أصبنا بخسائر فادحة والمقاومة مذهلة.

- رغم تتابع موجات هجومنا فإن عنق الزجاجة لم يخترق.

- غيرنا تكتيكنا مرارا دون جدوى.

- إما إخضاع يافا أو تحطيم تل أبيب.

- يا إلهي لقد علمتنا بطولة يافا أكثر مما تعلمناه خلال الحرب العالمية الثانية.

- سقط منا القتلى بالعشرات.

- لولا تدخل الإنجليز لكان الوضع مروعا.

* استمرت معركة يافا من أوائل ديسمبر ١٩٤٧ حتى ١٤ مايو ١٩٤٨.

* على لسان الشهيد حسن سلامة أن بعض المسلمين اليوغسلاف شاركوا في الدفاع عن يافا!!..

معركة حيفا:

وأيضا تدخل الجماهير المسلمة معركة حيفا منفردة..

- قام الإنجليز بتسليم اليهود معسكراتهم ومواقعهم.

- قام الإنجليز بمنع إقامة مراكز حصينة داخل المدينة.

- السلاح لا يصل إلى حيفا. فلم يصل سوى ٩٠ بندقية فقط من ٦٠٠ بندقية أرسلت إليها. هل سرق الباقي؟ (من تقرير طه باشا الهاشمي عن حالة السلاح في حيفا):

- الإنجليز يسحبون السريتين الأردنيتين رقم ٢، ٤ واللتان كانتا ترابطان في حي (النبي شعنان) وبيت كاليم مما كشف الحي الشرقي العربي.

- انسحاب الإنجليز المفاجئ من حيفا في ٢٣ أبريل ١٩٤٨.

ومع كل هذا خاضت الجماهير المسلمة معركة أسطورية في الدفاع عن المدينة. وخضبت أرضها بالدم الذكي. لولا أن قام الزعماء بمطالبة أهلها بإخلائها لتأتي الجيوش العربية لتحررها!!

وهكذا سقطت المدينة.

إعلان قيام إسرائيل:

وفي يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ يعلن بن جوريون قيام إسرائيل.

ملاحظة:

قام بن جوريون بإعلان الدولة يوم ١٤ مايو ولم ينتظر إلى يوم ١٥ مايو لأنه كان يوم سبت.

– وبريطانيا تعلن إنهاء انتدابها في ١٥ مايو ١٩٤٨.

حرب ١٩٤٨:

وهكذا تدخل الجيوش العربية حرب ١٩٤٨ والوضع كالآتي:

– تمهيد كامل من قبل بريطانيا لليهود. بمعنى إعطائهم كل المدافع بتنسيق كامل في المواقف – تسليم الأسلحة لليهود.

– جماهير مسلمة منهكة ولكنها قادرة على العمل ولا يقف معها أحد.

– إرهاب صهيوني لمحاولة كسر صمود الجماهير. مذابح دير ياسين كفر قاسم – قبية – غزة – خان يونس – السلط وغيرها مما يصعب حصره.

– عروش وأنظمة عربية تترنح تحت ضغط الجماهير في خارج الأرض المحتلة تطالبهم بالعمل لإنقاذ فلسطين.

الأنظمة العربية تدخل المعركة بالتكتيك التالي:

– أنظمة لا تملك تناقضا مع الكيان الصهيوني.

إلا تناقضا ثانويا يمكن حله عبر المفاوضات أو عبر المعارك التكتيكية الصغيرة لتحسين ظروف التفاوض والحلول الوسط ليس إلا:

– لابد من دخول المعركة وإلا أسقطتنا الجماهير وحتى تملك تلك الأنظمة ورقة توت تداري بها عوراتها.

– كل نظام يعمل لحسابه ولا تنسيق بين الجيوش العربية.

– وهكذا تدخل الجيوش العربية المعركة وفي نية قيادات الأنظمة عدم القتال فلم تعد له عدة. لا إعداد نفسي

أو تعبوي. المشاركة بقوات رمزية.. مجموعة الجيوش العربية لا تصل إلى قوة

العدو العددية.

- دخول المعركة للمزايدة والاستعراض. ثم الانسحاب ليس إلا. خطأ يصل إلى حد الخيانة.

- الأنظمة العربية تطالب الشعب الفلسطيني بإخلاء مدنه لكي تأتي هي لتحررها. بل إن عمليات الترحيل ذاتها يشارك فيها الفيلق العربي والقوات الأردنية.

- الجيش الأردني تحت قيادة جلوب باشا الإنجليزي.

- الجيش الأردني يدافع فقط ولا يهاجم بأوامر من جلوب قائد الجيش.

- الملك عبد الله بإيعاز من جلوب يرى الصلح مع اليهود برغم أنهم أقوياء.

وانظر كتاب حرب ١٩٤٨ (الصراع السياسي) العميد محمد فايز القصري – دار المعرفة.

- أصدر جلوب أمرا للجيش الأردني يوم ١٤ يوليه ١٩٤٨ بإيقاف جميع العمليات الهجومية والتزام موقف الدفاع مع عدم البدء بإطلاق الرصاص إلا إذا هوجموا.

- إدارة سياسية سيئة للمعارك تتمثل في قبول الهدنة عدة مرات مما يحسن وضع اليهود.

- خيانة كاملة من الملك عبد الله واتصالات باليهود.

ملاحظة:

مع كل هذا التيه فإن الجيوش العربية كأفراد هم جزء من الأمة قد صنعوا انتصارات باهرة وبطولات فذة أضاعها الساسة والتردد ومناورات جلوب وغيره وخيانة الملك عبد الله.

- معركة التبة ٨٦ مفخرة للجندي المصري المسلم.

- الصمود في الفالوجا.

- عمليات البطل الشهيد أحمد عبد العزيز الذي لقب بين رجاله باسم النمر

والذي أمكنه أن يشق طريقا حتى بيت لحم برغم بساطة معداته. وخيانات جلوب المتكررة.

وهكذا دخلت الجيوش العربية (القوات المصرية – القوات الأردنية – القوات السورية – القوات العراقية – القوات اللبنانية – القوات السورية).

وبرغم بطولة أفرادها إلا أن نية الأنظمة لم تكن القتال.

– قامت الأنظمة وتحت دعوى أن الجيوش العربية ستحرر فلسطين بتغييب الجماهير المسلمة وإخراجها من المعركة بدلا من أن تكون عونا لها.

– جيوش غير مدربة – خيانات الأنظمة – أسلحة فاسدة عدم تنسيق.

– أيديولوجية غير إسلامية.

في مواجهة:

– عدو مدرب (في الحرب العالمية الثانية) وغيرها.

– يملك أيديولوجية تاريخية وفهما وتمثلا أكبر للحضارة الغربية ولتكتيكها المتفوق علينا.

– جيش شعبي ومشاركة كاملة من رجال ونساء اليهود في المعركة. فكان لابد أن تحيق بنا الهزيمة والعار وضياع فلسطين.

ملاحظة هامة جدا:

لم تشذ أي معركة سواء ٥٦ أو ٦٧ عن ذلك إطلاقا فهي دخول استعراضي وانسحاب. عدم السماح للجيوش بممارسة المعارك إطلاقا.

ملاحظة أخرى:

إن أخطر الأخطاء هو عدم السماح للجماهير بأداء دورها بل منعها عنه بشتى الوسائل. وفي مواجهة حضارة متفوقة علينا تقنيا وفي مواجهة استعمار وتواطؤ، وفي مواجهة جيش عقائدي مسلح بأحدث الأسلحة التي أنتجتها مصانع الغرب

الاستعماري. فإن المواجهة لابد أن تكون.

حرب تحرير شعبية – أيديولوجية إسلامية. لأن الجماهير المسلمة لا تقهر. وهذه حكمة التاريخ وهذه ميزة نملكها فجيوشهم أقوى. ولكن جماهيرنا أكثر وأصلب وهذا حقهم ومصلحتهم وكيانهم مهدد. وعموما هل ترددت الجماهير يوما.

* ينبغي هنا أن ننوه بالبطولات الرائعة التي قدمتها جماهير المسلمين في خارج الأرض المحتلة وتدافعها إلى التطوع وقيام الأنظمة بمنعها كما ينبغي الإشارة إلى قيام حركة الإخوان المسلمين وخصوصا في كل من مصر وسوريا بالتطوع والقتال ونسف المواقع اليهودية في خارج وداخل الأرض المحتلة ولكن ضاعت كل هذه الجهود بسب الأنظمة العربية.

***

مرحلة ما بعد ١٩٤٨

كانت الأمة حبلى بالغضب والثورة. فكل الأقنعة قد سقطت – أفلست الرأسمالية العربية وحكم الرجعية وانحازت للكيان الصهيوني – الجماهير باتت تدرك خطها الصحيح وأعداءها. باتت الجماهير تدرك الارتباط بين الاستعمار – الصهيونية – الأنظمة العربية.

الجيوش العربية نفسها أحست بالمهانة. وعت تلك الجيوش بما أنها جزء من الأمة أن الأنظمة استعملتها لغير صالح أمتها.. جماهير المسلمين في فلسطين ذاتها استوعبت المحنة كاملة.

بدأ المد الجماهيري واسعا وقويا. فقد كانت النكبة هزة قوية أيقظت الوعي والتاريخ في وجدان الجماهير.

بدأ المد الجماهير يأخذ طريقه في كل مكان وكانت النتيجة المرتقبة هي قيام أنظمة جماهيرية إسلامية. ومواجهة صحيحة للغزوة الصهيونية الاستعمارية. ولنأخذ مصر كمثال.

- بعد ١٩٤٨ بدأ النظام الرجعي (نظام الملك فاروق) يترنح تحت ضربات الجماهير الواسعة. الجماهير تطالب بالحرية وبالعدالة الاجتماعية وبمقاومة الاستعمار والصهيونية. إضرابات يومية من العمال – تململ في الجيش – انتفاضات فلاحية ضد الإقطاع في الريف المصري. جاءوا بحزب الوفد للجم حركة الجماهير وتهدئتها. ولم ينجح الوفد في ذلك.

وفي كل مكان كان الوضع مثل مصر الجماهير في حالة مد مستمر.

وعلى الجانب الآخر. القوى الشيطانية تدرك خطر الجماهير. وتدرك أن إسرائيل في حاجة ماسة إلى فترة تستكمل فيها بناء مؤسساتها العسكرية والاقتصادية.

وتحركت القوى الشيطانية. وتمثل تكتيكها في:

- عزل الجماهير المسلمة بأي ثمن وإخراجها من الصراع.

- سحب تراكم الوعي لديها.

وهكذا فإن القوى الشيطانية بدأت تتحرك على عدة محاور:

- إقامة أنظمة بديلة للأنظمة التي لم تعد قادرة على لجم حركة الجماهير قبل فوات الأوان.

- أن ترفع هذه الأنظمة شعارات إصلاحية وتحقق إصلاحات محددة بشرط واحد هو أن تقوم بتسريح الجماهير. ونزع فتيل الوعي من وجدانها وتفريغ الشارع منها.

- عملية غسيل مخ مستمر للجماهير المسلمة وتزييف طبيعة الصراع بينها وبين الاستعمار والصهيونية.

- ضرب شامل لكل طلائع الحركة الإسلامية وتصفية كاملة لهم – والفكر الإسلامي يتم استئصاله.

ولقد تم ذلك عبر:

– قيام النظام الناصري في مصر الذي يصادر الحريات. ويسرح الجماهير ويضرب الإسلاميين. ويحقق إصلاحات شكلية في مقابل ذلك تسمح بتضليل الجماهير. ويصبح عبد الناصر الزعيم الوحيد. المحارب الوحيد المصلح الوحيد – عدو اليهود الوحيد.. إلخ. كما يقوم برفع شعارات اشتراكية لمزيد من التضليل وافتعال معارك تزيد من قيمته كزعيم بشرط عدم مشاركة الجماهير في شيء.

– قيام سلسلة من الانقلابات العسكرية في المنطقة. مثل سوريا مثلا مع رفع نفس الشعارات ونفس التكتيك الذي تم في مصر مثل تجربة البعث مثلا وكذلك في العراق.

– منع قيام نظام جماهيري في الأرض التي لم تحتل من فلسطين فيقوم ملك الأردن الخائن بضم الضفة الغربية ويقوم النظام المصري بضم غزة.

والهدف النهائي هو قيام حاجز بين الجماهير المسلمة وبين عدوها التاريخي إسرائيل وعدم إعطائها أي فرصة للاحتكاك والتماس مع الكيان الصهيوني.

احتواء أي تحرك إيجابي للشعب الفلسطيني في إقامة منظمات جماهيرية للتصدي للكيان الصهيوني بمعنى ألا تخرج تلك المنظمات عن معطف الأنظمة السابق بيان تركيبها وجوهرها وتوجهاتها.

وهكذا وبالأسلوب الشيطاني الماكر وعبر عدة تكتيكات بالغة التعقيد استطاعت القوى الشيطانية أن تمنع الانفجار الإيجابي في المنطقة وتسحب ما تراكم من وعي ومن غضب ومن إدراك لدى الجماهير بعد نكبة ١٩٤٨.

واستمرت المنطقة هكذا في سلسلة مستمرة من الانفجارات الصغيرة الموجهة من قبل القوى الشيطانية لامتصاص وتفريغ حركة الجماهير المسلمة من مضمونها.

***

حرب ١٩٥٦ .. اختلاف التكتيات الاستعمارية

بداية فإنني أقرر أن تقييمي للأحداث تقييما استراتيجيا يخرج من منظور أثق ثقة

مطلقة في صحته.. هو أن أي حركة أو حدث من أي قوة سياسية تقيم من خلال مدى ما أسهمت به من زيادة مشاركة الجماهير ووعيها.

أو مدى ما فعلته لتعطيل حركة الجماهير ووضع معوقات في سبيلها أو التآمر على وعيها وأن أي حدث مهما كانت نتائجه لن يخرج في النهاية عن هذا المنظور. وأن القيمة الحقيقة لأي تحرك هي في النهاية في مدى ما أسهم به في دفع حركة الجماهير إلى الأمام لأن الشيء الوحيد الغير قابل للهزيمة في هذه المنطقة هو الجماهير بما أننا نواجه استعمارا أكثر قدرة عسكرية وتنظيمية وعلمية ولأسباب كثيرة منها ما هو تاريخي وما هو عقائدي وفي النهاية فإن من يقف مع الجماهير فهو وطني.

ومن يفرغ حركة الجماهير ويعوقها تحت أي شعار فهو خائن. سواء أدرك ذلك أو لم يدركه. سواء قصد أو لم يقصد.

كما أنني أقرر ووفق المنظور السابق أنني لن أستدرج في فتح ملفات ووثائق مضادة. فكتابة التاريخ ليست مقصدي بقدر تحليل الأحداث التاريخية لمزيد من الوعي ورؤية المستقبل. وأن الغرق في الوثائق القابلة للتزوير طبعا فضلا عن أنه يخرجنا عن إطار منهجنا الجماهيري في فهم طبيعة الصراع فإنه تضييع للوقت وأنني أدع لغيري تلك المهمة.

كما أنني أضيف أن الكتابة بالطريقة السابقة. فخ استعماري لأن الاستعمار يجيد تزييف الوثائق بما يملك من أدوات علمية. وبما يخططه من أساليب الصراع الفكري التي يجيدها.

وعلى أي حال فإنه إذا تسلح الإنسان بالوعي الجدلي (جماهيري وإسلامي) فإنه يمكن أن يفتح الوثائق والملفات ويكون في مأمن من الانزلاق والانخداع والوقوع في الفخ الاستعماري ويمكنه أن يخرج بنتائج صحيحة وغاية في الأهمية ولكن ليست هذه مهمتي أو قدرتي على أي حال.

* أود أن أضيف أنه في تلك المنطقة كي تكون جماهيريا. فإنك تكون إسلاميا. وأن هناك ارتباطا عضويا لا ينفصم بين الإسلام والجماهير.

وهكذا فإن تحليلنا للأحداث سيتوقف على أثرها على حركة الجماهير.

وهكذا فإننا في تحليل حرب ٥٦ ينبغي أن ندرك.

١- أنه لا يهمني في قليل أو كثير كون نظام

عبد الناصر. محاولة انقلابية أمريكية كما يقول الكثيرون أم لا (انظر كتاب لعبة الأمم – مايلز كوبلاند) وأن ما حدث في ١٩٥٦ هو حماية الاستعمار الأمريكي لنظام عبد الناصر الأمريكاني من الاستعمار البريطاني. أو أنها حرب بين استعمارين ليس إلا.

٢- كما أنه لا يعنيني أن أقول إنها محاولة لإبراز النظام الناصري ليؤدي دوره في قمع حركة الجماهير. وأن أبحث في الأدلة التي تدمغ النظام بالخيانة المباشرة. فلسنا وكلاء نيابة بالطبع.

إن فهمي للحديث يأتي على النحو التالي:

قررت القوى الشيطانية (الاستعمار والصهيونية) أن الجماهير في المنطقة قد خدرت بما يكفي وأن ما اختزنته من غضب ووعي بعد نكبة ١٩٤٨ قد تبدد وأن الوضع في المنطقة يسمح بمزيد من التوسع لليهود. ويسمح بعودة الحكم الاستعماري المباشر لها.

وهكذا قام وزير الخارجية الأمريكي دالاس بسحب عرض بناء السد العالي مما دفع النظام الناصري إلى تأميم القناة. وعلى أثرها قام الاستعمار الإنجليزي والفرنسي واليهودي بالاعتداء الغاشم على مصر.

إلا أن الاستعمار فوجئ بما يلي:

١- أن الجماهير لم تفقد بعد فاعليتها وأنها عملاق لم ينم بعد وأنها سوف تستيقظ لتطيح بالاستعمار وبالنظام الناصري والاستبداد وستشكل خطرا كاسحا للمصالح الاستعمارية والصهيونية في المنطقة.

– فلقد اصطدم الغزو الاستعماري لبورسعيد مثلا بمقاومة شعبية صلبة جدا

بكافة الأشكال البسيطة والرائعة.

- قام فدائيون من قطاع غزة بأعمال فدائية استشهادية. مما هز إسرائيل هزا وشكل نواة لحرب تحرير شعبية.

- وجدت الجماهير في المنطقة فرصة لمواجهة أعدائها في كل مكان فقام العمال بنسف أنابيب البترول التي تغذي الحضارة الغربية. وبدا أن الجماهير ستزحف لتحرير الأرض.

٢- أن ما قام به النظام الناصري من تصفيات لجماعة الإخوان المسلمين في ١٩٥٤ ليس كافيا. فمازالت الجذوة الإسلامية تستعر تحت التراب.

ويمكن أن تخرج منها نار عملاقة تحرق كل القوى الاستعمارية في طريقها. فلقد طالب شباب الإخوان المسلمين الموجودين في السجن وقتها بالسماح لهم بالتوجه إلى مناطق القتال للمشاركة في حرب الشعب ضد الاستعمار. ولقد وقع على هذا الطلب معظم الإخوان في السجون ولقد قام بتقديم هذا الطلب مجموعة من شباب الإخوان لمأمور سجن ليمان طرة وكان يقود تلك الحملة الشهيد أحمد حامد قرقر ومجموعة معه.

نالت تلك المجموعة جزاءها فيما بعد، فيما عرف بمذبحة طرة في ١ – ٦ – ١٩٥٧ فقد تم عمل مذبحة تم فيها إطلاق الرصاص على تلك المجموعة بدون محاكمات

ولا شيء وقد استشهد في تلك المذبحة الشهيد أحمد حامد قرقر ومعه أكثر من ٢٠ من إخوانه وجرح حوالي ١٨٠ من جراء إطلاق الرصاص.

٣- أن الجيش المصري بما أنه جزء من الأمة قد أبلى بلاء حسنا ودفع رجاله الأبرار تضحيات باهظة وحققوا معجزات قتالية برغم أوامر القيادة بالانسحاب من سيناء وعدم السماح له بالدخول في المعركة مع اليهود. دائما يتم منع الجيش من أداء دوره في كل المعارك مع اليهود. ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧.

ومعنى التحام الجيش والشعب والجماهير خارج مصر في معركة مع الاستعمار أن مصالح الاستعمار والأنظمة في خطر – فلابد من احتواء ذلك كيف تم الاحتواء.

– أدركت القوى الاستعمارية أن هناك أمامها مزيدا من الوقت لكي يتم فيه القضاء على وعي الجماهير وإخراجهم من المعركة وأن المعركة قد بدأت قبل أوانها. وأن خطر الجماهير مازال عظيما فكان الآتي:

١– تضغط أمريكا على إنجلترا وفرنسا وإسرائيل وتطالبهم بالانسحاب على هيئة قرار من الأمم المتحدة (متى كانت قرارات الأمم المتحدة تحترم).

«وهل احترمت تلك الدول يوما قرارا للأمم المتحدة في ١٩٤٨ وما بعدها وفي ٦٧ مثلا. بل إن أمريكا ذاتها كانت تدفعهم لعدم احترام القرارات فلماذا في هذه المرة يحترمونها وتضغط عليهم أمريكا!!

٢– تنسحب تلك الدول. مع ضجة إعلامية ضخمة تلقي ظلالا وغيوما على أهمية حركة الجماهير. بحيث.

(أ) يعزى الانتصار إلى ذكاء القيادة السياسية.

(ب) يدفع الجماهير في الوقوع في خطأ قيمة الأمم المتحدة والرأي العام العالمي بحيث يمكن طرح تلك القوى السلمية كبديل للكفاح المسلح.

(ج) تجميل وجه أمريكا. وجعلها في نظر البعض تعمل لصالح الأمم والشعوب الصغيرة.

٣– يتم سحق كل حركة جماهيرية إسلامية في المنطقة. وبما أن النظام الناصري قد انتصر ولو بالكذب فإنه يمكنه الآن ممارسة قمعه بلا حدود.

١– ولقد نجح ذلك التكتيك الاستعماري الشيطاني المعقد أيما نجاح فلقد قام عبد الناصر بطرح نفسه على الساحة كمنقذ وكبطل قومي لا يشق له غبار وأن الضمان الوحيد في مواجهة الاستعمار هو شخصية البطل وليس الجماهير وأن على الجماهير الآن أن تذهب لبيوتها وسيقوم عبد الناصر بكل المهمة. (ولقد قام الإعلام – عبد

الحليم حافظ – شادية إلخ بتكريس ذلك حتى لقد صوروا عبد الناصر كما لو كان سوبرمان يقول للشيء كن فيكون).

* أذكر في ذلك الإطار قيام الأساطير حول شخصية عبد الناصر والتي غذتها أجهزة الإعلام وانتشرت بين الشعب المصري وبخاصة الأطفال عن أن عبد الناصر يستطيع مثلا أن يعبر البحر ماشيا. أو أن يهدم جدارا مثلا بقبضته.. إلخ.

٢– قام النظام الناصري بضرب أسس الفكر الإسلامي ومحاولة استئصال كل أثر للإسلام في حياة الناس ومطاردة كل متدين حتى ولو كان غير سياسي حتى أن الناس كانت تخاف أن تذهب إلى الصلاة. وبالتالي فهو يفقد الجماهير درعها المتمثل في الإسلام تمهيدا لـ١٩٦٧.

* كما قام بالعديد من المذابح واعتقال وشنق أعضاء الجماعات الإسلامية كالشهيد سيد قطب مثلا واعتقال ٣٠ ألف في ليلة واحدة سنة ١٩٦٥.

٣– تزييف طبيعة الصراع وإزاحة المقولات الحقيقية من الساحة (إسلامية – حرب تحرير شعبية) وتكييف الصراع وفق مقولات خاطئة لا يفهمها الناس ولا يشاركون فيها «لاحظ أن عبد الناصر كان يخطب في الناس فينبهرون ولا يفهمون».

وهكذا طرح عبد الناصر القومية العربية – بدلا عن الإسلامية – والاشتراكية بدلا عن بناء مجتمع إسلامي لاطبقي. وهكذا فقد أفقد الجماهير والجيوش العربية حوافزها للقتال ودمر كل دروعها وأسقط كل وعيها. تمهيدا لحرب ١٩٦٧.

٤– خنق وضرب كل توجه جماهيري حقيقي نحو مواجهة إسرائيل عبر:

(أ) منع أي عمل فدائي موجه ضد إسرائيل من غزة.

(ب) مطاردة كل من يحاول تعرية وكشف حقيقة الصراع في المنطقة.

(جـ) تجهيل متعمد بطبيعة الكيان الصهيوني – وجعله شيئا غامضا تماما برغم أن معرفة العدو واجب إسلامي. فضلا عن أنه شيء بدهي. فكيف تواجه عدوا لا تعرفه.

٥- محاولة احتواء أي تحرك فلسطيني وجعل حركة المقاومة الفلسطينية من داخل معطف الأنظمة العربية.

وسوف تسرد بعض الوقائع الخاصة بهذا الموضوع سريعا. ونعد أن نقوم بدراسة حول تلك المسألة وحول تطور حركة المقاومة الفلسطينية.

- وبرغم كل ما سبق، وبما أن حيوية الأمة غير قابلة للموت أو الدمار فإنه كان لابد وبرغم كل اليأس والضباب من ظهور تيار يستمد من إسلاميته أصالة ويقاوم وهذا التيار لم يغب لحظة.

- حاول بعض المناضلين القدامى من أمثال محمد عزة دروزة مثلا تبينه الرئيس عبد الناصر وشكري القوتلي وغيرهم إلى أهمية وجود عمل فدائي يكون نواة حرب تحرير شعبية. ولكن دون جدوى (انظر مذكرات محمد عزة دروزة).

- محاولة الحاج أمين الحسيني إقامة كيان عسكري فدائي بالتفاهم مع الأنظمة المصرية والسورية والعراقية ولكن محاولاته ذهبت هباء لأن تلك الأنظمة لا تريد ذلك.

ملاحظة:

لسنا بصدد مناقشة خطأ الحاج أمين الحسيني أو محمد عزه دروزة في التوجه إلى الزعماء ولمحاولة إبراز العمل الفدائي. فالعمل الفدائي ينتزع ولا يطلب ولكننا نسرد هذا للتدليل على عدم رغبة الأنظمة في ذلك بل ضربها لأي عمل في هذا الاتجاه.

- قيام النظام الناصري والأنظمة الأخرى باستعمال أحمد الشقيري في محاولة لاحتواء حركة الجماهير الفلسطينية ورغبتها في العمل الفدائي. وقد قام السيد أحمد الشقيري بذلك خير قيام. فكان يكتفي بإلقاء بيانات ملتهبة من الإذاعة.

وهكذا فقد قامت تلك النظم وعبر أحمد الشقيري باحتواء حركة المد الجماهيري عن طريق التخدير بالبيانات الملتهبة، ولم تفعل شيئا في سبيل العمل الفدائي. بل إن العمل الفدائي الذي تم عبر فتح والعاصفة سنة ١٩٦٠ طالبوه بالانضمام للشقيري.

- بل إن تلك الأنظمة قامت بمحاولة خنق واحتواء حركة فتح والعاصفة حينما ظهرت إلى الوجود من رحم الأمة المسلمة وبشعارات إسلامية ومارست الخط الصحيح سنة ١٩٦٥.

ملاحظة:

بدأت حركة فتح بداية إسلامية وفدائية (الخط الصحيح لمواجهة الصهيونية) إلا أن الحركة وقعت في النهاية في المستنقع بعد عدة محاولات ومناورات شيطانية خطيرة ستكون محل دراستنا إن شاء الله تعالى. إلا أنها في سنة ١٩٦٥ كانت تمثل أملا على الخط الصحيح.

ملاحظة:

نورد هنا بعض الفقرات التي قالها أحمد الشقيري للأستاذ محمد عزة دروزة حينما زاره في منزله في ١٢ - ١٢ - ١٩٦٥ والواردة بكتاب الأستاذ محمد عزة دروزة ص ١٦٣ وذلك في معرض رده على اقتراح الأستاذ دروزة بضرورة العمل الفدائي.

«ثم حدثته في مآل الرسالة فأكد لي أن مسألة حركة تحرير فعلية هي الآن شغله الشاغل وهو مؤمن بها كل الإيمان. وأن كل همه أن يجد المكان المناسب. وأنها لا تلقى تشجيعا ولا ترحيبا في الأردن ولبنان والعراق وأن الرئيس جمال متردد فيها».

وحينما اقترحت عليه والكلام مازال للأستاذ دروزة - أن يتصل بمنظمة فتح وعاصفتها وأن يدعمها قال الشقيري. إن الرئيس عبد الناصر مرتاب في أن تكون جماعة فتح من الإخوان المسلمين!!

وفي لقاء آخر بتاريخ ١٥ - ١٢ - ١٩٦٦ سأل الأستاذ دروزة عن سبب جمود قطاع غزة وسيناء وعدم قيام أي حركة فدائية تحريرية فيهما وقلت إن الناس يتساءلون كثيرا عن ذلك، والمغرضون يغمزون مصر وزعيمها بسبب هذا الجمود. فقال إنه سيرد عليه بعد وقت ولم يرد!!

***

حرب ١٩٦٧..

ونأتي إلى عام ١٩٦٧ والوضع كالآتي:

- أنظمة تضرب الجماهير بلا هوادة. تضرب طلائع الحركة الإسلامية – تضرب الجذور العقائدية للأمة. تقدم شعارات مزيفة (قومية – اشتراكية – إلخ) تمنع أي محاولة لمعرفة العدو.

- واقع فلسطيني مرتبط بالأنظمة عبر أحمد الشقيري – منظمة التحرير الفلسطينية – كتائب مرتبطة بتلك الأنظمة ولا يسمح لها بالعمل. الاكتفاء بالبيانات الملتهبة عبر الإذاعات والتي يطلقها الشقيري كبديل عن العمل الحقيقي في محاولة لإجهاض أي جنين فدائي يكون نواة حرب تحرير شعبية.

- منظمة فتح خرجت بشعارات إسلامية. ومارست الكفاح المسلح. مطاردة مضطهدة. محاولات لاحتوائها. إلخ.

في مواجهة عدو منظم – ابن الحضارة الغربية يفهم روحها وعلمها مرتبط بعقيدته وتاريخه. مسلح بأحدث الأسلحة.

وتحدث المواجهة..

وللمرة الثالثة تسحب الجيوش من الميدان ولا يسمح لها بممارسة أي قتال حقيقي. مما يدفعني دفعا ووفق التحليل الاستراتيجي إلى أن أشم رائحة خيانة واضحة جدا من قبل عبد الناصر. إن يوميات حرب ٦٧ وما قبلها وما بعدها يدفعني إلى اتهامه بالخيانة المباشرة..

وتكتسح إسرائيل الجيش المصري في سيناء الذي ينسحب ولم يسمح له بممارسة الحرب وتمارس مذبحة بشعة على أبنائه الجنود والضباط الشرفاء أثناء فوضى الانسحاب.

وتحتل سيناء. والضفة الغربية وغزة – والجولان.

ولكن الأمة مازالت حية:

خرجت الجماهير المسلمة في ٩، ١٠ يونيو لتقول لا. سنحارب. لن تجعلنا هزيمة الأنظمة نفقد رؤيتنا الصحيحة. إن حرب التحرير الشعبية هي الحل. لقد غبنا طويلا ومنعونا من أداء دورنا ولكننا نعود اليوم. لقد كانت شعارات الجماهير يومها هنحارب – هنحارب. اليهود أعداء الله.

وتكتشف القوى الشيطانية أن الأمة تمتلك حيوية مذهلة. ويمكن أن تتحول تلك الحركة إلى مد جماهيري يكتسح كل شيء في طريقه. فلابد من توجيه تلك الجماهير إلى عكس الاتجاه.

وبحركة شيطانية تخرج الأفاعي من أوكار الاتحاد الاشتراكي. لتكرس الهزيمة وتصادر حركة الجماهير. وتدعي أنها تطالب بالصنم – وبدلا من أن تتحول حركة الجماهير إلى كشف أسباب الهزيمة وإسقاط الصنم وعودة الجماهير إلى الشارع السياسي. فإذا بتلك الأفاعي تطالب بمؤسسات الهزيمة وشخصياتها وما يلبث عبد الناصر أن يكمل حلقة التآمر فيقبل بالاستمرار على عهد القتال مع اليهود والتحرير لاحتواء الجماهير.

وبما أن ذلك مطلب الجماهير.

واعترف عبد الكريم فريد أحد أقطاب الناصرية ورئيس المكتب التنفيذي للاتحاد الاشتراكي بمحافظة الجيزة وذلك في محاكمات مراكز القوى ١٩٧١ بأن محاولة تغيير مسار حركة الجماهير في ٩، ١٠ يونيو تم بعد اجتماع في مقر الاتحاد الاشتراكي في الجيزة وبناء على أوامر من شمس بدران.

(انظر كتاب الأستاذ كمال خالد المحامي وأحد أعضاء هيئة الدفاع في تلك القضية).

أهمية حركة الجماهير في ٩، ١٠ يونيو.

تكمن أهمية حركة الجماهير المسلمة في ٩، ١٠ يونيو برغم أنها قد تم تغيير مضمونها واتجاهها في:

١ – أن الأمة لم تفقد بعد حيويتها وأنها مازالت تطرح الشعار الصحيح في مواجهة الاستعمار والصهيونية.

«أيديولوجية إسلامية – حرب تحرير شعبية. شعارات الجماهير: اليهود أعداء الله – هنحارب – هنحارب».

٢ – أن تلك الحركة وبما طرحته من رفض الاستسلام قد أخرت الحقبة الإسرائيلية وأخرت طبخة التسوية. فلم يعد النظام الناصري في تلك اللحظة قادرا على إتمام التسوية مما أدى وتحت ضغط الجماهير إلى ظهور مقررات قمة الخرطوم.

- لا صلح – لا اعتراف.

ما بعد ١٩٦٧:

- أفاقت الأمة وبدأت تستعيد وعيها وحركتها التي لم تنقطع يوما. بدأت الشعارات المزيفة والأصنام تتهادى. ولقد تمثلت حركة الأمة المسلمة في:

- قيام مظاهرات الطلبة والعمال ١٩٦٨. لاحظ الشعارات:

عبد الناصر يا دجال – اليهود على القنال.

عبد الناصر يا دجال – يا عميل الأمريكان.

لا إله إلا الله – اليهود أعداء الله.

- زيادة وعي الأمة بأهمية الأيديولوجية الإسلامية – الكفاح المسلح. مما أعطى لحركة المقاومة الفلسطينية دعما هائلا. باعتبار أن إفلاس كل المقولات والنظم ولم يعد هناك من طليعة للأمة سوى المقاومة بوجهها الإسلامي ويطرحها للكفاح المسلح.

ولقد انتزعت تلك الحركة بأعمالها العظيمة داخل الأرض المحتلة قبل ٦٧ وبعده وبإصرار رجالها على أنها ليست ردا على نكبة ٦٧ بل هي رد على الكيان الصهيوني كله. انتزعت دعم الأمة كلها. وجعلت الأنظمة ترتعب منها. على أساس أنها يمكن أن تكون نواة لعمل جماهيري واسع يطيح بالمصالح الاستعمارية

وبالأنظمة معاً.

ولقد تبدت أهمية المقاومة بعد معركة الكرامة في الأردن في أعقاب نكبة ١٩٦٧ والتي ظهر فيها بوضوح أن الإسلام والحرب الشعبية قادرة على هزيمة اليهود وإحداث خسائر ضخمة بهم كفيلة بإنهاء وجودهم في الأرض الإسلامية (٢١ مارس ١٩٦٨).

وقد كانت معركة الكرامة في الأردن فضلا عما أعادته من ثقة إلى الإنسان المسلم في المنطقة تمثل نقطة تحول خطيرة في المنطقة.

وهكذا فقد بدأت سلسلة طويلة من المؤامرات والأفخاخ لمحاولة إزاحة حركة المقاومة عن أيديولوجيتها الإسلامية. وعزلها عن الجماهير ولقد نجحت تلك المحاولات أخيرا. وهذا يستحق موضوع بحث مستقل.

– على أي حال بعد معركة الكرامة – وأحداث مظاهرات الطلبة والعمال في مصر بدأ التكتيك الشيطاني على النحو التالي.

– المزيد من عزل الجماهير تحت شعار لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

– إلهاء الجماهير بعملية محاكمات هزيلة لبعض قواد الجيش في ٦٧.

– إعطاء الضوء الأخضر للأنظمة في لبنان والأردن لتصفية المقاومة ولكن بشكل محدد. كالآتي:

– تصفية غير نهائية حتى لا يكون ذلك سببا في انفجار المنطقة وبروز عملاق إسلامي جماهيري. وهكذا بدأت عملية التصفية من الخارج على يد الجيش الماروني في لبنان – ونظام الملك الخائن حسين في الأردن. مع التمهيد لذلك.

– محاولة إجهاض انتشار فكرة أن المقاومة الفلسطينية يمكن أن تتحول إلى حرب تحرير شعبية انظر مقال محمد حسنين هيكل أحد أعمدة وكهنة النظام الناصري – رئيس تحرير الإعلام الناصري – الأهرام بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٦٨ وجاء فيه.

- دور المقاومة لن يكون حاسما في تصفية العدوان، إنما هو دور مساعد.

- إنها لا يمكن أن تتحول إلى حرب تحرير شعبية لأسباب كثيرة.

وبالطبع أسباب ملفقة وليس هنا مجال الرد عليها ونحن نسردها لنوضح تكتيك القوى الشيطانية في احتواء أي عمل على الخط الصحيح.

- إن التفاوض هو الأسلوب الوحيد الصحيح.

- التمهيد للمساومة وقبول مبادرة روجرز.

النظام الناصري يستجدي الرئيس الأمريكي:

وهكذا فبعد أن قام عبد الناصر بضرب الجماهير وضرب طلائع الحركة الإسلامية ومحاولة حصار فتح والعاصفة – والهزيمة الكاملة أمام إسرائيل وبدلا من أن يعيد الأمور إلى نصابها عبر:

- إعطاء الجماهير حقها الطبيعي في ممارسة دورها التاريخي.

- إيقاف ضرب الحركة الإسلامية. وإعادة احترام عقائد الأمة.

- دعم المقاومة الفلسطينية على طريق حرب تحرير شعبية.

بدلا من ذلك راح عبد الناصر يستجدي الرئيس جونسون ليعلن تكريس الهزيمة والاعتراف بإسرائيل وهكذا كانت مبادرة روجرز سنة ١٩٧٠ والتي يعترف فيها عبد الناصر بإسرائيل. ويؤمن بالحل السلمي على أساس قرار ٢٤٢.

ولكن الجماهير المسلمة ترفض مرة أخرى وتخرج في العواصم العربية لتعلن عبد الناصر يا جبان.. يا عميل الأمريكان..

ولم يعد في المنطقة محور تتمحور حوله حركة الجماهير المسلمة إلا المقاومة الفلسطينية فتقوم القوى الشيطانية بمحاولة تصفيتها على محورين:

١ – التسلل إلى داخل المقاومة. ومحاولة دفعها بعيدا عن إسلاميتها وبالتالي فقدانها أهم أسلحتها.

٢- ضرب متواصل على يد الأنظمة في لبنان والأردن. مذابح أيلول وما بعدها.

***

مرحلة حرب ٧٣ وما بعدها

أدركت القوى الشيطانية أن الجماهير مازالت تملك حيوية مذهلة وأن حلقات الحصار حول الجماهير لم تستكمل بعد. وأنه لابد من استكمال استئناس الجماهير. ولكي يتم ذلك قامت القوى الشيطانية بما يلي:

(أ) عمليات غسل مخ مستمر لعقول الجماهير باتجاه:

أن إسرائيل أمر واقع.

محاولة تخفيف حدة العداء لليهود. عبر مشايخ السلطة.

التركيز على التفوق العسكري الإسرائيلي.

التركيز على أن الهدف هو إزالة آثار العدوان.

(ب) والاتجاه الثاني يتمثل في «بما أن حركة الجماهير مازالت حية وقوية فلابد من دفع زعيم عربي لتحقيق نصر تكتيكي صغير يستطيع به تمرير التسوية.

ولقد استهدفت الإدارة الأمريكية من هذا النصر التكتيكي وتحريك القضية» إلى:

الضغط على إسرائيل لكي تقبل التسوية.

تخدير الجماهير. ورفع زعيم عربي يستطيع تمرير التسوية. (انظر مذكرات كيسنجر)

وانظر أيضا محاضر لقاءات وزراء الخارجية العرب بوزير الخارجية الأمريكي الذي طالبهم بتحريك القضية.

* ولكن حركة الجماهير المسلمة والتي لا يمكن أن تموت أبدا ظهرت في مدينة السويس على يد الأبطال من أعضاء جماعة الهداية الإسلامية ومسجد الشهداء الذي

أصبح مقرا لقيادة المقاومة الشعبية.

ولقد استطاعت تلك المقاومة أن تمنع اليهود من دخول المدينة وأن تدمر ٣٢ دبابة ومصفحة و٥ عربات وعشرات القتلى. ولم يقدر للقوات الإسرائيلية أن تدخل المدينة وتستقر فيها. أبدا..

- قام المجاهدون بعمل كمائن في مداخل المدينة وأحبطوا المخطط الصهيوني ودمروا العديد من العربات اليهودية المصفحة والدبابات.

- قام المجاهدون بالتصدي لليهود وحصارهم داخل مبنى قسم شرطة الأربعين بعد أن احتله اليهود. وتم تصفية اليهود تماما وانسحابهم من المدينة.

- نذكر في هذا الإطار قيام الشيخ عبد الله رضا واعظ السويس بالانضمام إلى المقاومة الشعبية في السويس ومشاركته فيها.

- ولقد استشهد في تلك المعركة العديد من الشهداء نذكر منهم:

الشهيد الأخ إبراهيم سليمان.

الشهيد الأخ إبراهيم محمد يوسف.

الشهيد الأخ أشرف عبد الدايم.

الشهيد الأخ أحمد أبو هاشم.

الشهيد الأخ فايز حافظ.

ملاحظة:

الشيخ حافظ سلامة عضو قديم بجماعة شباب محمد ﷺ. وله مواقف مشرفة منذ بداية وعيه في الأربعينيات فلقد شارك.

في العمل الفدائي ضد اليهود عام ١٩٤٤ في فلسطين. ولقد كان نصيبه السجن على يد النظام الملكي عام ١٩٤٤ في مصر مما أثار انتباهه تجاه ارتباط الاستعمار الإنجليزي. بالصهيونية – بالنظام الملكي.

شارك في حرب ١٩٤٨ في فلسطين. في كتائب جماعة شباب محمد ﷺ. والإخوان المسلمين.

شارك في قتال الإنجليز في القنال في بداية الخمسينيات ضمن كتائب شباب محمد ﷺ والإخوان المسلمين.

استمر في جهاده وبعد حل جماعة شباب محمد ﷺ. قام بتكوين جماعة الهداية الإسلامية واستمر في تأسيس المراكز الإسلامية – مركز مسجد النور بالعباسية ومسجد الفتح بميدان رمسيس.

في هذا الإطار بدأت حرب ١٩٧٣..

ولكن ما إن بدأ رجال القوات المسلحة الأبطال (وهم في النهاية جزء من الأمة) في تلقي الأمر بالقتال. حتى ظهرت إسلاميتهم ورفع شعار الله أكبر واستطاعوا بإمكانيات قليلة جدا. وبسلاح غير متكافئ بالمرة من أن ينزلوا ضربات موجعة وقاصمة بالعسكرية الإسرائيلية. واستطاعوا في ملحمة رائعة من عبور قناة السويس وتحرير ضفتها الشرقية.

وهرع كيسنجر إلى السادات يحذره. (لابد من تكبيل حركة رجال القوات المسلحة حتى لا تتحول الحرب إلى حرب تحرير – لقد اتفقنا على أنها حرب تحريك فقط).

ودخلت أمريكا المعركة عبر خط إمداد بالطائرات والدبابات لإسرائيل من الاحتياطي الاستراتيجي للقوات الأمريكية – معلنة أنها لن تسمح بتحقيق نصر شامل يمكن أن يكون نواة لحركة الجماهير في المنطقة كلها.

مما يطيح بالمصالح الاستعمارية كاملة.

وبدأ المخطط الشيطاني يعمل. كان لابد من اختراق قواتنا.

والدخول إلى الضفة الغربية والدخول إلى مدينة السويس وهذا يعني لف حبل حول رقبة الجيش الثالث. مما يعني:

تحقيق هدف الحرب في التحريك.

إظهار السادات بمظهر البطل الذي هزم إسرائيل ولكنه لم يستطع هزيمة أمريكا.

وأنه في سبيل إنقاذ الجيش الثالث سيقبل بالتسوية مما يعني الاعتراف بإسرائيل – تطبيع العلاقات. أي الدخول في الحقبة الإسرائيلية. وكان مخططا لكل هذا أن يتم في ٧٣.

الغريب هنا أنه لم يتم ضرب ما سمي وقتها بالثغرة. مما يدعو إلى العجب ولم يسمح لجماهير المنطقة بالقتال مع العدو تحت شعار أن القوات المسلحة تكفي.

ولكن شعب السويس البطل أفسد الخطة الأمريكية. وراح يقاتل في بسالة وشجاعة بقيادة البطل الشيخ حافظ سلامة مما جعل طبخة التسوية تتأخر كثيرا. ومما جعل النظام في مأزق وأصبح غير قادر على إتمام التسوية حيث إن:

١- لا يستطيع النظام أن يدعي أن الدخول في التسوية يعني إنقاذ الجيش الثالث. فالجيش صامد وشعب السويس يلتحم معه ويمده بالماء والمؤونات الغذائية ويحمي السويس في ملحمة رائعة.

٢- أن النظام بات يدرك أن الجماهير مازالت قوية وحية ونابضة وأنه مازال هناك مزيد من الوقت لتخديرها.

وهكذا فإن شعب السويس البطل قد غير معالم المنطقة بصورة فذة وحمى مدينته من السقوط. ولو سقطت المدينة لا سمح الله. لكان النظام استطاع أن يوقعنا في الحقبة الإسرائيلية سريعا وبشكل درامي.

* صحيح أن النظام بعد ذلك استطاع أن يوقع كامب ديفيد. ولكن قطاعات الجماهير الواسعة كانت في وضع سمح لها أن تقف بصلابة ضد كامب ديفيد وأن تطيح بالسادات ذاته في النهاية. مما لم يكن متوفرا بالقطع وقتها لو سقطت السويس.

وهكذا فإن الشيخ حافظ سلامة. قد هزم أمريكا. كيسنجر وإسرائيل والسادات. وأفسد الطبخة الأمريكية للتسوية.

كما أن الشيخ حافظ سلامة. قد دعم وأضاف إلى مسيرة الجماهير الصاعدة من عز الدين الدين القسام. وحتى حافظ سلامة.

***

مرحلة ما بعد ٧٣

كانت الأمة قد مرت بمراحل عديدة من التحذير والتكبيل. وكانت الفترة الناصرية هي أقساها وأعنفها. وبانتهاء الفترة السوداء في تاريخ المنطقة. كانت الأمة قد سئمت كل مقولات وشعارات تلك الفترة. وأصبحت تقف موقف العداء الواعي والغير واعي لشعارات تلك الفترة. وأصبحت تكره كل ما يمت إلى الناصرية بصلة.

وهكذا كان على القوى الشيطانية أن تعمل لتصعيد نجم جديد يرفع شعارات جديدة يحقق بها الالتفاف حوله. وفي نفس الوقت يحقق نصرا عسكريا يحقق مزيدا من ذلك الالتفاف ليتسنى له أداء دوره في تمرير الحقبة الإسرائيلية. وهكذا كان السادات. وهكذا كانت حرب ٧٣.

وبدأت القوى الشيطانية تعمل بسرعة على النحو التالي:

١- رفع شعارات الديمقراطية وسيادة القانون ليلتف الناس حول القيادة الجديدة الممثلة في السادات. ولكنها ديموقراطية غير حقيقية وسيادة قانون مزيفة وقد ظهر في الاعتقالات المتكررة وآخرها اعتقالات ٤ سبتمبر ١٩٨١.

٢- مهاجمة التجربة الناصرية. ولكن ليس في الاتجاه الصحيح ولا بالشكل الصحيح.

* أخطر أساليب الغزو الفكري التي يمارسها الاستعمار والصهيونية هي التحليل الخاطئ للظواهر التي يلعنها الشعب. لمزيد من الالتفاف حوله لأنه لو حللنا تجربة ما بشكل خطأ. فلن نستطيع تصحيحها ولكننا سنأتي بتجربة أسوأ منها. وهذا ما حدث بالضبط.

فلقد تم مهاجمة التجربة الناصرية. ليس باعتبارها أحد الأساليب الفاشية

والديماجوجية لاستلاب وعي الأمة وتغريبها عن دينها. «الضمان الوحيد للتصدي» ولكن باتجاه مزيد من العلمانية ومزيد من الاغتراب. ومزيدا من قمع حركة الجماهير.

* إن عملية التحليل الخاطئ لأي ظاهرة هي في النهاية. إحدى أدوات القوى الشيطانية في إبعاد التحليل الصحيح لتلك الظاهرة.

وهذا موضوع بحث مستقل إن شاء الله.

* نود أن نشير هنا إلى أن تلك المسألة قد مارسها هيكل مرارا وتكرارا وآخرها كتاب خريف الغضب. الذي يعزو فيه فشل سياسات السادات ورفض الجماهير لها باعتبارها ترجع إلى عقد السادات الشخصية وليست لطبيعة النظام ذاته. وطبيعة المرحلة وطبيعة الصراع. وطبيعة حركة الجماهير المسلمة.

٣- السماح بشكل ما من أشكال المعارضة المستأنسة ولكن بشرط ألا تكون إسلامية. وألا تكون جماهيرية. وفي هذا الإطار فقد تم تشييع جنازة الاتحاد الاشتراكي المرفوض من الجماهير حتى النخاع ولكن ليس باتجاه إقامة مجتمع إسلامي. يدفع الجماهير لمواجهة الاستعمار والصهيونية ولكن باتجاه إقامة معارضة علمانية شكلية. «المنابر ثم الأحزاب».

٤- محاولة تغيير قيم المجتمع ليصبح مجتمعا ماديا. فالمادة والثراء هما المعيار الوحيد الصحيح. وليس الكرامة والعمل في سبيل الله ثم الأمة.

وأصبح من الطبيعي أن يدفع النظام عبر أجهزة الإعلام «أفلام. مسلسلات. مقالات. تحقيقات صحفية. كتب.. إلخ» أن يدفع الأمة في اتجاه التكالب على الربح والثراء. بأي ثمن.

٥- إغراق الأسواق بالسلع الترفيهية.

٦- إعلان سياسة الانفتاح الاقتصادي – وهو شكل ملائم جدا للحقبة «الإسرائيلية – الأمريكية» ليسهل للاحتكارات الصهيونية والأمريكية امتصاص قوتنا.

٧- رفع شأن المخنثين وعديمي الرجولة. واعتبارهم نجوما لامعة وأبطالا قوميين. ومثلا يحتذى به. من الراقصات. والممثلين الساقطين العرب والأجانب، بل واستقبالهم في ضيافة السادات.

٨- إغراق الأسواق بالكتب الجنسية والأشرطة المنافية للآداب.

٩- وهكذا أصبح المجتمع. مجتمع الساقطين – انفتاح. سمسرة. عمولات. استيراد وتصدير. تجارة عملة. إلخ.

١٠- محاولة ربط مسألة الرخاء. بمسألة الصلح مع إسرائيل. وأنها والحروب وغيرها من المقولات التي سادت تلك الفترة. بل إننا نجد كثيرا من الكتاب يطالب بإنهاء الحروب والتصالح مع إسرائيل.

١١- دفع مصر باتجاه إحياء الوطنية المصرية كبديل للقومية العربية وليس دفع الانتماء العربي إلى انتماء أوسع «الانتماء الإسلامي».

١٢- استبدال القطاع العام بالقطاع الانفتاحي غير المنتج وتصفية كل إنتاج محلي باتجاه إقامة طبقة طفيلية تتميز بالبلطجة السياسية والرغبة في الربح السريع.

على أن تكون تلك الطبقة الطفيلية وكيلة للاحتكارات العالمية المرتبطة بالاستعمار والصهيونية. بل وإلغاء المقاطعة للسلع الإسرائيلية، وهكذا أصبح المجتمع ملائما للحقبة الإسرائيلية.

وهكذا تحرك السادات باتجاه. مفاوضات الكيلو ١٠١.

فعن الاشتباك الأول والثاني.

فتح قناة السويس.

وأخيرا زيارة السادات الدراماتيكية للقدس. مع التركيز على أن الصراع بيننا وبين الكيان الصهيوني هو من الأساس صراع نفسي وليس صراعا حضاريا عقائديا تاريخيا. يمتد في التاريخ والجغرافيا إلى أبعد الحدود.

التبشير بمقولة أن ٩٩٪ من أوراق اللعب هي بيد أمريكا. وليست بأيدي الأمة المسلمة والجماهير المؤمنة الملتزمة بالإيمان بالله وبالأيديولوجية الإسلامية. وحرب التحرير الشعبية الإسلامية مع التركيز على إفقاد الأمة ثقتها بنفسها وفي قدرتها على المواجهة.

وأخيرا توقيع كامب ديفيد مع تغطية إعلامية واسعة ومضللة وكامب ديفيد تعني:

(أ) الاعتراف بإسرائيل.

(ب) الانسحاب من سيناء على أن تكون خالية من السلاح «منزوعة السلاح».

(جـ) انتهاء حالة الحرب.

(د) تطبيع العلاقات «سفراء. وتبادل اقتصادي.. إلخ)

(هـ) شكل ما من أشكال حل القضية الفلسطينية مبهم وغير واضح ولكنه في كل حال يسقط كل شكل من أشكال رفض إسرائيل جذريا.

وهكذا وبتوقيع كامب ديفيد تبدأ الحقبة الإسرائيلية التي تتميز بـ:

١- مجتمع الرأسمالية الطفيلية.

٢- إغراق الأسواق بالبضائع الإسرائيلية.

دفع المجتمع نحو التفسخ الأخلاقي – أفلام جنسية وأشرطة فيديو بل وحتى تغيير قانون الأحوال الشخصية باتجاه تفسح الأسرة – وإقامة امرأة ورجل مطلقان في بيت واحد.. إلخ.

أي في النهاية تصعيب الزواج – قانون مشبوه من أوله إلى آخره يدفع المجتمع للانحراف – تحكم النساء في الرجال.. إلخ.

دفع الشباب للهجرة واعتبار معيار النجاح هو الحصول على عقد عمل بالخارج. وليس بناء مجتمع متماسك. فأصبح قمة النجاح هو الحصول على عقد عمل خارج مصر.

أي أن المنحنى قد وصل إلى نهايته.

ولكن هيهات..

حركة الجماهير المسلمة:

ولكن حركة الجماهير المسلمة لم ولن تتوقف لأن هـذه طبيعتهـا وهـذه سـنة الله سبحانه. فالإسلام والحركة الإسلامية نبت يرعاه الله تعالى.

ولقد تمثلت حركة الجماهير المسلمة في:

- ظهور تيار إسلامي قوي بين الشباب وخاصة في الجامعات برغم كـل حلقـات الحصار. وظهور اللحية كتحد للاستغراب لدى الشباب، والزي الإسلامي للفتيات. وانتشار ذلك انتشارا واسعا.

- معارضة قوية جـدا داخـل المسـاجد لمسـألة الصـلح وتطبيـع العلاقـات مـع إسرائيل وخاصة في مسجد الشيخ أحمد المحلاوي الـذي قـاد المعارضـة الإسـلامية وغير الإسلامية لكامب ديفيد.

وكذلك الشيخ كشك – والشيخ حافظ سلامة في السـويس والشـيخ صـلاح أبـو إسماعيل وعبد الرشيد صقر بمسجد صلاح الدين. وتقريبا كل مساجد مصر.

- معارضة الصحف الإسلامية «الدعوة والاعتصام والمختار الإسلامي» لكامب ديفيد وتطبيع العلاقات مع إسرائيل وكـذلك تنظـيم حملـة مقاطعـة واسـعة للبضـائع الإسرائيلية وكل ما هو إسرائيلي.

والتركيز على ربط رفض كامب ديفيد. برفض إسرائيل جذريا وكذلك الاسـتعمار الأمريكي.

- انتفاضات الجماهير المستمرة في ١٨، ١٩ يناير وغيرهـا كثيـرا، وفي المصـانع والجامعات. ومظاهرات الجامعات المصرية.

ونقابة المحامين وغيرها من النقابات تحت قيادة الإسلاميين.

* وكان من الطبيعي أن تطلب إسرائيل ضرب الحركة الإسلامية لأنها المعوق الرئيسي أمام التطبيع فيتم اعتقال الشيخ أحمد المحلاوي، ثم ما تلا ذلك من أحداث درامية واعتقالات في ٤ سبتمبر على أثر افتعال أحداث الزاوية الحمراء على يد النبوي إسماعيل وزير داخلية السادات.

مما أدى في النهاية إلى تصفية السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١ في العرض العسكري على يد منظمة الجهاد الإسلامي. وهكذا تسقط الحقبة الإسرائيلية وكامب ديفيد عمليا. وتدخل المنطقة في مرحلة جديدة.

***

حرب الصيف الثاني والثمانين

انطلاقا مما تقدم وبمعرفة معطيات الواقع التاريخي في مرحلة حرب ٨٢ وما قبلها بقليل، نستطيع أن نفهم أهداف حرب ٨٢ من قبل العدو الصهيوني.

ولن يكون غريبا علينا في هذا الإطار أن نفهم لماذا كانت معظم الأنظمة العربية تدعم وبشكل مباشر، بل وتحفظ الكيان الصهيوني نحو تصفية تناقضها مع المقاومة سريعا؟!

وهكذا فإن عام ٨٢ بدأ وكانت القوى قد أفرزت على النحو التالي:

١- الكيان الصهيوني رأس الحربة الاستعمارية مدعوما من الحضارة الغربية ممثلة في أمريكا وأوروبا (الرأسمالية والشيوعية).

٢- الأنظمة العربية وقد أصبحت بشكل أو بآخر في معسكر واحد مع الكيان الصهيوني.

٣- المقاومة الفلسطينية (قيادات المنظمة) ذات الطبيعة والظروف الخاصة.

٤- القوى الصليبية المحلية ذات الطبيعة الخاصة أيضا ولننظر الآن في دور كل قوة من هذه القوى:

* الأنظمة العربية: تغري الكيان الصهيوني بحل التناقض مع تيارات المقاومة

عن طريق الحل العسكري مقدمة كل عون وخاصة من البترول لإدارة آلة الحرب الإسرائيلية سواء بطريقة مباشرة أم بطريقة غير مباشرة وتقدم عونا ماديا للكتائب اللبنانية مع محاولة استدراج المقاومة لمستنقع الخيانة بكل الطرق.

وضع حاجز كثيف يمنع وصول الدعم الجماهيري إلى المقاومة داخل لبنان.

الاستعداد لمساعدة إسرائيل عن طريق المفاوضات التي تعوق الجماهير المقاتلة وتخدرها وأخيرا بيانات الشجب والاستنكار المثيرة للضحك.

* القوى الصليبية المحلية: سعد حداد. الكتائب. إلياس سركيس. فؤاد بطرس.. إلخ.

هذه القوى تملك وضعا خاصا يتمثل في أنها تعرف انتماءها بأنه لا عربي ولا إسلامي بالطبع بل معادية للجماهير بشكل مباشر وتسعى لإقامة كيان متميز داخل لبنان يستند على الكيان الصهيوني داخل فلسطين. وهذا الكيان يختلق مبررات تاريخية وعربية خاصة به جعلها تقف في كل مراحل تاريخ الصراع في المعسكر المعادي للجماهير المسلمة هذا رغم عدم جدية مبررات القوى الصليبية المحلية التي لم تجد يوما اضطهادا من قبل القوى الإسلامية على طول التاريخ وعرضه.

ولقد قامت تلك القوى الصليبية باستمرار بضرب الجماهير المسلمة بلا هوادة وبشكل يدعو للاستفزاز وضرب رجال المقاومة المسلمة الفلسطينية مما أدى إلى تفجير الصراع في لبنان من أوائل السبعينيات وحتى الآن.

كما قامت القوى الصليبية بمساعدة آلة الحرب العسكرية في اقتحام كثير من المواقع مثل معركة كلية العلوم وبقيام الموارنة بالعمل كأدلاء ومرشدين لقوات العدو المعتدية.

ولا يخفى علينا الدور الكبير الذي قام به الصليبيون في إقناع قادة العدو باستئصال المقاومة نهائيا من لبنان وخاصة بيروت.

***

قيادة المقاومة الفلسطينية:

يمكننا أن نفهم الطبيعة الخاطئة التي تملكها المقاومة الفلسطينية كقيادة فيما لو رجعنا لما سبق أن ذكرناه عن طبيعة المنظمة والشروط التي تعمل فيها والتي نلخصها مرة أخرى نظرا لأهميتها.

تمتلك المنظمة هامشا من التناقض مع الكيان الصهيوني وهو المستهدف من حرب ٨٢.

طبيعة تركيب المنظمة وأيديولوجيتها في مواجهة الغزوة الصهيونية بمعنى أن المنظمة في النهاية تركيب علماني (قومي – وطني – اشتراكي.. إلخ) وبالتالي فإنها لا تملك الرؤية الصحيحة لطبيعة الصراع كما أنها لا تملك حتى النهاية، القدرة على التصدي للهجمة الغربية باعتبارها تحمل مقولاتها في النضال، فكيف تتحدى مثلها الأعلى؟

المنظمة خاضعة لشرط وجودها داخل لبنان بما يمثله الاستفزاز الصليبي من تكثيف وإلقاء الضوء على حقيقة الطبيعة الإسلامية للصراع وبالتالي وعي جماهير المسلمين في لبنان لذلك البعد وهذا يقلل قدرة المقاومة على المناورة بفضل تلك الجماهير.

* الجماهير المسلمة: كوادر المقاومة الفلسطينية المسلمة والمنظمات الإسلامية.

الجماهير المسلمة في تلك اللحظة أدركت شروط عملها وأبعاده وهي وحدها التي تملك تناقضا جوهريا مع الكيان الصهيوني باعتبار أن الصراع في النهاية صراع حضاري لا يستهدف قطعة أرض بل يستهدف كيانها ووجودها ذاته أدركت تلك الجماهير المسلمة أن صراعها مع الكيان الصهيوني يمتد في الزمان والمكان في الزمان عبر الغزو الاستعماري أو حلقات الغزو الصليبي وعبر خيبر في المدينة المنورة.

وفي المكان عبر العالم بأسره وليس العالم الإسلامي فحسب، أدركت تلك

الجماهير أن الأنظمة العربية قد أصبحت في معسكر أعدائها بعد أن أصبحت مصالحها ترتبط بمصالح الصهيونية الغربية ضد الجماهير ذاتها لقد قال أحد المقاتلين: إن القنابل التي أسقطتها علينا الطائرات كانت بفضل البترول العربي الذي سير هذه الطائرات كما أدركت تلك الجماهير الطبيعة الخاصة لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية أي أنها لن تخرج من أن تكون خاضعة لشروط تناقضها مع إسرائيل أي أنها ستقف مع الجماهير ولكن بحدود فإنها ستخضع في النهاية لطبيعتها التفاوضية وهكذا فإن الجماهير أدركت بوعيها أن عليها أن تدفع قيادات المنظمة لأخذ قرار الصمود وأيضا أدركت الجماهير المسلمة أنها تعمل تحت شروط خاصة وأفضل بمعنى أنها في مواجهة الغزوة الصهيونية وجها لوجه لا يحول بينها قوة قمع كما حدث في المرات السابقة – القسام – حافظ سلامة – معركة الكرامة (تحت مظلة النظام الأردني)... إلخ.

وذلك بسبب طبيعة السلطة في لبنان وظروف منظمة التحرير وهكذا فإن العوائق لن تكون كبيرة في هذه المرة لمواجهة الكيان الصهيوني وجها لوجه.

هذا ولم تغفل تلك الجماهير المسلمة عن بعض العوامل التي تزيد مهمتها صعوبة بمعنى وجود طابور خامس داخل لبنان يعمل لصالح إسرائيل وبمعنى أنها تقف وحدها وبمعنى أنها تواجه أقوى الجيوش في المنطقة وبمعنى عدم تكافؤ تسليحها مع تسليح الكيان الصهيوني... إلخ.

وهكذا بدأت الحرب:

بدأت حرب ٨٢ بما سمي وقتها بعملية سلام الجليل ولقد رسمت القيادة العسكرية الصهيونية خطتها على أنها مجرد عملية محدودة يتم فيها حل التناقض مع المقاومة بمعنى ضربها ضربات تكتيكية تخرجها من لبنان وتقربها من شروط التسوية ولكن يبدو أن مخططي السياسة الإسرائيلية أغفلوا في هذه المرة شروط عمل الجماهير المسلمة الشجاعة بل والإيجابية وهكذا لم تكن العملية المحدودة قادرة على تحقيق ذلك.

وهكذا سارعت قيادة العدو إلى تطوير العملية مستخرجة كل قواها النظامية ونصف الاحتياطي ١٣٥ ألف جندي ومستعملة الكتائب وسعد حداد وبقية القوى الصليبية.

إن نظرة لتلك الحرب تعطينا المؤشرات التالية:

١- لقد جند العدو الصهيوني آلة حربه الاستعمارية مسلحة بأحدث السلاح الغربي مكتسبة خبرة أربعة حروب سابقة ضد جبهة واحدة منفردة هي الجبهة الإسلامية المكونة من رجال المقاومة الفلسطينية وجماهير المسلمين المستضعفين.

وبالطبع ليس هناك وجه للمقارنة بين تسليح هذه القوة وتلك ووقفت الجماهير المسلمة تقاتل من موقع إلى موقع رغم ظروفها الصعبة معتمدة على عون الله ومدده ومستعملة إيمانها العميق الذي يضرب في جذور التاريخ ومستلهمة مواقف خالد والحسين والقسام وحافظ سلامة ورجال معركة الكرامة ولقد استطاعت تلك الجماهير أن تنزل بآلة الحرب الصهيونية خسارة موجعة اعترف بها الجنرال إيتان رئيس أركان حرب العدو في تقرير نشر في مجلة الجيش الرسمية (سبعة وعشرون ألفا وخمسمائة وستون إصابة بين قتيل وجريح ومفقود وهو أعلى رقم تكبدته دولة العدو في تاريخها على الإطلاق ويفوق ضعف خسائرها في الحروب السابقة).

* لقد صمد المقاتلون البواسل داخل مدينة بيروت الغربية برغم حصار الجوع والعطش وبرغم أكثر من نصف مليون صاروخ تثبت أن بيروت الغربية هي أول مدينة في التاريخ العسكري ظلت تقصف من البر والبحر والجو في وقت واحد بالإضافة إلى حصار الجوع والعطش ومع ذلك لم تتقدم القوات الإسرائيلية بل ظلت مغروسة في الوحل على حدودها تنزف الدم وتهلل لتقدمها مترا أو مترين على هذا المحور أو ذاك لتعود بعد ساعات مقهورة.

وقد قدر الخبراء العسكريون الإسرائيليون ثمن اقتحام بيروت بخمسين ألف إصابة.

وهكذا كانت الجماهير المسلمة على وشك تحقيق نصر استراتيجي واسع

النطاق كان كفيلا بإسقاط الحقبة الإسرائيلية بكاملها وبما فيها الأنظمة العربية العميلة.

وهنا لجأت المؤسسة الإسرائيلية إلى الاستنجاد بحلفائها لتحقيق ما لم تستطع تحقيقه المؤسسة العسكرية الصهيونية ولتتكرر نفس مأساة ١٩٤٨.

إن المد الجماهيري ضد الأنظمة العربية بدأ يتسع إبان حصار بيروت، وإن استمرار صمود الجماهير المسلمة في بيروت يعني خطرا حقيقيا على تلك الأنظمة بما تشكله تلك الجماهير المسلمة الصامدة من إلهام للجماهير خارج لبنان، ولما تلقيه من أضواء على طبيعة الصراع وصحة الطرح الإسلامي في اعتبار أن حرب التحرير الشعبية الإسلامية طويلة المدى هي الحل الصحيح لحسم الصراع التاريخي، وبما تقدمه من نموذج فدائي استشهادي، وكشف القوى المزيفة الرجعية العربية والاشتراكية على السواء وهكذا.. كان لابد من تطويق سريع لحركة الجماهير المسلمة وسرقة انتصارها وتفريغ مضمونه سريعا قبل أن يشكل قواه لتفجير المنطقة.

وتبدأ تحركات القوى الشيطانية على عدة مستويات:

- كسر إرادة الصمود لدى المقاتلين المسلمين في بيروت عبر استدراج قيادة المقاومة لأخذ مواقف تهاونية. وقد تم ذلك كالآتي:

تقوم حكومة لبنان «إلياس سركيس» و«فؤاد بطرس» التي لا تمثل الشعب اللبناني المسلم الصامد في بيروت - بالضغط النفسي على قادة المقاومة والمقاتلين للاستجابة بحكم طبيعة تكوينهم وأيديولوجيتهم، بدعوى إنقاذ بيروت من الخراب!

تقوم الأنظمة الرجعية العربية بالتلويح لقيادة المقاومة (المهزومة قبل أن تدخل المعركة) بإمكانية الخروج من بيروت سالمين وبإمكانية التسوية وبإعطائها وعدا بالضغط على أمريكا لتسمح بقيام دولة فلسطينية على جزء من الأرض.

تقوم أمريكا بإرسال مبعوثها (فيليب حبيب) لطبخ التسوية، ولتحقيق فتح بيروت

على إسرائيل دون قتال، ومنع جماهير المسلمين من تحقيق انتصارها الفذ.

ولاشك أن قيادة المنظمة قد استجابت لها، نظرا لما ذكرناه من قبل أن طبيعتها غير الإسلامية (العلمانية)، ولافتقادها الرؤية الحضارية للصراع فإنها سريعا ما تبيع دم المقاتل وتتفاوض (التفاوض سمة أساسية من سمات تلك القوى غير الإسلامية).

وهكذا تم استدراج ياسر عرفات (لاحظ المنزلق) وهو استقبال مبعوث البرلمان الأمريكي (ماكلوبسكي) وإصدار الوثيقة المشهورة أثناء الحصار ضمنها اعتراف المنظمة بجميع القرارات الصادرة من الأمم المتحدة في شأن الفلسطينيين مما يترجم في النهاية اعترافه بالعدو.

ولقد كانت تلك الوثيقة أخطر من قنابل الطائرات والبحرية وكل آلة الحرب الإسرائيلية التي لم تستطع إسقاط إرادة القتال والصمود لدى الجماهير المسلمة للشعبين الفلسطيني واللبناني. ومن مارس الحرب يعرف أهمية إرادة الصمود في تحقيق النصر. إن تلك الوثيقة قد شرخت إرادة الصمود لدى المقاتلين ولكي ندرك ذلك لابد أن نعرف أسباب صمود الجماهير المسلمة للشعبين الفلسطيني واللبناني.

إن صمود تلك الجماهير المسلمة ينبع أساسا من وعي تلك الجماهير لطبيعة الصراع الإفنائي بينها باعتبارها تمثل في تلك اللحظة طليعة الأمة الإسلامية وفلذة كبدها وبين رأس الحربة الغربية الممثلة في إسرائيل لإفناء الكيان الحضاري لتلك الأمة.

ينبع صمود تلك الجماهير من ذلك الامتداد العميق في التاريخ باتجاه بدر وغار حراء في مواجهة خيبر وبني قينقاع.

ينبع من إدراكها أن تلك المواجهة تمثل صراع القوى الإسلامية في مواجهة القوى الشيطانية وبالتالي فهي تمثل محمدا ﷺ في مواجهة الشيطان، وتمثل الحسين في مواجهة يزيد، وتمثل خالدا في مواجهة هرقل.

فإذا بالمناضل «ياسر عرفات» يسحب ذلك البعد التاريخي والاستراتيجي الفذ

والممتد لغايات بعيدة يسحبه ويستبدله ببعد صغير حقير مجرد من أي زمن تاريخي أو أيديولوجي مستندا على مجرد الظفر بقطعة أرض كما حددت تلك القرارات الدولية – وهكذا فإن الحافز على الاستمرار في القتال قد سقط مادام الأمر يتلخص في قطعة أرض ستوفرها في النهاية مفاوضات الغرف المكيفة!!..

وهكذا فإن تلك الوثيقة كانت شرخا هائلا في صمود الجماهير المسلمة للشعبين اللبناني والفلسطيني داخل بيروت.

وهكذا فبعد أن تم تحقيق ذلك الشرخ فلا مانع من مرحلة تالية من مراحل التفاوض وليبدأ «حبيب» استكمال تحقيق النصر للهجمة الغربية وليدخل «فيليب حبيب» بيروت مشفوعا بتأييد البعض ليحقق ما لم تستطع آلة الحرب الإسرائيلية تحقيقه.

وهكذا يقوم «فيليب حبيب» بطبخ مؤامرة تسوية لإخراج المقاتلين من بيروت وبذلك يحقق «فيليب» والمغرر به «عرفات» أهداف المتآمرين ولنقترب من التكريس النهائي للحقبة الإسرائيلية بمعنى:

– أنه بتصفية التناقض بين المقاومة الفلسطينية وإسرائيل عبر إخراجها من بيروت وتشتيت قواتها وإفقاد الجماهير المسلمة لحليف قوي لم تعد إسرائيل تواجه سوى الجماهير المسلمة – المستعصية على الضرب والإفناء – (وفي الحقيقة فإن إسرائيل على طول تاريخها لم تواجه تحديا حقيقيا إلا من تلك الجماهير في طول تاريخ الصراع):

– إن خروج المقاومة من لبنان يعني سحب نواة جيدة كان يمكنها أن تتحول إلى قوة جماهيرية هائلة لإزاحة الحقبة الإسرائيلية بكاملها ولتشكل جدارا صلبا يمكن أن يسقط التسوية في النهاية برغم أنف قيادات المنظمة نظرا للظروف الخاصة في لبنان..

وهكذا فإن آخر معاقل الجماهير قد سقط، يلاحظ في هذا الإطار ضرب الملك حسين للجماهير المسلمة في معارك أيلول الأسود وإخراجها من الأردن.. قيام

النظام السوري بضرب العناصر الإسلامية بلا هوادة وكذلك كل الأنظمة العربية.

- لم يبق للجماهير قاعدة تتحرك عليها وبالتالي فإنه يمكن تمرير التسوية.

ملاحظة:

١- سيتم المحافظة وفقا للخطة الأمريكية على قيادات المنظمة تمهيدا لإعطائهم قطعة أرض ليقوم عليها وطن فلسطيني يشكل حائلا جديدا ضد الجماهير في مواجهة الغزو الاستعماري الحضاري الصهيوني.

٢- ستحاول إسرائيل إقامة كيان ماروني ورئاسة مارونية على رأس لبنان ليقوم بمهمة ضرب معاقل الجماهير المتبقية «بشير الجميل» وعمليات جمع السلاح.. إلخ.

- ستحاول إسرائيل ضرب التوجهات الجنينية داخل رحم الأمة لمنع تطور تلك الجماهير المسلمة نحو تنظيم نفسها وامتلاك زمام أمرها في مواجهة الغزوة الصهيونية. مذبحة صابرا وشاتيلا.

وسوف نقوم بتحليلها فيما بعد.

٣- عملية الخروج ذاتها لننظر فيها على النحو الآتي:

- حفلات توديع - مقاتلون يخرجون بسلاحهم - عدم تجمعهم في مكان واحد - تشتيتهم - إلخ.. المحافظة على نفس القيادات القديمة..

- لاشك أن عملية الخروج خيانة ضخمة لجماهير المسلمين من الشعبين الفلسطيني واللبناني واللذين تركا لمواجهة العسكرية الإسرائيلية والعسكرية الكتائبية دون سند عسكري أو نفسي.

- يدعي قادة المنظمة أنهم خرجوا من بيروت، لأن بيروت ليست في النهاية مدينة فلسطينية وهذا خطأ تاريخي وواقعي!

تاريخيا فالصراع ليس صراعا فلسطينيا إسرائيليا ولكنه صراع إسلامي صهيوني مع ملاحظة أن قادة المقاومة قد خانوا حتى توجهاتهم القومية.. فمازالت بيروت مدينة عربية!! أليس كذلك؟

وواقعيا فإن صمود بيروت الغربية صمودا فذا لم تكـن القيـادة تتوقعـه ولم تشـتك بيروت الغربية، بل حتى لم تئن تحت ضربات العسكرية الإسرائيلية بل ظلت شـامخة وأعني أن جماهيرها كانت أكثر صمودا حتى منكم ولم تطالبكم بالخروج، بـل قاتلـت معكم بيتا ببيت، وكانت على استعداد للصمود حتى النهايـة. بـل لا أقـول جديـدا إذا قررت أنها قاتلت حتى بعد خروجكم.

إنها قاتلت لأنها تدرك البعد الحضاري للصراع!

- يدعي قادة المقاومة: أن الخروج من بيروت كان من أجل أطفالهـا وهـل يبيـع أطفال بيروت كل مستقبلهم في مقابل لحظة أمان غير مضمونة (انظر صابرا وشاتيلا)

لا يا سادة إن خروجكم من بيروت كان خيانة لأطفالها وبيعا لمستقبلهم وتسليما لهم غنيمة لفوهات «مدافع الكتائب» «وسعد حداد» «وشـارون» ولـن يغفرهـا لكـم الأطفال.

وهكذا تنتهي معركة بيروت وقد انتقلـت قيـادة المقاومـة الفلسـطينية عمليـا إلى معسكر أعدائها بانتظار أن تحن عليهم أمريكا بالوفاء بعهد الشرف الذي قطعتـه عـلى نفسها عبر «حبيب» في إعطاء قطعة من الأرض لإقامة مأوى ذليل لكم.

وهكذا ستسقط قيادة المنظمة تباعـا في الحقبـة الإسـرائيلية مادامـت قـد تركـت الجماهير عارية مقابل وعد أمريكي بالأمان.

وهكذا فلم يعد في الساحة عمليا سوى الجماهير المسلمة المحاصرة من أنظمتها والمقموعة حتى النخاع من قبل أجهزة الشرطة والجيوش..

***

مرحلة آل الجميل:

مرحلة بشير الجميل وأخيه أمين، استكمال ضرب الجماهير المسلمة بعد انتقـال المقاومة الفلسطينية عمليا (وسيعقب ذلك رسميا) إلى صفوف أعدائها عقـب توقيـع اتفاقية الرحيل وخيانة الجماهير المسلمة في لبنان فإن القوى الصهيونية باتـت تـدرك

أنه لم يعد هناك إلا الجماهير المسلمة في لبنان لتضربها وتصفيها نفسيا وجسديا ليعم العلو والإفساد الإسرائيلي في المنطقة تماما.

ويعم ذلك بطريقين:

- إقامة نظام فاشي في لبنان – لاستكمال حلقة الأنظمة الديكتاتورية في العالم العربي والإسلامي الذي يقوم بضرب حركة الجماهير المسلمة أولا بأول فيريح إسرائيل منها، لأن قيام نظام ديموقراطي في المنطقة يعني قدرة الجماهير على تنظيم نفسها بشروط أفضل وبالتالي يشكل خطرا على إسرائيل.

- عمل مجزرة بشعة تمارس إسرائيل ضربا نفسيا لكل تطلعات الجماهير المسلمة إجهاضا لما يمكن أن يكون قد لحق برحم الأمة من أجنة إسلامية في طريقها للظهور – (صبرا وشاتيلا)..

والطريق الأول يأتي عبر تسليم الرئاسة إلى الكتائب المارونية لإنشاء حكم يقوم بالتصدي للجماهير المسلمة ليمنعها من تطوير نفسها وبروزها للتصدي لإسرائيل، وقد قام الحكم الفاشي بقيادة أمين الجميل بما يلي في الأربعة أسابيع الأولى من حكمه وبعدها.

- نزع سلاح القطاع الغربي من بيروت حيث تتمركز جماهير المسلمين المسلحين.

- عدم نزع سلاح بل تشجيع الميلشيات المسيحية (خمسة وعشرين ألف مقاتل كتائبي) مزودين بأحدث الأسلحة.

- اعتقال المئات من طلائع جماهير المسلمين.

صبرا وشاتيلا:

ضرب الجماهير المسلمة وإجهاض توجهاتها نحو تنظيم نفسها والتصدي للغزوة الحضارية الصهيونية.

وذلك بمحاولة وضع الجماهير في حالة رعب نفسي لا يسمح لها بحرية الحركة

إلى الأمام تفريغا لكل الاحتمالات الجنينية التي علقت برحم الأمة عبر حرب الثلاثة شهور.

إن مذبحة صابرا وشاتيلا في النهاية تأتي لإفراغ التراكمات الثورية الرائعة والوعي بحقيقة المعركة بيننا وبين إسرائيل والتي اكتسبتها جماهير المسلمين في لبنان عبر وهج المعارك ووهج التصدي للعدو.

إن صابرا وشاتيلا جاءت لتسحب – على المستوى النفسي – تلك الثقة بالنفس والثقة في القدرة على النصر التي اكتسبتها الجماهير في خلال حرب الـ ٩٠ يوما.

إن فهم مذبحة «صابرا وشاتيلا» بمعزل عن التحليل المتقدم هو عبث وتهريج بل هو في النهاية جزء من التفريغ أي أنه يساعد في تحقيق أهداف الغزوة.

– إن «صابرا وشاتيلا» بالحساب العسكري والسياسي العادي ليس فيها أي فائدة لجيش إسرائيل الذي قام بها.

فعلى المستوى العسكري ماذا يستفيد جيش احتلال من ذبح ٦ آلاف عزل من السلاح بينهم الرجال والنساء والأطفال؟!

وعلى المستوى السياسي أليس ذلك يشكل عبئا أمام الرأي العام العالمي فضلا عن الإحباط النفسي الذي يعانيه جنود الاحتلال؟!

وهكذا فإن المؤسسة الحاكمة في إسرائيل قد أعدت نفسها لتحقيق الهدف النفسي وهو إخراج الجماهير نفسيا من ساحة المعركة وضرب توجهاتها نحو تنظيم نفسها في اتجاه التصدي لإسرائيل وسحب كمية الوعي الذي تراكم لدى تلك الجماهير خلال المعركة.

وهكذا قامت إسرائيل بتكليف الميليشيات المسيحية (سعد حداد – الكتائب) بالقيام بالمهمة بدلا منها وتحت إشرافها ومباركتها.

على أننا ينبغي أن نورد بعض الملاحظات الخاصة حول المذبحة والتي نستخرجها من شهادات الناجين من المجزرة والمنشور في مجلة شئون فلسطينية

نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٢ عدد: ١٣٢، ١٣٣.

في مجمل حديث (م – و) فلسطيني – بقال ٥٣ سنة يقيم في شاتيلا ومر شاب لبناني قال: الريس سمح لي أن أمر لأنني لبناني فقال له واحد لبناني: ولكن مسلم وقتله!!

– وهكذا يتضح من المستهدف من المذبحة إنها الجماهير المسلمة بكل انتماءاتها!!

– (أ – ك) ٧٢ سنة يقيم في مخيم شاتيلا: في طريق عودتنا شاهدنا امرأة تلطم وجهها وتقول:

«ذبحونا قتلوا كل الشباب».. السماح للمرأة بالعبور لإحداث الأثر النفسي المستهدف.

– (ن – ش) فلسطيني بائع (كيروسين) يقيم في مخيم صبرا: «قالوا للمرأة إذا لم تأكلي (برازا) نقتل أولادك فقامت المرأة أمامنا بأكل (البراز).

لاحظ كسر الكرامة والعزة لدى الشخصية المسلمة لقتل روح التطور نحو التنظيم الإسلامي للتصدي لإسرائيل.

– (ج – م) لبنانية ٢٧ سنة ربة منزل من مخيم صابرا:

«أنا منكم وفيكم. من لحمكم ودمكم.. أنا مسيحية من الأشرافية، من حينها تركني» – رغم كونها زوجة مقاتل فلسطيني – من المستهدف!!

– (ع. م) مصرية ٥٠ سنة عاملة تنظيفات بمستشفى عكا:

«كانت مجزرة. أطلقوا علينا الرصاص. وبقيت نائمة دون أي حركة خوفا من أن يشاهدوني. ولكن حضر واحد منهم وأخذ يلكزني بسلاحه حتى يتأكد من موتي. لكني بقيت كما أنا دون أية حركة – تركني، عاد وبعدها أغمى علي، ولا أعرف كيف تم نقلي إلى هنا.

إذن فالمستهدف كل جماهير المسلمين وليس اللبناني والفلسطيني فقط.

- شاب فلسطيني ١٨ سنة. حداد سيارات يقيم في مخيم صبرا:

فجأة حضرت فتاة مصابة بيدها تصرخ وتقول «الكتائب قتلوا أمي وإخوتي كلهم وتركوني مصابة لأحكي ما جرى» تحقيق الهدف النفسي.

- ف. س – مصرية – عاملة في مستشفى غزة – تقيم في صبرا.

- س. خ كردية من تركيا ١٨ سنة من حي بئر حسن.

- المحامي (ي) لبنان – علمنا بمقتل ثلاثة عمال مصريين منهم مساعدي ويدعى عرابي.

- ص.ع ٣٤ سنة مخيم صابرا:

فأجابه المسلح ولكنك مسلم ثم أطلق عليه الرصاص من مسدسه.

لا أحتاج إلى تعليق – مصري – كردي – تركي – لبناني – فلسطيني أي ولكنك مسلم.

- وهكذا فإنه اتضح هدف المجزرة كما ذكرناه سابقا من كسر حاجز الصمود النفسي لدى الجماهير المسلمة وإجهاض توجهاتها الجنينية نحو تنظيم نفسها تحت راية الإسلام.

- نود الإشارة إلى أن الكتائب بإشراف إسرائيل قامت بعمل المذبحة – وأن الحضارة الغربية وليست إسرائيل وحدها متهمة بالمسئولية عن المذبحة. كما أن الأنظمة العربية. شاركت في المذبحة سواء بالسكوت أو بدعم الكتائب (مثل بعضهم) – أو دعم إسرائيل (مثل البعض الآخر).

كما أن قيادة المقاومة الفلسطينية مسئولة وذلك بخيانتها للجماهير وتركها مواجهة بنادق الكتائب وذلك بقبول الخروج من لبنان.

التحقيق في المذبحة:

ولتحقيق أكبر قدر ممكن من أهداف المذبحة ولسحب أي تراكمات إيجابية قد

تبدو في حس الجماهير فإن قادة إسرائيل قد سمحوا بإقامة لجنة تحقيق برلمانية وذلك لتحقيق الأهداف الآتية:

١- إلقاء المسئولية على أشخاص بعينهم مثل شارون - وكأن قرار المذبحة لم يؤخذ في إطار خطة عمل إسرائيلية أمريكية - وبالتالي سحب أي تراكم وعي لدى الجماهير في أنهم يواجهون الحضارة الغربية مجتمعة وطبيعة إسلامية الصراع وكونه تاريخيا وحضاريا.

٢- تخفيف العبء النفسي عن قادة الأنظمة العربية والمقاومة الفلسطينية الذين يقومون بتوقيع صكوك صلح معه إسرائيل.

٣- إيهام الجماهير في أخلاقية الحضارة الغربية - وبالتالي دفعهم إلى عدم التمسك بجذرية الصراع عبر الأيديولوجية الإسلامية وأن خلاص الجماهير يمكن تحقيقه عن طريق مخاطبة ضمير العالم الأوروبي والإسرائيلي - ويا له من هراء -.

وهكذا قامت لجنة التحقيق واستقال شارون من منصبه كوزير للدفاع إلى وزارة أخرى وعين بدلا منه من هو أشد حقدا على المسلمين وأشد عنصرية.

عملية نهب مركز الأبحاث الفلسطيني - إبادة الذاكرة:

تأتي أهمية عملية نهب مركز الأبحاث ضمن المخطط الشيطاني في سحب كل ما من شأنه إضاءة وعي الجماهير بحقيقة كون الصراع صراعا تاريخيا وأيديولوجيا وذلك لاستمرار مخطط منع الجماهير المسلمة من أداء دورها وتحييدها وإخراجها من حلبة الصراع بما أنها الوحيدة القادرة على التصدي للهجمة الغربية الاستعمارية.

إن عملية النهب تأخذ أهميتها من كونها عملية قامت بها القوات الإسرائيلية إحدى مؤسسات دولة إسرائيل.. طليعة الحضارة الغربية - ولاحظ الحضارة الغربية - فكيف تقوم الحضارة الغربية بتدمير مراكز الأبحاث؟!

إن قيام إسرائيل بهذا العمل لا يعني مخالفتها لقيم الحضارة الغربية الزائفة بل يعني إفلاس الحضارة تماما. كما يعني في المقام الأول أن تلك الحضارة لا تتورع عن ارتكاب أي عمل همجي في سبيل تعتيم وعي الجماهير وإبادة ذاكرتها.

إن أهمية مركز الأبحاث تأتي في كونه بما يضمه من مجلدات ووثائق ومخطوطات قد تهم في إضاءة وعي الجماهير بحقيقة الصراع.

وهكذا فليس غريبا على الكيان الصهيوني محاولاته المستمرة لتدمير المركز بالسيارات الملغومة وبالطرود الناسفة والتي لم يكتب لها النجاح وأخيرا نجاحها في تخريب المركز بعد دخولها بيروت في ١٥ – ٩ – ١٩٨٢.

وهكذا فتدمير المركز يأتي ضمن حلقات حصار الجماهير المسلمة تمهيدا لإدخال المنطقة في التسوية الإسرائيلية نهائيا.

الجماهير المسلمة لم تفقد بعد فاعليتها:

– برغم تلك الظروف الصعبة جدا من خروج المنظمة من بيروت. خيانة الأنظمة العربية – دعم غير عادي لإسرائيل – دولة فاشية بقيادة آل الجميل في لبنان – إلا أن الجماهير لم تفقد بعد ولن تفقد أبدا إيجابيتها – لأن هذه سنة الله سبحانه – ولأن الجماهير هي وحدها صاحبة المصلحة في التصدي للغزوات الصهيونية الصليبية القذرة.

وهكذا فإن الجماهير مازالت تعمل ولقد ظهر ذلك عمليا في:

١ – اغتيال وتصفية بشير الجميل رأس الحقد الصليبي ومجموعة من أساطين حزب الكتائب الماروني الصليبي المتآمر في عملية أروع ما تكون وفي ظروف أمنية غاية في الإحكام مما يدل على أن قدرة الجماهير المسلمة هي بلا حدود ومما يدل على أن مدد الله يأتي للذين يحاولون.

واستمرارا في عملية سحب أي تراكم وعي لدى الجماهير المسلمة خارج وداخل الوطن المحتل، روجت وكالات الأنباء والصحف في المنطقة أن إسرائيل هي المسئولة عن اغتيال الجميل. وهذا هراء واضح. فأين التناقض بين بشير الجميل وإسرائيل؟ – إن إسرائيل ذاتها هي التي أوصلته إلى سدة الرئاسة فوق دباباتها.

إن ذلك المؤشر يعني أن تقول تلك الأوعية الإعلامية المرتبطة بالغرب أن

خلاص الجماهير ليس على أيديها ذاتها بل على يد إسرائيل عدوتها أليس هذا هراء؟!

كما أن ذلك يسحب رصيد الثقة من الجماهير المسلمة في الجماهير المسلمة داخل لبنان ويوهمها بأنها فقدت الفعالية!

اتهام الحزب القومي السوري الاجتماعي بذات الاتهام ليس له أساس لذات الأسباب، لأنه لا يملك تناقضا مع بشير الجميل. إن الوحيد الذي يملك تناقضا مع بشير الجميل هو الجماهير المسلمة.

٢- عملية نسف مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور، إن تلك العملية تعني ببساطة شديدة أن خط الاستشهاد - القسام - أحمد عبد العزيز – عبد القادر الحسيني – شهداء الكرامة مازال يعمل ولن ينهار أبدا.

٣- عمليات التصدي المستمر بالسلاح وخلافه لقوات الاحتلال الإسرائيلي والعمليات الفدائية داخل خطوط العدو..

٤- محاولة تدمير قوة المفاوضات اللبنانية الإسرائيلية في كريات شموته «رفض المفاوضات كأسلوب».

٥- التظاهر والانتفاض ضد قوات الاحتلال.

استدراج المقاومة نحو التسوية:

قلنا: إنه عمليا فإن المقاومة (القيادة قد فقدت أهم أسلحتها بعد إصدار ياسر عرفات للوثيقة التاريخية المشهورة أثناء الحصار في مقابلة كلاوز الأمريكي).

وإنه بعد إتمام الرحيل عن بيروت فقدت قيادة المقاومة الشروط الخاصة التي كانت تعطي شكل تناقضها مع الكيان الصهيوني أبعادا خاصة.

وهكذا فإن التلويح بقطعة أرض تقام عليها دولة فلسطينية سيسقط التناقض نهائيا.

وهكذا بدأت القوى الشيطانية عبر البعض بمحاولة دفع قيادة المنظمة نحو السقوط الرسمي في بؤرة التسوية.

في مقابلة إذاعية وتليفزيونية وعلى لسان ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قبل انتقاله من أثينا إلى تونس: «إننا لا ننتقدها. لكننا نقوم بدراستها».

في إطار موقف اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية من المشروع الأمريكي أعرب رئيس الدائرة السياسية للمنظمة فاروق القدومي (أبو اللطف) عن اعتقاده بأن بيان الرئيس ريجان حول مستقبل الأراضي التي تحتلها إسرائيل يتضمن عناصر جديدة (٣ – ٩ – ١٩٨٢).

منذ أول ديسمبر الماضي لم يمض يوم في المناطق التي يقيم فيها الجيش الإسرائيلي حواجز احتلاله ومراكز آلياته العسكرية دون عملية مسلمة ضد قواته سواء بالقنابل أو انفجار الألغام أو بواسطة السيارات الملغمة في حالة شبه دائمة من الذعر في ظل احتياطات أمنية مشددة بالنسبة إلى تنقل القوات إلى مواضعها أو حواجزها العسكرية.

– أمر الحاكم العسكري الإسرائيلي في الجنوب بتاريخ ١٠ ديسمبر باعتقال ٣٥ شخصا من قرى مختلفة لاتهامهم بإعادة تنظيم شبكة إرهابية.

– انفجار لغم أرضي في سيارة عسكرية إسرائيلية في حاصيا في البقاع الغربي.

– في مخيم عين الحلوة الذي تحاصره القوات الإسرائيلية قتل جندیان نتيجة انفجار لغم قرب موقع عسكري على مدخل المخيم.

– في بعبدا انفجر لغم أرضي في سيارة عسكرية إسرائيلية قالت مصادر إسرائيلية إنه جرح بسببه جنديان!

– كما وجدت جثة إسرائيلي كان يدعى «مزارحي» ينقل الوقود والبنزين إلى مواقع القوات الإسرائيلية في الشوف.

– في مطلع شهر فبراير تعرضت سيارة أتوبيس عسكرية إسرائيلية لنيران الرشاشات والقنابل اليدوية – وهي تنقل الجنود عند مدخل بيروت قرب عرمون.

أصيب في هذه العملية ٢١ جنديا إسرائيليا.

– في ١٠ فبراير – انفجرت شحنة ناسفة في مركبتين إسرائيليتين شرق بيروت.

– تعرضت قافلة إسرائيلية لكمين قرب مفرق الزرارية – أبو الأسود شمال صور وأطلق المهاجمون الرشاشات والقذائف على القافلة الإسرائيلية.

– وفي إطار مواقف الأطراف الفلسطينية العليا لمنظمة التحرير الفلسطينية من قمة فاس حدد المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطيني المنعقد في دمشق يوم ١٩ من أيلول عام ١٩٨٢ الموقف التالي: «استعرض المجلس نتائج مؤتمر القمة العربي في فاس وما أسفر عنه من مقررات تؤكد عودة الإجماع ووحدة الصف العربي والتمسك بوحدة الكفاح الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية والتأكيد على حقوقنا الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف. بما فيها حقنا في العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس. تلك القرارات التي تنطلق في فهمنا لها من التزامنا بقرارات المجالس الوطنية الفلسطينية. وثمن المجلس المجهود القيم الذي بذله الوفد الفلسطيني في المؤتمر للوصول إلى النتائج التي وصل إليها ونجاح المؤتمر.

وهكذا حدد المجلس المركزي لمنظمة التحرير موقفه بالموافقة على مقررات قمة فاس. بل والتفاخر بأنه المسئول عن إخراجها بما بذله من مجهود.

مقررات قمة فاس:

١ – انسحاب إسرائيلي من جميع الأراضي التي احتلتها سنة ١٩٦٧.

٢ – إزالة المستعمرات التي أقامتها إسرائيل في الأراضي العربية بعد عام ١٩٦٧.

٣ – ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر لجميع الأديان في الأماكن المقدسة.

٤ – تقرير حق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي الوحيد وتعويض من لا يرغب في ذلك.

٥- إخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة شهور.

٦- قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

٧- يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة.

٨- يقوم مجلس الأمن الدولي بضمان تنفيذ تلك المبادئ.

- وفي حديث لياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لوكالة الأنباء الجزائرية لدى وصوله إلى الجزائر قادما من المغرب بعد انتهاء أعمال قمة فاس «نفى أن يكون البند السابع من ميثاق فاس تنازلا عربيا من دون مقابل» وأوضح: إننا نربط طبقا للشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة بين السلام وبين إنشاء دولة فلسطينية تكون القدس عاصمة لها.

وهكذا فإن قيادة المقاومة الفلسطينية تعترف بإسرائيل وتطلب قطعة أرض تقيم عليها دولتها وهكذا فإن كل التناقضات قد حلت والقوى قد أفرزت لتجد الجماهير المسلمة وحدها وجها لوجه مع كل رموز المرحلة.

مرحلة الجماهير المسلمة:

هذا هو عصر الجماهير المسلمة. إن الجماهير المسلمة تقف اليوم على أعتاب مرحلة خطيرة جدا فلم يبق في الساحة سواها في مواجهة الهجمة الصهيونية الأمريكية الاستعمارية الصليبية السافرة.

لقد خرجت القوى واحدة بعد الأخرى من حلبة الصراع وانضمت في بعض الأحيان إلى الكيان الصهيوني في مواجهة الجماهير. لأن تلك القوى من ليبرالية واشتراكية ووطنية وقومية لا تملك تناقضا جوهريا وحقيقيا مع الكيان الصهيوني.

وهكذا وبنهاية حرب ١٩٨٢ كانت القوى العاملة والمؤثرة في الصراع كالآتي:

١- الجماهير المسلمة وطليعتها الواعية مدعومة في صراعها بكل المستضعفين

في العالم.

٢- الثورة الإسلامية في إيران والطرفان السابقان في خندق واحد.

٣- الأنظمة العربية.

٤- الكتائب والميليشيات المسيحية.

٥- الكيان الصهيوني.

٦- الغرب الاستعماري الأمريكي والأوربي والأربع قوى السابقة في خندق واحد.

في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في المؤشرات الأولية لم يخرج عما سبق التوقع له طبقا لهذه الدراسة مع ملاحظة ما يلي:

١- تشكيل وفد تضامن ومناصرة مع الشعب الفلسطيني وقد رحل هذا الوفد من القاهرة إلى الجزائر ممثلا فيه كل الأطراف ما عدا طرف واحد هو الاتجاه الإسلامي الجماهيري. ولقد تجاهل المسافرون والداعون الشيخ أحمد المحلاوي برغم ثقله الجماهيري الواسع جدا حيث اختصه الرئيس الراحل بالسباب علنا على شاشة التليفزيون وذلك لموقف الشيخ الصامد في رفض كامب ديفيد وتحريض الجماهير على رفضها.

حاول الشيخ أحمد المحلاوي أن يصحب وفد المناصرة فتم استبعاده عبر حركات بهلوانية من المشرفين على الوفد وتم تسويفه لتفويت الفرصة عليه ليذهب منفردا وعلى مسئوليته الخاصة!! هل يعني هذا أن المؤتمر قد رسم له أن يسقط في مستنقع التسوية.

٢- استقبال المؤتمر لبعض ممثلي اليهود داخل فلسطين – حركة السلام الآن. وغيرها من الحركات المشبوهة. إنني أفهم أن يستقبل المؤتمر مناصرين من أمريكا وأوروبا ومناصرين من اليهود خارج الأرض المحتلة أما أن يستقبل يهودا من داخل الأرض المحتلة فيعني إسقاط كل الأدوات الأيديولوجية والتاريخية في الصراع.

والسؤال إذا كان هؤلاء اليهود قد اقتنعوا بالحق الفلسطيني. فلماذا لم يرحلوا من إسرائيل. إن استمرار وجودهم في إسرائيل يعني مزيدا من التشريد لشعبي. أن وجودهم يفني وجودي في أبسط الأحوال وهكذا تفقد قيادة المقاومة الرؤية التاريخية تماما.

مقررات المجلس الوطني:

وقد توصلت فصائل المقاومة جميعا لاتفاق حول القرارات السياسية المتعلقة بصياغة الموقف من مشاريع التسوية المختلفة والعلاقة مع الأردن ومصر وسوريا على النحو التالي:

١- يعتبر المجلس الوطني الفلسطيني مقررات قمة فاس هي الحد الأدنى للتحرك السياسي العربي الذي يجب أن يتكامل مع العمل العسكري بكل مستلزماته. لصالح تعديل ميزان القوى لصالح الحقوق العربية والفلسطينية العادلة ويؤكد المجلس أن فهمه لتلك القرارات لا يتناقض مع الالتزام بالبرنامج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية وقرارات المجلس الوطني الفلسطيني السابقة.

لاحظ كلمة تغيير ميزان القوى لصالح الحقوق العربية والفلسطينية وليس أبعاد الصراع التاريخية والأيديولوجية – راجع مقررات قمة فاس التي تدعو إلى الاعتراف بإسرائيل.

٢- من جانب آخر لم يرفض المجلس مشروع ريجان رفضا قاطعا ولم يقبله في نفس الوقت. يعني نقبله إذا كان ريجان جادا في كلامه ألا يعني هذا السقوط في سلة التسوية نهائيا.

٣- يعبر المجلس عن التقدير والتأييد للمقترحات التي تضمنها مشروع الرئيس بريجنيف الصادر في ١٦ – ٩ – ١٩٨٢.

لاحظ كلمة التقدير والتأييد وليس «تبني» مثلا.

٤- يؤكد المجلس على أهمية تعزيز العلاقات مع القوى الوطنية المصرية من

أجل العمل على إسقاط كامب ديفيد وتحرير مصر من قيودها لمصلحة الشعبين المصري والفلسطيني وضرورة تحديد العلاقة مع النظام المصري بهدف تحرره وابتعاده عن كامب ديفيد.

لاحظ أن القوى الوطنية المصرية ليست إلا رفعت السعيد وخالد محيي الدين فأين الشيخ المحلاوي الذي وقف مع القضية دائما وأول من رفض كامب ديفيد رفضا عمليا ذا أثر وأين الإسلاميون عموما الذين أسقطوا رأس نظام كامب ديفيد ودفعوا عشرات الشهداء وآلاف المعتقلين أم أنهم رغم ذلك ليسوا قوى وطنية!!

٥- التأكيد على العلاقة الخاصة والمميزة التي تربط الشعبين الأردني والفلسطيني وضرورة العمل على تطويرها – ويرى المجلس أن تكون العلاقة المستقبلية مع الأردن على أسس كونفدرالية بين دولتين مستقلتين.

الآن اتضح شكل التسوية قطعة أرض للفلسطينيين مع اتحاد كونفدرالي مع الأردن «مع الملك حسين»!! ولا تعليق.

هل ستكون تلك الدولة ضد إسرائيل أم ضد الجماهير المسلمة وهل نسينا بعد مجازر سبتمبر الأسود.

٦- تدعيم العلاقة مع الحركة الوطنية اللبنانية وسوريا.

لاحظ الغموض..

– التزاما بالقرارات السابقة للمجلس الوطني الفلسطيني والخاصة بالعلاقات مع القوى التقدمية والديموقراطية اليهودية. يدعو المجلس اللجنة التنفيذية إلى دراسة التحرك في هذا الإطار بما يتلاءم ومصلحة النضال.

انظر تعليقنا السابق على استقبال ممثلي تلك القوى التقدمية والديموقراطية!!

٧- خرجت قيادة منظمة التحرير عن أن تكون مؤثرة في الصراع ويمكن أن نضيفها إلى الأنظمة العربية بشكل أو بآخر.

لماذا لم يعد في مواجهة الغزوة الاستعمارية الصليبية إلا الجماهير المسلمة:

١- لأن كل القوى لا تملك تناقضا مع إسرائيل.

٢- لأن تلك الجماهير هي الوحيدة التي تملك تناقضا جوهريا مع الكيان الصهيوني فإن تلك الجماهير تدرك:

(أ) أن حضارتها مستهدفة.

(ب) حريتها مستهدفة.

(جـ) كينونتها ووجودها ذاته كأمة مسلمة مستهدفة.

(د) لقمة عيشها مستهدفة.

(هـ) أن انتماءها هو الهدف النهائي.

وكذلك تلك الجماهير تملك:

(أ) إدراكا ووعيا تاريخيا عميقا بحقيقة الصراع.

(ب) أيديولوجية ربانية إسلامية تملك لها القدرة على الفهم والعمل والتحليل والاستجابة.

(جـ) بعدا بشريا ضخما في مواجهة إسرائيل يشكل عمقا استراتيجيا.

(د) دعما مباشرا وغير مباشر من الثورة الإسلامية في إيران وأهم ما تملك تلك الجماهير هو مدد الله سبحانه وتعالى.

التناقض الثانوي الأخير..

بعد خروج المقاومة من بيروت وتشتتها في العالم العربي. ومحاولة تجمع بعض عناصرها في طرابلس وغيرها من مدن ومناطق لبنان. بدأت القوى الشيطانية وكأنها قد نجحت في حل تناقضها مع المقاومة (تناقض ثانوي) عبر إخراجها من لبنان وجرها إلى التسوية. ولكن كان هناك تناقض ثانوي آخر بين النظام السوري الخائن والقذر وبين العدو الصهيوني والهجمة الاستعمارية وبدأ كل طرف يجمع أوراق الصراع. فالجانب الإسرائيلي يوقع اتفاقية مع النظام اللبناني (أمين الجميل) لتكريس

دولة فاشية في لبنان تقوم بتحقيق أهداف الكيان الصهيوني وفقا لما تم شرحه وبمباركة ودعم كامل من أمريكا.

وبدأت المسألة كالتالي:

دولة فاشية تقمع الجماهير بالجيش والميليشيات المارونية.

قوة متعددة الجنسيات (استعمارية حتى النخاع).. أمريكا بمصالحها الاستعمارية في المنطقة – فرنسا بمصالحها أيضا وميراثها الصليبي الاستعماري الموغل في عداء الجماهير المسلمة.

منظمات فلسطينية مشتتة تتساقط سراعا في سلة التسوية.

جماهير بدت لوهلة قصيرة أنه تم تحجيمها.

النظام السوري بتواجده ومصالحه في لبنان وكان على إسرائيل والغرب الاستعماري الذي بات يدرك أنه لابد من حل التناقض الثانوي مع النظام السوري. ولكي نفهم طبيعة التناقض الثانوي هذا علينا أن ندرك طبيعة النظام السوري.

النظام السوري في النهاية ليس إلا أحد أوجه العلمانية المرتبطة بالغرب وطبقا للمفهوم السابق شرحه في الصراع فإن له توجهات خاصة تدفعه لعدم السقوط في التسوية إلا بعد أن ينال نصيبه من الكعكة وهو نظام فاشي ودموي يواجه حركة مد جماهيري إسلامي في الداخل

لا يستطيع مواجهاتها إلا عبر المزايدة بأنه لم يسقط في التسوية وأنه مازال يواجه عدو الأمة الإسلامية التاريخي (إسرائيل) وأنه بالتالي يتقي ذلك الضغط الإسلامي في الداخل الذي لا يستطيع مواجهته إلا بالقوة العسكرية التي لن يجد لها مبررا سوى استمرار مواجهة ولو شكلية مع إسرائيل وهكذا فإن حركة الجماهير المسلمة الضاغطة على النظام السوري في الداخل تؤخر سقوطه في الحقبة الإسرائيلية. لأن النظام السوري يدرك جيدا أن الحائط الأخير أمام سقوطه هو استمرار المزايدة بمواجهة إسرائيل ولكن يجب أن ندرك أن النظام السوري في هذه المواجهة. يريد أن يضع حركة الجماهير المسلمة في لبنان في جيبه يزايد بها – لينال بها أكبر نصيب من

الكعكة. وأنه لن يسمح بأي حال من الأحوال أن تتجاوز حركة الجماهير خطا معينا. وإلا فإنه يدرك أنها سوف تطيح ضمن ما تطيح به هو في النهاية. وفي هذا الإطار ينبغي فهم تحركات النظام السوري العميل الذي فقد كل مبررات وجوده في الداخل ولم يعد قادرا على السقوط في الحقبة الإسرائيلية بفضل حركة الجماهير المسلمة داخل سوريا.

وهكذا فإن الجميع بدأ يعيد ترتيب معطياته لخوض جولة يتم فيها حسم التناقض الثانوي بين النظام السوري وإسرائيل وفقا للرؤية السابقة فإسرائيل بعد أن تم لها دخول بيروت وإقامة نظام فاشي وقوات متعددة الجنسيات – واستدراج المقاومة نحو التسوية فإن عليها أن تدعم مركز قادة المقاومة (عرفات) ليستطيع أداء دوره في التسوية والنظام السوري لكي يحافظ على وجوده من ناحية ولينال نصيبه من الكعكة من ناحية قام بـ:

١ – دعم حركة الجماهير جزئيا ومحاولة التفاف النظام حولها ليضمها إلى أوراقه في الصراع.

٣– جعل المقاومة الفلسطينية في جيبه تماما ليساوم بها وليحقق شروطا أفضل.

وهكذا بدأ صعود ما يسمى بحركة الانشقاق داخل فتح.

فقد دفع النظام السوري بعض رجال فتح بالانتفاض ضد قيادة ياسر عرفات مستثمرا ذلك المناخ الذي أفرزته حلقات الصراع من أن ياسر عرفات قد خان الجماهير المسلمة «وهذه حقيقة» ولكن النظام السوري لا يرفض عرفات ويدفع رجال المنظمة للانتفاض ضده وعيا لحركة الجماهير ولكن لتصبح المنظمة بالكامل في جيبه وإحدى أوراقه في تحقيق شروط أفضل وفي تحقيق ابتزاز أكبر لدول النفط لتدفع له مزيدا من الدولارات.

على أي حال تتركه إسرائيل ويخرج عرفات وتنتهي عملية وجود ما يسمى بالمقاومة الفلسطينية على أرض لبنان مع ملاحظة أن إسرائيل تقوم ببعض الحركات مثل رفضها شكليا خروج عرفات وذلك في محاولة لدعم مركز عرفات. فهي تتركه

للنظام السوري كي يدفعه أكثر بالضغط عليه في اتجاه مطار التسوية عبر الأردن وكامب ديفيد وقد كان لها ما أرادت.

ومن ناحية أخرى تعطيه صفته لتقويته كزعيم لمنظمة التحرير عبر عملية تبادل الأسرى المشبوهة «٦ في مقابل ٦ آلاف».

وهكذا تنتهي حركة الانتفاضة بالآتي:

انتهاء وجود منظمة التحرير الفلسطينية ككيان مستقل في لبنان. وأصبح ما بقي منه في لبنان ملحقا بالنظام السوري ويتحرك من خلاله.

اندفاع مجنون من ياسر عرفات ورجاله نحو قطار التسوية بشكل نهائي.

وهكذا تتشكل أبعاد الصراع الثانوي الأخير على أرض لبنان بين النظام السوري وإسرائيل.

وبالطبع فإن النظام السوري ضمن ذكائه في لعب أوراقه بأن يجعل الاتحاد السوفيتي يراهن على السوريين لاستعادة بعض مواقعه وليتواجد في المنطقة بعد أن تم طرده منها على يد أمريكا بصورة مؤلمة بعد أن أكل الأمريكان الملك في القاهرة – ويلاحظ أن النظام السوري يستعمل أيضا الورقة السوفيتية في تحسين شروط تفاوضه ليس إلا.

وهذا التناقض الأخير لن يتم حسمه إلا عبر:

إما أن يسلم الغرب الاستعماري وإسرائيل بحق النظام السوري في جزء من الكعكة.

وإما أن يتم صدام معه لحسم التناقض عسكريا.

وإن تحديد أي خيار منهما يتوقف بالطبع على عدة عوامل أهمها وأبرزها هو حركة الجماهير الإسلامية لأن التناقض الجوهري دائما هو الذي سيحدد شكل وأبعاد التناقضات الثانوية.

***

العالمية الإسلامية الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾
فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا
مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا
﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمْ
وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ
وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۚ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

وهكذا فإننا الآن في لبنان أمام خراب شامل وظلام شديد.

- قوات احتلال إسرائيلية.
- قوات النظام السوري «بالشروط والأوضاع السابق شرحها».
- انتهاء وجود منظمة التحرير الفلسطينية عمليا.
- دولة فاشية مارونية على رأسها أمين الجميل بن بيير الجميل.
- جيش ذي توجهات مارونية.
- قوات أمريكية وفرنسية ذات توجهات واضحة العداء للجماهير المسلمة.
- ميلشيات مارونية شديدة الحقد على الجماهير المسلمة.

جماهير مسلمة بدا للحظة أن كل شيء قد انهار بالنسبة لها وأن الصعود اليهودي قد بلغ ذروته وأن الخراب قد أصبح شاملا.

ولكن كان الخراب المبدع.

صعود الجماهير المسلمة:

حقا إنه الخراب المبدع. من رحم الأمة الخصيب من الخراب المبدع بدأ صعود الجماهير. باتت الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية والتناقض الجوهري مع

الكيان الصهيوني والغزوة الأمريكية الفرنسية والحقد الماروني الصليبي بدأ العملاق ينتفض ويستمر ويتقدم.

لم تنته حركة الجماهير. مازال عز الدين القسام وفوزي القاوقجي وحافظ سلامة وأحمد عبد العزيز والحسين مازالوا في الطليعة. ها هي الجماهير المسلمة. تملك أيديولوجيتها الإسلامية ورؤيتها الفذة. بدت الجماهير وجها لوجه أمام فلذة أكباد القوى الشيطانية فالجماهير المسلمة غير قابلة للهزيمة. لأنها وحدها تملك رصيد الانتصار بدأ انقلاب المنحنى وبدأ الصعود الإسلامي مرة أخرى على يد جماهير الجنوب وبيروت.

ها هي الجماهير تعيد تشكيل نفسها تحت قيادات إسلامية ووفق أيديولوجيتها الإسلامية وبلا أدنى تواجد لكل الرموز العلمانية التي منعت الجماهير طويلا من أداء دورها وساهمت في تضليلها وكبت حركتها المبدعة. بدأت تلك الجماهير تمتلك زمام أمرها وبدأ الانتفاض التاريخي العظيم بدأت العالمية الإسلامية الثانية.

فبعد أن قامت الجماهير المسلمة والتي لم تنقطع حركتها يوما وبعد أن تم اغتيال بشير الجميل والمقاومة الشعبية الفدائية لقوات العدو الصهيوني مستمرة.

بدأت انتفاضة الجنوب الرائعة. قام رجال الدين الثوريين من أمثال الشيخ محمد شمس الدين بإعطاء حركة الجماهير زخما هائلا والتلاحم معها والتصدي المستمر للهجمة الصهيونية. بدأت الجماهير تقاوم مقاومة يومية رائعة مسلحة وغير مسلحة. بدأت تجمع نفسها حول الشعارات الإسلامية التي تخرج طاقاتها الهادرة فهاهي الجماهير تتقدم «خيبر خيبر يا يهود. جيش محمد سوف يعود» وهكذا عاد جيش محمد ليحقق أروع الانتصارات في تاريخنا المعاصر على اليهود وتستمر المقاومة ويصبح ثمن الاحتلال باهظا وتضطر إسرائيل للانسحاب من كثير من المناطق والبقية تأتي إن شاء الله.

ها هي الجماهير المسلمة تضرب الغرب كل الغرب وليس اليهود وحدهم:

- نسف مقر قيادة القوات الأمريكية (مشاة الأسطول – المارينز) في عمل فدائي

رائع حسيني لا يمكن مقاومته على حد قول أحـد رجـال المخـابرات الأمريكيـة: إن الأعمال من هذا الطراز لا يمكن مقاومتها.

حقا فإن الجماهير المسلمة إذا امتلكت إرادتها ولم يحل حائل بينها وبين عـدوها. فإنها لا يمكن مقاومتها ليس لها إلا أن تنتصر لأن هـذه سـنة الله ولـن تجـد لسـنة الله تبديلا. ولن تجد لسنة الله تحويلا.

– نسف مقر قيادة القوات الفرنسية.

– النسف اليومي المستمر لكل قواعد الاحتلال الصهيوني.

– المقاومة المستمرة لكل أساليب الدجل ومحاولة دفـع الجمـاهير إلى أنصـاف الحلول عبر الأطروحات اليسارية واليمينية وغيرها. الجمـاهير لا تعـرف التفـاوض لقد تم ذبح السلام والتفاوض على يد جماهير المسلمين في لبنـان. ولـيس لهـم إلا أن ينتصروا.

الجماهير في زحف ملحمي رائع تسيطر على بيروت الغربية والجبل. يـا لهـا مـن لحظة رائعة.

الاستيلاء على الإذاعة والتليفزيون.

القيمة التاريخية لحركة الجماهير في تحرير بيروت والجبل.

حينما رفعت الجماهير شعار «خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود».

حينما رفعت الجماهير ذلك الشعار ومارسته فإنها في الحقيقة قـد أعلنـت يـوم ٧ يناير سنة ١٩٨٤.

– بداية العالمية الإسلامية الثانية – وصعود مد الجماهير المسلمة مرة أخرى.

– إنهاء وجود الدولة الفاشية في لبنان.

– إقامة دولة الجماهير في المناطق المحررة.

– بداية نهاية إسرائيل.

- لقد حسمت الجماهير المعركة في اتجاه إسقاط التسوية. لقد سقطت يوم ٧ يناير.

- الحقبة الإسرائيلية.

- الهجمة الغربية.

- كل الأطروحات العلمانية.

- كل الحلول الوسط والتردد والتفاوض ولقد أبرزت.

الطريق الوحيد لتحرير فلسطين وإقامة العالمية الإسلامية الثانية هي حرب التحرير الشعبية الإسلامية.

- إن الجماهير المسلمة التي تملكت زمام أمرها غير قابلة للهزيمة.

انسحاب مشاة البحرية الأمريكية:

لقد أدركت الإدارة الأمريكية أنها أمام تحد من نوع لا يمكن هزيمته أنها أمام الجماهير المسلمة وتحت قيادة الرموز الإسلامية وبالتالي فلا حاملات الطائرات

ولا المدمرات ولا قذائف الألف كيلو ولا نيوجرسي ولا كل ترسانة الأسلحة الأمريكية قادرة على فعل شيء. إذا صعدت الجماهير. فالجميع ينسحب الجماهير المسلمة تكتسح في طريقها كل شيء.

- إنني أرى أن العدو الصهيوني سوف يدرك هذا سريعا وسوف ينسحب تباعا لأنه أيضا لا يستطيع أن يتصدى لتلك القوة الهائلة المندفعة بقوة دفع ١٤٠٠ عام وبقوة دفع محمدي حسيني.

ولكن هل تستسلم القوى الشيطانية؟

إذا كانت القوى الشيطانية قد انسحبت أمام الطوفان الهادر من الجماهير المسلمة فإنها لن تستسلم بسهولة. ستحاول الالتفاف حول حركة الجماهير بما أنها تدرك أن هذه الجماهير لا يمكن هزيمتها من الخارج فإن عليها أن تحاول هزيمتها

من الداخل.

إن تحرك القوى الشيطانية في الحقبة المقبلة يتمثل في:

- تفريغ حركة الجماهير من مضمونها.

- توجيهها في عكس الاتجاه الصحيح أو عبر قنوات جانبية. إن القوى الشيطانية تدرك أنها لو تركت حركة الجماهير في مسارها الصحيح فإن هذا يعني:

- نهاية الكيان الصهيوني.

- نهاية الحضارة الغربية.

- بداية العالمية الإسلامية الثانية.

وهذا يستوجب أن تكثف القوى الشيطانية عملها وتحشد أفضل أسلحتها عبر:

- محاولة نزع الدرع الجماهيري وذلك عبر محاولة استرضاء الزعماء ببعض المكاسب في لبنان «مثل إعادة توزيع السلطة والثروة» مما يستتبع أن يقع الزعماء في التفاوض ومحاولة تفريغ الشارع من الجماهير المسلمة بدعوى المحافظة على النظام. وهذا أخطر منزلق يمكن أن ينزلق إليه الزعماء فإنهم بهذا يكونون قد ضيعوا فرصة تاريخية لإقامة العالمية الإسلامية الثانية.

محاولة إيصال عناصر علمانية ذات وجه مقبول إلى السلطة في المنطقة ويتوقف هذا على قوة المد الجماهيري. الوفد في مصر مثلا – ريمون أدة أو حتى وليد جنبلاط في لبنان وحتى نبيه بري ذاته ذو التشوهات العلمانية.

- حل التناقض مع النظام السوري واستعماله في ضرب حركة الجماهير الذي يدرك النظام السوري خطورتها عليه هو أيضا.

- محاولة الإيقاع بين الطوائف. سني – شيعي – درزي – علوي. إلخ!!

كل القوى سوف تتجمع..

لاشك أن حركة الجماهير المسلمة قد وصلت الآن إلى مرحلة خطيرة جدا

وبالتالي فإن كل القوى الشيطانية سوف تتجمع لمنع البركان الإسلامي الهائل من اكتساح كل التخلف والعمالة والجهل والاستعمار.

إن الحركة الجماهيرية الإسلامية الآن قد أصبحت خطرا على كل القوى.

- الرجعية العربية – والتقدمية العربية -.

- خطرا على الغرب كل الغرب بشقيه الرأسمالي والشيوعي.

- خطرا على اليهود وكل أبناء الأفاعي – على الصليبيين من كافة الأشكال.. وبالتالي فإن كل القوى ستقف الآن وبحزم في وجه حركة الجماهير.

- سيحاول النظام السوري لجم حركة الجماهير وإخراجها عن مسارها الصحيح وإذا لم ينجح فسوف يضربها بقسوة متعاونا مع إسرائيل وأمريكا وفرنسا. وما تل الزعتر ببعيد.

- ستحاول الرجعية العربية القيام بدور التهدئة والوساطة وخلافه لتفريغ الشارع الإسلامي المسلح من قوة دفعه.

- سيستعمل الغرب كل أدواته الفكرية لتضليل الجماهير وصرفها عن الاستمرار في تحقيق النصر.

وهكذا فإن على الجماهير:

- ألا تلقي سلاحها أبدا.

- ألا تقبل بالحلول الوسط. وأن تمنع الزعماء من القبول بها فدماء الجماهير ليست أوراق تفاوض.

- أن تستمر في القتال حتى النهاية لإقامة كيان إسلامي على حدود إسرائيل ليكون نقطة ارتكاز لتحرير فلسطين. كل فلسطين.

- على الجماهير المسلمة أن تثري أيديولوجيتها الإسلامية بمزيد من الإيمان والوعي. بالعبادة والنضال السياسي. بالتأمل المستمر والدراسة المضنية.

- على الجماهير المسلمة أن تفرز هياكلها القادرة على استيعاب طاقاتها باتجاه المستقبل عملا على بناء حائط جماهيري صلب في مواجهة كل أشكال القمع من قبل الأنظمة العربية والكيان الصهيوني.

- على الجماهير المسلمة ألا تثق إلا في نفسها بعد ما عانته من خيانات كافة القوى السياسية على اختلاف درجاتها من يمين ويسار.. إلخ.

لأن الجماهير المسلمة هي وحدها التي تملك التناقض الحقيقي مع الكيان الصهيوني.

- على الجماهير المسلمة أن تحقق تلاحما لا ينفصم مع الثورة الإسلامية الإيرانية وأن تتبنى مقولاتها في الجهاد وأن تسقط كل العوائق المفتعلة تجاه تقليل أطر التعاون والتلاحم والاندماج بينها وبين الثورة الإسلامية في إيران.

مدركة أن تلك الثورة الإسلامية هي أيضا الوحيدة التي تملك تناقضا جوهريا مع الكيان الصهيوني.

- على الجماهير المسلمة أن تطرح شعار حرب التحرير الشعبية الإسلامية طويلة المدى في مواجهة رأس الحربة الغربية.

- على الجماهير المسلمة أن تنتزع حقها في الحريات السياسية وحقها في الحياة الكريمة من الأنظمة العربية مدركة أن الأنظمة العربية هي في النهاية في خندق واحد مع الكيان الصهيوني وتعمل لصالحه.

- على الجماهير المسلمة أن تدرك أن الثورة الإسلامية داخل الوطن المحتل هي عصب حركتها فعليها أن تتمحور باذلة لها كل عطاء ومقدمة لها كل عون وواقفة وراءها بصلابة. لأن تلك الجماهير المسلمة في الأرض المحتلة مرشحة للقيام بأخطر دور في تلك المرحلة لإسقاط الحقبة الإسرائيلية.

دور الجماهير المسلمة وطلائعها الواعية داخل الأرض المحتلة.

إن جماهير الأرض المحتلة بما لها من خصوصية خاصة فهي في المقام الأول

جزء من حركة الجماهير المسلمة ككل بل هي عصبها ومركزها. فهي بما أنها جزء من حركة الجماهير المسلمة. فهي تملك كل أدوات الجماهير المسلمة في الصراع وكل خبراتها التاريخية. إلا أنه وبوجه خاص فإن جماهير الأرض المحتلة تملك بعدا خاصا في الصراع وهو أنها في تماس مباشر مع الكيان الصهيوني. وفي صدام يومي معه وبالتالي فهي أكثر قدرة على الفهم والإدراك والوعي التاريخي وهي أكثر قدرة على الحركة في مواجهة عدو تتعامل معه يوميا.

كما أن تلك الجماهير قد وقع عليها بشكل خاص كل الآلام والمحن والتجارب القاسية من تشريد وتجويع وحصار وغيرها وبالتالي فإنها تملك تراكماتها الخاصة في مواجهة ذلك الكيان.

إن تلك الجماهير تعمل مباشرة في مواجهة الاحتلال – مع شروط أخرى – دون أن تقف في سبيلها حكومات وأنظمة تمنعها عن أداء دورها بالأساليب القمعية المعروفة والتي تعاني منها الجماهير خارج الأرض المحتلة.

– وبما أن إسرائيل تدرك ما سبق عن خصوصية وحيوية الجماهير فإننا وطبقا للتحليل السابق ودراسة طبيعة القوى وشروطها في الصراع وبدراسة الواقع التاريخي في اللحظة الحاضرة نحدد أن حركة القوى الشيطانية ستكون في اتجاه إقامة كيان فلسطيني مصطنع وهزيل ليصبح حاجزا نهائيا بين جماهير المنطقة وبين الكيان الصهيوني مع الهيمنة الإسرائيلية الكاملة عسكريا على ذلك الوطن الفلسطيني الهزيل وبالطبع مع الهيمنة العسكرية على كل ما يحيط بها استمرارا لخطتها في التوسع.

إن أخطر ما يواجه الجماهير في الأرض المحتلة هو إقرار وتحديد ذلك الكيان الهزيل المزمع إقامته ليقوم بدلا من إسرائيل بقمع الجماهير وإنهاء حركتها التاريخية الفذة.

إن الله سبحانه قد قيض للجماهير المسلمة في الأرض المحتلة أطهر وأوعى شباب الأرض وعلى هذا الشباب المؤمن أن يعي ما سبق جيدا ويتحرك في الإطار الصحيح نحو إسقاط محاولة تصفية القضية الفلسطينية في اتجاه إقامة كيان هزيل

يسحب التراكمات الثورية.

***

القوى غير الإسلامية نهج خيانة – نهج مساومة – نهج تردد

إنه لمن الأهمية بمكان رصد ظاهرة سقوط كل القوى السياسية في المنطقة ما عدا (الإسلامية الجماهيرية بالطبع) في فخ التفاوض والحلول الوسط.

إن أهمية رصد وتحليل تلك الظاهرة ينبع أساسا من كون التفاوض والمساومة يعد من أخطر الأسلحة الاستعمارية الشيطانية في إخراج قطاعات من تلك القوى من الصراع. بل واستعمالها في الالتفاف حول حركة الجماهير المسلمة وبالتالي فإنها في النهاية تخدم مخططات الغزوة الشيطانية.

ولكن بداية يجب أن نرصد بعض الحقائق التالية:

١ – أن كل القوى بلا استثناء استدرجت نحو ذلك الفخ وعلى مدى مساحة الصراع التاريخية والجغرافية، وأن الفرق بينها لم يكن إلا فرقا في الدرجة، جيروند ويعاقبة.

٢ – أن القوة الوحيدة التي لم تفقد موقفها المبدئي من تلك المسألة بما لها من حس تاريخي ومصالح حقيقية وتناقض جوهري مع الاستعمار هي القوة الإسلامية الجماهيرية.

٣– أن القوى الغير إسلامية تتصرف تجاه الصراع بشكل متردد. فهي تارة ثورية – وتارة مساومة. وهي ترفض يوما وتقبل يوما بما أنها لا تملك رؤية منهجية في إدارة الصراع.

٤ – أن تلك القوى، لا يوجد بينها فواصل حديدية بل هي متداخلة.

وهي أحيانا تنطبق في بعض مواقفها التكتيكية حتى مع القوى الإسلامية الجماهيرية.

٥- أن هذه الدراسة سوف تتتبع في إيجاز شديد. تاريخ التفاوض وأبعاده وأسبابه وخطورته. وسوف نحدد القوى بشكل إجمالي وفي هذا الإطار فإننا ندعو لقيام مفكرين مسلمين بتتبع ذلك الأمر تفصيليا لما له من أهمية كبيرة جدا في تحصين المواقع الفكرية والحركية لصراع الجماهير ضد الاستعمار والصهيونية في تلك الحقبة.

٦- أن الاستعمار يلعب لعبة التفاوض والمساومة والحلول الوسط. ومشاريع التسوية. حينما تشتد حركة الجماهير المسلمة وتتصاعد وذلك في محاولة لتطويقها. والمتتبع لتاريخ التسوية يرى أنه في حالات الجذر الجماهيري. فإن القوى التي تطفو على السطح تكون قوى خائنة ومرتبطة بصورة مباشرة مع الاستعمار. وفي حالات المد الجماهيري تلجأ القوى الاستعمارية إلى قوى أخرى

لا ترتبط بها مباشرة. بل يمكن أن تكون في صفوف الجماهير مؤقتا ولكنها تطرح أشكالا غير صحيحة لإدارة الصراع وذلك لأن الاستعمار يدرك قيمتها في تطويق حركة المد الجماهيري من ناحية. وأنها من ناحية أخرى لا تملك الاستمرار وسوف تقع في المهادنة والخيانة بعد حل تناقضاتها مع الاستعمار عبر حرب أو تسوية.

لماذا ترفض الجماهير المسلمة. أسلوب التفاوض؟

ينبع ذلك من أمرين:

١- إدراك تلك القوى لطبيعة الصراع بما أنها تمتلك منهجا صحيحا.

٢- إدراك تلك القوى ووفقا لمنهجها ذاته للأسلوب الصحيح لإدارة ذلك الصراع.

طبيعة الصراع:

تدرك الجماهير المسلمة بحسها الإسلامي والتاريخي أن الاستعمار والغزوة الصهيونية هي آخر حلقات الصراع التاريخي بين القوى الربانية والقوى الشيطانية. وتدرك أكثر أن ضمير الأمة ووعي الجماهير هو المستهدف هذه المرة. تمهيدا لتصفية الكيان الحضاري للأمة المسلمة وتوجهاتها الربانية في تحرير العالم.

وبالتالي فإن الصراع يمتد في الزمان والمكان ليأخذ أبعادا عميقة ودرامية تمتد عبر التاريخ كله وعبر العالم بأسره.

وبالتالي فإن التناقض بين تلك الجماهير المسلمة وبين الكيان الصهيوني رأس الحربة الشيطانية هو تناقض جوهري. لا يمكن حله إلا عبر الكفاح المسلح الطويل. لإنهاء الحقبة الاستعمارية بكاملها وتدمير الكيان الصهيوني تماما. وبلا أدنى فرصة في الالتقاء على أي أرضية كانت.

وهكذا فإنه ليس هناك أي أرضية للالتقاء بين القوتين.

الأسلوب الصحيح لإدارة الصراع..

تدرك الجماهير المسلمة وطليعتها الواعية أن الأسلوب الصحيح لإدارة أي صراع لابد أن يستند إلى:

١- فهم طبيعة التحدي وهي وفقا لمنهجها فإنها تدرك ذلك بوضوح كما سبق.

٢- فهم طبيعة وتركيب العنصر المعادي. (انظر فصل طبيعة المجتمع الإسرائيلي)، وبالتالي فهي تدرك توجهات وطبيعة تركيب المجتمع الصهيوني. وارتباطه الوثيق بالاستعمار. وتوجهات ذلك المجتمع العقائدية والتاريخية فهو مجتمع توراتي حتى النخاع. ولابد من تحد مكافئ لذلك.

٣- فهم خصائص وشروط عمل قواها الذاتية. وأن القوى الإسلامية تدرك أن قوتها تنبع أساسا من إسلامها وصلابتها وأن درعها هو الجماهير وهي فضلا عن واجبها تجاه ربها ودينها ورسالتها في العالم. فإنها تدرك أن الأمة لا تتحرك إلا من خلال الإسلام. والإسلام وحده. وأن أي محاولة لتحريك الجماهير من خلال أيديولوجية أخرى هي محاولة تآمرية تخدم في النهاية مصالح الاستعمار. بما أنها تخرج الأشياء عن ظروف عملها الصحيحة.. وتعوق بالتالي حركة الجماهير وتبلبلها وتفقدها قوة دفعها.

٤- ووفقا لكل الشروط والخصائص السابقة، فإن الأيديولوجية الإسلامية

الجماهيرية وخط الكفاح الشعبي المسلح. هو الأسلوب الصحيح.

٥- وبالتالي أيضا فإن المساومة. ومشاريع التسوية. لا تتفق علميا ولا موضوعيا مع طبيعة الصراع. ولا مع خصائصه. وبالتالي فهو في النهاية فخ استعماري.

٦- وبالتالي أيضا فإن المساومة تعني:

- فقدان الالتفاف الواسع من الجماهير حول القيادة الإسلامية. وبالتالي تخفيف ضغط الجماهير على الكيان الصهيوني.

- طرح شكل جزئي. يفقد الجماهير رؤيتها الصحيحة.

ولتوضيح تلك النقطة الهامة جدا يجب أن ندرك الآتي:

- عدو توراتي – عقائدي – مسلح بأحدث الأسلحة – مدعوم من الاستعمار والحضارة الغربية تعطيه كل شيء – إفراز حقيقي للحضارة الغربية. بمعنى أنه يستوعبها ويستعمل أدواتها بكفاءة.

وبالتالي فإن محاولة مواجهته بجيوش قوية. منظمة. بدبابات وطائرات وحروب إلكترونية. فإنها محاولة فاشلة.

- لأن كل تلك الأسلحة. قد تطورت علميا وتكنيكيا في معامل الغرب ومصانعه، وبالتالي فلن نستطيع اللحاق به في كفاءتها ولا عددها. ولن يحدث ذلك مادامت الحضارة الغربية متفوقة علينا. فمهما امتلكنا طائرات ودبابات فسيكون لديه دائما أقوى وأكفأ منها.

- ومحاولة مواجهته. بإطار علماني. يجعلنا تفقد قوانا الذاتية. فضلا عن أننا سوف نرقص على دقات طبول الحضارة الغربية. التي هي في النهاية معادية لنا ولن تسمح لنا بتجاوزها. إذا فهمنا توجهاتها الصحيحة. فكيف نواجه عدونا. بمنطق هو إفراز له. ونحن تقليد مشوه.

- كما أن محاولة مخاطبة الرأي العام – والأمم المتحدة وغيرهما. لا يتفق أيضا مع طبيعة الصراع ولا مع الأسلوب الصحيح لإدارته وفقا لما سبق. لأن الرأي العام

في النهاية صنع غربي. كما أن ثقافته وتوجهاته غربية وكذلك مقاييسه (ليس من الغريب أن يقف الرأي العام مع حق إسرائيل في الوجود. بكل قواه السياسية من يمين ويسار.. إلخ – موقف سارتر مثلا – ميتران.. إلخ).

كما أن الأمم المتحدة هي منظمة استعمارية أنشأها الاستعمار لمحاولة تخفيف الضغط الجماهيري عليه. عبر قنوات فرعية.

وبالتالي فإن القوى الحقيقية التي تمتلكها هي:

– البعد الجماهيري. جماهير الأمة المسلمة. ولابد من تدعيم ذلك البعد ودفع الجماهير باستمرار لمواجهة الكيان الصهيوني. لأن الجماهير في النهاية هي الدرع الحقيقي الغير قابل للهزيمة، ١٠٠٠ مليون مسلم وكل مستضعفي الأرض من ضحايا الحضارة الغربية.

– الأيديولوجية الإسلامية بما أنها الرد الصحيح. لأنها هي المستهدفة.. وبما أنها تعطي للجماهير الوعي الصحيح والرؤية الصحيحة والزاد الحقيقي للمواجهة.

– وبالتالي فإن المساومة تعني سحب الجماهير من خندقها. وتسريحها وهو المستهدف دائما. ومن ثم الانفراد بالقيادات داخل الغرف المكيفة فكيف نذهب للتفاوض وقد نزع عنا سلاحنا. إن التفاوض يعني نزع سلاحنا. لأنه ليس لنا إلا سلاح الجماهير، والمفاوضة تعني أن الجماهير انتهى دورها.

وكذلك المفاوضة تعني أرضية مشتركة يمكن التفاهم حولها. وبما أن الصراع إسلامي ضد شيطاني. ولا لقاء بينهما فإن التفاوض يعني في النهاية فقدان المنهج الصحيح وإلقاء ظلال من الشك عليه.

ولهذا فإن خط الجماهير المسلمة. محمد ﷺ، الحسين.. عز الدين القسام. محمد الأشمر. فوزي القاوقجي. عبد القادر الحسيني.. بورسعيد ٥٦. (عاصفة ٦٥ وليس ما بعدها). حافظ سلامة (السويس ٧٣) – محمد الحلوة – لبنان ٨٢. شعب الجنوب البطل (لبنان ٨٣، ٨٤). راغب حرب – بلال فحص.

أي خط أيديولوجية جماهيرية إسلامية. حرب تحرير شعبية.

لماذا تسقط القوى الأخرى في التفاوض؟

- لعكس الأسباب السابق. تماما:

١- لا رؤية في الصراع. ولا منهج صحيح. (رؤية جزئية – منهج جزئي).

٢- تناقض ثانوي. وليس تناقضا جوهري.

٣- مواجهة الغزوة (الرقص على طبول العدو ووفقا لشروطه).

تناقض ثانوي:

والقوى غير الإسلامية لا تمتلك تناقضا جوهريا مع الكيان الصهيوني بل إنها تملك تناقضا ثانويا. بمعنى أنها تعبر عن مجموعة المصالح لطبقة معينة تكون الغزوة الصهيونية خطرا عليها في مرحلة. ومساعدة لها في مرحلة.. وفي كل الأحوال تملك تلك القوى تناقضا جوهريا مع الجماهير المسلمة وبالتالي فهي بوعي أو بدون وعي تتآمر على الجماهير ولا تتركها تواجه الكيان الصهيوني وفي الحقيقة فإن كل تلك القوى لا تملك بعدا جماهيريا إطلاقا. وهي ليست إلا مجموعة وجهاء. ومجموعة مثقفين تشربوا بروح الغرب وبالتالي فإن حركة تلك القوى تظل باستمرار داخل إطار الوجهاء وإطار المثقفين ولا تتعداها.

ملاحظة:

بعض القوى التي سندرجها تحت التناقض الثانوي. كانت لها جذور إسلامية. ولكنها لم تكن جذور رسالية ولا جماهيرية. ولا توجه لها نحو المستضعفين. وبالتالي فقد وقعت في أخطاء جوهرية (الحاج أمين الحسيني) وسوف نفرد لها مبحثا خاصا.

- في كل الحالات كانت تلك القوى تمنع الجماهير من أداء دورها وتضربها بلا رحمة ولقد استعملها الاستعمار بذكاء كحائط صد أمام الجماهير لحماية الكيان الصهيوني أو طوق حديدي لتطويق حركة الجماهير. أو تخديرها أو الذهاب بها إلى روافد جانبية.

أحيانا وفي أوج حالات المد الجماهيري الواسع فإن تلك القوى قد ترتبط بالجماهير أي أن الجماهير الكاسحة. تأخذها معها في ذيل الموجة– وهذا فضلا عن أنه قصور ذاتي في تلك القوى – المترددة – فإنه مستهدف من جانبها أيضا حتى لا تفقد وجودها. وحتى تستمر في أداء دورها باستمرار وحتى لا تنكشف. بل إن القوى الاستعمارية في تلك اللحظات كانت تتعمد تصعيد قيمة تلك القوى. ونسج أساطير البطولة حولها. مما يعطيها فرصة أكبر في أداء مهمتها في تكبيل حركة الجماهير وتطويقها.

القوى الرئيسية في التناقض الثانوي:

وهذه القوى بحكم عدم امتلاكها منهجا في الصراع وانحصارها في فئة الوجهاء والمثقفين فإنها من التعدد والتردد والتأرجح بشكل يمكنه أن يغرقنا في التفصيلات فإنك ترى إحدى هذه القوى مثلا. تنشق وتتفرغ أولا.. ثم تنشق وتتفرع ثانيا.. ثم تنشق وتتفرغ ثالثا.. ثم تنشق وتتفرع أخيرا. بدون أي داع استراتيجي أو منهجي. فيمكن لإحدى هذه القوى أن تنشطر إلى عشرات القوى تحت خلافات صغيرة جدا.

وهكذا فإننا سوف نقسمها إلى ثلاث مجموعات مع ملاحظة أن كل القوى لن تخرج عن هذه المجموعات. وأن تلك المجموعات ذاتها يمكن أن تتداخل مع بعضها في المواقف على أساس أنها غير منهجية وبالتالي فإن مواقفها غير مبررة أصلا. وأن المواقف بينها في النهاية لا تخرج عن جيروند ويعاقبة. وأنها تؤدي نفس الدور وكل في مرحلته وحسب حالة المد الجماهيري الإسلامي.

وسوف نحدد باختصار تلك القوى – وأهم سماتها – وموقف أو موقفين تساوميين للتوضيح فقط. لأن مسألة التفاوض والمساومة طويلة جدا وتصلح دراسة مستقلة.

والقوى الثلاث هي:

- الأحزاب الشيوعية.

- الحركة القومية العربية – الشريف حسين – الملك عبد الله وما يـرتبط بهـا مـن أحزاب مثل حزب الدفاع – وتطورت تلك الحركة إلى عبد الناصر – ثم أخيرا جورج حبش.

- القوى والزعماء ذوو الجذور الإسلامية. ولكن غير الرسالية وغيـر المنهجيـة، وغير الجماهيرية. أمين الحسيني.... ياسر عرفات.

الأحزاب الشيوعية:

وهي أحزاب هامشية. وصغيرة جدا. وليس لها أي بعد جماهيري. كما أنها نشـأت على يد الأجانب عموما واليهود خصوصا.

والأحزاب الشيوعية. بما أنها علمانية (الماركسية هي الشق الآخر مـن الحضـارة الغربية) فهي تمتلك أرضية مشتركة مع الكيان الصهيوني. والمفروض المفتقد حتـى الآن هو أن تكون تلك الأحزاب جماهيريـة. إلا أنهـا حتـى الآن لم تخـرج عـن كونهـا حلقات من المثقفين.

وحتى الآن فهي لم تـؤد دورا خطيـرا في المنطقـة إلا بعـض الطروحـات النظريـة الخطيرة والتي تهم بدورها في تكبيل حركة الجماهير وتمييع القضية.

وهذه الأحزاب بالطبع لم تصل إلى السلطة. وبالتالي وبما أنهـا صـغيرة ومحـدودة كما أنها لم تصل إلى السلطة فلم تلعب حتى الآن دورا خطيرا.

ولكن خطورتها تكمن في كونها الآن مرشحة لأن تلعب دورا خطيرا بعـد إفـلاس كل الطروحات الأخرى.

كما تكمن خطورتها في كون نصف العالم يحكمه الشـيوعيون وبالتـالي فهـي قـوة مؤثرة يجب أخذها في الحسبان.

- نشأ الحزب الشيوعي الفلسطيني بين المهـاجرين اليهـود أولا ثـم مـا لبـث أن استقطب عددا من العناصر العربية في فلسطين وككل الأحزاب الشيوعية في المنطقـة كانت تنشأ من الأجانب وبخاصة اليهود (الحركة الشيوعية في مصر مثلا – جوزيـف

روزنتال – هنري كوربيل – هليل شوارتز).

– بدأت حركة الحزب في معاداة خط الجماهير المسلمة منذ الوهلة الأولى فالحزب قد طرح «أن الجماهير الكادحة العربية واليهودية يجب أن تتجاوز الحقد العنصري والإثارة – ويجب أن تعمل على تجنب الحرب الأهلية».

نشرة الحزب أغسطس ٢٩

ناجي علوش – الماركسية والمسألة اليهودية

– قام الحزب وفيه عرب (نجاتي صدقي – موسى الدجاني) بالدفاع عن المستعمرات اليهودية إبان انتفاضة ٢٩.

* بالطبع حين يطرح الحزب شعار الأخوة بين العرب واليهود. فهو خداع كبير فكيف تحدث أخوة بين جان ومجني عليه (إن الكيان الصهيوني كله كيان استعماري).

وهكذا فإن هذا الطرح تخدير للجماهير المسلمة لتسليمها فريسة لليهود ومحاولة لتمييع القضية. ولقد فضح هذا النهج تماما حينما قام الشيوعيون بمقاتلة الجماهير دفاعا عن الأحياء اليهودية.

ولقد أدى هذا إلى استفزاز مشاعر بعض الشيوعيين العرب. مما أدى إلى رفع شعار التعريب (حدث هذا أيضا في مصر). ولكن تلك الحركة قد طوقت واستمر الحزب على نهجه القديم.

– على أي حال ونتيجة لتلك الحركة داخل الحزب. في إبان أحداث ١٩٣٣. فإنه رغم عدم مشاركته في تلك الأحداث إلا أنه لم يقف مباشرة ضد الجماهير المسلمة – ولكن اكتفى بأن يعطي تحليلا للأحداث لا يدين الجماهير ولكن ينهج إلى تزييف طبيعة الصراع ويخرجه عن محتواه الحقيقي. ولقد وصلت تلك الحركة التصحيحية داخل الحزب إلى ذروتها في مؤتمر الحزب السابع سنة ١٩٣٥.

– عاد الحزب إلى ممارسة نشاطاته المشبوهة. وتم تصفية الاتجاه الصحيح (وفقا

للرؤية العلمية الماركسية – فالحزب بكل أطروحاته خطأ من نظرنا – تعريبي وغير تعريبي) ولقد تمثل ذلك في إعلان الحزب إدانته للأحزاب والانتفاض.

– ثم ما لبث الاتجاه التعريبي ذاته أن وقع في الخطأ المباشر عندما نادى بالانخراط في صفوف جيش تشرشل (رفيق سلاح الجيش الأحمر). برغم أن بريطانيا تضرب الجماهير في فلسطين بلا هوادة.

– تطور الاتجاه التعريبي ليؤسس عصبة التحرر الوطني وكان من الشيوعيين العرب البارزين فيها: إميل توما – فؤاد نصار – إميل حبيبي – موسى الدجاني.

وآخرون (انظر جريدة فلسطين ١٨ تشرين الأول – أكتوبر) ١٩٤٧.

وقد طرح هؤلاء صيغة الدولة الديمقراطية وقبول كل اليهود الموجودين داخل فلسطين.

في ١٩٤٧ وإثر موافقة الاتحاد السوفيتي على قرار التقسيم انقسمت عصبة التحرر الوطني إلى قسمين الأول بقيادة فؤاد نصار وإميل حبيبي يؤيد مشروع التقسيم متماشيا مع السياسة السوفيتية والثاني بقيادة موسى الدجاني وإميل توما يعارض التقسيم.

– في أكتوبر ١٩٧٤ وفي محاضرة في نادي الغد (القدس). عاد أمين توما الذي عارض التقسيم سنة ١٩٤٧ عاد وأيد التقسيم.

كما أن الدكتور خليل البدري عاد وأعلن سنة ١٩٧٥: «أن مشروع التقسيم ندعو لقبوله اليوم كخطوة على حل المسألة الفلسطينية».

* ينبغي أن نشير هنا إلى موقف الشيوعيين المصريين المؤيد لجنيف – والمؤيد لعرفات أحيانا – لحافظ الأسد أحيانا. انظر جريدة الأهالي المصرية.

وهكذا فإن الحركة الشيوعية بكل فصائلها قد وقعت في المساومة والحلول الوسط وإن كل ما تطرحه من (دولة ديموقراطية – اتحاد البروليتاريا العربية واليهودية) هي طروحات مرفوضة طبقا للمنظور الصحيح للصراع وإنها في النهاية

طروحات تطويقية – وتخديرية لحركة الجماهير.

القوى القومية:

في الحقيقة فإن تلك القوى. هي أخطر قوى لعبت دورها على الساحة في التمكين للكيان الصهيوني. ولقد استعملها الاستعمار بصورة شيطانية لتكبيل حركة الجماهير. وحماية الكيان الصهيوني. وإمرار مشاريع التسوية.

ولقد قام الاستعمار بطرحها كبديل للإسلامية. فمنذ أن أوجد الاستعمار اللاشريف حسين (مؤسس حركة القومية الأول) – وتلك القوى تلعب دورها الشيطاني في المنطقة.

وطبيعي جدا كشأن كل القوى أن تلك القوة غير مصمتة بمعنى أنها تطورت وتنوعت وأخذت أبعادا مختلفة اجتماعية وسياسية وتم تلقيح بعضها بالاشتراكية مثلا (عبد الناصر – البعث) أو حتى بالماركسية جورج حبش.

وتكمن خطورة تلك القوة في أنها تطرح القومية الشوفينية – أو الاشتراكية كبديل للإسلامية. والقومية العربية هي الدائرة الأصغر ولكن القابلة للتحرير على أساس تداخلها مع الإسلامية بشكل ما وبالتالي فهي أقدر على ضرب إسلامية الجماهير. وسحب سلاح الجماهير الحقيقي وتشكيل الصراع وفق رؤية مقبولة شيئا ما. ولكنها فاسدة ومضللة.

والخطورة الأخرى تكمن في أن تلك القوة قد وصلت إلى السلطة في معظم الأقطار العربية وبالتالي فقد مارست دورها التخريبي ضد حركة الجماهير ونزع سلاح الجماهير الحقيقي (الإسلام) في مواجهة الصهيونية ومحاولة وضع الصراع على أساس محدد وتفاوضي وتساومي وقابل للحلول الوسط بل ويمكن الاعتماد على الاستعمار (بريطانيا، ثم أمريكا) لحل هذا الصراع.

ولقد تطورت تلك القوى على النحو التالي:

(أ) اللاشريف حسين وأولاده.

نشأت حركة اللاشريف حسين أو ما يسمى بالثورة الكبرى – الخيانة العربية الكبرى – بإيعاز إنجليزي استعماري وذلك لتصعيد القومية العربية كبديل للجامعة الإسلامية – ولمحاولات مستمرة – في تصفية الخلافة الإسلامية العثمانية.

ويمكننا أن نفهم خطورة تلك الحركة – في محاولتها تصفية الخلافة الإسلامية التي صمدت طويلا للضرب الاستعماري. إذ ما أدركنا أن السلطان عبد الحميد قد رفض العرض الصهيوني بتسديد ديون الخلافة رغم حاجة الدولة العثمانية المنهكة والتي كانت على شفا الإفلاس.

فحينما توجه تيودور هرتزل إلى السلطان عبد الحميد عارضا ١.٦٠٠.٠٠٠ جنيه إسترليني في مقابل أن يسمح لهم السلطان باستيطان فلسطين.. كان رد السلطان عليه أن هذه البلاد ليست له ولكنها لشعبه وهو لا يحق له التصرف فيها.

وقد وقف السلطان هذا الموقف التاريخي الرائع برغم إدراكه أن الخلافة على حافة الانهيار ولكن إسلاميته قد عصمته من الوقوع في الخطأ التاريخي – وجعلته يدرك منذ الوهلة الأولى طبيعة وتوجهات الصهيونية.

ومن هذا المنطلق رفض السلطان هذا العرض وإن كان قد أوضح أنه يدرك ووفقا لطبيعة المنحنى التاريخي النازل في وقتها أن الخلافة لابد منهارة – وأن اليهود ربما يحصلون على فلسطين بدون مقابل.

من هنا تدرك خطورة الدور الخياني الذي أداه اللاشريف حسين وأولاده الخونة من بعده. وندرك استمرار ذلك التآمر الشيطاني ضد الدولة العثمانية من جانب الاستعمار والصهيونية والذي أدى في النهاية إلى انهيارها.

* يمكن للإسلامي الرسالي أن يقف ضد أخطاء الخلافة العثمانية ولكن لا يمكن له ضرب فكرة الخلافة كبديل – أو الارتباط بالاستعمار تحت دعوى أن الخلافة مستبدة مثلا.

ولقد تميز نهج الشريف حسين وأولاده من بعده باستمرار في الارتباط بالاستعمار الإنجليزي – ثم الأمريكاني.

* قامت كل الحكومات الواقعة في هذا الإطار على أساس المساعدات الاستعمارية والارتباط الكامل بها حتى أن الملك حسين ذاته قد أصدر في ١٩٦٥ طابع بريد يحمل صورة جونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وقتها.

ولقد سار على هذا الخط المرتبط بالاستعمار والصهيونية بعد اللاشريف حسين ابنه الملك عبد الله على النحو التالي:

١- أن إمارة شرق الأردن ذاتها أنشأت بغرض تدعيم وجود اليهود ومحاولة تنفيذ وعد بلفور – وعد بلفور صدر في حياة الشريف حسين.

٢- أن الشريف حسين ذاته وعلى يد الأمير عبد الله وزير خارجيته. قد وقع على اعتراف بوعد بلفور في ٢١ كانون الأول سنة ١٩٢١. فكان أول عربي رسمي يوقع ذلك.

٣- أن الملك عبد الله قد منح اليهودي روتمبرج صاحب امتياز كهرباء فلسطين الذي كان من أقوى أعمدة الكيان الصهيوني – أرضا واسعة من أرض الأردن ليقيم عليها مشروعه.

٤- أن الملك عبد الله ومعه عملاءه من قادة حزب الدفاع – راغب النشاشيبي ويعقوب فراج – قد أيدوا فكرة المجلس التشريعي الذي جاءت به بريطانيا لتطويق حركة الجماهير المسلمة إبان تصاعدها عام ١٩٢٢.

٥- أن الملك عبد الله استمر يتصل بالصهاينة ويلتقي بهم ويستقبلهم دائما.

٦- أن الملك عبد الله قد قام وعلى أثر ثورة ١٩٢٩ وبعد امتناع العرب عن بيع الأراضي لليهود. قام بأخذ أرض من الدولة في الغور (١٠٠٠ دونم).

سارع بتأجيرها لليهود لمدة ٩٩ سنة. ثم أخذ يوعز لرؤساء القبائل والعشائر بطلب فتح باب الأردن للأموال اليهودية لأن عندهم أراض شاسعة معطلة.

٧- أن الملك عبد الله كان ضالعا في كل مشاريع التسوية. فإما يقبلها ويحاول تمريرها من أول مشروع اللجنة التشريعية – والكتاب الأبيض الأول والثاني والثالث

ولجنة داكهوب – مشروع ينو كومب ٣٨ – ١٩٤٠.

مشروع اللورد موريسون ١٩٤٦.

وإما أنه كان يقدم هو مشاريع للتسوية. مثل مشروع الملك عبد الله والملك عبد العزيز ١٩٣٨.

وأخيرا قبول مشروع التقسيم ١٩٤٧.

وكل تلك المشاريع كانت تنص صراحة على الاعتراف بالكيان الصهيوني.

٨- في إبان ثورة ١٩٣٦ العظيمة قام الملك عبد الله بتحريض أوليائه من حزب الدفاع بإرسال مذكرات إلى الإنجليز تذكر أن عرب فلسطين راضون بالتقسيم وأن قادة الثورة لا يمثلون إلا أقلية. بل ووصل الأمر بهم إلى إنشاء كتائب مسلحة بسلاح الإنجليز واليهود لمحاربة الثورة.

٩- قام الملك الخائن عبد الله بمنع كتائب المجاهدين الفلسطينيين من المشاركة في حرب ٤٨ وتجريدهم من سلاحهم.

١٠- قام الملك عبد الله بسحب قواته من اللد

والرملة – مما أدى إلى وقوع مذبحة فيها على يد اليهود – كما أدى إلى انكسار جبهة القوات المصرية.

١١- وأخيرا في رودس – كرس خيانته – واعترف رسميا بإسرائيل ودخل في مساومات مخزية أعطى بموجبها لليهود أراضي أخرى في مقابل ضم الضفة إلى مملكته.

خط المساومة والخيانة يستمر في عهد حفيده الملك حسين. كالآتي:

١- إنشاء حلف بغداد والمشاركة فيه.

٢- مطاردة حركة المقاومة الفلسطينية منذ أن ظهرت على يد فتح والعاصفة سنة ٦٥ ثم توجها بالمجازر الوحشية في ٧٠، ٧١، ٧٢ ما أدى إلى خروج المقاومة من

الأردن نهائيا.

٣- موافقته على قرار ٢٤٢، ومبادرة روجز. وهما يكرسان الاعتراف بإسرائيل.

٤- الاتصال باليهود وزعمائهم: وعقد الاجتماعات بينهم.

٥- مشاريع الوحدة المستمرة - (مشروع الوحدة الكونفدرالية)، ومشروع الملك حسين، وهكذا استمر ذلك المنهج.

نهج المساومة - نهج الخيانة.

عبد الناصر: القومية العربية - الاشتراكية العربية:

- في الحقيقة فإن النهج الناصري ليس إلا امتدادا صحيحا وعضويا لنهج الشريف حسين ونهج الأمير عبد الله والملك حسين. وليس هناك فرق إلا في الدرجة اقتضته طبيعة تطور حركة الجماهير من ناحية. وإفلاس الملك عبد الله والملك حسين كنهج من ناحية أخرى.

فكان على القوى الاستعمارية أن تستبدل الوجوه المحروقة بوجوه جديدة لتوسع سلسلة حصارها على الجماهير.

طرح عبد الناصر أيضا القومية العربية وأضاف إليها لمزيد من التخدير والإلهاء وتطويق حركة الجماهير مقولة الاشتراكية العربية والهدف النهائي هو كسابقه.

١- إخراج الجماهير من الصراع بما أنها الخطر الحقيقي على الكيان الصهيوني.

٢- وضع أطر غير صحيحة للعمل فاشلة حتما واستبدال النهج الحقيقي في مواجهة الغزوة الاستعمارية بنهج مزيف ذو بريق (القومية العربية بدلا من الإسلامية - والاشتراكية العربية بدلا من المنهج الإسلامي في بناء المجتمع اللاطبقي.

(انظر فصل ما بعد ٤٨ ودور عبد الناصر في ذلك)

ومنذ اليوم الأول وطبقا للمنظور القومي فإن عبد الناصر قد طرح نهج المفاوضة والمساومة وقرارات الأمم المتحدة كنهج بديل عن خط الكفاح المسلح

والأيديولوجيـة الإسـلامية. وسـوف أسـتعين هنـا بالنصـوص المثبتـة في الصـحف المصرية والعربية، وخطب عبد الناصر ولقاءاته الرسـمية فقـط بـرغم وجـود حشـد هائل من الاتصالات المريبة أوردتها مصادر غربية. ولكن أكتفي بالمصادر الناصـرية ذاتها والتي لا يمكن اتهامها بالتميز ضده.

١- في ٣ أغسطس ١٩٥٤ صرح الرئيس عبد الناصر بأن مصر تحتـاج إلى السـلام واقترح أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكيـة بـدور الوسـيط بـين إسـرائيل والـدول العربية، وقال إن مصر تريد أن تنهي التوتر القائم مـع إسـرائيل شـريطة أن يـتم تنفيـذ قرارات الأمم المتحدة. (ليلى القاضي – شئون فلسطينية – العدد ٢٢ حزيران ١٩٧٣ – تقرير حول مشاريع التسويات السلمية للصراع العربي – الإسرائيلي).

في كتاب لعبة الأمم – مايلز كوبلاند – دار الفكر بيروت ١٩٧٠.

يقرر مايلز كوبلاند أنه مع كيرمت روزفلت – وروبرت أندرسـون أنـه بعـد هـذا التصريح قد نشطوا لإجراء محادثات مع عبد الناصر وبن جوريون لتحقيق التسـوية. وأن روزفلت قد حصل على موافقة عبد الناصر على ترتيب لقاء سري في يخت خاص في البحر الأبيض المتوسط وأن عبد الناصر وافق على ما يسمى مشـروع جامـا الـذي يقضي بـ:

١- اعتراف مصر بإسرائيل في مقابل ممر يربطها بالأردن.

٢- تسوية قضية اللاجئين وفقا لقرارات الأمم المتحدة.

٣- حق الملاحة في الممرات الدولية.

كتب مايلز كوبلاند في صحيفة التايمز اللندنية بتاريخ ٢٤ يونيو ١٩٧١ يقـول «في الفترة ١٩٥٣ – ١٩٥٤. تبادل الرئيس عبد الناصـر عـددا مـن الرسـائل مـع موسـى شاريت رئيس الوزارة الإسرائيلية وأن اجتماعات سرية عقدت بين ممثلين عن مصـر وإسرائيل في إحدى العواصم العربية.

في مذكرات بن جوريون التي نشرتها جريدة معاريف في ٢، ٩، ١٦، ٢٣ من شـهر تموز ١٩٧١ حديث عن الرسائل المتبادلة بين مصر وإسرائيل في عام ١٩٥٣.

حسنا ليكن مايلز كوبلاند كاذبا – وليكن بن جوريون كاذبا. ولتكن ليلى القاضي كاذبة. ولكن ما رأيك بمحمد حسنين هيكل.

يقول هيكل في كتابه: عبد الناصر والعالم بالحرف الواحد:

«إن الرئيس الأمريكي أيزنهاور أوفد سنة ١٩٥٥ (روبرت أندرسون) إلى القاهرة حاملا رسالة تفيد في جملتها «أن الولايات المتحدة ترغب في حل المشكلة الفلسطينية» وإنهاء حالة الحرب بين مصر وإسرائيل.

وعقد أندرسون سلسلة من الاجتماعات مع الرئيس عبد الناصر في منزله بالزمالك، حيث بسط عبد الناصر للمبعوث الأمريكي وجهة نظره في أن أساس أي حل يجب أن يكون «مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٧».

يقول هيكل أيضا «في نفس المصدر»: بذل أندرسون قصارى جهده – ولكنه كان في المقام الأول – محكوما بالفشل – لأن الإسرائيليين لم يكونوا ينوون بالقطع الرجوع إلى الحدود المقررة بموجب مشروع التقسيم.

هل يكون هيكل هو الآخر كاذبا؟!

حسنا لننظر ج.ع. م. وزارة الإرشاد القومي – مجموعة خطب وبيانات وتصريحات عبد الناصر.

«في ٢٨ تشرين الثاني – نوفمبر – سنة ١٩٥٥ قال الرئيس عبد الناصر في تصريح نشرته الصحف المصرية. وذلك تعليقا على مشروع أيدن الذي أعلنه في خطاب سياسي في قاعة البلدية في لندن والذي يقترح فيه بحل وسط بين العرب المطالبين بحدود التقسيم ٤٧، وإسرائيل المطالبة بحدود الهدنة ٤٩ قال عبد الناصر:

«إن عودة أيدن إلى قرارات هيئة الأمم المتحدة لعام ١٩٤٧ تشير إلى أن حقوق الشعب الفلسطيني لم يتم التخلي عنها وأن الوقت قد حان لإحياء تلك القرارات التي أهملت لمدة ٨ سنوات».

هل تكذب الصحف المصرية على عبد الناصر في حياته؟

- في ١٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٥ قال الرئيس جمال عبد الناصر في تصريح لصحيفة نيوز كرونكل اللندنية: «إنه لأول مرة يحاول رئيس وزراء غربي مسئول أن يكون عادلا ويذكر قرارات الأمم المتحدة وإن السيد أيدن اتخذ مسلكا إيجابيا إزاء مشكلة أهملت أمدا طويلا، ويمكن أن تؤدي مقترحاته إلى منع التوتر والتخفيف من حدته. وإنني لا أقول إن كل عربي سيوافقني على هذا. فهذه وجهة نظري الشخصية».

* انظر أيضا كتاب الصحفي المصري إبراهيم عزت بعنوان: «أنا عائد من إسرائيل».

- صرح الرئيس عبد الناصر في مؤتمر باندونج: «أن ما عرضته الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ يمكن اعتباره حلا مرضيا».

- صرح الرئيس عبد الناصر إلى مجلة (ريالتي) ووكالة (أوبرا موندي) بأن العرب راضون بما طالب به الأفارقة والآسيويين عام ١٩٥٥ من رجوع إلى مقررات الأمم المتحدة في خصوص قضية فلسطين. وذلك في عام ١٩٦٥.

- عبد الناصر يحدد عمل منظمة التحرير في أنه من أجل تطبيق قرارات الأمم المتحدة وليس من أجل الحرب الشعبية.

في عدد أبريل ١٩٦٥ أجاب عبد الناصر في حديث لمجلة ريالتي الفرنسية عن سؤال متعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية.

«وعندما تستكمل المنظمة استعداداتها سوف تشرع في العمل من أجل تطبيق مقررات الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين وبحقوق العرب في فلسطين».

عبد الناصر وقرار ٢٤٢:

وصل عبد الناصر إلى حد الخيانة بقبوله قرار ٢٤٢. فبعد أن حطم عبد الناصر كرامة الإنسان في مصر - وبعد أن حال بين الجماهير المسلمة وبين أداء دورها التاريخي وبعد أن سحب الجيش المصري المظلوم في ظروف غامضة. جاء عبد الناصر ليكرس الهزيمة بقبوله قرار ٢٤٢.

وإني مضطر اضطرارا لإثبات ومناقشة ذلك القرار.

١- يؤكد القرار أن تحقيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويتطلب تطبيق كل من المبدأين التاليين:

(أ) سحب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراض احتلتها في النزاع الأخير (النص الفرنسي يقول من الأراضي المحتلة).

(ب) إنهاء جميع ادعاءات أو حالات الحرب واحترام واعتراف بسيادة ووحدة أراضي كل دولة في المنطقة. واستقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد وأعمال القوة.

٢- يؤكد أيضا الحاجة إلى:

(أ) ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة.

(ب) تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

(جـ) ضمان المناعة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات بينها إقامة مناطق مجردة من السلاح.

* **لاحظ ما يلي:**

١- الاعتراف الصريح بإسرائيل وبحدود «آمنة ومعترف بها» وهذه الحدود ذاتها لم تحدد، مما يسمح لإسرائيل بتحديد الأمن كما تفهمه والحدود التي تريدها.

٢- تضييع كل جهاد الجماهير طوال الصراع. وعدم ذكر أي حقوق للشعب الفلسطيني «تكريس نهائي للهزيمة» وضياع فلسطين.

٣- أن قبول القرار بتلك الصيغة يعني المشاركة في ذبح قضية الشعب الفلسطيني.

٤- أن القبول بالقرار يعني تجاهل واقع الجماهير المسلمة الزاحفة عبر العمل الفدائي، بل يعني التمهيد لذبح العمل الفدائي ذاته كما حدث بعد ذلك.

* لاحظ أيضا أن كلا من مصر والأردن – عبد الناصر – حسين قد وافق على القرار وأن منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمة فتح والهيئة العربية العليا – بل حتى النظام السوري قد رفض ذلك القرار فما الذي جمع عبد الناصر وحسين – ما هي دوافعهم في قبول القرار برغم ما قطعه عبد الناصر على نفسه في مؤتمر الخرطوم.

إنه نهج المساومة. نهج الخيانة.

– لعل خطر ما في قرار ٢٤٢ هو أنه يجعل العرب أنفسهم يعترفون بحق إسرائيل وبحدودها ما قبل ٦٧ وبالتالي يحددون أن إسرائيل وجدت لتبقى.

ولكن القرارات السابقة لم تكن تعطي للكيان الصهيوني ما أعطاه لها قرار ٢٤٢.

– كلمة فلسطين لم ترد في ذلك القرار إطلاقا. حتى كلمة اللاجئين لم ترد كلاجئين فلسطينيين.

– جعل المطلب العربي الأقصى هو حدود ما قبل يونيو ٦٧.

– أن القرار يعني التخلي التام عن جوهر الصراع واعتباره صراعا إقليميا.

وبدلا من أن تكون هزيمة ٦٧ درسا كافيا للنظام الناصري إذا كان لديه أي حس وطني. أنه لابد من تغيير استراتيجية الصراع. لتصبح أكثر جماهيرية وأكثر إسلامية. بدلا من ذلك نجده يتحرك لتكريس الهزيمة وفلسفتها والتعامل معها كأمر واقع. رافعا شعار الواقعية.

والواقعية بالمفهوم الذي مارسته به الأنظمة العربية هي واقعية اليأس والسقوط وليست واقعية الأمل والصمود.

إن الواقعية الحقيقية تنبع من إدارة الصراع وفقا لأبعاده الحقيقية التاريخية والعقائدية.

وتعني استعمال السلاح الصحيح في الموقع الصحيح أي يعني استعمال السلاح الوحيد المتاح لها وهو الجماهير وهو سلاح عظيم قادر على تحقيق النصر النهائي. لا أن تتصرف تلك الأنظمة باتجاه نزع ذلك السلاح وضرب الجماهير وتغييبها عن

الساحة وتطويقها باستمرار.

إن الواقعية لا تعني نزع سلاحي. ثم الاستسلام لعدوي.

* على أي حال استمر النظام الناصري في تكريس الهزيمة وتصفية القضية الفلسطينية تماما ولقد شكل النظام استراتيجية على أساس الضغط على إسرائيل للانسحاب إلى حدود ٦٧.

وتمهيدا لتطبيق قرار ٢٤٢. جاء الوسيط الدولي جونار يارنج ولنبدأ الآن في قراءة الرد المصري على يارنج والمثبت رسميا.

رد على السؤال الأول جـ ١: تقبل مصر بقرار ٢٤٢. كما أعلنت سابقا.

رد السؤال الثاني: أن ج.ع. م توافق على التعهد بإنهاء كافة المطالب أو حالات الحرب.

رد السؤال الثالث: توافق ج.ع. م على التعهد باحترام السيادة والوحدة الإقليمية والاستقلال السياسي والاعتراف بها لكل دولة في المنطقة.

رد السؤال الرابع: تقبل ج. م.ع حق كل دولة في المنطقة للعيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها. آمنة من كل تهديد وأعمال قوة.

* تعليق للكاتب:

هل يعني هذا منع العمل الفدائي انطلاقا من الدول العربية.

رد على السؤال الخامس: استعداد ج.ع. م لقبول مبدأ حرية الملاحة في قناة السويس وبالطبع حذا الأردن حذو مصر عبد الناصر.

كان النظام الناصري قد وصل إلى المستنقع تماما انظر تصريح محمد حسن الزيات في تصريح رسمي مصري في ٢ أبريل ١٩٦٩.

١- لا تشترط مصر الانسحاب المسبق أو الجلاء الكامل كخطوة أولى من أجل تنفيذ قرار مجلس الأمن.

٢- أن مصر قدمت تنازلات هامة أعلنها وزير الخارجية في ١١ أبريل ١٩٦٨ تلخصت في:

(أ) الموافقة على مرور السفن الإسرائيلية في قناة السويس.

(ب) إقامة مناطق منزوعة السلاح على طرفي الحدود بين البلدين.

(جـ) عدم وضع أي شروط مسبقة على عملية تنفيذ قرار مجلس الأمن.

مبادرة روجرز – سقوط المنطقة في السلة الأمريكية الاستعمارية.

واستمرارا في سقوط النظام الناصري. ولمحاولة مستميتة للإبقاء على نفسه كنظام غير جماهيري. ومزيدا من ضرب حركة الجماهير. وجد النظام الناصري نفسه في الظروف التالية.

– حركة مقاومة فلسطينية. يمكن أن تكون نواة للجماهير لتطيح بكل الأنظمة الوسطية وتكسب يوما بعد يوم أرضا جديدة وزخما أكبر وتعيد إلى الجماهير الفرصة للمواجهة. وهذا خطر كبير على النظام الناصري الذي يريد المقاومة وكما يحدد عبد الناصر ذاته (أن تكون رد فعل على نكسة ٦٧) أي أن يستعملها فقط لتحقيق شروط أفضل في التسوية.

انظر خطب عبد الناصر. ومقالات هيكل في الفترة من ٦٧ حتى ٧٠

– جيش مصري بدأ يلقي ضربات قوية على العسكرية الإسرائيلية مما يمكن أن يشكل ضوء وعي لدى الجماهير. ومطالبة ذلك الجيش ذاته بمعركة مصيرية وخصوصا بعد أن أثبت هذا الجيش في حرب الاستنزاف أنه قادر على النصر طالما سمح له بمباشرة القتال.

– تململ واسع في الجماهير في مصر. وعودتها إلى الشارع السياسي بعد نكبة ٦٧.

– مظاهرات الطلبة والعمال. وفقدان عبد الناصر قدرته على التضليل.

فكان لابد لهذا النظام أن يسقط نهائيا ويعلن استسلامية ليس فقط لقرار ٢٤٢ (الأمم المتحدة) ولكن للهيمنة الأمريكية ولدعوة أمريكا إلى العودة إلى المنطقة

بشكل مباشر.

* وجه عبد الناصر في ١ مايو ١٩٧٠ من شبرا الخيمة نداء إلى الرئيس الأمريكي نيكسون دعوة إلى العمل على تحقيق تسوية في الشرق الأوسط.

ردت الإدارة الأمريكية بمبادرة روجرز.

نصوص مبادرة روجرز:

١- وقف إطلاق النار لمدة محددة.

٢- التوصل إلى اتفاق سلام ينص:

(أ) اعتراف متبادل بين الأردن وإسرائيل، وبين ج.ع. م وإسرائيل.

(ب) انسحاب إسرائيل من أراض محتلة في ١٩٦٧ عملا بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

* لاحظ ما يلي:

١- ورود كلمة اعتراف بشكل صريح.

٢- أن عبد الناصر والملك حسين قبلا المبادرة. دائما عبد الناصر وحسين في خندق واحد!!

٣- استبعاد الاتحاد السوفيتي من التواجد في حل المشكلة وتسليم كل الأوراق لأمريكا وحدها. مما يعني الوقوع في الحقبة الأمريكية تمهيدا للحقبة الإسرائيلية ويعني أن كامب ديفيد في النهاية هي آخر حلقات مبادرة روجرز.

* أعلن عبد الناصر – في مقالة لهيكل بتاريخ أغسطس ١٩٧٠ بعنوان (قضايا أساسية للمناقشة وذلك ضمن حوار عبد الناصر مع الوفد السوداني):

«أن أمريكا وحدها تستطيع أن تضغط على إسرائيل في اتجاه الانسحاب وتنفيذ قرار ٢٤٢».

ألا يعني هذا أن ما قاله السادات من أن ٩٩ ٪ من أوراق اللعب بيد أمريكا. هو الامتداد الصحيح لتلك الفقرة.

وهكذا وضع عبد الناصر بقبوله مبادرة روجرز الأساس الأول والمتين الذي تحركت عليه أمريكا طول فترة السبعينيات في إسقاط وإخضاع المنطقة للنفوذ الأمريكي. وهكذا فإن عبد الناصر قد قطع الخطوة الأولى والأخطر في هذا الاتجاه الذي امتد واتسع في السبعينيات.

رد فعل الجماهير على مبادرة روجرز وقبول عبد الناصر لها.

– خرجت الجماهير وبرغم القيود الديكتاتورية الرهيبة في العالم العربي والإسلامي ترفض عبد الناصر وترفض مبادرة روجرز وتهتف. عبد الناصر يا جبان

يا عميل الأمريكان. هذا وقد رفضت كل من القوى التالية تلك المبادرة:

– منظمة التحرير الفلسطينية.

– حركة فتح

– الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

– الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية.

– اتحاد الكتاب الفلسطينيين.

– اتحاد عمال فلسطين.

– الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين.

– كثير من الأحزاب في السودان.

– حزب الاستقلال المغربي.

ولقد اتهمت تلك القوى عبد الناصر بالخيانة – وحددت أن القوى الاستعمارية ستعمل على تصفية المقاومة الفلسطينية.

وهكذا فإن مبادرة روجرز، وبعد قبول نظام عبد الناصر ونظام الملك حسين قد حددت للقوى الشيطانية المجال التالي للعمل على النحو التالي:

- الاستمرار في تمرير التسوية وإخضاع المنطقة للهيمنة الاستعمارية الأمريكية.

- ضرب حركة المقاومة الفلسطينية.

- أن القوى الجماهيرية مازالت قوية وأن عبد الناصر لم يستطع تمرير التسوية بعد الرفض الشديد والهائل من الجماهير للمبادرة فكان لابد من عمل ما يدفع بالجماهير إلى الثقة في القيادة لتكمل حلقة التسوية بعد أن فقدت تلك الجماهير تلك الثقة تماما بعد مبادرة روجرز. وهكذا فكان لابد من إخراج حرب تحريك. وهذا ما حدث في ١٩٧٣ مما تم شرحه في موضع آخر.

حركة القوميين العرب – الجبهة الشعبية.

كان من المحتوم. بعد إفلاس الاتجاه القومي المتمثل الملك عبد الله والملك حسين (الاتجاه القومي الإقطاعي) والذي انحاز بالكامل ضد مصالح الأمة. وبعد إفلاس الاتجاه المتمثل بالناصرية القومية العربية والاشتراكية. أن ينتهي الاتجاه القومي أو أن يعيد تشكيل نفسه في أطر جديدة محاولا استيعاب التطور. وحقن نفسه بأيديولوجية أخرى لكي يصبح قادرا على الاستمرار.

ملاحظة:

ليس معنى إفلاس التيار القومي الإقطاعي والتيار القومي الاشتراكي العربي أن قواهم قد غابت عن الساحة. فليس هناك قوة تموت فجأة ولكن معناه أنه أصبح غير قادر على تعبئة أحد أو القيام بمهامه في ضرب حركة الجماهير واستقطاب قطاع محدد والمزيد من الخداع. فالحقيقة الواضحة أن حرب ٤٨ قد أنهت التيار الأول وحرب ٦٧ قد أنهت التيار الثاني.

من هذا المنطلق ينبغي أن نفهم حركة القوميين العرب. فقد بدأت هـذه الحركـة قومية على يد قسطنطين زريـق ووجـدت مجموعـة مـن الشـباب تلتـف حـول هـذه الأطروحات الموازية حتى تلك اللحظة للتيار الناصـري والتيـار البعثـي مـع بعـض الاختلافات. إلا أن حرب ٦٧ وقبول قرار ٢٤٢ ومبادرة روجرز قد دفعا بذلك التيار نحو مراجعة أسسه النظرية وليطعم نفسه بالماركسية كحل أخير. بدلا مـن أن يكـون مخلصا مع نفسه ويدرك الأبعاد الحقيقية للصراع.

ملاحظة:

حددنا بشكل واضح أن طبيعة الصراع – طبيعة المرحلة – طبيعة البعد التـاريخي وطبيعة عمل الجماهير قد حددت وبشكل حاد أن الاتجاه الإسلامي الرسـالي يحقـق نتيجتين هامتين جدا.

١ – يعطي رؤية واضـحة للصـراع وبالتـالي يعصـم بتلـك الرؤيـة مـن الوقـوع في الأفخاخ الاستعمارية المتمثلة في المفاوضة والمساومة.

٢ – يعطي الجماهير الظروف الصحيحة للعمل وبالتالي القدرة على الرد الصحيح وتحقيق نتائج حقيقية ضد الكيان الصـهيوني والقـدرة باسـتمرار عـلى التجـاوب مـع التحدي.

وبالتالي فإنه بقدر اقترابك من ذلك المنهج وبقـدر طرحـك لمقولاتـه فـإن ذلـك يجعلك أكثر صلابة ويتأخر سقوطك في الأفخاخ الاسـتعمارية وعـلى هـذا الأسـاس سوف نرصد تجربة الجبهة الشعبية.

الجبهة الشعبية كامتداد لحركـة القـوميين العـرب جـاءت في وقـت أفلسـت فيـه القوى القومية تماما بعد حرب ٦٧. وهكـذا فقـد كـان مـن الضـروري إعـادة تقيـيم موقفها واكتشاف أخطائها.

ولكن بدلا من اكتشاف الأخطاء الجوهرية. راحت الحركة تحلل وترصد بشكل جزئي. وصحيح أن الشكل الجزئي يمس كثيرا بعض القضايا المهمة ولكنه في النهاية لا يضع لها الإطار الصحيح.

وهكذا أدركت الجبهة الشعبية بشكل غير منهجي ما يلي. ملتقية مع الإسلاميين في تلك الجزئيات.

إفلاس المنهج الاشتراكي العربي – ولكن بدلا من العودة إلى الإسلام الرسالي راحت الجبهة تطرح الماركسية كبديل.

أن القوى الوحيدة التي تمتلك القدرة والرغبة على الكفاح هي قوى الجماهير الكادحة، ولكن بدلا من أن تلتحم بتلك الجماهير وتستلهم أيديولوجيتها راحت تمارس «فوقية ثقافية» على تلك الجماهير. وتحاول أن تنزع تلك الجماهير عن درعها الحقيقي وسلاحها الأساسي لتعطيها سلاحا لا تعرفه ولا يصلح لها ولا يصلح لمواجهة الكيان الصهيوني.

أدركت الجبهة الارتباط الذي لا ينفصم بين الصهيونية والاستعمار ولكن الجبهة لم تعمق وعيها بأن الاستعمار والصهيونية جزء من التحدي الحضاري الشامل والضارب في أعماق التاريخ والجغرافية – وأن حضارة الأمة كلها مستهدفة.

وبوقوع الجبهة في تلك الأخطاء فإنها قد مارست دورين في منتهى الخطورة:

سقطت في النهاية في المساومة – وفقدت دورها القتالي.

أنها برغم معرفتها بعض المقدمات الصحيحة – خرجت باستنتاجات خاطئة، وهذا أعطاها قدرا أكبر من القدرة على ضرب حركة الجماهير وممارسة التخدير والتطويق تجاهها على أساس أن المقدمات الصحيحة تعطي للجبهة بعض الزخم والصدق وبمعنى أنها تسير مع الجماهير خطوات إلى الأمام – لتعود وتدفع الجماهير إلى المتاهات والخطوط الجانبية.

* في الحقيقة فإن كل الذين يملكون مقدمات صحيحة أو بعضها دون أن يرتبوا عليها نتائج صحيحة – فإن لهم دورا هاما جدا في إضاعة حركة الجماهير لأنه حين تفقد القوى المفلسة قدرتها على الاستمرار فإن تلك القوى الجديدة التي تمتلك بعض المقدمات الصحيحة تعود لتمارس دور القوى المفلسة وخصوصا في

اللحظات المفصلية من تاريخ الأمة. وخصوصا أنها تمتلك بتلك المقدمات الصحيحة البريق اللازم للخداع.

- على أي حال ووفقا للمنظور السابق فإن مواقف الجبهة سارت على النحو التالي:

رفض قرار ٢٤٢.

رفض مبادرة روجرز.

رفض الاندماج في قيادة الكفاح المسلح.

توسيع رقعة النضال لتشمل كل المصالح الاستعمارية مع تعريف الاستعمار تعريفا ناقصا كما سبق توضيحه.

الاتصال بالتيارات اليسارية داخل الكيان الصهيوني – وسوف نعلق على هذا الأمر في نهاية هذا الجزء من الدراسة.

وقوع الجبهة في مستنقع التفاوض والحلول الوسط والتردد.

وبما أن الجبهة لم تمتلك المنهج الصحيح في فهم الصراع فإنها سرعان ما وقعت في مستنقع المساومة والحلول الوسط برغم أن الجبهة تدرك وبشكل جزئي بعض المقدمات الصحيحة.

١- في تصريح للسيد جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية بأنه خلال مراجعاتنا وضح خطأ تصور الجبهة الشعبية لموضوع مشروع روجرز. فقد تصورت أن المشروع معد للتنفيذ الفوري خلال ثلاثة أشهر وكان يجب ألا نقع في هذا الخطأ. الأهرام في ٢٠ يناير ١٩٧١

٢- تقدمت الجبهة الشعبية باقتراح للجنة المركزية وقعت عليه اللجنة المركزية وهو «قررت اللجنة المركزية لحركة المقاومة الفلسطينية تأييد أي تحرك سياسي تمارسه الدول العربية لإزالة العدوان الإسرائيلي يوم ٥ يونيو ١٩٦٧».

صدر هذا القرار بإجماع جميع منظمات العمل الفدائي

٣- طالبت الجبهة باستمرار بحل القضية على أساس دول ديموقراطية علمانية تضم المسلم والمسيحي واليهودي. مما يعني عمليا إضفاء صفة الشرعية على الهجرة اليهودية التي تمت إلى فلسطين. فضلا عما يعنيه هذا من تجاوز للبعد التاريخي للصراع وطبيعة تركيب الكيان الصهيوني.

٤- أن رفض الجبهة لمحاولات الحل السلمي في فض الاشتباك ورفض كامب ديفيد لا ينبع أصلا من كون الجبهة ترفض الحلول الوسط بقدر ما ينبع من شكل وطبيعة الحل.

٥- موقف الجبهة المائع والموافق في النهاية على مبادرة كامب «فاس» مع بعض التحفظات الشكلية.

٦- ارتباط الجبهة بشكل أو بآخر بالنظام السوري العميل.

٧- خيانة جماهير لبنان وعدم الوقوف معها بحزم.

* بالنسبة لمسألة اتصال الجبهة بعناصر منظمة ماتزين الإسرائيلية.

لقد حددت الجبهة في برنامجها بأنها ترحب بانضمام إسرائيليين يساريين ثوريين في صفوفها أو في لجان المساندة.

وخطأ هذا النهج ينبع من:

إعطاء الهجرة لإسرائيل شرعية.

إغفال التوجه الحقيقي للغزوة الصهيونية.

إلهاء الجماهير عن حقيقة الصراع وطبيعته ووضعه على مستوى طبقي فقط مع إغفال البعد التاريخي والحضاري.

تعويد الجماهير على التعامل والتعايش مع الكيان الصهيوني برغم أنه كيان استعماري بكل ما في داخله من يسار ويمين.

أن الموقف الصحيح تجاه العناصر التي ترفض المؤسسات الإسرائيلية داخل

إسرائيل هو دعوتها للخروج من إسرائيل والرجوع إلى بلادها التي جاءت منها وإذا تعذر ذلك فليأتوا ليعيشوا داخل البلاد العربية مثلا. أما أن تكون في الكيان الصهيوني. فإنك بالقصور الذاتي ستتوجه ضد أمتنا وحضارتنا وسيكون وجودك نفيا لوجودي وتحديا له وتدعيما للكيان الصهيوني.

إن خطورة تلك الدعوة تنبع أساسا في كونها ضبابا جديدا على وعي الأمة وعلى طبيعة التوجه الصهيوني. مما يجعل ذلك في النهاية إضافة إلى رصيد الصهيونية وسحبا من وعي الجماهير وحركتها.

الحاج أمين الحسيني - ياسر عرفات:

ولكي نقيم ذلك الاتجاه ينبغي علينا أولا أن نحدد قضية في غاية الخطورة لأنها تبرز في اللحظات المفصلية في تاريخ الأمة والجماهير. ولأنها لا تبرز إلا في لحظات

ما قبل النصر النهائي فإما الاستمرار وتحقيق النصر وإما تضييع كل جهود الجماهير ونضالها.

ينبغي علينا أن نحدد الفرق بين الإسلام الرسالي. والإسلام غير الرسالي.

١- الإسلام الرسالي فضلا عن اهتمامه بالعقيدة والفقه فإنه يدرك التطور التاريخي للصراع الإسلامي الشيطاني. ويدرك دوره كطليعة مسلمة في تلك اللحظة من عمر الأمة. ويدرك مهمات الأمة ورسالتها تجاه العالم بأسره في أي لحظة من لحظات التاريخ.

ولكن الإسلام غير الرسالي. ليس إلا إسلاما لا يدرك تلك الأبعاد.

الإسلام الرسالي لا يتصرف كبديل عن الأمة ولكن يتصرف كطليعة لها.

الإسلام الرسالي يمتلك منهجا يفهم به القرآن والسنة والواقع المعاش، والإسلام غير الرسالي يمتلك مجموعة من النصوص ليس إلا.

الإسلام الرسالي يعرف أن الصراع في تلك اللحظة ليس إلا حلقة من سلسلة الصراع الطويل غير مقطوعة الصلة بما قبلها وما بعدها وبالتالي فهو يمتلك تفاؤل

التاريخ وحيوية المستقبل.

والإسلام غير الرسالي هو ابن الحاضر ورد فعل له.

الإسلام الرسالي ذو توجه جماهيري ورسالة نحو المستضعفين وبالتالي يعرف أن حليفه الطبيعي هو الجماهير المطحونة والكادحة بل ويدرك أن واجبه تجاه الله يقتضي الوقوف بحزم ضد كافة أشكال الاستبداد السياسي والظلم الطبقي ويقف مع حق الجماهير في الحرية والحياة الكريمة. ويقف مع كل المستضعفين في الأرض.

الإسلام الرسالي يتحرك بنفسية المنتصر. حتى في أحلك الظروف (الحسين مثلا).

والإسلام الغير رسالي يتحرك بنفسية المهزوم واليأس حتى ولو كان في وضع جيد.

الإسلام الرسالي يعرف أن سلاحه الوحيد هو الجماهير الواعية ولذلك فهو يثق فيها ثقة مطلقة.

الإسلام الرسالي يعرف طبيعة القوى الداعمة له ويعرف طبيعة القوى الشيطانية.

والإسلام غير الرسالي يقع في أخطاء قاتلة بالنسبة لهذه المسألة.

الإسلام الرسالي. بلغة العصر. هو التقوى. والتصدي للاستعمار والصهيونية والإقطاع وكافة أشكال والاستبداد.

الإسلام الرسالي هو عز الدين القسام. والإسلام غير الرسالي هو الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين.

ملاحظة:

الإسلام الرسالي هو منهج، والإسلام غير الرسالي يتوقف على الأشخاص والقيادة فبقدر تقوي القيادة وقربها من الإسلام الرسالي يكون إنجاز ذلك التيار وصلابته إلا أنه يقع في النهاية في مطبات خطيرة.

ملاحظة:

الإسلام الرسالي ووفقا للمنظور السابق طويل النفس بلا حدود ولا يسقط قـط في المساومة. ويمتلك حيوية مذهلة.

والإسلام غير الرسالي. محدود القوة والحيوية.

ملاحظة:

الإسلام الرسالي غير قابل للتطعيم بالتشوهات القومية والطبقية والوطنية.

والإسلام غير الرسالي يمكن أن تصـيبه التشـوهات القوميـة والطبقيـة والوطنيـة وهذه التشوهات قد تكون ضيقة كما في حالة الحاج أمين أو واسعة كما في حالة ياسر عرفات.

من هذا المنطلق ينبغي تقييم الحاج أمين الحسيني والسيد ياسر عرفات.

الحاج أمين الحسيني:

يمتلك الحاج أمين الحسيني إسلام النصوص وبما أنه يمتلك إسـلام النصـوص فقد وقف مواقف صلبة ضد كافة أنواع الحلول الوسط على النحو التالي:

٢- رفض مشروع «المجلس التشريعي سنة ١٩٣٥».

٣- رفض مشروع الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩.

٤- رفض قرار التقسيم سنة ١٩٤٧.

٥- المشاركة في ثورة ٣٦ وحرب ٤٨. مع عدة القدرة على الاستمرار.

٦- رفض مشروع ٢٤٢ سنة ١٩٦٧.

وبما أنه غير رسالي. فقد سار على النحو التالي.

- قبول المفاوضة مع الإنجليز، وتشكيل وفود للمشاركة في ذلك بما أنه لا يدرك بشكل قاطع طبيعة التوجه الاستعماري.

* خطورة قبول المفاوضة. رغم عدم قبوله بنتائجها.

تكمن الخطورة في تلك المسألة في أن الاستعمار يلوح بسلاح المفاوضة والوفود في اللحظات الحاسمة والتي يبلغ فيها مد الجماهير ذروته وعلى مقدار مد الجماهير المسلمة يكون التلويح غثا أو ثمينا.

- بعد انتفاضة ٢٠ – ٢٢ صدر الكتاب الأول الأبيض.

- بعد انتفاضة ٣٣ صدر الكتاب الأبيض الثاني.

- بعد ثورة ٣٦ الواسعة صدر الكتاب الأبيض الثالث.

وصحيح أن الحاج أمين الحسيني لم يقبل بنتائج تلك المفاوضات إلا أنه بموافقته على تشكيل الوفود والذهاب للتفاوض رغم صلابته فيها يعني تعطيل حركة الجماهير وفرملتها بدلا من دعمها وتوسيعها ودفعها إلى الأمام للإطاحة بكل المصالح والتوجهات الاستعمارية.

كما أن ذلك يلقي ظلالا من الشك حول دور بريطانيا الاستعماري في ضرب الجماهير المسلمة ومعاملتها كما لو كانت محايدة مما يعطل نمو الوعي لدى الجماهير بطبيعة الصراع التاريخي..

* عدم الثقة بالجماهير وبقدرتها اللامحدودة على تحقيق النصر.

فجرت الجماهير الثورات المتلاحقة، وكان أهمها ثورة ٣٦ التي كانت من الشمول والاتساع بحيث إنها كانت قادرة على الإطاحة بالصهيونية والاستعمار. وبسبب طبيعة الحاج أمين الحسيني (إسلام غير رسالي) فإنه زحف مع الجماهير إلى الأمام ولكنه لم يستطع أن يكمل المسيرة فقبل بالتفاوض وأجهضت الثورة.

* الاعتماد على قوى غير جماهيرية.

لم يستطع الحاج أمين أن يقف بصلابة ضد الإقطاع كما يتطلب الإسلام الرسالي. بل واعتمد الحاج أمين أحيانا على الأنظمة العربية. وكان أحيانا يثق في بريطانيا وعندما يئس منها توجه إلى ألمانيا معتمدا عليها.

* عدم مساعدة قوى الإسلام الرسالي:

رفض الحاج أمين مساعدة وتأييد حركة الشيخ عز الدين القسام عندما طلب منه إعلان الثورة، وخط الكفاح المسلح سنة ١٩٣٥ وقد يبدو للبعض أن الشيخ عز الدين كان خلافه مع الحاج أمين مسألة تكتيك وأن الحاج أمين كان يشعر بعدم ملائمة الوقت لذلك أو أن ذلك في غير ميعاده.. إلخ إلا أن تتابع الحوادث ومواقف الحاج تثبت عكس ذلك.

على أي حال. فقد وقف الحاج أمين وبسبب إسلاميته موقفا مبدئيا مع رفض الكيان الصهيوني. ورفض مشاريع التسوية كلها. إلا أنها وبسبب عدم رسالته وفقدانه للبعد التاريخي والحضاري للمسألة لم يعتمد على الجماهير وإنما اعتمد على الملوك والرؤساء العرب تارة، وتارة على بريطانيا وتارة أخرى على ألمانيا.

* لعل أخطر ما سقط فيه الحاج أمين من أخطاء هو قبوله بالتفاوض إبان لحظة الذروة في الثورة (١٩٣٦) وبالتالي أضاع كل مكاسب الجماهير المسلمة. وأضاع الفرصة التاريخية في تحقيق النصر.

ملاحظة:

هل يمكن للقوى الاستعمارية استعمال الإسلام الغير رسالي في إضاعة مكاسب الجماهير.

نعم – صحيح أن الإسلام غير الرسالي. أكثر صلابة من كل القوى ويقف مواقف مبدئية. ولكن بسبب فقدان المنهج ولطبيعة تكوينه يأتي في اللحظات الحاسمة ويصبح غير قادر على الاستمرار.

بل ويمكن أن يستدرج شيئا فشيئا إلى مستنقع الخيانة كما حدث بالنسبة لياسر عرفات.

ملاحظة:

ولكن لا تلجأ القوى الاستعمارية إلى ذلك إلا بعد إفلاس كل القوى الأخرى وفي

اللحظات المفصلية التي تصل فيها الجماهير إلى حافة النصر النهائي.

كما أن القوى الاستعمارية. وبعد أن تفرمل حركة الجماهير المسلمة بواسطة الإسلام غير الرسالي ما تلبث أن تنقض على ذلك الإسلام غير الرسالي لتضربه. لأنها

لا تطيق أي نوع من الإسلام.

ياسر عرفات.. فتح.

إسلام غير رسالي. انتهت إلى حركة وطنية غير إسلامية وخائنة.

نشأت حركة فتح. حركة تحرير فلسطين. كرد إسلامي نقي وصحيح على ظروف غاية في الصعوبة.

- فالنظام الناصري - والأنظمة العربية تضرب الجماهير بلا هوادة.

- تطرح الحل السلمي الوسطي «مشروع التقسيم» كحل للتعايش مع الكيان الصهيوني.

- تطمس كل معالم المواجهة الصحيحة (الاشتراكية العربية - والقومية العربية) بدلا من الإسلامية - حرب التحرير الشعبية.

وبعد أن وصلت تلك الأنظمة إلى أقصى خياناتها ونجحت في وضع الجماهير المسلمة تحت الرماد. خرجت فتح ومن رحم الإسلام الخصب لتصعد باسم الإسلام والجماهير وتقاتل وتطرح العمل الفدائي (العاصفة) كرد على الحقبة الملعونة.

وفي الحقيقة - فإنه عمل فذ - ومذهل وتاريخي - أن تظهر فتح والعاصفة في تلك الظروف.

ولقد سارت فتح على الخط الصحيح قبل النكبة. وبعدها بقليل. بل ووصلت إلى أن تصبح نواة لحركة الجماهير كالآتي:

٧- فلقد رفضت النكسة - وحددت أنها ليست رد فعل لها كما تريد الأنظمة

العربية ولكنها ضد الكيان الصهيوني بكامله.

٨- رفضت قرار ٢٤٢. بل واتهمت عبد الناصر بالخيانة. وحددت في بيان الرفض ما يلي:

(أ) أن القرار مؤامرة استعمارية تهدف إلى تصفية القضية الفلسطينية وتهدف إلى تصفية حركة المقاومة.

(ب) أن على الجماهير أن تنتزع حقها في الحرية.

(جـ) أن حرب التحرير الشعبية هي الطريق الصحيح.

٣- رفض مبادرة روجرز.

وتضمن بيان المنظمة نفس الأسباب السابقة.

- القوى الشيطانية تتحرك لاستدراج وتصفية المقاومة.

كانت المقاومة في تلك اللحظة – تأخذ موقفا صحيحا بسبب جذورها الإسلامية وكانت يمكن أن تكون وخصوصا بعد انكشاف الوجه العميل للناصرية عقب قبول قرار ٢٤٢، مبادرة روجرز أن تكون نواة تتجمع حولها الجماهير لتطيح بتلك الأنظمة وبالاستعمار وبالصهيونية ولكن القوى الشيطانية بدأت تتحرك وتزيد من كثافة حركتها لتصفية المقاومة وجرها إلى مستنقع الخيانة والتخلي عن الجماهير على النحو التالي:

٩- محاصرة منظمة فتح منذ اليوم الأول

١٠- «قام عبد الناصر باستعمال أحمد الشقيري في محاولة لتطويق فتح وخط الكفاح المسلح واستبدال ذلك بالشعارات والبيانات الإذاعية – بل إن عبد الناصر صرح أنه لا يستريح لتلك المنظمة على أساس أن جذورها من الإخوان المسلمين.

١١- محاولة عبد الناصر وضع إطار محدد حول المنظمة على أساس أنها رد على النكسة ليس إلا. وبالتالي استخدامها في تحسين ظروف التفاوض فقط.

(انظر محاولات هيكل في الأهرام للتشكيك في جدوى المقاومة)..

١٢- لما لم ينفع ذلك التكتيك. وبعد مبادرة روجرز قام عبد الناصر بإعطاء الضوء الأخضر للملك حسين لضرب المقاومة في ٦٩، ٧٠ مع العلم أن عبد الناصر اعتكف أثناء ضرب المقاومة لمدة أسبوع. وكانت خطته أنه لا يجب تصفية المقاومة بالكامل ولكن جزئيا بحيث تصبح مجرد شكل يساعد في عملية التسوية. لأن ضربها بالكامل سوف يفجر المنطقة من ناحية ويسقط ورقة من ناحية أخرى هامة في التسوية أي أن الهدف هو ضرب التوجه الإسلامي – وحرب التحرير الشعبية داخل المنظمة.

١٣- دفع عناصر من داخل المقاومة لتصرفات غير مسئولة ومحاولة دفع المنظمة من الداخل في اتجاه القومية والوطنية.. إلخ.

ولكن لماذا سقطت فتح؟

وبسبب فقدان فتح للرؤية الرسالية للإسلام فإنها:

١- لم تقف بحزم مع الجماهير في حقها في الحريات والحياة الكريمة ورفض استبداد الأنظمة.

٢- ابتعادها عن البعد الإسلامي. إلى البعد الوطني ورفض قبول عناصر غير فلسطينية داخل المقاومة برغم أن المقاومة تدرك أن عناصر غير فلسطينية ساهمت في إنشائها (إسلامية) وأن عناصر إسلامية شاركت معها في أعظم معاركها (معركة الكرامة). وهذا يفقد فتح أهم أبعادها في الصمود.

٣- عدم قيام فتح بإثراء الاتجاه الإسلامي وردع العناصر غير المسئولة داخلها والتي جاءتها لتطيح بها من الداخل.

٤- إن افتقادها للمنهج الإسلامي جعلها لا تقف بصلابة أمام الملك حسين وفضلت الخروج من الأردن بعد مذبحة أيلول وما بعدها. وقد يبدو للبعض أن عدم تكافؤ القوى بين جيش حسين المدعوم من إسرائيل وأمريكا

٥- وعبد الناصر وقوى المقاومة ربما يكون السبب، ولكن أحداث بيروت

بعدها تثبت عكس ذلك في ١٩٨٢. فلو قررت المقاومة منذ البدء الصمود والقتال حتى الموت؛ لتغير وجه المنطقة ولسقط الملك حسين سريعا.

٦- عدم إدراك فتح أن جماهيرها وحلفاءها الطبيعيين هم الكادحون والمستضعفون وطرحت برنامجا قوميا ضيق الأفق وارتبطت بتحالفات مع الأنظمة بدلا من الجماهير الغفيرة.

ولكن ما هي الخطوات التي تم بها سقوط المنظمة النهائي؟

١- التردد في رفض مبادرة روجرز في ٢٠ يناير ١٩٧١.

«قررت اللجنة المركزية لحركة المقاومة الفلسطينية تأييد أي تحرك سياسي تمارسه الدول العربية لإزالة العدوان الإسرائيلي يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ وصدر هذا القرار الذي يعد بمثابة خط جديد للمقاومة بإجماع آراء جميع منظمات العمل الفدائي خلال عملية مراجعة شاملة أجرتها اللجنة أخيرا لظروف المقاومة.

٢- طرحت المقاومة تصور الدولة الديموقراطية كحل للمشكلة. وقد تم مناقشة هذا الخطأ الفادح في الجزء الخاص بالجبهة الشعبية.

٣- استمرت المقاومة (فتح) في السقوط شيئا فشيئا إلى أن قبلت مبادرة ريجان في ١٩٨٢ – خيانة جماهير بيروت والخروج منها.

٤- قبلت المقاومة وفتح مقررات قمة فاس التي تصفي القضية نهائيا على أساس قبول قرار ٢٤٢.

٥- سقطت فتح (ياسر عرفات) بالكامل في مستنقع الخيانة بالتوجه نحو الملك الخائن حسين والتنسيق معه وتحركات عرفات في ٨٢، ٨٣، ١٩٨٤.

٦- الاتفاق الأردني الفلسطيني ١٩٨٥.

٧- والبقية تأتي.

إنه نهج تردد. نهج مساومة. نهج خيانة

.. التكتيك النبوي في مواجهة اليهود

لاشك أن دراسة سياسات الرسول ﷺ تجاه اليهود فى الجزيرة العربية فى المرحلة المدنية بالتحديد تكشف الكثير من المعطيات الضرورية لفهم مبادىء الإسلام العليا من ناحية ، وتكشف أيضاً عن جوانب من الأسلوب الصحيح لمواجهة اليهود عموماً ، وهو أمر لازم لنا فى اطار الصراع مع العدو الصهيونى الذى يمثل أكبر التحديات فى تاريخنا المعاصر.

ولكى نقف على طبيعة التكتيك النبوى تجاه اليهود فى تلك الحقبة ينبغى بالطبع أن نعرف شيئاً عن طبيعة الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت .

تركز الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية فى المدينة وشمالها من ناحية وفى بعض مناطق اليمن جنوباً من ناحية أخرى ، ويهمنا بالطبع هنا فى إطار دراسة التكتيك النبوى فى مواجهة اليهود ،التركيز علي تلك التجمعات اليهودية فى المدينة وشمالها ، وكان هؤلاء يتكونون من ثلاثة قوى وتجمعات يهودية داخل المدينة هى بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير ، وخارج المدينة فى خيبر وفدك وتيماء وغيرها على امتداد ٤٢٠ كيلو متر شمال المدينة حتى تخوم الجزيرة العربية الشمالية ، وذكر السمهودى فى وفاء الوفا ص ١١٦ أن عدد القبائل اليهودية فى تلك المناطق يزيد على عشرين .

وقد جاء هؤلاء اليهود مهاجرين الى الجزيرة العربية نتيجة الضغط البابلى والآشورى عليهم فى فلسطين وتخريب هيكلهم وسبى أكثرهم على يد الملك

بختنصر سنة ٥٨٧ ق.م فهاجر قسم منهم الى الحجاز وتوطن فى ربوعها الشمالية ، وكذلك عقب احتلال الرومان لفلسطين سنة ٧٠ ق.م ونشأ عن اضطهاد الرومان لليهود أن هاجر عدد منهم الى الحجاز واستقر فى يثرب وخيبر وتيماء كما دخل بعض العرب عن طريق هؤلاء اليهود فى اليهودية ، إلا أن ذلك ظل أمراً محدوداً بالطبع ، ومن ناحية أخرى فإن تلك التجمعات اليهودية فى يثرب وخارجها ظلت متمسكة بعصبتها الجنسية والدينية رغم أنهم أخذوا الصبغة العربية فى اللغة والزى والأسماء وكانوا دائماً يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية ولم يندمجوا فى العرب قط ، بل كانوا يحتقرونهم ويسمونهم أميين كعادة اليهود فى النظر الى غيرهم من الأجناس ، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيف شاءوا « قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » ولم يكن لهم تحمس فى نشر دينهم وانما جل بضاعتهم هى الفأل والسحر والنفث والرؤية وغيرها » المباركفورى – الرحيق المختوم صـ ٢١١ .

وسيطر اليهود على أعمال التجارة عموماً وتجارة الخمر والسلاح خصوصاً ، وكانوا بالطبع يمارسون الربا على نطاق واسع وأثاروا دائماً العدوان والبغضاء بين القبائل العربية ليحققوا مكاسبهم المعروفة من الحروب التى تقع بين القبائل العربية فتروج تجارة السلاح وتروج أعمال الربا واستطاع اليهود بهذه الوسائل أن يحققوا ثراء واسعاً ونفوذاً داخل تلك البلاد .

***

كان من الطبيعى أن يعرف اليهود أن النبى محمد ﷺ نبى صادق ، وأنه جاء بالحق وذلك بحكم معرفتهم بالكتب والبشريات التى بشرت بالرسول ﷺ وبعلاماته الصادقة ، ولكنهم رفضوا بالطبع الانصياع الى الحق ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، وقد كان رفضهم الإيمان بمحمد يرجع إلى تكبرهم على الحق من ناحية ، وعلى خوفهم من ضياع نفوذهم وثرائهم بسبب ما توقعوه من تغيير الخريطة الثقافية والاقتصادية والسياسية إذا انتصر الإسلام ، وهكذا أضمر اليهود الحقد والمؤامرات على الإسلام وعلى محمد ﷺ واستعداداً لحرب شرسة ضده ، ومع ذلك عاملهم الرسول ﷺ بالتسامح وفقاً لقيم ومبادىء الإسلام العليا فى

أول عهده بالمدينة ، ولم يبدأ الحرب عليهم إلا بعد أن قاموا بمؤامرات مادية ومعنوية ضد الكيان الإسلامى الوليد فى المدينة المنورة .

***

دستور المدينة

بمجرد أن استقر الرسول ﷺ بالمدينة ، وأقام فيها المجتمع الإسلامى الوليد، قام الرسول ﷺ بعقد ميثاق وعهد ووثيقة مكتوبة تنظم العلاقات بين مختلف القوى والطوائف والتجمعات والأفراد داخل هذا المجتمع ، وكان من الطبيعى – بفضل سماحة الإسلام وبفضل حرص الإسلام على حماية حقوق الأقليات الدينية والعرقية ، أن يسمح الرسول ﷺ لليهود فى المدينة بالدخول فى هذا العقد ، الذى يمثل أرقى ما عرفت البشرية من عقود لحماية حقوق الأقليات الأمر الذى يعكس قيم الإسلام العليا – راجع نص وثيقة المدينة فى سيرة ابن هشام ، وفى الرحيق المختوم للمباركفورى ، وكذلك فى الدراسة الهامة التى كتبها الدكتور كمال السعيد حبيب فى مجلة منبر الشرق ، العدد (١) السنة الأولى مارس ١٩٩٢ ، صـ١١٥ تحت عنوان قراءة جديدة فى وثيقة المدينة وهى قراءة شديدة التميز والأهمية ، وكذا في الأعمال الكامة للمفكر عصمت سيف الدولة.

وعلينا أن ندرك أن مجتمع المدينة فى ذلك الوقت كان يمثل كياناً سياسياً متميزاً ، يمثل الرسول ﷺ فيه القائد الأعلى ، ويمثل المسلمون من المهاجرين والأنصار الأغلبية مع وجود أقليات من المشركين ومن اليهود كأفراد أو كجماعات .

كانت الوثيقة تنص على وجود حقوق لليهود – مثل المسلمين ، وكانت ترتب علاقات وواجبات ، وتسمح لليهود بالمشاركة فى المعارك التى يخوضها المسلمون – دون إلزامهم بذلك – فإذا شاركوا بأنفسهم أو أموالهم فى الحروب مع المسلمين حصلوا على نصيبهم فى الغنائم ، وبديهى أن الوثيقة نصت على وجوب عدم تعاون أهل الوثيقة مع القوى المعادية – قريش مثلاً – وعدم خيانة أهل المدينة أو إفشاء أسرار المجتمع أو مساعدة الأعداء على انتهاك الأمن الداخلى لهذا المجتمع ،

واحترام حقوق الدماء والأموال وغيرها ، وأن أى نقض لذلك يترتب عليه خرق الوثيقة بما يترتب على ذلك من آثار .

دخل اليهود فى وثيقة المدينة إذن ، وكان عليهم الالتزام بها بالطبع والذين دخلوا فى تلك الوثيقة من اليهود هم يهود المدينة وما حولها مثل بنى قريظة وكانوا يعيشون فى ضاحية يثرب من جهة الجنوب الشرقى ، وبنى النضير وكانوا يعيشون فى ضاحية يثرب جهة الغرب، وبنى قينقاع وكانوا يقيمون داخل المدينة ذاتها مع قبائل بنى عوف وبنى النجار كان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، أما بنو النضير وبنو قريظة فكانوا حلفاء للأوس .

أما اليهود خارج المدينة مثل خيبر التى تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة وهى من أقوى الحصون والمواقع اليهودية فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ، وكذلك يهود فدك وتيماء وكل هؤلاء لم يكونوا أطراف فى الحلف والميثاق المدون بوثيقة المدينة .

***

ولاشك أن تعامل الرسول ﷺ وسياساته تجاه اليهود تمثل العدل المطلق ، وتعكس قيم الإسلام العليا ، فقد حرص على التعايش بين المسلمين واليهود وغيرهم بدون ظلم لأحد ، وهذه التجربة فى التعايش تمثل نموذجاً فذاً للتعايش بين الأكثرية والأقلية فى أى زمان ومكان ، وكذلك فى حرص الرسول ﷺ على كتابة نص يمثل الحقوق المتبادلة فى وثيقة مكتوبة وهو أمر يمثل سابقة هامة على مستوى السوابق الدستورية .

ولكن اليهود نقضوا العهود ، فكان من الطبيعى أن تتغير سياسة الرسول ﷺ تجاههم ، فيسقط المعاهدة مع المتعاهدين منهم ويتصرف مع الباقين على مستوى كل حدث . كان اليهود قد تحركوا على أكثر من مستوى للكيد للدعوة الإسلامية الوليدة وكذا لشن حملة دعائية وإعلامية ضد الدين الإسلامى الحنيف ، وضد الرسول ﷺ ، والتربص بنساء المؤمنين ، وإنفاق الأموال لدفع القبائل العربية لشن

الحروب على دولة الرسول ﷺ فى المدينة وتحريض قريش وغيرها وتمويل الحرب ضد المسلمين وكذا تخطيط أكثر من مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ ويمكننا أن نقسم سياسة المواجهة ضد اليهود التى خاضها الرسول ﷺ الى قسمين ، قسم خاص بتنفيذ عدد من عمليات الاغتيال لمجرمى الحرب اليهود وزعماء المؤامرات ، والقسم الثانى خاص بالحروب والغزوات ضد تجمعات اليهود .

أما القسم الأول الخاص باغتيال زعماء المؤامرات ومجرمى الحرب اليهود مثل اغتيال كعب بن الأشرف ، وابن سنينة ، وسلام بن أبى الحقيق المعروف بأبى رافع اليهودى ، وهؤلاء كانوا من ممولى الحروب ضد دولة الرسول بالمدينة ، وكذلك قاموا بجهد كبير فى تحريض القبائل العربية على قتال المسلمين فى المدينة ، والتعريض بإعراض المسلمات فى المدينة عن طريق الشعر ، وكذلك الحرب الإعلامية والدعائية ضد المسلمين ، والمحاولات الخطيرة لشق المجتمع الإسلامى فى المدينة وأحداث حرب أهلية داخلها عن طريق بث الأفكار والإشاعات والمواقف مستخدمين فى ذلك المنافقين ، وهكذا فإن عمليات الاغتيال تلك كانت عقوبة على عمل مادى قام به هؤلاء ، وكذلك عملية إجهاضية لمؤامرات تم نسجها وبث الرعب فى نفوس باقى أطراف تلك المؤامرات .

أما القسم الثانى وهو الغزو ضد التجمعات اليهودية ، فحدث أولاً مع بنى قينقاع، فبرغم أن بنى قينقاع كانت داخلة فى وثيقة المدينة ، وبرغم احترام المسلمين لهذه الوثيقة تماماً ، إلا أن بنى قينقاع بدأوا خاصة بعد انتصار المسلمين فى بدر فى التحرش بالمسلمين واستفزازهم والتهديد بدخول معركة معهم يهزمون فيها المسلمين لأنهم على حد قولهم أقوى من قريش وأشجع ولن ينهزموا مثل قريش الذين لا يعرفون فن الحرب على حد قول بنى قينقاع ، وكذلك إيذاء المسلمين والتحرش بالنساء المسلمات ، ووصل الأمر الى حد محاولة إحداث حرب أهلية بين الأوس والخزرج ، وهذا بالطبع أمر خطير جداً – يستحق أقصى العقوبة ، ذلك أن أحدهم وهو شاس بن قيس وكان شيخاً يهودياً شديد المكر أمر أحد الفتيان اليهود ، بالذهاب الى مجالس الأوس والخزرج حيث يجتمع شبابهم عادة ، ثم تذكيرهم بأيام

الحروب والعداوات بينهم وتحريضهم على قتال بعضهم بعض ، وقد نفذ الفتى اليهودى ذلك الأمر ، وكادت تحدث معركة بين الأوس والخزرج ، فقد تشاجر بعض الأوس مع بعض الخزرج ، ثم تواعدوا على الحرب ، وتنادوا إلى السلاح ، ولولا أن الرسول ﷺ قد أدرك الموقف سريعاً وذهب اليهم وقال لهم: « يا معشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم وعدو الله شاس بن قيس ذلك اليهودى الملعون «المباركفورى – الرحيق المختوم – صـ٢٧٧، ٢٧٨ » .

وكان الرسول ﷺ ، كلما فعل اليهود شيئاً من ذلك دعاهم ووعظهم وطلب منهم احترام الميثاق بين الطرفين دون جدوى .

وكان لابد أن يفكر الرسول ﷺ فى حماية الأمن الاجتماعى للدولة الذى تهدده مؤامرات اليهود وإشاعاتهم وأقوالهم وأراجيفهم .

وحدث أن اعتدى اليهود على إحدى النساء المؤمنات كانت تشترى بعض الأشياء من السوق، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود ، فأرادوا كشف وجهها فأبت المرأة ذلك ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى غافلة ، فلما قامت اتكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع » (سيرة بن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨) .

وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً فى نقض العهد والوثيقة بين المسلمين واليهود ، وقرر الرسول ﷺ أن يغزو بنى قينقاع بعد ذلك ، فسار اليهم الرسول ﷺ بجيشه فى شوال سنة ٢ هـ ، فتحصنوا فى حصونهم ، وحاصرهم الرسول ﷺ خمسة عشر يوماً وانتهى الأمر بتسليمهم ، فعفا الرسول ﷺ عنهم وأمر بخروجهم من المدينة فخرجوا

منها ، ويجب أن نلاحظ هنا عدد من الملاحظات :

- أن يهود بنى قينقاع هم الذين نقضوا العهد بما فعلوه مع المرأة المسلمة فى السوق ، وأن هذا لم يكن أول شكل من أشكال النقض ولكنه أكثرها مباشرة ووضوحاً ، وأنهم قبل ذلك قاموا بالكثير من الأمور الناقضة لذلك العهد مثل الإيقاع بين الأوس والخزرج ، أو أذية المسلمين أو التهديد بحرب المسلمين ، والتهديد بحرب المسلمين له قصة معروفة فى السيرة ونزل بها القرآن الكريم ، ذلك أنهم قالوا بعد انتصار المسلمين فى بدر « يا محمد لا يغرنك أنك قتلت نفراً من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا » .. وكان هذا بالطبع تهديداً واضحاً بالحرب ضد المسلمين ، وكان بنو قينقاع مغترين بقوتهم فقد كان لديهم ٧٠٠ مقاتل وكانوا معروفين بالمهارة فى فن القتال .

- أنه كان الرسول ﷺ يسير معهم بمقتضى العدل ، بل بالرحمة أيضاً فقد احترم الميثاق معهم تماماً ، وصبر على ممارساتهم المخالفة للميثاق عدة مرات ، ولكن عندما وصل الأمر الى تهديد الأمن الداخلى لمجتمع المدينة فإنه باعتباره قائداً عاماً لهذه الدولة كان عليه أن يجهض المؤامرات وأن يقضى على بؤرة الفتنة داخل المدينة فكان غزوهم ثم إجلائهم، ونلاحظ أن الرسول لم يأمر بقتلهم رغم أنهم تحصنوا بحصونهم عند الغزو أى بدؤوا فى معركة ولم يصمدوا حتى النهاية فاستسلموا بعد حصار خمسة عشر يوماً ، وكان من حق الرسول أن يأخذهم أسرى على الأقل ، ولكنه عفا عنهم وسمح لهم بالجلاء عن المدينة ، فحقق بذلك الأمن الاجتماعى داخل المدينة ، وعاقب اليهود عقاباً طفيفاً على مؤامراتهم من ناحية أخرى .

- أن الرسول ﷺ كان يسمح ويريد تعايش المسلمين مع اليهود فى المدينة بدون مشاكل وفقاً لقيم العدل الإسلامى بل وقيمة العدل المطلق بدليل أنه عندما نقضت بنو قينقاع الميثاق ، عاقبهم وحدهم دون باقى جماعات اليهود فى المدينة مثل بنى النضير وبنى قريظة واستمر محترما للميثاق معهم حتى نقضوه هم أنفسهم .

- أن التسوية لم تكن قاسية ولكنها حققت الهدف أيضاً ، لأن المطلوب كان حماية

الجبهة الداخلية لمجتمع المدينة وهذا تحقق بجلاء يهود بنى قينقاع .

***

أما يهود بنى النضير ، فإنهم أيضاً هم الذين نقضوا الميثاق ، ومثل باقى اليهود كانوا يضمرون الحقد على الإسلام ، ويحرضون القبائل على حرب الرسول ويمولون ذلك ، ويقومون بدورهم فى الحرب الإعلامية ضد المسلمين ، ولكن وتيرة التآمر عندهم زادت بصورة كبيرة بعد غزوة أحد التى انهزم فيها المسلمون أمام قريش فقد تجرأ يهود بنى النضير بعد هزيمة المسلمين فى أحد فكاشفوا بالعداوة والبغضاء وأخذوا يتصلون بالمشركين والمنافقين ثم دبروا فى النهاية مؤامرة لقتل الرسول ﷺ عن طريق إلقاء رحى عليه عندما جلس عندهم للتفاوض حول مساهمتهم فى دية بعض القتلى من الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمرى وفقاً لشروط الوثيقة .

فلما انكشفت المؤامرة ، التى شاركوا فيها جميعاً ، بالتخطيط أو التنفيذ أو الموافقة ، ذلك أن محاولة القتل تلك لم تكن عملاً فردياً ، بل قراراً اتخذه زعماؤهم ووافقوا عليه جميعاً ، ثم تم تكليف بعضهم بتنفيذه ، إلا أن الله تعالى أخبر به الرسول، فقام قبل تنفيذ المؤامرة ونجا من المحاولة ، ثم قرر الرسول ﷺ أن يطلب منهم الرحيل عن المدينة جزاء ما فعلوا ، وأمهلهم عشرة أيام إلا أنهم رفضوا ذلك ، وكان هذا إعلان للحرب بالطبع ، فمن ناحية فإنهم لم ينكروا مؤامراتهم لقتل الرسول ﷺ ، ولكن اعترفوا بها وصمموا على رفض طلب خروجهم من المدينة ، فكانت الحرب لابد واقعة ، فسار إليهم الرسول ﷺ بجيشه ، وحاصرهم ستة أيام الى أن استسلموا ، فسمح لهم الرسول بالخروج من المدينة ولهم أن يحملوا معهم ما شاءوا من الأموال والأمتعة ما عدا السلاح ، وكانت هذه عقوبة رحيمة أيضاً بالنظر إلى ما فعلوا وبالنظر إلى رفضهم قبول طلب الرسول إليهم بالرحيل فى خلال عشرة أيام وتمسكهم بالحرب وتحصنهم داخل الحصون ثم استسلامهم بعد حصار دام ستة أيام .

وأيضاً لم يؤثر نقض كل من بنى قينقاع وبنى النضير للميثاق مع الرسول ﷺ على موقف الجماعة اليهودية الوحيدة الباقية فى المدينة وهى بنى قريظة التى ظل المسلمون يحترمون الميثاق معها إلى أن نقضها بنى قريظة نقضاً فظيعاً أقل ما يقال

فيه أنه الخيانة العظمى ذلك أن اليهود عموماً فى داخل المدينة وخارجها ، ومن بنى قريظة نفسها قاموا بالعمل على حشد عدد كبير من القبائل العربية فيما يسمى بغزوة الأحزاب وقاموا بتمويل تلك الحشود ، ليس هذا فحسب بل إن بنى قريظة اتفقت مع الأحزاب على دخول المدينة عن طريق بنى قريظة إلا أن تلك الخطة فشلت ، وعندما أرسل الرسول إليهم لكى يعرف حقيقة نواياهم – والمدينة محاصرة بجيوش الأحزاب – قالوا لوفد المسلمين اليهم وكان يتكون من سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ وعبد الله بن رواحه ، قالوا لهم أنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد وأخذوا يسبون الرسول ﷺ ويتوعدون المسلمين وكذلك قامت بنى قريظة بأعمال الحرب المباشرة ، بمحاولة دخول أحد الحصون التى كانت نساء المسلمين تجمعن بها بعد خروج الرجال إلى المواجهة مع الأحزاب ويسمى حصن فارع أى محاولة ضرب المسلمين فى نسائهم من الخلف ، ولولا شجاعة صفية بنت عبد المطلب التى قتلت أحد اليهود الذى حاول تسلق الحصن ، فرجع الآخرون بعد أن ظنوا أن هناك حراسة قوية على الحصن لحدثت كارثة .

المهم أن الله أراد النصر للمسلمين وأرسل ريحا على الأحزاب فاضطروا للجلاء والرجوع الى بلادهم ، وكان من الطبيعى أن ينال يهود بنى قريظة العقوبة الملائمة على الجرائم التى ارتكبوها فى ذلك الوقت العصيب فى حق المسلمين رغم وجود الميثاق بينهما وهذه الجرائم تمثل أبشع أنواع الخيانة العظمى .

فهى أولاً التعاون مع العدو أثناء حالة الحرب وثانياً ضرب مؤخرة المسلمين بل ومحاولة الاعتداء على النساء ، الاعتراف جهراً بنقض العهد وسب الرسول ﷺ ، الاتفاق مع الأحزاب على دخول المدينة من طريق بنى قريظة .

وهكذا كان من الطبيعى أن يعمد الرسول ﷺ الى غزوهم بمجرد جلاء قوات الأحزاب ، وفى نفس اليوم الذى رجع فيه الرسول الى المدينة أمر بعدم الراحة والزحف فوراً إلى بنى قريظة وقال « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » وسار الجيش إلى بنى قريظة ، وحاصرهم فى حصونهم إلى أن استسلموا وكانت بنى قريظة من حلفاء الأوس ، فتم الاتفاق على أن يحكم فيهم سيد الأوس

سعد بن معاذ ، وكان مريضاً فى ذلك الوقت ، فجيء به إلى المكان فقام بالحكم عليهم حكماً مناسباً يتلائم مع جرائمهم ، رغم أنه كان حليفاً لهم من قبل ولا يعقل أن يظلمهم أو يقسوا عليهم – ولكن مقتضى العدل وحجم جرائمهم لم تكن تسمح إلا بهذا الحكم الذى حكمه عليهم سعد بن معاذ حيث حكم بقتل الرجال وسبى النساء وتقسيم الأموال .

***

وهكذا كانت تلك هى ممارسات الرسول ﷺ مع يهود يثرب فهو أولاً أراد التعايش معهم وإعطاء كل حقوق المواطنة لهم فى إطار دولة المدينة ، لدرجة السماح لهم بالقتال معه ضد أعدائها مع إعطائهم حقهم فى الغنائم بناء على ذلك كمواطنين فى دولة المدينة ، أفراداً وجماعات إلا أنهم رفضوا التعايش ، وخانوا الميثاق والعهد المكتوب فاستحقوا العقوبة على جرائمهم ، ونلاحظ أن العقوبات دائماً كانت إما متكافئة مع جرائمهم أو أقل من تلك الجرائم مما يؤكد روح العدل والرحمة التى عاملهم بها الرسول ﷺ .

***

بقى بعد ذلك تجمعات يهودية خارج المدينة ، وهذه لم تكن داخلة بالطبع فى عهد وميثاق من أهل المدينة ، وبالتالى يخضعون لنفس المعايير التى خضعت لها معادلات الصراع بين المسلمين وبين مختلف القبائل العربية فى الجزيرة العربية ، كان هناك خيبر وتيماء وفدك ووادى القرى ، وتقع خيبر على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة ، وكانت خيبر أهم وأغنى تجمعات اليهود فى الجزيرة العربية وأكثرها قوة ، كانت خيبر تدير منذ بدايات الدعوة الإسلامية الكثير من المؤامرات على الإسلام بالتنسيق والتعاون مع باقى يهود الجزيرة العربية، كانت خيبر هى وكر الدس والتآمر فهى التى قامت بالدور الأكبر فى تحريض القبائل وتمويل زحفها على المدينة فى غزو الأحزاب ، وكانت تتصل بالمنافقين فى المدينة وكانت قد أصبحت ملجأ لكل زعماء اليهود وجماعاتهم المتآمرة بعد ضياع كيانهم فى المدينة، وكانت خيبر قد أعدت خطة لاغتيال الرسول ﷺ ، وكذلك كانت تستعد للزحف إلى المدينة مع عدد من الجيوش

والقبائل للقضاء على المسلمين فيها بعد أن نجح المسلمون فى القضاء على الكثير من القوى المعادية لهم ، أى أنها كانت المحطة الأخيرة لتجميع كل فلول الشرك فى الجزيرة العربية وعمل المؤامرة الكبرى على الإسلام ، وكان من الطبيعى وفقاً للتكتيك النبوى من إجهاض تلك البؤرة ، وما أن فرغ المسلمون من تهدئة جبهة قريش بصلح الحديبية توجه مع جيشه سنة ٧ هـ إلى خيبر لغزوها ، وقد نجح المسلمون فى فتح خيبر بعد قتال صعب ومرير ، وقد تركهم الرسول بعد ذلك يعملون فى الأرض مقابل جزءً من الثمار ، وهذا من رحمة النبى – إلا أنه صادر أموالهم وسلاحهم حتى لا يصبحون من جديد قادرين على حشد الجيوش أو تمويل الحروب ضد دولة المسلمين .

وحدث نفس الشىء مع يهود وادى القرى ، وصالح يهود فدك على نفس ما صالح عليه أهل خيبر ، أما يهود تيماء فقد أرسلوا من أنفسهم يطلبون الصلح فكتب لهم الرسول بذلك ما معناه«هذا كتاب محمد رسول الله ، إن لهم الذمة وعليهم الجزية ، ولاعداد ولاجلاء الليل مد والنهار شد » طبقات ابن سعد .

***

وهكذا كان التكتيك النبوى تجاه اليهود هو العدل والرغبة فى التعايش أولاً ، فإذا ما نقضوا العهد كانت هناك عمليات الإجهاض والحرب الهجومية والوقائية وعدم تركهم حتى تكتمل مؤامراتهم ، والمحافظة على أمن الدولة الإسلامية الوليدة ، وامتلاك زمام المبادرة دائماً .

.. الجـذور الإسـلامية لسـيد نصـير

(إعدام كاهانا)

مقدمة

من منا لم يشعر بالفرح عندما سمع بنبأ اغتيال الحاخام كاهانا.. ومن منا لم يتضاعف فرحه عندما علم أن قاتل كاهانا مصري من مدينة بور فؤاد الباسلة.

لقد فرحنا رغم أننا ننتمي إلى حضارة لا تحبذ العنف ولا تجيزه إلا في حالات الدفاع الشرعي عن النفس أو لإزالة الاستكبار وتحرير الإنسان وإقامة مجتمع العدل والحرية، نعم فرحنا لأن إعدام كاهانا يأتي من صميم حالة الدفاع الشرعي عن النفس والعرض والمقدسات والأرض وحرية شعب فلسطين وحقه في تحرير كل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر ومن الجنوب إلى الجنوب وانتقامًا من ممارسات الكيان الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني والقدس والأقصى.

وتضاعف فرحنا لأن انتماء سيد نصير إلى الشعب المصري يؤكد أن هذا الشعب ما زال في قلب خندق الجهاد ضد الكيان الصهيوني انطلاقا من عقيدة الإسلام وإيمانًا بأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية ورفضًا لمسيرة التصالح والتطبيع مع هذا الكيان العدواني الحاقد على أمة الإسلام وحضارة الإسلام.

تفاصيل الحادث

بينما كان الحاخام مائير كاهانا يلقي خطابًا في نحو ستين رجلاً من أنصاره في

صالة المؤتمرات في الطابق الأول من فندق هالوران هاوس بحي مانهاتن بمدينة نيويورك الأمريكية، دخل إلى القاعة شاب نحيف ذو لحية تأخذ الطابع الإسلامي وتظاهر بالاستماع إلى محاضرة مائير كاهانا.

قال كاهانا كلامه التقليدي الذي يقول مثله في كل محاضرة (ليس أمام عرب فلسطين إلا الموت أو الطرد) قالها بصوت عال فيه نبرة غطرسة وغرور، بينما قال الشاب النحيف بصوت لم يسمعه أحد (فلسطين إسلامية رغم أنف الصهيونية).

وعندما وقف مائير كاهانا ليتلقى بعض الأسئلة من الحاضرين -اتجه نحوه الشاب النحيف- سيد نصير في هدوء وثبات وكان مبتسمًا وبادره بإطلاق رصاصتين أصابت إحداهما عنق الحاخام وأصابت الثانية صدره ونقل الحاخام إلى المستشفى الذي أعلن وفاته بعد خمسين دقيقة فقط من وصوله.

خرج السيد نصير من الفندق بعد أن جرح برصاصة أحد الزبائن وبينما كان يستعد لإجبار سيارة أجرة على نقله حاول رجل شرطة متقاعد تصادف وجوده في المكان في ذلك الوقت اعتراض سيد نصير فتبادل معه إطلاق الرصاص وأصيب كل منهما.

انتقل السيد نصير إلى المستشفى (ووضع تحت حراسة مشددة) وعندما علم بموت كاهانا برصاصات مسدسه ابتسم في سعادة لقد أدى شيئًا من واجبه نحو فلسطين (نحو القدس) نحو أمته الإسلامية.

وواجه سيد نصير المحقق الأمريكي الذي وجه إليه ثلاث تهم من بينها قتل كاهانا وحيازة أسلحة غير مشروعة (ولكن سيد لا يعبأ بتلك التهم) لأنه يعرف أن طريق الجهاد في سبيل الله نهايته الطبيعية الاستشهاد.

مائير كاهانا ... وسيد نصير

ولد مائير كاهانا، واسمه الحقيقي مارتن ديفيد ولقبه مايكل كينج عام ١٩٣٢م في مدينة نيويورك وهي المدينة التي لقي فيها حتفه.

وفي سيرة كاهانا الشخصية[1] فإنه ولد في حي بروكلين بنيويورك لأبوين مهاجرين من أوروبا الشرقية وكان والده حاخامًا أيضًا، وتأثر كاهانا بأفكار جابوتنسكي أستاذ بيجين وأحد المتطرفين الإسرائيليين الأوائل، وكان جابوتنسكي يرتبط بصداقة قوية مع والد كاهانا، وعمل كاهانا بين عامي ١٩٤٦م،١٩٥١م في صفوف حركة بيتار وهي حركة للشبيبة الصهيونية أسست عام ١٩٢٣ على نهج أفكار الزعيم الصهيوني زئيف جابوتنسكي ثم في صفوف حركة بيناه أكيفاه عامي ١٩٥٣م-١٩٥٤م.

درس كاهانا في مدرسة تلمودية بحي كوينس في نيويورك وتم تعيينه حاخامًا سنة ١٩٥٧م، كما حصل على شهادة في العلوم السياسية ودبلوم في القانون وماجستير في العلاقات الدولية من جامعة نيويورك، كما عمل صحفيًا في صحيفتي (بروكلين ويلي) و(جولين برس)، أسس كاهانا رابطة الدفاع اليهودية سنة ١٩٦٨م.

وحسب المصدر المشار إليه في الهامش، وهو (القانون السياسي لدولة إسرائيل) الصادر في نيويورك فإن مائير كاهانا كان على علاقة بعصابات المافيا حيث أنه في عام ١٩٧١م كان قد سجن بسبب حيازة سلاح بطريقة غير مشروعة وأفرج عنه بكفالة دفعها زعيم المافيا جوزيف كولومبو.

شارك كهانا بحماس شديد في جمع التبرعات لإسرائيل، كما اشترك بنفسه واشتركت منظمته الإرهابية (رابطة الدفاع اليهودية المسلحة) في الكثير من أعمال العنف ضد العرب وغير العرب دعمًا للكيان الصهيوني. فقد شارك كاهانا ومنظمته في ٧ عمليات نسف وانفجارات داخل الولايات المتحدة الأمريكية استهدفت شخصيات عربية أو مصالح سوفيتية للضغط على الاتحاد السوفييتي للسماح بهجرة اليهود السوفييت (وذلك في الفترة من ١٩٦٨م إلى ١٩٧١م) كما قامت منظمة كاهانا بمحاولة فاشلة لتهريب أسلحة من إسرائيل إلى إيطاليا لمهاجمة السفارة الليبية في روما سنة ١٩٧٢م.

هاجر كاهانا إلى إسرائيل سنة ١٩٧١م بمساعدة جيئولا كوهين نائبة البرلمان

(١) كما وردت في القاموس السياسي لدولة إسرائيل الصادر في نيويورك.

الإسرائيلي وإسحاق شامير رئيس وزراء إسرائيل حاليًا. وقد نسق كاهانا مع شامير عدد من العمليات للضغط على الاتحاد السوفيتي للسماح بهجرة اليهود السوفييت عن طريق عمليات العنف ضد المصالح السوفييتية.

في سنة ١٩٧٢م أسس كاهانا حركة (كاخ) العنصرية اليهودية التي بدأت حملة واسعة لبناء المستوطنات الصهيونية في قلب المناطق العربية المحتلة سنة ١٩٦٧م كما تبنت حركة (كاخ) عملية إرهاب العرب في فلسطين المحتلة بهدف ترحيلهم عن الأراضي المحتلة كما تورطت الحركة في الكثير من أعمال العنف ضد العرب والتصفيات الجسدية وإطلاق الرصاص. وذلك تحت شعار (الرحيل أو الموت) ولم يقتصر الأمر على عرب الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧م بل طالت كل العرب المقيمين داخل الكيان الصهيوني حتى أولئك المقيمين في المناطق سنة ١٩٤٨م.

عمد كاهانا إلى محاولة بعث أسطورة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى. كما قامت العناصر الموالية له بأكثر من محاولة لإحراق المسجد الأقصى أو تنفيذ حفريات تحته بهدف تقويضه بحجة البحث عن هيكل سليمان.

نجح كاهانا في أن يصبح عضوًا في البرلمان الصهيوني (الكنيست) سنة ١٩٨١م. ويرى كاهانا أن حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات وأن الأردن هي الأرض الشرقية لإسرائيل.

أما سيد نصير (وبالتحديد سيد عبد العزيز نصير[١] من مواليد بور فؤاد عام ١٩٥٥م) تخرج في كلية الفنون التطبيقية بجامعة حلوان ط١٩٧٨م، تولى حراسة مرمى جامعة حلوان طوال سنوات الكلية، عمل بشركة الإنشاءات البحرية عقب تخرجه من الجامعة، سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ١٤/ ٧/ ١٩٨١م. عمل في أمريكا فني صيانة تكييف وتبريد بوزارة العدل، تزوج عام ١٩٨٣م من فتاة أمريكية مسلمة وأنجب

(١) استعنا في هذا الجزء بالتحقيقات الصحفية في المصور، أخبار اليوم، الوفد، الشعب، الأهالي الصادرة في الفترة من (٩ نوفمبر ١٩٩٠م– ١٦ نوفمبر ١٩٩٠م) والتي قام بها عدد من الصحفيين مثل إيهاب عبد الستار، عاطف حزين، مجدي الدقاق، قطب العربي، أشرف خليل، سليمان شفيق.

منها طفلين هما عبد العزيز وعبد الرحمن وطفلة واحدة هي نورا.

نشأ سيد في حي شعبي في بور فؤاد وأثرت عليه مثل غيره الثقافة الشعبية وهي إسلامية في مجملها، الوالد موظف بسيط في شركة الإنشاءات البحرية وهو الآن على المعاش، الأم سيدة مثل كل السيدات في مصر شديدة التدين تبث في أولادها الروح الإسلامية من خلال الحكايات الشعبية البسيطة وقد توفت تلك السيدة عام ١٩٨١م وكان السيد شديد الارتباط بها.. الأسرة مكونة من الأب، الأم خمسة من الأولاد.

درس سيد نصير في مدرسة النصر الابتدائية ببور فؤاد كان يمتاز بجسم رياضي ويميل إلى لعب الجمباز ونبغ في حراسة المرمى كما نبغ في الرسم، هادئ، وديع، نحيف. التحق بمدرسة بور فؤاد الإعدادية عام ١٩٦٦م، جاءت نكسة ١٩٦٧م.. يهاجر مع أسرته، يحصل على الثانوية العامة، يلتحق بكلية الفنون التطبيقية، يتخرج منها، يعود إلى بور فؤاد، يسافر إلى أمريكا سنة ١٩٨١م، يقتل كاهانا عام ١٩٩٠م.

ولنحاول الآن إلقاء المزيد من الضوء على حياة سيد نصير والظروف المحيطة به لنعرف دوافع الرجل لاغتيال الحاخام كاهانا.. يقول الصحفي عاطف حزين[١] وهو زميل دراسة لسيد نصير: (شغوف بالفنون، وسيم جدًا، مؤدب جدًا، مثقف جدًا جدًا، تعلمت منه الكثير، كلما كتب أو رسم أراني وبهرني، كلما اشترى كتابًا جديدًا لا يبخل في إعارته لمن يحبونه).

عندما رأى فتاة أمريكية حسناء تشهر إسلامها في المسجد في أمريكا، سأل عنها فقالوا له اسمها كارين لكنها اختارت اسم خديجة، وبدون تردد تقدم منها وقال لها: هل تقبلين الزواج مني؟ وكانت الإجابة في خطاب مستعجل أرسله السيد إلى الأب يطلب فيه مباركة هذا الزواج وسرعان ما وصل إليه الرد (مبروك يا عرب[٢]).

يقول أحد أصدقائه في أمريكا: (إنه ملاك.. لا يعرف الكذب والخداع لم يتغير في شيء منذ جاء إلينا، بصراحة نحن نحسده على أخلاقه وزوجته سيدة فاضلة إنه إنسان

(١) تحقيق صحفي (أخبار اليوم ١٠/ ١١/ ١٩٩٠م) عاطف حزين.

(٢) نفس التحقيق السابق.

من طراز فريد لا يتكلم كثيرًا.. لم أرى دموعه إلا عندما وصلت إلينا أنباء مذبحة المسجد الأقصى التي دبرها الإرهابيون اليهود) [١].

أما الأب عبد العزيز السيد نصير أو الحاج عبد العزيز كما يطلق عليه أهالي بور فؤاد فيقول:

(إن السيد (ابنه) كان تقيًا يعرف الله تعالى وكان محبوبًا من الجيران والأصدقاء وكان مشهورًا بالأدب والخلق وحسن السلوك) [٢] ويضيف الأب: (إنني أطالب الحكومة المصرية والدول العربية والإسلامية بالوقوف إلى جانب السيد لأن عمله كان في خدمة العرب والمسلمين وأن كاهانا كان يطالب بقتل العرب والمسلمين وقد لقي جزاء دعوته وانتقم الله منه) [٣].

ويقول شقيقه محمد نصير: (أنه عرف الخبر من زملائه في العمل الذين تجمعوا حوله فور وصوله إلى الشركة يهنئونه بعمل شقيقه السيد)، ويضيف شقيقه: (إن السيد فعل هذا دفاعًا ونيابة عن كل العرب والمسلمين) [٤].

أما شقيقته سهير فتقول: (أنها خائفة من كيد اليهود لشقيقها في الغربة) [٥].

أما الأم فيتكلم الأب عنها لأنها توفت منذ سنوات قائلاً: (لو كانت والدته موجودة لأعلنت إعجابها به) [٦].

ويقول الأب أيضًا: (إن ابنه كان متدينًا بفطرته وكان دائم التردد على المساجد) [٧]. ويؤكد على هذا المعنى صبري رخا نقيب المهندسين ببور سعيد

(١) نفس التحقيق السابق.

(٢) تحقيق صحفي (الوفد، ٩/ ١١/ ١٩٩٠م) إيهاب عبد الستار.

(٣) نفس التحقيق السابق.

(٤) نفس التحقيق السابق.

(٥) نفس التحقيق السابق.

(٦) نفس التحقيق السابق.

(٧) تحقيق صحفي (الشعب، ١٣/ ١١/ ١٩٩٠م قطب العربي) أشرف خليل.

والمهندس أبو العلا ماضي الأمين العام المساعد لنقابة المهندسين الذي كان قد التقى بسيد نصير في المركز الإسلامي بنيوجرسي كما يؤكد عليه أيضًا ارتداء زوجته للحجاب الإسلامي وإلحاق أبنائه بمدرسة المركز الإسلامي في نيوجرسي[١].

وإذا كانت تلك الصورة الخاصة بسيد نصير وبأسرته وبالظروف المحيطة به فإن في جانب آخر من الصورة نجد تعاطفًا واضحًا وتأييدًا كبيرًا لما قام به سيد نصير، فالأب فخور به، والأب أيضًا يؤكد أن الأم لو كانت ما تزال حية لكانت أيضًا قد أعلنت إعجابها به وكذلك الأخ والأخت (بل أكثر من هذا أن جميع المحيطين بأسرة سيد من أقارب وأصدقاء أعلنوا إعجابهم بهذا العمل) كما قام الآخرون بتهنئة أهل سيد بهذا العمل، ووصل الأمر إلى حد أن زملاء سيد، المعلمين الذين درّسوا له، أهل بور سعيد عمومًا، محافظ بور سعيد، مدير الأمن، قيادات سياسية وشعبية قد أعلنوا أيضًا إعجابهم بهذا العمل[٢].

وعلى المستوى المصري والعربي والإسلامي نجد أن جميع الصحف العربية والإسلامية قد أشادت بالعمل واعتبرته عملاً عظيمًا وكذلك التصريحات الشعبية والسياسية الصادرة من مختلف الفعاليات السياسية بل وقام البعض بإعداد لجان الدفاع عن سيد نصير.

والدلالة الواضحة لكل ما سبق أن سيد نصير شاب هادئ، فنان، وسيم، مؤدب، شديد التدين، يتردد على المساجد دائمًا... زوجته ذات حجاب إسلامي، هو نفسه يطلق لحيته. أي أن التصدي للصهاينة عمل طبيعي جدًا يقوم به أي إنسان حتى ولو كان هادئًا وديعًا، وأن التدين حافز هام للجهاد ضد إسرائيل، وأن الباعث على إقدام سيد على قتل كاهانا كان باعثًا إسلاميًا فالأب نفسه يحدد الباعث بأنه للدفاع عن العرب والمسلمين. أما من حيث الباعث المباشر فهو رد فعل على مذبحة الأقصى التي وقعت يوم ٨ أكتوبر ١٩٩٠م وراح ضحيتها ٢١ فلسطينيًا وهي المذبحة التي أبكت سيد نصير على حد قول أحد أصدقائه المقيمين في أمريكا، كما سبق أن أوردنا.

(١) نفس التحقيق السابق.

(٢) نفس التحقيق السابق.

وإذا كان سيد نصير قد نفـذ عمليـة اغتيـال كاهانـا انطلاقـا مـن دوافـع إسـلامية واضحة، وإذا كان عمله هذا قد حظي بالإعجاب والإشادة من الجميع، فإن للمسـألة دلالات هامة على المستوى الإسلامي والعربي والمصري، وإذا كان من المفهـوم أن الإسلام يدعو للجهاد ضد كل اغتصاب لأجـزاء مـن وطننـا الإسـلامي، وإذا كانـت فلسطين هي أرض المقدسات الإسلامية وإذا كان من الطبيعـي أن يتعـاطف العـرب مع سيد نصير لأن الكيان الصهيوني خطر على مقدسات العـرب وديـنهم ووجـودهم ذاته، فإن الدلالة الأهم هنا هو ذلك الإعجاب والإشادة تعكسـان الإيمـان المصـري الفطـري بالإسـلام والوجـدان الشـعبي الإسـلامي المصـري الـذي جعـل الشـعب المصـري عمومًـا يكـره الكيـان الصـهيوني حتـى النخـاع ويعتبـر نفسـه في طليعـة المجاهدين من أجل فلسطين. بل ويعكسان أيضًا ذلك الرفض الواسع للتصالح مـع الكيان الصهيوني أو عمليـة التطبيـع معـه بعـد كامـب ديفيـد، وإذا كانـت الحكومـة المصرية قد عقدت اتفاقيـة كامـب ديفيـد مـع الكيـان الصـهيوني وإذا كانـت بعـض الأوساط تسعى لتحقيق مزيد من التطبيع وتسعى لعزل مصر عن محيطها الإسـلامي عمومًا وعن قضية فلسطين خصوصًا، فإن هذا لا يعكس رأي الشـعب المصـري بـل هو عكس رأيه تمامًا... ومصرية سيد نصـير تؤكـد كـل هـذه المعـاني، فسـيد نصـير المصري يقول برصاصاته التي أطلقها على كاهانا: إن الشعب المصري وانطلاقا مـن وجدانه الإسلامي العميق يرفض الكيان الصهيوني ويرفض التصالح والتطبيـع معـه، وأن الشعب المصـري في طليعـة المـؤمنين بالـدفاع عـن فلسـطين وعـن مقدسـات المسلمين في فلسطين وعن الشعب الفلسطيني،وأن روح الجهاد مـا تـزال تسـري في أعماقه وأنه لن يخمدها معاهدات توقعها السلطة أو دعوات مشبوهة تطلقها أوسـاط مشبوهة لعزل مصر عن قضايا العالم الإسلامي عمومًا والقضية الفلسطينية خصوصًا.

ولعل من المفيد هنا أن نقرأ كلام أخت سيد مرة أخرى حيث تقول: (إنهـا خائفـة من كيد اليهود).

وهي هنا تستعمل كلمة اليهود وليس الإسرائيليين كما يحلو للمثقفين أن يقولـوا وهذا يؤكد عمق الرؤية الدينية لدى الأوساط الشعبية للمسألة على أنهـا صـراع دينـي

أساسًا.

الخلفية الفكرية والسياسية لسيد نصير

أغفلت المصادر الصحفية فترة هامة من حياة السيد نصير وهي الفترة من (١٩٧٣م-١٩٨١م) وهي أيضًا من أهم الفترات في حياة السيد نصير لأنها فترة التشكيل السياسي له داخل الجامعة أو بعد التخرج وكذلك فترة اختيار القناعات السياسية وممارسة العمل السياسي بأي صورة من الصور. ولعلنا هنا نكمل الصورة برصد تلك الفترة من حياته وذلك من خلال العلاقة الشخصية التي جمعتني به داخل الجامعة وتحديدًا في غرفة شباب الإسلام بكلية الهندسة جامعة القاهرة ثم اللقاءات الفكرية التي كانت تضم عددًا من المصريين والفلسطينيين في الفترة من ١٩٧٨م-١٩٨١م.

وفي الحقيقة فإن إلقاء الضوء على تلك الفترة من حياة السيد نصير يجيب على الكثير من الأسئلة حول الدوافع والتركيب السياسي والفكري لسيد نصير الذي أدى في النهاية إلى اتخاذه قرار إعدام كاهانا.

وبادئ ذي بدء ينبغي أن نقول أن سيد نصير، ذلك الفتى الهادئ الفنان المتدين ابن مدينة بور فؤاد وهي المدينة التي صمدت للعدوان الصهيوني سنة ١٩٦٧م. فعلى حين استطاع العدو الصهيوني أن يحتل كل الضفة الشرقية للقناة بسبب إهمال أو خيانة القيادة السياسية سنة ١٩٦٧م، فإن مدينة بور فؤاد وحدها استعصت على السقوط وصمدت صمودًا مذهلاً أمام جحافل القوات الإسرائيلية برغم عدم تكافؤ القوى بين الطرفين. ومن المعروف أن مدينة بور فؤاد تقع في الضفة الشرقية لقناة السويس أيضًا.

إذن فسيد نصير ابن مدينة بور فؤاد رأى بنفسه وسمع، رأى بنفسه انسحاب الجيش المصري نتيجة خيانة القيادة السياسية أو إهمالها، رأى مأساة جيش وشعب في عام ١٩٦٧م، رأى الجنود العائدين بلا سلاح وقد تورمت أقدامهم، وسمع منهم عن مأساة جيش مظلوم زجت به القيادة السياسية لكي يذبح على يد أبناء صهيون،

وأدرك سيد أن الجيش كضباط وجنود لا تنقصـهم الشـجاعة ولا الرغبـة في القتـال، ولكن القيادة السياسية لم تسمح لهم بالحرب وأمرت بالانسحاب.

وأدرك سيد وتأكد من صحة هذا الأمر، عندما حاولت القـوات الإسـرائيلية بعـد خمسة أيام فقط من حرب ١٩٦٧م أن تحتل مدينة بور فؤاد وذلـك في إطـار رغبتهـا في السيطرة على كل الضفة الشرقية لقنـاة السـويس، قامـت الطـائرات الإسـرائيلية بـدك المنطقة عدة مرات وتعرضت أيضًا تلك المنطقـة إلى الضـرب المـدفعي الإسـرائيلي وهجوم الدبابات عـدة مـرات، ولكـن مدينـة بـور فـؤاد صـمدت لتلـك الهجمـات المتكررة رغم الظروف النفسية الصعبة التي كان يعيشها جنود تلـك المدينـة بسـبب هزيمة ١٩٦٧م. وبرغم عدم تكافؤ القوى بين الطرفين، وبـرغم أن بـور فـؤاد كانـت وحدها هي المكان الوحيد على الضفة الشـرقية للقنـاة التـي لم يحتلهـا الإسـرائيليون استطاعت القوة المصرية الصغيرة أن تصمد، وتكررت عمليات الهجوم والصـمود، وفي كل مرة كانت تلك القوة المصرية الصغيرة تنزل بالعدو الصهيوني أبشع الخسـائر مما اضطره في النهاية إلى إلغاء العملية... وهكذا أثبتت تلك القوة الصغيرة أن العيب لم يكن في الإنسان المقاتل، وأن ذلك الإنسان إذا ما سمح له بالقتال فإنه ينتصر ويـبلي بلاء حسنًا.

عاش سيد نصير ذلك كله، عاش الهزيمة، عاش الصمود، عـاش المأسـاة وأدرك قوانين اللعبة واستفاد بدرس الصمود في بور فؤاد ورأس العش، وكان وقتئذ يبلغ مـن العمر اثنتي عشرة عامًا وهي سن حساسة لالتقاط المعـاني الصـحيحة وخاصـة لمـن يمتلكون نفسية ووجدان فنان مثل سيد نصير، ثم عـاش سـيد نصـير مأسـاة التهجيـر كاملة، عاشها بنفسه وبأسرته التـي تركـت مسـقط رأسـها في بـور فـؤاد ورحلـت إلى القاهرة لتعيش في مكان جديد. وبديهي أن هذا ترك بصماته على وجدان السيد نصـير وعلى تفكيره، إذن فقد كان قدر سيد نصير أن يحتـك بالقضـية الفلسـطينية وبـاليهود مبكرًا جداً... ففي سن ١٢ عامًا وجد نفسه وجهًا لوجه أمام اليهود. ثـم وجـد نفسـه يعيش الصمود من خلال القوة الصغيرة التي تشبثت بمواقعها في بور فـؤاد ثـم وجـد نفسه أيضًا يعيش آلام التهجير وقسوة فراق مسقط الرأس.

وكان هذا كله مرتبطًا باليهود وإسرائيل والقضية الفلسطينية.

وهكذا لم يكن غريبًا على سيد نصير أن يهتم اهتمامًا خاصًا بالقضية الفلسطينية اهتمامًا نابعًا من الظروف الخاصة التي عاشها سيد نصير ونابعًا من الوجدان الشعبي التقليدي للمصريين، ونابعًا من تدين سيد نصير الشخصي وتمسكه بالإسلام.

ومع دخول سيد نصير إلى الجامعة سنة ١٩٧٣م. كان من الطبيعي أن يلفت نظره النشاط السياسي للاتجاه الإسلامي عمومًا في الجامعة. والذي كان يتمثل في وجود عدد من التيارات الإسلامية بعضها يركز على الجانب الأخلاقي والآخر على مسألة التربية. وثالث على الوعي السياسي. وكان التيار المهتم بأسلوب التربية هو التيار الإخواني (نسبة إلى الإخوان المسلمين) أقوى تلك التيارات وأكثرها انتشارًا وكان على يمينه وعلى يساره تيارات أخرى.

ولكن أطروحات تيار التربية لم يكن يلبي طموحات سيد نصير. فوفقًا لما أوردناه سابقًا فإن سيد نصير المثقف جدًا جدًا، الذي عايش الصدام والاحتكاك مع الكيان الصهيوني منذ طفولته وجد ضالته في تيار متميز بالوعي والثقافة والاهتمام بالقضية الفلسطينية بصورة خاصة، وكان هذا التيار متمثلاً في جماعة شباب الإسلام والذي كانت كلية الهندسة جامعة القاهرة معقلاً له، وأصبح سيد نصير يتردد على غرفة شباب الإسلام بكلية الهندسية جامعة القاهرة، حيث المناقشات التي تدور حول الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وحيث الكلام عن قضايا العالم الإسلامي وخاصة القضية الفلسطينية وحيث اللقاء أمام مجلات الحائط التي كانت عناصر جماعة شباب الإسلام تقوم بتحريرها وتعليقها على حوائط الكلية لرصد ومناقشة مستجدات وأحداث مصر والعالم الإسلامي.

وفي الحقيقة فإن تيار جماعة شباب الإسلام كان يهتم بالعمل الجماهيري من خلال الندوات، وإصدار الصحف والمجلات مثل مجلة (وا إسلاماه). بل إن بعض عناصره قد أصدر بعض الكتب مثل وائل عثمان الذي أصدر كتاب (حزب الله ثقافة وأخلاقًا) وكتاب (أسرار الحركة الطلابية) وغيرها من الكتب. كما اهتمت أدبيات تلك الجماعة بمناقشة قضايا العمال والفلاحين وقضايا الغلاء والإسكان، ضرورة

مشاركة المرأة المسلمة في النضال السياسي وغيرها من القضايا.

ومع زيارة السادات للقدس وتوقيعه اتفاقية (كامب ديفيد) سنة ١٩٧٨م ومع بداية التطبيع مع الكيان الصهيوني وزيادة النفوذ الأمريكي في مصر تبلور تيار جديد اهتم أساسًا بالقضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، واهتم هذا التيار اهتمامًا خاصًا بقضايا العالم الإسلامي انطلاقًا من أن فلسطين قلب الأمة الإسلامية، كما اهتم بقضايا الفقراء والمستضعفين والتصدي للنفوذ الأمريكي المتزايد في مصر وأصدرت عناصر هذا التيار عددًا من المجلات والصحف بالإضافة إلى مجلات الحائط، مثل صحيفة (صوت المستضعفين)، صحيفة (المناوبة) التي اهتمت بأحوال الفلاحين. وكان هذا التيار يتكون من مجموعة من الشباب المصري والفلسطيني الذين جمعت بينهم سنوات الدراسة في الجامعات المصرية.

ووجد سيد نصير نفسه مرتبطًا بهذا التيار بدءًا من عام (١٩٧٨م-١٩٨١م)، وكان هذا التيار هو تيار الطلائع. وفي الحقيقة فإن اسم الطلائع الإسلامية اسم قد ارتبط بهذه المجموعة من الشباب بل بالتحديد أطلقته عليهم أجهزة المباحث التي بدأت ترصد نشاط تلك المجموعة، وكانت تلك المجموعة تعقد جلسات مناقشة حول العديد من القضايا مثل جذور المشكلة الفلسطينية، تاريخ فلسطين، تاريخ الصراع مع الكيان الصهيوني، أهمية دور مصر والشعب المصري في المواجهة مع الكيان الصهيوني، خطورة عزل مصر عن محيطها العربي والإسلامي، وخطورة خروجها من المعادلة العربية والإسلامية في إطار الصراع مع إسرائيل، خطورة الاختراق الأمريكي الإسرائيلي لمصر، أهمية رفض كامب ديفيد وعمليات التطبيع مع الكيان الصهيوني... كما أصدرت تلك المجموعة العديد من الكتيبات مثل (القضية الفلسطينية قضية مركزية لماذا؟) ومثل (التحدي الاستعماري الصهيوني وجهة نظر إسلامية). ومثل (هل في الإسلام ثورة؟). ومثل (التجربة الفلسطينية من منظور إسلامي) وغيرها... وكان سيد نصير في قلب هذا التيار كان يسأل معنا العديد من الأسئلة التي باتت جزءًا من تكويننا وملامحنا وبصماتنا. هل جئنا من السياسة إلى

الإسلام أم جئنا من الإسلام إلى السياسة؟ هل جئنا من فلسطين إلى القرآن أم جئنا من القرآن إلى فلسطين؟ هل فلسطين مجرد وطن سليب أم هي جوهر الصراع بين الإسلام والاستكبار؟... وفي الحقيقة فإننا شاهدنا فلسطين، شاهدناها في قلب القرآن، شاهدناها رحلة الإسراء ذات الساعات القليلة صورة إلهية لتاريخنا الممتد ألف وأربعمائة عام من مكة والمدينة إلى بيت المقدس من محمد والقرآن يتنزل إلى محمد والقرآن قد اكتمل منهجًا قويمًا وفاعلاً من بني قريظة إلى الليكود من حراء إلى كامب ديفيد.. من وعد الأولى إلى وعد الآخرة من جاسوا خلال الديار إلى ليسؤوا وجوهكم من القرآن... إلى القرآن. لم نكن وسطًا حسابيًا بين الإسلام والوطنية ولكنه الجدل الممتد من المطلق إلى التاريخ... من القرآن إلى فلسطين، الجدل الذي لا يعرف فواصل العجزة.

عاش سيد نصير معنا هذا كله، وانعكس ذلك بصورة أقوى على وجدانه لأنه وجدان فنان ذو حس مرهف. ورحل سيد إلى أمريكا في يوليو ١٩٨٧م ورحل آخرون معه إلى أمريكا ورحل البعض إلى أوروبا أو الخليج وكنا على موعد مع أحداث سبتمبر ١٩٨١م حيث قام السادات باعتقال العديد من قيادات ورموز الحركة الإسلامية وأوقفت العديد من المجلات الإسلامية وكان لابد أن نفعل شيئًا، وقررنا أن نتحرك واتصلنا بقيادات الجهاد والجماعة الإسلامية بهدف التنسيق في عمل سياسي محدد وكنا قد اخترنا طريق النضال السياسي السلمي. اقترحنا عليهم عمل اعتصام بجامع الأزهر وتوزيع عددًا من المنشورات. وقالوا لنا أنهم يعدون لعمل أكبر من هذا، واحترمنا وجهة نظرهم ولم نسألهم المزيد من التفاصيل. وقام هؤلاء بأحداث أكتوبر ١٩٨١م التي تم بموجبها إعدام السادات أثناء العرض العسكري في ٦ أكتوبر ١٩٨١م. وتم السيطرة على مدينة أسيوط ثم كان ما كان وتم اعتقال عناصر من الجهاد والجماعات الإسلامية. وكان لا بد أن تطالنا الاعتقالات وقرر البعض الرحيل عن مصر وخاصة الفلسطينيين هروبًا من حملة الاعتقالات واستقر هؤلاء في الأرض المحتلة حيث شكلوا حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين التي تلاقت مع عناصر تحمل نفس الفكرة وخرجت تلك الحركة كتيار قوي يعمل ضد الكيان الصهيوني ونفذت الحركة العديد من العمليات الفدائية ضد الكيان الصهيوني

وخاصة عملية إعدام القائد الإسرائيلي لقطاع غزة، وعملية جفعاتي التي تـم بموجبهـا قتل كتيبة صهيونية كانت تقوم بمراسم تقليديـة أمـام حـائط المبكـى [1] وتصـاعدت عمليات حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين ما بين طعن بالسكين أو الخنجر للجنود الصهاينة وما بين إلقـاء الخطـب في المسـاجد أو التظـاهر أو توزيـع المنشـورات أو إصدار المجلات مثل: النور، الطليعـة.. وغيرهـا وكانـت عمليـة تفجيـر الانتفاضـة الثورة في عام ١٩٨٧م هي ذروة العمل النضالي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

أما الآخرون الذي بقوا في مصر فقد طالتهم حملة الاعتقالات التي أعقبت أحداث المنصة وأسيوط وتم تحويل البعض إلى المحاكمة بتهمة الانتمـاء إلى تنظـيم الجهـاد الإسلامي وتم التحقيق مع البعض الآخر في القضية ٢٩٥ لسـنة ١٩٨٣م حصـر أمـن دولة عليا حيث رأت النيابة أن تفرد لعناصر الطلائـع قضـية خاصـة بهـم لأنهـم تيـار سياسي متميز عن تنظيم الجهاد. وانتهى أمر قضية الطلائع المسجلة برقم ٢٩٥ لسنة ١٩٨٣م حصر أمن دولة عليا بحفظ التحقيق حيث لم يكن هنـاك فعـلاً ماديًـا محـددًا يمكن أن ينسب إلى هذه المجموعة، وتم الإفراج عن عناصر هذا التيار الذي أطلقـت عليه المباحث اسم (الطلائع) تمييزًا لهم عن تنظيم الجهاد.

وانخـــرط آخـــرون في التيـــار وخاصـــة طـــلاب الجامعـــة وشـــهدت أعـــوام ١٩٨٥م،١٩٨٦م نشاطًا متزايدًا لهذه العناصر في جامعتي القاهرة والزقازيق بالتحديد من خلال توزيع المنشورات التي تعكس التضـامن مـع الشـعب الفلسـطيني وتنـدد بالاختراق الصهيوني لمصـر وبعمليـة التصـالح مـع الكيـان الصـهيوني أو تعبـر عـن التضامن مع العمال وخاصة عمال اسكو والمحلـة الكبـرى الـذين كـانوا يمارسـون الإضراب دفاعًا عن حقـوقهم في ذلـك الوقـت (عـام ١٩٨٥م). ثـم جـاءت عمليـة سليمان خاطر ووصلت إلى ذروتها في ينـاير ١٩٨٦م عنـدما مـات سـليمان خـاطر في السجن في ظروف غامضة ولأن سليمان خاطر ابن آخر من أبناء حركة الطلائع، حيث

(١) من المعروف أن أي كتيبة صهيونية جديدة يتم تشكيلها في إسرائيل تقوم بمراسم دينية معينة أمام حائط المبكى.

تأثر بأفكارها من خلال انتسابه إلى كلية الحقوق جامعة الزقازيق وهي الجامعة التي ضمت أكثر عناصر الطلائع عددًا ونشاطًا، ولأن عملية سليمان خاطر تلتقي مع أفكار الطلائع كان من الطبيعي أن تسارع عناصر الطلائع إلى تبني قضية سليمان خاطر ونجحت في تفجير انتفاضة طلابية وشعبية واسعة في جامعات ومدن مصر خاصة جامعتي القاهرة والزقازيق تضامنًا مع سليمان خاطر، ومن الطبيعي مع تزايد القيمة السياسية والنضالية لعناصر الطلائع وتصاعد نشاطها أن تعمل أجهزة الأمن على إجهاضها وتوجيه ضربة لها بعد أن رصدتها بوضوح في انتفاضة سليمان خاطر عام ١٩٨٦م. وبالفعل تم اعتقال عدد من عناصر الطلائع عام ١٩٨٧م وتم التحقيق معهم في القضية ٤٠١ حصر أمن دولة عليا لسنة ١٩٨٧م.

ومن الضروري هنا أن نحاول إلقاء الضوء على أفكار ورؤى حركة الطلائع لأنها هي نفسها أفكار ورؤى سيد نصير مما يحد لنا الخلفية الفكرية والسياسية لسيد نصير.

ولعل اسم الطلائع وإن كانت أجهزة الأمن هي التي أطلقته على تلك الحركة، يعطينا السمة الأولى لتلك الحركة، فهي ترى أنها ليست بديلة عن الأمة بل هي طليعة لها وأن على الحركة الإسلامية ألا تتصرف كجماعة أو تنظيم مستقل يخوض معارك الأمة بل عليه أن يدفع الأمة لخوض معاركها بنفسها، وأن كل مهمته طليعة للجماهير في تلك المعارك.

وترى حركة الطلائع، أن النضال السياسي فرض عين على كل مسلم ومسلمة ومن إزالة كافة أشكال الاستكبار من على وجه الأرض سواء كان هذا الاستكبار في صورة استبداد سياسي أو ظلم اجتماعي أو دعوات ونعرات إقليمية أو قومية ضيقة الأفق بهدف الوصول إلى المجمع اللاطبقي ومجتمع الحرية والانتماء الإنساني والأممي الشامل، وتنطلق الحركة في هذا الفهم من تحليل عميق للإسلام باعتباره منهجًا متكاملاً وليس مجرد نصوص ممزقة لا رابط بينها.

فهي ترى أن الإسلام دين الفطرة، وأن الله تعالى قد أخذ ميثاق الفطرة على الناس جميعًا قبل أن يستخلفهم في الأرض ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [1] أي أن معرفة الله تعالى مركوزة في الفطرة ولا تحتاج إلى أي دليل من خارجها ولكن فقط منع تشويه تلك الفطرة وتحقيق حرية الاختيار للناس. ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى قد خلق الكون ووضع فيه الآيات ما يجعل الإنسان يهتدي إلى معرفة الله تعالى بسهولة ويسر وبأقل قدر من التفكير، بالإضافة طبعًا إلى أن الله تعالى قد زود الإنسان بالعقل وجعله قادرًا على التمييز والوصول إلى معرفة الله تعالى باستخدام ملكة التفكير بهذا العقل، إذن فالفطرة والعقل والكون وكل شيء يقود إلى الله تعالى. وإذا ما تحققت شروط الاختيار الحر فإن الإنسان يختار الإسلام بدون أي صعوبة. أي أن المسألة لا تحتاج إلى إقناع بقدر ما تحتاج إلى إزالة ما يحول بين الإنسان وبين فطرته أو عقله أو الكون وآياته، ولكن من جهة أخرى فإن القوى الشيطانية تحاول منع الإنسان من الاختيار الحر عن طريق الاستبداد السياسي الذي يمنع الناس من حرية التفكير وحرية الاجتماع والحوار ويقهرهم على نوع واحد من الفكر الذي تراه السلطات. وفي مواجهة هذا الاستبداد فإن على المسلمين عمومًا والحركة الإسلامية، خصوصًا أن تناضل من أجل حرية الفكر، حرية إبداء الرأي، حرية الاجتماع، حرية الحوار... وغيرها من الحريات، لأنها بذلك تعطي للناس فرصة الاختيار الحر فإذًا هم يختارون الإسلام ببساطة لأنه دين الفطرة والعقل.

وكذلك تقوم القوى الشيطانية بحرمان الجماهير من حقوقها الاقتصادية والاجتماعية وتستأثر بالنصيب الأكبر من الثروة وتترك للجماهير الفتات. فإذا المجتمع منقسم إلى مترفين ومحرومين والترف بطبيعته يقود إلى الطغيان والميوعة والانحلال وينشر في المجتمع قيمًا فاسدة والحرمان بدوره يجعل الجماهير في حاجة مستمرة تحول بينهم وبين التفكير الحر والاختيار الحر. وفي مواجهة ذلك الظلم الاجتماعي والاقتصادي فإنه على المسلمين عمومًا وعلى الحركة الإسلامية خصوصًا أن تناضل من أجل حقوق الجماهير الاقتصادية والاجتماعية.. وهي بهذا أيضًا تحقق للجماهير ظروف الاختيار الحر فإذا بهذه الجماهير تختار الإسلام.

(١) الآية رقم ١٧٢ سورة الأعراف.

والقوى الشيطانية أيضًا تسعى لنشر الأفكار المنحرفة مثل الولاء العشائري أو الوطني الضيق أو القومي الضيق أو المذاهب الهدامة فلسفيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعلى القوى الإسلامية أن تتصدى لهذا وتناضل من أجل الفكر الأممي والإنساني الشامل إذ لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى وأن كلكم لآدم وآدم من تراب.

إذن فمفهوم الدعوة لدى حركة الطلائع هو النضال ضد الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والاقتصادي والولاء القبلي والقومي والإقليمي الضيق. وليس مجرد مفهوم المناقشة أو الدعوة الفكرية، لأن الجماهير والناس عمومًا لا تحتاج لأحد ليعرفها بالله تعالى فهي تعرفه بالفطرة والعقل وآيات الكون الواضحة بل تحتاج إلى من يأخذ بيدها لانتزاع حقوقها وتحقيق ظروف الاختيار الحر.

وانطلاقًا من هذا تؤمن حركة الطلائع بأن الإسلام دين غير طائفي، بل هو يدعو للدفاع عن المستضعفين أيًا كانوا، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين لأن انتزاع حقوق الناس يحقق لهم فرصة الاختيار الحر وهم بالفطرة والعقل وآيات الكون سيختارون الإسلام لأنه لم يحل بينهم وبين هذا الإسلام إلا ظروف القهر الاجتماعي والاستبداد السياسي والولاء القبلي أو الطائفي أو العشائري.

ولعل تلك الرؤية الهامة في الدفاع عن المستضعفين هي التي جعلت عناصر الطلائع تهتم اهتمامًا خاصًا بالدفاع عن قضايا العمال والفلاحين وتصدر عددًا من المجلات والمنشورات التي تؤكد على هذا المعنى مثل (صوت المستضعفين)، (المناوبة) وهي ناطقة بلسان الفلاحين، حيث أن كلمة المناوبة تعني في أوساط الفلاحين المصريين نوبات الرأي، وهي التي جعلت عناصر الطلائع تتظاهر تضامنًا مع عمال المحلة وإسكو والسكة الحديدية عامي ١٩٨٥م-١٩٨٦م.

ومن الأشياء الملاحظة على نشاط الطلائع، انخراط عدد كبير من النساء في نضالها الشعبي والطلابي.

وهي سمة لفتت أنظار الكثيرين، حيث أن الحركة ترى أن المرأة ليست كائنًا مقدسًا ولا كائنًا ناقصًا بل هي كائن مكلف مثل الرجل تمامًا وأن عليها (أي المرأة)

أن تناضل من أجل قضايا الأمة والجماهير والشعب.

ترى حركة الطلائع أن الصراع على أرض فلسطين ما هو إلا حلقة من حلقات الصراع الإسلامي ضد القوى الشيطانية، وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد نجحت في القضاء على الحضارات الاستكبارية في المنطقة في الثلاثة قرون الأولى، فإنه لم يصمد أمامها حتى الآن إلا الحضارة الأوروبية، وهي حضارة إغريقية[1] وثنية في مضمونها ذات قشرة مسيحية ويمكن أن نطلق على تلك الحضارة الأوروبية الوثنية الإغريقية ذات القشرة المسيحية اسم الحضارة الصليبية.. وهي حضارة قامت على النهب والقهر وتدمير القيم، فهي التي ارتكبت عملية إبادة الهنود الحمر، وعملية قتل واسترقاق السود في إفريقيا (تم قتل أكثر من ٥٠ مليون إفريقي في وقت كان فيه سكان انجلترا ٣ ملايين فقط أي بحساب اليوم أكثر من ١٠٠٠ مليون إفريقي كان من الممكن أن يغيروا وجه إفريقيا)!! وهي الحضارة الأوروبية.. فالملكيون الفرنسيون مثلاً عذبوا وقتلوا شعب الجزائر وكذلك الجمهوريون[2].

وأيضًا أوساط اليمين الفرنسي واليسار أيضًا. بل إن مذبحة سنة ١٩٤٥م في الجزائر والتي أبيدت فيها قرى جزائرية كاملة بالطيران الفرنسي تمت على يد حكومة اشتراكية كان وزير الطيران فيها شيوعيًا، وإسرائيل ذاتها تجد أكبر الدعم من أوساط الحركة الاشتراكية في أوروبا، بل إن عدوان ١٩٥٦م على مصر تم على يد حكومة العمال الإنجليزية وحكومة الحزب الاشتراكي في فرنسا وحكومة حزب العمل الإسرائيلي.

إذن فالصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية صراع ممتد في الزمان والمكان. وهو صراع بين قوى الحق والعدل والحرية وتحرير الإنسان من الاستبداد والظلم وبين قوى الشر والنهب والقمع. وأن ذلك الصراع لم يهدأ يومًا، فالحروب الصليبية لم تنقطع يومًا بدءًا من الصدام مع الدولة البيزنطية ومرورًا بالحروب

(١) يتم تعميد بابا الفاتيكان حتى اليوم بنفس طقوس تعميد كهنة المعابد الإغريقية القديمة.

(٢) أحمد بن بلا، حوار معرفي شامل.

الصليبية في الشرق. التي استمرت ثلاثة قرون وانتهاء بالاستعمار الأوروبي وإقامة دولة إسرائيل. بل إن الحروب الصليبية في المغرب العربي لم تنقطع يومًا، فقد بدأت قبل الحروب الصليبية في الشرق واستمرت أثناءها واستمرت بعدها لدرجة أن البعض أطلق عليها حرب الألف عام[1] وما زال ذلك الصراع محتدمًا حتى اليوم ضد أمتنا وحضارتنا على يد أمريكا وإسرائيل وحلفائهما كآخر إفراز للحضارة الغربية.

إذن فإسرائيل ما هي إلا حلقة من حلقات ذلك الصراع الممتد في الزمان والمكان، وإقامة إسرائيل ذاته يستهدف القضاء على الحضارة الإسلامية، وهو صراع حضاري في جوهره وبالتالي فلا مكان للالتقاء هناك، ولا مكان للتفاوض أو الحلول الوسط، فإما حضارتنا ووجودنا ومصالحنا وإما نهاية لحضارتنا ووجودنا ومصالحنا، إذن فلا هامش للتفاوض. لأنه لا شيء مشترك بيننا وبينهم. ومن هنا فإن الحركة الإسلامية ترى أن التفاوض والحلول الوسط مع إسرائيل ما هي إلا تلهية للجماهير والتفافًا حولها وأن نهج التفاوض نهج خائن أو متردد في أقل الأحوال.

وأن الطريق الوحيد لتحرير فلسطين هو حرب التحرير الشعبية والعقيدة الإسلامية، ولابد من تحرير كامل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر ومن الجنوب إلى الجنوب. وأن المعركة مع إسرائيل ليست معركة الفلسطينيين ولا معركة العرب وحدهم بل هي معركة كل الأمة الإسلامية... ومن هنا جاء شعار الحركة (القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية).

وترى حركة الطلائع أنه منذ أن تعرضت أمتنا للغزوة الصهيونية في أواخر القرن الماضي وطوال هذا القرن فإن منهجين في مواجهة تلك الغزوة قد تبلورا.

المنهج الأول هو خط الجماهير والعلماء المجاهدين. وهو خط يرى أن التناقض بيننا وبين الكيان الصهيوني هو تناقض جوهري لا يمكن حله إلا عبر الكفاح المسلح طويل المدى لإنهاء الحقبة الاستعمارية بكاملها وتدمير الكيان الصهيوني تمامًا وبلا أدنى فرصة في اللقاء على أي أرضية كانت وأن هذا الخط يستند إلى فهم

(١) بسام العسيلي (الثورة الجزائرية) دار النفائس، بيروت.

طبيعة التحدي. فهم طبيعة وتركيب وأهداف العنصر المعادي. فهم شروط وخصائص قوانا الذاتية، ومن هذا المنطلق نرى أن الكيان الصهيوني كيان (توراتي، استعماري، استيطاني، عنصري، فاشي). وأن التحدي هو تحد حضاري في المقام الأول، وأن قوانا الذاتية لا تنطلق إلا من خلال الإسلام لأن أمتنا لا تتحرك إلا من خلال هذا المنهج الذي شكل ملامحها الحضارية تمامًا.

وبناء على ما تقدم كان خط العقيدة الإسلامية وحرب التحرير الشعبية طويلة المدى هو الشعار الذي اتخذته الجماهير والعلماء والمجاهدون دينًا لها ومارسته منذ الوهلة الأولى ، فمنذ أن وطئ اليهود أرضنا في فلسطين وقف الفلاحون يتصدون للغزاة في قرية الخفيرة بفلسطين وقرية ملبس (بتاح تكفا) عام ١٨٦٦م، ثم ما لبث الكفاح أن تمخض عن ظهور عدد من المنظمات التي خاضت غمار العمل المسلح مثل جمعية الفدائية وغيرها مما أدى إلى اندلاع ثورة ١٩٢٠م ثم ثورة حائط البراق ١٩٢٩م. ثم ظهور منظمة الكف الخضر ١٩٢٩م، وانتفاضة ١٩٣٣م، ثورة الشيخ المجاهد عز الدين القسام ١٩٣٥م، الثورة الشعبية الكبرى سنة ١٩٣٦م، القتال في الأربعينات، وعدد من عمليات العنف، حرب ١٩٤٨م، التي شارك فيها الإخوان المسلمين، ظهور فتح (العاصفة) ١٩٦٥م، معركة الكرامة ١٩٦٨م، صمود السويس بقيادة الشيخ حافظ سلامة ١٩٧٣م وحرب رمضان عمومًا كممارسات ضباط وجنود، معارك لبنان وبيروت ١٩٨٢م، الكفاح الإسلامي المسلح في لبنان ضد الكيان الصهيوني في الجنوب منذ ١٩٨٢م حتى الآن، عملية سليمان خاطر ١٩٨٥م، حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وعملياتها الفدائية المتميزة بالخنجر والسكين والهروب من السجون وتفجير الانتفاضة الثورة منذ ١٩٨٧م وحتى اليوم، إعدام كاهانا ١٩٩٠م في مدينة نيويورك.

أما المنهج الثاني فهو خط الأحزاب العلمانية والوجهاء وهم ذوي مصالح محددة ويبحثون عن صيغة اتفاق مع الكيان الصهيوني تحقق للطرفين نقطة اتفاق أو أنهم علمانيون تغريبيون لا يجدون في منطلقاتهم السياسية مبررًا لمواجهة إسرائيل حيث أنهم مجرد إفراز للفكر الغربي وهو نفس الفكر والحضارة اللذين أفرزا الكيان

الصهيوني وبالتالي فليس هناك تناقضًا جوهريًا بين هؤلاء وبين الكيان الصهيوني وإنما هناك تناقض ثانوي يتسع ويضيق حسب معطيات ومعادلات الصراع في المنطقة، وطبيعي أن هذه القوى مترددة تقاتل بشكل جزئي لتحسين ظروف التفاوض ليس إلا، أي أن الخط الأساسي لهذه القوى هو خط التفاوض ومحاولة البحث عن صيغة تعايش مع الكيان الصهيوني ومن هنا فقد مارست تلك القوى والتي ظلت تحكم العالم العربي حتى الآن أسلوب الحلول الوسط والمفاوضات واللعب على التناقضات الثانوية، ومنذ اليوم الأول للصراع نسمع عن مفاوضات لندن ١٩٢١م، الكتاب الأبيض البريطاني الأول والثاني، مفاوضات رودس ١٩٤٩م، قرار (٢٤٢، ٣٣٨) ، مبادرة روجرز ١٩٧٠م، كامب ديفيد ١٩٧٨م، مقررات قمة فاس، الحوار الفلسطيني الأمريكي........ الخ.

وهكذا نجد أن الخلفية الفكرية والسياسية لحركة الطلائع. والذي استمد منها السيد نصير رؤيته السياسية والفكرية من خلال حضور ندواتها ومشاركته في حلقات الحوار التي كانت تنظمها عناصر تلك الحركة، يمكن أن تفسر لنا لماذا قام السيد نصير بعملية إعدام كاهانا.. فإذا أضفنا إلى ذلك التركيبة النفسية والشخصية للسيد نصير . الهادي، الوديع، الفنان، المتدين، والظروف الاجتماعية والبيئية التي نشأ فيها السيد نصير، وهي ظروف البيئة الشعبية المصرية ذات الوجدان الديني المفعم الكاره لليهود وكيدهم، وكذلك ظروف الاحتكاك مع الكيان الصهيوني مبكرًا من خلال حرب ١٩٦٧م، وصمود بور فؤاد لمحاولات الجيش الصهيوني لاحتلالها برغم احتلال ذلك الجيش لكل الضفة الشرقية للقناة، وكذلك آلام التهجير النفسية وانعكاسها على وجدان وتفكير السيد نصير. لاستطعنا أن نؤكد أن عملية إعدام كاهانا لم تأت من فراغ، وانه كان لها أسبابها الشخصية والسياسية لدى السيد نصير، وأنها كانت عملية مدبرة من قبل السيد نصير وأنه كان هناك سبق إصرار عليها وأنها لم تأت عفوًا أو تأتي كرد فعل مباشر على خطاب كاهانا في نيويورك، فلو لم يكن السيد نصير قد نوى ذلك العمل لما ذهب أصلاً إلى الفندق ولما حمل معه سلاحًا غير مرخص.

ولعل ذلك التفسير، وضع الأمور في نصابها الطبيعي وظروفها الموضوعية هو ما

تحاول أجهزة الإعلام الغربي والأوساط الأمنية والسياسية الأمريكية أن تطوقه وتحجبه عن الرؤية والسماع وذلك لسحب الآثار السياسية للحادث التي هي بالقطع لصالح دفع جموع الأمة للتصدي والرفض والعنف ضد الكيان الصهيوني أو في مواجهة الكيان الصهيوني والاستكبار الأمريكي... وهي أمور لا يريد لها الأمريكيون والإسرائيليون أن تصبح نمطًا من السلوك الطبيعي لدى جماهير الأمة الإسلامية وخاصة من المصريين الذين تريد لهم أمريكا وإسرائيل أن يكونوا خارج معادلة الصراع.

وهكذا لم يكن غريبًا أن تدعي تلك الأوساط أن سيد نصير مجنونًا أو تدعي أوساط أخرى أنه ليس مصري الجنسية. لأن تلك الأوساط لا تريد لهذا السلوك أن يكون نموذجًا، ولا تريد لمصر بثقلها الشعبي والتاريخي أن ينخرط أبنائها في مواجهة مع النفوذ الأمريكي والإسرائيلي والانخراط في خندق المواجهة بالعنف المشروع ضد عنف واستكبار اليهود والأمريكان.

ومن الأفضل لهم طبعًا _وهذا سلوك تقليدي لهم_ أن يدعوا أن سيد نصير شخص مجنون، مثلما ادعوا من قبل أن سليمان خاطر مجنون وكل هذا من أجل تطويق الآثار السياسية للحادث مصريًا وعربيًا وإسلاميًا وهي آثار خطيرة على المشروع الأمريكي والصهيوني في المنطقة.

والحقيقة التي لا تقبل الشك، أن سيد نصير بتركيبته النفسية السوية وحسه الفني المرهف والتزامه الإسلامي الواضح، وبظروفه الاجتماعية الأسرية وظروف نشأته في مدينة الصمود (بور فؤاد) وظروف التهجير بعد حرب ١٩٦٧م ثم بخلفيته السياسية والفكرية التي تبلورت من خلال احتكاكه بجماعة شباب الإسلام وحركة الطلائع كان مرشحًا لأن يقوم بهذا العمل، فإذا ما جاءت أحداث مذبحة الأقصى التي راح ضحيتها ٢١ شخصًا في ٨ أكتوبر ١٩٩٠م والتي أدت إلى بكائه، أي أنها فجرت كل التراكمات الشخصية والبيئية والسياسية بداخله، كان من الطبيعي أن يقرر سيد نصير أمرًا وأن يعد له العدة وأن ينفذه بعد أقل من شهرين من نزول دموعه على شهداء الأقصى.

على أن أكثر ما يغيظ في المسألة هو إطلاق وصف الإرهاب على سيد نصير، وكأن الدفاع الشرعي عن الوجود والرد على أعمال إسرائيل عمومًا وكاهانا خصوصًا أمر محرم علينا، ولكن الأوساط الأوروبية والأمريكية التي تطلق على النضال والجهاد والعنف المشروع كلمة إرهاب، وتتغاضى عن ممارسات إسرائيل القمعية في الأرض المحتلة، تتغاضى عن القتل والطرد والتشريد ونسف البيوت والتعذيب في السجون الصهيونية وتتغاضى عن الاعتداء على المقدسات الإسلامية وتتغاضى عن احتلال وطن بأكمله وأجزاء من بلاد أخرى، إنما تكشف عن نفسها وعن معاييرها المزدوجة في التعامل معنا وتكشف زيف قيمها وحضارتها وتكشف عداوتها العميقة لكل ما هو إسلامي.

حركة كاخ العنصرية (نموذج متكامل للمجتمع الإسرائيلي)

(قبضة سوداء على خلفية صفراء)، (أعطوني القوة لكي أتصرف مع العرب بصورة نهائية)، (العرب كلاب مقززون وطردهم واجب ديني)، (غير اليهودي ليس له أي حق سياسي).. تلك هي نماذج من شعارات حركة كاخ أو الحركات المتطرفة في إسرائيل، أو قل هذه هي الشعارات الحقيقية للمجتمع الإسرائيلي عمومًا.

تأسس حزب كاخ على يد مائير كاهانا سنة ١٩٧٢م أي بعد عام واحد من هجرة كاهانا إلى إسرائيل، ومعظم أعضاء حركة كاخ من الشباب الصهيوني المتطرف. وتقوم أفكار هذا الحزب على سيادة اليهود على كل أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات، ويرفض إعادة أي جزء من الأرض لغير اليهود، وفرض السيادة اليهودية يتحقق عن طريق هجرة اليهود من كل أنحاء العالم إلى إسرائيل ومصادرة أراضي الفلسطينيين وإخراج كل العرب من الأرض المحتلة ومن يرفض هذا فلابد من قتله، وأن حدود إسرائيل فهي من النيل إلى الفرات والأردن هي الأرض الشرقية لإسرائيل!!

ويمكننا أن نفهم أفكار هذا الحزب بصورة أكثر وضوحًا من خلال مؤلفات وأطروحات الحاخام مائير كاهانا نفسه مثل كتاب (أشواك في عيونكم) وكتاب

(الإيمان والإخلاص) وكتاب (عليهم أن يرحلوا) [1].

حيث يرى كاهانا أن غير اليهود هم حيوانات ولدت من ذرية الحصان وهو لا يشير إلى العرب إلا بقوله (الكلاب المقززين).. ويؤكد كاهانا أن طرد العرب وسيادة إسرائيل المطلقة على كل الأراضي من النيل إلى الفرات هو واجب ديني ويستشهد كاهانا بما جاء في التوراة ليوضح المعنى الحقيقي لدولة إسرائيل وشعب إسرائيل: (لقد منحتك هذه الأرض لذريتك من نهر مصر (النيل) حتى النهر الكبير (الفرات)) لذا فإن إسرائيل غير قابلة للإبادة لأنها مقدسة اختارها الرب!! ويستطرد كاهانا أن الهدف واضح وهو أن كل من ليس يهوديًا لا حق له في البقاء أو الملكية والجنسية.

ويشرح كاهانا كيف يتم ذلك بقوله أن على الغرب أن يتعاون مع إسرائيل إذا أراد استمرار تدفق البترول من الشرق الأوسط عليهم أن يضغطوا على العرب أولاً ليندمج الفلسطينيون داخلهم ثم فليقبلوا بعد ذلك رحيل العرب إلى الغرب ليعملوا في المهام الشاقة لأن الغرب يحتاج إلى الأيدي العاملة العربية للعمل في المهن المنحطة وعلى كل حال فليس حزب كاخ وحده وليس مائير كاهانا وحده، فهناك مثلاً حزب هاتخيا برئاسة جيئولا كوهين وقد تأسس عام ١٩٧٩م عقب توقيع معاهدة كامب ديفيد.

ويرفض حزب هاتخيا الاعتراف باتفاقية كامب ديفيد ويطالب بفرض السيادة اليهودية على ما يسميه بأرض إسرائيل الكبرى، ويعتبر المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة حزامًا أمنيًا إستراتيجيًا لإسرائيل، وبالنسبة لوجود الفلسطينيين يطرح حزب هاتخيا ثلاثة تصورات إما الإندماج داخل دولة إسرائيل وإعلان الولاء لها وإما الإقامة في الدولة كأجنبي، وإما الهجرة من إسرائيل، ويمارس هذا الحزب ضغوطًا لزيادة الاستيطان في الأراضي المحتلة وضم الجولان رسميًا لإسرائيل بعد أن قامت إسرائيل بضم القدس رسميًا لإسرائيل واعتبرتها عاصمة لها[2].

(١) مائير كاهانا (عليهم أن يرحلوا) عرض ميرفت دياب، الأهالي ١٤ نوفمبر ١٩٩٠م.

(٢) نهال شريف (تحقيق صحفي) المصور ١٦ نوفمبر ١٩٩٠م.

وهناك حزب تسوميت (الصهيونية المتجددة) ويرأسه الجنرال المتقاعد رافائيل إيتان الذي شارك آرييل شارون في التخطيط لغزو لبنان ومذابح صبرا وشاتيلا، وقد تأسس هذا الحزب عام ١٩٨٧م ويحظى الحزب بتأييد الشباب المتطرف من اليهود الشرقيين والغربيين على السواء. ويتخذ هذا الحزب شعار القضاء على أي مصدر يهدد الجنس اليهودي ويحول دون استمرار انتشاره ويدعو لضرورة التمسك بأرض إسرائيل الكبرى بما في ذلك هضبة الجولان، ويتميز إيتان مؤسس هذا الحزب بعنصريته الشديدة وكراهيته للعرب ويقول لن ينتصر علينا العرب بالحجارة وسنرد عليهم ردًا صهيونيًا، سنبني عشر مستوطنات مقابل كل حجر وعندما يصبح هناك مائة مستوطنة في نابلس والقدس لن يستطيعوا رشق الحجارة)!!

ويرفض إيتان الاعتراف بما يسمى بالقضية الفلسطينية[١].

وهناك حزب موابيت (الوطن) وأسسه رحبعام زئيفي وهو من أعلى الأصوات التي تطالب بسياسة الترانزفير، أي الترحيل الجماعي والمنظم للفلسطينيين من الأراضي المحتلة. ويقول زئيفي أنه قد اضطر للعمل السياسي لأنه إذا لم يعمل على تطبيق الترانزفير فستخسر إسرائيل كل شيء[٢].

وبالإضافة إلى تلك الأحزاب هناك حركات عنصرية غير ممثلة في الكنيست الإسرائيلي مثل جماعة جوش أمونيم وهي من أشد مؤيدي الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة على اعتبار ذلك من الناحية العقائدية إسهام مباشر في عملية الخلاص وينتسب لتلك الحركة أكثر من عشرة آلاف شخص.

وفي الحقيقة فإن المسألة ليست مسألة أحزاب أو جماعات متطرفة بل إن المجتمع الإسرائيلي بكامله قائم على التطرف والعنصرية يستوي في ذلك شامير وبيريز، اليمين واليسار وحتى الملحدون. ويرى الأستاذ روجيه جارودي أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع توراتي من حيث طبيعته وتوجهاته وسياساته ولا يختلف في ذلك يمين أو

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق.

يسار مؤمنون أو ملحدون. فجولدا مائير مثلاً وهي من حزب العمل تقول: (نشأ هذا البلد تنفيذًا لوعد الرب ذاته ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحًا عن شرعية هذا الوجود)[١].

أما بيجين زعيم كتلة ليكود فيقول: (لقد وعدنا الرب هذه الأرض ولنا الحق فيها) [٢].

أما موشي ديان (الملحد) فيقول: (إذا كنا نملك التوراة وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضًا بلاد التوراة أرض أورشليم وحبرون وأريحا وأماكن أخرى) [٣].

وفذا كانت جميع الاتجاهات السياسية في إسرائيل تنطلق من التوراة، فإن المجتمع الصهيوني يجعل التوراة نفسها تحدد ثقافة الأطفال في المدارس، وكذلك الزواج في إسرائيل زواج ديني كما لا يوجد في إسرائيل دستور لأن التوراة هي القانون الأساسي للدولة، والتوراة أيضًا تحدد من هو الإسرائيلي وتحدد حدود الدولة وتبرر الحرب والإرهاب[٤].

ويرى الأستاذ جارودي، أنه انطلاقًا من التوراة (المحرفة طبعًا) فإن اليهود أنفسهم شعب الله المختار وبقية العالم عبيد لهم، وهي فكرة عنصرية تمامًا وبالتالي فإن المجتمع الإسرائيلي مجتمع عنصري حتى النخاع.

(١) جولدا مائير، تصريح صحفي لصحيفة لوموند الفرنسية ٢٥ مايو ١٩٧١م.

(٢) تصريح لصحيفة دافار ١٤ ديسمبر سنة ١٩٨٧م.

(٣) تصريح لصحيفة جيروزاليم بوست ١٠ أغسطس ١٩٦٧م.

(٤) التوراة المحرفة طبعًا، لأن التوراة الحقيقية لم تقل هذا.

■■ الجرف الهار لا الجرف الصامد

مِنْ دلائل البشرى في اسم العملية الإسرائيلية الأخيرة ضد قطاع غـزة، أن العـدو الصهيوني أطلق عليها اسم «الجرف الصامد»، والحقيقة أنهـا «جـرف هـار» سـينهار ببني إسرائيل في أتون النهاية الحتمية القريبة جداً - إن شاء الله تعالى -.

عند كتابة هذا المقال كانت قوات العدو الصـهيوني قـد نفـذت ٧٥٠ غـارة عـلى أهداف في غزة، وقد طالـت تلـك الغـارات لـيس فقـط قواعـد لحمـاس أو الجهـاد الإسلامي، بل شباباً يجلسون على المقاهي ونساء وأطفالاً.وهناك مدفعيـة صـهيونية تطلق قذائفها من خارج حدود غزة، وكذلك دبابات تقف داخل العمـق الصـهيوني لم تدخل بعد في العمليات، وإن كان من المتوقع أن تجتاح قوات بريـة صـهيونية قطـاع غـزة لإكمـال العمليـة المشـؤومة، التـي سـتكون بدايـة نهايـة إسـرائيل - إن شـاء الله . وأكثر من هذا، فإن البوارج البحرية الصهيونية دخلت المعركة، وكانت قـذائفها هي ذاتها من قتلت شباباً فلسطينيين في غزة كانوا يتابعون إحدى مباريات كـرة القـدم على أحد المقاهي.

إسرائيل من جهتها وجّهت نداء أو تهديداً لأكثـر مـن ١٠٠ ألـف فلسـطيني عـلى الحدود بين قطاع غزة ودولة الكيان الصهيوني؛ للرحيل مـن تلـك المنطقـة، تمهيـداً للاجتياح البري الصهيوني المتوقع، بعد أن استدعت الحكومة الإسرائيلية المصـغرة بقيادة المجرم بنيامين نتنياهو نحو ٤٠ ألف جندي من قوات الاحتياط الصهيوني.

فحصيلة الجرف الصامد «الهار» حتى كتابة هذه السطور، نحو ١٠٠ شهيد فلسطيني، بينهم نساء وأطفال، وأكثر من ٥٠٠جريح. والحقيقة أن هناك أيضاً ضمن العملية اعتقال ٩٦٨ فلسطينياً في الضفة الغربية، وكذلك سقوط شهداء في الضفة والقدس والخليل، أي أن الجريمة ليست في غزة وحدها.

من ناحية أخرى، فإن صواريخ المقاومة وصلت إلى ديمونة وبئر السبع وتل أبيب وحيفا وعسقلان، وزادت قدراتها التفجيرية ومداها الطولي؛ فهناك بحسب المصادر الصهيونية ذاتها نحو ٦٠٠٠ صاروخ لدى حركة حماس، و٥٥٠٠ صاروخ لدى حركة الجهاد الإسلامي، وأن من بينها صواريخ قصيرة المدى إلى نحو ٤٥ كيلو متراً، وأخرى تصل إلى ١١٠ كيلو مترات، وثالثة تصل إلى ٢٠٠كيلو متر، وأن ٨٠ ٪ من هذه الصواريخ (الطويلة إلى ٢٠٠ والقصيرة إلى ٤٥ كيلو متراً)، هي صناعة محلية، والباقي مهرب.

أي أن هناك قدرة على تصنيع الصواريخ محلياً، وهناك قدرة على تهريب بعضها الآخر، وأن مداها يتطور إلى الأمام وقدراتها التفجيرية تزيد مع الوقت. وعلينا أن نتوقع مثلاً أن يقوم الخبراء في حماس والجهاد وغيرهما بنقل خبرة صناعة الصواريخ إلى كل إنسان في قطاع غزة والضفة الغربية، بحيث إنه لو نجحت إسرائيل - لا قدر الله - في إضعاف قدرة حماس والجهاد على المقاومة؛ تكون الأمة والشعب قادراً على إفراز مقاومة دائماً.

وفي هذا الصدد أيضاً يجب أن ندرك أن وصول هذه الخبرة إلى كل إنسان فلسطيني، هو بداية نهاية إسرائيل؛ لأن وصول هذه الصواريخ إلى كل مكان في دولة العدو الصهيوني، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وعلى شاطئ البحر، يعني أن الصهيوني في إسرائيل لم يعد بأمان، وهو أمر له ما بعده على مستوى انهيار الفكرة الصهيونية. وقد صورت كاميرات إسرائيلية مدى الرعب الذي يعيشه أطفال الصهاينة بعد كل صافرة إنذار تجبرهم على الاختباء في الملاجئ بظرف ١٥ ثانية، ولو استمر هذا الأمر عدة شهور أو سنوات؛ لانهار الكيان الصهيوني من داخله. وفي الحقيقة إن هذا الأمر يفتح باباً جديداً لأشكال الحروب، فهناك الحرب التي تقضي على العدو، وهذا غير ممكن

بالنسبة للطرفين حتى الآن، فلن تستطيع قوات العدو الصهيوني القضاء على الفلسطينيين، ولا يستطيع الفلسطينيون بإمكانياتهم الحالية ولا في الدول العربية، هزيمة إسرائيل عسكرياً؛ إذ إن المطلوب هو الصمود، ومنع العدو من تحقيق أهدافه، والمحافظة على إرادة المقاومة مشتعلة، ونقل خبرة إزعاج الصهاينة إلى كل فلسطيني بصواريخ محلية الصنع. أضف إلى هذا فإنني لن أملّ من التذكير بفكرتي التقليدية التي أرددها منذ عشرين عاماً على الأقل، بمناسبة ومن دون مناسبة، وهي ضرورة الزحف بالملايين من مصر ولبنان والأردن وسورية ومن كل مكان إلى فلسطين، «سلمياً»، من دون أي سلاح، ونجوس في تلك المسيرات السلمية خلال الديار الفلسطينية، ليكون ذلك هو الوعد المفعول كما جاء في القرآن الكريم.

يجب أن ندرك أيضاً أن القدرة على هزيمة الإرادة الفلسطينية لن تتحقق بالطيران الصهيوني ولا بضرب المدفعية والبوارج من وراء الحدود، وإلا لماذا يفكر العدو الصهيوني في الغزو البري؟ إذن فكرة حسم المعركة من الجو والبحر وعبر الحدود أصبحت فكرة خاطئة، ومن ثم فإن الغزو البري دائماً محتمل، وهذا يجعل لحم العدو في أظافر الشعب العربي المقاوم، وهذه فرصة لإثبات الصمود والشجاعة والمقاومة، وفي كل الأحوال فإن الحسم الجوي أو البحري أو الغزو البري لن يكسر إرادة المقاومة، مهما سقط من شهداء وخسائر، وعموماً فإن خسائر الصمود والمقاومة دائماً أقل من خسائر الاستسلام والحلول الوسط مع عدو تاريخي للأمة، ولدينا تجارب المقاومة العراقية والصومالية والأفغانية خير دليل، وهذا الأمر في رأيي قاصر على معارك الأمة مع الاحتلال فقط، وليس ضرب بعضنا البعض باسم الصمود وعدم الاستسلام، أي لا يجب استخدام القياس هنا في قضايا الصراع السياسي الداخلي داخل الدول العربية والإسلامية.

ويحضرني هنا مقولة كانت تتكرر دائماً، وهي أن تحرير فلسطين يبدأ من عمان أو القاهرة أو دمشق، والحقيقة أن العكس هو الصحيح على طول الخط، فحتى الصراع السياسي من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان وغيرها من الأمور؛ لن يحسم إلا بمقاتلة إسرائيل وأمريكا التي تدعمها، وأن تحرير فلسطين هو الذي

سيحل قضايا الصراع السياسي في المنطقة لصالح الشعوب، وهـذه بديهيـة يجـب أن نعض عليها بالنواجذ.

إذا تابعنا المواقف الرسمية العربية والإسلامية التي لا نعوّل عليهـا أبـداً، نجـدها كالعادة أقل من المأمول، وهي لم تكن يوماً ما في أكثر من ٧٠ عاماً أو تزيـد مـن عمـر الصراع مع إسرائيل، بالقدر الكافي والمأمول.. وهكذا؛ فإن الوقوف عند هذه النقطـة كثيراً هو مضيعة للوقـت والجهـد، بـل إن الـبعض في هـذه الأنظمـة يتوقـع مـثلاً أن الموضوع برمته محاولة لتوريطه في مستنقع، وهو لـن يتـورط فيـه. فقـط لا نريـد أن تتصرف هذه الأنظمة كرد فعل لموقفها من تيار سياسي بعينه، ومن ثم معاقبـة حمـاس مثلاً على ذلك؛ فالموضوع ليس الأمن القومي العربي، ولـيس فلسـطين وحـدها ولا كلها، وليس غزة وحدها، وليس كل الأمة، وليس حماس وحدها. ومن جانبهـا، فـإن على حماس والجهاد الفلسطيني أن تتصرف كحركات تحرر وطني وتتجـاوز الانتمـاء السياسي والحزبي، وأن نجد هذه المعركة فرصة لإثبات ذلك، والتوقف تمامـاً عـن التهريج السياسي الذي لم يعد يجدي في زمـن المواجهـة الحتميـة مـع إسـرائيل. وفي الحقيقة هناك عدد من الحقائق يجب أن نرصدها:

أولاً: أن حركة حماس في غـزة حـين تصـالحت مـع فـتح وتنازلـت عـن السـلطة الرسمية في القطاع، أصبحت أكثر قدرة على مواجهـة إسـرائيل؛ لأنهـا لم تعـد مطالبـة بتوفير المواد الغذائية والكهرباء لقطاع غزة، وهي في عموم الأمر أكثر قـدرة في حالـة ابتعادها عن السلطة على المواجهة منها في حال وجودها فيها.

ثانياً: أنه على الحركات الجهادية، أو التي تزعم أنها جهادية، وأيـاً كـان الموقـف منها في سيناء وسورية والعـراق وغيرهـا؛ أن تسـارع إلى فعـل أي عمـل ولـو رمـزي لإثبات أنها جزء من الأمة وليست صنيعة أجهزة مخابرات هنا وهنـاك، والـوعي بـأن الدم الفلسطيني الذي يسيل على أيدي الصهاينة لا يقل قيمـة عـن غيـره مـن الـدماء، والثأر مع الإسرائيليين ليس أقل من الثـأر مـع أنظمـة عربيـة، وقضـية وجـوب قتـال الإسرائيليين بديهية وهـي مـن الأمـور المعلومـة مـن الإسـلام والقوميـة والوطنيـة بالضرورة، ولا تحتاج إلى دليل.

ثالثاً: أن على الحركات السياسية العربية الشعبية أن توجه مظاهراتها إلى سفارات العدو الصهيوني في القاهرة وعمان، وإلى سفارات أمريكا وقواعدها العسكرية في الدوحة وإسطنبول... إلخ. وبديهي أن الولايات المتحدة التي قال المتحدث الرسمي لها: إن إسرائيل من حقها أن تدافع عن نفسها؛ هي الراعي الأول والأخير لإسرائيل، ومن ثم فإن المطالبة بخروج القواعد الأمريكية من الدول العربية، والسفارات الصهيونية والأمريكية من العواصم العربية والإسلامية؛ واجب ديني ووطني وقومي لا خلاف عليه.

ويجب هنا أن نقرر أننا نطالب الجميع بذلك ولا نستثني أحداً، وإلا كنا كمن يطالب الناس بالبر وينسى نفسه.

.. الحركــة الإســلامية في مصــر والقضية الفلسطينية

الكفاح الشعبي.. ثورة مصر..

سليمان خاطر... سيد نصير.. أيمن حسن

فرق كبير جدا بين الموقف الشعبي المصري من الكيان الصهيوني وبين الموقـف الحكومي أو الرسمي، ذلك أن الموقف الشعبي المصري تحكمه العقيدة والوجـدان أما الموقف الحكومي فتحكمه مجموعة من العوامل والمعادلات مختلفة تماما.

وبديهي أنه ما دامت الحكومات المصـرية المتعاقبـة- عـلى اخـتلاف توجهاتهـا السياسية والاجتماعية – لم تخرج من رحم الشعب المصـري بطريقـة شـرعية، أي لم يتم اختيارها بحرية، بل فرضت فرضا على ذلك الشعب واغتصبت السلطة بطريقة أو بأخرى، أي أنها في النهاية لم تكن تعبيرا عن هذا الشـعب ولا ممثلـة لـه فـإن علينـا أن نتوقع اختلافا جذريا في النظرية والسلوك تجـاه الكيـان الصـهيوني وسـوف نتتبـع في إيجاز بعض جوانب الكفاح الشعبي المصري ضد الكيـان الصـهيوني مـع الأخـذ في الاعتبار أن هذا موضوع كبير وثري ولا يمكـن أن يحـيط بـه جهـد باحـث ولا دفتـا كتاب.

منهج لفهم الصراع

الصراع مع الكيان الصهيوني، صراع حضاري يمتد في الزمان والمكان. وهو جزء

من ذلك الصراع الطويل والممتد بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من حق وعدل وتوحيد والحضارة الغربية بما تمثله من قهر ونهب ووثنية. ذلك أن الإسلام – باعتباره الدين الخاتم، ومنهج الله تعالى للبشر لإقامة عالم بلا ظلم ولا استكبار ولا وثنية – دخل في صراع طويل وقاس مع مختلف المنظومات الحضارية في العالم واستطاع أن يبسط هيمنته وظلاله الوارفة عليها وأن يحسم الصراع لصالحه في أجزاء كثيرة من العالم في ذلك الوقت في آسيا حتى الهند والصين وسيبيريا وفي أفريقيا وفي أجزاء من أوروبا ذاتها.

وإذا كانت الحضارات القديمة مثل الفارسية والهندية والصينية وغيرها قد خضعت للنفوذ الحضاري الإسلامي، وأصبحت شعوب تلك البلاد جزءا لا يتجزأ من المنظومة الحضارية الإسلامية دينيًا وثقافيًا أو ثقافيًا فقط، فإن الحضارة الغربية وحدها هي التي صمدت حتى الآن واستعصت على الخضوع. وهكذا فإن الصراع بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية شغل مساحة واسعة جدا في التاريخ والجغرافيا منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم ففي حياة الرسول ﷺ بدأ هذا الصراع من خلال اهتمام الرسول ﷺ بإرسال الرسائل إلى هرقل الروم يدعوه فيها إلى الإسلام وكذلك في غزوة تبوك، ثم إصرار الرسول ﷺ على بعث أسامة بن زيد، وحتى في مرض الموت ظل الرسول ﷺ يقول من وقت لآخر أنفذوا بعث أسامة، أنفذوا بعث أسامة، وهو الأمر الذي وفى به خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستمر الصراع أثناء حكم الخلفاء الراشدين مع الدولة البيزنطية في الشام وشمال أفريقيا ثم في أثناء الحكم الأموي والعباسي في الشام وشمال أفريقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط والأندلس حتى جنوب فرنسا. ثم أخذت أوروبا المبادرة وقامت بالهجوم في الشرق من خلال الحملات الصليبية ١٠٩٧ – ١٢٩٥ وقبل الحملات الصليبية على الشرق وفي أثنائها وبعدها استمر الصراع في الأندلس وشمال أفريقيا، وتعرضت بلاد المغرب العربي عموما والجزائر خصوصا لعشرات الحملات الصليبية قبل سقوط الأندلس وبعدها من شتى دول أوروبا « البرتغال – أسبانيا – فرنسا – انجلترا وغيرها ». ومع صعود الدولة العثمانية استطاعت تلك الدولة الفتية أن تمد حدود الإسلام داخل أوروبا حتى أسوار فيينا وقضت تمامًا على الدولة

البيزنطية وفتحت القسطنطينية ١٤٥٣ م ثم خاضت صراعا طويلا دفاعا عن الإسلام ضد أوروبا في الشرق والغرب، ومع ضعف وتفكك الدولة العثمانية استطاعت أوروبا أن تستعيد المبادرة مرة أخرى وأن تشن على العالم الإسلامي حملات متواصلة انتهت بسقوط معظم دول العالم الإسلامي في قبضة الاستعمار الأوروبي. ومع تصاعد حركات الكفاح الإسلامي الشعبي ضد الاستعمار، استخدم الاستعمار الأوروبي تكتيكا جديدا في الصراع، ألا وهو استخدام الحلم اليهودي في إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين لتحقيق هدفين في نفس الوقت، الأول هو استخدام اليهود وأموالهم وأطماعهم التاريخية في الصراع ضد العالم الإسلامي بهدف القضاء عليه أو إضعافه على الأقل، والثاني هو التخلص من اليهود كنفاية بشرية غير مرغوب فيها في أوروبا وأمريكا.

وهكذا فإن الصراع مع الكيان الصهيوني ليس إلا حلقة من حلقات الصراع الطويل والمتميز بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وهو صراع بين التوحيد والوثنية، بين الحق والباطل، بين العدل والنهب، وبديهي أنه صراع لا يمكن حسمه إلا بسيادة حضارة على حضارة، وسوف تسود الحضارة الإسلامية بإذن الله، لأنها حضارة الحق، والحضارة الغربية، التي هي وثنية إغريقية في جوهرها لم تفتأ تحاول منذ أمد طويل القضاء على الحضارة الإسلامية، وما إقامة إسرائيل إلا جزء من هذا الصراع الطويل، ومادام الأمر كذلك فإن علينا أن ندرك أن الصراع سيستمر ويتشعب بهدف إنهاء الحضارة الإسلامية وعلينا بالطبع انطلاقا من ذلك أن نعمل لحسم الصراع لصالح الإسلام وإدراك أننا لسنا في صراع مع اليهود وحدهم بل مع الحضارة الغربية برمتها، وبالتالي فإن الحديث عن المفاوضات أو الحلول الوسط، أو استخدام المنطق ومخاطبة الضمير الغربي والأمم المتحدة أو اللعب على التناقضات الدولية والتوازنات الإقليمية وغيرها ما هو إلا ضياع للوقت وتشتيت للجهد، لأنه مادام الصراع هو حلقة من حلقات صراع طويل وممتد مع الحضارة الغربية فلا أمل في مخاطبة الضمير الغربي – لأنه بلا ضمير أصلا – ولأنهم الأعداء الأصليون أيضا، ولا أمل بالطبع في الأمم المتحدة لأنها صناعة غربية ولا أمل إلا في استخدام قوانا

الذاتية من أجل حسم الصراع لصالحنا.

ومادام الصراع صراعا حضاريا – يمتد في التاريخ والجغرافيا – ويستهدف وجودنا ذاته فليس هناك إذن أي هامش للاتفاق أو المفاوضات أو الحلول الوسط، فإما نحن وإما هم، إما حضارتنا وإما حضارتهم إما سيادة التوحيد أو سيادة الوثنية.

***

يجب علينا أن نستعد لصراع طويل وقاسٍ وألا نقع في وهم المفاوضات أو إمكانية الحصول على بعض حقوقنا من خلال المساومة، فليس هناك طريق إلا البندقية وليس هناك بديل للصراع.

والنبوة القرآنية ذاتها، تؤكد هذه الحقيقة ولا تدع مجالا للشك حولها باعتبار القرآن صدقا مطلقا لأنه من عند الله تعالى .

يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ صدق الله العظيم.

ويقول رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » رواه الشيخان البخاري ومسلم.

نلاحظ إذن أن هناك منهجين في مواجهة الكيان الصهيوني، المنهج الأول هو منهج العلماء والجماهير، وهذا المنهج يرى أن الغزوة الصهيونية ما هي إلا حلقة من حلقات الصراع التاريخي بين القوى الربانية والقوى الشيطانية – المتمثلة هذه المرة في الاستعمار والصهيونية – ويدرك أبناء هذا المنهج أن حضارة الأمة ووجودها هو

المستهدف هذه المرة تمهيدًا لتصفية الكيان الحضاري لأمتنا وتوجهاتها الربانية في تحرير العالم وبالتالي فإن الصراع يمتد في الزمان والمكان ليأخذ أبعادًا عميقة ودرامية عبر التاريخ كله وعبر العالم بأسره، ومن هنا فإن التناقض لا يمكن حله إلا عبر المسلح طويل المدى – لإنهاء الحقبة الاستعمارية بكاملها وتدمير الكيان الصهيوني تماما وبلا أدنى فرصة في اللقاء على أية أرضية كانت.

ويؤمن أبناء هذا المنهج، أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، وأن العقيدة الإسلامية وحرب التحرير الشعبية طويلة المدى هي الحل لهذه القضية.

أما أصحاب المنهج الثاني – وهو منهج الحكومات والوجهاء والأحزاب العلمانية – فإنه منهج المفاوضات والحلول الوسط، وأصحاب هذا المنهج يخافون على مصالحهم الضيقة ويبحثون عن صيغة اتفاق مع الكيان الصهيوني تحقق للطرفين مصالحهما، وهم لا يجدون مبررا لمواجهة إسرائيل مواجهة شاملة ويرون إمكانية التعايش معها لأنهم إما وجهاء يخافون على مصالحهم أو علمانيون لا يجدون في عقيدتهم مبررًا للمواجهة الشاملة لأنهم إفراز لنفس الشيء الذي أفرز الكيان الصهيوني « الحضارة الغربية» وبالتالي فالتناقض بين هؤلاء وبين الكيان الصهيوني تناقض ثانوي يتسع ويضيق حسب معطيات ومعادلات الصراع في المنطقة، وطبيعي أن هذه القوى مترددة تقاتل بشكل جزئي – إذا ما قاتلت – لتحسين ظروف التفاوض ليس إلا.

***

والشعب المصري في عمومه ينتمي إلى المنهج الأول، والحكومات المصرية المتعاقبة تنتمي إلى المنهج الثاني.

الوجدان الشعبي في مصر

الوجدان الشعبي في مصر وجدان إسلامي تماما، فالشعب المصري شديد التمسك بالإسلام في كل قطاعاته الاجتماعية والمهنية والثقافية على السواء، وأنه فيما

عدا النخبة المغتربة – وهي قليلة العدد جدا لدرجة لا تكاد تذكر – فإن الإسلام يرسم كل شيء في مصر، الحياة، الموت، الفرح، الحزن، السلوك، الانتماء، العلاقات الاجتماعية، العلاقات الاقتصادية غير الحكومية.. إلخ بل نكاد نقول أن الإسلام هو المعيار الشعبي الوحيد المعمول به في مصر، وأن الوجدان الإسلامي يرتفع كثيرا في الأوساط الشعبية في القرى والمدن من خلال الارتباط بالمساجد والاحتفال بالمناسبات الدينية.

والثقافة الشعبية في مصر إسلامية تماما في الشكل والمحتوى، فالجميع يبدأ يومه بالصلاة ولا يأكل طعامه حتى يقول بسم الله الرحمن الرحيم ولا ينهيه حتى يقول الحمد الله، وكذلك عادات النظافة والمعاشرة الزوجية وكل شيء صغيرا كان أو كبيرا يستمد قيمته وشكله ومضمونه من الإسلام، بل وحتى فترات اللهو والمرح تأخذ بعدا دينيا مثل انتشار الألعاب في المناسبات الدينية والموالد – وحتى لو كان هناك اعتراض شرعي على مثل هذه الممارسات إلا أنها في مضمونها الأخير تعكس مدى الارتباط بين كافة نواحي النشاط الاجتماعي بما فيها اللهو واللعب بالوجدان الإسلامي، ولأن الشعب المصري لا يفهم ولا يتحرك إلا من خلال الإسلام فإن كل القوى السياسية في مصر تحاول أن تأخذ غطاء شرعيا إسلاميا سواء كانت صادقة أم كاذبة وبديهي أن يكون فيها الصادق والكاذب- ولكن هذا الخطاب الإسلامي الذي تقول به كل القوى السياسية يدل دلالة واضحة على مدى تغلغل الوجدان الإسلامي لدى المصريين.

وإذا انتقلنا إلى الثقافة الشعبية في مصر تجاه اليهود عموما وإسرائيل خصوصا نجد أن هذا الوجدان الشعبي يرى أن اليهود هم أعدى أعداء المسلمين وأن هؤلاء اليهود قد تآمروا على الإسلام دائما بل تآمروا على رسول الله ﷺ، ويرى الوجدان الشعبي أيضا أن فلسطين هي أرض الإسراء وأن المسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين وأن الدفاع عن تلك الأراضي المقدسة واجب شرعي وإسلامي، وأن ظهور إسرائيل جاء نتيجة تآمر غربي صليبي مع اليهود ضد الإسلام بهدف القضاء على الحضارة الإسلامية، وأن الصراع مع إسرائيل أمر حتمي وسيستمر إلى أن

تزول إسرائيل بـإذن الله، لأن زوال إسـرائيل حتمية قرآنيـة أكـدتها نصـوص القـرآن والسنة – راجع هذه النصوص في الفصل السابق – وبالتـالي فـإن رفـض السـلام مـع الكيان الصهيوني يستند إلى نصوص دينية وإن الجهاد ضـد إسـرائيل واجـب شـرعي للقضاء على الإفساد الإسرائيلي وتحرير كامل الأراضي المغتصبة.

ويستمع المصـريون كثيـرا مـن خـلال المسـاجد.. وخاصـة في ذكـرى الإسـراء والمعراج إلى الآيات التي تؤكد بركة فلسطين والقدس والمسجد الأقصى:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [الإسراء:١].

وهذه الآية الكريمة تقول أن المسجد الأقصى وما حولـه أي القـدس وفلسـطين أرض مباركة.

وفي سورة الأنبياء:

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:٧١].

وفي سورة سبأ:

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ [سبأ: ١٨].

وفي الحديث الشريف:

«**لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى**» رواه البخاري ومسلم

وفي العهدة العمرية – أي العهد الذي أعطاه عمر بن الخطاب رضي الله عنـه عنـد فتح القدس – « أن لا يسكن إيلياء القدس أحد من اللصوص واليهود » .

إذن ففلسـطين أرض مباركـة، والمسـجد الأقصـى هـو مسـرى رسـول الله ﷺ، والقدس ممنوع على اليهود سكناها وفقا للعهدة العمريـة وكـل هـذا يتكـرر كثيـرا في

الدروس الدينية الشعبية وخاصة في ذكرى الإسراء والمعراج.

وهذا بالطبع يجعل الوجدان الشعبي المصري في حالة الإيمان بواجب الجهاد ضد إسرائيل.

وعن أخلاق اليهود يسري في الوجدان الشعبي في مصر من خلال النصوص الدينية أن اليهود قساة القلوب – يغدرون بالعهد – قتلة للأنبياء جبناء .. إلخ

يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

ويقول تعالى: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ثم إنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

وهم يتطاولون على الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وأنهم دائما يريدون إشعال الحروب وأنهم مفسدون في الأرض: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وهكذا فإن الوجدان الشعبي في مصر مفعم بالكراهية لليهود، مفعم بحب المسجد الأقصى والقدس وفلسطين، ويرى أن اليهود هم أشد الأمم انحطاطا في أخلاقهم وأن الجهاد ضد إسرائيل واجب شرعي وحتمية تاريخية.

الاهتمام والتضامن منذ اللحظة الأولى وحتى عام ١٩٤٨

منذ البدايات الأولى للغزوة الصهيونية الاستعمارية – أظهر الشعب المصري اهتماما مبكرا وكبيرا، وهذا يعبر عن حقيقتين، هما شدة اهتمامه بتلك القضية ووعيه الفذ في نفس الوقت، بحيث أدرك مخاطرها الكبيرة قبل أن تتضح تلك المخاطر

تماما.

فالجمعية الشرعية ومثلا، قامت بإرسال كمية من المنسوجات إلى فلسطين لتوزيعها على المنكوبين سنة ١٩٣٠، يقول د. حامد الخطاب أن تلك المنسوجات أرسلت عن طريق سكة حديد مصر – فلسطين – وتلقى مجلس إدارة الجمعية رسالة محررة في ١٧ رجب ١٣٤٩ هـ الموافق ٨ كانون الأول « ديسمبر » ١٩٣٠ موقعا عليها من رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بفلسطين وهو الشيخ محمد أمين الحسيني يشكر الجمعية على تبرعها وتضامنها مع العالم الإسلامي، ويضيف د. حامد خطاب أن الشيخ الإمام مؤسس الجمعية الشرعية « الشيخ محمود خطاب السبكي » كان يشير في خطبه ودروسه إلى خطورة الصهيونية على العالم الإسلامي وضرورة التضامن ومساعدة الشعب الفلسطيني، وأن أعضاء الجمعية الشرعية كانوا يحملون الدفاتر في الأماكن العامة للتبرع للشعب الفلسطيني كما شاركت الجمعية في المظاهرات الصاخبة التي شهدتها القاهرة عقب الإعلان عن قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ مع غيرها من الجمعيات والهيئات الشعبية الإسلامية.

والإخوان المسلمون اهتموا منذ اللحظة الأولى بالقضية الفلسطينية باعتبارهم أنفسهم هيئة عالمية إسلامية تهتم بقضايا المسلمين في كل مكان – فما بالك بأن هؤلاء هم أهل فلسطين – أرض الإسراء ومكان المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين – وفي الحقيقة فإن القضية الفلسطينية كانت القضية المحورية والأولى في تفكير الإخوان المسلمين وحركتهم

يقول الإمام الشهيد حسن البنا « وفلسطين تحتل من نفوسنا موضعا روحيا قدسيا فوق المعنى الوطني المجرد، إذ تهب علينا منها نسمات بيت المقدس المباركة، وبركات النبيين والصديقين ومهد السيد المسيح عليه السلام » .

ويقول: « ولقد فهم المسلمون الأوائل ذلك وحققوه عمليا في خلافة عمر وعلى مسلمي اليوم أن يفهموا من هذه الآية:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا

حَوْلَهُ ﴾.

وأنه يجب عليهم حماية المسجد الأقصى وحراسته حتى يظل مسجدا إلى يوم القيامة ولا يعد معبدا يهوديا في يوم ما » .

وفي عام ١٩٣٨ حذر حسن البنا المصريين بقوله «أنهم سيضطرون إلى أن يدفعوا عن أنفسهم في المستقبل غائلة الخطر اليهودي الصهيوني بعد أن ترسخ قدمه على قيد خطوات من الحدود المصرية وحينئذ لا تنفع الجهود ويصدق علينا المثل القائل: «أكلت يوم أكل الثور الأبيض» .

وفي اجتماع لقيادات الإخوان عام ١٩٤٥ قال البنا « ونريد أن نؤمن حدودنا الشرقية بحل قضية فلسطين حلا يحقق وجهة النظر العربية ويحول دون تغلب اليهود على مرافق هذه البلاد، نحن نطالب بهذا لأنه تأمين لحدودنا ١٢٧ ومصلحة مباشرة لنا » .

ويقول حسن البنا: « إن الإخوان المسلمين يعارضون الهجرة اليهودية إلى فلسطين لأنها تنطوي على خطر سياسي واقتصادي وحقنا أن تكون فلسطين عربية » .

ويقول أيضا: « إن القضية الفلسطينية أعادت الجهاد إلى الواقع مرة أخرى وقد سرت روح الجهاد من الحرم المقدس إلى المسلمين والعرب في بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها » .

وفي عام ١٩٤٦ حذر حسن البنا الحكومة المصرية من خطورة المخطط اليهودي على سيناء وطالبها بالعمل على توطين المصريين فيها بإقامة المصانع والجامعات وتقوية شوكتها على حدود فلسطين » .

ويعتقد الإخوان أن الصراع بين المسلمين واليهود صراع له طبيعة خاصة تفرده عن سائر الصراعات الدولية. فمن هنا هم لا يجعلون من بين رسائل الحل ذلك الحل السلمي لأن الصراع في حقيقته، صراع بين الإسلام واليهودية منذ قيام الدولة الإسلامية الأولى » .

« إن التيار الإسلامي هو الذي قاد حركة الجهاد والمواجهة ضد العدو الصهيوني ومنذ بداية ظهوره على أرض فلسطين » .

يقول الأستاذ كامل الشريف « أخذ الإخوان يعقدون المؤتمرات ويبينون للشعوب حقيقة هذا الخطر الذي يهدد كيانهم ومستقبلهم حتى نجحوا في إشراك العالم الإسلامي كله في القضية الفلسطينية، وباتت قضية فلسطين هي قضية المسلمين والعرب لا قضية الفلسطينيين فقط. وحين قامت القلاقل في فلسطين أخذوا يمدون المجاهدين بما يقع في أيديهم من مال وسلاح حتى كانت ثورة ١٩٣٦ حين نجح عدد من شبابهم في التسلل إليها والاشتراك مع الثوار في جهادهم وخاصة في مناطق الشمال حيث عملوا مع المجاهد العربي الكبير « الشيخ عز الدين القسام ». وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية أخذ الإخوان يعملون للقضية عملا إيجابيا فأرسلوا وفودًا من دعاتهم وشبابهم يؤلبون العرب ويستحثونهم للكفاح، ويتولى نفر منهم تدريب الشباب الفلسطيني تدريبا عسكريا ولقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد حتى أصبحت شعبهم ودورهم هي مراكز لقيادة وساحات التدريب، ولا يزال أهل فلسطين يذكرون للداعية الإسلامي سعيد رمضان مواقفه الكريمة وأثره البالغ في توجيه الشباب العربي وجهة صالحة ويذكرون بالفخار والإكبار جهود الأساتذة عبد الرحمن الساعاتي وعبد المعز عبد الستار وعبد العزيز أحمد وغيرهم من كرام الدعاة والمدربين » .

ولعل مقال الكاتبة الصهيونية « روث كاريف » .المنشور في صحيفة « الصنداي ميرور » في مطلع عام ١٩٤٨ والذي نقلته جريدة المصري في نفس الوقت يبين مدى الجهود التي قامت بها جماعة الإخوان المسلمين من أجل القضية الفلسطينية، تقول كاتبة المقال « إن اليهود في فلسطين هم أعنف خصوم الإخوان المسلمين، ولذلك كان اليهود الهدف الأساسي لعدوان الإخوان، وقد قام أتباعهم بهدم أملاك اليهود ونهب أموالهم، وأنه يجب على العالم التدخل للقضاء على الإخوان المسلمين وإلا قامت إمبراطورية فاشية إسلامية تمتد من شمال أفريقيا إلى الباكستان ومن تركيا إلى المحيط الهندي »

وفي الحقيقة فإن جهود الإخوان المسلمين في مصر من أجل القضية الفلسطينية قد شملت كل مجال تقريبا بدءا من دروس الإمام الشهيد وتصريحاته ومرورا بحملات التوعية للشعب من خلال المساجد والصحف والمجلات وانتهاء بمد يد العون المادي والأدبي للشعب الفلسطيني، وفي هذا الصدد فإن مفتي الإخوان الشيخ سيد سابق – وهو عضو مجلس الإرشاد – قد أفتى بتأجيل فريضة الحج وتقديم المال والنفس للجهاد في فلسطين ».

وفي تلك الحرب – أي حرب ١٩٤٨ – قام الإخوان بالضغط على الحكومة المصرية لدخول الحرب من ناحية، كما قاموا بالدعوة للتطوع والتبرع وتم إنشاء معسكرات التدريب كما تم إرسال المتطوعين إلى فلسطين الذي قدموا أروع الأمثلة في الشجاعة والفدائية وحققوا العديد من الإنجازات، ولولا خيانة الحكام العرب لكان الوضع مختلفا.

يقول اللواء فؤاد صادق قائد القوات المصرية في حرب ١٩٤٨ « كان الإخوان المسلمون جنودا أبطالا أدوا واجبهم كأحسن ما يكون » ويقول اللواء المواوي في شهادته « كان الإخوان المسلمون ينزعون ألغام اليهود وينسفونهم بها في صحراء النقب » .

وقد جفلت سجلات حرب فلسطين ١٩٤٨ بالكثير من بطولات وشخصيات الإخوان المسلمين مثل معركة كفار ديروم ١٤ أبريل ١٩٤٨، ومعركة صور باهر، والتبة ٨٦ وغيرها من المواقع، وكذلك الدفاع عن بيت لحم والخليل وبيت المقدس وغيرها، كما لمعت أسماء مثل أحمد عبد العزيز وعبد اللطيف أبو قوره وعبد الجواد طباله ومحمود عده وغيرهم من المقاتلين والشهداء.

كما نظمت الجماعة العديد من العمليات ضد المصالح اليهودية في مصر وخاصة ضد ممتلكات هؤلاء اليهود الذين أبدوا التأييد والدعم لإسرائيل .

ففي يونيو ١٩٤٨ اشتعلت النيران في الحي اليهودي وحينما ألقت الطائرات الإسرائيلية قنبلة على أحد أحياء القاهرة الآهلة بالسكان في يوليو ١٩٤٨. وقع انفجار

بعده بيومين في محلين تجاريين مملوكين لليهود « شيكوريل وأوركو » وتبع ذلك حوادث مماثلة مثل جاتينيو وبنزايون وغيرها .

وقد اتهمت دوائر الإخوان هؤلاء اليهود المصريين بأنهم يهربون السلاح إلى يهود فلسطين عن طريق القواعد الإنجليزية في القناة .

وفي الحقيقة فإن الإخوان وبسبب حماسهم الكبير وإسهامهم الهائل في دعم القضية الفلسطينية في ذلك الوقت قد دفعوا ثمن هذا حيث ضغطت القوى الدولية على الحكومة المصرية لحل جماعة الإخوان، بل واعتقل المجاهدون الإخوان الذين كانوا في فلسطين وقتها وأعيدوا إلى مصر مقيدين بالأغلال المصرية، بل وتم اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا للسبب ذاته في عام ١٩٤٩ .

الكفاح الشعبي المصري ضد الدولة اليهودية

بعد قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ نتيجة أخطاء أو خيانات القادة العرب، لم ينقطع الكفاح الشعبي المصري ضد الكيان الصهيوني، وأخذ هذا الكفاح أساليب ووسائل جديدة إلا أن أهدافه ظلت ثابتة.

فقد استخدمت جماعة الإخوان المسلمين قطاع غزة – الذي أصبح تابعا للإدارة المصرية عقب حرب ١٩٤٨ – مركز الانطلاق للعمل الفدائي ضد الكيان الصهيوني يقول الدكتور عبد الله أبو عزه « كانت هناك رابطة قوية بين جماعة الإخوان في مصر وجماعة الإخوان في قطاع غزه قبل سقوطه في يد اليهود عام ١٩٦٧، وكان القطاع يضم ثماني شعب للإخوان هي المكتب الإداري – الرمال – الشجاعية والنصيرات والبريج ودير البلح وخان يونس ورفح. وكانت الشعب كلها تتبع المكتب الإداري».

ويضيف الدكتور عبد الله أبو عزه « وكان القطاع يستقبل الدعاة من حين لآخر وكانت ثمة صلة قوية مع الإخوان في العريش ومما قوى هذه الصلات وزاد من أهميتها أن الأستاذ كامل الشريف كان من أبرز الشخصيات الإخوانية في العريش كما كانت إحدى الشخصيات المرموقة لدى القيادة العليا للإخوان في القاهرة، ونظرا لأنه سبق له أن قاد الإخوان المسلمين في حرب فلسطين فقد كان على صلة وثيقة

بعدد من رجال القطاع . » ويحكي الأستاذ أبو عزه عددا من العمليات الفدائية التي نظمها إخوان مصر بالتعاون مع إخوان قطاع غزه مثل زرع الألغام ضد وسائل النقل الإسرائيلية المدنية والعسكرية، واستمرت تلك العمليات بعد ١٩٥٢ إلا أن الحكومة المصرية حاولت محاصرتها ومنعها مما أدى إلى انفجار المظاهرات ضد الحكومة المصرية في قطاع غزه .

وفي أثناء حرب ١٩٥٦ طلب عدد من الإخوان المسلمين الموجودين في السجون المصرية التطوع للقتال ضد اليهود إلا أن طلبهم رفض مع أنهم تعهدوا بالعودة إلى السجون بعد انتهاء المعركة، بل أكثر من هذا تمت عملية فصلهم في مكان واحد وإطلاق الرصاص عليهم فيما بعد في ١ – ٦ – ١٩٥٧ فيما يعرف بحادث طره.

ومع التقييد المستمر لحركة الشعب المصري عن طريق الديكتاتورية والقمع في الخمسينيات والستينيات ضعف الكفاح الشعبي المصري ضد الكيان الصهيوني مؤقتا وانتهى الأمر بهزيمة ١٩٦٧ التي لعبت الخيانة والإهمال دورهما في حدوثهما ومع انفراج الأوضاع نسبيا بعد سنة ١٩٧١ ظهر الكفاح الشعبي المصري ضد الكيان الصهيوني من جديد، فكان مطلب الحرب على رأس مطالب الحركة الطلابية المصرية، كما نشط علماء الدين الشرفاء من أمثال الشيخ المجاهد حافظ سلامة في عمل قوافل التوعية الدينية لقوات الجيش والتركيز على بعد الجهاد وأهميته وفضل المجاهدين، مما كان له أكبر الأثر على الأداء الرائع للجيش المصري سنة ١٩٧٣، وفي ذلك الوقت – أي قبل حرب ١٩٧٣ – كان يوجد تنظيم مسلح يقوده فلسطيني هو الدكتور صالح سريه يعمل في مصر ويضم العديد من طلاب المدارس والكليات العسكرية وبعض المدنيين ويهدف هذا التنظيم إلى القيام بانقلاب مسلح في مصر. باعتبارها أحد دول المواجهة وإقامة نظام إسلامي فيها يحقق تحرير فلسطين. وقد انكشف هذا التنظيم فيما بعد سنة ١٩٧٤ فيما عرف بتنظيم الفنية العسكرية وقد تمت محاكمة أعضائه وإعدام قادتهم .

وفي أثناء حرب ١٩٧٣ أظهر الشعب المصري الكثير جدا من التضامن مع الجيش بأكثر من صورة. فتوقفت جميع أنواع الجرائم تلقائيا كما تبرع جميع الأهالي

تقريبا بالمال والمؤن للجيش وكذلك التبرع بالدم لدرجة أن بنوك الدم لم يعد بها مكان خال للمزيد من الدم .

وعندما حدثت الثغرة – في الدفرسوار – قررت جماعة الجهاد – وهي جماعة سرية لم يكن أحد يعرف عنها شيئا حتى ذلك الوقت – الذهاب إلى منطقة الدفرسوار وقتال اليهود باعتبار ذلك واجبا شرعيا وقد اشتركت عناصر هذه الجماعة مع أفراد الجيش في القتال في تلك المنطقة مما أدى فيما بعد إلى انخراط العديد من العسكريين في صفوف الجماعة مثل عصام القمري وغيره .

وتعد معركة السويس من أهم المشاركات الشعبية المصرية في حرب ١٩٧٣، وكانت القوات الإسرائيلية قد نجحت في الوصول إلى مشارف السويس يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣، ولو نجحت في دخولها لكان معنى ذلك أن حبلا قد التف حول رقبة الجيش الثالث في سيناء وأن مسدسا قد أصبح مصوبا للقاهرة عن طريق القاهرة – السويس، إلا أن شعب السويس قرر الصمود والقتال ونجح في منع القوات الإسرائيلية من دخول المدينة – وقد قاد تلك العملية الشيخ المجاهد حافظ سلامة وكان مسجد الشهداء بالسويس هو مركز قيادة المعركة، وقد استطاع المجاهدون من شعب السويس تحقيق الكثير من البطولات على مشارف السويس ويداخلها في أيام ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣، وبرزت أسماء شهداء مثل إبراهيم محمد سليمان وإبراهيم محمد يوسف وأشرف عبد الدايم وسجلت يوميات معارك السويس معارك حي الأربعين ومعركة مسجد الشهداء التي حاول اليهود فيها السيطرة على المسجد باعتباره مقر القيادة إلا أن تلاحم شعب السويس حال دون ذلك، وقد اضطرت إسرائيل في النهاية إلى إلغاء العملية بعد أن وجدت أن تكاليفها باهظة .

تفاصيل بعض عمليات الكفاح المسلح

الإخوان المسلمون في حرب فلسطين الأولى

أيقن الإخوان المسلمون في سنة ١٩٤٧ أن المخطط الصهيوني بالتواطؤ مع الإنجليز قد أصبح وشيك التحقيق لإقامة إسرائيل وهكذا كان لابد من الإعداد

للجهاد والمعركة.. وبدأ الإخوان المسلمون يجمعون السلاح ويقيمون معسكرات التدريب ويدعون الشعب للتطوع والتدريب على السلاح، كما نجح عدد من عناصر الإخوان في الدخول إلى فلسطين والمشاركة في حرب العصابات قبل بدء معركة ١٩٤٨. وكان نشاط الإخوان في التسلل إلى فلسطين وتنظيم حرب العصابات ذا أثر كبير لدرجة أن اليهود كانوا يعتبرون الإخوان « مجرمي حرب » وعلى ذلك لم يكن اليهود يعاملونهم معاملة أسرى الحرب بل كانوا يقتلونهم ويشوهون أجسادهم. ويحكي الأستاذ كامل الشريف الذي كان قد تسلل إلى فلسطين أنه شاهد بنفسه اليهود يمسكون بالمجاهد الكريم « مختار منصور » من إخوان القاهرة في إحدى المعارك التي دارت حول مدينة يافا ويقذفون به إلى إحدى مصفحاتهم ثم يطلقون عليه الرصاص .ولم يكن حال الإنجليز تجاه المجاهدين المسلمين بأحسن من حال اليهود فقد كانت سلطات الاحتلال الإنجليزية في مصر وفلسطين على حد سواء تقوم بمطاردة المجاهدين وتمنع وصولهم إلى فلسطين أو تقبض على من وصل منهم إلى فلسطين وتحاكمه؟

وما إن تم إعلان قيام الدولة اليهودية في عام ١٩٤٨ حتى كان الإخوان يبادرون إلى إدخال أفواج من المجاهدين إلى فلسطين.

وبرغم أن حكومة النقراشي رفضت طلبا للإخوان لمرابطة مجاهديهم في الجزء الشمالي لصحراء النقب إلا أن الإخوان نجحوا بالحيلة والتسلل في اختراق الحدود والوصول إلى فلسطين. وقد وصل الفوج الأول من المجاهدين في فبراير ١٩٤٨ وبدأ هذا الفوج القتال الفعلي مع اليهود في صحراء النقب فأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية بعناد وصلابة رغم ضعف عدده وعتاده

ومن المعارك الهامة التي خاضها الإخوان المسلمون في فلسطين معركة كفار ديروم الأولى، وهي مستعمرة صهيونية تقع على طريق المواصلات الرئيسي الذي يربط مصر بفلسطين. هاجم الإخوان تلك المستعمرة في صباح ١٤ أبريل سنة ١٩٤٨ اجتازوا الأسلاك الشائكة وطهروا الألغام والتحموا في معركة قاسية مع القوات الصهيونية وأوقعوا بها العديد من الخسائر وسقط العديد من شهداء الإخوان بعد أن

أبلوا بلاء حسنا، مثل الشهيد عمر عبد الرؤوف والمجاهد عبد الرحمن عبد الخالق. ونجح الإخوان من خلال سلوكهم الطيب وأخلاقهم الرفيعة وشجاعتهم الفائقة أن يكتسبوا ثقة رجال القبائل الفلسطينية وقام الإخوان بتنظيمهم وتوجيه حركتهم وقيادتهم في المعارك ضد اليهود. واستطاع الإخوان أيضا أن يقيموا عددا من التحصينات وأن يصمدوا للعديد من موجات الهجوم اليهود، مثل ذلك الهجوم الذي قام به اليهود على مقربة من « خربة أبو معلق » وأن يوقعوا باليهود هزيمة فادحة ويرغموهم على التقهقر بعد تدمير عدد من المصحفات نظير شهيد واحد خسره الإخوان هو المجاهد سيد حجازي وعدد من الجرحى منهم قائد الموقع في تلك الفترة المجاهد «محمد الفلاحجي » من إخوان الدقهلية.

ومن الشخصيات المميزة في شباب الإخوان المجاهدين الشهيد أحمد عبد العزيز الذي كان يتمتع بجرأة غير عادية وولع شديد بالمغامرة، وقد دخل أحمد عبد العزيز غزة بقواته وهاجم المستعمرات الواقعة فيها وخاض المعارك في خان يونس وكفار ديروم التي نجح في اقتحامها في النهاية وغنم المجاهدون في تلك المعركة خمس عشرة مصفحة ضخمة مشحونة بأحدث طراز من الأسلحة والذخائر ومواد التموين.

أما المجاهد محمود عبده فقد انهمك العدو بغاراته المتواصلة على مواصلاته ومراكزه وأخذ يبعث بالدوريات المسلحة لتجوب الصحراء وتعترض طريق القوافل وترغمهم على الفرار خلفها تاركة الكثير من الأسلحة والمعدات. ولقد حاول اليهود في ٧ مايو توصيل بعض المؤن إلى مستعمراتهم المحصورة، وكان الطريق الذي يسلكونه يمر فوق جسر مقام على أحد الأودية العميقة فقرر الإخوان نسف هذا الجسر لحظة مرور القافلة فوقه، وقامت بالفعل قوة من بئر السبع بقيادة المجاهد «علي صديق» وثبتت الألغام تحت الجسر واختبأت داخل الشعاب والمنحنيات القريبة ولم يطل بها الانتظار إذ تقدمت قافلة للعدو وهي جاهلة تماما ما ينتظرها فيما أن توسطت الجسر حتى انفجرت الألغام الهائلة وتطايرت أجزاء الجسر في الهواء وانقلبت المصفحات في الوادي السحيق، وانتهز الإخوان الفرصة فقاموا بحصد أرواح المقاتلين اليهود وأسفرت المعركة عن قتل عدد كبير من جنود الأعداء وأسر

عدد آخر وغنم المجاهدون عددا من المصفحات.

وفي إطار معارك الإخوان في فلسطين قام المجاهدون من الإخوان المسلمين بالدفاع المستميت عن مدينة بيت لحم وهي مدينة مسيحية مقدسة، وكان العدد الكبير من الإخوان الذي استشهد على أسوارها دليلا على أن الإسلام دين غير طائفي وأن الحركة الإسلامية حركة غير طائفية وأن تلك الحركة – ممثلة في الإخوان المسلمين – ترى أن مسيحيي الشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية في مواجهة الحضارة الغربية.

وحول مدينة بيت لحم سجلت معارك فلسطين قيام الإخوان بعملية جريئة لاقتحام مستعمرة راماث رحيل التي دخلها الإخوان يوم ٢٦ مايو وأبادوا كل من فيها من جنود الهاجاناه وبلغ عدد القتلى اليهود في تلك المعركة حوالي المائتين.

وتكرر الأمر نفسه في مستعمرة تل بيوت حيث هاجمها الإخوان المسلمون بقيادة المجاهد « حسن حجازي » وتم تدميرها تماما وقد سجلت الصحف المصرية أنباء هذه المعركة وأشادت بشجاعة الإخوان المسلمين .

ومع دخول الجيش المصري إلى فلسطين قامت عناصر الإخوان بالعديد من العمليات المتميزة لخدمة هذا الجيش مثل التسلل خلف خطوط العدو أو نسف طرق مواصلاته أو غيرها من المهمات الخاصة مثل قطع خطوط مواصلات مستعمرة « بادمرد خاي » في ١٦ مايو ١٩٤٨

ومع كل هذه البطولات التي أوجزنا جزءا صغيرا جدا منها – ويمكن مراجعة الباقي في كتاب كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين – صدر قرار بحل جماعة الإخوان، ومع ذلك استمر الإخوان داخل فلسطين يؤدون واجبهم استجابة لنداء حسن البنا الذي قال فيه « أيها الإخوان لا يهمكم ما يجري في مصر، فإن مهمتكم هي مقاتلة اليهود ومادام في فلسطين يهودي واحد فإن مهمتكم لم تنته »

ومن المعارك المتميزة التي قام بها الإخوان المسلمون بعد قرار الحل « معركة التبة ٨٦ » ومعركة ديم «دير البلح » وغيرها من المعارك.

معركة السويس – أكتوبر ١٩٧٣

استطاع الجيش المصري وانطلاقا من صيحة الله أكبر والإعداد العسكري والسياسي الجيد أن يحقق نصرا عظيما وأن يعبر قناة السويس ويقيم رؤوس جسور في الضفة الشرقية للقناة، وحاولت إسرائيل الالتفاف حول هذا النصر وتفريغه من مضمونه فقامت بعملية الثغرة في منطقة الدفرسوار ونجحت في الوصول إلى مشارف مدينة السويس، واستهدفت تلك القوات احتلال مدينة السويس لاستكمال حصار الجيش الثالث في سيناء وتهديد القاهرة في نفس الوقت – ولو حدث هذا لا قدر الله لكان نصر رمضان قد تلاشى وأصبح غير ذي موضوع.

كانت القوات الصهيونية قد وصلت إلى مشارف مدينة السويس يوم ٢٢ أكتوبر حيث حاصرت المدنية ومنعت خروج قوافل الجرحي منها وقد أحس أهل السويس بأن مدينتهم محاصرة. فتحركوا بوعي ووجدان إسلامي إلى مسجد الشهداء وهو مسجد تابع لجمعية الهداية الإسلامية التي يرأسها الشيخ المجاهد حافظ سلامة – ويتدارك الأهالي الموقف ويبرز الشيخ حافظ سلامة كقيادة طبيعية لهم وبرغم أن الأوضاع التموينية والمعيشية والعسكرية للمدينة كانت سيئة للغاية فإن الأهالي بقيادة الشيخ حافظ سلامة قد قرروا الصمود والقتال حتى النهاية، وبادروا إلى العمل، فأمر الشيخ حافظ سلامة بوضع بعض السيارات المحترقة والقديمة في مداخل المدينة كما قام بإعداد مجموعة من الكمائن حول مداخل المدينة.

بدأت القوات الإسرائيلية في التحرك لدخول المدينة يوم ٢٤ أكتوبر وتصدى الكمين الأول لمجموعة من الدبابات الإسرائيلية مكونة من ثلاث عشرة دبابة ويصيب الكمين الأول دبابة وتفر باقي الدبابات ليتصدى لها كمين آخر موجود فوق مقهى أبو حجازية ويصيب منها دبابة أخرى وتفر باقي الدبابات ليتصدى لها كمين ثالث موجود فوق عمارة رونكا مما يجعل الدبابات تفر باتجاه بورتوفيق حيث وقعت في حقل ألغام هناك.

وتحاول مجموعة أخرى من الدبابات والمصفحات دخول المدينة فيتصدى لها

الكمين الأول حيث يصيب دبابة ثم توباز مما يشل حركة المجموعة فتفر باتجاه قسم شرطة الأربعين واستطاع اليهود محاصرة ضباط وجنود القسم في الخندق ونجحوا في دخول القسم، ولكن أهالي السويس بقيادة المجاهد إبراهيم سليمان وأشرف عبد الدايم وإبراهيم محمد يوسف عزموا أن يخوضوا معركة كبيرة داخل القسم ويطهرونه من قوات الاحتلال مما اضطر القوات الإسرائيلية إلى الانسحاب عن طريق سطح القسم بطائرات الهليوكوبتر وتركوا خلفهم ٣٣ جثة يهودية (١٥٠). وفي يوم ٢٥ أكتوبر قدم اليهود إنذارا نهائيا للمدنية بالتسليم، وقد قبل محافظ السويس الإنذار وقرر تسليم المدينة، إلا أن الشيخ حافظ سلامة يرفض هذا الأمر وقرر استمرار المقاومة وأصدر بيانا تاريخيا عن طريق مكبر الصوت التابع لمسجد الشهداء قال فيه « بسم الله الرحمن الرحيم، نداء إلى المواطنين، بعد حمد الله تبارك وتعالى والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسول الله، إن اليهود قد أنذروا المدينة بالاستسلام وأن المدينة قد قررت رفض الإنذار بإذن الله تعالى ومواصلة القتال إلى آخر قطرة من دمائنا، وعلى كل فرد من أفراد المقاومة أن يظل في موقعه ويدافع عنه إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، وما النصر إلا من عند الله ».

وإزاء هذا الموقف قررت القوات الإسرائيلية السيطرة على مسجد الشهداء باعتباره مركز قيادة المقاومة الشعبية، وتحاصر الدبابات الإسرائيلية منطقة مسجد الشهداء وعملت كردون من سبع دبابات حولها، وثلاث مصفحات وتستطيع مصفحة واحدة منها أن تصل إلى أول شارع الشهداء وتضرب ضربات استكشافية فأصابت واحدة منها المسجد وأصابت بعض الضربات عددا من المنازل، بل واستطاعت دبابة أن تصل إلى منطقة المسجد بينما وقفت أخرى في أول الشارع وثالثة في مدخل شارع سعد زغلول، ولكن شعب السويس تدافع للدفاع عن مقر قيادته ومركز مقاومته واستطاع شعب السويس أن يدمر هذه الدبابات وأن يجبر الباقية على الفرار.

وفي يوم ٢٦ أكتوبر وهو يوم عيد الفطر، كان هناك اتجاهان الاتجاه الأول يرى إقامة صلاة العيد على أساس أن هذا إظهار للتحدي أمام اليهود، والاتجاه الثاني هو

عدم الصلاة على أساس أن صلاة العيد سنة وليست فرضا وأن المدفعية والطيران الإسرائيليين يمكنهما أن يصيبا المسجد والمصلين.

وانتصر الرأي الأول – وبدأ التكبير والتحميد وتوافدت الجماهير إلى المسجد لتعلن التحدي، وكذلك جاء أفراد الجيش الثالث لأداء الصلاة وازدحم المسجد وخارج المسجد بالمصلين، وتقام الصلاة والطائرات تحوم وتقصف والمدفعية تطلق ضرباتها دون أن يصاب المسجد أو المصلون بأي أذى لأن الله كان هو الحارس

الله أكبر لا إله إلا الله

الله أكبر ولله الحمد

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا

والله أكبر أعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

وفي نفس هذا اليوم – أي يوم العيد – يشتبك المجاهدون أمام مدرسة التجارة الثانوية مع الدبابات الإسرائيلية ويصيبون بعضها ويصاب سور المدرسة ويسقط شهيد.

وعند مصنع الأزرار يشتبك كمين من المجاهدين مع الدبابات الإسرائيلية ويصيب بعضها ويسقط شهيد آخر.

وعند وابور المياه يشتبك المجاهدون مع دبابة كانت تريد اقتحام وابور الماء واحتلاله فيدمرها المجاهدون، وكانت الحصيلة ٦ دبابات إسرائيلية مدمرة وعشرات القتلى والجرحى اليهود.

وتستمر المدينة في الصمود وتستعصي على القوات الصهيونية، برغم حصار الجوع والعطش، وبرغم الضرب المدفعي وقصف الطائرات المستمر.

عمليات منظمة ثورة مصر

تخلص وقائع الأحداث في منظمة ثورة مصر إلى أن عددا من الشباب الوطني الحريص على العبادات والشعائر الإسلامية ، وكان عدد منهم من العسكريين السابقين أو الحاليين مثل محمود نور الدين والعقيد محيي الدين عدلي « ضابط بالقوات المسلحة المصرية » والمقدم أحمد على والرقيب أول قوات جوية « أسامة خليل »، والشيخ حامد إبراهيم يوسف « مساعد بالقوات المسلحة » والعميد حسن هوان، والعقيد ممدوح عدلي، ومن المدنيين أحمد عصام، نظمي شاهين، حماده شرف، إسماعيل عبد المنعم إسماعيل، الدكتور حمدي موافي، سامي فيشه، جمال عبد الحفيظ.

وقد قام هذا التنظيم بعدد من العمليات الجريئة ضد العناصر الأمريكية والصهيونية في مصر، ففي ٤/ ٦/ ١٩٨٥ تم إطلاق الرصاص على زيفي كيدار مسئول الأمن بالسفارة الإسرائيلية بالقاهرة، وقد نفذ هذه العملية كل من محمود نور الدين، نظمي شاهين، حماده شرف، سامي إبراهيم.

وفي ١٩/ ٣ / ١٩٨٦ تم تنفيذ عملية المعرض كاحتجاج على المشاركة الإسرائيلية في معرض القاهرة الدولي للكتاب وقد ترتب على هذه العملية جرح أربعة إسرائيليين، وقد نفذ هذه العملية كل من محمود نور الدين، نظمي شاهين، محيي عدلي، أحمد علي، سامي إبراهيم، حمادة شرف الدين، جمال عبد الحفيظ، أحمد عصام.

وفي ٢٦ مايو سنة ١٩٨٧ تم تنفيذ عملية إطلاق الرصاص على عدد من الأمريكيين العاملين في المخابرات الأمريكية مثل جون هوكي وجون فورد ودينيس ويليافر، وقد نفذ هذه العملية كل من محمود نور الدين، نظمي شاهين، سامي فيشه، حماده شرف الدين.

سليمان خاطر – حادث رأس بركة

في يوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٨٥ – قبيل الغروب – كان الجندي سليمان خاطر في خدمته التي بدأت الساعة الثانية ظهرا على نقطة مرتفعة عن الأرض ١٥٠ مترًا، في

مكان على هيئة صحن. جلس الجندي سليمان خاطر وتحته الخليج، ومعه السلاح الذي كان جاهزًا ومعمرًا كعادة سليمان خاطر دائمًا، صعدت مجموعة من اليهود أكثر من « ٧ » إلى المكان الذي كان يحرسه سليمان خاطر، أطلق سليمان النار على اليهود، مات ٧ وجرح اثنان، كان القتلى، هم شلاح عامان – يوم أمير – باري دين – جوريفل أبيتا – شيلا زيلبل – أو فرى توريل – شيلاك إيلانا والجريحان هما أجوديوم، موشي يوم ونجا عدد آخر حيث فروا منه وكان السلاح المستخدم في الحادث هو البندقية الآلية رقم ١٢٢٣٤٠٨ عيار ٧.٦٢ × ٣٩. تمت العملية قبيل الغروب.

ملامح شخصية سليمان خاطر

سليمان محمد عبد الحميد خاطر – ٢٥ سنة – مواليد سبتمبر ١٩٦٠ من بلدة أكياد مركز فاقوس، محافظة الشرقية، له خمسة أشقاء هو أصغرهم، من أسرة ريفية متدينة، جند في ٤ – ١٠ – ١٩٨٢ وانضم إلى قوات الأمن المركزي بسيناء في ١ – ٦ – ١٩٨٣، حصل على الثانوية العامة العام ١٩٨٣ القسم الأدبي، التحق بكلية الحقوق جامعة الزقازيق، نحيل الجسم، نظيف الملبس في غير تكلف، طويل الجسم وسيم.

« وديع – هادئ متدين – معتز بكرامته – صريح وصامت، يؤدي جميع فراض الصلاة في الجامع، يصوم الاثنين والخميس أسبوعيا، يصلي إماما بالناس في الجامع، لا يعرف العلاقات المنحرفة، ودائما متوضئ وعارف ربنا » .

« مسلم غيور على دينه وكرامة بلده » .

« مواظب على الصلاة وليس له مشاكل مع زملائه وليست له تصرفات مريبة أو شاذة » .

« كويس ومؤدب وسلوكه عادي جدا ويصلي كما نصلي جميعا » .

« إنني أومن بالله عز وجل ولا أخشى الإعدام، وكل ما أخشاه أن يكون الحكم

علي سببا في تردد أو تخاذل الجنود لأنهم يخشون حسابًا جائرا على أداء الواجب » .

« طول عمرنا نعرف أن اليهود أعداء الله والرسول وأعداء المسلمين، ولقد فرحت لأن ابني قتل اليهود » .

وقد نشرت الصحف بعض الصور لسليمان خاطر، وقد كتب على بعض البراميل في وحدته شعارات مثل الله أكبر ولله الحمد، الله غايتنا والرسول زعيمنا والإسلام ديننا وغيرها من الشعارات الإسلامية.

هذا وقد تم اغتيال سليمان خاطر في السجن الحربي في ظروف مريبة وادعت الأجهزة الرسمية أنه مات منتحرا، وقد حدث تعاطف شعبي واسع مع سليمان خاطر وانفجرت العديد من المظاهرات الصاخبة في الزقازيق والقاهرة والمنصورة وغيرها من المدن المصرية.

وقد حاولت الدوائر الإعلامية المشبوهة سحب الرصيد السياسي للحادث عن طريق ادعاء أن سليمان خاطر كان مختلا عقليا وهو الأمر الذي لم يثبت على الإطلاق.

سيد نصير – إعدام كاهانا

بينما كان الحاخام مائير كاهانا . يلقي خطابا في نحو ستين رجلا من أنصاره في صالة المؤتمرات في الطابق الأول من فندق هالموران هاوي بحي مانهاتن بمدينة نيويورك في مساء يوم ٦ نوفمبر ١٩٩٠ دخل إلى القاعة شاب نحيف ذو لحية تظاهر بالاستماع إلى محاضرة كاهانا. قال كاهانا كلامه التقليدي الذي يقوله في كل محاضرة « وليس أمام عرب فلسطين إلا الموت أو الطرد » قالها بصوت عال فيه نبرة غطرسة وغرور، بينما قال الشاب النحيف لنفسه بصوت لم يسمعه أحد « فلسطين إسلامية رغم أنف الصهيونية ».

وعندما وقف مائير كاهانا يتلقى بعض الأسئلة من الحاضرين – اتجه نحوه الشاب النحيل « سيد نصير » في هدوء وثبات وكان مبتسما وبادره بإطلاق رصاصتين أصابت إحداهما عنق الحاخام وأصابت الثانية صدره ونقل الحاخام إلى المستشفى

الذي أعلن وفاته بعد خمسين دقيقة من وصوله.

خرج سيد نصير من الفندق بعد أن جرح برصاص أحد الزبائن، وبينما كان يستعد لإجبار سيارة أجرة على نقله حاول رجل شرطة – متقاعد تصادف وجوده في المكان في ذلك الوقت – اعتراض طريقة فتبادل معه إطلاق الرصاص وأصيب كل منهما.

انتقل السيد نصير إلى المستشفى، ووضع تحت حراسة مشددة، وعندما علم بموت كاهانا برصاصات مسدسه ابتسم في سعادة، لقد أدى شيئا من واجبه نحو فلسطين، نحو القدس، نحو أمته الإسلامية.

ملامح الشخصية والدوافع

سيد عبد العزيز نصير – مواليد بورفؤاد عام ١٩٥٥، تخرج في كلية الفنون التطبيقية بجامعة حلوان عام ١٩٧٨، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ١٤ – ٧ – ١٩٨١، تزوج من فتاة أمريكية مسلمة.

يقول أحد زملائه « إنه ملاك، لا يعرف الكذب والخداع، لم يتغير فيه شيء منذ جاء إلينا، زوجته سيدة فاضلة، إنه إنسان فريد، لا يتكلم كثيرا، لم أر دموعه إلا عندما وصلت إلينا أنباء مذبحة المسجد الأقصى التي دبرها الإرهابيون اليهود » .

أما الأب عبد العزيز نصير فيقول « سيد كان تقيا يعرف الله تعالى وكان محبوبا من الجيران– دائم التردد على المساجد. زوجته ترتدي الحجاب وكان مشهورًا بالأدب وحسن السلوك » .

ويقول شقيقه محمد نصير « أن سيد فعل هذا دفاعا عن كل المسلمين » .

وقد أثبتت التحقيقات الصحفية والحوارات الشخصية المختلفة مع سيد نصير من خلال المحامين المصريين وغيرهم أنه قام بهذا العمل انتقاما لمذبحة المسجد الأقصى التي قام بها اليهود في شهر أكتوبر ١٩٩٠ أي قبل أقل من شهر على هذا الحادث .

أيمن محمد حسن وحادث نقطة البرج

أيمن محمد حسن، من مواليد محافظة الشرقية سنة ١٩٦٧، مجند بقطاع وسط سيناء للأمن المركزي، متدين هادئ الطباع، يقرأ الكتب الدينية، يحفظ القرآن الكريم، وسيم الشكل والملامح، طويل، قوي البنية، بطل مصارعة سابق .

يقول أيمن: إنه نفذ العملية انتقاما للمذابح التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني على يد اليهود وخاصة مذبحة المسجد الأقصى في أكتوبر ١٩٩٠، وأنه فعل ذلك لإكمال مسيرة سليمان خاطر وسيد نصير، وأن يكون واحدا من هؤلاء المجاهدين في سبيل الله باعتبار الجهاد ذروة سنام الإسلام. ويضيف أيمن أن فكرة الانتقام ظلت تراوده وتلح عليه إلى أن نفذها في النهاية .

ويحكي أيمن في تحقيقات النيابة العسكرية، أنه في يوم ٢١ – ١١ – ١٩٩٠ قرر أيمن أن ينفذ العملية وبدأ بالخطوات العملية لتحقيق ذلك، وفي يوم ٢٤ – ١١ – ١٩٩٠ أخذ أيمن يفكر ولم يقبل تناول الطعام وكان يفكر في كيفية دخول الأراضي المحتلة، يقول أيمن « عرفت في ذلك اليوم أنني فرد خدمة على نقطة البرج من الساعة العاشرة مساء إلى الثالثة صباحا وأخذت أفكر كيف أجهز السلاح والذخيرة اللازمة لتنفيذ العملية؟ وقررت أن أعبر الحدود مع أول ضوء وأن أحصل على السلاح والذخيرة الموجودة في غرفة الاتصال، وانتهزت فرصة غياب فرد خدمة غرفة الاتصال وقمت بدخول الغرفة وحصلت على ١٢ خزنة من الخزن الصالحة للبندقية الآلية التي كانت معي، وقد حصلت على تلك الخزن على دفعات وكنت أقوم بإخفائها في إحدى الصخور في مكان الخدمة بمنطقة البرج، وعندما اطمأننت إلى عدم اكتشاف الأمر أغلقت صندوق الذخيرة وأخذت المزيد من الطلقات حتى أصبح لدى ٢٥٠ طلقة بالإضافة إلى ٢٥ طلقة هي عهدتي علاوة على خزن زميلي عيسى راغب وكان بها ٢٥ طلقة كان قد تركها بغرفة الاتصال وكانت الذخيرة من عيار ٧.٦٢ + ٣٩ .

ويضيف أيمن في تحقيقات النيابة العسكرية: « كنت قد أفرغت مخلتي من المهمات حتى أضع فيها الذخيرة، وسبق ذلك أثناء وجودي بغرفة الاتصالات أن

قمت بفتح الشباك من الداخل ووضعت الذخيرة على أفريز الشباك ثم أغلقت الشباك من الداخل ثم خرجت من الغرفة والتفتت حول العنبر وأخذت معي المخلة الخاصة بي ثم قمت بوضع الذخيرة بها وتوجهت إلى مكان الخدمة بالبرج وبدأت أثناء وجودي بالبرج تعمير الخزن بالذخيرة، وفي حوالي الساعة الثانية صباح يوم ٢٥ – ١١ – ١٩٩٠ جاء لي الجندي عيسى وقال لي « ألن تنزل لتسلم الخدمة للجندي سعيد؟ فقلت له: اتركه فهو تعبان وأنا أمسك الخدمة مكانه، وكنت قد أخفيت الخزن والذخيرة حتى لا يرتاب أحد في أمري، وبعد ذلك رأيت فرد خدمة الاتصال ويدعى عاطف فذهبت إليه بحجة شرب الشاي معه فلما طلب مني إيقاظ الجندي سعيد استجبت له حتى يقوم سعيد بالجلوس معه ليشغله عني، وعملت شايا وكاكاوا وقعدنا نتكلم مع بعضنا ثم تركتهم وطلعت إلى مكان خدمتي بالبرج، واستكملت تعمير باقي الخزن ثم نزلت إليهما وصليت معهما الفجر في جماعة ثم استاذنت منهم لتغيير ملابسي بحجة أنها مبللة وبالفعل قمت بتغيير الملابس ولبست بدلة من البدل الصوف أفرول خفيفا وبدل البيادة كوتش وشراب ملكي حتى أصبح خفيف الحركة أثناء تنفيذ موضوع ضرب اليهود. كما لبست حزاما على وسطي وقايش أيضا استعرته من أحد الزملاء وذلك حتى أستخدم كلا من الحزام والقايش في ربط الخزن حول وسطي.

ثم عمرت البندقية رقم ٣١ بالذخيرة وتركتها على وضعها ولم أقم بسحب الأجزاء حتى لا تحدث صوتا ثم توكلت على الله ونزلت واتجهت إلى طريق الحدود الدولية وعبرت الحدود وتوغلت مسافة ٣٠٠ متر وعبرت الطريق الأسفلتي إلى الجهة الأخرى وتخيرت كمينا صالحا للضرب عبارة عن زوايا حديدية مثبتة وعليها ألواح حديدية طولها ١٥ مترا كما أخذت المكان بحيث يشرف على منحدر بالطريق ساترا لي حتى لا يراني القادم من إسرائيل وأخذت الوضع راقدا، ووضعت البندقية على الأرض بين الزوايا الحديدية في منطقة تقع بين العلامة ٨١ حـ والعلامة ٧٩ شن، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل، وجاءت سيارة إسرائيلية نصف نقل من اتجاه العلامة ٨١ حـ متجهة إلى العلامة ٧٩ ش أي من الجنوب إلى الشمال، وما إن اقتربت العربة مني على مسافة ٥٠ مترا حتى أطلقت عليها الرصاص إلا أن العربة

استمرت في السير وبعد فترة بسيطة حضرت عربة جيش إسرائيلية من الاتجاه العكسي أي من الشمال إلى الجنوب فأطلقت عليها الرصاص في اتجاه سائق العربة الذي أصيب وتوقفت العربة أمامي فقمت بالالتفاف حولها وأطلقت الرصاص على السائق مرة أخرى فقتل في الحال ثم عدت إلى وضعي السابق وغيرت خزن السلاح، وجاءت على الفور سيارة أوتوبيس إسرائيلية من الجنوب إلى الشمال فأخذت الوضع راقدا ونشنت على السائق وهو قادم على مسافة حوالي ٧٠ مترا فانحرف الأتوبيس ونزل السائق من باب الركوب وانبطح أرضا فقابلته بمزيد من الرصاصات. وفي تلك الأثناء جاء أوتوبيس آخر سياحي من الجنوب إلى الشمال فأخفيت السلاح وتظاهرت بالوقوف على الطريق وعندما هدأ الأوتوبيس من سرعته أطلقت الرصاص على مقدمته ثم تبادلت الرصاص مع الكمساري حيث إن كل الكمسارية في إسرائيل يحملون سلاحا، وأنا كنت أعرف هذا من قبل، ثم أخذت ساترا وأخذت أتبادل إطلاق النار مع الكمساري والسائق وأخذت أحاول الانسحاب إلى داخل الحدود المصرية لأنه من الطبيعي أن يكونوا شعروا في إسرائيل بكل ذلك ولابد أن تتحرك وحدات إسرائيلية لمطاردتي، وبالفعل وقبل وصولي إلى الحدود المصرية وجدت دورية إسرائيلية قادمة من الشمال إلى الجنوب وأطلقوا النار علي إلا أنني أفلت بعون الله واتخذت طريقا ملتويا « زقزاقيا » ولم تصبني أية طلقة وعبرت الحدود المصرية لمسافة ٣٠٠ متر ووصلت إلى وادي أسفل تبة الصفراء حتى لا أكون في مرمى نيران الجنود الإسرائيليين وجلست تحت شجرة لأستريح وقررت الاتجاه إلى طريق الكونتيلا أو طريق عثمان حتى لا يعرف اليهود أنني من ضمن أفراد نقطة البرج فيقومون بالاعتداء عليها، وتوجهت إلى طريق عثمان فوجدت عربة نصف نقل من طراز تويوتا تحمل جراكن وطلبت من سائقها توصيلي إلى الكونتيلا، فقام بتوصيلي إلى موقع لشركة عثمان أحمد عثمان وجلست بجوار الغفير وكانت بي إصابة طفيفة نتيجة مرور إحدى الرصاصات بالقرب من جبهتي وسألني الغفير عن سبب إصابتي فقلت له تفاصيل الموضوع وأنني قتلت اليهود لأنني أكرههم وطلبت منه أنه يخبر أهلي أنني استشهدت في سبيل الله، وكتبت له عنوان أهلي بالطباشير على الحائط، لعدم وجود أوراق وأقلام وعندما جاء مهندس الموقع قلت له أن يكتب خطابات باسمي

إلى أهلي وقمت بإملائه صيغة الجواب فكتبها وطلبت منه أن يسلمها إلى الحاج محمد حسن ثم وقعت بنفسي على الجواب، وقد تم تحرير الخطاب بمعرفة النيابة وهذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم - الوالد الكريم الحاج محمد حسن - ابنكم مات شهيدا في سبيل الله - وأعرفك أنني أحترمكم جدا ولا تندموا على أيمن، لأن الندم لا ينفع بل الصبر وأنا لقيت أجلي والموت حق على كل إنسان، وأكن لكم كل الحب ولا تبكوا على أيمن فقد مات شهيدا ».

وبعد ذلك - والكلام مازال لأيمن - طلبت من المهندس توصيلي إلى وحدتي، فقام بتدبير سيارة وزاملني فيها اثنان من الأمن الخاص بالشركة، وقد أعطاني أحدهما جاكيت صوفا والآخر أعطاني تلفيعة حتى لا أتأثر بالبرد، وبالفعل وصلت إلى وحدتي وسلمت نفسي لقائد المنطقة.

على أي حال، فقد أسفرت تلك العملية وحسب البيانات الإسرائيلية عن مصرع خمسة إسرائيليين بالإضافة إلى أكثر من ٢٠ جريحا إسرائيليا وتدمير ست مركبات إسرائيلية ما بين أتوبيسات سياحية أو عادية أو عربات جيب .

***

إذن فقد كان أيمن قد أعد خطة مسبقة ونفذها بذكاء على عدة مراحل، فهناك القرار ثم الرصد والمتابعة ثم عمل خطة للتنفيذ العملية، والعملية برمتها وبكل مراحلها تدل على ذكاء وكفاءة من حيث اختيار الهدف والتوقيت ومكان الكمين وقرار الانسحاب في اللحظة المناسبة وغيرها.

على أن الجدير بالتسجيل أن زملاء أيمن وكل من قابله من المصريين قد تعاطف معه. فبعضهم ساعده في تحرير الخطاب والبعض الآخر ساعده في الوصول إلى كتيبته، والبعض الثالث أعطاه سترة صوفية أو تلفيعة للوقاية من البرد.

وعلينا أن نلاحظ أن التعاطف الشعبي مع أيمن كان هو نفسه مع سليمان خاطر وسيد نصير، مما يدل على أن هذه الأعمال التي قام بها هؤلاء تعكس الوجدان الشعبي المصري.

في مواجهة نهج التصالح مع الكيان الصهيوني

وانطلاقا من النهج الثابت للشعب المصري الذي يرى من خلال عقيدته ووجدانه عدم إمكانية التصالح والتعايش مع الكيان الصهيوني باعتبار أن الصراع مع الكيان الصهيوني جزء من صراع تاريخي طويل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وأنه لا يمكن للصراع أن يحسم إلا من خلال الكفاح المسلح وبالتالي فإن من الخطأ الجسيم الوقوع في حبائل التسوية والتصالح، انطلاقا من هذا النهج استمر الشعب المصري يرفض كل المبادرات والاتفاقيات الحكومية في مصر باتجاه التصالح مع الكيان الصهيوني.

وكان الرئيس السادات قد استغل الأزمة الاقتصادية وسوء الأحوال المعيشية للشعب المصري في الدعاية للسلام باعتباره طريقا للرخاء، كما أن الشعب المصري كان يعاني – بالفعل – من سوء معاملة العرب للمصريين العاملين في الدول العربية، وركز الإعلام الساداتي على ذلك كثيرا لتبرير قطع الصلة بالقضية الفلسطينية والاتجاه نحو السلام مع إسرائيل، ولكن الشعب المصري الفذ ارتفع فوق كل ذلك وتمسك بمنهجه الثابت في رفض التصالح مع الكيان الصهيوني، رغم تردي أوضاع المعيشة، ورغم تنكر العرب لمصر وشعبها ورغم الممارسات المقززة لبعض القادة الفلسطينيين، وأدرك الشعب المصري أن ممارسات البعض لا تنسحب على الكل وأنه حتى لو تنكر الفلسطينيون أو العرب للقضية فلن يتنكر الشعب المصري لها لأن منطلقاته نحوها إسلامية ووجدانية وثابتة.

وما إن قام السادات بالذهاب إلى القدس عام ١٩٧٧ وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة ١٩٧٨ حتى ظهرت المعارضة الشعبية لذلك النهج. فعلى سبيل المثال قامت جماعة الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد بإصدار العديد من البيانات المنشورة وغير المنشورة في الصحف أو الموزعة على الجامعات والمناطق السكنية التي ترفض فيها اتفاقية كامب ديفيد وتعلن تضامنها مع الشعب الفلسطيني، كما لعبت صحف مثل المختار الإسلامي، الاعتصام والدعوة ولواء الإسلام دورا هاما في هذا الإطار – أي في رفض التصالح والتطبيع والتمسك بتحرير كامل التراب

الفلسطيني.

يقول المرشد العام للإخوان المسلمين « إن التفريط في شبر أو التنازل عن شبر من أرض فلسطين خيانة، والرضا بكيان دخيل يقاسمنا أرضنا هو أفدح من الخيانة والبحث عن شعارات غير شعارات الإسلام نتحرك تحتها في مواجهة عدو يحتل أرضنا وينتهك ويسفك دماءنا أو البحث عن مسارات أو دروب كمسار المؤتمر الدولي ومنطلقه أو التسكع في دهاليز الهيئات الدولية ننتظر الفتات بعد الفرار من المعارك والإعراض عن المواجهة وتولية الأدبار وقت الزحف، وأن الخيار العسكري هو الخيار الصحيح » .

ويقول أحد بيانات الجماعة الإسلامية « ألا فليسمع الجميع – قال النبي ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله) .

وقد نشطت الحركة الطلابية التابعة للإخوان والجماعة الإسلامية في إقامة المعارض والندوات وأسابيع التضامن مع الشعب الفلسطيني كما قامت النقابات المهنية- وهي في معظمها تابعة للاتجاه الإسلامي بإصدار العديد من البيانات التي تندد بالتصالح وتدعو إلى التضامن مع الشعب الفلسطيني. كما أصدرت النقابات المهنية قرارا بمعاقبة أي عضو ينتمي إليها يقوم بزيارة إسرائيل أو التعامل المهني وغير المهني معها، كما نظمت العديد من مؤتمرات التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية في مقر تلك النقابات مثل مؤتمرات نقابة الأطباء والمهندسين والمحامين وغيرهم.

وتعد عملية اغتيال الرئيس السادات في حادث المنصة سنة ١٩٨١ ذات صلة مباشرة بقيام السادات بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد، حيث قرر القائمون بهذه العملية أن أحد أسباب اغتيال السادات ترجع إلى توقيعه صلحا مع العدو التاريخي للأمة الإسلامية وهو اليهود ومحاولاته تصفية القضية الفلسطينية .

يقول خالد الإسلامبولي في رسالة تركها لأهله « إننا عقدنا العزم على قتل فرعون

مصر لعل الله ينقذها من الضياع في مصادقة الصهاينة » .

وقال خالد في تحقيقات النيابة العسكرية « أنه قتل السادات لأنه لم يطبق شرع الله وتصالح مع اليهود وقبض على علماء المسلمين » .

ولعله من الجدير بالتسجيل هنا أن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين التي ظهرت في أوائل الثمانينيات كانت عناصرها القيادية فكريا وتنظيميا قد ارتبطت بحركة الجهاد في مصر وأخذت عنها فكرها السياسي والحركي وتأثرت فكريا وتنظيميا بالعديد من المصريين، بل نكاد نقول أن الهيكل الفكري لحركة الجهاد الفلسطيني قد صاغه مصريون أساسا وهو الأمر الذي سجلته تحقيقات القضايا ٤٦ لسنة ١٩٨١، ٢٩٥ لسنة ١٩٨٤، ٤٠١ لسنة ١٩٨٧.

وعلى صعيد الرفض المسلح والمشفوع بالدم سجل الكفاح الشعبي المصري العديد من العمليات المتميزة مثل عمليات منظمة ثورة مصر ثم حادث رأس بركة الذي نفذه الشهيد سليمان خاطر عام ١٩٨٦ وعملية إعدام كاهانا التي نفذها المصري سيد نصير في نيويورك سنة ١٩٩٠، وكذلك عملية الجندي المجاهد أيمن حسن الذي تسلل عبر الحدود المصرية الإسرائيلية وعمل عدة كمائن وأطلق الرصاص وقتل وجرح أكثر من ٢٠ إسرائيليا ونفذ أيمن العملية في ١٧ ديسمبر ١٩٩٠.

.. الشيخ حافظ سلامة

مقدمة

في البداية نود أن نوضح أمرًا في غاية الخطورة.. وهو التعتيم الإعلامي الرهيب على معركة السويس برغم أهميتها التاريخية والعسكرية والاستراتيجية على كل المستويات، ألا يوحي هذا باستمرار القوى الشيطانية في محاولة سحب أي وعي أو عزة لدى الجماهير.. عن طريق طمس معالم البطولة في تاريخنا المعاصر.. إن هذا ليس أمرًا غريبًا ولكنه مقصود لذاته.

إن معركة السويس هي آخر مراحل الصراع بين القوى الشيطانية والقوى الإسلامية.

- قلنا دائما إن التاريخ هو سلسلة من الصراع بين القوى الشيطانية بما تمثله من استبداد سياسي وظلم اقتصادي وانحراف اجتماعي وبين القوى الإسلامية بما تمثله من حرية وعدالة واستقامة وبما تحمله من رسالة نحو العالم.. رسالة التحرير والتطوير.

- تحرير الإنسان من الاستبداد السياسي.. والظلم الاقتصادي والتوجيهات الاجتماعية المنحرفة.

- ولقد تطور ذلك الصراع بعد بعثة الرسول ـ ﷺ ـ في حلقات متواصلة تمثلت

بصورة رئيسية في عدة مراحل أهمها:

- الصراع ضد الرسول ذاته وضد حركة الجماعة الإسلامية الأولى.
- الصراع بعد موت الرسول ﷺ في محاولة لإرساء معالم إسلام عشائري وطبقي بديلا عن الإسلام المحمدي.
- الحروب الصليبية: واستهدفت الكيان العسكري للأمة.
- الاستعمار والصهيونية (وهذه المرحلة ما زلنا نعيشها) وهي تستهدف وعي الجماهير المسلمة تمهيدا لضرب الأمة الضربة القاضية بما أن الجماهير المسلمة هي المعقل الأخير والقوي للإسلام.

وهكذا فإن تاريخنا المعاصر هو سلسلة من الصراع الدامي والمتسع بين الجماهير المسلمة وبين القوى الشيطانية (الاستعمار – الصهيونية – القوى العميلة).

ولقد تنوع ذلك الصراع فشمل كل الميادين:

١- الميدان العسكري: (الحملة الفرنسية – حملة فريزر – الاحتلال الإنجليزي – وأخيرا الحروب ضد إسرائيل)..

٢- الميدان الثقافي: نشر القيم الغربية من رأسمالية وشيوعية واشتراكية وفلسفات منحلة، وجودية- وعبثية – ومدارس فن مختلفة (العلمانية عموما).

٣- الميدان السياسي: إقامة أنظمة حكم تمنع الجماهير من ممارسة حرياتها ومواجهة التحدي الاستعماري الصهيوني.

٤- إفساد الحياة الاجتماعية: عبر الموضة والمفاهيم المدمرة للزواج وغيرها، والعلاقة بين الرجل والمرأة.

ولقد ردت الجماهير المسلمة على ذلك.

في مواجهة التحدي العسكري.

الحملة الفرنسية

ثورة القاهرة الأولى – ثورة القاهرة الثانية . اغتيال كليبر – المقاومة الشعبية المستمرة (محمد كريم – عمر مكرم) .

حملة فريزر

حرب الجماهير المسلمة بقيادة عمر مكرم في رشيد ودحر القوات الإنجليزية.

الاحتلال الانجليزي

تصدي الجماهير المسلمة بقيادة عرابي – وعبد الله النديم – جمال الدين الأفغاني – ثم استمرار ذلك الخط على يد مصطفى كامل – محمد فريد – حسن البنا.

الغزو الصهيوني

ثورة ١٩٢٠ ، ثورة ١٩٣٣ في فلسطين – ثورة الشيخ عز الدين القسام ١٩٣٥ ، ثورة ١٩٣٦ (فوزي القاوقجي – محمد الأشمر) معارك مستمرة حتى عام ٤٨، (عبد القادر الحسيني – أحمد عبد العزيز).

معارك ٧٣

معركة السويس – حافظ سلامة.

وهكذا فإن خط الجماهير المسلمة لم ينقطع يوما.

الميدان الثقافي.

غزو علماني بكافة اتجاهاته، وكان الرد عليه مؤلفات عبد الله النديم – مجلة اللواء (مصطفى كامل – محمد فريد – عبد العزيز جاويش) – ومؤلفات حسن البنا. وأخيرًا الشهيد سيد قطب. ومجلات الدعوة: النذير، الدعوة، الاعتصام، المختار الاسلامي.

الميدان السياسي

محاولات الحركات الإسلامية المستمرة لتحرير الإنسان من الاستبداد والإقطاع والرأسمالية (الأفغاني – النديم – مصطفى كامل – الإمام حسن البنا – اللواء سليمان سبل رئيس جماعة شباب محمد – عناني عواد وآخرين.. أبطال الانتفاض ضد الإقطاع).

- الشيخ سيد قطب..
- الشيخ أحمد المحلاوي.

الحياة الاجتماعية

إرساء قيم وممارسات إسلامية نموذج في مواجهة النموذج الغربي.

وهكذا فإن الجماهير المسلمة استمرت ومنذ أن بدأت الحقبة الاستعمارية كظاهرة تمثل آخر الوجوه الشيطانية.

ولقد واجهت الجماهير المسلمة الاستعمار – الصهيونية – الإقطاع – والأنظمة المستبدة على نحو مستمر ورائع.

وعلى هذا الأساس يمكن فهم طبيعة معركة السويس بقيادة الشيخ البطل حافظ سلامة.

حياة الشيخ تمثل مراحل الصراع الإسلامي الاستعماري

بدأ الشيخ حياته النضالية في الأربعينات.. وكمسلم رسالي كان لابد له أن يصطدم بالحلقات الاستعمارية الثلاث (الاستعمار الإنجليزي – الصهيونية – الملك في مصر)..

انضم الشيخ إلى جماعة شباب سيدنا محمد ﷺ، وهي جماعة وقفت بصلابة منذ اليوم الأول ضد الاستعمار والصهيونية والملك ورفضت أي شكل من أشكال المرونة والمهادنة معهم.

- ويشاء الله سبحانه أن يصطدم الشيخ أول ما يصطدم بالصهيونية بما أنها هي التحدي المركزي للحركة الإسلامية.

ويقوم الشيخ بالعمل الفدائي داخل فلسطين عام ١٩٤٤ ليعود من مهمته ليدخل السجن وليكتشف ذلك الارتباط بين النظام الملكي في مصر والاستعمار الإنجليزي – والصهيونية.

- ويخرج الشيخ من السجن – ليقوم بنشاط من خلال جماعة شباب سيدنا محمد ﷺ وليشارك في كتائبها المتوجهة إلى فلسطين عام ١٩٤٨ للمشاركة في القتال ضد اليهود (ذهب الإخوان المسلمون أيضا وقاتلوا قتالا بطوليا).

ويكتشف الشيخ مرة أخرى ذلك الارتباط بين الاستعمار والصهيونية ونظام فاروق (الأسلحة الفاسدة).

- وبحيوية المسلم الرسالي يستمر الشيخ ويذهب إلى القناة ليمارس العمل الفدائي ضمن كتائب شباب محمد جنبًا إلى جنب مع كتائب الإخوان.. ومصر الفتاة والحزب (كل هذه الاتجاهات.. اتجاهات إسلامية).

ويرى الشيخ كيف يقوم شباب المسلمين (أحمد المنيسي – عمر شاهين) بالاستشهاد بعد الغارات الناجحة على الإنجليز في التل الكبير والقورين..

ولقد شارك الشيخ بنفسه (في منطقة السويس) في عملية تدمير قطار إنجليزي محملا بالبضائع والوقود والذخائر وذلك بالمشاركة مع الشيخ محمد الخطيب أحد أبناء الحركة الإسلامية في فلسطين وصديق الشيخ حافظ منذ عام ١٩٤٤ عندما شاركا معا في عملية فدائية.

ويستمر نضال الشيخ الذي لا ينقطع في مدن القناة.. ولقد اختار الشيخ السويس لأن الإنجليز يعتمدون عليها في الإمدادات من البحر الأحمر عن طريق ميناء الأدبية ولأنها مركز كبير من مراكز قوات الاحتلال الإنجليزي.

يستمر الشيخ في المشاركة في الجهاد الإسلامي المتمثل في الغارات على الإنجليز

واقتحام مواقعهم وسرقة الأسلحة والذخيرة – والقيام بعمليات تدريب للأهالي على استخدام السلاح وتصنيع الذخائر والقنابل. كما كان الشيخ يشارك في عمليات محو الأمية وتحفيظ القرآن.

ويقوم الاستعمار الإنجليزي، وبعد تزايد المد الاسلامي الواسع جدًا والذي أصبح يمثل خطرا على كل الكيان الاستعماري – يقوم بحرق القاهرة والتمهيد لانقلاب عسكري (فكان الانقلاب الناصري). لكي يأتي بعبد الناصر ليلوح ببعض الإصلاحات، وليقوم في النهاية بضرب الجماهير وتعويقها وإقامة نظام مستبد يمنع الجماهير من المشاركة في مواجهة أعدائها.

وفي بادئ الأمر يرفع عبد الناصر وزمرته الشعارات الإسلامية لمحاولة امتصاص المد الجماهيري الإسلامي. وتقع بعض الحركات الإسلامية في الفخ المنصوب.

ولكن جماعة شباب محمد ترفض دعم هذا الاتجاه منذ اليوم الأول وتعلن أنها ليست بديلا عن الجماهير ولكنها حارسة وأمينة على مصالحها. وأن مصادرة الحريات وإلغاء الأحزاب ومهما كانت أسبابها وجيهة، هي في النهاية موجهة ضد حريات الجماهير، وأن الحرية حق طبيعي لكل إنسان وأن واجب الحركة الإسلامية أن تقف مع الحريات وهذا واجب أخلاقي فضلا عن أن تلك هي رسالة الإسلام، فالإسلام جاء ليحرر الناس من الاستبداد السياسي والاقتصادي والاجتماعي وبالتالي فإنه ليس هناك أي مبرر لدعم حركة ٢٣ يوليو في ضرب القوى السياسية. لأن تلك الحركة ذاتها ستعود وتضرب الاتجاه الإسلامي في النهاية – فضلا عن أن ذلك عمل غير أخلاقي وتآمري ولا يتفق مع الإسلام.

وكان من نتيجة ذلك اعتقال اللواء سليمان عبد الواحد سبل رئيس جماعة شباب سيدنا محمد ﷺ وهو أيضا رئيس الاتحاد العام للجمعيات الإسلامية.

وحينما طلب أعضاء شباب محمد من الاتجاهات الأخرى الاعتراض على ذلك الأمر. رفض الآخرون وقالوا: إنكم لم تعطوا للثورة فرصة لإنجاز أعمالها. وأنكم تعجلتم.. و إلخ..

وعبثا حاول الشيخ ورفاقه توضيح أن حركة الجيش جاءت لتقطع على الجماهير المسلمة زحفها، مما ثبت بعد ذلك يقينا.

- ولكن ما الذي جعل جماعة شباب محمد لا تقع في هذا الفخ – الذي وقعت فيه بقية الجماعات الأخرى إبان أزمة ١٩٥٤.

إنه ببساطة شديدة امتلاك المنهج الصحيح والوعي بالتاريخ وإدراك طبيعة الصراع. والتصرف كطليعة للأمة وليس بديلا لها، إنها ببساطة شديدة الإسلام الرسالي.

- ويستمر نشاط الشيخ فما أن تحل جماعة شباب محمد حتى يبادر بإنشاء جماعة الهداية الإسلامية، وبعد إغلاق مجلة النذير أصدروا مجلة أخرى هي مجلة صوت الإسلام (هذا في وقت شديد السواد بالنسبة للحركة الإسلامية عمومًا).

- ويستمر الشيخ ومعه بقية الرجال في عمل حلقات تدريس القرآن الكريم وإنشاء مراكز إسلامية (مسجد الشهداء في السويس – مسجد النور في العباسية – مسجد الفتح في رمسيس). مسجد الشهداء هو المركز الذي انطلقت منه حركة المقاومة الشعبية في السويس عام ١٩٧٣.

- وإنه لشيء منقطع النظير أن يستمر الشيخ في كفاحه في الستينات (الحقبة السوداء في تاريخ الحركة الإسلامية) ويستمر في محاولة بناء مركز إسلامي في العباسية ردًا على قيام عبد الناصر والنجاشي بوصع حجر الأساس للكاتدرائية. بل وقاما أيضا بافتتاحها.

واعتقل الشيخ في ١٩٦٦ – وفي سجن أبي زعبل – وتحدث نكسة ٦٧ ويطالب الشيخ ومعه بقية الإخوان في ليمان أبي زعبل أن يذهبوا للقتال، ويحدد الشيخ أن ملابسات نكسة ٦٧ تومئ بوجود خيانة في القيادة السياسية.

ويخرج الشيخ من السجن ويستمر في جهاده وعمله مجددًا: إن الاسلام هو الطريق الوحيد لهزيمة إسرائيل. ويقوم بعمل قوافل توعية إسلامية ويذهب إلى

الجنود على جبهة القتال.

- ولأن الشيخ يؤمن بوحدة الحركة الإسلامية في العالم. فيحاول الشيخ الاتصال بالإمام موسى الصدر في لبنان. بل إنه أزمع الذهاب إليه وقطع تذكرة إلى لبنان – وأبرق إلى الإمام موسى الصدر لينتظره في بيروت لولا قيام حرب ١٩٧٣.

قام الشيخ بذلك في صباح ١٠ رمضان، ٦ أكتوبر. ولكنه يسمع البيانات العسكرية وهو في مدينة القاهرة، فيعود سريعا إلى السويس.

حاول الشيخ يومها الرجوع ولكنه منع بدعوى أن المدنيين ممنوعون من الذهاب إلى الجبهة. ولكن الشيخ ذهب معه الأخ عبد الحميد عطا إلى طريق القاهرة السويس الكيلو ٤٥. ومرة أخرى يمنع من السفر. إلا أن الشيخ استطاع أن يقنع أحد الضباط الشبان عندما توسم فيه الخير لما رآه يصلي. شارحا له ضرورة مشاركته في المعركة – ويذهب الشيخ إلى السويس على عربة مدفع.

- وهكذا تبدأ معركة الشيخ ضد اليهود. داخل السويس – وينبغي أن نسجل هنا أن تاريخ الرجل وكفاحه قد هيأه لذلك تماما، وأن هذا العمل لم يكن عملا عفويا لأن المسلم الرسالي يقف دائما الموقف الصحيح في الوقت الصحيح.

أهمية معركة السويس

لن نستطيع أن نفهم معركة السويس ما لم نفهم بعض القضايا الآتية:

- طبيعة الصراع
- ما قبل حرب ٧٣.

في البدء لابد أن نقرر حقيقة مركزية وهي أن الصراع في المنطقة حاليا يدور على مستويين:

- تناقض رئيسي بين الجماهير المسلمة وبين (الاستعمار والصهيونية) وأن هذه الجماهير بما أنها تملك مصلحة حقيقية، وبما أنها مستهدفة كأمة وككيان وكوجود، هي الوحيدة القادرة على حسم هذا الصراع، وأن ما من مرة تشارك تلك

الجماهير في معركة ضد الكيان الصهيوني إلا وتذيقه مرارة الهزيمة، وتثبت الجماهير المسلمة قدرتها على النصر.

• تناقض ثانوي بين الأنظمة وبين الكيان الصهيوني. وتلك الأنظمة ما دامت لا تملك تناقضا جوهريا مع الكيان الصهيوني. فإنها تخوض معارك جزئية مهزومة قبل أن تبدأ – وفي كل مرة لا تسمح للجماهير بممارسة المواجهة حتى لا تطيح تلك الجماهير ضمن ما تطيح بالأنظمة ومصالح الاستعمار والكيان الصهيوني جميعا.

ظروف الصراع قبل ٧٣:

إنه لمن الأهمية بمكان أن نحدد ظروف الصراع بين القوى الإسلامية والقوى الشيطانية فيما قبل ٧٣ لكي نستطيع فهم حرب ٧٣ بوجه عام، ومعركة السويس بوجه خاص.

• كانت القوى الشيطانية وبعد مرحلة طويلة من الصراع قد استطاعت أخيرا وعبر عبد الناصر أن تضرب نطاقا من العزلة حول الجماهير وأن تعيق حركتها وتخدر قواها.

وظنت تلك القوى الشيطانية أن الجماهير قد وقعت في السبات العميق، وذلك في أعقاب حرب ٦٧.

وبات على القوى الشيطانية أن تتحرك لتحقق المرحلة التالية وهي القضاء الكامل على حركة الجماهير وإيقاع المنطقة بالكامل في النفوذ الاستعماري والصهيوني (تحقيق الحقبة الإسرائيلية) وذلك عبر عمل تسوية بين الأنظمة العربية وإسرائيل – وأن يتم تطبيع العلاقات مع إسرائيل وإخضاع الجماهير سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لليهود مما يعني القضاء النهائي على حضارة أمتنا ووجودنا ذاته.

ولقد حاولت القوى الشيطانية أن تحقق ذلك عبر:

١- قرار ٢٤٢.

٢- مبادرة روجرز.

٣- المزيد من قمع الجماهير وتضليلها.

٤- التشكيك في قيمة المقاومة الفلسطينية وعبد الناصر يصفها بأنها رد فعل على النكسة ليس إلا.

وهيكل يشكك في قيمتها وقدرتها (أنظر مقالات الجمعة أغسطس ٦٨).

٥- ضرب المقاومة ضربا متواصلا بواسطة الجيش اللبناني ذي التوجهات المارونية.

٦- محاولة استدراج المقاومة لنزع إسلاميتها وبالتالي نزع سلاحها الحقيقي ووقوعها في الحقبة الإسرائيلية.

وفي كل الأحوال تدمير أي نواه تتجمع حولها حركة الجماهير. ولكن الجماهير المسلمة ردت على ذلك بعنف وحيوية – مما فاجأ القوى الشيطانية بأن تلك الجماهير ما زالت حية وغير مستأنسة. ولقد ظهرت حركة الجماهير المسلمة عبر:

- مظاهرات الطلبة والعمال ٦٨.
- اشتداد عود المقاومة الفلسطينية والتفاف الجماهير حولها وصل إلى قمته في معركة الكرامة.
- رفض واسع مع كافة جماهير العالم الإسلامي والعرب لقرار ٢٤٢ ومبادرة روجرز وخرجت مظاهرات الجماهير تهتف عبد الناصر يا جبان
- ويا عميل الأمريكان.

وكان على القوى الشيطانية أن تخرج من كيس أفاعيها ألعوبا جديدا تستكمل به حلقة الحصار حول الجماهير. تمثل في اتجاهين أساسيين:

١- فلقد بدأت الأبواق الاستعمارية وأعلام الأنظمة تركز على عملية غسيل مخ للجماهير مستمر ليلا ونهارًا على النحو التالي:

(أ) إن إسرائيل أمر واقع يجب الاعتراف به – انظر الصحف المصرية.

(ب) تخفيف حدة العداء لليهود. ومحاولة تزييف تفسير القرآن الذي يدين اليهود ويدمغهم بالخيانة. وذلك على يد مشايخ السلطة.

(ج) إن الواقعية هي الشيء الصحيح. ولكنها كانت واقعية اليأس والهزيمة.

أنظر مقالات هيكل – أحمد بهاء الدين وخصوصا كتاب أحمد بهاء الدين (إسرائيليات – ما بعد العدوان).

(د) التركيز على التفوق العسكري الإسرائيلي.

(ه) التركيز على أن الهدف هو إزالة آثار العدوان.

٢- بما أن حركة الجماهير ما زالت حية وقوية وخصوصا أن الحشد المعنوي لرجال القوات المسلحة كان إسلاميا وهو ما أدى إلى قيام الجيش البطل وبروح إسلامية بتحقيق نصر عسكري على إسرائيل بمجرد أن سمح له بالالتحام باليهود. ولكي تلتف القوى الشيطانية على هذا العنصر كان لابد لها من الآتي:

(أ) الضغط على إسرائيل لكي تقبل التسوية.

(ب) تخدير وعي الجماهير لتمرير التسوية.

ومن هذا الاطار يمكن فهم حرب التحريك في عام ١٩٧٣.

- في ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣، وما أن يتلقى رجال القوات المسلحة الأبطال الأمر بمباشرة القتال (القوات المسلحة في النهاية جزء من الأمة) حتى تنطلق صيحة الله أكبر مدوية. والرجال الصائمون (١٠ رمضان) يعبرون ويجتاحون في أروع عملية عسكرية في التاريخ المعاصر. إن الرجال الأبطال في القوات المسلحة لأول مرة يأخذون فرصتهم في مواجهة العدو الصهيوني. وها هم يواجهون بشجاعة برغم عدم تكافؤ التسليح والمعدات. ولكن صرخات الله أكبر والروح الإسلامية التي انطلقت كانت كفيلة باجتياح خط بارليف بمعداته الإليكترونية المتقدمة ورغم التفوق الجوي الإسرائيلي وذلك في أقل من ٦ ساعات.

وتتوالي انتصارات الرجال البواسل. ويقع اليهود في الذعر ويصرخون ويلجؤون

لأمريكا.

وتدرك القوى الشيطانية أن الأمر سيفلت من أيديها. وسوف يحقق الجيش البطل انتصارًا ساحقا، يمكن أن يكون بداية لتدمير الكيان الصهيوني والإطاحة بمصالح الاستعمار. خصوصًا وأن هناك تجاوبا شعبيا رائعا ومذهلا.

وتتحرك القوى الشيطانية بسرعة، ويتم دعم الكيان الصهيوني بطائرات ودبابات.

وكان لابد لذلك الكيان من أن يتحرك قبل فوات الأوان.

وتقوم قواته باختراق الجبهة المصرية وعبور القناة إلى الجهة الأخرى في عملية الثغرة. وتصل إلى الدفرسوار، والعجيب أنه لم يتم سحق تلك المحاولة مع قدرة قواتنا ورجالنا على ذلك. وتصل القوات الإسرائيلية إلى مشارف السويس وكان الهدف واضحا.

- احتلال السويس – واستكمال حصار الجيش الثالث.

وبالتالي وضع حبل حول رقبة ذلك الجيش ومسدس مصوب نحو القاهرة.

- تستطيع أمريكا (كيسنجر اليهودي) أن يأتي ليقول: إنني أطرح الحل السلمي.

وبما أن الجيش الثالث محاصر. والسويس محتلة.. فإن القيادة الأمريكية ستنجح في تمرير التسوية.. تحت دعوى أن ذلك عمل سياسي بارع ينقذ الجيش الثالث، وأننا استطعنا الانتصار على إسرائيل ولكن أمريكا تدخلت.. إلخ..

وهكذا يمكن البدء في تحقيق التسوية والوقوع مبكرًا في الحقبة الإسرائيلية.

ولكن جماهير السويس المسلمة – جمعية الهلال الإسلامية – أفراد القوات المسلحة الشرفاء. بقيادة الشيخ حافظ سلامة قد أفسدت تلك الطبخة الأمريكية.. ووقفوا على مشارف السويس يحطمون الدبابات الإسرائيلية. ويحطمون معها التسوية ويحطمون أيضًا الحقبة الإسرائيلية، ويحطمون أحلام كيسنجر.

وهكذا انتصرت الجماهير المسلمة بقيادة الشيخ حافظ سلامة على كيسنجر

الداهية وشارون الثعلب.

الأهمية الاستراتيجية لمعركة السويس:

- إنقاذ الجيش الثالث.

- إفساد الطبخة الأمريكية التي لو تمت وقتها - لا قدر الله - لكنا قد سقطنا سريعًا في التسوية – والحقبة الإسرائيلية – وصحيح أنه وقعت بعدها معاهدة كامب ديفد. ولكن في وقت كانت الجماهير المسلمة في مصر وخارجها في وضع يسمح لها بالتصدي الكفء لتلك المواقف مما لم يكن متوافرا وقتها.

- إثبات قيمة الجماهير المسلمة في التصدي للكيان الصهيوني وإثبات أن خط القسام – حافظ سلامة هو الخط الصحيح والقادر على تحقيق النصر.

- إن الله سبحانه وتعالى حينما قيض الشيخ حافظ سلامة ليقود جماهير السويس في تلك المعركة إنما معناه أن خط الاسلام الرسالي هو المنوط بأداء تلك الأمانة وأنه ليس عبثا أن يكون الشيخ حافظ سلامة في ١٩٤٤، ١٩٤٨ ضد اليهود – والمجاهد في ١٩٥١ ضد الإنجليز هو نفسه المجاهد ضد اليهود في ١٩٧٣ وأن ذلك ليس أمرًا عفويا).

يوميات معركة السويس

وصل الشيخ حافظ سلامة إلى السويس مساء ٦ أكتوبر العاشر من رمضان -... كان الشيخ يجتمع برجاله من أعضاء جماعة الهداية الإسلامية بمسجد الشهداء ويقررون المساهمة في المعركة – بالمساعدة في تجهيز الشهداء وخدمة الجرحى. ويقررون تقديم علبة من الحلويات لكل جريح.

ويذهب الشيخ إلى المستشفى حيث يشاهد صور البطولة الإسلامية التي استطاعت أن تسحق غرور اليهود.

- فها هو جريح قد فقد ساقيه ولا يريد أن يشرب إلا بعد المغرب حتى يظل صائما ويتمني أن يعود إلى المعركة.

- وها هو جريح يرفض تناول الماء رغم عطشه حتى يلقى الله وهو صائم.
- وآخر يقود سيارته وهو جريح لينقذ أحد زملائه.

إنها روح بدر وروح المهاجرين والأنصار. إنها روح الإسلام والسلف الصالح.

واستمر الشيخ حافظ ومعه رجال جمعية الهداية يؤدون واجبهم في خدمة الجرحى حتى يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣.

ويجد الشيخ أن عدد الجرحى والشهداء قد تزايد – ويكتشف الشيخ أن السويس محاصرة وذلك في يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ حيث إن قافلة من الجرحى قد تعرضت لضرب النيران الإسرائيلية عندما حاولت الخروج من مدينة السويس .

ويبادر الشيخ حافظ سلامة إلى العمل فورًا.. فيقوم بتوزيع المجاهدين على كمائن خشية دخول اليهود إلى المدينة ليلا (يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣).

ويقرر الشيخ أن يجعل مقر قيادة المجاهدين في مسجد الشهداء وهو مسجد أسسه الشيخ تحت اسم جماعة شباب محمد، ثم جماعة الهداية الإسلامية، وهكذا يدرك الشيخ ذلك البعد التاريخي بين المسجد والجهاد ضد اليهود.

ويأتي المحافظ في صلاة الفجر ليطلب من الناس أن يظلوا في أماكنهم وألا يتحركوا منها!

ويرفض الشيخ هذا المنطق ويقرر أنه لابد من التصدي لليهود. ويأمر الشيخ في التو الأخ المجاهد الشهيد أشرف عبد الدايم أحد أعضاء جمعية الهداية الإسلامية بأن يقوم بمحاولة سد مداخل المدينة ببعض السيارات بعد تدميرها وذلك لكي تكون كمتاريس لتعوق دخول اليهود المدينة. ويقفز الأخ أشرف كما لو كان يطير ويعود إلى الشيخ ليعطيه تمام قيامه بالمهمة.

يوم ٢٤ أكتوبر

بدأت القوات الإسرائيلية في التحرك صوب السويس – فيما تستعد كمائن المجاهدين للعمل بعد أن أخذوا أسلحتهم من الجرحى والشهداء.

ويتصدى الكمين الأول لمجموعة من الدبابات مكونة من ثلاث عشرة دبابة ويصيب الكمين دبابة وتفر باقي الدبابات إلى داخل المدينة.

ويتصدى نفس الكمين لمجموعة أخرى من الدبابات ويصيب دبابة في مقتل ثم دبابة أخرى ثم نوباز مما يشل حركة المجموعة ويفر أفراد المجموعة إلى قسم شرطة الأربعين الذي دارت المعركة بجواره تاركين وراءهم دبابتهم.

ويتصدى الكمين الثاني والموجود فوق مقهى أبو حجازية للدبابات التي فرت من الكمين الأول.. ويصيبون دبابة منها.

ويتصدى الكمين الثالث (الموجود فوق عمارة رونكا) لنفس المجموعة من الدبابات التي فرت من الكمين الأول مما يجعلها تفر في اتجاه بورتوفيق والتي كانت ملغومة فيتم تدمير تلك الدبابات (بواسطة تلك الألغام التي زرعها أبطال الصاعقة).

وتدور معركة أخرى في حي الأربعين بين المجاهدين وبين القوات اليهودية، وكان المجاهدون بقيادة الأخ الشهيد أحمد أبو هاشم، والأخ فايز حافظ والتي أسفرت عن تدمير ٦ دبابات بل وأحرقوها في أماكنها.

وتتوالى المعارك في داخل المدينة من منطقة إلى أخرى. وإذا بالقوات الإسرائيلية تأتي إلى منطقة مسجد الشهداء حيث أدركت تلك القوات أن المقاومة تنبع من المسجد. وتحاول تلك القوات محاصرة منطقة مسجد الشهداء وعمل كردون من سبعة دبابات حولها وكذلك ٣ مصفحات وتستطيع مصفحة منها أن تصل إلى أول شارع الشهداء وتضرب ضربات استكشافية في المنازل بل وتستطيع أن تصل إلى مسجد الشهداء بضرباتها. وأخرى تقف في أول الشارع وثالثة تقع في مدخل شارع سعد زغلول لضرب أي تحرك نحو المحافظة.

وكان بالدبابة التي تقف أمام المسجد حوالي ٨ أفراد وكان هدفها احتلال المسجد (مسجد الشهداء) بحراسة هذا الكردون من الدبابات والمصفحات.

ولكن عناية الله كانت لهم بالمرصاد فيقوم الملازم صفوت والجندي شوقي من

القوات المسلحة الباسلة بضرب إحدى هذه الدبابات المحاصرة للمنطقة فإذا بهم يصيبونها – وتدرك باقي الدبابات مصدر النيران فتصوب مدافعها على المكان فيستشهد الملازم صفوت – وينجو الجندي شوقي.

وكان أن تم فك الحصار وهروب الدبابات الإسرائيلية.

عودة إلى قسم شرطة الأربعين

بعد أن أتم الكمين الأول شل حركة الدبابات الإسرائيلية والمجموعة الثانية ودمر دبابتين منها وتوباز مما اضطر القوات الموجودة بها إلى تركها والالتجاء إلى قسم شرطة الأربعين.

و استطاع الجنود الإسرائيليون أن يحاصروا الضباط والجنود داخل خندق القسم حيث وقف جندي إسرائيلي أمام كل باب من أبواب الخندق وشهر سلاحه وطالب الموجودين بالخندق أن يلقوا أسلحتهم وأن يرفعوا أيديهم ويخرجوا. ولكن أحد الجنود الأبطال جاء من النافذة وأطلق النار على أحد الجنود اليهود مما جعل الآخر يفر.

وصعد جميع الجنود اليهود إلى الطابق الثاني من القسم..

وقام الشهيد إبراهيم محمد سليمان بمحاولة التسلق عن طريق دورة المياه للوصول إلى اليهود في الدور الثاني.. إلا أن اليهود استطاعوا أن يطلقوا عليه الرصاص فسقط شهيدا.

وقام الإخوة الشهداء إبراهيم محمد يوسف وأشرف عبد الدايم بالاشتباك مع اليهود. واستشهد الإخوان إبراهيم محمد يوسف – أشرف عبد الدايم.

وتجمع المجاهدون حول قسم الأربعين وبدءوا يضربون اليهود إلى أن حل الظلام وجاءت الطائرات الهيلوكبتر وأخلتهم من القسم.

– ولقد حاول اليهود دخول المدينة لإنقاذهم ولكن المقاومة الصلبة حالت دون ذلك.

وهكذا لم يبق في المدينة جندي واحد يهودي حي – ولقد ترك اليهود خلفهم ٣٣ جثة غير ما سحبوه معهم من الجثث (اليهود يهتمون جدا بسحب جثثهم – ألا يدل هذا على صلابة المقاومة)..

وانتهى يوم ٢٤ أكتوبر بتدمير حوالي ١٨ دبابة ومصفحة ، و٥ عربات وقد قام بحرق هذه السيارات الأخ محمد

عبد الرحيم مع بعض العمال العاملين معه في محل تصليح كاوتش كان يملكه الأخ محمد عبد الرحيم.

ولقد استطاع الأخ محمد عبد الرحيم مهاجمة تلك السيارات وحرقها عن طريق إشعال النار فيها، ولم يكن مع الأخ ورجاله متفجرات.

يوم ٢٥ أكتوبر

وترفض المدينة الباسلة الإنذار بالتسليم – وتتضامن القيادة العسكرية الباسلة مع المدنيين المجاهدين في رفض الإنذار اليهودي والاستمرار في الدفاع عن المدينة، وكذلك تتضافر كافة الأجهزة الطبية والتموينية ومسئولو الكهرباء والمياه في عمل كل الجهود لإبقاء المدينة صامدة.. وتستمر المقاومة..

- المقاومة تدمر ٦ دبابات في صباح ٢٥ أكتوبر.
- الشيخ حافظ يدير حركة الجهاد من مسجد الشهداء.
- أشاع اليهود عن طريق مكبرات الصوت أن المدينة قد استسلمت وأن على المدنيين والعسكريين أن يذهبوا إلى الاستاد الرياضي لتقوم القوات اليهودية بترحيلهم إلى القاهرة..

بيان تاريخي للشيخ حافظ سلامة

وهنا يتحرك الشيخ بوعي رسالى فذ ويصدر بيانا من مكبر الصوت الخاص بمسجد الشهداء.

(نداء إلى المواطنين – بعد حمد الله تبارك وتعالى والثناء عليه – والصلاة والسلام على رسول الله – إن اليهود قد أنذروا المدينة بالاستسلام وأن المدينة قد قررت رفض الإنذار (بإذن الله تعالى) ومواصلة القتال إلى آخر قطرة من دمائنا – وعلى كل فرد من أفراد المقاومة أن يظل في موقعه ويدافع إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.. وما النصر إلا من عند الله.

وهكذا استمر المقاتلون في مواقعهم – واستمرت القوات الإسرائيلية في ضرب المدينة – وبلبلة الأفكار فيها.

وإزاء هذا قام الشيخ البطل بتوجيه إنذار إلى القوات الإسرائيلية عن طريق مكبر الصوت في مسجد الشهداء. جاء فيه:

(اعلموا أيها الجبناء أننا في حاجة إلى لقائكم مرة ثانية على أرض السويس- وأن أرض السويس الطاهرة في حاجة أن تروى بدمائكم القذرة مرة ثانية – فإن استطعتم أن تدخلوا المدينة مرة ثانية فأهلا وسهلا بكم على أرض السويس ونحن في انتظاركم لنعطيكم دروسا أخرى بإذن الله تعالى).

وظل الشيخ يكرر هذا الإنذار مرارا وتكرارا.

فإذا اليهود الجبناء يوقفون إذاعتهم. وإذا بهم بعد رفض إنذارهم لا يطلقون طلقة واحدة. وألقى الله سبحانه وتعالى الرعب في قلوبهم.

وهكذا يأتي مدد الله سبحانه – للمجاهدين دائما.

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

اليهود أدركوا أنهم أمام مقاومة إسلامية وبالتالي فلا يمكن قهرها.

- مدد الله يأتي.. المعجزات تظهر..

في القرن الرابع عشر الهجري.. تظهر معجزات مباشرة.. فدائما مدد الله سبحانه وتعالى يأتي.. ولكن بعد أن يستكمل المجاهدون بذل ما في وسعهم.. ولقد بذل المجاهدون في السويس أقصى طاقاتهم.. فجاءهم مدد الله تعالى مباشرا.

- كان بالمدينة جراج وقد ضرب ذلك الجراج واحترقت كل السيارات الموجودة به ما عدا سيارة واحدة حفظها الله. فإذا بها محملة بالذخيرة فقد كان بها ٧٦ صندوقا من مختلف الذخائر.

يوم ٢٦ أكتوبر – يوم عيد الفطر مزيدا من المعجزات.

- كان هناك اتجاهان..

- الأول هو أن نصلي وأن يكون هذا تحديا لليهود.

- والثاني هو عدم الصلاة على أساس أن صلاة العيد سنة. وأن المدفعية الإسرائيلية تصل إلى المسجد والمنازل المحيطة به.

وقرر المجاهدون إقامة الصلاة. وبمكبرات الصوت.. وبدأ التكبير والتحميد وتوافدت الجماهير المسلمة إلى المسجد. لتعلن إسلاميتها ولتعلن تحديها من مسجد الله لتعلن تحديها لأعداء الله.. وكذلك جاء أفراد الجيش الثالث لأداء الصلاة وازدحم المسجد- وخارج المسجد بالمصلين.. وتتم الصلاة.. والطائرات تحوم – والمدفعية تقصف دون أن تستطيع طلقة واحدة.. أن تصيب فردا واحدا من المصلين..

الله أكبر.. لا إله إلا الله..

الله أكبر.. ولله الحمد..

الله أكبر كبيرا.. والحمد لله كثيرا.. وسبحان الله بكرة وأصيلا..

الله أكبر.. أعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده.

لا إله إلا الله.. ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون...

ويحفظ الله المصلين.. ويحرسهم بجند من عنده.. إنها معجزة رائعة واضحة أوضح من الشمس.. لا أستطيع معها أن أكتب أي تعليق.

إنها معجزة نعجز حقا عن وصفها..

وتتصاعد الدعوات الطاهرة من القلوب المؤمنة.

ويخرج الشيخ حافظ سلامة إلى خارج المسجد ليعانق الناس فردًا فردًا وليعطي كلا منهم كعكة من كعك العيد وكوبا من الشاي، ويأتي من ينبهه إلى أن الطائرات اليهودية فوق رأسه فيقول الله أكبر الحافظ هو الله.. وأننا في رعاية الله وحفظه ولن نمس بسوء إن شاء الله تعالي..

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ حقا.. إنها أعظم اللحظات في تاريخنا المعاصر.

- يذكر بعض شهود توزيع الكعك أن الشيخ حافظ قد وزع الكعك على آلاف المصلين من أهالي السويس ومن جنود الجيش الثالث من صندوق كان معه، ويستعجبون كيف لم ينفذ ذلك الصندوق..

ويرددن أنها بركة من الله..

- لا شك أن صلاة العيد كانت عملا مذهلا. فقد أصبحت السويس بعدها والجيش الثالث تملك روحا معنوية هائلة. ولم تعد قابلة للهزيمة على الإطلاق.

- ولم ينس الشيخ المجاهد.. رجاله المجاهدين في مواقعهم فأرسل لهم النقيب البطل حسن أسامة بكعك العيد.. وتهنئة الشيخ.

هدية العيد من الله

- أمام مدرسة التجارة الثانوية يشتبك المجاهدون مع الدبابات الإسرائيلية ويصاب سور المدرسة ويسقط شهيد.

- عند مصنع الأزرار يشتبك كمين من المجاهدين مع الدبابات الإسرائيلية ويسقط شهيد آخر.

- عند بابور المياه يشتبك المجاهدون مع دبابة كانت تريد اقتحام وابور المياه واحتلاله. فيدمرها المجاهدون...

وهكذا كانت هدية العيد من الله للمجاهدين ٦ دبابات.

وظل المجاهدون يقاومون إلى أن يئس العدو فأرسل الصواريخ وطلقات المدفعية دون جدوى.

وهكذا كانت حصيلة المعارك ٣٢ دبابة ومصفحة و٥ سيارات تحمل إمدادا ولم يستطع اليهود دخول المدينة.. بفضل الله تبارك وتعالى..

قوات الطوارئ الدولية تأتي.

- أعطى الشيخ تعليماته بعدم التعرض لقوات الطوارئ الدولية فما كان من العدو الغادر إلا أن تسلل من خلال قوات الطوارئ ويتقدم نحو المدينة تحت علم قوات الطوارئ الدولية.

ودخل اليهود من منطقة المثلث تحت هذا الستار (القوات الدولية) وكان على الشيخ أن يتحرك. وأعطى تعليماته أن يتصدى المجاهدون لأية قوة تحمل سلاحا.

فقام المجاهدون بالتصدي لليهود في منطقة الرفيات وأجبروهم على الفرار.

وتستمر المدينة في الصمود.. برغم حصار الجوع والعطش وبرغم ضرب المدفعية المستمر مع وجود قوات الطوارئ...

وكان المجاهدون يقومون بغارات على اليهود في أطراف المدينة.. حتى صرخ اليهود ولعنوا جولدا مائير.

المدينة تصمد للحصار

- قام اليهود بمنع المياه وذلك بقطع الترعة الحلوة عن المدينة.. ولكن عناية الله أكبر..

وتشح المياه تماما حتى أنه لا توجد مياه لغسل دورة مياه المسجد، ويشاء الله سبحانه أن يوفق الشيخ حافظ والشيخ عبد الله رضا (أحد المجاهدين الصامدين – وهو أحد الوعاظ الشرفاء)... فيقوم الشيخ عبد الله رضا بحفر بئر أمام المسجد على أساس الحصول على مياه مالحة لتنظيف دوره المياه بها ويشاء الله سبحانه أن تخرج المياه عذبة – وتشرب المدينة الباسلة... إنه مدد الله سبحانه...

سكر وفاتحة

ويأتي إلى الشيخ حافظ أحد رجال السويس وهو الحاج مبارك (٩٠ سنة) ويخبر الشيخ أن هناك بئر قديمة اسمها بئر سيدي المدبولي، وأن هذه البئر كانت تستخرج منها المياه بعد قراءة الفاتحة..

وذهب الشيخ إلى البئر وقرأ الفاتحة وإذا بالمياه تتدفق – فتتغذى المدينة – وتغذي الجيش المحاصر بسيناء.. واستمر تدفق المياه حتى نهاية الحصار..

حصار الجوع

وتصمد المدينة للجوع – فكان تعيين كل فرد نصف كيلو سكر، وعلبة بولبيف وعلبة سردين وعلبة باميا.. وهذا تعيين الفرد لمدة ٢٠ يوما.

وكانت روح الإيثار تظهر – فكان كل عشرة يشاركون في علبة واحدة ليوم كامل – ومعها رغيف خبز واحد لكل منهم.

وهكذا استطاع المسجد (مسجد الشهداء) أن يشرف على صمود المدينة للجوع..

ولكن من أين يأتي السولار لإدارة المخابز.. إنه مدد الله..

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يترك أحد الجنود سيارته المحملة بالسولار داخل أحد الحواري بالمدينة (خشية إصابتها بالطيران) ويقوم المجاهدون بالاستفادة منها وتوزيعها على المخابز – لتقوم بخبز حاجات المدينة..

وهكذا كان الله دائما مع المجاهدين..

واستمر صمود السويس.. وصمود الجيش المحاصر.. ليشكلا معا ملحمة إسلامية رائعة – وليفسدا معا طبخة كيسنجر اليهودي..

وهكذا فإن صمود السويس يشكل حلقة رائعة من حلقات الصمود العظيم على خط الإسلام الحنيف في مواجهة آخر حلقات التآمر الشيطاني وليثبت:

- كيف أن المسجد يلعب دورا في قيادة حركة الجماهير المسلمة والمجاهدة.

- وكيف كان المسجد يلعب دوره في التصدي للتضليل اليهودي ومنع استسلام المدينة.

- وكيف كان المسجد: مقر قيادة قوات المجاهدين والمقاومة بالسويس.

- وكيف كان الشيخ حافظ ذلك المجاهد الذي قاتل اليهود ١٩٤٤، ١٩٤٨ والإنجليز ١٩٥١ كيف كان ذلك الشيخ هو القيادة الطبيعية للجماهير المسلمة.. التي التفت حوله لتعلن بوضوح أن القيادات الإسلامية الرسالية وحدها هي القادرة على مجابهة التحدي وتحريك الجماهير.

- وكيف كان الإسلام – والإسلام وحده هو الإطار الصحيح للتحدي، وكيف كانت الطاقات الهائلة تنفجر من خلال ذلك الدين المكافح.

- وكيف أن «الإسلامية – حرب التحرير الشعبية» هي الشعار الصحيح الذي ما إن تمارسه الجماهير حتى تخر الصهيونية راكعة ومدركة عدم قدرتها على مواجهته.

- وكيف أن مدد الله تعالى دائما يأتي للمجاهدين.. انظر تفجر المياه العذبة والعربة المحملة بالسولار.. وكذلك احتراق كل السيارات ما عدا السيارة المحملة بالذخائر.. إنه مدد الله..

- وكيف أن الرعب يصيب اليهود بمجرد الاحتكاك بالجماهير المسلمة..

- وكيف أن الفتية المسلمين.. قد شاركوا في المعركة.. وذلك بمد المجاهدين بالذخائر.. شباب في سن ١٢ – ١٤ عامًا في المرحلة الإعدادية..

- كيف حاولت الأجهزة العلمانية – والسلطة السياسية – وجميع القوى السياسية الحاكمة أن تتجاهل معارك السويس.. وشهداء جماعة الهداية الإسلامية وبطولة الشيخ حافظ سلامة.. حيث إن هذا يسقط كل قناعاتهم الفكرية وفلسفاتهم العلمانية الهشة يمينية – ويسارية. كما أن هذا الإطار يفسد كل حلول التسوية التي

تؤمن بها تلك الجهات العلمانية المهادنة.

حقًا وما النصر إلا من عند الله..

قصة الشيخ حافظ مع المحافظ

في يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣ تقدمت إسرائيل بإنذار إلى مدينة السويس وكان الإنـذار عبارة عن تهديد بدك المدينة من الجو وبالمدفعية الثقيلة والدبابات الإسـرائيلية عـلى مشارف المدينة.. وقرر المحافظ وفقا لحساباته الخاصة تسليم المدينة.. ونما الخبر إلى علـم الشـيخ حـافظ فقـرر أن يتحـرك بسـرعة. واتصـل الشـيخ حـافظ بالحـاكم العسكري للمدينة وعقـد اجتماعـا في مقـر جمعيـة الهدايـة بالـدور الثـاني في مسـجد الشهداء.

وعرض الحاكم العسكري على الشيخ حـافظ قـرار المحـافظ بالتسـليم ورفـض الشيخ حافظ بشدة. وكما يروي الشيخ حافظ بأن المحافظ اتصل بالحاكم العسكري أثناء وجوده مع الشيخ في مقر جمعية الهداية ودار حوار بين الحـاكم العسـكري وبـين المحافظ. وقال المحافظ للحاكم العسكري لماذا لم تجهز الرايات البيضاء إنه لم يبـق على موعد التسليم سوى ساعة، ورد الحـاكم العسـكري عـلى المحـافظ بـأن الشـيخ حافظ يرفض التسليم، وتعجب المحافظ وهل الشيخ حافظ مدني أم عسـكري؟ هـل هو القائد أم أنا؟ هل أنت تنفذ أوامري أم تنفذ أوامـر الشـيخ حـافظ؟ ولمـاذا أصـلا تجلس مع الشيخ حافظ؟ ورد الحاكم العسكري عـلى المحـافظ بـأن هـذه المعركـة معركة مع اليهود وبالتالي فإن رجال الدين مثل الشيخ حافظ يجب أن نأخذ رأيهم.

ويروي الشيخ حافظ: وهنا انفعل المحافظ وقال له نفذ الأوامـر ولكـن الحـاكم العسكري قال: حسنا أعطني عشر دقائق وسوف أتصل بك.

ووضع الحاكم العسكري سـماعة التليفـون والتفـت الشـيخ حـافظ إلى الحـاكم العسكري وقال له لن نسلم مهما كان الأمر ومهما كانت الظروف. وحدث نقاش بين الشيخ حافظ والحاكم العسكري حاول الحاكم العسكري أن يشـرح للشـيخ حـافظ كيف أن المدينة مهددة بالتدمير. وكيف أن الأمور التموينية سيئة للغاية.

ورد الشيخ حافظ على الحاكم العسكري بأن المدينة تتعرض للتدمير منذ ست سنوات فلنجعلها ست سنوات وأيام، وأن المدينة تتعرض للقصف بالطيران وبالمدفعية منذ ١٩٦٧. فما الداعي للخوف من القصف. وبالنسبة للمواد التموينية فمتى كان المسلمون يخافون حصار الجوع.

وكما يروي الشيخ حافظ فإن الحاكم العسكري للمدينة كان رجلا شجاعا. كان قلبه مع الشيخ حافظ. كان مع عدم التسليم والمقاومة حتى آخر رجل.

واتصل الشيخ حافظ بمدير التموين الذي أعلن بشجاعة نادرة أنه سوف يتكفل بأمر التموين وسينجح إن شاء الله.

وهنا اتصل الحاكم العسكري بالمحافظ وأخبره بأن الرأي قد استقر على عدم التسليم. وأسقط في يد المحافظ.

في ذلك الوقت كانت مكبرات الصوت التابعة للمحافظة تعلن للناس أن المدينة قررت الاستسلام وأن على الناس أن يذهبوا إلى الاستاد.

ولكن حركة الشيخ مع كل من الحاكم العسكري ومدير التموين استطاعت أن توقف أثر هذه المكبرات التابعة للمحافظ وأمسك الشيخ مكبر الصوت الخاص بالمسجد وأعلن أن المدينة لن تستسلم وأن الشيخ حافظ مسئول عن كل المدنيين والعسكريين في المدينة..

وذهب المحافظ كما يروي الشيخ إلى أحد البيوت ليقبع فيه مكتفيا بشرب العصير المثلج في الوقت الذي راح فيه الشيخ حافظ والحاكم العسكري ومدير التموين يعدون العدة للمقاومة.

واستمرت المقاومة الباسلة. ولم تستسلم المدينة.

معجزة أخرى

كان الشهيد إبراهيم سليمان قد أوصى بأن يصلي عليه الشيخ حافظ شخصيا وأن يقوم الشيخ أيضًا بدفنه ولكن حالت ظروف المعركة دون ذلك.

بعد المعركة بحوالي العام كان قد تقرر نقل جثث الشهداء إلى مكـان آخـر. وجـاء الشيخ ومعه مجموعة من الرجال ليقوموا بنقل الجثث. وكانت المفاجأة التي أذهلت الجميع.. لقد وجدت جثة الشهيد كما هي دون أن تتحلل. كـان الشـهيد كمـا يـروي الشيخ ما زال مبتسما برغم مرور عام على وفاتـه. كانـت رائحـة أطيـب مـن المسـك تنبعث منه.

ونادى الشيخ على كل الحاضرين. هل تذكرون وصية الشهيد؟ قالوا نعم نذكر أنه قد أوصى بأن تقوم أنت بالصلاة علية ودفنه، وقال ها هو جثمانـه مـا زال كمـا هـو لم يتحلل. إنه ينتظر أن نوفي بوصيته، وقام الشيخ بالصلاة عليه ودفنه في المكان الجديد. وهكذا أراد الله لوصية الشهيد أن تتحقق.

الصراع على المياه في الشرق الأوسط

إذا كان الصراع على البترول قد شكل مساحة كبيرة من معادلات وأحداث المنطقة منذ عقود كثيرة وحتى الآن، فإن الصراع على المياه يمكن أن يكون أشد حدة؛ ذلك أن المياه في التحليل النهائي أهم من البترول وأغلى؛ فهو سر الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ولا شك أن الإدراك المبكر لأهمية المياه، ومعرفة طبيعة الصراع القادم حولها سيؤثر على أمتنا إذا ما أحسنوا الاستعداد بكثير من الجهد والتضحيات، ويؤمّن لهم مستقبلاً معقولاً، أما إذا ظل العرب في حالة غفلة عن هذه التقنية الخطيرة فإن مجرد وجودهم على سطح الأرض سيصبح أمراً صعباً!

ومن المهم هنا أن نقرر حقيقة بدهية، أن هناك علاقة مباشرة بين الأمن العربي بعامة ومسألة تأمين مصادر المياه. وإذا كان الأمن العام لدولة ما هو الإجراءات التي تتخذها تلك الدولة لتحافظ على كيانها ومصالحها في الحاضر والمستقبل، فإن فهم الأمن على أنه موضوع الدفاع العسكري داخلياً وخارجياً هو أمر سطحي وضيق؛ لأن الأمن العسكري هو وجه سطحي ضيق لمسألة الأمن الكبرى كما يقول روبرت مكنمارا وزير الدفاع الأمريكي الأسبق؛ فهناك الكثير من الجوانب غير العسكرية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسألة الأمن القومي، ومن هذه الجوانب بالطبع مسألة الأمن الغذائي والاقتصادي ومسألة المياه على رأس تلك الجوانب.

وإذا أخذنا مسألة الأمن الغذائي كمحدد لفهم مستقبل العالم العربي لوجدنا أن الأمر مفزع؛ ذلك أنه إذا كان من يمتلك غذاءه يمتلك قراراً؛ فإن وجود فجوة غذائية في العالم العربي تصل إلى حوالي ٦٠ مليار دولار سنوياً هي الفرق بين الصادرات والواردات العربية مما يمثل مشكلة خطيرة، بل ونسبة الاكتفاء الذاتي من أهم السلع الاستراتيجية في مجال الغذاء لا تزيد عن ٣٩٪، وهذه النسبة لها أهميتها؛ ونراها في حالة الدول ذات الأهمية في المنطقة العربية مثل مصر التي يبلغ اكتفاؤها الذاتي من القمح ٢٧٪.

وإذا أخذنا في الاعتبار أن السوق العالمية للقمح تتشكل من دول ذات توجهات سياسية ومتعارضة معنا، لأدركنا فداحة المشكلة؛ فالدول الكبرى المسيطرة على سوق تصدير القمح هي «أمريكا، كندا، أستراليا، السوق الأوروبية المشتركة»؛ حيث يمكنها التكتل في احتكار للتحكم ليس في تصدير القمح فقط بل وفي أسعاره كذلك.

وهكذا فإن المسألة الغذائية تفجر بالضرورة مسألة الماء؛ حيث إن الماء هو العنصر الأساس للزراعة القادرة بدورها على سد تلك الفجوة الغذائية. وبالطبع لا تقتصر أهمية الماء على مسألة الزراعة؛ فالماء ضروري للتصنيع أيضاً، فضلاً عن أهميته لتلبية الاستهلاكات البشرية المباشرة من مياه شرب وغسيل وغيرها، وليس عبثاً بالطبع أن تكون معظم الحضارات قد نشأت حول مصادر المياه.

ومشكلة المياه في الوطن العربي ذات أبعاد كثيرة؛ فالوطن العربي يقع في الحزام الجاف وشبه الجاف من العالم، وتقل فيه الموارد المائية المتجددة عن ١٪ من المياه المتجددة في العالم، ونصيب الفرد العربي من المياه ١٧٤٤ متراً مكعباً سنوياً، في حين أن المعدل العالمي يصل إلى ١٢٩٠٠ متر مكعب سنوياً، ومعدل هطول الأمطار في الوطن العربي بين ٥ ـ ٤٥٠ ملم سنوياً، في حين يتراوح في أوروبا مثلاً بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ملم سنوياً. وتمثل الصحارى في الوطن العربي مساحة ٤٣٪ من إجمالي المساحة الكلية للوطن العربي، وفي عام٢٠٠٥م حيث بلغ عدد سكان الوطن العربي ٣٠٠ مليون نسمة فإن عجز الموارد المائية العربية وصل إلى ١٢٧ مليار متر مكعب؛ وذلك لأن حجم الموارد المائية المتاحة ً تبلغ ٣٣٨ مليار متر مكعب سنوياً لا

يستثمر منها إلا ١٧٣ مليار متر مكعب! في حين أن الوطن العربي يحتاج لتلبية احتياجاته من المياه ـ إذا أحسن استخدامها، وتم عمل خطط لسد الفجوة الغذائية ـ إلى حوالي ٥٠٠ مليار متر مكعب من المياه سنوياً.

والموارد ومصادر المياه في الوطن العربي تتمثل في الأمطار والمياه السطحية «الأنهار» والمياه الجوفية، ولعل المشكلة حول المياه السطحية «الأنهار» هي الأهم؛ فالمياه السطحية المتاحة حالياً للوطن العربي تبلغ ١٢٧.٥ مليار متر مكعب سنوياً، تحوز ثلاثة أقطار عربية حوالي ٧١٪ منها، هي مصر والعراق والسودان، ومن المفروض أن يزيد حجم الموارد السطحية ليصل إلى ٢٥٦ مليار متر مكعب من المياه؛ أي ضعف ما هو متاح حالياً عن طريق مشروعات الري والسدود مثل قناة جونجلي في السودان.

وإذا أدركنا أن ٦٧٪ من مياه الأنهار «المياه السطحية» في البلدان العربية تأتي من خارج بلادهم لعرفنا حجم ما يمكن أن يحدث من مشكلات إذا قام العرب بعمل تنمية أو سدود تؤدي إلى زيادة مواردهم، وعلى سبيل المثال فإن نهر النيل ينبع من إثيوبيا «النيل الأزرق»، وبحيرة فكتوريا «النيل الأبيض»، ويمر في تسع دول إفريقية هي «إثيوبيا، كينيا، أوغندا، تنزانيا، رواندا، بوروندي، والكونغو والسودان ومصر»، ويقطع مسافة من أبعد منابعه على روافد بحيرة فكتوريا نيانزا في قلب إفريقيا إلى ساحل رشيد على البحر الأبيض المتوسط في مصر حوالي ٦٧٠٠ كم.

أما نهرا الفرات ودجلة فينبعان من الجبال الواقعة شمال تركيا، ويمر الفرات عبر سوريا ثم العراق. أما نهر دجلة فيمر من تركيا إلى العراق مباشرة.

وبالنسبة لنهر النيل ـ مثلاً ـ الذي تعتمد مصر عليه اعتماداً شبه كامل في اقتصادياتها وخاصة الزراعة؛ فإن نصيب مصر منه يصل الآن إلى ٥٥.٥ مليار متر مكعب سنوياً، والسودان إلى ١٨.٥ مليار متر مكعب سنوياً، وبديهي أن مصر والسودان يسعيان إلى زيادة مواردهما من مياه النيل عن طريق مجموعة من المشروعات، وهذه المشروعات لن تؤثر على حصة دول المنبع؛ لأن المياه قد تركت أراضيهم بالفعل من ناحية، ولأن هذه

الدول لها مصادر مياه غنيـة جـداً، فإثيوبيـا مـثلاً التـي يـأتي منهـا ٨٥٪ مـن ميـاه النيـل المستخدمة في مصر ليست في حاجة إلى مياه النيل أصلاً؛ لأن مواردها المائية أعلى كثيـراً من احتياجاتها، ولكن الأمر ليس بهـذه البسـاطة؛ حيـث تسـعى قـوى عالميـة وإقليميـة لحرمان مصر من حصة كبيرة من المياه أو منها على الأقل من زيـادة مواردهـا مـن تلـك المياه؛ فإسرائيل تسعى إلى زيادة نفوذها في القرن الإفريقي ومنطقـة البحيـرات الكبـرى، وكذلك أمريكا التي نجحت أخيراً في تحقيق أكبر قدر مـن النفـوذ عـلى كـل مـن إثيوبيـا وأوغندا والكونغو «ميذكابيلا» ورواندا وبورندي.

والمخططات المعادية لمصر في هذا الصدد كثيرة وهنـاك مخطـط قـديم يقضـي بمحاولة تحويل مجرى النيل في إثيوبيـا، وقـد قـام المكتـب الأمريكـي لاستصـلاح الأراضي بعمل الدراسات الخاصة به إلا أنه بالطبع لم ينفـذ، ولكنـه يشـكل فكـرة في الأدراج يمكن تنفيذها فيما بعد للضغط على مصر، وهناك الآن عـدد مـن الدراسـات الجاهزة لإقامة سدود على النيل في إثيوبيا سوف يمولها البنك الدولي تؤثر على حصـة مصر من المياه بنسبة ٢٠٪ سنوياً، أي ٧ مليارات متر مكعب من المياه، بـل ووصـل التفكير إلى حد أن هناك خطة تقضـي بتحويـل كـل مصـادر الميـاه في تلـك المنطقـة لتصب في منطقة البحيرات العظمى في وسط القارة كخزان عملاق للمياه، ثم بيع هذه المياه لمن يريد ويـدفع الـثمن كـالبترول تمامـاً، ويمكـن كـذلك تعبئتهـا في براميـل تحملها السفن أو عن طريق أنابيب لبيعها لدول خارج القارة، وتطالب إسرائيل أيضاً بمدها بنصيب من مياه النيل عن طريق سيناء، وإلا قامت بإحداث متاعـب لمصـر في منابع النيل في إثيوبيا ومنطقة البحيرات.

وفي الحقيقة فإن المطامع الإسرائيلية في مياه النيل قديمـة قـدم المشـروع الصـهيوني ذاته، فقد تقدم الصهاينة في بداية هذا القرن بمشروع إلى اللورد كرومر المندوب السـامي البريطاني في مصر لهذا الغرض إلا أن ذلك المشروع قـد رفـض، وفي عـام ١٩٧٤م قـام مهندس إسرائيلي «إليشع كيلي» بتصـميم مشـروع لجلـب الميـاه لإسـرائيل مـن الـدول المجاورة على أسـاس أن إسـرائيل سـتعاني مـن مشـكلة ميـاه في المسـتقبل، ويـتلخص المشروع بالنسبة لنهر النيل في توسيع ترعة الإسماعيلية حتى يزيـد معـدل تـدفق الميـاه

داخلها إلى ٣٠ متراً مكعباً في الثانية، ونقل هذه المياه عن طريق سحارة تمر أسفل قناة السويس، ثم تصب المياه على الجانب الآخر من القناة في ترعة مبطنة بالإسمنت لمنع تسرب المياه، وتصل هذه الترعة إلى ساحل فلسطين المحتلة وتل أبيب، ثم في خط آخر يتجه جنوباً نحو بئر السبع لعرب صحراء النقب، وتسعى إسرائيل وفق هذه الخطة إلى الحصول على ٨ مليارات متر مكعب من المياه سنوياً من النيل، وقد تكرر الحديث عن هذا المشروع فيما بعد خاصة بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٩م.

وبالنسبة لنهر الفرات الذي ينبع من تركيا ويمر في سوريا والعراق، فإنه نشأت حول حصص المياه والتدفق في هذا النهر العديد من المشاكل بين كل من تركيا وسوريا والعراق، وتستخدم تركيا مسألة المياه للضغط السياسي على سوريا مثلاً، ومن الناحية الفنية فإن سوريا لديها عجز في المياه يقدر بحوالي مليار متر مكعب سنوياً، ومع قيام تركيا بمشروعات كبرى على نهر الفرات تقضي بإنشاء ١٣ سداً، نفذت بالفعل منها سد أتاتورك عام ١٩٩٠م؛ فإن معدل التدفق في النهر قد انخفض مما أثر على كل من سوريا والعراق، كما أن قيام سوريا بدورها بإنشاء سدود على الفرات يؤثر على العراق الذي يصل إليه النهر في النهاية، بل قد وصلت الأمور إلى حافة الصدام بين سوريا والعراق عام ١٩٧٤م.

وهناك مشروعات يتم التفكير فيها الآن خاصة بعد التحالف العسكري التركي الإسرائيلي بنقل المياه من تركيا إلى إسرائيل عبر أنبوب طويل يسير في البحر المتوسط إلى شواطئ إسرائيل، وهذا يحقق لتركيا موارد مالية من بيع المياه، ويحقق لإسرائيل تلبية حاجاتها من المياه بثمن بسيط، ولكن هذا بالطبع سيكون على حساب كل من سوريا والعراق.

كانت المياه من أهم العوامل التي نشأت بسببها الحروب بين العرب و(إسرائيل)، فالعمليات العسكرية الإسرائيلية على الحدود السورية اللبنانية عامي ١٩٦٤، ١٩٦٥م كانت بسبب الأطماع الإسرائيلية في مياه نهر الأردن ونهر بانياس ونهر اليرموك ونهر الحاصباني، كما كان من أسباب حرب ١٩٦٧م موضوع تحويل مجرى نهر الأردن، وفي عام ١٩٨٢م شنت إسرائيل حملة عسكرية على لبنان كان من

أهدافها أطماع إسرائيل في نهر الليطاني.

وتسعى (إسرائيل) كما ذكرنا من قبل إلى الحصول على مياه نهر الفرات من تركيا مباشرة، وكذلك الحصول على حصة من مياه نهر النيل عن طريق قناة الإسماعيلية باتجاه النقب وساحل (إسرائيل).

وتعتبر المياه محوراً هاماً من محاور الفكر الصهيوني؛ فبعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م تقدم حاييم وايزمان رئيس المؤتمر الصهيوني آنذاك إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا طالباً تحسين حدود إسرائيل حسب وعد بلفور، لتضم حوض الليطاني وجبل الشيخ وحرمون أي تضم أنهار الأردن وبانياس واليرموك.

ويقول الصهيوني بلسان هوارس عام ١٩٢١م: «إن مستقبل فلسطين بأكمله هو بين أيدي الدولة التي تبسط سيطرتها على الليطاني واليرموك ومنابع الأردن».

وأعلن ديفيد بن جوريون عام ١٩٥٥م «أن اليهود يخوضون مع العرب معركة المياه، وعلى نتيجة هذه المعركة يتوقف مصير إسرائيل، وأننا إذا لم ننجح في هذه المعركة فإننا لن نبقى في فلسطين».

ومن المعروف أن الحدود الإسرائيلية المستهدفة طبقاً للخريطة المعلقة على الكنيست في إسرائيل هي من النيل إلى الفرات أي من ماء إلى ماء.

على كل حال فإن إسرائيل توفر حاجاتها المتزايدة من المياه التي تصل ٣.٥ مليار متر مكعب حالياً، وتريد إسرائيل زيادتها إلى ١٢ ملياراً للتوسع في مشروعاتها، وتحصل عليها الآن إما من سرقة مياه الآبار العربية بوسائل تكنولوجية معقدة داخل الأراضي المحتلة، أو من مشروعات تستهدف السيطرة على أكبر قدر ممكن من مياه الأنهار العربية وحرمان الآخرين منها خاصة على أنهار الليطاني والحاصباني وبانياس واليرموك والأردن. وبالطبع فإن الفجوة المائية بين ما تنهبه إسرائيل حالياً من المياه العربية وبين ما تستهدف نهبه يمكن أن يشكل عنصراً هاماً من عناصر اندلاع حروب قادمة في المنطقة.

.. العداء للسامية
الأصل والصورة

ظهر مصطلح العداء للسامية لأول مرة عام ١٨٧٩ على يد الصحفى الألمانى اليهودى فيلهيلم مار عندما أصدر كتابا بعنوان انتصار اليهودية على الألمانية وكانت تلك الفترة قد شهدت أحداثا اقتصادية ومضاربات عقب الحرب الفرنسية البروسية أدت إلى إفلاس كثير من الأغنياء الألمان فى بروسيا وفرنسا وعدد من دول شرق ووسط أوروبا، وحمل الأوروبيون وقتها المسألة والمسئولية على اليهود، الذين تم اتهامهم بأنهم متآمرون، وبدأت سلسلة من الاضطهادات ضدهم، وفى الحقيقة فإن الاضطهاد الأوروبى لليهود شكل مساحة كبيرة من التاريخ الأوروبى لأسباب كثيرة لعل أهمها الروح العنصرية الأوروبية التى لا ترى الحق فى الإنسانية إلا للأوروبي، والاضطهاد الأوروبى والعنصرية الأوروبية لم تطل اليهود وحدهم بل طالت المسلمين والزنوج والهنود الحمر، فالعنصرية جزء لا يتجزأ من الوجدان الأوروبى والقيم الحضارية الأوروبية.

ولعلنا نفهم المسألة إذا أدركنا أن حرب الاسترداد المسيحية الأوروبية للأندلس إسبانيا والبرتغال شهدت اضطهادا وإبادة لكل مسلم ويهودى على حد سواء، وقد استمرت تلك العملية بصورة أو أخري، ولكنها طالت اليهود فيما بعد أكثر لأن هؤلاء ظلوا كأقليات فى بعض الدول الأوروبية، ولعل تاريخ روسيا العنصرية وألمانيا النازية مفعم بحوادث الاضطهاد تلك، فى حين أن اليهود عاشوا فى بلاد مثل إيران

واليمن والعراق ومصر والمغرب وليبيا وغيرها من البلاد الإسلامية بدون أى مشاكل من أى نوع، وحصلوا على امتيازات وثروات فى طول البلاد الإسلامية وعرضها حتى قيام إسرائيل حين فضل عدد منهم بسبب الغباء والتضليل الهجرة إلى إسرائيل، ولكن من بقى منهم فى إيران أو المغرب أو مصر أو العراق أو غيرها ظل يتمتع بحقوق المواطنة وروح التسامح الإسلامى المعروف حتى اليوم.

استخدمت الجماعات الصهيونية والموالون لها مصطلح العداء للسامية لترعب به كل من ينتقد اليهود أو الإسرائيليين أو الصهيونية، وذلك عندما بدأ التحالف الغربى الصهيونى المعاصر، ولكن حقيقة المصطلح والمشاعر مخالفة لما يستخدم فيه، والصورة المستعملة تخالف الأصل تماما.

العداء للسامية فى حقيقته هو عداء عنصرى أوروبى ضد كل الجنسيات السامية من عرب ويهود وغيرهم، وهو جزء من العنصرية الأوروبية المعروفة، ويمكن لأى متابع للثقافة الأوروبية فى كل عصورها بما فيه ما يسمى بعصر الاستنارة والتنوير أن يكتشف جذور وملامح تلك العنصرية ومنها العداء للسامية بالطبع، بل إن الدكتور عبدالوهاب المسيرى فى موسوعته عن اليهود واليهودية والصهيونية أثبت أن الألمان الذين كانوا يقتلون اليهود فى الحقبة النازية كانوا يستخدمون كلمة المسلمين للدلالة على هؤلاء اليهود وهو ما يكشف مضمون العداء للسامية، وكذا فإن الكاتب الفرنسى هانوتو عام ١٩٠٠ قد زعم فى حواره مع الشيخ محمد عبده أن هناك عيوبا أخلاقية مثل الكسل فى الجنس السامى على عكس الآرمى لأسباب تتصل بالعقائد، ورد عليه الشيخ محمد عبده مفنداً ذلك ومدافعا عن العرب والمسلمين واليهود.

فى إطار الروح العنصرية والعداء للسامية حاول الأوروبيون التخلص من اليهود فى أوروبا ـ كزبالة بشرية ـ فنشأت فكرة، إنشاء وطن لهم فى فلسطين لتحقيق هدف التخلص منهم، ولاستخدامهم كجماعة وظيفية تقوم بدور الوكيل عن الغرب ـ ثم أمريكا ـ ومفرزة عسكرية متقدمة ورأس جسر للغرب فى قلب العالم العربى والإسلامى لمنع نهضته والكيد له وضربه كلما كان ذلك مطلوبا على يد هذه الجماعة الوظيفية، وهكذا نشأت فكرة الصهيونية أو إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين فى

أروقة أجهزة المخابرات ودوائر وزارات الخارجية الأوروبية منذ نابليون بونابرت الذى دعا إلى ذلك فعلا وحتى وعد بلفور ١٩١٧، وقد تلقف عدد من اليهود غير المتدينين الفكرة ودعوا إليها بدءا من هرتزل ١٨٩٧ وانتهاء بوايزمان وبن جوريون حتى تأسست الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ وهكذا فإن الذين تلقفوا الفكرة من اليهود الصهاينة إنما ساعدوا الغرب وكانوا أداة له للتخلص من اليهود فى أوروبا والنكاية فى العالم العربى وتحويل هؤلاء اليهود الصهاينة إلى جماعة مرتزقة تقوم بدور العدوان لحساب الغرب، وهكذا فإن إنشاء دولة إسرائيل فى حد ذاته هو نوع وتجسيد للعداء للسامية وأحد إفرازات هذا العداء وأكبر تجلى له، وقد أدرك هذا الأمر عدد من اليهود غير الصهاينة الذين رفضوا قيام إسرائيل ولا يزالون يدعون إلى إزالتها، ورفضوا الفكرة الصهيونية من أساسها باعتبارها فكرة معادية لليهود واليهودية وأوامر الرب على حد سواء، والأمر كذلك بالفعل، ولعل جماعة ناطورى كارتا بمن فيها من يهود وحاخامات خير مثال على ذلك.

نحن كعرب وكمسلمين لسنا معادين للسامية، لأننا لن نعادى أنفسنا، بل العداء للسامية فى جوهره موجه لنا نحن، وإسرائيل هى التجسيد الأكبر للعداء للسامية، وهكذا فإن النضال من أجل إزالة إسرائيل هو جوهر ومضمون النضال ضد فكرة العداء للسامية ونحن أيضا لسنا معادين لليهود واليهودية، لكم دينكم ولى دين ، ومطالبون بالعدل مع غير المسلمين والتسامح معهم ولكننا فى نفس الوقت شديدو العداء للإسرائيليين وكل من يعيش فى فلسطين المحتلة من اليهود ما عدا اليهود من أصل فلسطينى وهم عدة آلاف فقط وندعو اليهود الذين يعيشون فى فلسطين المحتلة إلى مغادرتها والعودة من حيث أتوا، وندعو الدول العربية والإسلامية إلى فتح أبوابها لعودة من يريد العودة من اليهود من إسرائيل للعيش فى تلك البلاد وذلك لحل المشكلة الفلسطينية ومن لا يريد أن يترك فلسطين لأهلها، فإنه يستحق بالتالى القتل وهو مجرم وسفاح، ومغتصب، وهكذا فنحن ندعو إلى الكفاح المسلح لتدمير إسرائيل وتدمير هذا الكيان الاستعماري، ونؤيد العمليات الاستشهادية ضد كل إسرائيلى فى فلسطين المحتلة، لأنه ببساطة مغتصب يستحق القتال والقتل، ولن

تسقط عنه صفة المغتصب ما لم يرجع من حيث أتى أو أتى آباؤه ويترك فلسطين لأهلها الشرعيين.

لا يعنينا بالطبع مناقشة ما إذا كان اليهود حقا يتآمرون على الشعوب ويستحقون بالتالى الاضطهاد الذى وقع عليهم، أم أن ذلك كان نوعا من العداء الوجدانى الداخلى المتصل بالمسيحية أو غيرها لليهود بسبب موقفهم من المسيح، كما لا يعنينا إن كانت البروتوكولات المنسوبة لهم صحيحة أم ملفقة ولا يعنينا الحديث عن موضوع استخدام دم مسيحى لفطير صهيون يوم عيد الفصح، أو غير ذلك مما يقال عن اليهود، الذى يعنينا أننا نرفض الظلم الذى وقع على أى إنسان حتى لو كان يهوديا، ونقبل أن يحاكم كل من يتآمر على شعب من الشعوب وينال عقابه فردا كان أو جماعة، ويعنينا أيضا أن ندافع عن حقوقنا المشروعة فى فلسطين بكل الوسائل بما فيها العمليات الاستشهادية ضد كل ما هو إسرائيلى وفى كل مكان فى العالم، ويعنينا أن نفهم أن إسرائيل فكرة صهيونية، وإفراز غربى أيضا وألا تخدعنا تصريحات هنا وهناك عن حقيقة أن إسرائيل مجرد عصا يمسك بها الغرب وأمريكا لقمعنا ونهبنا والقضاء على حضارتنا وربما وجودنا وأنه يجب تحطيم العصا ومن يحملها أيضا، وأن المعركة طويلة وصعبة وقاسية، وفى كل الأحوال نحن ضد العنصرية ولا نقبل أن نمارسها أو يمارسها أحد علينا أو على غيرنا، وضد الظلم والعدوان وضد المشروع الصهيونى الأمريكى الغربى الذى هو معاد للسامية فى جوهره، وليس من العدل ولا الإنصاف ولا المصلحة لنا أن نتورط فى الدفاع عن هتلر أو الفرح بتصريحات لوبان ضد اليهود أو غيرها من الممارسات العنصرية الأوروبية لأنها تشملنا أيضا.

وهكذا فإن العداء للسامية كان هو السبب فى ظهور إسرائيل ودعمها واستمرارها، لأن العداء للسامية وجدان غربى موجه ضد العرب والمسلمين قبل اليهود.

ــ النفط ـ الصراع ـ والدم

شكل النفط ولا يزال منذ اكتشافه عام ١٨٥٩م وحتى الآن أحد أهم أسباب الصراع فى العالم، وقد شغل هذا الصراع على النفط مساحة كبيرة من خريطة الصراع العالمى طوال القرن الماضى، ومن المرشح أن يستمر هذا الأمر لفترة طويلة قادمة فى قرننا الحالى.

فى عام ١٨٥٩ حفرت الولايات المتحدة الأمريكية أول بئر نفطى فى أراضيها لتحدث بذلك نقلة نوعية هائلة فى موضوع الطاقة ومن ثم الاقتصاد والسياسة والصراع والحروب والعلاقات الدولية.

كان العالم الصناعى قبل ذلك العام يعتمد على الفحم الحجرى كمصدر للطاقة، وكان هذا الفحم موجود تقريبا فى معظم الدول الصناعية، وبالمقاومة بالنفط فإن الفحم الحجرى كان يحتاج إلى تكاليف نقل باهظة وحيزا كبيرا فى تشكيل الآلة الصناعية، وهكذا اكتسح النفط سوق الطاقة، ولكنه لم يكن متوفرا فى كل مكان كالفحم، بل تركز إنتاجه فى أماكن معينة وبالتالى كان من الطبيعى أن يحدث الصراع حول النفوذ فى تلك المناطق وحول طرق المواصلات المتصلة بنقل النفط من أماكن إنتاجه.

أحدث اكتشاف النفط ثورة هائلة فى شكل الآلة وحجمها وقدراتها وأصبح

بمثابة الدم الذى يجرى فى شريان الصناعة والحرب والنقل، بل إن اكتشاف النفط شكل فى حد ذاته حافزا علميا هاما لتسهيل المزيد من الاختراعات، ويمكننا أن نقول أن الطائرة والصاروخ والأقمار الصناعية وغيرها من الآلات المتقدمة لم تكن لترى النور بدون النفط. ولايزال النفط حتى اليوم يشكل العصب الرئيسى للطاقة، وحتى عندما ارتفعت أسعار النفط عقب حرب رمضان «أكتوبر»١٩٧٣ وشعرت الدول الصناعية الكبرى وخاصة فى أوروبا وأمريكا بإمكانية تحكم الدول المنتجة فى الأسعار أو فى ربط ذلك بالمواقف السياسية حاولت الدوائر العلمية فى تلك الدول أن تبحث عن بديل للبترول بأسعار معقولة، وروجت تلك الدوائر أن ذلك ممكن ومتاح ولكن مع الوقت اكتشف الجميع أن تلك لم تكن إلا خدعة إعلامية لبعث الخوف والتراجع فى صفوف منتجى الطاقة البترولية حتى لا تزداد رغبتهم فى زيادة الأسعار، وأفضل مصدر معروف للطاقة حتى الآن وكان من الطبيعى أن تحاول الدول الصناعية الكبرى السيطرة على منابع النفط بصورة أو أخرى ومحاولة التأثير بكل الوسائل على المنتجين، ودخلنا من وقتها مايسمى بالدم مقابل النفط، أى استعداد تلك الدول لنشر جيوشها وخوض الحروب من أجل تحقيق تدفق آمن ورخيص للنفط، ومنذ ذلك الوقت كان النفط هو العامل الأهم فى الصراع الدولى.

عقب حفر أول بئر للنفط فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٥٩ بدأت كل الدول الصناعية فى البحث عن تأمين مصادرها من النفط وبدأ البحث والتنقيب فى كل مكان بالعالم، وشاءت إرادة الله أن يتواجد النفط فى معظمه ـ فى أقطار ـ عربية وإسلامية ونجحت شركة النفط «الأنجلوفارسيا» فى حفر أول بئر بترولى فى إيران ثم بدأ النفط يظهر فى العراق والكويت والخليج العربى عموما، وتسابقت دول مثل بريطانيا وألمانيا وفرنسا لعقد صفقات مع مشايخ وحكام منطقة الخليج وإيران، إلا أن الولايات المتحدة دخلت على الخط عام ١٩٣٣ ونجحت شركة ستاندرو أويل كومبانى أوف كاليفورنيا فى توقيع عقد مع العربية السعودية، وصدر المرسوم الملكى رقم ١١٣٥ فى ٧ يوليو ١٩٣٣ بمنح تلك الشركة حق التنقيب واستخراج النفط فى المملكة وخاصة فى الجزء الشرقى منها «منطقة الإحساء».

كانت السيطرة على النفط تعنى ضمان استمرار عمل الآلة الصناعية والآلة العسكرية معا، أى الرخاء والقوة، وكان بالإضافة إلى ذلك يمثل قطاعا هاما للاستثمار الرأسمالى، وهكذا كان النفط محورا لصراع الرأسماليات والشركات والدول ومقاولى النقل، بل والافاقين فضلا عن العسكريين بالطبع.

ومع تصاعد حركات التحرر الوطنى عقب الحرب العالمية الثانية. نجاح معظم الدول المحتلة فى تحقيق استقلالها، تقلص نفوذ الدول الاستعمارية التقليدية بريطانيا ـ فرنسا ــ ألمانيا ــ بلجيكا، البرتغال ـ هولندا .. الخ، وأصبحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى هما قطبا الصراع، ولأن الاتحاد السوفيتى السابق كان يمتلك النفط فى أراضيه، وليست لديه شركات رأسمالية تطمع فى بترول الآخرين، فإن الثقل الأساسى لمحاولة السيطرة على النفط صب فى خانة الولايات المتحدة الأمريكية التى تطلعت بدورها واستغلال ثرواتها.

وفى ظل حالة الاستقطاب الدولى بين الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية والولايات المتحدة ودول حلف شمامل الأطلنطى، ومع صعود حركات التحرير الوطنى فى معظم بلاد العالم النامى وخاصة الدول النفطية، تطلعت الدول المنتجة للنفط إلى السيطرة على ثروتها الأساسية، وظهرت حركات وحكومات ودول أممت أو سعت إلى تأميم إنتاج النفط، وكان ذلك جزءا من التحرر والكرامة وجزء من استعادة الثروة المنهوبة، لأن عملية الإنتاج كانت تصب أرباحها الأساسية فى جيب الشركات الرأسمالية والدول الصناعية الكبرى على حساب الشعوب الفقيرة التى كانت تعانى من تدهور أحوالها الاقتصادية والاجتماعية. وفى كل الأحوال لم تحاول تلك الدول قطع البترول عن الدول الصناعية، بل ظل يتدفق بانتظام فى كل الظروف بأسعار رخيصة جدا، ومع ذلك لم يكن الغرب ولا أمريكا راضون عن مجرد التطلع لدى تلك الشعوب لممارسة شيء من سيادتها على ثرواتها، وفى عام ١٩٦٠ تم إنشاء منظمة الأوبك وشملت ١١ دولة هى « الجزائر ــ وإندونيسيا ـ إيران ـ العراق ـ الكويت ـ ليبيا ـ نيجيريا، قطر ـ السعودية ـ الإمارات، فنزويلا» فى محاولة لتشكيل تجمع من الدول المنتجة يعادل شيئا ما قوة المستهلكين، ورغم ذلك لم تتأثر

إمدادات النفط للدول المستهلكة ولا أسعار النفط أيضا، وفى عام ١٩٧٣ حدثت أزمة النفط التاريخية المعروفة فى أعقاب حرب أكتوبر، وارتفعت أسعار البترول بصورة كبيرة وكان ذلك بالطبع خيرا كبيرا، لأن لو استخدمت عوائد النفط منذ ذلك الوقت فى بناء قاعدة صناعية واقتصادية للدول المنتجة لكان الأمر مختلفا عندما حدثت أزمة النفط تلك قررت الولايات المتحدة الأمريكية ـ التى تستهلك ربع إنتاج النفط العالمى وحدها، والتى كانت ولا تزال أكبر قوة عسكرية واقتصادية والتى يشكل النفط بالتالى عاملا هاما من عوامل قوتها ورخائها ـ قررت الولايات المتحدة ألا تترك إمداداتها النفطية للظروف، بل أن تنشأ مخازن تخزين نفط معمل إحتياطى استراتيجي يكفيها ٨٤ يوما، وقد صدر قرار بذلك من الرئيس الأمريكى وقتها «جيرالد فورد» عام ١٩٧٥، وفى نفس الوقت قررت الولايات المتحدة الأمريكية السيطرة بطريقة أو أخرى على منابع النفط الأساسية فى العالم وخاصة منطقة الخليج، وتم إعداد خطة فى عهد الرئيس كارتر عام ١٩٧٦ سميت خطة كارتر تقول: إن أمريكا على استعداد للتدخل الفورى والمباشر عسكريا فى أى نقطة فى العالم تمثل تهديدا للنفط، وقال كارتر أن تهديد منابع النفط يعنى مباشرة تهديد الأمن القومى الأمريكى، وأننا على استعداد لندفع الدم مقابل ضمان استمرار تدفق النفط. وهكذا كان كارتر أول من صك عبارة الدم مقابل النفط».

فى نهاية السبعينات «١٩٧٩» اندلعت الثورة الإيرانية وكان ذلك مؤشر خطر على المصالح البترولية فى الخليج، وفى المصالح البترولية المتوقعة فى بحر قزوين، وكانت الولايات المتحدة قد نجحت فى احتواء ارتفاع أسعار النفط وأمنت لنفسها إمدادا آمنا منه من منطقة الخليج تحديدا، ودخل الاتحاد السوفييتى أفغانستان «مهددا بالوصول إلى المياه الدافئة وهكذا تحركت الولايات المتحدة بسرعة لاحتواء هذا الخطر المتفاقم، وانتهى الأمر بإثارة قوى كبيرة ضد الاتحاد السوفيتى انتهت بهزيمته وسقوطه فى بداية التسعينات، بل وتفكك المنظومة الاشتراكية برمتها، كما أشعلت الولايات المتحدة وشجعت الحروب ضد إيران وخاضت ضدها حربا دعائية وسياسية انتهت بتقليص أظافرها الثورية.

جاءت حرب الخليج الثانية لتقدم فرصة ذهبية إلى الولايات المتحد الأمريكية لإدخال قواتها العسكرية إلى منطقة الخليج بدعوى إخراج العراق من الكويت ثم حماية دول الخليج من الخطر العراقى، ولم تخرج تلك القوات من يومها، بل ازداد انتشارها، وظهرت القواعد الأمريكية فى السعودية والكويت وقطر والبحر وتم احتلال العراق سنة ٢٠٠٣ وعلينا أن نرصد الآن قوات أمريكية وقواعد بالإضافة إلى الدول السابقة فى أفغانستان التى دخلتها بحجة مسئولية تنظيم القاعدة عن أحداث ١١ سبتمبر ومسئولية طالبان عن حماية تنظيم القاعدة ولم تخرد القوات الأمريكية من هناك رغم الاطاحة بنظام طالبان وإقامة نظام تابع للولايات المتحدة الأمريكية هناك.

وتتواجد أيضا فى جورجيا وطاجيكستان والجمهوريات المحيطة ببحر قزوين من دول الاتحاد السوفيتى السابق، وهى موجودة فى تركيا وباكستان ثم جيبوتى واليمن والقرن الإفريقى والفلبين وهى كلها مناطق نفط، أو على طرق المواصلات المتصلة بالنفط ونلاحظ أن القوات الأمريكية لم تتجه إلى دول أمريكا اللاتينية بحثا عن إرهابيين مؤكدين أو داخل الولايات المتحدة فى الغابات التى تعج بالجماعات والمنظمات الأمريكية المسلحة التى تهدف إلى الأضرار المؤكدة بالحكومة الأمريكية.

ماذا تريد أمريكا من نشر قواتها حول مناطق إنتاج البترول أو الطرق المؤدية إليها أو تمر بها إمدادات النفط.. ولماذا تنشر أمريكا قواتها الآن؟.. الإجابة على السؤال يقتضى الأخد بالاعتبار نهاية الاتحاد السوفيتى، إنفراد أمريكا بالهيمنة على العالم، تصاد موجات العولمة أو الأمركة، بروز قوة الولايات المتحدة الأمريكية عسكريا واقتصاديا ، حالى التنافس الاقتصادى والعسكري المحتمل مع أوروبا ـ اليابان ـ الصين ـ روسيا، وهكذا فإن المطلوب احتواء روسيا والصين، وضع الرأسماليات الأوروبية واليابانية تحت السيطرة الأمريكية بالتحكم فى إمدادات النفط.

وإذا كان النظام الأمريكى يمثل تحالف الرأسماليين والعسكر الذين يرغبون فى مناطق تمدد جديدة وحروب جديدة، وإذا كانت التقارير تصب يوميا تتحدث عن قوة أمريكية عسكرية هائلة لايستطيع أحد الوقوف أمامها أو منافستها وقوة إقتصادية

حائلة تمثل ثلث الاقتصاد العالمى »١١ تريليون دخل قومى سنوى فى أمريكا«، وأن تلك الحالة الدولية السائلة يمكن أن تنتهى فى عضون سنوات ، كان من الطبيعى أن تستغل الحكومة الأمريكية الفرصة للتمدد فى العالم، والسيطرة على البترول ، واحتجاز مكان مضمون للسيطرة الدائمة على العالم ولو لمدة قرن وهكذا جاء الحديث عن القرن الحالى «الواحد والعشرين» على أنه قرن الولايات المتحدة الأمريكية، ففى إطار السيطرة على الرأسماليات الأخرى فى أوروبا واليابان وتحديد مستوى نموها بما لا يهدد المصالح الأمريكية كان لابد من التحكم فى البترول حتى تكون تلك الرأسماليات تحت رحمة السيد الأمريكى «يبلغ الناتج القومى الأوروبى ٩ ترليون دولار سنويا والألمانى منه ٢.٥ تريليون دولار سنويا فى حين يبلغ الناتج القومى اليابانى ٥ تريليون». وبالنسبة لروسيا والصين يجب احتواءهما بالقوات الأمريكية فى كوريا وأفغانستان وباكستان والفلبين والخليج والقرن الإفريقى، وعبر مظلة حلف الأطلنطى شرقا حتى حدود روسيا ، وذلك لمنع روسيا من إعادة بناء نفسها واستعادة دورها القديم ومنع الصين من التطور خارج الإطار.

النفط والصراع على النفط يفسر كثيرا من معادلات الصراع والحروب والانتشار العسكرى والسياسى.. وإذا وضعنا أمامنا خريطة احتياطيات النفط العالمى حاليا لوجدنا أن الخليج العربى يمتلك ٦٤٪ من الاحتياطى المؤكد للنفط، فالسعودية مثلا تمتلك ٢٦٢ مليار برميل احتياطى والعراق من ١١٥ــ٢٢٠ مليار حسب اختلاف التقديرات، وفنزويلا من ٦٥ مليار أما بحر قزوين ففيه من ١٥ إلى ٤٠ مليار برميل حسب اختلاف التقديرات ويمكن هناك مشاكل بين الدول المحيطة به حول الإنتاج وحقوق الاستقلال « روسيا ـ إيران ـ أذربيجان ـ كازخستان ـ تركمانستان»، وهناك أيضا مشاكل فى النقل عن طريق تركيا أو الخليج عبر إيران!! وهكذا فالمجال المفضل أمام الولايات المتحدة هو منطقة الخليج وهذا يفسر احتلالها للعراق الذى لا علاقة له بموضوع أسلحة الدمار الشامل، أو موضوع الديمقراطية المزعومة، والولايات المتحدة أيضا ذهبت إلى أفغانستان وجورجيا وكازاخستان من أجل بترول بحر قزوين.

ويمكن أن يكتمل فهمنا لمعادلات الصراع إذا أدركنا أن الولايات المتحدة الأمريكية لايتملك سوى ٢١ مليار برميل احتياطى وإنتاجها حاليا ٧ ملايين برميل وهى تحتاج ١٧ مليون برميل يوميا حاليا وهكذا فإنها تستورد ١٠ مليون برميل يوميا، ومن المتوقع أن تصل إحتياجاتها إلى ٢٦ مليون برميل يوميا عام ٢٠٢٠ وهو ما يعنى أنها بحاجة إلى ١٧ مليون برميل يوميا حيث لن يصل إنتاجها المحلى إلا إلى ٩ مليون برميل فقط وهو سقف يصيب تجاوزه. أى أنها تريد استيراد ٦٦٪ من حاجتها اليومية للبترول والغاز، وإذا كان الإنتاج العالمى حاليا يصل إلى ٧٤ مليون برميل يوميا يفيض عن حاجة المستهلكين، فإن من المتوقع أن يصل برميل يوميا عام ٢٠٢٠ فى حين يصل الاستهلاك إلى ١١١ مليون برميل يوميا أى أن هناك فجوة ستحدث، ومن لا يستطيع أن يؤمن حاجاته البترولية سيتراجع صناعيا واقتصاديا وعسكريا وإذا هيمنت الولايات المتحدة على البترول تحكمت فى الآخرين فضلا من تأمين حاجاتها!!

لم تترك الولايات المتحدة فرصة للسيطرة على البترول إلا وسارعت إليها، وحتى بترول السودان المتوقع «٣ مليار برميل احتياطى»، جعل الولايات المتحدة تسارع إلى التدخل فى الموضوع السودانى وتضع يدها على البترول وتحقق نفوذا هناك، وكذلك فيما تخطط له فى نيجيريا والجزائر وليبيا.

إن ماتعلنه الولايات المتحدة من أنها تحارب الإرهاب ليس إلا حجة فى موضوع البترول والهيمنة، وحتى أحداث ١١ سبتمبر لم تكن سببا لانتشار العدوان الأمريكى ومحاولات الهيمنة بل هى فرصة استغلتها لإقناع الشعب الأمريكى بدفع الدم لصالح الآلة العسكرية والرأسمالية، والمجمع الصناعى العسكرى الأمريكى الذى يسيطر على أجهزة الحكم، فقبل أحداث ١١ سبتمبر بـ٤ أشهر كاملة أى فى شهر مايو ٢٠٠١ صدر تقرير السياسة الوطنية للطاقة عن مجموعة تنمية سياسة الطاقة الوطنية الأمريكية «تتكون من ١٤ عضو من مؤسسة الرئاسة الأمريكية بما فيهم نائب الرئيس نفسه» وقد أشار التقرير إلى أن أمريكا تواجه أكبر نقص فى البترول تعرضت له منذ ١٩٧٣، وطالب التقرير باتخاذ العديد من الإجراءات والتحركات وفى مقدمتها زيادة

موارد البلاد من الطاقة عموما والبترول خصوصا وزيادة مستوى تأمين المصالح البترولية فى الخارج.

بالطبع فإن الصراع له أسباب متعددة، حضارية ـ عقائدية، سياسية، اقتصادية، استراتيجية، نفسية، ولكن البترول بدوره أحد أهم عوامل هذا الصراع، وبديهى أن حديثنا السابق عن هذا العامل لا يلغى ولا يغفل قيمة العوامل الأخرى

.. تهويد القدس
والإفساد الإسرائيلي الأول

تحتل القدس مكانة هامة في الوجدان العربي والإسلامي ، فالمسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين ، والرحال لا تشد إلا إلى ثلاث . . المسجد الحرام ، ومسجد الرسول بالمدينة ، والمسجد الأقصى ببيت المقدس ، والقدس أرض مباركة هي وما حولها أي كل فلسطين : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١].

وهكذا فإن مصير القدس وما حولها أي كل فلسطين المحتلة أمر يخص كل العرب والمسلمين في كل مكان وزمان ، وبالتالي فليس من حق حكومة ما أو سلطة ما أو حتى جيل كامل ما أن يبت في مصير القدس أو يساوم على شيء منها ، فيفرط في حقوق لا يملكها وحده ، ولا يملكها حتى جيله بكامله بل تخص كل الأجيال القادمة . .

كانت القدس وفلسطين كلها محوراً للصراع الممتد في الزمان والمكان في التاريخ والجغرافيا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ، وحول القدس دارت معارك وستدور للسيطرة عليها باعتبارها رمزاً لهذا الصراع وتجسيداً له . .

ومن الناحية التاريخية فإن القدس التي يقدر المؤرخون عمرها بحوالي خمسة

آلاف عام ، والتي أسسها اليبوسيون الذين نزحوا من الجزيرة العربية في الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم تتابع على حكمها العرب والعبرانيين والكنعانيين والرومانيين ثم العرب المسلمين ، وفي الحقيقة فإن الزعم اليهودي بحقوقه في القدس أمر لا تسنده وقائع التاريخ ولا النص الديني أيضاً ، ذلك أن الحكم اليهودي للمدينة والذي استمر فقط حوالي ٧٠ عاماً في زمن نبي الله داود وابنه نبي الله سليمان عليهما السلام ، وبالطبع فإن اليهود الآن ليسوا هم ورثة داود وسلميان ، لأن المسلمين أولى بداود وسليمان من اليهود على أساس أن الإسلام هو الدين الخاتم ، وأنه لو بعث داود وسليمان عليهما السلام من قبرهما ، فلن يملكا إلا الدخول في الإسلام ، ولأن اليهود قد فقدوا الحق في وراثة أنبيائهم . . لأنهم انحرفوا عن الطريق وخانوا العهد وقتلوا الأنبياء فاستحقوا لعنة الله تعالى وغضبه عليهم ، كما أن يهود اليوم ليسوا أبناء يهود بني إسرائيل بل هم من يهود الخزر كما أثبت ذلك أكثر من باحث تاريخي موثق ومرموق ، ثم إذا حتى أسقطنا كل تلك الأسانيد – وهي هامة جداً – فما قيمة ٧٠ عاماً أمام آلاف الأعوام التي ظلت فيها القدس عربية ، سواء قبل ظهور الإسلام أو بعده أو على مستوى تأسيس المدينة ذاتها ، وتاريخ المدينة بعد فتحها في عهد عمر بن الخطاب الذي ذهب بنفسه لاستلام مفاتيحها ، وهذه حالة خاصة بالقدس تعبر عن أهميتها لأن عمر لم يذهب لاستلام أي مدينة مفتوحة غير القدس وكانت القدس في ذلك الوقت خربة فقام المسلمون بتعميرها ، وإعادة بناء بيت المقدس الذي كان مهدوماً في عهد عمر بن الخطاب وقد شهدت مدينة القدس اهتماماً مستمراً من المسلمين في مختلف الحقب ، فكانت بيعة الخليفة الأموي تتم في القدس كما اهتم الأمويون بتعمير المدينة وتشجيع حركة العلم بها وكذلك فعل العباسيون الذين تركوا آثاراً كثيرة في القدس يحاول اليهود طمسها الآن لتغيير هوية المدينة ، كما كان للفاطميين والسلاجقة والأيوبيين آثاراً هامة في المدينة ، وعندما سقطت القدس في أيدي الصليبيين لمدة مائة عام ، ثم أعاد صلاح الدين الأيوبي فتحها بذل جهوداً كبيرة لإعادة الطابع العربي الإسلامي للمدينة بعد أن حاول الصليبيون طمس هذا الطابع .

ثم جاءت الخلافة الإسلامية العثمانية فحكمت القدس ٤٠٠ سنة إلى أن سقطت

فلسطين تحت الانتداب البريطاني ١٩١٨ وبدأت المؤامرة لتسليم فلسطين إلى اليهود الصهاينة .

الصراع على القدس وفلسطين كلها ، صراع تدخل فيه العوامل السياسية مع العوامل الدينية والتاريخية ، وإذا كانت إسرائيل بالنسبة للغرب هي جزء من مشروع الهيمنة الغربي على المنطقة فإنها أيضاً بالنسبة لتفسير مسيحي معين (بروتستانتي) نوع من التمهيد لظهور المسيح المزعوم في نظرهم الذي سيقضي على إمبراطورية الشر (المسلمين) في معركة هرمجدون وهي بالنسبة لليهود تنفيذ للأسطورة المزعومة عن وعد إلهي لأجدادهم !

وهي بالنسبة للمسلمين أرض الإسراء – وأولى القبلتين وثالث الحرمين وحق طبيعي لأنهم هم مؤسسو المدينة ، وظلت المدينة جزءاً منهم وهم جزء منها لآلاف السنين ، بل وينظر المسلمون للصراع على أنه صراع حضاري ممتد في التاريخ والجغرافيا ، وأنه على أرض فلسطين سيحسم الصراع فإما إبادة الحضارة الإسلامية وإما فتحاً جديداً لعهد الإسلامية العالمية الثانية والقضاء على الاستكبار العالمي وإنهاء الظلم والنهب والقهر الذي مارسته وتمارسه الحضارة الغربية – أمريكا آخر صورها – على العالم .

ومن ناحية النص الديني الإسلامي ، فإن المسلمين متأكدون من أن النصر آت لا ريب فيه وفقاً للآية القرآنية: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء] .

ويميل المفسرون في مجملهم إلى أن الظهور الإسرائيلي الحالي في فلسطين هو تصديقاً للآيات الكريمة ، وهو يمثل الإفساد الثاني لبني إسرائيل وأن نهايتهم هي

الدمار كما تقرر الآيات ولكننا نعتقد – والله أعلم – أن هذا الإفساد والعلو الإسرائيلي هو الإفساد الأول لهم ، ولأننا لا يمكننا اعتبار علوهم أيام داود وسليمان إفساداً ، لأن داود وسليمان كانا يطبقان شرع الله – أي الإسلام الذي جاء به كل الأنبياء – وبالتالي فلم يحدث علو وإفساد معاً لبني إسرائيل إلا هذه المرة ، وبالتالي فهي الإفساد الأول ونهايته كما تقرر الآيات نهاية منكرة على يد عباد الله أي المسلمين بأسهم شديد على طريقة العمليات الاستشهادية وعلى كل حال فسواء كان هذا هو الإفساد الأول أو الثاني أو أي إفساد فنهايته محتومة والنصر لنا بإذن الله تعالى والآيات الكريمات تختتم بوعد مطلق بأنه في كل إفساد ستكون نهايته مفجعة إن شاء الله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي إذا تكرر الإفساد لأكثر من مرتين وإن عدتم عدنا وتكررت نفس النهاية لكم .

هذا النص الديني الذي شكل الوجدان والرؤية الإسلامية يحتم على المسلمين والعرب بالتالي التمسك بتحرير كامل التراب الفلسطيني (القدس وما حولها) وأنها والعلو والإفساد الإسرائيلي ، وأن هذه هي مسئولية المسلمين جميعاً بجميع طوائفهم ومذاهبهم بل وأجيالهم المختلفة وبالتالي فإن المسعى الدبلوماسي نحو ما يسمى بعملية السلام برمتها مسعى غير شرعي ، واقتصار المطالب العربية الحكومية أو مطالب السلطات الفلسطينية على مجرد التمسك بالقدس الشرقية دون القدس الغربية هو أمر غير شرعي أولاً ، ولا يحق لهم ثانياً لأن هذا حق كل العرب والمسلمين حكاماً ومحكومين ، وأيضاً حق الأجيال الإسلامية القادمة .

في مقابل ذلك فإن إسرائيل تسعى إلى طمس معالم هوية القدس بل وفلسطين كلها، وتتمسك بأن القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل وتسعى أيضاً إلى وضع حقائق على الأرض تجعل هذا الأمر أمراً واقعاً .

ويأتي الاستيطان على رأس التكتيكات الصهيونية في هذا الصدد – كذلك الهجرة ثم طرد العرب وطمس معالم الهوية العربية للمدينة وغيرها من الأساليب الصهيونية لفرض أمر واقع .

ويمكننا أن نقارن بين عدد اليهود إبان الحكم العثماني في القدس ، أي قبل بداية

الاستعمار الأوروبي الذي مكن لهم في القدس وغيرها عن طريق الهجرة وبين عددهم الآن لنرى مدى نجاح ذلك المخطط فقد كان عدد اليهود في القدس إبان الحكم العثماني ٣٠٠ عائلة يهودية فقط ثم قفز إلى ٣٠٠٠ آلاف يهودي عام ١٨١٩ ثم إلى ٢٠ ألف يهودي عام ١٨٩٠ من أصل ٤٥ ألف من السكان ، ووصل سنة ١٩٤٧ إلى ١٠٠ ألف يهودي مقابل ٦٥ ألف عربي ، ثم أصبح العدد الآن ٢٠٠ ألف يهودي في مقابل ١٥٠ ألف عربي ، وتسعى إسرائيل إلى زيادة عدد اليهود في القدس عام ٢٠١٠ إلى ٧٥٠ ألف يهودي في إطار مخطط القدس اليهودية الكبرى .

ومن الناحية السياسية فإن إسرائيل استطاعت أن تسيطر على القدس الغربية بعد حرب ١٩٤٨ أي حوالي ٨٠٪ من مساحة مدينة القدس وفي أعقاب ذلك صدر قرار إسرائيلي بتاريخ ٢٣ / ١ / ١٩٥٠ باعتبار هذا الجزء عاصمة لإسرائيل وتم نقل الكنيست إليه ، وفي عام ١٩٦٧ تم احتلال باقي المدينة أي القدس الشرقية التي تضم المقدسات الإسلامية والمسيحية ، وأصدرت إسرائيل قراراً بتوحيد القدس ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧ ، ثم صدر قرار باعتبار القدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل وتم الضغط على الحكومات في مختلف بلاد العالم لنقل سفاراتها إلى القدس وقد تمسكت إسرائيل في مفاوضات السلام بهذه النقطة ولم تقبل أبداً مناقشتها ، فهي إما تتمسك بالقدس الموحدة عاصمة لإسرائيل ، أو تؤجل الحديث عن مستقبل القدس في ظل السلام إلى المرحلة النهائية وفي الحقيقة فإن مسألة القدس كانت من المسائل التي لا يختلف عليها مختلف الأحزاب والقوى السياسية والحكومات المتعاقبة في إسرائيل، فسواء كان العمل أو الليكود هو الذي يحكم فإن الموقف لم يتغير وفي الواقع فإن إسرائيل تسعى للسيطرة الكاملة على فلسطين كلها من خلال الزحف بالمستوطنات لتحقيق أكبر قدر من السيطرة والأمن في نفس الوقت ، وتحويل الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة إلى مجرد جزر منفصلة تحت السيطرة على طريقة جنوب إفريقيا ، وقد استطاعت إسرائيل أن تبني حتى عام ١٩٩٥ حوالي ٢١٠ مستوطنة تضم ٣٠٠ ألف مستوطن في الضفة وغزة والجولان .

وفي إطار الاستيطان الصهيوني ، حظيت القدس بالنصيب الأكبر والأهم ، بحيث

يصبح من المستحيل تقسيم القدس أو عودتها إلى العرب وبالتالي تصبح عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل ، فبدأت إسرائيل تقيم المستوطنات في القدس بحيث تغرق الوجود العربي فيها في بحر من اليهود وتقطع كل صلة لهم بما حولهم من العرب الفلسطينيين وتقوم إسرائيل بمنع العرب من البناء لأسباب مختلفة ومختلقة ، كما تسعى لطردهم ، ومنع عودة من غاب منهم ، وتصادر الأراضي باستمرار بحجج مختلفة ، كما تقوم إسرائيل بمحاولة طمس معالم المدينة الإسلامية عن طريق هدم الآثار الإسلامية بحجج مختلفة والتخطيط لهدم المسجد الأقصى بحفر أنفاق تحته تؤدي إلى سقوطه في النهاية كما أنها أوعزت إلى بعض المتطرفين بإحراق المسجد الأقصى عدة مرات تحت ذريعة أنهم مجانين !

وتفعل إسرائيل نفس الشيء مع الآثار المسيحية في المدينة ثم تقوم بتغيير بعض المعالم الأثرية للمدينة ثم ادعاء أنها آثار يهودية .

وتسعى إسرائيل في النهاية إلى إقامة ما يسمى مشروع القدس الكبرى لتوسيع حدود مدينة القدس بحيث تمتد إلى رام الله شمالاً وإلى بيت لحم جنوباً ، بحيث يكون عدد اليهود في هذا المشروع حوالي ٧٥٠ ألف نسمة في القدس الكبرى !

.. حِزْبُ الله
النَّشأة. العَمِليَّات. الجِهَاد. الانْتِصَار

« إن إسرائيل التي تملك القنابل الذرية والأسلحة الفتاكة من الطائرات والقذائف الصاروخية.. والله إنها لأوهن من بيت العنكبوت»

مقدمة

انتزع حزب الله في لبنان احترام الجميع، الأصدقاء والأعداء على حد سواء.. فالعدو الصهيوني مثلاً يأخذ تهديدات وكلام قيادات حزب الله مأخذ الجد، على عكس الآخرين الذين لا يعيرهم اهتمامًا ولا اكتراثًا.. وعلى المستوى العربي فإن الجماهير العربية باتت تعتبر حزب الله هو الجزء الحي في النسيج، بل هو الأمل.. فقد أعطاها لحظات عز وكرامة غير مسبوقة، فلأول مرة تنسحب القوات الإسرائيلية دون قيد أو شرط من أراض عربية محتلة، بل تفر فرارًا أمام مقاومة باسلة وقادرة على إذلال الأعداء، ليس على المستوى العسكري فقط بل حتى على المستوى الإعلامي، فإعلام حزب الله من إذاعة وتليفزيون وإنترنت استطاع أن يؤثر على نفسية الشعب الإسرائيلي، وأن يحقق نوعًا من الهزيمة النفسية للإسرائيليين وذلك بفضل قيام رجاله بتسجيل العمليات المتميزة لحزب الله، وقد شاهد الجميع الجنود الإسرائيليين يبكون بين يدي جنود حزب الله، أو يفرون مذعورين أمامهم كأنهم الجرذان، وهذا أعطانا كعرب ومسلمين لحظات عز وثقة بالنفس، ولا شك أن سيكون لتلك الثقة بالنفس والعزة التي تراكمت من خلال عمليات حزب الله أثرها في

مواقف الجماهير العربية، ولا شك أيضًا أن تجربة حزب الله ضربت ثقافة التطبيع والسلام ضربة قاصمة لأنها أثبتت أن هناك خيارًا آخر غير خيار الخضوع لإسرائيل وهو خيار رابح ومنتصر. فحزب الله انتصر وأجبر إسرائيل على الفرار من جنوب لبنان، فلماذا نقبل بالذل والعار والتفريط في حقوقنا الوطنية ما دام المر مرتبطًا بالإيمان والإرادة أولاً وأخيرًا. وهكذا فإن ثقافة المقاومة أصبحت هي سيد الموقف على المستوى الشعبي العربي، والإحساس بعدم الأمان أصبح سيد الموقف لدى الجمهور الإسرائيلي الذي بات يدرك أن نهاية إسرائيل أصبحت قريبة، فبالضرورة سوف تكون هناك تجارب تستلهم تجربة حزب الله، وعاجلاً أو آجلاً ستمتلك الجماهير العربية أدواتها اللازمة لتكرار تجربة حزب الله هنا وهناك.. اليوم وغدًا وبعد غد، ولن يوقف هذا الزحف شيئًا، لا التزييف الإعلامي، ولا محاولات الإساءة إلى حزب الله أو التشويش على تجربته أو سحب رصيد الثقة من نفوس الجماهير أو قمع الجماهير وإرهابها، وكل هذا بفضل حزب الله ورجاله..

أثبت حزب الله أنه بالإمكان هزيمة إسرائيل حتى لو كانت أكبر قوة عسكرية إقليمية وتستند إلى أكبر قوة عالمية «أمريكا».. وأن الإنسان أقوى من التكنولوچيا، وأن سلاح الاستشهاد سلاح لا يمكن مواجهته، وهذا السلاح كفيل بإنهاء إسرائيل لأنه لو تصورنا مثلاً تنفيذ عملية استشهادية مرة واحدة كل شهر سواء كانت ناجحة أو فاشلة.. فإن الذعر سيدب في نفوس الإسرائيليين لأن اليهود أحرص الناس على حياة خاصة لو استمرت هذه العمليات بشكل منتظم لمدة طويلة.. عشر سنوات مثلاً، وبالتالي فمن المتوقع أن تحدث حالة ذعر عام داخل إسرائيل تؤدي إلى هجرة مضادة وإحساس بالضياع كفيل بتفجير إسرائيل على نفسها من الداخل، والتسبب في تفككها.. ومن ثم نهايتها وزوالها، هذا الكلام ليس نوعًا من المبالغة لأن الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان عندما سُئل في الكونجرس عن سبب عدم قدرة أجهزته ومخابراته على منع عملية نسف مقر قيادة البحرية الأمريكية «المارينز» في بيروت عام ١٩٨٣ رد بقوله: إن جميع الاستحكامات المعروفة في العالم قائمة على فكرة خوف المهاجم من الموت، فإذا كان المهاجم لا يخاف الموت فإنه لا حل هناك..

قد يتصور البعض أن نجاح حزب الله يجرع مثلاً إلى عبقرية رجاله أو كفاءة لهم غير مسبوقة، وهذا غير صحيح.. فالصحيح أنهم أفراد عاديون، وقياداتهم لا تتمتع بأية ميزات شخصية غير عادية، بل هي بركة الجهاد بمعنى أنه لا توجد كاريزما (حضور وجاذبية للشخصية) أو مواهب فذة، بل بركة الجهاد تجعل كل فرد في الحزب بمثابة أكفأ شخص وأكثر الناس عبقرية في السياسة والحرب والتكتيك والاستراتيجية وذلك بفضل الجهاد لأن الجهاد هو الذي يفجر الوعي والعبقرية لقوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ومعنى ذلك أنه لو قررت أي جماعة أو مجموعة استخدام الجهاد ضد إسرائيل كطريق إلى الاستشهاد ورضا الله فإن الله سيوفقهم إلى معرفة التكتيك السياسي الصحيح ويصبح هؤلاء عباقرة في كل مجال، وينتصرون أيضًا على إسرائيل ويحققون أهدافهم، وهذا المعنى هو العبقرية الحقيقية في تجربة حزب الله القابلة للتكرار بأي رجال شرط الإخلاص والرغبة في الجهاد والشهادة..

الجهاد فريضة شرعية

لا يختلف اثنان على أن الجهاد فريضة شرعية، وفريضة الجهاد أمر معلوم من الدين بالضرورة، لا ينكرها إلا كافر والعياذ بالله، وهذه الفريضة ثابتة بنصوص قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، وتشغل مساحة كبيرة جدًا من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكذلك تشغل مساحة واسعة جدًا من السلوك العملي للرسول ﷺ وكذلك سلوك الصحابة والتابعين، والعلماء في كل عصر ومصر مجمعون على فرضية الجهاد، وأنه حالة لازمة للأمة الإسلامية وللفرد المسلم على حد سواء بل وفي كل الحالات في اليسر والعسر في الرخاء وفي الشدة أمس واليوم وغدًا وحتى تقوم الساعة.

ونكاد لا نجد فريضة أخرى في الإسلام أخذت كل هذه المساحة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومن سلوك الرسول والصحابة مثل فريضة الجهاد

ففي القرآن الكريم مثلا نجد أن الله تعالى قد فصل الآيات في فرضية الجهاد وفي أحواله وغاياته وفضل المجاهدين والشهداء والتحريض على القتال وتحليل أسباب النصر والهزيمة وتحديد أحكام العلاقات مع الأعداء وقوانين الحرب والسلم والعهود وغيرها ونجد هذا التفصيل أيضًا في السنة النبوية المطهرة وكذلك في سلوك الرسول ﷺ وصحابته الأبرار.

وسوف نحاول أن نقدم شيئًا من هذا الخضم الهائل من النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية وأقوال العلماء التي تتحدث عن فرضية الجهاد، وذلك على سبيل المثال فقط لأن الإحاطة كلها تحتاج بالطبع إلى مجلدات.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] [1].

ويقول تعالى: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤]

وسورة الأنفال كلها حث على القتال وحض على الثبات فيه وبيان لكثير من أحكامه وحسبك منها قوله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الآيات: ٦٠-٦٥].

وسورة التوبة كلها أيضًا حث على القتال وبيان أحكامه ومنها قوله تعالى:

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

(١) نلاحظ أنه في نفس سورة البقرة جاءت عبارة كتب عليكم لتقرر فريضة الصيام كما جاء في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ أي فُرض عليكم الصيام.

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥]

و قوله تعالى ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [الآية: ٢٩].

وقولــه تعــالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٤١].

وفي التنديد بالقاعدين والمتخلفين عن الجهاد قوله تعالى:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة:٨١، ٨٢].

وقولــــه تعـــــالى: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة: ٨٨].

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

وقولــــه تعــــالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

وقولــه تعــالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣].

وعلى أية حال، فإن المساحة الواسعة التي خصصت للجهاد في القرآن الكريم تضم سورًا بكاملها مثل التوبة والأنفال والفتح بالإضافة طبعًا إلى الكثير من الآيات في السور الأخرى بل لقد: أطلق على سورة كاملة اسم سورة القتال.

أما في السنة النبوية المطهرة، فالأحاديث عن الجهاد أكثر من أن تحصى، وعلى سبيل المثال قول الرسول ﷺ : «**من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق**» رواه مسلم وأبو داود ونظائره كثيرة.

وقوله ﷺ: «**اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**» أخرجه الشيخان البخاري ومسلم وأبو داود.

وقوله ﷺ : «**والذي نفسي بيده لولا أن رجال من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل**» رواه البخاري ومسلم.

وقوله ﷺ في إطار الاهتمام بإعداد المعدات العسكرية المختلفة واللازمة للحرب : «**من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه في ميزانه يوم القيامة**».

وقوله ﷺ : «**غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر والذي يسدر في البحر كالمتشحط في دمه في سبيل الله سبحانه**» رواه ابن ماجه.

وقوله ﷺ : «**وفد الله ثلاثة الغازي والحاج والمعتمر**» رواه مسلم.

وقوله ﷺ : «**إذا تبايعتم بالنسيئة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**».

رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم.

وفي أقوال العلماء والفقهاء نجد أن جميع المذاهب المعتمدة وكذلك العلماء السابقين واللاحقين قد أجمعوا على فرضية الجهاد وفصلوا أحكامه وسوف نورد شيئًا

منها على سبيل المثال.

ففي مذهب أبي حنيفة قال صاحب «مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر» مقررًا أحكام الجهاد في مذهب الأحناف (الجهاد في اللغة بذل ما في الوسع من القول والفعل وفي الشريعة قتل الكفار ونحوه من ضربهم ونهب أموالهم وهدم معابدهم وكسر أصنامهم والمراد الاجتهاد في تقوية الدين بنحو قتال الحربيين والذميين إذا نقضوا والمرتدين هم أخبث الكفار للنقض بعد الإقرار والباغين، بدءًا منا فرض كفاية يعني يفرض علينا أن نبدأهم بالقتال بعد بلوغ الدعوة وإن لم يقاتلونا فيجب على الإمام أن يبعث سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة أو مرتين وعلى الرعية إعانته وإذا قام به بعض سقط عن الباقين فإذا لم تقع الكفاية بذلك البعض وجب على الأقرب فالأقرب فإن لم تقع الكفاية إلا بجميع الناس فحينئذ صار فرض عين كالصلاة، أما الفريضة فلقوله تعالى:

﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام: (الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة وإن تركه الكل أثموا...) إلى أن قال: (فإن غلب العدو على بلد من بلاد الإسلام أو ناحية من نواحيها ففرض عين فتخرج المرأة والعبد بلا إذن الزوج والمولى وكذا يخرج الولد من غير إذن والديه والغريم بغير إذن دائنه).

وفي كتاب البحر (امرأة مسلمة سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها ما لم تدخل حصونهم وحرزهم).

وفي مذهب الإمام مالك قال صاحب «بلغة السالك لأقرب المسالك» في مذهب الإمام مالك (الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى كل سنة فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي وبتعين [أي يصير فرضًا عليه كالصلاة والصوم] بتعيين الإمام وبهجوم العدو على محلة قوم فيتعين عليهم وعلى من بقربهم إن عجزوا ويتعين على المرأة والرقيق مع هذه الحالة ولو منعهم الولي والزوج والسيد ورب الدين إن كان مدينًا ويتعين أيضًا بالنذر، وللوالدين المنع منه في فرض الكفاية فقط، وفك الأسير من الحربيين إن لم يكن له مال يفك منه فرض كفاية وإن أتى على جميع أموال

المسلمين).

وفي مذهب الشافعي فيقول الإمام النووي الشافعي في متن المنهاج (كان الجهاد في عهد رسول الله ﷺ فرض كفاية وقيل عين وأما بعده فللكفار حالات أحدها: يكونون ببلادهم فرض كفاية إذا فعله من فيهم الكفاية من المسلمين سقط الحرج عن الباقين والثاني يدخلون بلدة لنا فيلزم أهلها الدفع بالممكن وإن أمكن التأهب للقتال وجب الممكن حتى على فقير وولد ومدين وعبد بلا إذن).

وفي المذهب الحنبلي، يقول ابن قدامة الحنبلي في المغنى (والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين ويتعين [أي يصبح فرضًا عليه] في ثلاثة مواضع هي: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف ويتعين عليه المقام، وإذا نزل الكفار ببلدة تعين [أي أصبح فرض عين] على أهل قتالهم، وإذا استنفر الإمام قومًا لزمهم النفير معه وأقل ما يفعل مرة كل عام).

وفي المذهب الظاهري يقول ابن حزم في المحلى (والجهاد فرض على المسلمين فإذا قام به من يدفع العدو ويغزوهم في عقر دارهم ويحمي ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقين وإلا فلا قال الله تعالى:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ولا يجوز إلا بإذن الأبوين إلا أن ينزل العدو بقوم من المسلمين ففرض على كل من يمكنه إعانتهم أن يقصدهم معينًا لهم أذن الأبوين أم لم يأذنا إلا أن يضيعا أو أحدهما بعده فلا يحل له ترك من يضيع منهما).

وقال الشوكاني في السيل الجرار (الأدلة الواردة في فرضية الجهاد كتاب وسنة أكثر من أن تكتب ها هنا ولكن ذلك على الكفاية فإذا قام به البعض سقط عن الباقين وقبل أن يقوم به البعض هو فرض عين على كل مكلف وهكذا يجب على من استنفره الإمام أن ينفر ويتعين ذلك عليه).

ويقول الإمام الشهيد حسن البنا في رسالة الجهاد (أجمع أهل العلم مجتهدين ومفكرين سلفيين وخلفيين على أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية لنشر

الدعوة وفرض عين لدفع هجوم الكفار عليها والمسلمون الآن كما نعلم مستذلون لغيرهم محكومون بالكفار قد ديست أرضهم وانتهكت حرماتهم وتحكم في شئونهم خصومهم وتعطلت شعائر دينهم في ديارهم فضلاً عن عجزهم عن نشر دعوتهم فوجب وجوبًا عينيًا لا مناص منه أن يتجهز كل مسلم وأن ينطوي على نية الجهاد وإعداد العدة له حتى تحين الفرصة ويقضي الله أمرًا كان مفعولاً).

ومما سبق يتضح أن الجهاد فريضة شرعية وأنه ماض ومستمر إلى يوم القيامة وأن الجهاد في الأصل هو الهجوم على الكفار لنشر دعوة الإسلام وإعلان كلمة الله وأنه يجب على الأقل أن يكون مرة في العام، وأنه في هذه الحالة يكون فرض كفاية.

أما في حالة الاستثناء وهو أن يحصل العكس فيهاجم الكفار المسلمين أو يحتلون أرضهم فإنه يصبح في تلك الحالة فرض عين على كل مسلم ومسلمة بل يصبح من حق الزوجة أن تخرج للجهاد بدون إذن زوجها، والولد بغير إذن أبويه والعبد بدون إذن سيده ولمدين بغير إذن دائنه.

ولا شك أننا الآن في الحالة الثانية، لأن الكثير من أراض المسلمين محتلة مثل فلسطين والأندلس وغيرهما، ولأن الكثير من المسلمين يعانون من الظلم والقهر في أكثر من مكان من العالم مثل الفلبين وكشمير والهند وغيرها، ولأن هناك حالة من الهيمنة الغربية والأمريكية على بلادنا، وهذا كله يجعل الجهاد الآن فرض عين على كل مسلم ومسلمة.

فضل الجهاد والاستشهاد

الجهاد من أعظم فرائض الإسلام، وأكثرها ثوابًا عند الله تعالى، ويقع الجهاد كفريضة في أعلى القمة من الفرائض الإسلامية، وهو خير في الدنيا وفي الآخرة.

والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فيهما الكثير من الفضل المنسوب للجهاد وكذلك الثواب المرتجى للمجاهدين عمومًا والشهداء خصوصًا.

فمن ناحية أن الجهاد خير وبركة يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ

لَكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.. [البقرة: ٢١٦].

ولا شك أن الجهاد خير وبركة، ولا يمكن لأمة أن تحيا بكرامة وعزة إلا بإعداد نفسها للجهاد، والجهاد يحقق للمسلم التوازن النفسي ويجعله قادرًا على الإبداع الحضاري بل إن هناك حقيقة تاريخية هي أن الإبداع الحضاري للمسلمين ارتبط بالجهاد فإذا ما قاموا بواجب الجهاد تقدموا في كل مجال وإذا ما تخلفوا عن هذا الواجب تخلفوا وانحطوا في كل مجال.

والجهاد هو الطريق إلى الرحمة والمغفرة يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٦: ١٥٨]

ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ويقول تعالى:

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

ويقول تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.. [التوبة: ٨٨، ٨٩].

والجهاد أيضًا طريق إلى العزة في الدنيا.. يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾..[الفتح: ١٨، ١٩].

بل إن الجهاد من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، يقول الله تعالى:

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٩].

وفي الحديث الشريف، يقول رسول ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم من يكلم [أي يجرح] في سبيله إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم والريح ريح المسك».. رواه النسائي والبخاري وأحمد ومسلم والترمذي ومالك في الموطأ والدرامي مع اختلاف في ترتيب الكلام في المتن واتفاق في المعنى.

ويقول أيضًا «اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» أخرجه الشيخان وأبو داود وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال «لا تستطيعونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثة كل ذلك يقول: (لا تستطيعونه) ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد» أخرجه الستة إلا أبو داود.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس.. إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو ظهر بعيره أو على قدمه حتى يأتيه الموت وإن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب الله تعالى لا يرعوي بشيء منه) رواه النسائي.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول ﷺ يقول: (عينان لا تمسَّهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى) رواه الترمذي. وعن أبي عميرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقتل في سبيل الله أحب إلى من أن يكون لي أهل المدر والوبر». رواه أحمد بن حنبل.

عن راشد بن سعد رضي الله عنه عن رجل من الصحابة أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟

فقال: «كفاه ببارقة السيوف على رأسه فتنة» أخرجه النسائي.

وعن فضل الإنفاق في أمور الجهاد قال رسول ﷺ: «من أنفق في سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عينان من ماء عذب فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويُدخلكم الجنة، اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق [أي قدر وقت حاب الناقة] ناقة وجبت له الجنة) رواه الترمذي.

وعن المقدام بن معد بكرب قال: قال رسول ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال يغفر له من أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويُجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويُوضع على رأسه تاج الوقار.. الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويُشفع في سبعين من أقربائه» رواه الترمذي وابن ماجه.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من رابط ليلة في سبيل الله سبحانه وتعالى كانت كألف ليلة صامها وقامَها» رواه ابن ماجه.

وعن أنس عن أبيه رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لأن أشيع مجاهدًا في سبيل الله فاكففه على رحله غدوة أو روحة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها» رواه ابن ماجه.

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول ﷺ: «يُشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته» رواه أبو داود.

وهكذا فإن الجهاد منزلة عظيمة وهو طريق الفوز في الدنيا والآخرة، لدرجة أن المتصوفة المنقطعين إلى العبادة كانوا لا يتركون الجهاد بل يحرصون عليه وكذلك العلماء الذين وهبوا حياتهم للعلم والتعليم، فقد كان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعًا في أكثر أوقاته بالجهاد وكان عبد الواحد بن زيد الصوفي الزاهد يجاهد دائمًا، وكذلك كان شقيق البلخي شيخ الصوفية يحمل نفسه وتلامذته على الجهاد وكان البدر العيني شارح البخاري الفقيه المحدث يغزو سنة ويدرس العلم سنة

ويحج سنة وكان القاضي أسد بن الفرات المالكي أميرًا للبحر في وقته، وكان الإمام الشافعي يرمي عشرة ولا يخطئ.

أهداف الجهاد وغايته

الغاية العليا للمسلم هي إرضاء الله تبارك وتعالى، ثم دخول الجنة ثم إن هناك غايات أخرى في كل عمل، والجهاد يكون إرضاء لله تعالى ثم للفوز بالجنة، ثم لنشر دين الله في الأرض والقضاء على الفساد والطغيان والظلم والاستكبار في كل مكان وزمان.

والجهاد لا يكون إلا في سبيل الله أما غير ذلك فلا يكون جهادًا، إذا فلابد من توافر النية في الجهاد بأن يكون في سبيل الله، وليس للمغنم أو الذكر الحسن أو غير ذلك.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله، قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) أخرجه الخمسة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال:

يا رسول الله: رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبغي عرضًا من الدنيا فقال: لا أجر له. فأعادها عليه ثلاثًا كل ذلك يقول: لا أجر له.. أخرجه أبو داود.

والجهاد يكون من أجل هداية الناس إلى الإسلام، عن الحارث بن مسلم بن الحارث عن أبيه قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فلما بلغنا المغار استحثثت فرسي فسبقت أصحابي فتلقاني أهل الحي بالرنين فقلت لهم قولوا لا إله إلا الله تحرزوا فقالوها، فلامني أصحابي وقالوا حرمتنا الغنيمة، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت فدعاني فحسّن لي ما صنعت، ثم قال لي ألا إن الله قد كتب لك بكل إنسان كذا وكذا من الأجر وقال أما إني سأكتب لك بالوصاية بعدي ففعل وختم عليه ودفعه إليّ) أخرجه أبو داود.

ويقـول الله تعـالى في كتابـه الكـريم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[النساء : ٧٦].

ويقول الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾.. [الأنفال: ٣٩].

ويقول أيضًا: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[البقرة : ١٩٣].

إذن فمن أغراض الجهاد القضاء على الفتنة وجعل الدين كله لله، ومن أغراضه أيضًا الدفاع عن المستضعفين وتخليصهم من أسباب الاستضعاف.

يقـول الله تعـالى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ﴾.... [النساء : ٧٥].

ومن أهداف الجهاد إقامة الحجة على الناس يقول الله تعالى:

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾.... [الحج:٧٨].

والجهاد واجب على المسلمين ويجب أن يقوموا به في كل مكان على وجه الأرض فهذا عُقبة بن نافع يخوض بفرسه شاطئ المحيط الأطلسي حتى تسيخ قوائم فرسه في مياهه ويقول:

(والله لو أعلم أن خلف هذا البحر أرضًا لذهبت غازيًا في سبيل الله). وربعي بن عامر وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة حينما سألهم رُستم قائد الفرس عن سبب غزوهم لبلادهم سألهم كلا على حدة فكان جوابهم جميعًا (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها..)

وإذا أضفنا إلى تلك النصوص قوله تعالى:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾.

وكـذلك قولـه تعـالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾.. [الحج: ٤١].

وكـذا قولـه تعـالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾.... [القصص : ٨٣].

وقول الإمام علي كرم الله وجهه: (لا تكن عبدًا لغيرك وقد خلقك الله حرًا) ثـم قـول الفاروق عمر رضي الله عنه: (متى استعبدتهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا).

وإذا أضفنا تلك النصوص لبعضها ظهرت لنا ملامح مـنهج كامـل لفهـم غايـات الجهاد وأهدافه فالجهاد في أصله هو الغـزو والهجـوم عـلى الكـافرين في كـل مكـان وزمان ليس بهدف إكراههم على الإسلام ولكـن بهـدف تحريـر الإنسـان ووضـعه في موضع الاختيار الحر فيختار ما يشاء من إسلام دون إكراه.

ولكن ما دام الأمر كذلك، فلمـاذا يحـرص الإسـلام عـلى الغـزو والهجـوم عـلى الكافرين والرد على ذلك بسيط للغاية وهو أن النظم الكافرة نظم طاغوتية في جوهرها تُكـره النـاس عـلى الكفـر أو عبـادة الحكـام أو تقيـيم علاقـات سياسـية واقتصـادية واجتماعية ظالمة ينبغي على المسلمين القضاء عليها لأن تلك العلاقات تحـول بـين الإنسان وبين حرية الاختيار، وصحيح أنه بمجرد تحقيق الاختيار الحر للإنسان فإنـه يختار في الغالب الإسلام، إلا أن ذلـك يحـدث لسـبب بسـيط هـو أن الإسـلام ديـن الفطرة.. وبكلمـة أخـرى فـإن الإنسـان خُلـق عـلى فطـرة الإسـلام، كمـا أن الكـون والإنسان نفسه يحتوي على الكثير من الآيات التي تقود الإنسان حتمًا إلى الإيمان بالله وإلى اعتناق الإسلام دينًا وذلك إذا كـان هـذا الإنسـان غيـر خاضـع لأي شـكل مـن أشكال القهر والظلم.

ولأن القوى الشيطانية الطاغوتية تعرف ذلك فإنها تقيم مـن الأنظمـة والعلاقـات والقوانين ما يحول دون ذلك فهـي تُقـيم نظمًـا سياسـية اسـتبدادية تقهـر النـاس ولا

تعطيهم حرية التفكير والحوار، وهي تُقيم نظمًا سياسية استبدادية تقهر الناس ولا تعطيهم حرية التفكير والحوار، وهي تُقيم نظمًا اقتصادية واجتماعية ظالمة بحيث تجعل الإنسان غير حر في اختياره تحت ضغط القهر الاقتصادي والاجتماعي، وهي تُقيم علاقات اجتماعية شاذة وكذا تقدم إعلامًا ودعاية فاسدة وتُشيع الفساد الأخلاقي وكذلك ذلك من أجل ألا تسمح للإنسان بالاختيار الحر، أو التعامل وفق الفطرة، أو التدبر في آيات الكون والنفس.

ومهمة وهدف الجهاد وغايته هنا هو القضاء على كل هذه الأنظمة والعلاقات الظالمة ووضع الإنسان على طريق الاختيار الحر بلا قهر أو إكراه، وهنا نفهم قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ لأن النظم والعلاقات والقوانين الطاغوتية بما تمثله من استبداد سياسي أو ظلم اقتصادي واجتماعي أو إعلام منحرف وموجه أو علاقات أخلاقية منحطة أو ولاء اجتماعي شاذ إنما هي نوع من الفتنة للإنسان، أما قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فهذا أمر يتحقق تلقائيًا لأن الإنسان إذا ما ارتفع عنه سيف القهر والظلم والتوجه الإعلامي الفاسد والولاءات الاجتماعية الضيقة أي إذا ما تحققت له حرية الاختيار فبديهي أنه يختار الفطرة أي يختار الإسلام فيكون الدين كله لله، وهذا يؤكد قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ أي بعد تحقيق هدف الجهاد من إزالة كل المعوقات التي تحول بين الإنسان وبين الاختيار فإن الرشد تبين من الغي وليس هناك إكراه وليختر كل إنسان ما شاء من دين.

إذن فهدف الجهاد هو تحرير الإنسان.. تحريره من فتنة القهر السياسي والظلم الاقتصادي والولاء الاجتماعي الضيق، إذن فهو للقضاء على الفتنة﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ وهو لرفع أسباب الاستضعاف عن المستضعفين ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ﴾ وهو إذن لإقامة الحجة على الناس بجعلهم في موقف الاختيار الحر ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾.... [الحج: ٧٨].

وهو إذن لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها..) كما قال ربعي بن عامر ورفيقاه لرستم قائد الفرس.

وهو لتحقيق العدل في الأرض والقضاء على الفساد فيها ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وهو لإقامة نظام يسود فيه المعروف ويمتنع فيه المنكر:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.

وهو ليس للمغنم بل للهداية وهو لاستعادة الإنسان لحريته التي خلقه الله عليها (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا) كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكذلك قول الإمام علي كرم الله وجهه: (لا تكن عبدًا لغيرك وقد خلقك الله حرًا).

وهو في النهاية لتحقيق حرية الاختيار ومنع ورفع الإكراه عن الناس.

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ .

ومن خلال كل هذا فإن الجهاد في أصله، وكما وضحت الآيات والأحاديث وأقوال العلماء هو حالة هجوم وغزو مستمر على الكفار لتحقيق التحرير الكامل للإنسان من كل قهر وظلم ووضعه على طريق الاختيار الحر وهكذا نفهم قول عُقبة ابن نافع (والله لو أعلم أن خلف هذا البحر أرضًا لذهبت غازيًا في سبيل الله).

وإذا كان هدف الجهاد في الأصل هو الغزو والهجوم، فما هو الشأن في حالة تعرض بلاد المسلمين لاحتلال من قبل الكفار مثلاً وبالتالي تحتاج للدفاع والذود عنها هل يدخل الدفاع هنا في باب الجهاد؟

والإجابة نعم بكل تأكيد لأن الدفاع عن أرض المسلمين هنا يشمل الحفاظ على أرض تتحقق فيها حرية الاختيار أولاً وهو محافظة على قاعدة للغزو والهجوم

لتحقيق حرية الاختيار للآخرين ثانيًا، وبالتالي فهو جهاد، إلا أنه في هذا الحالة يكـون فرض عين على كل مسلم ومسلمة لأن الحفاظ على الأرض المحررة مـن الوقـوع في أيدي المشركين والكفار المستبدين والظالمين أوجب وأكثر أهميـة بـالطبع، وبالتـالي فكل حركة تحرر وطني في بلاد المسلمين ضد الاسـتعمار المباشـر أو غيـر المباشـر هي في سبيل الله ما دامت النية المعقودة للمقاتلين هي الجهـاد في سـبيل الله للحفـاظ على أرض إسلامية ليس فيها إكراه بل هـي قاعـدة للانطـلاق لرفـع الإكـراه والظلـم والقهر من فوق الأراضي الأخرى.

ومما يؤكد هـذا المفهـوم أن الشـريعة الإسـلامية حـددت ثلاثـة خيـارات أمـام المشركين إذا ما غزاهم المسلمون فإما الإسلام وإما الجزية وإما القتال، والجزية هي الانصياع والقبول بحرية الدعوة في الأراضي التي تقبل دفع الجزيـة وبالتـالي تحقيـق حرية التفكير وحرية الاختيار فيها، فأمـا إذا رفضـت دفـع الجزيـة فـإن معنـى ذلـك استمرارها في منع حرية الدعوة وبالتالي وجب قتالهـا لتحقيـق حريـة الـدعوة وحريـة الاختيار بدون إكراه، ولو كان الأمر مجرد إكراه النـاس عـلى الإسـلام مـثلاً لاقتصـر الأمر على الإسلام أو القتال فقط، ولكن

اشتمال الخيارات على الجزية يؤكد المفهوم الإسلامي الصحيح في الجهاد وهـو تحقيق حرية الاختيار للبشر ليختاروا ما شاءوا من دين وعقيدة، وبديهية أن معظمهم يختار الإسلام طواعية لأن الإسلام دين الفطرة فـإذا مـا اختـاروا الإسـلام أصـبحوا جزءًا من كيانه الحضاري وكان عليهم الجهاد هم أيضًا من أجل تحقيق نفس الهـدف ولأن الأمر كذلك فإن الإسـلام لا يفـرق بـين الأبـي والأحمـر والأسـود ولا يعتـرف بقومية أعلى من قومية أخرى أو جنس أعلى من جنس آخر بل الجميع سـواء كأسـنان المشط ولا فضل لعربي على أعجمـي إلا بـالتقوى بـل إن الحضـارة الإسـلامية هـي الحضارة الوحيدة التي شهدت قوادًا وولاة وزعماء وخلفاء من عرب وتـرك وفـرس وأبيض وأسود وأحمر هوي أيضًـا الحضـارة الوحيـدة التـي تغلبـت عـلى العـالم كلـه بالسيف والقوة في وقت من الأوقات ومع ذلك لم تفرض على الجميع دينهـا بـل بقـى داخل البلدان الإسلامية المسيحي واليهودي والمجوسي دون خـوف مـن بطـش أو

إكراه. وهذا دليل قوي على أن الإسلام فرض الجهاد لتحقيق التحرير وحرية الاختيار وليس إكراه الناس على الدخول في الإسلام بالسيف وسيظل الجهاد إن شاء الله تعالى هجومًا وغزوًا في أصله لتحقيق حرية الاختيار والقضاء على عوامل الفتنة والإكراه والفساد ولن يفلح المشككون في تفسيره وتزييفه على غير هذا الوجه حتى ولو كانت أمور المسلمين حاليًا لا تسمح بذلك.

وإذا كنا الآن نعاني من التفوق والتشرذم، والوقوع في الهيمنة الغربية فإننا مطالبون أولاً بالجهاد لحماية بلادنا ووحدتنا ثم مطالبون بعد ذلك باستكمال رسالتنا في تحرير الإنسان في أي مكان وزمان على الأرض أو حتى على الكواكب الأخرى إن وجدت فيها حياة عاقلة.

النبي المجاهد ﷺ

أولى النبي ﷺ الجهاد اهتمامًا كبيرًا، بل نكاد نرى أن الجهاد كان الشاغل الأكبر للرسول ﷺ خاصة بعد هجرته إلى المدينة وحتى موته، وكان اهتمام الرسول ﷺ بالجهاد يشمل التعبئة المستمرة للمسلمين وجعلهم في حالة يقظة مستمرة، وترغيبهم في الاستشهاد والاهتمام بتوحيد صفوفهم والقضاء أولاً بأول على المؤامرات التي يدبرها المنافقون لشق الصف الإسلامي، وكذلك في شراء السلاح والخيل وغيرها، وكذلك في إرسال السرايا الصغيرة والجيوش الكبيرة بصورة مستمرة لم تنقطع أبدًا إلى كل مكان في الجزيرة العربية بل وخارج الجزيرة العربية، بل وحتى في غيبوبة مرض الموت كان الرسول ﷺ كلما أفاق سأل عن جيش أسامة بن زيد هل تم خروجه أم لا..

وإذا ما تتبعنا المعارك والغزوات والسرايا المشهورة في العشر سنوات التي قضاها في المدينة نجدها من الكثرة والتنوع بحيث إنها غطت كل تلك المساحة الزمنية وغطت أيضًا كل مكان في الجزيرة العربية وفي خارج الجزيرة العربية في الشام والعراق، ونلاحظ أنها كلها كانت خارج المدينة المنورة ما عدا غزوة الخندق مما يدل على أن الأصل في الجهاد هو الغزو والخروج وليس الدفاع.

كان الرسول ﷺ قد أخذ البيعة من ممثلي المدينة المنورة على الحرب في بيعة العقبة الثانية وهذه البيعة تسمى بيعة الحرب أيضًا، أي أنه كان يعد العدة للجهاد والحرب حتى قبل أن يدخل المدينة ويقيم فيها المجتمع الإسلامي الأول.

ولقد بدأت السرايا والغزوات والمعارك بعد اثني عشر شهرًا فقط من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وقد قضى الرسول تلك الشهور في إعداد المجتمع الإسلامي في المدينة لما ينتظره من الجهاد والغزو والقتال وكانت أول الغزوات هي غزوة (الأبواء) على رأس اثني عشر شهرًا من مقدمه إلى المدينة ثم تتالت الغزوات والسرايا والمعارك ونذكر منها سرية عبيدة بن الحارث، ثم سرية حمزة إلى سيف البحر ثم غزوة بواط ثم غزوة العشيرة ثم سرية سعد بن أبي وقاص ثم غزوة سنوان وهي غزوة بدر الأولى ثم سرية عبد الله بن جحش ثم غزوة بدر الكبرى ثم غزوة بني سليم بالكدر ثم غزوة السويق ثم غزوة ذي أمر ثم غزوة الفرع من بحران ثم غزوة بني قينقاع ثم سرية زيد بن حارثة إلى القردة منمياه نجد، ثم غزوة أحد ثم غزوة حمراء الأسد ثم يوم الرجيع ثم غزوة بئر مؤنة ثم غزوة بني النضير ثم غزوة ذات الرقاع ثم غزوة بدر الآخرة ثم غزوة دومة الجندل ثم غزوة الخندق ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني لحيان ثم غزوة ذي قرد ثم غزوة بني المصطلق ثم الخروج إلى الحديبية ثم غزوة خيبر ثم غزوة مؤتة إلى الشام ثم فتح مكة ثم معركة حنين ثم غزوة تبوك لغزو الروم ثم سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة ثم غزوة خالد بن الوليد إلى بني الحارث ثم بعث أسامة إلى أرض فلسطين.

وهكذا فإن المسلمين في حياة الرسول لم ينقطعوا قط عن الغزو والقتال والسرايا والبعوث، بل نكاد نقول إنه لم يمر يوم على المسلمين منذ العام الثاني للهجرة ولم يكونوا أو بعضهم في سرية أو غزوة أو معركة كبرى مع قوى الشرك أو الكفر داخل الجزيرة العربية وخارجها.

ولعله من المفيد هنا أن نذكر أمثلة من شجاعة الرسول ﷺ النادرة أو كفاءته القتالية الفذة وخاصة في اللحظات الحرجة من المعارك مثل معركة أحد ومعركة حنين.

ففي معركة أحد، وعندما مال الميزان العسكري لصالح قريش وكـاد المسـلمون ينهزمون هزيمة منكرة، كان للموقف الشجاع والقتال الباسل الـذي قـام بـه الرسـول ﷺ أبلغ الأثر في تقليل حجم الهزيمة وتحقيق التماسك لجيش المسـلمين، ذلـك أن الرسول ﷺ كان في مفرزة صغيرة من المقاتلين المسلمين (حوالي تسعة) عندما وجـد فرسان قريش قيادة خالد بن الوليد قد طوقت جـيش المسـلمين مـن الخـف بعـد أن تخلى الرماة المسلمون عن مواقعهم التي كان الرسول ﷺ قد أمرهم بعدم تركها مهما كان المر وكان معنى هذا أن الجيش الإسلامي في خطر شـديد، وكـان أمـام الرسـول ﷺ طريقان فإما أن ينجو وأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، وإمـا أن يثبـت في مكانـه وينادي المسلمين ليلتفوا حوله، وفي ذلك بـالطبع خطـر عـلى حياتـه لأن المشـركين سيسمعون صوته ويصلون إليه قبـل أن يصـل إليـه المسـلمون واختـار الرسـول ﷺ بالطبع الطريق الثاني ووقف في مكانه، ونادى على المسلمين والتف المشركون حوله؛ فأخذ الرسول ومن معـه يقـاتلون قتـالاً شـديدًا تبـدت فيـه روح التفـاني والتضـحية والشجاعة من هؤلاء النفر من الصحابة وتبـدت فيـه شـجاعة الرسـول ﷺ وكفاءتـه القتالية العالية، واستمر ضغط المشركين على الرسـول ومـن معـه ولكـن هـذا لم يـزد الرسول ومن معه إلا شجاعة وتضحية واستمر الرسول يقاتل ومن معه قتال الأبطـال حتى استطاع أن يشق في النهايـة طريقًـا بـين المشـركين ويلـتحم بجـيش المسـلمين فيعرف المسلمون أنـه مـازال حيًـا وترتفـع روحهـم المعنويـة، ويتحقـق التماسـك والانسحاب المنظم للجيش الإسلامي ولولا ذلك الموقـف مـن الرسـول ﷺ ومـن معه لتبدد جيش المسلمين ولكانت الهزيمة مروعة.

وفي موقعة حنين وحينما اندفع جـيش هـوازق وباغـت المسـلمين وفقـد جـيش المسلمين توازنه ولاذ الجميع بالفرار ما دعا رسـول ﷺ وعـددًا قلـيلاً مـن أصـحابه وكانوا بضعة عشر رجلاً، ووقف الرسول شامخًا كالطود صامدًا كالجبال يقاتل ومـن معه، الألوف من الرجـال، وينـادي عـلى المسـلمين الـذين تفرقـوا في كـل اتجـاه يـا أصحاب سورة البقرة يا معشـر الأنصـار يـا أصـحاب السـمرة حتـى تجمـع جـيش المسلمين من جديد حول النبي الذي كان يقاتل وهو يصيح:

«أنا النبي لا كذب، أنا بن عبد المطلب».

واستمر تجمع المسلمين حول الرسول الصامد حتى استطاع جيش المسلمين أن يهزم الكافرين هزيمة منكرة، وهكذا استطاع الرسول بشجاعته وفدائيته أن يحول الهزيمة والفرار إلى نصر كبير، وإذا تركنا هذه المواقف لنلمح موقفًا آخرًا في معركة الخندق، نرى أن الرسول ﷺ كان يشارك المسلمين في العمل وكان يشاركهم في الجوع ولا ينفرد عنهم بطعام أو شراب، قال أبو طلحة شكونا إلى رسول ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر فرفع رسول ﷺ عن حجرين) رواه البخاري.

جدلية الجهاد

الوعي – التقوى – النهضة

إذا تأملنا قول الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الغزو والهجوم لإعلاء كلمة الله، وبين وعد الله تعالى لهؤلاء المجاهدين بأن يهديهم سبله، أن يهديهم إلى الوعي والتقوى والنهضة والفوز في الدنيا والآخرة.

ويمكننا أن نقول إن هناك علاقة جدلية بين الجهاد والوعي، فالجهاد في سبيل الله يفجر الوعي، والوعي يؤدي إلى اختيار طريق الجهاد، فمن أراد امتلاك الوعي فليجاهد ومن أراد أن يجاهد فليمتلك الوعي، فالجهاد نوع من الاحتكاك بقوة مع الآخرين، ويمكن للإنسان أن يكشف الكثير من الحقائق والسنن من خلال الاحتكاك والغزو والهجوم، لأنه أولاً سفر في الأرض وهو ثانيًا احتكاك بأناس آخرين وهذا طريق لا شك فيه للوعي، ثم هو طاعة لله وهذا طريق لأنه يفتح الله على المجاهد أسباب الفهم والوعي ودقة التحليل وشمولية المعرفة ثم إن حاجات المجاهد تستدعي الحاجة إلى الاختراع والابتكار ومن المعروف أن الحروب كانت سببًا في كثير من المخترعات العلمية وهناك أيضًا علاقة جدلية بين الجهاد والتقوى، لأن الجهاد تحقيق لأمر الله وهذا أول نوع من التقوى، ثم أنه يضع النفس والمال في محك خطير، فالإنسان الذي هو مستعد للتضحية بالنفس والمال ومعرض للموت

في أي لحظة يشتد خوفه من الله وحبه لدينه وهذا يزيد حرصه على طاعة الله تعالى والإقلاع عن المعصية.

ثم إن الإقلاع عن المعصية والإكثار من الطاعات تعين الإنسان على قهر نفسه وعدم التردد في الخروج للجهاد ودفع المال في سبيل الله وكذا الشجاعة في المواجهة وحب الموت وعدم الجبن وبالتالي فالتقوى طريق إلى الجهاد.

ثم إن التقوى ذاتها تؤدي إلى الوعي والعلم والمعرفة، وليس أدل على ذلك من شكوى الإمام الشافعي لمعلمه سواء الحفظ ونصحه المعلم بترك المعاصي إذا أراد أن يتخلص من سوء الحفظ وهي حكاية مشهورة عن الإمام الشافعي. والجهاد طريق إلى النهضة والحضارة والتقدم العلمي والعملي، لأن الجهاد أولاً يحقق للإنسان التوازن النفسي، لأنه يكون في حالة انسجام مع الله تعالى ومطيعًا لفروضه وهذا التوازن النفسي شرط ضروري من شروط النهضة، والجهاد ثانيًا طريق لزيادة رقعة الإسلام الجغرافية والسكانية أي زيادة المعطيات الحضارية كمًا وكيفًا وهذا طريق للنهضة والحضارة أيضًا، والجهاد كما قلنا طريق للوعي والعلم والخبرة والمعرفة وهذا أيضًا شرط من شروط النهضة، والجهاد هو أحد أشكال الطاعة والتقوى وهو يزيد من قوة وكثافة التقوى التي تدفع الإنسان للعمل الجاد على كل مستوى وهو أيضًا شرط من شروط النهضة.

إذن فالجهاد طريق إلى النهضة والحضارة، وإذا تتبعنا المنحنى الحضاري الإسلامي في كل مستوياته العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وجدنا أن الأمة كانت دائمًا في حالة صعود حضاري طالما كانت في حالة غزو وهجوم وأنها بدأت في طريق الانحطاط الحضاري عندما تخت عن واجب الغزو والهجوم واكتفت بالدفاع ثم انهارت حضاريًا على كل مستوى عندما تخت عن الدفاع أيضًا وبالتالي فإنه لتحقيق النهضة فإن الجهاد شرط أساسي من شروطها ومن الأمثلة الفريدة في هذا المضمار مثلاً أن المقاومة الشعبية الإسلامية في مصر عندما دخلت في جهاد مع الفرنسيين إبان الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨/ ١٨٠١ استطاعت أن تصنع المدافع والبارود خلال ثورة القاهرة الثانية، أي أن الثورة فجرت ثورة صناعية

وتقدمًا تكنولوجيًا، وهذا دليل على أن الجهاد طريق إلى الثورة الصناعية وطريق إلى النهضة عمومًا.

والتخلي عن الجهاد هو طريق إلى الانحطاط والذل والتراجع الحضاري وهذا حالنا يثبت ذلك، فكلما تخلينا عن الجهاد وقعدنا عنه نتخلف حضاريًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وعسكريًا بل ونصبح أذلاء مستضعفين تجاه الهيمنة الأوروبية والأمريكية – وخاضعين لنفوذهم السياسي والعسكري والاقتصادي فضلاً عن الثقافي.

وعلينا الآن أن نتأمل حديث رسول الله ﷺ الذي يقول:

(إذا تبايعتم بالنسيئة وأخذتهم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم) رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم.

وهذا الحديث واضح الدلالة في أن ترك الجهاد يورث الذل أي يورث الخضوع للآخرين، ويورث الانهيار الحضاري في كل مستوياته، لن كلمة الذل شاملة تعني الانحطاط السياسي والاقتصادي والعسكري والحضاري، وأن الطريق إلى نزع هذا الذل أي لتحقيق النهضة والاستقلال والإبداع الحضاري هو القيام بواجب الجهاد.

إذن فالجهاد هو أحد أهم شروط النهضة، لأن الجهاد يرفع مستوى التقوى والوعي والمعرفة وبديهي أن المجاهد شخص إيجابي، والتقى شخص حريص على أداء عمله بإتقان وأمانة وكلها شروط لازمة للنهضة.

إذن فهناك علاقة جدلية بين الجهاد، والوعي، والتقوى، والنهضة، وكلها أمور شديدة الارتباط ببعضها البعض، وخلاصة القول أن المسلم لا يكون في حالة إبداع حضاري إلا إذا كان قائمًا بواجب الجهاد، بل إن الأمة الإسلامية لم تتقدم حضاريًا ولم تحقق حضارتها ونهضتها الشامخة إلا في عصور ازدهار الجهاد والغزو والقتال في سبيل الله والعكس صحيح تمامًا.

وعلينا أن نتأمل الآية القرآنية التي تقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ

وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾........[البقرة: ٢١٦)

وهذه الآية تقول إن الجهاد خير، ولا شك في ذلك فهو خير على المستوى الشخصي، لأن المجاهد يحقق رضا الله تعالى ثم يحقق دخول الجنة ثم يحقق لنفسه التوازن النفسي والإيجابية والتقوى والوعي والغنائم، وعلى المستوى الجماعي فإن الجهاد يحقق العزة والنصر والتقدم الحضاري والسيادة والنهضة.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة

منذ أن ظهر الإسلام وحتى اليوم وإلى أن تقوم الساعة سيظل الجهاد ماضيًا، مصداقًا لما جاء في الحديث (الجهاد ماض إلى يوم القيامة.)

ولعل هذه النبوءة النبوية تبطل دعوى هؤلاء الذين يريدون أن يحذفوا سلوك الجهاد بل وكلمة الجهاد من القاموس السياسي أو الشرعي لأمتنا، لأنه سواء حذفوها أو لم يحذفوها وسواء جاهدوا أو قعدوا فإن الجهاد سيمضي إلى يوم القيامة بهم أو بغيرهم.

وفي الحقيقة فإن الجهاد والقتال سمة لازمة، لازمت الأمة الإسلامية في حياة النبي ﷺ وفي حياة الخلفاء الراشدين ثم إبان الخلافة الأموية والعباسية ثم العثمانية وحتى بعد سقوط الخلافة الإسلامية استمر الجهاد على يد الزعماء المجاهدين الذين قادوا حركات التحرر الوطني الإسلامي ضد الاستعمار وسيظل الجهاد ماضيًا إلى يوم القيام إن شاء الله لأن الأرض لم ولن تخلو من المسلمين المتمسكين بفروض الدين وكذلك لم ولن تخلو من أتباع الشيطان من الكفار والمشركين وبالتالي سيظل الصراع بين الحق والباطل ما بقيت الدنيا، وحتى لو أسلمت الكرة الأرضية كلها فإن علينا أن نجاهد ف يغيرها ولا نتوقف عن الجهاد أبدًا لأن الجهاد سنة من سنن الكون الثابتة التي تفسد الحياة بدونها ويهتز نظام الكون إذا تعطلت. وإذا كانت المعارك والغزوات والسرايا في حياة الرسول ﷺ كثيرة ومتنوعة فإن تلك المعارك لم تنته بل استمرت بعده، فقد خاض المسلمون في حياة الخلفاء الراشدين المعارك ضد

المرتدين ثم ضد الفرس والروم وتم فتح العراق والشام ومصر وغيرها. وحتى بعد انتهاء الخلافة الراشدة استمر المسلمون يغزون في سبيل الله ويقاتلون لنشر دين الله في كل الأرض في إفريقيا والهند والصين ومع الدولة البيزنطية حتى وصل الإسلام إلى الأندلس غربًا وإلى الصين والهند وإيران وأفغانستان وإندونيسيا وسيبيريا وغيرها شمالاً وشرقًا ثم خاض المسلمون المعارك ضد الحملات الصليبية والتترية في الشرق وضد أوروبا في الشمال والغرب، بل إن الحملات الصليبية على المغرب العربي استمرت قبل فتح الأندلس وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وبعد انتهاء الحكم الإسلامي للأندلس حتى لقد سماها المؤرخون حرب الألف عام، وحتى بعد سقوط الخلافة العباسية ظهرت الخلافة العثمانية التي خاضت المعارك من أجل نشر الإسلام في أوروبا فوصلت إلى أسوار فيينا وروما فضلاً عن فتح القسطنطينية، وبعد سقوط الخلافة العثمانية وقبل سقوطها بقليل أي في أيامها الأخيرة، تعرضت بلاد العالم الإسلامي للاحتلال على يد أوروبا الصليبية، ولكن المسلمين الذين فقدوا الخلافة وأصبحوا ممزقين لم يكفوا عن الجهاد وانخرطوا في عمليات المقاومة الإسلامية المسلحة ضد الاحتلال الأوروبي في كل مكان من العالم الإسلامي، ومازال المسلمون القابضون على دينهم يجاهدون حتى اليوم ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين وضد الهيمنة الأمريكية والأوروبية، وما زالت الأقليات الإسلامية في أكثر من مكان بالعالم تقاتل من أجل حقوقها المهضومة وسيظل الجهاد إن شاء الله ماضيًا إلى يوم القيامة.

طريق التهلكة وطريق النجاة

الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر

في محاولة قديمة جديدة، يحاول المشككون والذين في قلوبهم مرض أن يثيروا عددًا من الشبهات حول الجهاد بهدف صرف المسلمين عنه أو تفسيره تفسيرًا ناقصًا يقلل من فاعليته.

وهناك العديد من الشبهات في هذا الإطار ولكنها شبهات ضعيفة لا تصمد أمام الحجة القرآنية والنبوية الواضحة وإجماع العلماء فيقولون مثلاً: إن الإسلام دين

دفاعي على عكس كل النصوص التي تؤكد أن الأصل في الجهاد هو الغزو وهو في هذه الحالة فرض كفاية وأن الاستثناء هو الدفاع ويصبح الجهاد في هذه الحالة فرض عين للدفاع عن أرض المسلمين وحماية مصالحهم الاستراتيجية.

وفي هذا الإطار ذات يقول بعض المشككين تفسيرًا لقوله تعالى:

﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ إنها دعوة للتعقل والاعتدال والانضباط وغيرها وأن الجهاد يؤدي إلى إهمال الزراعة والصناعة وضياع المال وغيرها وفي الحقيقة فإن هؤلاء إما أنهم لم يقرأوا الآية بكاملها وإما أنهم لم يطلعوا على تفسيرها الصحيح وإما أنهم مرضى بقلوبهم والعياذ بالله فالآية القرآنية تقول: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة : ١٩٥] وبالتالي فلا علاقة لهذه الآية بمسألة التعقل أو غيرها، ومعناها الصحيح أن الإنفاق في سبيل الله هو الطريق لتجنب التهلكة لأن هذا الإنفاق يؤدي إلى توفير حاجات المجاهدين من المؤن والمعدات وبالتالي يجعل المسلمين في حالة قوة تحول دون هلاكهم على يد عدوهم، ولعل ما رواه الترمذي في هذا الصدد يؤكد هذا المعنى ويقطع دابر المشككين وأصحاب الشبهات.

(عن أبي عمران قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفًا عظيمًا من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم وأكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة ابن عبيد فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم فصاح الناس وقالوا سبحان الله يلقي بيده إلى التهلكة فقام أبو أيوب الأنصاري فقال:

(أيها الناس أنتم تأولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سرًا دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله تعالى أعز الإسلام، وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى على نبيه ما يرد علينا ما قلناه ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وكانت التهلكة الإقامة على الأموال وتركنا الغزو.. فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم) رواه الترمذي.

إذن فالتهلكة هي ترك الغزو.

وعلى أي حال فإن هناك الكثير من الآثار التي تحبب إنفاق الأموال في سبيل إعداد العدة للجهاد، بل وتجعل الجهاد بالمال كالجهاد بالنفس بل دائمًا ما تتقدم كلمة الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في النصوص القرآنية مثل قوله تعالى:

﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة: ٨٨].

وفي الحديث الشريف (من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيًا في سبيل الله بخير فقد غزا) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

وكذلك قوله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف» رواه الترمذي والنسائي.

ومن الشبهات التي يثيرها المشككون ومرضى القلوب في محاولة للتقليل من قيمة الجهاد وصرف المسلمين عنه استدلالهم بما يروي:

(رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا وما الجهاد الأكبر قال جهاد القلب أو جهاد النفس) على أن هناك جهادًا أكبر وهو جهاد النفس وأنه أفضل من الجهاد الأصغر وهو قتال الكفار والمشركين لإعلاء كلمة الله تعالى، ويرى الكثير من العلماء: أن هذه الرواية ليس بحديث على الصحيح، قال أمير المؤمنين في الحديث الحفاظ ابن حجر في تسديد القوس هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عيلة، وقال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء) رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر.

وحتى لو صح هذا القول في أنه حديث عن رسول الله ﷺ فيجب أن يفهم في إطار باقي النصوص القرآنية والنبوية وفي إطار الظروف التي قيل فيها. ونرى والله أعلم أنه لو صح لكان معناه التعبئة المستمرة وإخضاع النفس للتدريب والاستعداد واليقظة الدائمة وشحذها بالعمل الصالح حتى إذا دعا داعي الجهاد لم تتأخر النفس عن التلبية والخروج للقتال في سبيل الله تعالى إذن لو صح هذا القول ولو صحت تلك الرواية لكان معنى الجهاد الأكبر هو التعبئة النفسية والمعنوية والإيمانية والجسدية

وتكون هناك حالة استعداد دائم للخروج للقتال في سبيل الله وعدم التأخر لحظة واحدة وعدم التردد في ذلك، وبديهي أن جهاد النفس يجعلها مستعدة للموت في سبيل الله، أما إذا ركن البعض للقعود بدعوى الاهتمام بجهاد نفسه فإنه يكون كاذبًا لأنه لو جاهد نفسه حقيقة لكانت سريعة الاستجابة للخروج للقتال في أية لحظة وخلاصة القول أنه لو صحت تلك الرواية فان الجهاد الأكبر يعني التعبئة لأن التعبئة والاستعداد للقتال واستمرار اليقظة أصعب طبعًا من القتال ذاته.

ويجب أن نذكر هنا أن هناك أمورًا تلحق بباب الجهاد منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقول الرسول ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» ولكننا نرى أنها من الملحقات وليس من أصل معنى الجهاد، لأن كل النصوص والآثار تدل على أن الجهاد هو قتال الكفار والمشركين، وأنه لا شيء يوجب لصاحبه الشهادة الكبرى وثواب المجاهدين إلا أن يقتل ويقتل في سبيل الله.

أعداؤنا.. اليوم وغداً

الجهاد في أصله الشرعي هو قتال وغزو الكفار والمشركين في كل زمان ومكان على الأرض، أو حتى في الكواكب الأخرى إن كان فيها حياة عاقلة، وذلك بهدف القضاء على علاقات الاستكبار التي تحول بين الناس وبين حرية الاختيار، فالجهاد في أصله هجوم وهو في هذه الحالة فرض كفاية إذا فالواجب الشرعي على المسلمين أن يقاتلوا الملحدين، الوثنيين، والنصارى المحاربين، اليهود المحاربين والموالين لأحد هؤلاء أولهم جميعًا.

وبالطبع إذا أمكن قتال هؤلاء جميعًا والقيام بواجب الجهاد ضدهم فهذا أمر حسن أما إذا كانت ظروف المسلمين لا تسمح بذلك، مثل الحالة التي نحن فيها الآن، فإنه يجب قتال الكفار والمشركين الذين يحتلون بلاد المسلمين مثلاً أو الذين يتدخلون في شئونهم.

وإذا نظرنا إلى أوضاع العالم حاليًا، وجدنا أن هناك كفارًا ومشركين وملحدين ووثنيين ونصارى ويهود وغيرهم يحاربون الإسلام والمسلمين ويفسدون في

الأرض، وهؤلاء جميعًا يجب قتالهم ولكننا نجد في الوقت نفسه أن العدو المباشر للمسلمين هم اليهود ومن يحميهم ويساعدهم على قتال المسلمين من النصارى فاليهود يحتلون بعض المسلمين، من البلاد المقدسة والمباركة وهي فلسطين، ويسعوا للمزيد من احتلال الأراضي داخل فلسطين وخارجها أيضًا ويتآمرون على الشعوب الإسلامية بهدف استمرار تخلفها وتفككها وخضوعها للأنظمة المستبدة، ولذا فإن أول الأعداء الذين ينبغي علينا جهادهم الآن هم اليهود، وجهاد اليهود اليوم وغدًا واجب شرعي وفرض عين على كل مسلم ومسلمة، لأنهم يحتلون بلاد المسلمين ولأنهم يتآمرون على الإسلام والحضارة الإسلامية، وفي الحقيقة فإن اليهود هم أعدى أعداء المسلمين فالقرآن الكريم يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[المائدة: ٨٢].

ولقد خاض الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم جميعًا المعارك الطاحنة ضد اليهود في بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع وخيبر وغيرها حتى استطاع أن يستأصل شأفتهم ويبدد شملهم وظل اليهود في حالة من الضعف والتشرذم منذ ذلك اليوم إلى أن ظهروا مرة أخرى في بداية هذا القرن ليصبحوا مرة أخرى كيانًا فاشيًا يشكل أكبر الخطر على المسلمين بل ويحتل أجزاء من بلادهم ولذلك وجب قتالهم.

والقرآن الكريم قد تنبأ بهذا الأمر – وهو وقوع القتال بين المسلمين واليهود قبل قيام الساعة، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٨].

وفي الحديث الشريف: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من**

شجر اليهود».. رواه مسلم واحمد.

إذن فاليهود بنص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هم أعداء اليوم وغدًا، وواجب علينا قتالهم والجهاد ضدهم، وكل من يرى غير ذلك فإنما هو يخالف الآيات القرآنية الصريحة والأحاديث النبوية الصحيحة يخالف الواقع، لأن دعوة السلام المزعومة مع الكيان الصهيوني دعوة مشبوهة فكيف يقوم سلام مع قوم احتلوا أرضنا وداسوا على مقدساتنا اللهم إلا إذا تخلينا عن ديننا ورفضنا تنفيذ آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهرة والعياذ بالله.

وأعداؤنا المباشرون اليوم وغدا أيضا هم الغرب الصليبي الاستعماري وهم الأعداء الذين لم تنقطع المعارك معهم منذ فجر الإسلام بدءًا من سرية مؤتة وغزوة تبوك وبعث أسامة بن زيد في حياة النبي وقبل وفاته، ثم في اليرموك وغيرها في حياة الخلفاء الراشدين، ثم من أجل تحرير الشام وشمال إفريقيا والأندلس في عهد الدولة الأموية ثم استمر هذا الصراع في عهد الدولة العباسية في الأندلس والشام وشمال إفريقيا وعلى مشارف أوربا، بدءًا من ذلك وحتى الحملات الصليبية على الشرق العربي كله ١٠٩٥/ ١٢٩٨ وإلى اليوم، وقبل ذلك وأثناء ذلك وبعد ذلك كان هناك صراع بين الأمة الإسلامية وبين الغرب الصليبي في المغرب العربي وخاصة الجزائر لمدة ألف عام متصلة ولقد أطلق عليها مؤرخو المغرب العربي حرب الألف عام، وكذلك في ذلك الصراع الطويل الذي خاضته الدولة العثمانية دفاعًا عن بلاد الإسلام ونشرًا للإسلام في أوربا حتى فتحت القسطنطينية ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح وحتى وصلت جيوش المسلمين من الأتراك إلى أسوار فيينا وروما.

وعقب سقوط الدول العثمانية وكذلك في أيام ضعفها استمر ذلك الصراع من خلال هجوم استعماري صليبي على معظم أقطار العالم الإسلامي حتى سقط في قبضة الاستعمار الأوربي الصليبي، وقام المجاهدون بدور مهم في الدفاع عن بلاد الإسلام، وإذكاء نار المقاومة المسلحة التي لم تنقطع ضد الاستعمار في كل مكان ونذكر من هؤلاء:

عبد القادر الجزائري، عبد الكريم الحطابي، الشيخ الثعلبي في تونس وغيرهم كثير في إندونيسيا والعراق والشام ومصر وإفريقيا بل وحتى في بلاد التركستان والقوقاز وغيرها.

ومع بداية القرن العشرين حدث تحالف بين اليهود وبين أوربا الصليبية أسفر عن دعم صليبي غربي كامل لقيام إسرائيل وتسليحها ودعمها بالمال والمهاجرين والتأييد الدولي ومازال هذا التحالف قائمًا حتى يومنا هذا.

وحتى بعد رحيل الاستعمار الصليبي القديم، ما زالت أوربا تمارس نفس الغزو لنا سواء بجيوشها المنتشرة في كثير من بقاع العالم الإسلامي تحت مسميات عديدة أو من خلال إرساليات التبشير أو من خلال فرض التخلف والتفرقة علينا وعدم السماح لنا بامتلاك أي عناصر للقوة ويقف على رأس الاستعمار الصليبي حاليًا الولايات المتحدة الأمريكية.

إذن فيجب الجهاد ضد إسرائيل، وضد أمريكا وضد أوروبا وهذا فرض عين على كل مسلم ومسلمة.

وفي هذا الإطار نجد أن أعداءنا من اليهود ومن الغرب الصليبي قد نجحوا في تجنيد العديد من المؤسسات والأحزاب والقادة للعمل معهم سواء بتنفيذ مخططاتهم أو قهر الشعوب والحيلولة دون القيام بواجب الجهاد أو بالترويج للقيم الحضارية الغربية ومن هؤلاء العلمانيين من يسار ويمين، اشتراكيين، وليبراليين وشيوعيين وكذلك الأنظمة المستبدة التي تقهر الشعوب ولا تسمح لها باختيار طريقها المستقل عن الغرب الصليبي وكذلك هؤلاء الذين يدعون للاندماج في حضارة الغرب أو التصالح مع إسرائيل وغيرهم.

وينطبق على هؤلاء قول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة : ٥١].

وهذه الآية الكريمة تنطبق انطباقًا كاملاً على أحوالنا في هذا الزمان.. فهناك

تحالف وموالاة بين اليهود والنصارى، وهو تحالف لم يحدث إلا منذ فترة قليلة (حوالي القرن) لأنه كان هناك عداء واضطهاد من النصارى لليهود طوال التاريخ ولم يحدث هذا التحالف إلا في العصر الحالي.

والآية أيضًا تجعل هؤلاء الذين يوالون اليهود والنصارى من المسلمين منهم أي من اليهود والنصارى..﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾.

والآية تفرض على المسلمين عدم موالاة اليهود والنصارى، وهذا هو الطريق الطبيعي الذي يجب اتباعه حاليًا وفي مثل الأوضاع الدولية القائمة حاليًا، فليس أمام المسلمين إلا جهاد وقتال اليهود والنصارى.

إذن فالأعداء الذين يجب أن يجاهدهم المسلمون حاليًا هم اليهود والنصارى ومن والاهم.

جهاد المرأة المسلمة

للمرأة المسلمة دور هام في الكيان الإسلامي المجاهد، فهي الأم التي ترعى الأبناء وتربيهم على الإيمان وحب الاستشهاد والاستعداد الدائم للجهاد، ثم هي تدفعهم دفعًا وتحرضهم تحريضًا على الجهاد، وهي الزوجة الصالحة التي تخلف زوجها إذا ما خرج إلى الجهاد في أهله وبيته بالخير والمعروف، ثم هي التي تصبر وتحتسب عند فقد ابنها أو زوجها أو أبيها أو أخيها في إحدى المعارك، وهي أيضًا تقوم بأمور التمريض والإمداد والتموين وغير ذلك للمجاهدين، ولكنها فوق هذا يمكن أن تجاهد بنفسها وبمالها بمعنى إنها يمكن أن تحمل السلاح في سبيل الله وتقاتل وتُقتل وهناك الكثير من النماذج والأمثلة على المرأة المسلمة التي خرجت بنفسها للقتال فحملت السلاح ودخلت في المعمعة.

ومن المعروف أن العلماء قرروا أن الأصل في الجهاد هو الغزو في سبيل الله والهجوم على بلاد الكفار وقتالهم ونشر كلمة الله ولجعل كلمة الله هي العليا، وهذا فرض كفاية يمكن أن يقوم به الرجال عن النساء ولكن في حالة الاستثناء، وهي الحالة التي تكون فيها أراضي المسلمين محتلة بالكفار فإن الجهاد يصبح فرض عين

على كل مسلم ومسلمة بل إن على المرأة المسلمة في هـذه الحالـة أن تخـرج للجهـاد بدون إذن زوجها، أي سواء أذن لها أم لم يأذن لأن الجهاد هنا فرض عين عليها.

والأمثلة من التاريخ القديم والحديث كثيرة في شأن المرأة التي تقاتل في سبيل الله وتحمل السلاح ذودًا عن هذا الدين الحنيف في إطار فـرض الكفايـة وفـرض العـين معًا، وفي كتاب إمتاع الأسماع للمقريزي قالت أم عمارة تحكـي عـن نفسـها (وأقبـل الرجل الذي ضرب ابني فقال رسول ﷺ: (هذا ضـارب ابنـك، قالـت فـاعترض لـه فاضرب ساقه فبرك، قالـت فرأيـت رسـول ﷺ يبتسـم حتـى رأيـت نواجـذه، وقـال استقدت (ثأرت) يا أم عمارة، ثم أقبلنا نعله بالسلاح حتى أتينا على نفسه فقـال النبـي ﷺ الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك).

وتروي أم عمارة أيضًا (قد رأيتني وقد انكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقـي إلا في نفير لا يُتِمُّون عشرة وأنا وأبناء وزوجي بين يديه نذبُّ عنه، والناس يمـرون بـه منهزمين، ورآني لا ترس معي، فرأى رجلاً موليًا معه ترس فقال لصاحب الترس، القِ ترسك إلى من يقاتل.. فألقى ترسه فأخذته فجعلت أتترَّس به عن رسول الله ﷺ فيقبل رجل على فرس فضربني وتترَّستُ له، فلم يصنع سيفه شـيئًا ودلى وأضـرب عرقـوب فرسه فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح يا ابن أم عمارة أمك.. قالـت فعـاونني عليه حتى أوردته سقوبه (أي قتلتُه).

وفي رواية عن أم سعيد بن سعد بن الربيـع تقـول (ودخلـت عليهـا – أي عـلى أم عمارة – فقلت: حدثيني خبرك يوم أُحُد، قالت: خرجت أول النهار إلى أُحُد وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيـه مـاء، فانتهيـت إلى رسـول الله ﷺ وهـو في أصـحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول الله ﷺ فجعلـت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله ﷺ بالسـيف، وأرمـي بـالقوس حتـى خلصـت إلى الجراح، قالت: فرأيت على عاقتهـا جرحًـا غـورًا أجـوف، فقلـت: يـا أم عمـارة مـن أصابك هذا؟ قالت: أقبل عليَّ ابن قميئة وقد ولى الناس عن رسول الله ﷺ وهو يصيح دلَّوني على مُحمد فلا نجوتُ إن نجا؛ فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه فكنـت فيهم، فضربني هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليـه

درعان وفي الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤١٣ كان ضمرة بن سعيد المزي يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت زحام تُسقى الماء قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول لمقام نسيبة بنت كعب اليوم، خير من مقام فلان وفلان وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحًا.

وفي الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٢٥٠/ ٢٥١ أن أم الفضل ضربت أبا لهب بعامود من عمد المنزل في رأسه فأصابته، وذلك دفاعًا عن أبي رافع عندما اعتدى عليه أبو لهب في منزل العباس عقب موقعة بدر، وقد مات أبو لهب متأثرًا بهذا الجرح.

وفي السيرة النبوية لابن هشام أن صفية بنت عبد المطلب كانت في أحد الحصون في معركة الخندق، فمر بهم أحد اليهود وأخذ يطوف بالحصن فخافت صفية أن يدل اليهودي عليهم، فقامت إليه وقد حملت عامودًا ونزلت من الحصن وضربته بالعامود حتى قتلته.

وفي الواقع فإن قيام المرأة المسلمة بالجهاد في إطار فرض الكفاية أو فرض العين لم يقتصر على صدر الإسلام بل امتد ليشمل جميع العصور والأزمنة والأمكنة، فالمرأة الجزائرية شاركت بالسلاح في المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي مثل لالا فاطمة التي قادت إحدى ثورات الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، كما سجلت يوميات ثورة التحرير الكبرى في الجزائر ١٩٥٤/ ١٩٦٢ ومشاركة الكثير من النساء في القتال بصورة مباشرة، والأمر ذاته حدث في المقاومة الفلسطينية والجهاد اللبناني.

مدد الله

في كثير من المعارك – التي خاضها المسلمون في عصر النبوة أو حتى بعد عصر النبوة وحتى اليوم – تكون القوى غير متكافئة.. بمعنى أن الأعداء يكونون أقوياء عددًا وعدة بالقياس إلى عدد وعدة المؤمنين، ومع ذلك ينتصر المسلمون، وهذا بالطبع بفضل مدد الله تعالى الذي يرسله الله مباشرة أو بشكل غير مباشر إلى المؤمنين، فيكون الله تعالى الذي يرسله الله مباشرة أو بشكل غير مباشر إلى المؤمنين، فيكون

النصر حليفهم، وهذه الحقيقة – أي وجود مدد الله المباشر أو غير المباشر – لها أهميتها القصوَى في رفع معنويات جند المسلمين، وفي دفعهم أصلاً لخوض المعارك مع القوى الكبرى مهما كانت الحسابات المادية لغير صالحهم، وهكذا فإحساس المسلم بمدد الله أمر إيجابي على كل مستوى فهو يدفعه إلى خوض المعارك مطمئنًا وهو يدفعه إلى تحدي القوى الجبارة مهما كانت درجة قوتها، وهذا في حد ذاته كفيل بجعل المسلمين قوة ثورية كبرى قادرة على إحداث التغيير دائمًا مهما كانت موازين القوى..

وبالطبع يدرك المسلمون أن مدد الله تعالى لا يأتي إلى الخاملين أو القاعدين أو الكسالى أو المتراخين، وكذلك لا يأتي للذين لا يأخذون بالأسباب، ويدرك المسلمون أن لمدد الله شروطًا.. أولها الثقة بنصر الله والإيمان به، وثانيها بذل كل الجهد من استعداد وتدريب وتسليح وتخطيط وغيره من الأسباب المادية..

ولأن القوى العلمانية تدرك أهمية الإيمان بمدد الله في دفع المسلم للشجاعة والثورة والمواجهة لأنه يستند إلى أقوى الأقوياء.. الجبار فوق كل جبار.. وبالتالي فلا خوف من مواجهة أية قوة طاغية أو جبارة، ومهما كان ميزان القوى لغير صالح المسلمين. وبالتالي فإن مدد الله تعالى عامل مهم من عوامل قلقلة القوى الباغية وعدم استقراره، فإن الجهاز الإعلامي والفكري للقوى العلمانية يحاول دائمًا أن يثير الغبار ويشكك في هذه الحقيقة – حقيقة وجود مدد الله – فراح البعض يتهكم على هذه الحقيقة بدعوى أنها دعوة للتراخي وراح البعض الآخر يقول إنها مسألة رمزية!!.. وراح البعض الثالث يصف الحديث عن مدد الله تعالى بمجافاة روح العلم..•

ولا شك أن هذه المحاولة العلمانية محاولة مردودة، فمدد الله تعالى دعوة للثقة بالنفس.. أليس المسلم يستند إلى أقوى الأقوياء، وهو دعوة للأخذ بالأسباب والحسابات من كل نوع، وهو دعوة للمواجهة والثورة مهما كان ميزان القوى ومهما كان نوع القوة التي سنواجهها، وهو دعوة للحركة وليس القعود، بذل الجهد وليس

• فعل ذلك كل من الدكتور فؤاد زكريا، فرج فودة، بخصوص الحديث عن الكرامات في حرب ١٩٧٣، واعتبروا أن ذلك خرافة وأمر يتناقض مع العلم ودعوة للكسل والتراخي.

الكسل، وهو أولاً وأخيرًا أمر معلوم من الإسلام بالضرورة استنادًا إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة..

يقول الله تعالى في سورة الأنفال:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٢].

ويقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:١٧].

وفي سورة آل عمران:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

وإذا تأملنا سورة الأحزاب أن الآيات التي سجلت واقعة الأحزاب قد حددت معالم المدد من جميع نواحيه فهو مدد من الريح أو جنود لا نراها، ولكن هذا بعد أن يخِفَّ المسلمون إلى القتال، وبعد أن يأخذوا بالأسباب مثل حفر الخندق، ومثل استمرار ثقتهم وإيمانهم بالله رغم جحافل المشركين التي لم يكن للمسلمين قبل بها بحساب العوامل المادية وحدها، وترصد الآيات هؤلاء الذين ظنوا بالله الظنون أو هؤلاء الذين خذلوا المؤمنين عن القتال بدعوى عدم تكافؤ القوى..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ

تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟
زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾
وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ
بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ
لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَۚ وَكَانَ عَهْدُ
ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾
قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَاۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا
﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ
فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم
بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا
ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ
وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٩-٢٥].

وإذا تأملنا هذه الآيات الكريمة نجد:

- أن مدد الله تعالى حقيقة إسلامية لا ينكرها إلا جاحد:

- أن هذا المدد يأتي مباشرة من الله، أو عن طريق جنوده التي نعلمها أو التي لا نعلمها مثل الملائكة –الريح، الرعب في قلوب الأعداء وغيرها.

- أنه لولا الإيمان المطلق بمدد الله تعالى لما خرج المسلمون للقتال وخاصة في غزوة خَيْبَر حيث إن القوى كانت غير متكافئة بالمرة، ولعل هؤلاء الذين رأوا عدم تكافؤ القوى وغابت عنهم الثقة المطلقة في مد الله قد عبروا عن ذلك بالقعود أو

الاعتذار أو غير ذلك، وهكذا فإن الإيمان بمدد الله حافظ قوي للأخذ بالأسباب، والاستعداد للقتال، وحمل السلاح رغم عدم تكافؤ القوى، وبالتالي فهو عامل مهم من عوامل النهوض وليس العكس.

- أنه من نافلة القول أن الإيمان بمدد الله تعالى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب، بل الأخذ بالأسباب شرط لوصول المدد – حفر الخندق مثلاً في غزوة الأحزاب.

- وإذا كانت الآيات القرآنية قد تحدثت عن حالات وقعت في عصر النبوة فإنها جاءت بصيغة المطلق لتؤكد أنها حالات مستمرة يمكن أن تتكرر إذا تحققت شروطها بمعنى أنه إذا كان هناك قوم يؤمنون بمدد الله ويثقون في ذلك ثقة مطلقة، وقد أخذوا بكل ما أمكن من الأسباب المادية فإن الله سوف يمدهم بمدد من عنده كفيل بتحقيق النصر مهما كانت قوة الأعداء.

ولنتأمل آيات أخرى تخصُّ حالتنا المعاصرة يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١–٥٢].

وهذه الآيات تتحدث عن موالاة بين اليهود والنصارى وهو الأمر الذي لم يحدث في التاريخ كله الممتلئ بالعداء بين اليهود والنصارى إلا في النصف الثاني من القرن العشرين – حيث تم تفسير الإنجيل تفسيرًا معينًا لصالح دعم إسرائيل «البروتستانت»، وتم تبرئة اليهود من دم المسيح وزيارة باباوات الكاثوليك لإسرائيل.. «الكاثوليك».. وهكذا فهذه الآيات تتحدث عن واقعنا المعاصر، ولعل ما يؤكد ذلك أن بعض المسلمين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بدعوى أن اختلال ميزان القوى بيننا وبينهم لا يسمح إلا بهذا، أي أنهم يقولون لا نقدر عليهم، نخشى أن يدمرونا بأسلحتهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾..

وبالطبع فإن المؤمنين بالله الواثقين من مدده لا يستطيعون الآن أن يزعموا أنهم قادرون على هزيمة الغرب وإسرائيل عسكريًا، نظرًا لاختلال مروع في ميزان القوى، والله تعالى يطمئن هؤلاء بقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أي عسى الله تعالى أن يتدخل بإرادته المباشرة أو غير المباشرة فيقضي على قوة الأعداء أو بنصر المؤمنين رغم اختلال ميزان القوى، وقتها يصبح دعاة التغريب نادمين على ما أسروا في أنفسهم من عمالة للغرب، أو التبشير بالخضوع له بدعوى عدم تكافؤ القوى.

والحديث عن مدد الله تعالى كما جاء في السنة النبوية المطهرة حديث طويل، وسوف نختار بعض الأمثلة الواضحة على ذلك، ففي معركة بدر مثلاً.. وفي رواية ابن إسحاق قال رسول ﷺ: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله.. هذا جبريل آخذ بزمام فرسه يقود على ثناياه الفتح..» الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٢٤١..

وفي رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدري من ضربها، وقال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يشتد في طلب رجل من المشركين أمامه إذ يسمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: [صدقت.. ذلك مدد من السماء الثالثة]. قال أبو داود المازني إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا.. فقال العباس:

إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أصبح من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق وما أراه في القوم، فقال الأنصاري أنا أسرته يا رسول الله.. فقال: «**اسكت فقد أيدك الله بملك كريم**» المباركفوري ص ٢٤٣..

«فبينما هو جالس – أي أبو لهب – إذا قال الناس هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب: هلم إليَّ فعندك لعمري الخير، قال فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟.. قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا.. وايم الله مع ذلك ما لمت القوم، لقينَا رجالٌ بيضٌ على خيل بلق من السماء والأرض، والله ما تليق

شيئًا ولا يقول لها شيء» المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٢٥١..

«وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن فأعطاه النبي جذلاً (عودًا) من حطب، فقال: دونك هذا.. فلما أخذه عكاشة وهزه عاد في يده سيفًا طويلاً فلم يزل عنده يقاتل به حتى قُتل أيام أبي بكر..» مختصر السيرة لابن محمد بن عبد الوهاب ص١٨٧..

أما في معركة أُحُد.. قال أبو طلحة «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه» الرحيق المختوم ص ٣٠٧..

وكان هذا النعاس أمنة من الله. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران -١٥٤].

وروى الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد بن مسلم عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال: «رفعت رأسي وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميل جحفة من النعاس»..

«وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته.. فجاء رسول الله ﷺ فأخذها وردها فعادت كما كانت ولم تضرب عليه بعدها، وكان يقول بعد ما أسنّ هي أقوى عيني وكانت أحسنهما» (إمتاع الأسماع ١/ ٣٣)

وفي الصحيحين عن سعد قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يُقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، وفي رواية يعني جبريل وميكائيل» صحيح البخاري ٢/ ٥٨٠

«وقال نافع بن جُبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول شهدت أُحدًا فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها.. كل ذلك يُصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على مُحمد فلا نجوت إن نجا ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد، ثم جاوزه فعاتبه في ذلك صفوان فقال: والله ما رأيته أحلف بالله أنه منا ممنوع فخرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى

ذلك..» زاد المعاد ٢/ ٩٧

وفي غزوة الخندق:

«إنا يوم خندق نحفر ففرضت علينا كدية شديدة.. فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر – ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقًا – فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم (أي صار رملاً لا يتماسك) ».. زاد المعاد والبخاري ٢/ ٥٨٨

وقال البرَّاء: «لمَّا كنا يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول، فقال: بسم الله ثم ضربه ضربة وقال.. «**الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأنظر إلى قصورها الحمر الساعة**»، ثم ضرب الثانية، فقطع آخر فقال: «**الله أكبر أعطيت فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن**» ثم ضرب الثالث فقال: «بسم الله فقطع بقية الحجر فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء مكاني**» سنن النسائي وأحمد في مسنده .

«رأى جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ يحفر ورآه خميصًا فأتى امرأته فأخبرها ما رأى من خمص رسول الله ﷺ فقالت.. والله ما عندنا شيء إلا هذه الشاه ومد من شعير، قال فاطحني وأصلحي.. فطبخوا بعضها وشووا بعضها وخبزوا الشعير ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد صنعت لك طعامًا فأت أنت ومن أحببت من أصحابك.. فشبَّك ﷺ أصابعه بين أصابع جابر ثم قال أجيبوا جابر يدعوكم فأقبلوا معه، فأقبلوا معه، فقال جابر في نفسه: والله إنها الفضيحة!!.. وأتى المرأة فأخبرها فقالت: أنت دعوتهم أم هو؟.. فقال: بل هو دعاهم!!.. قالت: دعه فهو أعلم، وأقبل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه وكانوا فرقًا عشرة عشرة، ثم قال لجابر: اغرفوا وغطوا البرمة وأخرجوا من التنور الخبز ثم غطوه ففعلوا وجعلوا يغرفون ويغطون البرمة ثم يفتحونها فما يرونها نقصت شيئًا ويخرجون الخبز من التنور ويغطونه فما يرونه ينقص شيئًا، فأكلوا حتى شبعوا وأكل جابر وأهله» صحيح البخاري ٢/ ٥٨٨، ٥٨٩

«وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدَّى أبوه وخاله، فمرت برسول الله فطلب منها التمر وبدره فوق ثوب، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه، وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وأنه يسقط من أطراف الثوب» السيرة لابن هشام ٣/ ٢٢٨-٢٢٩.

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظِي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان.. يا أبا عبد الله، أرأيتهم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟.. قال: نعم.. قال فكيف كنتم تصنعون؟.. قال: والله لقد كنا نجاهد، قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا، قال فقال حُذيفة: يا ابن أخي.. والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظرنا ما فعل القوم ثم يرجع – يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة – أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟.. فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلمَّا لمْ يقم أحد، دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حُذيفة اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحدثنَّ شيئًا حتى تأتينا، قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناءً.. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه؟.. قال حُذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت: من أنت قال فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام.. لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فو الله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ إليَّ أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني« ثم شئت لقتلته بسهم، قال حُذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرطٍ لبعض نسائه، مراجل. فلما رآني أدخلني إلى رجليه وخرج على طرف المرط ثم رجع وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم،

ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون ووضعنا السلاح » السيرة لابن هشام.

ولا شك أن تجربة حزب الله في لبنان تمثل نموذجًا معاصرًا لمدد الله تعالى الذي يؤيد به الله جنوده المخلصين، فحزب الله يمتلك الإيمان وحشد كل إمكانياته وقدراته في المعركة، وهكذا استحق المدد وقد تمثل ذلك المدد في أن حزب الله وهو حزب صغير استطاع ينتصر على أقوى قوة إقليمية «إسرائيل» مدعومة بأقوى قوة عالمية «أمريكا» واستطاع أن يحقق إنجازات عسكرية عالمية المستوى بل واستخباراتية أيضًا في مواجهة أحدث وأقوى أجهزة الاستخبارات كمًا ونوعًا، وإذا حاولنا تفسير ذلك بمعزل عن مفهوم المدد الرباني لاستحال ذلك تقريبًا. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن حادث «أنصارية» التي استطاع فيها مقاتلو حزب الله أن ينتظروا في المكان الصحيح إنزالاً إسرائيليًا لأقوى كتيبة إسرائيلية من قوات المظليين وأن يقتلوا ويأسروا أعضاء الكتيبة بالكامل.. وهو أمر لا يمكن فهمه إلا في إطار أن حزب الله يخترق غرفة العمليات الإسرائيلية – وهذا غير معقول– أو أن مدد الله كان حاضرًا!!

وكذلك عمليات قتل كبار الجنرالات في الجنوب وفي كل مرة يجن جنون الإسرائيليين، فكيف عرف رجال حزب الله خط سير هؤلاء الجنرالات ومنهم نائب القائد العسكري الإسرائيلي في الجنوب، وثالثًا نجاح حزب الله في أسر الجنود الإسرائيليين الثلاثة وبعدهم العقيد الإسرائيلي في المخابرات الإسرائيلية «الموساد» في عمليات هادئة ومعقدة، بل لم تعرف بها إسرائيل إلا بعد أن أعلن عنها حزب الله، إنه مدد الله، إنه مدد الله. سبحان الله.

المقاومة الإسلامية في لبنان الأيديولوجية والجذور

«كما يتوجه المسلم إلى القبلة الشريفة فالرصاص يجب أن يتوجه إلى صدور العدو فقط» من كلمات السيد: عباس الموسوي – بعلبك– ٤ رمضان ١٤٠٥ هـ.

لماذا انتصرت المقاومة الإسلامية في لبنان دائمًا؟.. لماذا لم تنجح إسرائيل أبدًا في

القضاء على تلك المقاومة برغم امتلاك إسرائيل لأحدث أنواع السلاح وأشده فتكًا، وبرغم الدعم الاستخباراتي والمعلوماتي والاستراتيجي الأمريكي والغربي لها؟.. لماذا تستعصي تلك المقاومة – وكل من يتخذ أسلوبها وبرنامجها – على الذبح على أيدي القوى الاستكبارية؟.. ما هي المناعة الذاتية والقدرة المدهشة التي تمتلكها تلك المقاومة والتي أعطتها هذا القدر من الصمود؟.. لماذا حظيت المقاومة الإسلامية في لبنان بهذا القدر الهائل من التضامن الشعبي العربي والإسلامي بل من كل المستضعفين في العالم؟.. وهل يمكن اعتبار كفاح هذه المقاومة بالإضافة إلى كفاح الجهاد الإسلامي الفلسطيني نواة لحركة تحرر عالمي ضد الاستكبار لانتزاع حقوق المستضعفين في العالم كله؟.. وهل يتحول الطرح السياسي والحضاري لتلك المقاومة إلى أيديولوجية للمحررين في كل مكان في العالم في مواجهة النمط الحضاري والقيَمِي الغربي الذي يهدد العالم بأسره، فضلاً عما أحدثه بالفعل من ظلم وقهر وعنف وحرمان؟.. لماذا نجحت المقاومة اللبنانية في أن تصبح طليعة لكل قوى التحرر العربي على اختلاف مشاربها الدينية والطائفية والسياسية والطبقية؟.. وبصيغة أخرى لماذا نجحت المقاومة اللبنانية في الخروج من مأزق الطائفية الضيق إلى رمز للتحرر لكل إنسان مسلمًا كان أو مسيحيًا، عربيًا أو عالميًا، أبيض أو أسود أو أصفر؟.. وهل تشكل المقاومة – بأسلوبها وبرنامجها- بديلاً أيديولوجيا عالميًا جديدًا للتحرر من الهيمنة الغربية؟.. لماذا كانت المقاومة – وحزب الله بالتحديد- هي الجزء الحي في النسيج العربي الذي اهترأ الكثير من أجزائه وأطره الفكرية والتنظيمية؟..

ما المقاومة؟.. وماذا تمثل؟.. وإلى أي آفاق تتطلع؟.. هذه وغيرها أسئلة طرحت نفسها على الواقع الفكري والسياسي العربي والعالمي.

ولكي نجيب عن هذه الأسئلة أو بالأحرَى نقترب منها فإن علينا أن نحدد الكثير من المعالم العامة والخاصة المتصلة بأحوال العالم من حولنا، والمتصلة بأحوال الصراع الإسلامي الصهيوني باعتباره أخطر أشكال المواجهة بين قوى الخير والشر، وأخطر أشكال التحديات التي واجهتها الحضارة الإسلامية.

طبيعة الصراع:

شاء الله تعالى أن يغطي الصراع بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من حق وحرية وعدل ولا عنصرية، والحضارة الغربية، بما تمثله من قهر وعنف وظلم وعنصرية مساحة واسعة من التاريخ والجغرافيا، ومنذ حياة الرسول ﷺ وحتى الآن ما زال هذا الصراع محتدمًا، وقدر هذا الصراع بحالات متنوعة من الكر والفر، المد والجزر حتى وصلنا إلى الحالة الراهنة من الصراع التي تتميز بمجموعة من المعطيات المختلفة عن سابقتها والتي تحتاج بالتالي إلى نوع من الاستجابة متميز وفعال، والحالة الراهنة من الصراع يمكن أن نطلق عليها الحرب الصليبية الثالثة، على أساس أن الحرب الصليبية الأولى بدأت ١٠٩٨م وانتهت ١٢٩٦م، والثانية بدأت ١٧٩٨م على يد بونابرت ثم حدث احتلال لمعظم الدول الإسلامية واحدة بعد الأخرى، ثم الثالثة التي نحن بصددها الآن بدأت بحرب الخليج ودخول القوات الأجنبية إلى المنطقة وانهيار الشيوعية والتفرغ الأوروبي والأمريكي بالتالي للمسلمين على أساس أنهم العدو الأساسي، إلا أن هناك حالة – هي الأهم – بدأت في نهاية الحملة الثانية، وتصاعدت في الحملة الثالثة، وهي قيام إسرائيل ١٩٤٨م والاستعداد لتوسيعها لتحقيق إمبراطورية اليهود من النيل إلى الفرات، التي بدأت ملامحها في عام ١٩٦٧م وما بعدها، وهذه الحالة هي أهم وأخطر مواقع الصراع، ذلك أن الصراع الطويل بين الإسلام وأوربا يتجسد الآن في إسرائيل، وعلينا أن نلاحظ أن هناك تحالفًا استراتيجيًا وليس تكتيكيًا فقط، بين الحضارة الأوروبية واليهود بدأ منذ القرن الماضي فقط، وتمخض عن قيام إسرائيل وحصولها على الدعم الغربي الكامل، أوربا ثم أمريكا، وإذا كان اليهود قد تعرضوا للاضطهاد طويلاً في أوربا فإن أوربا أرادت أن تتخلص منهم كحثالة بشرية غير مرغوب فيها في أوربا، والكيد بهم للإسلام والمسلمين في نفس الوقت، واستغل اليهود هذا الأمر وتحر فيهم حقدهم القديم على الإسلام، ونفذوا المهمة بحماس، رغم أنهم يعرفون مدى الاضطهاد الذي تعرضوا إليه في أوربا والتسامح الذي عاشوه في ظل حضارة الإسلام، وعلى كل حال فإن النبوءة القرآنية قد تحققت، ونقصد بها الصمود الإسرائيلي والتحالف بين أوربا واليهود

الذي لم يحدث طوال التاريخ إلا في المرحلة الراهنة.. فالآية القرآنية تقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

وكان المفسرون يحتارون في تفسير هذه الآية ويلجأون إلى تفسيرها تفسيرًا إجماليًا في إطار أن الكفر ملة واحدة دون ذكر تفاصيل محددة لهذه الموالاة، لاحظ أن الولاء والموالاة أكبر من التحالف – ولاحظ أيضًا أن اليهود تعرضوا للاضطهاد الأوربي حتى الأربعينات من هذا القرن، وأنهم بالغوا في ذلك طبعًا لابتزاز ألمانيا وأوربا، أما الآن فقد تحققت النبوءة القرآنية بالكامل، فالموالاة التي هي أشمل من التحالف بين الغرب وإسرائيل واضحة جدًا، سواء في ازدواج المعايير الغربية فيما يخص إسرائيل، أو في الدعم الهائل الذي تلقته إسرائيل من الغرب لدى قيامها وحتى الآن، وانتهاءً بما يُسمى بالأصولية الإنجيلية التي تجعل دعم إسرائيل الكبرى واجبًا مسيحيًا، على أساس أن ذلك شرط لظهور المسيح – حسب معتقداتهم الباطلة – ووقع معركة هِرْمَجْدُونْ كما يرى دعاة هذا التفسير المزيف للإنجيل المحرَّف، وكذلك وصل الأمر إلى حد تبرئة الكنيسة الكاثوليكية لليهود من دم المسيح وحتى بابا الفاتيكان يعلن أنه لا يمانع من الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل بشرط حرية العبادة بالأماكن المقدسة، وحتى أسبانيا التي طردت اليهود مع المسلمين منذ ٥٠٠ عام اعتذرت رسميًا عن ذلك لليهود فقط، دون أن تعتذر للمسلمين بالطبع..

حزب الله حلقة من حلقات الكفاح الشعبي الإسلامي

إذن فنحن أمام تحدٍ غربي يستهدف القضاء على أمة الإسلام دينًا ومنارة وطليعة لتحرير العالم، ويستخدم الغرب إسرائيل لتحقيق هذا الهدف، فإسرائيل ليست دولة بالمعنى المتعارف عليه للدول، ولكنها مجرد جماعة بشرية عدوانية تقوم بمهمة العدوان مقابل أجر، وتحقق للغرب أهدافه بثمن بخس، وتحقق أهدافها هي في نفس الوقت، وعلينا أن ندرك في هذا الإطار أن الغرب متفوق علينا عسكريًا واقتصاديًا وبالتالي إسرائيل التي تمتلك الدعم والسلاح الغربي، متفوقة علينا عسكريًا في إطار

الجيوش والآلات، وبالتالي لا يمكن مواجهتها بالحرب النظامية ولا بالأسلحة التي نستوردها من الغرب نفسه!!.. وليس هناك من سبيل لمواجهة إسرائيل إلا بالحرب الشعبية الاستشهادية في إطار الأيديولوجية الإسلامية، وذلك بالطبع يرجع إلى طبيعة الصراع، وطبيعة المعسكر المعادي، وطبيعة قوانا الذاتية، فنحن لا نملك إلا سلاح الجماهير المجاهدة، وهذه الجماهير لا تجاهد إلا من خلال تحريك وجدانها، وهذا الوجدان إسلامي حتى النخاع، وبالتالي فلا يمكن تحريك هذه الجماهير إلا من خلال التعبئة الإسلامية.. لنتأمل معًا الآيات القرآنية في سورة المائدة من ٥١ إلى ٥٢:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾.

الآيات تتحدث عن الحالة التي نحن بصددها، وهي الموالاة والتحالف الاستراتيجي بين الغرب الصليبي وإسرائيل اليهودية، وتحدد لنا الطريق الصحيح، بل تشرح أن هناك منهجين وأسلوبين سيظهران إزاء هذه الظاهرة، المنهج الأول هو منهج الاستسلام والسلام مع إسرائيل وعدم مواجهة الغرب، بحجة الخوف من بطشهم، ولسان حال أصحاب هذا المنهج الاستسلامي يقول: لا نقدر على إسرائيل، لا نقدر على الغرب، سيدمروننا بأسلحتهم، والمنهج الثاني هو منهج الثقة بنصر الله تعالى، فالله تعالى يقول لأصحاب هذا المنهج عليكم أن تثقوا في الله تعالى مالك الكون كله. فهو قادر رغم عدم التكافؤ في السلاح والإمكانيات على أن ينصرنا بإرادته المباشرة أو غير المباشرة على هؤلاء الأعداء.. وهكذا فالوقوف الصحيح والمنهج الصحيح هو المواجهة، ومقاتلة إسرائيل والتأكيد على الذات والهوية الحضارية لأمتنا، ورفض الاندماج أو الخضوع للغرب، وحشد كل الأمة لمواجهة الاستعمار والصهيونية وتحقيق الوحدة وإعلاء قيم الجهاد..

وفي الحقيقة فإن منهج المواجهة والقتال والجهاد والمقاومة استنادًا إلى الجماهير، وعن طريق التعبئة الإسلامية كان ولا يزال منهجًا كبيرًا في ضمير الأمة وتاريخها المعاصر وحالتها الراهنة، وهناك العديد من الرموز في هذا الصدد، عبد

القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي، وعمر المختار، الأفغاني والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد، وحسن البنا، وعز الدين القسَّام، وفتحي الشقاقي، آية الله الخوميني، وعباس الموسوي، علي عزت بيجوفيتش وجوهر داوديف.. إلخ، وعلى أرض فلسطين باعتبارها القضية المركزية للأمة، وباعتبار أنه على أرضها يتقرر مصير أمة الإسلام، إما نصر وإما نهاية لا قدر الله، فإن أصحاب منهج المواجهة يتواصلون منذ بدايات الغزوة الصهيونية، ثورة ١٩٢٠ ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، انتفاضة حائط البراق سنة ١٩٢٩، ثورة عز الدين القسَّام ثم ثورة ١٩٣٦، الكفاح والقتال الذي مارسته الجماهير والتنظيمات الإسلامية في معركة ١٩٤٨، الجماهير المسلمة التي انخرطت في العمل الذاتي منذ ١٩٤٨ وحتى معركة الكرامة في الأردن مارس ١٩٦٨، الشيخ حافظ سلامة ومقاومة شعب السويس للاختراق الإسرائيلي في ١٩٧٣، الشيخ راغب حرب والمقاومة الإسلامية في لبنان ١٩٨٢، عمليات الجهاد الإسلامي في فلسطين، وأخيرًا حزب الله في لبنان الذي أصبح الحلقة الأهم سياسيًا وعسكريًا في مواجهة الكيان الصهيوني..

إذن فحزب الله، والمقاومة الإسلامية في لبنان هي حلقة من ملفات الكفاح الإسلامي ضد الكيان الصهيوني والهيمنة الغربية وإذا كان حزب الله (المقاومة الإسلامية اللبنانية) لم ينشأ من فراغ بل هو امتداد لمجمل الكفاح الشعبي الإسلامي المعاصر، الذي تتداخل حلقاته، فإن من غير العلمية ولا الموضوعية تحديد تاريخ بعينه لظهور الحزب؛ لأن جماهيره ورجاله المؤسسين كانوا جزءًا من حلقات الكفاح السابقة، ولكن يمكننا أن نضع عام ١٩٨٢ كعلامة فارقة في تاريخ الحزب، فعلى أثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ قام عدد من رجال وعلماء الإسلام أمثال الشيخ راغب حرب، وعباس الموسوي بتنظيم عمليات المقاومة في الجنوب، ومع المقاومة وعلى وهج الجهاد بدأ الظهور التنظيمي والحركي لحزب الله، ويعتبر السيد عباس الموسوي أهم مؤسس هذه الحركة وأمينها العام الأول إلى أن استشهد وخلفه السيد حسن نصر الله عام ١٩٩٢...

ولا شك أن معرفة أطوار حياة الشهيد عباس الموسوي مؤسس الحزب تلقى

ضوءًا كبيرًا على طبيعة هذا الحزب وظروف نشأته وكفاحه..

ولد الشيخ الشهيد عباس الموسوي عام ١٩٥٢ في ضاحية الشياح بجنوب لبنان، واهتم بالقضية الفلسطينية منذ بداية حياته، فالتحق بمعسكرات تدريب المقاومة الفلسطينية في عدة دورات وهو في العاشرة من عمره، وأصيب بكسر في ساقه في إحدى هذه الدورات، كما اهتم اهتمامًا واسعًا بمعرفة وقراءة كل ما يتصل بالقضية الفلسطينية، ثم التحق بمعهد الدراسات الإسلامية في مدينة صور اللبنانية ثم رحل إلى النجف الأشرف بالعراق عام ١٩٦٩ لمواصلة دراساته العلمية، وتتلمذ على يد المفكر الإسلامي العالمي السيد محمد باقر الصدر.

وقد برز السيد الموسوي كعالم وفقيه في سن مبكرة، فكان يلقي المحاضرات ويعقد الندوات في النجف الأشرف ثم عاد إلى لبنان نهائيًا عام ١٩٧٨ بعد أن اكتملت في نفسه معالم الثورة والمقاومة فكرًا وخبرة من خلال علومه الدينية والعلمية، ومن خلال مشاركته في كفاح شعب العراق ضد الاستبداد، وشارك في إقامة معهد علمي في مدينة بعلبك اللبنانية وشارك في مجمل العمل السياسي الإسلامي المهتم بقضايا المستضعفين والقضية الفلسطينية على وجه الخصوص، وفي عام ١٩٨٢ وعندما اجتاحت القوات الصهيونية أرض لبنان في ذلك الوقت رحل السيد الموسوي إلى الجنوب لتنظيم المقاومة، والتقى في بلدة جبشيت بالجنوب اللبناني بالشهيد الشيخ راغب حرب إمام مسجد جبشيت، وألقى إليه مهمة قيادة المقاومة في الجنوب وأخذ السيد عباس الموسوي يتنقل من بلدة إلى بلدة في الجنوب ثم في البقاع وضواحي بيروت الفقيرة، ناشرًا لواء الثورة واستطاع في خلال سنوات قليلة أن يُخرج من رحم الأمة الخصب هذا الكيان المتميز المسمى «حزب الله» الذي أصبح علمًا على مقاومة الاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٨٢ وحتى الآن وقد استشهد السيد عباس الموسوي عام ١٩٩٢ عندما هاجمته وأسرته عدد من الطائرات الحربية الإسرائيلية وهو في طريقه عائدًا من أحد الاجتماعات الشعبية في الجنوب اللبناني..

تعد مسيرة حزب الله منذ نشأته عام ١٩٨٢ وحتى الآن هي مسيرة منهج المقاومة والمواجهة للكيان الصهيوني وللهيمنة الغربية، ولعل الظروف الموضوعية التي

سادت المنطقة والعالم في هذه الفترة أعطت الكثير من الزخم لحزب الله والمقاومة الإسلامية والجهاد الفلسطيني واللبناني عمومًا، ففي ذلك الوقت كانت تتساقط أفكار ورموز حملت صدقًا أو كذبًا لواء المقاومة للمشروع الصهيوني، كانت منظمة التحرير تنحدر منه باتجاه هاوية الاستسلام لإسرائيل، وانتهى بها الأمر إلى السقوط في مستنقع أوسلو؛ فاعترفت بإسرائيل وأسقطت خيار البندقية، بل تنكرت لكل شهدائها ووصمتهم بالإرهاب، وأصبح ياسر عرفات شرطيًا لحماية أمن إسرائيل، وكانت الأنظمة العربية بدورها قد راهنت على خيار السلام مع إسرائيل، وارتفعت نبرة تبرير هذا السلام مع إسرائيل، بل واعتباره طريقًا لا بديلاً عنه، ومع تغير الظرف الدولي ونهاية الاستقطاب الدولي الذي كان يعطي هامشًا من حرية الحركة والمناورة بين القوتين الأعظم، أصبح الخضوع لإسرائيل والقبول بها أمرًا أسموه واقعًا، وكان لابد أن يظهر من رحم الأمة الخصب كيانٌ لا يخضع للمتغيرات الدولية، ولا يراهن على لعبة السياسة والتناقضات بل يعتمد على قواه الذاتية وثوابت الأمة، ظهر إذن حزب الله وظهرت المقاومة الإسلامية اللبنانية والفلسطينية لتكون هي الجزء الباقي في جسد الأمة بعد أن اهترأت منظمات وأفكار، ولا شك أن سقوط القوى غير الإسلامية في مستنقع التفاوض والقبول بإسرائيل كان أمرًا طبيعيًا لأن اعتماد هؤلاء على المتغيرات الدولية جعلها في مهب الريح، وكذلك اعتماد خطابها السياسي على أفكار وأيديولوجيات لم تخرج من رحم الأمة ولا تخاطب وجدانها بل هي غريبة عليها ومريبة، بل وأيضًا استخدام خطاب غربي أيديولوجي في مواجهة ظاهرة غريبة وهذا بالطبع رصيد نافد لا محالة ولا يصمد كثيرًا خاصة في المنحنيات التاريخية..

لكن المقاومة الإسلامية التي تعتمد على الجماهير وهي السلاح الوحيد في المواجهة، والتي تستند إلى جذر أيديولوجي عميق جدًا في الوجدان الشعبي «الإسلام»، لابد أن تستمر لأنها تعبير صحيح عن طبيعة الصراع ولأن أدواتها لا تنفد.

وهكذا أصبحت المقاومة الإسلامية أملاً لكل فلسطيني ولبناني وعربي ومسلم، بل ولكل المستضعفين في العالم، باعتبارها تحمل راية المواجهة للمشروع الاستكباري العالمي الذي يعاني منه كل المحرومين في العالم، ولأنها قدمت الإسلام

كأيديولوجية للفقراء في العالم واعتبرته جذرًا ثقافيًا لمشروعها التحريري تحرير فلسطين، وإنهاء الهيمنة الغربية على العالم، ووقف الظلم والعنصرية اللتين اتسم بهما المشروع الغربي، وكان من الطبيعي أن يحصل حزب الله والمقاومة الإسلامية في لبنان وفلسطين على حب وتقدير وتضامن كل فلسطيني وعربي ومسلم ومستضعف وأن تصبح المقاومة رمزًا للأمل العربي والعالمي، وأن ينخرط فيها مباشرة أو بطريق غير مباشر كل شريف وكل ضعيف في العالم..

ولا شك أن صمود حزب الله وانتصاراته المتوالية على إسرائيل واستعصاءه على الذبح برغم كل ما فعلته إسرائيل، ومن خلفها الاستكبار الدولي يرجع إلى طبيعة حزب الله الجماهيرية، وارتفاعه في ممارساته السياسية والحربية فوق الطائفية والعرقية وبالتالي أصبح يمتلك عمقًا استراتيجيًا عميقًا لبنانيًا وفلسطينيًا وعربيًا وإسلاميًا وعالميًا، فضلاً عن أن من سنن الله في هذا الكون أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا، وأن سلاح الاستشهادي ـ الذي كان حزب الله رائدًا له ـ سلاح لا يمكن مواجهته باعتراف قادة الغرب وإسرائيل أنفسهم، وإذا كان من الناحية الاستراتيجية لا يمكن وقف سلاح الاستشهاد فمن الناحية الثقافية فإن الاستشهاد يفجر الوعي.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ وبالتالي يتطور الأداء السياسي والتنظيمي والفكري والفني لحزب الله وللجماهير في كل مكان بسبب سلاح الاستشهاد، وكشفت ممارسات حزب الله وصموده عن مدى هشاشة إسرائيل ومدى هشاشة المشروع الاستكباري العالمي، وبعد تجربة حزب الله لا مجال للكذب والقول بأنه لا طريق ولا إمكانية لمواجهة المشروع الصهيوني والاستكباري، بل الجهاد والمقاومة – مهما ضعفت الإمكانيات – هي الطريق الوحيد ليس للنصر فقط بل لمجرد النجاة أيضًا، لأن تكاليف الخضوع أكبر بكثير من تكاليف المواجهة على كل مستوى، ولعل تتبع مسيرة الصمود لحزب الله في محطاتها الرئيسية ما يؤكد كل ذلك، ظهر حزب الله إذن والمقاومة الإسلامية اللبنانية من خلال الرفض الشعبي والمقاومة الشعبية للاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، وكانت عمليات حزب الله الأولى سرية، ولا يعلن الحزب عن الجهة التي نفذتها لأسباب تكتيكية، ومنها في

١١/ ١١/ ١٩٨٢ إحدى عملياته المهمة وهي العملية الاستشهادية التي نفذها الشهيد أحمد قصير عندما اقتحم بسيارة مفخخة مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في مدينة صور، وأسفرت عن هدم المبنى تمامًا وسقوط ٢٥٠ إسرائيليًا بين قتيل وجريح، وظلت هذه العملية سرية لم يعلن عنها الحزب لمدة ثلاث سنوات، وفي خلال هذه الثلاث سنوات نفذ الحزب العديد من العمليات ضد الاحتلال الصهيوني للجنوب اللبناني مما اضطر إسرائيل إلى الانسحاب من ثلث الأراضي التي احتلتها منذ عام ١٩٨٢ وبعد عام ١٩٨٥ حدث تطور نوعي في الأداء التنظيمي والسياسي لحزب الله، وتعرض الحزب لعدد من الاعتداءات الإسرائيلية، كما تعرض لبنان للعديد من الاعتداءات عام ١٩٩٣، ١٩٩٦ في محاولة للقضاء على الحزب دون جدوى، وكان العدو يستهدف دائمًا ضرب الأهالي الآمنين والمدنيين حتى يحدث فجوة بين الجماهير وبين الحزب، ولكن كل ذلك لم يؤد إلا إلى المزيد من التلاحم بين الحزب والجماهير.. ونلاحظ في الأداء السياسي والعسكري لحزب الله أنه أولاً خرج من رحم الفقراء وإليهم انحاز ومنهم حشد جنوده، وهو بهذا طليعة للمستضعفين والفقراء والمحررين مما أعطاه جماهيريًا منقطع النظير، وأن قيادته هم علماء الإسلام وهم القيادة الطبيعية للأمة، وأنه حرص على تحديد هدفه فلم يقاتل سوى إسرائيل الهيمنة الغربية، ولم يتورط مثل غيره من الحركات الإسلامية في صدام داخلي لا يستفيد منه إلا الأعداء، ونذكر هنا أن حزب الله وجه نداءات للحركات الإسلامية المصرية بوقف الصدام الداخلي مع السلطة المصرية والتركيز على ضرب الأهداف الإسرائيلية، كما نلاحظ أن هناك انخراطًا واسعًا من النساء في العمل السياسي والعسكري لحزب الله، وهذا يحل الكثير من الإشكاليات التي وقعت فيها الحركات الإسلامية الأخرى فضلاً عن تلبية حقيقة شرعية وهي ضرورة مشاركة المرأة المسلمة في الجهاد عندما تُغتصب أرض إسلامية ولو بدون إذن زوجها أو والدها، كما أنه بذلك وضع الطريق الصحيح لتحرير المرأة، لأنه لا تحرير للمرأة إلا بتحرير مجتمعها وأرضها والدفاع عن دينها وثوابتها..

***

تحليل مضمون الخطاب الأيديولوجي لحزب الله

الخطاب الأيديولوجي لحزب الله أوسع من أن يُحاط بـه في دراسـة أو كتـاب أو عدة كتب، وهـو خطـاب يسـتند إلى لإسـلام أي إلى الكتـاب والسـنة وسـيرة الأئمـة والصالحين ومجمل الممارسات الحضارية الإسـلامية، وهـو يسـتوعب بالضـرورة أطروحـات واجتهـادات المفكـرين الإسـلاميين المعاصـرين بمختلـف انتمـاءاتهم وتوجهاتهم. ولكن في المقابل يتميز بخصوصية خاصـة في إطـار التركيـز عـلى قضـية التحرر الوطني من ناحية، والعمل كطليعة لكل الأمة بكل طوائفها وفئاتها، بل ويقدم الإسلام كأيديولوجية للفقراء عمومًا للانعتاق من الهيمنة الاستكبارية العالميـة ومـن خلال بعض كلمات الشهيد عبـاس الموسـوي نسـتطيع أن نحـدد المضـمون العـام للخطاب الأيديولوجي لحزب الله..

ففي الكلمة التي ألقاها في مدينة بعلبك احتفالاً بـالمحرَّرين مـن سـجون العـدو الصهيوني بتاريخ ٤ رمضان ١٤٠٥ هـ قال الشهيد:

«إننا نتساءل ماذا استفدنا من تقديم ١٠٠ ألـف قتيـل في حـرب طائفيـة تفريقيـة، نقول للإخوة في بيروت بحق الله علـيكم، بحـق رسـول الله، وبحـث المجاهـدين في الجنوب، وبحق الشهداء أن توقفوا النزف الداخلي، يجب عليكم أن توجهوا بنادقكم إلى العدو الذي لا يزال يرابط على حدود المسلمين، إسرائيل وضعت رؤوسًـا نوويـة في الجولان من أجل قتل المسلمين، ونحن نقاتل بعضنا بعضًا، يجـب أن نـتعلم مـن سجناء أنصار كيف توجه البندقية، إسـرائيل هـي العـدو الأول الأساسـي ولـيس أي واحد من المحليين، نحن اعتُدِيَ علينا كثيرًا وتحملنا أمريكا، وفرنسا اعتـدتْ علينـا، ويجب أن يتحمل طرف على الساحة من الآخرين لتبقى البندقية متوجهـة إلى العـدو، فكما يتوجه المسلم إلى القِبلة الشريفة فالرصاص يجـب أن يتوجـه إلى صـدر العـدو فقط»..

ونلاحظ هنا ارتفاع الخطاب الأيـديولوجي لحـزب الله عـن الطائفيـة والاقتتـال الطائفي ورفضه لهذا الأمر، والدعوة إلى توحيـد الجهـود لمواجهـة العـدو الرئيسـي إسرائيل.. فالرصاص يجب أن يتوجه إلى صدور العدو فقط..

وفي كلمته التـي ألقاهـا في مدينـة جبشـيت في ١٢ جمـادى الأولى ١٤٠٦ هــ قـال الشهيد:

«إن الغرب استغل العلم مـن أجـل تنفيـذ مصـالحه واسـتعباد النـاس وقهـرهم، والعلم في عصرنا الحاضر قدم لنا مظهـرًا مـن مظـاهر القـوة في أيـدي المسـتكبرين؛ فتحولت كل النظريات في الغـرب إلى بـرامج لضـرب واسـتغلال قـدرات الشـعوب المستضعفة»..

والشهيد هنا يحدد ملامـح الهيمنـة الغربيـة، ويقـدم في الوقـت نفسـه حركتـه – والحركة الإسلامية عمومًا – كطليعة للمستضـعفين في العـالم في مواجهـة الاسـتكبار الغربي الذي يستغل قدرات الشعوب المستضعفة..

وفي كلمة له في الضاحية «برج البراجنة» في ٣ ذي الحجة ١٤٠٦ هـ قال:

«إن مقاومة الآخرين في الغالب هي مقاومـة سياسـية حتـى عمليـاتهم العسـكرية دائمًا يجرونها لمسائلهم السياسية فقط، أما أبناء المقاومة الإسلامية فإنهم ينطلقون في مقاومتهم للعدو الإسرائيلي من التكليف الشرعي، إن المقاومة الإسلامية أسقطت ما يُسمى عسكريًا بالتوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني، لأن المقاومة تـرتبط بـالله وبمبادئ الإسلام، ولهذا نعتبر أن إنجازًا كبيرًا قد تحقـق عـلى أيـدي أبنـاء المقاومـة الإسلامية من خلال نسفهم لتربية الضعف والاستكانة والاستسلام»..

والخيار هنا – أي خيـار المقاومـة – خيـار اسـتراتيجي، لا يخضـع للمتغيـرات السياسية، بل هو تكليف شرعي لا يتغير..

ويقول الشهيد أيضًا:

«إننا مطوقون من كل جانب، ويجب علينا ألا نرمـي سـلاحنا لأن الجـزار يغريـه منظر النعجة، أمـا الـذئب فـلا يفكـر في الهجـوم عـلى الأسـد، وإن لم تكونـوا أسـودًا حقيقيين فلا تفكروا بالوقوف على أقدامكم أبدًا» ذي الحجة ١٤٠٦ هــ..

ويقول: «يجب على الأمة أن تحدد أعداءها في الداخل والخارج لتكون على حـذر

منهم، والقرآن يقول إن الخطر في الطواغيت الكبار ولكن يقول أيضًا بالحذر من المنافقين». كلمة في ١٠ ذي الحجة ١٤٠٦ هـ..

ويقول: «إن أبناء المقاومة الإسلامية بعملياتهم النوعية أرادوا أن يقولوا للأمة لماذا أنت نائمة وخائفة، لماذا لا تقومي في سبيل الله لتصبح الكلمة واحدة هي لا إله إلا الله، ونحن اليوم نوجه خطابنا للجميع ونقول لهم ابرزوا قوتكم في وجه العدو الإسرائيلي، تعالوا معنا نقاتل سويًا جنبًا إلى جنب وسلاحًا إلى سلاح وستروننا نقبل أيديكم، نقبل أيدي كل المجاهدين وأفواه كل البنادق التي توجه إلى العدو الصهيوني»..

كلمة للشهيد - ١٥ محرم ١٤٠٧ هـ.

أربعة أيام في بيروت

اقتراب إنساني من رجال حزب الله:

هذه تجربة اقتراب وتعايش إنساني مع رجال وعناصر حزب الله واحتكاك مباشر بهم، ولقاء مع حسن نصر الله الأمين العام للحزب، وذلك قبل تحقيق الانتصار واندحار القوات الإسرائيلية وانسحابها، وبالتحديد في الفترة من ٢٧/ ٧/ حتى ٣١/ ٧/ ١٩٩٨، وفي تلك التجربة إحساس كبير بقرب الانتصار وببزوغ الفجر الجديد من قلب الجنوب..

من الجنوب الصامد يخرج الفجر الجديد

تلك الأيام الأربعة التي قضيتها في الجنوب اللبناني وبيروت والبقاع ليست كغيرها من أيام حياتي، ذلك أن الحياة على وهج المقاومة له طعم آخر إنه طعم الحياة الحقيقة..

الحياة مع المجاهدين الصامدين الصابرين لها طعم الياسمين والريحان والقرنفل، بل هي طعم الفجر الآتي.

ويستطيع أن يؤرخ لحياته ما قبل رؤية المقاومة بالعين والتعاطي المباشر مع

أهلها وما بعد ذلك. إنها نقطة مفصلية في الحياة أن تعيش أجواء الجهاد والاستشهاد وترى الرموز وتستمع إلى تجارب المجاهدين وقصص الشهداء.

والحقيقة أنني طالما كتبت عشرات بل مئات المرات عن المقاومة في كتب أو مقالات أو ألقيت المحاضرات عن المقاومة وفضلها في استنهاض الأمة، ولكن بعد الرؤية يحس الإنسان بالعجز بل يتوقف القلم الذي طالما كان مدرارًا سيالاً بالكتابة عن الإحساس بعظمة هذه المقاومة لدرجة تقطع الأنفاس.

كانت مفاجأة لي حينما التقيت بالدكتور أحمد مللي (أبو راغب) في مكتبه في اليوم الأول للزيارة في المركز الثقافي بالضاحية الجنوبية.. قال لي مرحبًا بالرجل صاحب النبوءة التي تحققت، فقلت له أية نبوءة، قال لي: إن الدكتور فتحي الشقاقي رحمه الله كان قد نقل له أنك توقعت أن تكون لبنان وبالتحديد الجنوب هو من يحمل راية المقاومة الحقيقية ضد إسرائيل، ويفتح فجر العالمية الإسلامية الثانية.. وكنت بالفعل قد نسيت هذا الكلام الذي ربما مرَّ عليه الآن أكثر من عشرين عامًا..

ولكن على كل حال فإن نبوءة نبتت في غرفة المناقشات لا قيمة لها أمام الذين دفعوا الدم وأعطوا الأمة لحظة عزٍّ غير مسبوقة..

كان علينا أن نرحل أنا والدكتور رفعت سيد أحمد إلى الجنوب وصباح الخميس ٣٠/ ٧/ ١٩٩٨.. وانطلقت بنا السيارة يقودها ذلك الشاب الظريف الذي تحبه بمجرد أن تراه والمُكنَّى «أبو عباس» رغم أنه ليس له أولاد بهذا الاسم، بل له ثلاثة أبناء آخرين منهم حسين والزهراء، وقلت له إذن أنت أبو حسين وليس أبو عباس، فقال الحقيقة أنني متمسك باسم «أبو عباس» حتى إذا أخطأ أبو عباس قلت ما ذنب «أبو حسين»؟..

وكان يرافقنا أيضًا الأستاذ نديم طاهر، وهو رجل يثير الاحترام بشدة وإن كان يحب الكلام بكثرة، المهم وصلت إلى «صيدا»، حيث رافقتنا حراسة إلى الجنوب، وفي الطريق من «صيدا» إلى «صور» وقفنا لقراءة الفاتحة على قبر الشهيد عباس الموسوي الذي استشهد مع زوجته وابنه في مكان بين صيدا وصور وهناك نصب

تذكاري له، وكان السيد عباس الموسوي هو مؤسس حزب الله وحركة المقاومة الإسلامية ضد إسرائيل في لبنان، ومعنى أن يستشهد هذا المؤسس والأمين العام برصاص الطيران الإسرائيلي لدى رجوعه من حفل تأبين مؤسس آخر من مؤسسي الحركة وهو الشهيد راغب حرب، ومعنى أن يستشهد الأمين العام للحركة أن هذه الحركة يقاتل فيها القيادات، ولا يكتفون بالجلوس في الغرف المكيفة، ومعنى هذا أنها حركة لن تُهزم بإذن الله، لأنه لا تموت حركة يستشهد أمينها العام وزوجته وابنه، وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فإن الأمين العام الحالي لحزب الله السيد حسن نصر الله قد استشهد ابنه هادي نصر الله في أحد المعارك مع العدو الصهيوني، وهكذا يقدم القواد أبناءهم ولا يدخرون للمستقبل كما يقول سماحة السيد حسن نصر الله، وبالتالي فإن الأمر ليس مجرد ظاهرة فردية بل هو سلوك مستمر وتقليدي لدى هذه الحركة.

أكثر من هذا أنني عرفت أن الجميع بما فيهم المسئولين السياسيين والمدنيين في حزب الله يذهبون إلى المواقع ويقاتلون أو يقومون بالحراسة لمدد معينة ثم يعودون إلى مسئولياتهم المدينة أو السياسية، لأن هذا الحزب يضرب المثل على أن الجهاد هو الذي يفجر الوعي ويؤدي بالإنسان إلى الرقي والكفاءة السياسية والمدنية وليس العسكرية وحدها..

وصلنا إلى صور واستقبلنا مجاهد كبير ومعروف، وله زمن طويل في الجهاد ضد إسرائيل.. إنه مسئول المقاومة في الجنوب الشيخ نبيل فاروق الذي يبهرك بوعيه السياسي وبساطته وتكلم الرجل عن تحليله للمرحلة بصورة تعطيك الانطباع بأنك أمام محلل سياسي من الطراز الأول، فضلاً عن قائد ميداني دوَّخ إسرائيل ومطلوب رأسه كل يوم.

كان الجو جميلاً ومرحًا على مائدة من السمك الطازج الذي تشتهر به صور، وكان هناك قتال قد اندلع بين المقاومة والقوات الإسرائيلية في قطاع قريب من صور، وانشغل الرجل عنا بمتابعة ما يحدث، ثم اعتذر لنا عن مرافقتنا إلى الندوة التي عقدت في مكان آخر في صور، حيث التقينا بأهل الجنوب، وألقى كل من الدكتور رفعت سيد

أحمد والأستاذ محمد فنيش نائب البرلمان وأنا كلمات في الحضور، وكان من المفروض أن يحاضرنا أهل الجنوب الصامد لا أن نحاضرهم نحن، لأن القاعدين عادة يتعلمون من المجاهدين.. كانت أجزاء الندوة حارَّة..

وكان فرح كبير من أهل الجنوب أن مصر تحس بهم، بل هي الحقيقة تعتز بهم، فمصر ليست كامب ديفيد بل هي سليمان خاطر، وأيمن حسن، وسيد نصير. ومع العودة في المساء صمَّمنا على أن نرى قرية «أنصارية» تلك القرية التي شهدت لحظة عزٍّ غير مسبوقة للأمة، حيث استطاعت المقاومة أن تضرب مثلاً في إمكانية هزيمة أقوى الأسلحة الإسرائيلية.. ففي أحد البساتين دارت معركة استطاعت قوات المقاومة أن تقتل ١٢ إسرائيليًا من أفضل العناصر الإسرائيلية، بل هي أكثر العناصر العسكرية الإسرائيلية تدريبًا، ويتكلف تدريب الفرد من هذه المجموعة الإسرائيلية أكثر من ٥ مليون دولار حتى يصبح عنصرًا من عناصر تلك القوة، وتدعي إسرائيل أن الفرد من هذه القوة قادر على هزيمة كتيبة بأكملها، ولكن الآن تستطيع أن تقول أن فردًا واحدًا من المقاومة استطاع أن يهزم مجموعة كاملة من هذه القوة، وهذا يثبت من جديد أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا وأن المقاومة أسقطت أسطورة إسرائيل التي لا تُقهر بل حولتها إلى أسطورة إسرائيل المذعورة، أخذنا نتأمل الأرض والمكان والأشجار المحترقة التي نبتت في جذوعها فروع أخرى خضراء.. في إشارة إلى الخير الذي يتحدى الشر والحياة التي تتحدى الموت ثم التقط أحدهم قطعة من القماش، وكانت من ملابس جندي إسرائيلي، فأخذها الدكتور رفعت سيد أحمد ليحتفظ بها كتذكار قائلاً ربما أبادلها بأسير أو أكثر في يوم ما، وبمناسبة مسألة تبادل الأسرَى التي تمت مؤخرًا حيث استطاع حزب الله أن يفرج عن ٦٠ أسيرًا لبنانيًا من جميع الاتجاهات والطوائف، مقابل رفات الجنود الإسرائيليين، ألا يعطينا هذا الإشارة بأنه حتى الإفراج عن الأسرى لا يتم بالاتفاقيات، بل بالقتال، ومن المعروف أنه لا يزال في السجون الإسرائيلية الكثيرين من حماس والجهاد الإسلامي لم يستطع ياسر عرفات أن يفرج عنهم وفقًا لاتفاقية أوسلو!

عودة إلى بيروت، ولقاء سماحة السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله،

هذا الرجل المجاهد البسيط الذي يتسرب إلى مسام جلدك كالعطر، وللمفاجأة فإن الرجل لا يزال شابًا يبلغ ٣٨ عامًا وهو الأمين العام للحزب منذ خمس سنوات، وقارن هذا برؤساء الأحزاب عندنا هم جميعًا فوق السبعين!.

والحقيقة أن كل قيادات حزب الله شباب في بواكير العمر، وهذه خصوصية لهذا الحزب، وربما أحد أسباب نجاحه، فالجميع شباب الروح والقلب والعمر أيضًا، والأمين العام سماحة السيد حسن نصر استقبلنا ببشاشة وترحاب وأشاد بشعب مصر وتاريخها، وقال أنه أصدر بيانًا استنكر فيه حادث الأقصر، وأنه لا يوافق على القتال بين أبناء البلد الواحد، بل القتال يجب أن يتوجه إلى إسرائيل، ثم طمأننا الرجل أن آلية المقاومة لن تتوقف، حتى ولو انسحبت إسرائيل من جنوب لبنان، لأن هناك ٧ قرى لبنانية محتلة منذ ١٩٤٨، سوف يجعلها ورقة يستند إليها في استمرار القتال ضد إسرائيل – وأنه يحتفظ بهذه الورقة كاحتياطيٍّ يستخدمها عند اللزوم.

وعندما تكلمت مع سماحة السيد الأمين العام، حمَّلته الأمانة، أمانة المسلمين والمستضعفين، ألا يقع في مستنقع التفاوض وألا يكف عن خيار المقاومة، حتى ولو تم قتل كل عناصر الحزب، لأن الحزب أصبح نموذجًا، ولا ينبغي إهالة التراب على النموذج، وأن المقصود إسرائيليًا وأمريكيًا الآن ليس ذبح حزب الله فقط، بل ضرب النموذج الذي قدمه حزب الله ويمكن أن يكون مثالاً يُحتذى في هذا المكان أو ذاك، داخل أو خارج لبنان، اليوم أو غدًا، وقد وعد الرجل أن يظل وفيًا لخيار المقاومة حتى تحرير كامل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر ومن الجنوب إلى الجنوب.

كان لنا لقاءٌ آخر في البقاع الغربي، حيث المعارك المتواصلة والمستمرة مع العدو الصهيوني، وحيث التاريخ القريب المفعم بقصص البطولة والاستشهاد، واستقبلنا مسئول حزب الله بالبقاع الحاج أحمد قمر وفاجأنا بأنه استضافنا على الغداء في مطعم على بحيرة جميلة (بحيرة قرعون) وأن المطعم ملك لشخص مسيحي، وأضاف أنه يحرص على علاقات جيدة مع الجميع سُنة وشيعة ودروزًا ومسيحيين، وأن حزب الله ضرب المثل في البقاع في الارتفاع على الطائفية، وأن الجميع في المنطقة سُنة وشيعة ودروز ومسيحيين يعتبرون أنفسهم سندًا لحزب الله في مقاومته ضد الاحتلال

الإسرائيلي، وكان الرجل صادقًا، فقد لاحظنا أثناء الندوة التي نظمت لنا في بلدة «سحمر» أن الحضور الكثيف جدًا، كان به الكثيرون من المسيحيين والدروز والسُنة والشيعة، بل كان هناك الوزير المسيحي روبير غانم، والمفكر المسيحي جورج جيور، وهكذا رأينا على الأرض كيف يكون الحزب الإسلامي حزبًا ولا طائفيًا.

الرحلة مفعمة بالرموز والأسماء، الأستاذ أبو طه ذلك المثقف والكاتب الوديع الذي جمعتني به أمسيات من المناقشة بعد العودة من الندوات، واكتشفت فيه مشروع مفكر لامع، وكذلك هناك الحاج حسين مدير تليفزيون المنار، وهي قناة تليفزيونية تابعة لحزب الله استطاعت أن تجبر الجميع داخل وخارج لبنان على احترامها، وأن تقدم إعلامًا متميزًا بل أن تصبح هي وإذاعة النور هدفًا استراتيجيًا للقصف الإسرائيلي، وكذلك السيد إبراهيم الموسوي المحاور الذي أدار معنا حوارًا تليفزيونيًا ساخنًا كشف فيه عن إلمامه وثقافته الرفيعة، وضرب المثل في كيفية إدارة الحوار، وأيضًا لا أنسى الأستاذة رباب الحسن مذيعة إذاعة النور التي قامت بدورها بإدارة حوار خصب وخلاَّق، تكتشف فيه مدى مساهمة المرأة في مسئوليات المقاومة، ومدى ذكاء المرأة وتألقها وجدارتها، والمرأة التي هي نتاج حالة المقاومة، وليست المنفصلة عن هموم أمتها، أوالمرددة كالببغاء لأراجيف الغرب وقيمته وسلوكه. حقًا إن الجهاد هو مفجر الوعي والتقوى والنهضة.

هزيمة الآلة العسكرية الإسرائيلية في لبنان وآثارها على البنيان العربي

لا يختلف اثنان – من الأعداء أو الأصدقاء – أو حتى من الإسرائيليين أنفسهم على أن الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان هو هزيمة كاملة لآلة الحرب الإسرائيلية، وهو انتصار لبناني وعربي يدعو إلى الفخر والزهو والتأمل.

ولا شك أن هذا الانتصار اللبناني والعربي على آلة الحرب العسكرية الإسرائيلية في جنوب لبنان كانت وستكون له آثار مهمة، على المستويين الاستراتيجي والتكتيكي، على البنيان العربي وعلى القضايا الداخلية والخارجية على حد سواء..

بداية فإن الانسحاب الإسرائيلي بعد ٢٢ عامًا من الاحتلال هو فرار إسرائيلي في

مواجهة قوة أقل منها عددًا وعدة، وقد جاء هذا الفرار بسبب عدم قدرة إسرائيل على تحمل هذا القدر من الخسائر الذي تسببه لها المقاومة الإسلامية في لبنان، بسبب عملياتها الجريئة والمتميزة، ولم تنسحب إسرائيل بالطبع إيمانًا بالسلام أو تطبيقًا لقرارات الأمم المتحدة ذات الصلة، أو بسبب الضغوط الدولية والإقليمية فكل هذا – في هذا الوقت – كان ولا يزال يصب في عكس اتجاه الانسحاب..

وأيضًا فإن تفسير الانسحاب الإسرائيلي على أنه محاولة إسرائيلية لنزع ورقة تفاوضية مهمة من سوريا، وهو محاولة إسرائيلية إعلامية لنزع وتعطيل تراكمات الثقة بالنفس والزهو واستخلاص الدلالات من نجاح مقاومة صغيرة عددًا وعدة في هزيمة أقوى جيوش المنطقة، بل وآلة عسكرية واستخباراتية ضخمة على مستوى إسرائيل بل ومن يدعم إسرائيل استخباراتيًا وسياسيًا واقتصاديًا..

ولعل تلك الدلالة من الأهمية بحيث أنها سوف تتعرض لحملات إعلامية ضخمة في محاولة سحبها من المفاهيم، هذه الدلالة مرة أخرى هي أنه بالإرادة والعزم والتصحيح يمكن هزيمة إسرائيل، وأن الإنسان أقوى من التكنولوجيا، وأن الحديث عن قوة إسرائيل وعدم القدرة على مواجهتها حديث لم يعد له مصداقية، وهذا يعني إمكانية تكرار التجربة في زمان ومكان آخر – وهو ما يعني من وجهة نظرنا – أن بداية النهاية لدولة إسرائيل قد بدأت ملامحها..

آثار الهزيمة الإسرائيلية أكثر من أن تُحصى ولعلنا نشير إلى بعض منها، فمثلاً ثبت يقينًا أن إسرائيل لا تفهم غير لغة واحدة وهي لغة القوة، وقارن هنا بين الوضع على الجنوب اللبناني والوضع بخصوص المسار الفلسطيني!!.. وأن الأمة لا تزال بها خلايا حية قادرة على إنزال الهزيمة بالعدو، وهذه الخلايا قادرة على تجديد شباب الأمة وإيقاظها من نومها وإنهاضها من كبوتها، ولعل منظر الجندي الإسرائيلي المذعور والخائف أمام رجال المقاومة الإسلامية كفيل بإعطائنا لحظة عز غير مسبوقة ونقطة ضوء في النفق المظلم، وهي أيضًا التي تسببت في الضغط على التماسك الاجتماعي الإسرائيلي وفجرت في الداخل الإسرائيلي حركات وأوضاعًا وأمورًا تعبر عن التردي النفسي على عكس ما كان يحدث دائمًا على الجانبين العربي

والإسرائيلي..

ومن الآثار المهمة جدًا لتجربة المقاومة الإسلامية اللبنانية هي إنها نسفت – نسفًا – منطق دعاة التطبيع، حيث إن القاعدة الأساسية لدعاة التطبيع هي أنه مادام ميزان القوى العسكري والسياسي مختل تمامًا لصالح إسرائيل، وأنه لا فرصة هناك لاسترداد الحقوق عن طريق القوة، فلا مناص بالرضا بالقدر المتاح عن طريق إقناع الإسرائيليين والتفاوض معهم وإقامة حوار مع دعاة السلام في إسرائيل للضغط على إسرائيل بالسلام والتطبيع لانتزاع بعض الحقوق، ومع المغالطات الكثيرة في هذا المنطق، فإن تجربة المقاومة نسفته من أساسه، حيث إن التجربة تقول إنه بالإمكان هزيمة إسرائيل، وإن هناك طرقًا ووسائل ليست بالضرورة الحرب النظامية يمكن من خلالها إنزال هزيمة عسكرية بإسرائيل، المقاومة الشعبية مثلاً، ولعل اكتشاف السلاح العربي الرهيب، وهو سلاح الاستشهاد والذي تم اكتشافه أو قُل إعادة استخدامه بعد قرون طويلة، والذي أثبت أنه قادر على هزيمة أي قوة مهما كانت، وأي جبروت مهما علا وطغَى وتكبَّر، هذا الاكتشاف أعاد ميزان القوى لطبيعته وأصبح بالإمكان الحديث الآن عن قدرة ١٢٠ رجلاً فقط على هزيمة إسرائيل بالكامل وتحرير كامل التراب الفلسطيني من البحر إلى البحر ومن الجنوب إلى الجنوب، على أساس أن عملية استشهادية واحدة كل شهر لمدة عشر سنوات كافية لإجبار الإسرائيليين على الهرب من فلسطين كلها، لأن اليهود كما نعلم «أحرص الناس على الحياة»..

وفي الحقيقة فإن الانتصار اللبناني على إسرائيل، بما سيتركه من آثار نفسية على العرب سوف يدفع بالضرورة في اتجاه التقدم الصناعي والزراعي والاقتصادي والحضاري عمومًا لأن مناخ الثقة بالنفس سيؤثر بالضرورة على سلوك العربي إيجابيًا، ولعل هذا هو مناط تفسير الآية الكريمة:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ وهي تؤكد على جدلية الجهاد والوعي والنهضة، بل أكثر من هذا سوف يحدث نوع من الانفراج السياسي في الدول العربية

على مستوى احترام حقوق الإنسان وتوسيع الهامش المتاح من الحرية، بل أيضًا في قريب الفجوة بين مختلف القوى السياسية، بل الحكومات والمعارضة السرية والعلنية ولعلنا لا نضيف جديدًا إذا قلنا إن مبادرة وقف العنف التي أطلقها القادة التاريخيون لحركات العنف في مصر، كانت في جزء منها نوعًا من الاستجابة لما تركه الجهاد المتميز لحزب الله والمقاومة الإسلامية في لبنان من تراكمات سياسية وتراكمات وعي، ولفت نظر الإسلاميين في كل مكان إلى جوهر المعركة، وأيضًا ما حققته تلك المقاومة من شعبية وسمعة عالية في الشارع العربي كان عاملاً ضاغطًا للحركات الأخرى في اتجاه الإقتداء بها أو الاستفادة من تجربتها..

بل لعلني لا أكون مبالغًا إذا قلت إن تجربة المقاومة الإسلامية في لبنان كان سببًا مهمًا من أسباب التقارب العربي الإيراني، وإزالة كثير من الجفوة وسوء الفهم المتبادل بين الطرفين..

والمهم الآن ألا يتم سحب كل هذه التراكمات عن طريق الحروب النفسية، فنخسر بالغباء والدعاية السوداء ما كسبناه بسواعد الشباب المجاهد..

حوار مع الشيخ نصر الله زعيم حزب الله

قبل أعوام سألت الأمين العام لـ (حزب الله) السيد حسن نصر الله عن شعوره وهو يرسل هؤلاء الشبان إلى الموت فأجابني (صدقني إنهم يتسابقون لإدراج أسمائهم في لوائح العمليات الجهادية والاستشهادية.. إنهم لا يذهبون إلى الموت، يذهبون إلى النصر ودماؤهم لن تضيع) تذكرت ذلك الكلام حين التقيت السيد نصر الله مجددًا قبل أيام وفي المكان نفسه ضاحية بيروت الجنوبية، ذهبوا إلى النصر فعلاً وسيتردد دوي هذا الانتصار في ساحات قريبة وبعيدة، وسيكون لهذا الانتصار ثماره ومفاعيله وانعكاساته في لبنان، لم تنته رحلة (حزب الله) مع ارتفاع علَمِهِ على الحدود اللبنانية الإسرائيلية، وسيتردد اسمه واسم زعيمه كثيرًا وطويلاً، ففي زمن تآكل الأحزاب يرجع (حزب الله) من انتصاره حزبًا قويًا مسلحًا بإنجازه وعلاقته بالناس في المياه التي يسبح فيها. وفي زمن لبناني توقف عن إنجاب الزعامات والأقطاب والقامات يطل حسن نصر الله في صورة الزعيم الواثق، ويفسح الآخرون مكانًا لمن

يسلمون اليوم بأنه (لاعب كبير وخطير) ويشرحون، (كبير لأنه حقق إنجازًا غير مسبوق، وخطير لأنه يجيد القراءة ويجيد التشدد والمرونة معًا، ولأنه يجيد السبر بين الألغام).

سألناه عن النصر وصانعيه ومصير المقاومة وسلاحها فلمعت عيناه وهو يتذكر الشهداء الذين فاتتهم فرصة الاحتفال بنصر صنعوه، قال إن أكبر عملية تأسيسية لـ(حزب الله) كانت عملية استشهادية نفذها أحمد قُصير حين فجَّر مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور (١١ تشرين الثاني –نوفمبر ١٩٨٢) موقعًا ٨٥ قتيلاً في صفوف العسكريين الإسرائيليين، وأضاف أن تلك العملية كانت أول عملية استشهادية من حيث الشكل والمضمون، وكانت قدرتها الاستنهاضية مهمة جدًا، إذ أعطت أملاً ومعنويات كبيرة للمقاومة ومشروعها، وأوضح أن (حزب الله) تعمد حينها عدم إعلان مسؤوليته لأسباب أمنية.

أصبح الجنوب اللبناني في قبضة المقاومة وأصبحت قواتكم على الحدود مع إسرائيل، كيف ستتعاملون مع الدولة العبرية من الآن فصاعدًا، علمًا بأن قضية «مزارع شبعا» غير محسومة من وجهة نظر مجلس الأمن؟

نحن نعتبر أن هناك انتصارًا كبيرًا تحقق بعودة جزء كبير من الأرض اللبنانية، لكن طالما أن منطقة مزارع شبعا مازالت تحت الاحتلال، فنحن لا نعتبر ما حصل انسحابًا كاملاً، فالأمور ليست كذلك، وهذا يعني أننا سنتابع جهادنا لتحرير هذه الأرض المحتلة، وليس مهمًا ماذا يعتبرها مجلس الأمن الدولي؟ المهم أن لبنان يعتبرها أرضًا لبنانية وهذه ليست أرضًا متنازعًا عليها، وإذا كانت هناك دعوى إسرائيلية بأن هذه الأرض لسورية فسورية تقول إن هذه الأرض لبنانية، وهي حاضرة أن توقع على ذلك وتقدم كل الوثائق لتؤكد.. إذن في الحقيقة هناك جزء كبير من الأرض اللبنانية تم تحريره، ولكن هناك جزء آخر لم يُحرَّر، وبالتالي فإن قضية المقاومة مازالت قائمة.

هل أنتم على استعداد لتسليم الدولة اللبنانية مسؤوليات الأمن في القرى

المحررة، أم ستكون هذه القرى منطلقًا لعمليات لاحقة ضد إسرائيل؟

بمعزل عن مستقبل عمليات المقاومة في هذه المنطقة فنحن لا نريد أن نتحمل مسؤوليات أمنية فيها، ولسنا سلطة أمنية، ولم نكن سلطة أمنية في أي يوم من الأيام في لبنان، ولسنا بديلاً عن الدولة، ومن الطبيعي أن تتحمل الدولة المسؤولية الأمنية، هل ترسل الدولة الجيش اللبناني أو قوى الأمن الداخلي؟ وكيف تحافظ على الأمن في هذه المنطقة فهذه مسؤوليتها.

بعد انهيار (جيش لبنان الجنوبي) أي ضمانات ستقدمون للمدنيين هناك بمختلف طوائفهم).

نحن أعلنا منذ مدة طويلة أن سكان المنطقة المحتلة هم أهلنا وإخواننا، وأكدنا ذلك في أكثر من مناسبة، وكانت هناك اتصالات مباشرة مع فعاليات هذه المنطقة، والتقينا عددًا كبيرًا من سكان هذه المنطقة وعلى كل حال هذه الأيام تشهد أن هذه المنطقة تحرر، ولم تحصل أية مشكلة مع السكان، بل كانت المقاومة موضع ترحيب السكان، ولم تحصل أية إشكالات وأعتقد أن الأمور ستكون على أفضل ما يرام، ونحن عمليًا تجاوزنا مرحلة تقديم الضمانات لأن الأمور في منطقة الشريط الحدودي انتهت لمصلحة هذا الشعب ولمصلحة عملية التحرير.

القوة الدولية معنية بالمحافظة على الاستقرار ومساعدة الدولة اللبنانية على بسط سلطتها،، كيف ستتعاملون مع هذه القوة؟

الأمر يتوقف على مهمة هذه القوات وأدائها، المهم أن تكون مهمة هذه القوات هي الدفاع عن المعتدَى عليه والمظلوم، وهو لبنان الذي تعرَّض منذ العام ١٩٤٨ إلى اعتداءات متكررة واحتلال أراضيه وارتكاب مجازر بحق شعبه، والمهمة والأداء هما اللذان سيحكمان علاقتنا بهذه القوات، ومن حيث المبدأ ليست لنا مشكلة مع قوات الطوارئ ونحن همنا الأساسي تحرير ما تبقى من أرضنا المحتلة.

بماذا شعرت لحظة انسحاب القوات الإسرائيلية وما هو مستقبل عناصر المقاومة بعد الانسحاب؟

بالتأكيد شعرت بالاعتزاز وهذا يوم كنا ننتظره بفارغ الصبر، وكنا على يقين من مجيئه، وكنا نعتقد بأنه سيكون قريبًا أكثر مما يعتقد العدو أو الصديق.

على المستوى العاطفي، أول ما حضر في ذهني ووجداني هم الشهداء الذين صنعت دماؤهم الزَّكية هذا النصر بالدرجة الأولى، والذين يجب أن نحفظ لهم هذا الفضل على لبنان وعلى الأمة بكاملها، وأن نكون أوفياء لدمائهم وللأهداف التي استُشهدوا من أجلها ونحن اليوم ننعم بالحرية والحياة الكريمة بفضل تضحياتهم العظيمة وفدائهم الكبير.

بالنسبة إلى عناصر المقاومة لم يحن الوقت بعد للحديث عن مستقبل هؤلاء الشباب، لأن المسائل لم تنته حتى الآن فمازالت هناك أراض لبنانية تحت الاحتلال، أعني مزارع شبعا، ومازال لبنان في دائرة التهديد وبحاجة إلى جهوزية هؤلاء الشباب ليحرروا بقية الأرض وليدافعوا عنه في مواجهة هذه التهديدات.

ماذا سيفعل (حزب الله) بعد المقاومة هل ينكفئ إلى الداخل اللبناني لرفع مطالب وشعارات إسلامية أسوة بالحركات الإسلامية الأخرى في العالم العربي؟ وهل يطالب بثمن لتضحياته أي بدور أكبر في الحياة السياسية اللبنانية؟

بمعزل عن مستقبل المقاومة فإن حزب الله له حضور سياسي كبير، وهو يتبنَّى قضايا الناس والفقراء والمستضعفين والعمال والمناطق المحرومة، ويهتم بكل شاردة وواردة في الحياة السياسية، بالتأكيد في الفترة المقبلة سيكون له اهتمام كبير وحضور أكبر من ناحية أخرى ونتيجة للنصر الذي تحقق، فمن الطبيعي أن يكون لهذه القوى التي صنعت هذا النصر دور وتأثير أهم في الحياة السياسية اللبنانية، وهذا ليس من قبيل الحصول على ثمن وإنما من قبيل ممارسة الدور الذي يحتاجه الوطن والمجتمع اللبناني.

من صنع هذا الانتصار؟

في الحقيقة لا تستطيع القول إن لهذا الانتصار صاحبًا واحدًا أو ننسبه إلى جهة محددة و حدها، لأن ذلك سيكون غير مُنصف وغير دقيق، هناك مجموعة عوامل

أدت إلى صنع هذا الانتصار، في طليعتها رأس الحرية المقاومة المسلحة لأن بقية العوامل تصنع في حال توافرها كلها صمودًا في لبنان ولكن ليس مقاومة.. المقاومة المسلحة أدت إلى استنزاف قوات الاحتلال وعملائها أولاً على المستوى البشري أي إلحاق أكبر عدد ممكن من الخسائر البشرية بصفوف قوات الاحتلال والعملاء.. وثانيًا الخسارة المعنوية التي لحقت بالاحتلال، وهي لا تقل أهمية عن الأولى عن لم تكن أهم، لأن قوة الجيش ترتبط بالدرجة الأولى بهيبته.. ما تعرض له الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان هو كسر لهذه الهيبة، وإسقاط لهذه الأسطورة إلى حد جعل صورة هذا الجيش في نظرنا مهينة وذليلة..

وهناك صمود الناس، واحتضانهم المقاومة سواء داخل الشريط الحدودي أم في خارجه، خصوصًا سكان البلدات الواقعة على خطوط المواجهة الذين نعترف بفضلهم الكبير، فقد تعرضوا يوميًا للقصف والغارات الجوية لكنهم صمدوا واحتضنوا المقاومة وتعاونوا معها، وأخلصوا لها وحافظوا عليها.. وكذلك الموقف الشعبي الذي كان يحتضن هذه المقاومة ويدعمها، ويساندها بالدماء والموقف الإعلامي والمال، وبتقديم فلذات الأكباد، وكذلك مشاهد عائلات الشهداء واعتزازها بالتضحيات.. ثم الموقف الرسمي اللبناني مع العهد الجديد والحكومة الجديدة وهو تطور كبير.. وهذا أكد أن رهان المقاومة وطني وحقيقي وكامل، وهو ما أسقط الرهان الإسرائيلي الدائم على الفتنة والإيقاع بين الدولة المقاومة..

وهناك سورية التي لا يستطيع أحد أن يتحدث عن النصر بمعزل عنها، لأنها ومنذ سنة ١٩٨٢ وقفت إلى جانب المقاومة وساندتها وحمتها وتعرضت بسبب ذلك لضغوط كبيرة جدًا كانت إحدى محطاتها الكبرى مؤتمر شرم الشيخ وصولاً إلى التطورات الأخيرة.. سورية كانت دائمًا إلى جانبنا وعندما أقول دعمت المقاومة وحمتها لا أقصد فقط إقليميًا بل أيضًا داخليًا.. إن مساندة سورية للمقاومة عامل أساسي في هذا النصر، ومن أهم العوامل التي كانت سورية تقف وراءها موضوع السلم الأهلي والأمن والاستقرار في لبنان، وهو ما أعطى فرصة أكبر كي يتوجه المقاتلون والمجاهدون ببنادقهم وعقولهم وقلوبهم إلى جبهة المواجهة مع المحتل..

فلو كانت الحرب الأهلية مشتعلة لما كانت عليه.. إذا هذا النصر لسورية أيضًا..

وعندما نتحدث عن النصر يجب أن نتحدث أيضًا عن الجمهورية الإسلامية في إيران، وهي وقفت منذ ١٩٨٢ إلى جانب المقاومة ودعمتها وساندتها وحمتها..

فحين نتحدث عن أصحاب لهذا النصر نتحدث عن المقاومة والشعب اللبناني والدولة اللبنانية وسورية والجمهورية الإسلامية في إيران كلهم شركاء.. وأختم من حيث بدأت.. فرأس الحربة كامن يستنزف العدو ويؤذيه وينزل به الخسائر التي أدت إلى تكوين رأي عام إسرائيلي ضاغط على حكومة العدو، إلى أن أصبح شعار الانسحاب من لبنان شعارًا انتخابيًا، يمكن أن يستقطب أعدادًا هائلة من الأصوات.. المقاومة المسلحة والمجاهدون والشهداء والأسرى والجرحى والمضحّون المباشرون الذين كانوا يقاتلون نيابة عن كل الشعب اللبناني وكل العرب وكل المسلحين هؤلاء أصحاب النصر. طبعًا حين أتكلم عن المقاومة لا أتحدث عن «حزب الله» وحده بل عن كل من قاتل.. نحن لا ندعي أننا وحدنا صناع هذا النصر وإن كنا نعتبر أن «حزب الله» ومقاومته هما من الصناع والأركان الأساسيين في إنجاز النصر..

هل استشهد في صفوف «حزب الله» مقاتلون غير لبنانيين؟

لا أذكر ذلك..

استفادت المقاومة من التفاف وطني واسع حولها.. هل تعتقد بأن «حزب الله» يملك التفويض اللازم والدعم نفسه للاستمرار في القتال من أجل مزارع شبعا؟.. علمًا أن إسرائيل ستكون أكثر قدرة على الإيذاء بعدما سحبت قواتها من جنوب لبنان؟

– أسمع لبنانيين يتحدثون عن موضوع السيادة ومسألة إبطال الإجماع الوطني حول المقاومة.. حين يبقى شبر تحت الاحتلال فهذا يعني أن السيادة منقوصة.. وعندما تكون هناك أرض لبنانية محتلة لا مبرر لتراجع الإجماع.. ثم أقول إن المقاومة حين انطلقت لم يكن هناك إجماع وطني حولها خصوصًا في ١٩٨٢ إذ كانت هناك

حرب أهلية ونزاعات داخلية عميقة جدًا.. الواقع أن الإجماع الوطني توافر في السنوات الأخيرة ولجزء منه علاقة بإثبات المقاومة جدواها وبأداء «حزب الله» السياسي وانفتاحه على القوى الأخرى..

هذا الموضوع مُعقد.. بالنسبة إلينا الإجماع الوطني أمر نحبه ونعتبره عنصر قوة أساسيًا، ولكن ليس سببًا لا لقيام المقاومة ولا لاستمرارها. قد يراهن أحدهم على أصوات في الداخل تخالف استمرار المقاومة.. هل سيؤدي ذلك إلى وقف المقاومة؟

الجواب هو لا.. بالنسبة إلى المقاومة هناك قضية واضحة وحاسمة قاتلت من أجلها، وكانت قلة وغريبة إلى أن جاء وقت وأصبح حولها التفاف وطني كبير.. قد يكون هناك من يخالف أو لا يوافق على استمرار المقاومة ستصبح معزولة شعبيًا ووطنيًا وسياسيًا..

من أين ستقاتل المقاومة لتحرير مزارع شبعا في حال انتشار القوة الدولية في المناطق التي انسحبت منها إسرائيل؟

هذه مشكلة ميدانية فنية وحلها سهل على المقاومة..

ومن سيتحمل المسئولية إذا نفذ باراك تهديداته وأحلق أذى فادحًا بلبنان بسبب عملية للمقاومة من أجل تحرير مزارع شبعا؟

السؤال هو: ما هي خيارات لبنان حين يعتبر أن هذه أرض لبنانية محتلة؟ هنا نعود إلى أسئلة العام ١٩٨٢ نفسها.. في عام ١٩٨٢ حين كان احتلال الإسرائيلي موجودًا كانت الأرض أوسع. وأذكر حين اقتحم الشهيد أحمد قصير مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور في عملية استشهادية، تحدث الإسرائيليون عن مقتل ٨٥ جنديًا، وأعلن مناحم بيجين الحداد ثلاثة أيام، أطلق يومها كلامًا بأن إسرائيل ستدمر لبنان لأنها لا تحتمل خسارة من هذا النوع وأن خيار المقاومة خيار مكلف ومجهد ومتعب.. الأسئلة نفسها ستطرح الآن.. هل تتصور أن يأتي باراك بهذه البساطة ويدمر ويفعل ما يشاء في البلد، أبهذا القدر الخيارات أمامنا مقفلة؟ لا ليس كذلك..

لكن الظروف مختلفة.. هناك فارق بين الاحتلال لمعظم الأراضي اللبنانية وما قالته إسرائيل بأنها تريد تطبيق القرار الدولي رقم ٤٢٥، بغض النظر عن احتقارها للقرارات الدولية، ألن تكون المعركة صعبة؟

لا شك في ذلك.. أنا لا أنفي صعوبة المعركة.. أصلاً أي معركة تحرير صعبة.. ألم تكن المقاومة في السنوات الماضية صعبة؟ لكنه من الواضح ، متى بدأنا نشعر أن هناك موقفًا عربيًا رسميًا متفهمًا وبعضه مؤيد؟ متى بدأنا نسمع كلمة طيبة؟ في السنتين الأخيرتين.. وتحديدًا بعد مجزرة «قانا».. ما هو عمر هذه السنوات من تاريخ المقاومة؟ لبنان كان وحيدًا منذ العام ١٩٨٢ إلى ما قبل نحو ثلاث سنوات أو أربع، ويتعرض للقصف والدمار والخراب وأرضه محتلة.. أسأل بطريقة أخرى: لو افترضنا أن الإسرائيلي خرج من كل الجنوب وبقي في «الناقورة» لا في مزارع شبعا، التي لا نقاش بلبنانيتها، هل نسكت نحن كمقاومة وشعب لبنان ودولته على بقاء قوات الاحتلال في الناقورة بحجة أن الإسرائيلي انسحب؟ ومن يتحمل الآن مسؤولية الخراب والدمار؟ ما الفرق بين مزارع شعبا والناقورة بالنسبة إلينا كلبنايين؟ قد يكون هناك فارق من وجهة نظر الآخرين، أما من وجهة نظرنا فهذه أرضنا..

هناك انطباع بأن موضوع مزارع شبعا على رغم لبنانيتها قد يكون المبرر لاستمرار ربط لبنان بما تبقى من الشق العسكري من النزاع مع إسرائيل، وورقة في المواجهة الإسرائيلية – السورية..

اقتراحي هو انسحاب إسرائيل من مزارع شبعا أيضًا.. لا أعتقد بأن أحدًا تبقى لديه حجة بهذه الحيثية، عندما نقول لم تعد هناك أرض لبنانية محتلة.. والأمور في الاعتبار اللبناني أصبحت واضحة، وعندها إذا أراد أحد أن يقاتل إسرائيل لن يقاتلها بالاعتبار اللبناني بل سيتحدث بلغة ثانية، موضوع فلسطين أو غيره، يقاتل أو لا يقاتل.. تذهب الأمور إلى مكان آخر لكن في الموضوع اللبناني إذا كانوا يعتبرون هذه النقطة كذلك، أنا أقول بسيطة.. فمن خرج من كل جنوب لبنان يمكنه أن يخرج من مزارع شبعا..

نحن اللبنانيين نقول إنها أرض لبنانية، وسورية تقول هذه ليست أرضًا سورية بل لبنانية. والحمد لله أن مزارع شبعا ليست على حدود فلسطين ليأتي أبو عمار ويقول إنها فلسطينية.. هذه نحن مرتاحون منها. ولبنان وسورية يتفاهمان.. الحل الأفضل إذا كان هذا الموضوع بهذا القدر يحدث عقدة في مسألة الانسحاب الإسرائيلي ويُربك مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة ليخرجوا منها.. وعندما تقف حكومة العدو الإسرائيلي وتقول: هل هناك شبر من الأراضي اللبنانية احتلها؟ فيقول لبنان: لا.. وبذلك يكون هذا الموضوع منتهيًا..

هناك من يقول إن خروج إسرائيل الكامل من الأراضي اللبنانية سيفقد سورية ورقة الضغط الرئيسية في مفاوضاته مع إسرائيل؟

في النهاية بالنسبة إلى الإخوة السوريين.. صحيح أنهم مشوا في مسار لكن ثمة نقطة أساسية لديهم وهي أن الحل الذي يبحثون عنه يضمن لهم الحصول على كامل الأرض وكذلك حقهم في المياه وبسيادتهم. أما أن المقاومة كانت عاملاً مساعدًا فلا شك في ذلك.. من جملة الأسباب التي كانت دائمًا تدفع الإسرائيليين إلى طلب ود سورية والدولة اللبنانية أنها تريد ضمانات أمنية لها علاقة بشمالها.. الآن الإسرائيليون ينسحبون، ولكن لا ضمانات أمنية لديهم لا من لبنان ولا من سورية، ولا يزال انسحابهم تحت عنوان المغامرة.. هناك نقاش وسط المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، الانسحاب إذا كان كاملاً يعني أن واحدًا من المواضيع التي كانت دائمًا من الدوافع للحديث والتفاوض تراجعت نسبة أهميته بدرجة كبيرة دائمًا من الدوافع للحديث والتفاوض.. لا أقول انتهى لأن أحدًا لم يعط ضمانات أمنية، ولا أحد يعرف ماذا سيحصل على الحدود ولا لبنان في جو إرسال جيشه ونشره على الحدود ولو في المرحلة الأولى.. ممكن أن يحصل على أي شيء على الحدود من أي أحد.. لا أحد منا نحن اللبنانيين سيعمل حرس حدود.. وبالتالي ثمة مشكلة ستبقى قائمة.. حساسية هذا الموضوع تراجعت بدرجة كبيرة لكنها لم تنته.. على كل حال بالنسبة إلى الإخوة السوريين أظن أن نقاط قوة مهمة مازالت لديهم.. ووحدة المسارين مازالت قائمة لأن لبنان لن يوقع صلحًا ولا اتفاق سلام مع إسرائيل إذا لم يتم التوصل إلى

اتفاق سلام مع سورية كحكومات..

السلام الذي يتحدثون عنه، تسوية شاملة في المنقطة لا يمكن أن تحصل من دون لبنان وسورية والوضع الفلسطيني أموره واضحة، وهو يتجه تدريجيًا نحو الانفجار في شكل أو آخر، لأن الآن وقعت ساعة الحقيقة أن نكذب على الناس بأننا نتفاوض ونبحث، هذه تسع سنوات مرت وماذا بعد؟ ففي النهاية لإسرائيل وللولايات المتحدة مصلحة كاملة في إنجاز مشروع التسوية في المنطقة لأنه حتى هذه اللحظة يتم إنجازه بشروط إسرائيل وليس بشروط عربية، مصلحتهم أن يكملوا في هذا الاتجاه هذه نقطة الحاجة الأمريكية – الإسرائيلية ولا يمكن أن تتحقق من دون استرضاء سورية والصلح معها ومع لبنان لاحقًا، وبالتالي القول بأن سورية والصلح معها ومع لبنان لاحقًا، وبالتالي القول بأن سورية فقدت أهم أوراقها لا.. نعم أحد العوامل الأساسية التي كانت مساعدة يمكننا أن نقول أن أهميته تراجعت.

قيل ربما يذهب الفلسطينيون وينفذون عمليات، وأي شخص في البلد يعرف أن المخيمات مطوقة أمنيًا وأن هذا تهديد بورقة غير مقبولة، هل يطلق (حزب الله) النار على إسرائيل بعد انسحابها، لأسباب فلسطينية؟

بما فيها مزارع شبعا، بما فيها أي شيء يقول لبنان أنه أرضه. هل يطلق (حزب الله) النار على إسرائيل لأسباب فلسطينية؟

هذا لم يحن أوانه. هل يطلق (حزب الله) النار أم لا، وإذا كان سيطلق النار ما هي حيثياته واعتباراته ودوافعه، هذه كلها تُبحث لاحقًا.

لنفترض أن إسرائيل انسحبت من كل الأراضي اللبنانية بما فيها مزارع شبعا.. ما مصير أسلحة (حزب الله) وتركيبته الأمنية؟

.. لنقل أن دور المقاومة انتهى وعاد القول أن (حزب الله) تنظيم شيعي، ولبنان بلد متعدد بتركيبته، ووجود سلاح كثيف وخبرات قتالية وتركيبة أمنية لدى طرف تثير المخاوف، ما هو مستقبل سلاح (حزب الله) بعد انسحاب إسرائيلي كامل من جنوب لبنان؟

– هناك صورتان: مرة هناك انسحاب، كما هي الحال الآن ومرة هناك عملية تسوية في المنطقة.. القائم الآن هو الصورة الأولى (الانسحاب) وطالما أن هذا الانسحاب حصل من دون توافق مع لبنان وسورية أتحدث كتفصيل سياسي ولا أعطي رأيي بأنه يجب أن يكون هناك توافق..

أولاً انسحاب تحت غطاء التهديد اليومي أي إذا حصل شيء نقصف ونفعل.. حصل الانسحاب الكامل بما فيه من مزارع شبعا، سأفترض فرضية أن (حزب الله) لن يفعل شيئًا وأن العنصر الفلسطيني عولجت مشكلته أو ضرب بشكل حديدي وهذا غير متيسر الآن وأصبحت هناك حدود هادئة –أيضًا فرضية – إذا كان الإسرائيلي راسمًا مشروعًا ورأى أن المفاوضات مع سورية لا تتزحزح، ولديه ترتيب معين له علاقة بالمنطقة، من الذي يضمن أن لا يرمي متعامل مع إسرائيل شيئًا إلى الداخل، شمال فلسطين المحتلة وتستغل إسرائيل الحادث وتعتدى على لبنان وأذكر في اجتياح ١٩٨٢ كانت الحدود هادئة، وكان هناك اتفاق هدنة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، ولم تكن تُطلق طلقة نار أو صاروخ كاتيوشا أو عملية عسكرية، لقد جرت محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن وهو لا يزال حيًا إلى الآن، فقامت إسرائيل باجتياح لبنان سنة ١٩٨٢، ودخلت العاصمة بيروت، هذا يعني أن لبنان مهدد في شكل يومي باعتداء إسرائيلي قد يحصل في لحظة يكون فيها الناس نائمين، ويحصل شيء في بلد من بلدان العالم وتحمل إسرائيل لبنان المسؤولية وتعتدي عليه.

ولبنان في ذلك الوقت يجب أن يدافع عن نفسه، وفي الدفاع عن نفسه يجب أن يستفيد من كل القوى المتوافرة لديه، وفي طليعتها المقاومة أي أريد أن أقول أنه طالما لبنان في دائرة التهديد الإسرائيلي اليومي يجب أن يحتفظ بالمقاومة ويجب أن يحافظ على جهوزية المقاومة وعلى سلاحها للتمكن من مواجهة هذا الخطر، وبالنسبة إلى الموضوع الطائفي هناك السرايا اللبنانية لمقاومة الاحتلال، ويمكننا أن نجهز مقاومة من كل الطوائف، لتكون مستعدة لمواجهة خطر من هذا النوع.

هل مستقبل سلاح (حزب الله) له علاقة بالانسحاب الكامل، أم بالتسوية أم بزوال التهديدات...؟

بحد أدنى اسمه لبنان في دائرة التهديدات طالما إسرائيل تهدد لبنان كل يوم بالضرب والاعتداء والعقاب والحساب، من حق لبنان أن يحتفظ بكل عناصر القوة التي يمكن أن تواجه هذه التهديدات الإسرائيلية.

هناك من يتهم (حزب الله) بأنه يتحمل مسؤولية إسقاط بيريز؟

هو أسقط نفسه، وليس نحن من أسقطه، وجيدٌ إذا كنا أسقطناه نحن نفتخر بذلك.

هذا يعني أن (حزب الله) قد يحرك الجبهة لأسباب إقليمية؟

كل شيء ممكن في التحليل النظري تستطيع أن تقول ما تريده نظريًا. نظريًا كل شيء ممكن لكن عمليًا، يمكن إجراء محاكمة لأداء المقاومة الإسلامية منذ بدايتها في عام ١٩٨٢ إلى هذه اللحظة.. ثمة ظروف كثيرة مرت عليها ولو كانت تعمل حسابات إقليمية خارج هذا المشروع، لكانت كل يوم تقدر أن تهز المنطقة المحتلة، كل يوم.. إنها لا تفعل ولم تفعل ذلك حتى في أشد لحظات الغضب.

سورية تقول إن الباب غير مقفل، هل تعتقد أن ثمة إمكانية لاستئناف المفاوضات السورية – الإسرائيلية في الأسابيع المقبلة؟

الاحتمال قائم وإن كانت نسبته ضئيلة.

هناك تصور أن السلام آتٍ ولو تأخر سنة أو اثنتين.. ماذا سيكون شعورك حين يرتفع العلم الإسرائيلي فوق سفارة إسرائيل في بيروت، ماذا ستقول لـ (حزب الله) وللشهداء ولعائلاتهم؟

في الشق الأول لديَّ نقاش.. قد يحصل اتفاق يوم ذهبت الوفود إلى مدريد كان لنا موقف نتيجة لخلفيتنا العقائدية، من مجمل عملية التسوية، لكن حتى في الإطار الوطني، إذا أردنا أن نتحدث سياسيًا بمعزل عن الخلفية العقائدية وقتها قلنا مع غيرنا إذا أراد العالم الذهاب إلى مدريد ماذا سيذهب لبنان ليفعل وليس لديه شيء وكان الدولة اللبنانية تقول بتنفيذ القرار ٤٢٥، إذا أردنا التحدث لبنانيًا نحن يكفينا تنفيذ

الـ٤٢٥ وماذا سنفاوض؟ يوم ذهبوا إلى مدريد كان يقال إن الأمور ستنتهي في ثلاثة أشهر وأن كل شيء مُرتب خلف الكواليس، وأن الأمر يتعلق بقليل من المخارج والسيناريوهات والتمثيليات من أجل تهيئة الرأي العام.. الآن نحن في العام ٢٠٠٠، الموضوع ليس بالبساطة التي يتم تناوله فيها أحيانًا، والقول إن هناك إرادة أمريكية، صحيح نحن لا نستهين بقوة تأثير أمريكا في الأحداث لكن أمريكا ليست إلهًا تقول للشيء كن فيكون، وحتى الآن إذا أريد تسجيل فشل سياسة أمريكا في كثير من المناطق في العالم يمكن الحصول على نماذج كثيرة.. من هنا نحن تقديرنا أن الأمور لا تتجه في هذا الاتجاه الإسرائيلي ليس حاضرًا لتسوية يقدم فيها بعض الحقوق المقنعة.. إنه يسعى إلى تسوية بشروطه وليس كل العرب يقبلون بتسوية مع إسرائيل بشروط إسرائيلية وفي مقدمتهم سورية، وقبل قليل أشرت إلى الموضوع الفلسطيني، وهو أساس كل الصراع في المنطقة، حتى ولو جرى صلح مع سورية ولبنان، والموضوع الفلسطيني لم يحل، فمعنى ذلك أن التسوية غير قائمة، وأن الصراع في المنطقة مستمر، أنا من الذين يعتبرون أن الموضوع الفلسطيني لا إمكان لمعالجته بالطريقة التي تدار بها الأمور الآن ربما (الرئيس الفلسطيني) ياسر عرفات أو بعض الناس في منظمة التحرير يقول في يوم من الأيام للناس إن القدس ذهبت وانتهى الأمر، نحن نعرف الشعب الفلسطيني جيدًا ونعرف شبابه، هذا موضوع لا يُسكت عنه ولا يُترك.. ليس في هذه البساطة يقرر عرفات أن يُقنع الشعب الفلسطيني بعدم وجود حل لأربعة ملايين فلسطيني في الشتات، في الوقت الذي سيستقبل فيه باراك المهاجر الرقم مليون من الاتحاد السوفييتي السابق، ويعلن استعداد إسرائيل لاستقبال مليون مهاجر يهودي آخر هنا.. نحن نفترض أن الشعب الفلسطيني مات ولم تعد هناك حياة ولا إرادة ولا إيمان ولا عقيدة ولا شهامة ولا رجولة في الشعب الفلسطيني أي أنه استسلم.. في هذا الشعب الذي قاوم خمسين عامًا أناس تعبوا وقيادات تعبت والقيادة التي تعبت يمكنها أن ترتاح، ولكن بالأمس كان هناك شاهدان على التليفزيون الشبان الذين نزلوا إلى الأرض ورشقوا بالحجارة جنودًا مسلحين، خصوصًا أن رصاصة المطاط إذا أصابت القلب تقتل وإذا أصابت العين

تعمي، هذا الجيل من الشباب يضحي، ولم يتعب في كل الظروف القاسية والصعبة.

أعتقد والأيام ستثبت ذلك أولاً أن الأمور لا تتجه على هذا النحو، وإذا حصلت هذه الفرضية فنحن نعمل تحت عنوان معركة لا تقل أهمية عن معركة القتال المسلح، وهي معركة التطبيع، ومواجهة التطبيع مع العدو الإسرائيلي.

قبل مدة قرأت عن مؤتمر لمواجهة التطبيع في الكويت، تشكلت له هيئات في كل دول الخليج واليمن ومصر والأردن ولبنان، وسيبذل جهد كبير في مواجهة التطبيع.. وأعتقد، كما حدثت المقاومة المسلحة، أو جمدت مشروع إسرائيل الكبرى الممتدة عسكريًا وجغرافيًا إذا استطعنا إنجاز مشروع مقاومة التطبيع كاملاً وكبيرًا فإنه سيحد من مشروع إسرائيل العظمى وهذا لا يقل أهمية.

أما ماذا سأقول لعائلات شهدائنا وقواعدنا فأقول لعائلات شهدائنا وقواعدنا،: أولاً هؤلاء الشهداء أنجزوا عملية التحرير وهذا لا نقاش فيه، وهو موضع اعتزاز كل عوائل الشهداء الذين يشاركون في إنجاز هذا النصر الذي تحقق.. وحين يأتي يوم تُصالح فيه الدول اللبنانية إسرائيل ويُرفع علم على سفارة بالطبع، ليس أنا من صالح إسرائيل، سأقول لقواعدي هذا جزء من المعركة نحن حررنا أرضًا واليوم ثمة عملية تطبيع وعلينا مواجهتها هذا الموضوع لن يخصني أنا وحدي وهناك الكثير من الأحزاب والشخصيات والفعاليات الموجودة في العالم العربي لديها استعداد لمقاومة هذا الأمر، هذا سيكون جزءًا من مواجهة الموقف، نحن موجودون في المجلس النيابي والشارع وساحات مختلفة وسنبذل جهدنا كي لا يكون هناك تطبيع بين لبنان وإسرائيل.

بعد الإنجاز العظيم للمقاومة الإسلامية بالجنوب اللبناني:

سماحة السيد حسن نصر الله أمين عام حزب الله يصرح للمختار الإسلامي:

بالمقاومة يتهاوى المشروع الصهيوني من الداخل واجهتنا مشكلات عصبية في بداية جهادنا ولكن مهمة الفلسطينيين أسهل!!

عملياتنا المسلحة لن تتوقف ضد إسرائيل طالما ظل شبر من أرضنا مغتصبًا لن نصمت أمام تهديدات أمريكا بنقل سفارتها للقدس وسنعيد الدبلوماسيين إلى واشنطن في نعوش.

الإنجاز العظيم الذي حققته المقاومة الإسلامية لحزب الله ضد قوات الاحتلال الصهيوني وتحرير الجنوب اللبناني بعد ٢٢ عامًا من النضال والمقاومة الاستشهادية، كان مثار العديد من التساؤلات على الساحتين العربي والعالمية. كيف بدأت هذه المقاومة، وما هي الصعوبات والمعوقات التي واجهتها في بدايتها؟

وهل يمكن أن يتكرر نموذج حزب الله على الساحة الفلسطينية؟

وما هو مستقبل المقاومة على الساحتين السياسية والنضالية في لبنان وخارجها بعد هذا النصر الساحق؟

وكيف سيكون شكل العلاقة بين الحزب والدولة خلال المرحلة المقبلة؟

وهل سيقاتل الحزب دفاعًا عن سوريا وفلسطين؟.. وما دوره في منع اشتعال الفتنة الطائفية من جديد في لبنان؟

ولماذا طالب بضرورة إنزال أقصى العقاب على العملاء رغم وجود أكثريتهم من الشيعة؟

وما هي رؤية حزب الله للوجود السوري في لبنان؟. وكيف سيواجه التطبيع مع إسرائيل في المرحلة القادمة؟

هذه التساؤلات وغيرها من القضايا الأخرى المهمة وجهناها إلى سماحة السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله في حوار خاص بالمختار الإسلامي من داخل بيروت. وجاءت إجاباته عليها كالتالي:

بداية: ما هو توصيفكم العام للمقاومة الإسلامية منذ بداياتها والصعوبات التي واجهتكم خلال تلك الفترة؟ وهل يمكن تطبيق هذا النموذج على فلسطين الآن؟!

ما حصل في لبنان كان على سبيل السهل الممتنع.. وهل لدينا إيمان بما نقول وما

نفعل أم لا؟ ويجب الإقرار بذلك، فقضية المقاومة في لبنان هي قضية إيمان وثقة وقضية نفسية في الوقت نفسه.. لأنه في سنة ١٩٨٢ وفي مثل هذه الأيام بالتحديد أكثر من مئة ألف جندي إسرائيلي اندفع في اتجاه لبنان وخلال أيام قليلة كانوا على بوابة بيروت، وكما أقول لم تحصل مقاومة في ذلك الوقت، لأنه لو حصلت المقاومة لتحولت لبنان إلى مقبرة جماعية.. ثم جاءت قوات متعددة الجنسيات لحماية الاحتلال، وللأسف الشديد كان نتيجة للصراعات الداخلية في لبنان أن بعض القوى السياسية أصبحت متعاونة مع الاحتلال. المقاومة الإسلامية انطلقت في جو واستهجان من الكثيرين، وكان عمري في ذلك الوقت لم يجاوز الثانية والعشرين، وأذكر في تلك الأيام بعد مقابلتي لرجال مؤمنين يقرأون القرآن ويستشهدون بآيات الله عز وجل، كانوا يقولون لي أنتم مجانين، شباب متحمس لا تقدرون عاقبة ما سيحدث لكم، الاتهام العام الآخر هو اتهام بالجنون، لأننا إذا حكينا بمنطق العقل فهو يقول إننا مجانين، وإذا حكينا بمنطق الدين فهو يقول أنتم ترمون بأنفسكم إلى التهلكة، وما تفعلونه حرام وهو جريمة بمعنى أنه بالمقاييس الدنيوية والدينية هو جنون ومحرم). لكن يرجع الفضل في بداية المقاومة الإسلامية بلبنان بهذا الشكل إلى الإمام الخميني، لأنه قال لنا: لبنان وضعه الداخلي صعب جدًا بسبب الحرب الأهلية، لكنكم أنتم الشباب يجب أن تقاتلوا الاحتلال، وإذا كان هدفكم الدنيا فلابد أن تقاتلوا جيش الاحتلال، وإذا كان هدفكم الآخرة فلابد أن تقاتلوا جيش الاحتلال، وبالعقل والمنطق والدين وبالأخلاق وبالوطنية وبالقومية، ولقد تبين لنا وبكل المقاييس والمعايير أن الموقف الصحيح هو خيار المقاومة والقتال.. أول شيء نحن اهتدينا إلى الطريق وهو القتال والمقاومة، لأننا درسنا خياراتنا: ننظر إلى الجامعة العربية وماذا ستفعل؟ ننظر إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، إلى مؤتمر عدم الانحياز إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة والمؤسسات الدولية، وجدنا أن ما سيحدث في لبنان هو نفس ما حدث في بقية الدول العربية، والشيء الآخر الذي كان مؤثرًا بشدة هو أننا بدأنا نقاتل منذ اليوم الأول، وكنا واثقين من النصر رغم وجود كل هذه القوات الإسرائيلية على أرض لبنان ومن خلفهم الأسرة الدولية التي تساندهم

بقوة من أجل التمكين لهم من احتلال أراضينا، ورغم التدمير وضرب البنية التحتية للبنان وتقديم الشهداء الواحد تلو الآخر كنا نرى النصر صوب أعيننا، وكان هناك يقين لدينا جميعًا من الرسالة ومن هذا الدين بأن النصر قادم لا محالة، مثلما نعرف أن الله خلقنا وأن عنده جنة ونار، وأنه يحاسب كان لدينا يقين بأنه ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ وفي سبيل ذلك كنا نبذل أقصى الجهد للوصول إلى هذا الهدف.

العنوان الثاني:

هو أن هذا العدو وضع مشروعه الاستيطاني الغاصب لأرضنا، وأنه لا سبيل للتصدي له سوى بالقتال والمقاومة، ووثقنا بوعد الله عز وجل، ولكن بشرط أن تكون هذه المقاومة مقاومة جدية وقادرة، وشريطة أن يكون كل شيء في خدمتها، خلافًا لكل نظريات منظمة التحرير أو أية أحزاب أخرى اشتغلت بالمقاومة ضد الاحتلال الصيهوني لأراضيها، فكان لدينا العمل السياسي في خدمة العمل العسكري، أما الآخرون فكانوا يقومون بأي عملية عسكرية من أجل تحقيق مكسب سياسي إنما نحن اعتبرنا أنفسنا رجالاً في خدمة الجهاد والقتال والمقاومة، والعمل السياسي والعمل الإعلامي لابد أن يكون في خدمة المقاومة، وحيوية الشعب أيضًا لابد أن تكون في خدمتهم، وكذلك الإعلام والمال والعاطفة والعلاقات والحركة السياسية الداخلية. وأية مكاسب سياسية تتحقق لابد أن تكون في خدمة المقاومة.. لذلك خلال السنوات الماضية كنا نشتغل بهذه الأولوية، وكنا حريصين على أن أي قتال داخلي، أي نزاع داخلي أي شقاق داخلي –فكري أو سياسي– نخرج منه ولا ندخل فيه، وإذا أدخلنا فيه نخرج منه بسرعة، ولم نكن مرغمين ولا مجرورين لهذه المعركة – رغم المحاولات الكثيرة طوال السنوات الماضية كي نجر إلى معارك جانبية ليس لها معنى – طالما أن المقاومة هي أولويتنا.. شبابنا ومالنا وحالنا وتعبنا وكل ما نملك كان للمقاومة، ومع ذلك لم يكن لدينا موظف واحد في الدولة حتى لا نحملها أية أعباء جديدة على أعبائها لأنه كان الواجب علينا أن نساعد الدولة في حل مشاكلها وليس تحميلها أعباء إضافية.. وكنا نعتبر أن هذه المسيرة بكل مؤسساتها وأجهزتها هي في خدمة هذه المعركة.. في نفس الوقت كان علينا أن نجعل هذه

المقاومة مقاومة جدية، قتالاً دائمًا وقتالاً يوميًا وأشهد بأن حزب الله وقادته وكوادره الشابة تحملوا معنا الكثير من إهانات وخيانات ومصاعب كبيرة، وضحوا كثيرًا.. وعائلات عديدة كانوا يضحون بأولادهم ويأتون بهم إلى ساحة المقاومة ليقاتلوا معنا، لذلك كانت المقاومة حقيقية وجدية: بروحانيتها وقدسيتها وقيمتها الأخلاقية، بأمانيها وطموحاتها..

هذه المقاومة التي تبدو مختلفة عن كل أشكال المقاومة العسكرية. وبتعبير واحد أقول إن مقاتلي هذه المقاومة لم يكونوا يريدون من هذه الدنيا أي شيء، ولا منصب ولا وظيفة ولا مالاً ولا أي شيء..

هؤلاء كانوا يقاتلون في سبيل الله، وكانوا يقولون هذه المعركة مشروعة إذا قُتلت فيها أدخل الجنة.. فعندما نلتزم بكل هذا فإن الله سبحانه وتعالى وعدنا بالنصر حيث يقول:

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والحقيقة أن العناية الإلهية كانت مع هؤلاء كانت مع هؤلاء المقاومين تحرسهم وترعاهم، فنحن لم نكن سوى مجموعة أشخاص باعوا أنفسهم لله، ولذلك نقول إن الله هو الذي حرر الجنوب، وما كنا إلا عوامل وأسبابًا ونتائج.. هذه هي حقيقة المقاومة الإسلامية في حزب الله، وما حدث في لبنان ليس حدثًا عاديًا ولا استثناء ولا معجزة، هذه هي القاعدة والأصل، هذا هو القانون الطبيعي.. فمن خلال الاستجابة للشروط حدثت النتائج، هذا شيء طبيعي.. فنحن خلال خمسين سنة لم نكن ننتظر شيئًا.. من هنا نقول إن إسرائيل بدأت تفاجأ بقتال حقيقي على أرض لبنان..

وإذا طبقنا ذلك على فلسطين نقول: إنه لو حدثت بعض الاستجابة للشعب في الداخل لتحقق للفلسطينيين النصر عليهم، فإذا كانت إسرائيل تُهزم في جنوب لبنان، فبطريق أولي تُهزم في الداخل، لأنها في داخل فلسطين أضعف منها في جنوب لبنان، لأن هناك المعركة في عقر دارها، المعركة في جنوب لبنان كانت على الشُرفة لكن في فلسطين داخل الدار، وأنا في ذلك لا أحكي بحماس ولا لرفع معنويات، وإنما أقول

إن الانتصار للشعوب.. وقد قلت هذا في مخيم اليرموك للفلسطينيين، وقلت لهم إن شعبكم لو تخلى عنه كل العرب – حكومات وشعوبًا – ولو تخلى عنكم كل العالم، فأنا على يقين بأنه قادر على تحرير كل أرضه منذ عام ١٩٦٧ وليس القطاع، وأن يستعيد فلسطين من البحر إلى النهر، وهو وحده القادر على ذلك عن طريق بعض العمليات الاستشهادية في الأراضي الفلسطينية المحتلة على أيدي حماس والجهاد الإسلامي، بعض اليهود خرجوا في التليفزيون ليعلنوا أنهم جاءوا إلى (المكان الخطأ) واحتاجت إسرائيل إلى مؤتمر عالمي في شرم الشيخ لوقف مثل هذه العمليات مجددًا..

لماذا هم يخافون من نموذج حزب الله أن يتم تعميمه وأن تكون فلسطين بنفس المصير؟ لأن غاية ما تهددني به (الموت) هو غاية الآمال، وأعظم شيء هو أن أقتل في سبيل تحرير هذه الأرض. لذلك يجب على الشعب الفلسطيني إذا كان يريد المقاومة أن تكون المقاومة في فلسطين في خدمة التحرير وليس في خدمة العمل السياسي، وأن يكون الأخير في خدمتها، ومنظمة التحرير في خدمتها، والفصائل في خدمتها، والزعامات في خدمتها.. مقاومة القادة يستشهدون فيها وأبناء القادة يستشهدون فيها مقاومة لابد أن يكون المال في خدمتها، وليس العمليات ذريعة كي نجمع المال من الناس. مقاومة جادة من هذا النوع، لابد أن تحقق النصر في النهاية.

وكيف كان الإعلام في خدمة المقاومة بالجنوب اللبناني؟

نحن في الإعلام لم نقم بتمثيليات، إنما اقتحمنا مواقع حقيقية وبعدها قمنا بتصويرها، وقمنا بتصوير الجنود الإسرائيليين وهم يغادرونها مثل الأطفال الصغار، وحضرنا المشهد كي يراه العرب، وعندما صورنا للعالم بعض المقاتلين في حزب الله وهم يفجرون أنفسهم في المواقع الإسرائيلية لم يكن تمثيلاً وإنما كان حقيقة.. ورغم أننا الذين صورنا هذا فقد كنا نبكي عندما نراه ثانية، فكيف الحال بالنسبة للناس العاديين؟!.

ما هو مستقبل المقاومة الإسلامية في لبنان بعد انسحاب إسرائيل من الجنوب المحتل؟

فيما يتعلق بمستقبل المقاومة الإسلامية بلبنان، أقول إن هناك مجموعة من العناوين لم تتم الإجابة عليها، فهناك جزء من لبنان مازال تحت الاحتلال مثل منطقة مزارع شبعا وغيرها، ونحن بمعزل عن موقعنا الفكري والعقائدي الذي يرى في الكيان الصهيوني وجودًا غير شرعي فإننا لا نتسامح في ذرة أرض من ترابنا.

العنوان الثاني هو المعتقلون اللبنانيون في السجون الإسرائيلية، فكيف تكون الأمور قد انتهت وأعيش مع زوجتي وأولادي وهؤلاء بعيدون عن عائلاتهم وأرضهم.

العنوان الثالث وهو الأهم

لبنان هو البداية والتكتيك الذي يعول عليه كل شيء من رئيس حكومة العدو إلى رئيس أركان حرب العدو إلى الوزراء إلى غيره وهذا التعويل ليس حربًا نفسية، هذا التعويل تحقيق لأفكار إسرائيلية مستقبلية، حيث لا توجد ضمانات للبنان ولم يقدم أحد هذه الضمانات، فيبدو أن ما أقوله الآن قد يكون ضمانًا وليس أكيدًا: أن يتحول الشعب اللبناني والجيش والمقاومة في لبنان إلى حرس حدود، على حدود لبنان مع الأرض المحتلة، وأن ندخل إلى فلسطين ونشتغل جواسيس عند الصهاينة، وأن نقدم لهم معلومات عن أي فلسطيني يفكر في تنفيذ أية عملية ضد القوات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة.. هذا قد يجعلهم يرضون عنا ولا يفعلوا شيئًا ضدنا، وهذا لا يكون أبدًا.

وللتدليل على الذرائع الواهية التي سيستخدمها الإسرائيليون لضرب لبنان مستقبلاً، أنه فيما مضى حدث أن السفير الإسرائيلي في لندن تعرض لمحاولة اغتيال، وحتى الآن لم يعلن من أطلق النار عليه، ويمكن أن يكون حتى الآن على قيد الحياة، مع العلم أن في جنوب لبنان كانت منظمة التحرير عندها اتفاق وقف إطلاق نار مع الإسرائيليين، فكان لديهم اطمئنان وهدوء في شمال فلسطين، فكانت محاولة اغتياله في لندن تقابل باجتياح ثاني عاصمة عربية.. إذن لبنان داخل دائرة الخطر، وهذا يعني أن لبنان ليس عنده جيش، ومحتاج لأن يحافظ على المقاومة في المرحلة المقبلة،

وهو محتاج لأن يرفع من مستوى جهوزية المقاومة وروحيتها واستعداد شبابها وتلاحم شعبها، لأننا لا نعرف الأمور في المنطقة إلى أين ستذهب إسرائيل، كيف تفكر بشأن لبنان؟ هذا جانب من المشكلة، وجانب آخر أننا بالموضوع الداخلي بنفس الخلفية الفكرية والإيمانية التي اشتغلنا فيها مقاومة.. وفي هذا السياق أريد أن أعمل توصيفًا دقيقًا لحزب الله، فنحن في لبنان طوائف، ونحن مسلمون، ومن ضمن المسلمين نحن شيعة لكننا نقول دائمًا: هناك فرق بين الانتماء الديني والانتماء الطائفي، فانتمائي الديني هو الذي جعلني أقاتل دفاعًا عن كل لبنان وليس دفاعًا عن المسلمين دون المسيحيين، أو الشيعة دون بقية الطوائف الأخرى.. فعندما كان يعتدي على اللبنانيين – سواء السُنة في صيدا أو الشيعة في النبطية أو المسيحيين في الجنوب – كنا نقف في وجه إسرائيل ونواجههم بالكاتيوشا ونهدد المنطقة بكاملها.. إذن خلفيتي العقائدية جعلتني أقاتل دفاعًا عن وطني كله، جعلتني أقاتل بالنيابة عن كل الأمة في مواجهة المشروع الصهيوني، ونفس الخلفية في لبنان:

أنا خلفيتي دينية عقائدية فأنا حزب ديني، لكن الحزب الديني يستطيع أن يكون حزبًا وطنيًا في خدمة وطنه، يستطيع أن يصبح حزبًا قوميًا في خدمة أمته العربية مثلما هو حزب إسلامي في خدمة أمته الإسلامية. من هنا بهذه الخلفية لا نقول بانتصار طائفة على طائفة، فهذا لم يكن انتصار مسلمين على مسيحيين ولا انتصار شيعة على غير شيعة، فلم تكن هذه الخلفية موجودة لدنيا ولو للحظة من اللحظات. اليوم نحن على المستوى الداخلي لحزب الله نريد أن يصنع البلد كله، نحن بلد له استحقاقات كثيرة، كل الشعب اللبناني مثلما كان بحاجة إلى مقاومة شريفة ونظيفة تفكر بعقل وطني، هو بحاجة اليوم إلى عمل سياسي يفكر بعقل وطني للجميع وليس عملاً سياسيًا يفكر مثلاً في امتيازات تتحقق للمسلمين أو طائفة الشيعة، إنما يفكر في استقرار هذا البلد ونهضته وتقدمه. فنحن في أزمة اقتصادية خانقة، فليس من المعقول أن أفكر في الشيعة والمسلمين فقط دون أهل لبنان، فكل إنسان في هذا البلد هو مسئولية حزب الله وخصوصًا في المناطق المحرومة. لذلك فهناك عناوين عديدة يجب تدارسها وتداركها، فاليوم أسوأ ما تعاني منه إدارات لبنان هو الفساد الإداري، مثلما كنا بحاجة إلى مقاومة نظيفة، نحن بحاجة إلى تجربة إدارية نظيفة، لا تهادن

اللصوص و(الحرامية) لبنان محتاج إلى إصلاح إداري، والمعركة ليست لطائفة على حساب طائفة أخرى، إنما لحساب كل لبنان، وستوجد ساحة عمل كبيرة لحزب الله يمكنه أن يقدم فيها نماذج إيجابية.

هناك علامات استفهام عديدة حول المستقبل العسكري لحزب الله.. فماذا لو وافقت إسرائيل على الانسحاب من مزارع شبعا وكل النتوءات التي تحتلها داخل الأراضي اللبنانية.. ووافقت على إطلاق جميع المعتقلين؟

يبقى العنوان الثالث الذي قتله وهو الأهم، وهذا الأمر الكل هنا يحكي فيه والمسئولون يحكون فيه: ما دام لبنان في دائرة تهديد، فلا أحد يمكن أن يفتح ملف تسريح المقاومة.

وما هو شكل العلاقة بين حزب الله والدولة في حالة استعادة باقي الأراضي اللبنانية، خاصة بعد أن أعلنتم مسبقًا: اليوم تحرير الأراضي اللبنانية وغدًا تحرير الجولان والقدس، وصولاً إلى قلب إسرائيل... وهل هذا الهدف صعب التحقيق؟!

هذه عقيدة، لكن تحرير جنوب لبنان كان بالدرجة الأولى مسئولية الشعب اللبناني، ولكن مسئولية كل الأمة أن تساعده وتسانده ولا تجعله يقف وحده.. أما في فلسطين فهذه مسئولية الشعب الفلسطيني، وعلى الأمة أن تقف بجانب الشعب الفلسطيني فعلينا أن نقف بجوار شعب فلسطين، وهذا يختلف من بلد لبلد ومن تنظيم لتنظيم ومن مجموعة لمجموعة، لكن المبدأ والقاعدة أن نقف جميعًا إلى جانب شعب فلسطين لتحقيق هذا الأمل الكبير إن شاء الله تعالى.

ولكن ماذا لو استمر احتلال إسرائيل لمزارع شبعا والقرى اللبنانية الأخرى؟

الطبيعي أن تستمر المقاومة مادامت هناك أرض مازالت محتلة، وهذا في نهاية المطاف يخدم موقف الحكومة اللبنانية، رغم أنه قد يبدو للبعض في الوهلة الأولى أنه قد يكون هناك تعارض، فلابد أن يكون هناك دولة ومقاومة وقدرة على توزيع الأدوار من حيث النتيجة، وهذا من عناصر القوة اللبنانية، فما دامت هناك أرض محتلة فمن الضروري والطبيعي أن تستمر عمليات المقاومة حتى يتم تحرير هذه الأرض.

وهل ترى أن المقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة لديها القدرة على تجاوز كل العقبات الموضوعة في طريقها وبخاصة عدم وجود أرض ولا ظهر لها كما كان الحال مع المقاومة اللبنانية؟

في عام ١٩٨٢ عندما بدأت المقاومة الإسلامية في لبنان قال المحللون السياسيون والمثقفون إن هذه المقاومة بلا جدوى، وأنتم عملاء إيران وتقاتلون لحساب الإيرانيين، وأنتم تتلقون أوامر من دمشق، ولم يلتف حولها الشعب اللبناني بهذه الصورة إلا بعد أن أثبتت المقاومة جدواها وفاعليتها وبدأ كثير من الناس يقتربون منها. نحن كي نتمكن من الوصول إلى أهدافنا كان علينا أن نتجاوز الحاجز الأمريكي والحاجز الفرنسي وحاجز القوات متعددة الجنسيات وقوات الطوارئ والعملاء وغيرهم، فكل هذه المراحل مررنا بها في بداية عمل المقاومة، وهذا ممكن داخل فلسطين، لأن لبنان قدم آلاف الشهداء وآلاف المعتقلين، وآلاف البيوت المهدمة، وأقول أنه لو كل يوم يضرب خمسة فلسطينيين خمسة من قوات الاحتلال الإسرائيلي سيتحقق لفلسطين حريتها واستقلالها، والله تعالى ينصر المستضعفين طالما أن الحق معهم، والسيارة يجعلها تهزم الدبابة. لذلك أقول إن المقاومة الفلسطينية لو أصبحت مقاومة سكاكين وحجارة، فهي قادرة على تحرير فلسطين بإذن الله.. وأقولها صراحة: أنا أضمن تحرير فلسطين بعدد شهداء أقل من عددهم في الحرب الطائفية في لبنان، لأنني أعتقد أن إسرائيل من الداخل هي أوهن من بيت العنكبوت، وهذه المقاومة تستحق التضحية من أجلها، وفي النهاية ستحقق الهدف الذي نبغيه جميعًا منها.

وماذا عن تحفظات حزب الله على تعاطي الدولة مع عملاء ميليشات أنطوان لحد، وكيف ترون قضية التعاطي مع العملاء؟ وهل سيكون لحزب الله دور في عملية إماء الجنوب وإعماره بعد الانسحاب؟

أولاً، في قضية العملاء نرى أن هناك مخاطر جدية وحقيقية وهناك مستوى من ضبط الأعصاب لدى الأهالي الموجودين في المنطقة، مع العلم بأننا في قضية العملاء كان يحركنا إحساسنا الوطني إذ أن الأكثرية الساحقة من المسجونين الذين

يتعرضون للمحاكمة هم من الشيعة، ومع ذلك لم نطالب بعفو عام عنهم، بل إننا طالبنا بإنزال أشد العقاب عليهم فالعملاء كان الجزء الأكبر منهم من الشيعة، يليهم المسيحيون، يليهم الدروز، لأن الكثافة السكانية في هذه المنطقة غالبيتها من الشيعة ثم المسيحيين ثم الدروز، وليس أن الشيعة كانوا الأكثر انضمامًا للعملاء أن نتركهم فالعميل عميل ولابد أن يعامل على هذا الأساس، ولا تفرقة بينهم على أساس ديني أو طائفي أو غيره.

أما عن أعمار الجنوب وإنمائه فنقول إننا بإمكاناتنا المتواضعة سوف نبذل جهودنا المالية ومجهوداتنا الخاصة، ولابد أن يتعاون الجميع في ذلك، الدولة وكل المؤسسات اللبنانية الرسمية وغير الرسمية، لأن الجنوب بحاجة لكل هذه الجهود مجتمعة.

وماذا عن بعض الضغوط الخارجية التي تحاول بعض المنظمات والقوى الخارجية فرضها على لبنان في هذه المرحلة، وما هو دور حزب الله في ذلك؟

في الواقع هناك ضغوطات عديدة من الأمم المتحدة وغيرها، خاصة في مسألة ترسيم الحدود وقد حاولت بعض الدوائر أن تناقش معنا هذه القضية، لكننا رفضنا ذلك وتركنا هذا الأمر للحكومة وحدها، ولنمنع أية محاولات لإحداث وقيعة بيننا وبين الدولة في هذا التوقيت الحساس أو النيل من الوحدة اللبنانية.

وما هو دور حزب الله في المرحلة المستقبلية لمنع الاقتتال الطائفي مجددًا على نحو ما تهدف إسرائيل الآن؟

نحن على استعداد كامل لبذل الجهود مع كل الطوائف اللبنانية، والحمد لله لدينا علاقات جيدة مع كل الطوائف وكل الأحزاب وكل الفعاليات والمواقع، ونستعمل هذه العلاقات لخدمة المقاومة، ويمكننا أن نوظف هذه العلاقات لخدمة مشروع التلاحم الوطني، والحيلولة دون حدوث انقسامات طائفية أو انشقاقات طائفية داخل لبنان، ونحن عملنا تشكيلاً عسكريًا من كل الطوائف والسرايا اللبنانية لمقاومة الاحتلال، وعندما يكون هذا الهدف مطلوبًا فإن الآلية والتنظيم والشكل أمر سهل،

فنحن عندما نتعامل ونتعاون مع كل الجهاد اللبنانية، يمكن أن نكون أول بلد إسلامي التقى فيه إسلاميون وقوميون ومارونيون ومسيحيون على طاولة واحدة في لبنان، فالذي جمعهم هو حزب الله، فإذا كان لدينا كل هذا التعاطي والتعاون فنحن حاضرون للقيام بأية مبادرة أو عمل للمواجهة وحسم الخلافات.

وما هو تقويمكم للموقف المصري من القضية اللبنانية، وما هو موقفكم من الوجود السوري في لبنان في ضوء العلاقة الوثيقة بين حزب الله وسوريا؟

نحن جميعًا قدرنا الدور المصري المساند للبنان، خاصة خلال الاعتداءات الإسرائيلية الأخيرة على لبنان، وإذا مصر قالت بجدية ممنوع الاعتداء على لبنان فهي قادرة على وقف أية اعتداءات علينا، لذلك كنا حريصين على ذلك وكانت مصر حريصة هي الأخرى، ولذلك رأينا أن قوة لبنان تضاعفت خلال العدوان الأخير بعد موقف مصر المساند لها بقوة، وزيارة الرئيس مبارك لبيروت وإعلانه تأييد مشروعية المقاومة اللبنانية، ولكن الدور المصري غير كافٍ ونأمل أن يتطور وألا يقتصر على دور الوسيط بين الجاني والضحية؛ فمصر أكبر من ذلك بكثير.. أما عن الوجود السوري في لبنان فأقول أنه حاجة وطنية، ولم يكن هناك طوال فترة الوجود السوري أي خلاف، ومن الصدف الغريبة أن الذي طالب بدخول سوريين إلى لبنان كانت القوى المسيحية بلبنان، وكانت القوى الإسلامية والحركة الوطنية تخالف ذلك، والآن الذين يطالبون بخروج السوريين هم نفس القوى التي طالبت بدخولهم، وعندما صدر القرار بدخول القوات السورية إلى لبنان لم تكن إسرائيل موجودة فيها، فهناك معادلات مختلفة، ثم حدثت تطورات بالغة الخطورة، وللأسف الشديد فإننا قلنا إنه عندما يكون لبنان قادرًا على أن يقف على قدميه ويتماسك ولا يتشقق وينهار ويتقاتل، في هذه الحالة لن تكون هناك حاجة لوجود قوات سورية على أرض لبنان، يجب أن نوفر شروطًا من هذا النوع، لكن الذين يرفضون هذه الشروط هم الذين يطالبون بخروج القوات السورية، فلبنان الآن لو ظل وحده سيعود القتال من جديد حول توزيع المناصب الوزارية وغيرها بين الطوائف والأحزاب، وفي الانتخابات إذا لم تكن القوات السورية موجودة يمكن أن تحدث حرب أهلية جديدة، لذلك فأنا أتهم

الذين يطالبون بخروج القوات السورية بأنهم يريدون إشعال حرب أهلية جديدة صراحة، وهذا مطلب إسرائيلي بالدرجة الأولى ومن ورائه مطلب أمريكي ثان.

ننتقل إلى مرحلة ما بعد الإنجاز التاريخي لحزب الله ونسألكم ما هو دور حزب الله في مواجهة التطبيع مع إسرائيل؟

هذا الموضوع من أهم عناصر الاتفاق بين القوى اللبنانية – مسلمين ومسيحيين وغيرهم – لأن هناك إجماعًا على ضرورة مواجهة أي شكل من أشكال التطبيع، لكن المشكلة عندما تكون الدولة موقعة الاتفاق مع إسرائيل فما دامت الدولة لديها اتفاق تكون المواجهة أصعب، إنما الموقف في لبنان يختلف لأن الدولة لم توقع اتفاقًا مع إسرائيل وأعلنا صراحة: إننا سوف نواجه التطبيع على كل المستويات خلال الفترة القادمة، وبكل أشكاله، ولن نجعله ينفذ إلينا بأي حال من الأحوال.

أخيرًا: كيف تنظرون إلى التهديدات الأمريكية بنقل سفارتها إلى القدس في حالة عدم إذعان عرفات للمطالب الإسرائيلية، وفي مقدمتها عدم إعلان الدولة الفلسطينية من جانب واحد؟

هذه التهديدات الأمريكية ليست جديدة أو وليدة هذه اللحظة، لأننا نعلم جيدًا مدى مساندة الإدارة الأمريكية لإسرائيل ضد المصالح العربية والإسلامية دومًا، حيث تعد الولايات المتحدة هي عدونا الأكبر، ولابد أن نعي هذه الحقيقة جيدًا. أما فيما يخص قضية نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، فأقول: إن مثل هذا التصرف يمثل تحديًا صارخًا لكل العرب والمسلمين، لأنهم يعلمون حق العلم ما تمثله القدس من مكانة دينية وأنها رمز تاريخي للعرب والمسلمين جميعًا.. لذلك لن يقف العرب والمسلمون صامتون في حال تنفيذ أمريكا لهذه التهديدات، بل سيحولها المقاومون الفلسطينيون وكل المجاهدين الشرفاء في العالم العربي والإسلامي إلى ركام، وسوف نشيع جثث الدبلوماسيين والموظفين الأمريكان إلى واشنطن في نعوش.. لذا نحذر الإدارة الأمريكية من الإقدام على مثل هذه الخطوة، كما نطالب شعبنا المقاوم في فلسطين بالانتفاضة من أجل تغيير هذا الواقع السيئ الذي جلبته

اتفاقيات أوسلو وغيرها، وجعلت الأمريكان واليهود يتبجحون على مقدساتنا بهذا الشكل.

فالقدس هي قضية المسلمين جميعًا، ويجب ألا يفرط فيها أي عربي أو مسلم شريف، ولابد أن نبذل جميعًا كل جهودنا حتى نعيدها إلى أمتها العربية والإسلامية مجددًا، فهي لن تعود بالمفاوضات كما يزعم البعض، وإنما بالمقاومة والجهاد المستمرَّيْن، إنهما هما الطريق الوحيد لاستعادة القدس وكل فلسطين المغتصبة من قبل العدو الصهيوني وأعوانه، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية.

بدأ زمن زوال إسرائيل

كشف الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصر الله في «مهرجان الوفاء للمعتقلين» ـ الذي أقيم مؤخرًا على ملعب «شهداء المقاومة الإسلامية» في بلدة الخيام الحدودية ـ اسمَيْ قائدَي عمليتين استشهاديتين كلاهما يحمل اسم «أبو زينب» نفذاهما عام ١٩٨٥ ردًّا على «المجزرة التي ارتكبتها المخابرات الأمريكية والإسرائيلية» في بئر العبد في الضاحية الجنوبية (استهداف السيد محمد حسين فضل الله)..

فأوضح أن اسم الأول أحمد شبير الحسن وهو من برج البراجنة وكان يواكب في العملية الشهيد علي محمد سليمان من بلدة باتولية وانفجرت قبل الوصول إلى الهدف، والثاني الذي بقي اسمه سرًا إلى اليوم هو من بلدة دبين الجنوبية واسمه عامر علي كلاكش وقد اقتحم بسيارته قافلة إسرائيلية على بوابة المَطَلَّة مما أدى إلى سقوط ٢٥ ضابطًا وجنديًا إسرائيليًا بين قتيل وجريح باعتراف إسرائيل حينها.

وتطرق نصر الله إلى موضوع المعتقلين في السجون الإسرائيلية مجددًا العهد «إننا لن نتركهم هناك» وأضاف مشيرًا بيده إلى مقاعد جلس عليها ٢٣٤ أسيرًا محرَّرًا وإلى جانبهم ١٦٠ مقعدًا شاغرًا تعبيرًا عن بقاء أصحابها في السجون الإسرائيلية:

«إن هذه المقاعد ستمتلئ قريبًا.. هذا ليس شعارًا.. نحن ملتزمون بإعادتهم من أي حزب أو تنظيم أو طائفة كانوا، وسنفعل كل شيء لتمتلئ هذه المقاعد وأيًا تكن

الأثمان والتضحيات»..

وتناولت تصريحات لبعض المسئولين الإسرائيليين الذين حذروا من استئناف «حزب الله» حمل السلاح مجددًا بعد الانتخابات النيابية.. وقال الإسرائيليون ينتظروننا في كل مكان ويحلمون بنا وهم نيام:

(رئيس حكومة إسرائيل إيهود باراك ورئيس الأركان شاؤول موفاز وقائد المنطقة الشمالية كابي اشكينانزي) والجميع هم يحددون التوقيت قبل الانتخابات وبعدها. طبعًا نحن لن نقول لهم شيئًا، دعوهم في قلقهم وخوفهم واضطرابهم (......).

وتابع: «إننا أمام دولة مصطنعة وأمام كذبة هي إسرائيل التي نعرف جيدًا نقطة ضعفها. وقد سقطت ودخلت روح الهزيمة إلى هذا الكيان ويجب أن تعُدُّوا بدء زمن زوالها من الوجود من ٢٥ أيار (مايو) ٢٠٠٠ (جلاء إسرائيل عن الجنوب)..

إلى ذلك أعلن نائب الأمين العام لحزب الشيخ نعيم قاسم في تكريم شهداء بلدة حولا، إن قضية المعتقلين والرهائن اللبنانيين داخل سجون العدو «قنبلة موقوتة لا يعلم أحد في أي لحظة ستنفجر في وجه إسرائيل وأمريكا ومجلس الأمن.

وسأل «لماذا كل هذا القلق الإسرائيلي والدولي من موضوع رشق الحجارة»؟

وقال:

«على الرغم من أننا نعلم خلفية هذا الموضوع نسأل لماذا السكوت عن قضية الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال؟. فنحن لا يمكن أن نبقى ساكتين على بقائهم».. وكشف اسم مقاوم سقط حين كان في مجموعة أمنية تابعة للمقاومة الإسلامية داخل صفوف «جيش لبنان الجنوبي» في عبوة ناسفة، وهو كامل حسين علي حسين من حَوَلا، وقال: لم يعلن اسمه في حينه لضرورات أمنية..

«حزب الله الأمل الوحيد للفلسطينيين ومن يسلك طريق التسوية سيجد مأزقًا».

ولقد اعتبر السيد حسن نصر الله «أن الحزب وكل ما يلتزم خطه هو الأمل الوحيد للشعب الفلسطيني المعذب داخل فلسطين والمشرد خارجها». وذلك ردًّا على اتهام

إسرائيل لأبناء مختار إحدى القرى الفلسطينية المحتلة بأنهم على علاقة مع «حزب الله» وقال: «ستسمعون حكايات كثيرة من هذا النوع في الأيام المقبلة، فالتسمية انتقلت مباشرة إلى «حزب الله» بعدما كانت لحماس والجهاد والمنظمات الفلسطينية المناهضة لعملية التسوية، ونحن نعتبر أننا اليوم في قلب كل فلسطيني في الأرض المحتلة وخارجها»..

ولفت نصر الله إلى: «أن إظهار مفاعل ديمونا النووي الإسرائيلي في صحراء النقب على شاشات التلفزة في هذا الوقت ليس حدثًا عاديًا وعابرًا، بل هو إعادة تذكير للعرب والفلسطينيين بألا يحسبوا كل الحسابات على قياس لبنان وفي هذا مخادعة»..... وأكد: «أن لا رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات ولا غيره لديه تفويض عربي بالقدس وفلسطين أو أن يتنازل عن شبر واحد من الأراضي العربية للإسرائيليين». وذلك ردًّا على تصريح لوزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت في هذا الشأن..

وفي مهرجان في بلدة العين البقاعية شدد نصر الله على «أن الصهاينة سيرحلون عن هذه الأرض عاجلاً أم آجلاً.. مؤكدًا: »أن ما حصل في أمريكا واستراليا لا يمكن أن يحصل في لبنان وفلسطين والمنطقة العربية، فنحن لسنا هنودًا حمرًا.« وقال: إن الذين يسلكون طريق التسوية لن يجدوا أمامهم المأزق، أما طريق المقاومة فليس أمامه إلا نتائج واضحة هي الانتصار والعزة والكرامة والشرف، وهذا ما ندعو شعوب هذه المنطقة إليه..»

وفي الشأن الداخلي اللبناني انتقد نصر الله «التحريض المذهبي الذي لم يجنِ للبنان سوى الانقسامات والعداوات والمأساة والجوع والحرمان والفقر».. قائلاً: «إن الذي يتحدث بلغة طائفية تحريضية لا يريد بناء البلد وإعماره بل يريد تدميره ليكون زعيمًا..

وأوضح أن تحالفات «حزب الله» في كل الدوائر وخصوصًا مع بعض الأحزاب هي منسجمة تمامًا مع خطه ورؤيته وموقفه وهدفه السياسي». وقال: «عندما تركب اللوائح وتضم شخصيات أسياسية لها مواقعها، ومن خلال روح التعاون والائتلاف

لأننا أحببنا تحصين هذا النصر»..

نصر الله يرد على تهديد إسرائيل المستعمرات تحت أقدام مجاهدينا

ورد الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصر الله مؤخرًا على تهديد قائد سلاح المُشاة الإسرائيلي الجنرال موشيه إيفري باجتياح جنوب لبنان مجددًا.. فسأل: «هل يتصور هذا الجنرال أن الاعتداء على لبنان يبقى بلا ثمن وبلا رد وبلا مواجهة؟»..

وأضاف: «عندما كانت مستعمراتهم بعيدة عنا كيلومترات عدة لم تكن في منأى عن خطرنا، فكيف وهي اليوم تحت أقدام مجاهدينا؟»..

وأكد نصر الله في احتفال بلدة معروب (جنوب لبنان) أن لبنان لم يخرج من دائرة التهديد، لأنه لم يخرج من دائرة الأطماع الإسرائيلية.. وسنبقى نسمع المزيد من التهديد والوعيد». معتبرًا أن الجنرال الإسرائيلي يهدد وهو خائف ويعترف بالضعف «وسأل» هل يتصور أن الاعتداء على لبنان أو على جنوبه أو على قرية لبنانية نزهة؟.. وهل يظن أننا مازلنا في العام ١٩٧٨ أو العام ١٩٨٢؟.. هؤلاء لم يعتبروا على ما نظن أو أن هذا مجرد تهويل فارغ لأننا في سنة ٢٠٠٠ ونحن قبل ٢٥ أيار (مايو) وبعده قوم مختلفون».. وقال: «نحن دخلنا في زمن مختلف وعصر مختلف بالنسبة إلى هؤلاء الصهاينة.. وستسمعون في المرحلة المقبلة كلامًا هدفه التهويل، لأن الهاجس الكبير الذي يحكمهم في فلسطين المحتلة هو هاجس «حزب الله». فهم يحلمون به ومسكونون بهاجس النموذج الذي قدمه، وعندما يتوافر داخل فلسطين –وهو موجود بكل تأكيد – عناصر حاضرون للاستشهاد والتضحية – وقد حدث والحمد لله – سيهزم المجتمع الإسرائيلي، لأنه لا يملك إمكانات المواجهة». وأشار إلى تصريحات وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت عن الدول المانحة معتبرًا أن: «الضغوط الأمريكية والأوروبية ستبقى على لبنان»، داعيًا إلى صد ومواجهة وثبات..

وقال نائبه الشيخ نعيم قاسم إن المقاومة ستبقى على جهوزيتها.. ويجب أن نكون دائمًا مستعدين لأية مواجهة محتملة مع العدو لم تتوقف ولم تنته.. وأضاف في احتفال

في النبطية: «نحن في مرحلة مؤقتة يمكن أن تفتح لاحقًا على مواجهة هذا العدو لأنه يحمل نفسًا عدوانية، ولا يزال معتديًا على أرضنا في مزارع شبعا وغيرها، ولا يزال يحتفظ بالأسرى والمعتقلين»..

وفي الشأن الانتخابي أشار إلى دخول السلطة والمال والإعلام وكل الإمكانات سواء أكانت موالية أم معارضة في بازار إسقاط معنويات الانتخابات حتى بات الجميع يريد الخلاص ومرور الأيام المقبلة لترتاح النفوس. وسأل: هل يصح أن يستخدم البعض الإطار المذهب للتحريض من أجل مكاسب إضافية في عدد الأصوات، وأن يشتري البعض الضمائر وأن تُلفق التهم..

إسرائيل ستُحمِّل «حزب الله» تبعة أي عمل داخل فلسطين المحتلة

وأضاف الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصر الله: «أن إسرائيل ستحمِّل الحزب مسؤولية أي عمل داخل فلسطين المحتلة، لأنه أدخل ثقافة جديدة وقدوة جديدة انتقلت عدواها إلى هناك».. وأضاف: لذلك نجد أن غالبية الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج يائسة من التسوية، وتعرف أن الطريق الوحيدة لاستعادة فلسطين والمقدسات هي طريق حزب الله..

وتابع في «مهرجان التحرير والنصر» في مدينة الهرمل: «نحن مسئولون أن نحافظ على هذه الثقافة وهذا النهج، لأنه يمكن أن يؤسس لتحول كبير في منطقتنا وهذا يعني أن نبتعد عن كل حساب طائفي أو مناطقي أو عشائري عندما نواجه القضايا الوطنية الكبرى..»

ورأى أن لبنان مازال في دائرة الخطر والتهديد، لذلك لا يجوز لأحد أن يتعاطى مع الأحداث والتطورات والأوضاع، وخصوصًا على المستوى اللبناني من منطلق أن مشكلتنا مع إسرائيل انتهت، رد أن هناك جزءًا من أرضنا مازال تحت الاحتلال وبعضًا من إخواننا مازالوا في الأسر..

وكرَّر موقف «حزب الله» من تهديدات قائد سلاح البر الإسرائيلي الجنرال موشيه ايفري.. وقال: «إن تصريحه يحمل ضعفه فيه..» وسأل:

مادام يهدد.. لماذا لم يبق في لبنان؟

واستبعد نصر الله العمليات السريعة.. وقال: اليهود أجبن من أن يزجوا بعد الذي حصل في لبنان بضباطهم وجنودهم في مواجهة المقاومين وهم يخافون العودة إلى لبنان، ونؤكد لقائد سلاح البر أن كل هذه التهديدات والتهويلات لم تجد في السابق نفعًا معنا، ولن تُجدي اليوم ولا في المستقبل شيئًا، ولأننا أقوى مما مضى وأشد عزمًا». وأضاف: «عندما كانوا يهددونا في السابق كانت مستعمراتهم بعيدة عشرات الكيلومترات وكنا لا نخشاهم، فكيف اليوم وكل مستعمراتهم تحت أقدام مجاهدي المقاومة الإسلامية؟».. وأكد: «إننا لسنا في الموقع الذي يرعبه التهديد أو يُخيفه التهويل أو يعيد حساباته، وإن المواجهة لن تكون نتيجتها إلا النصر».

ودعا نصر الله الدولة إلى معالجة مشكلات منطقة بعلبك –الهرمل.. خصوصًا إنمائيًا وحياتيًا.. وقال: يجب أن نكون في برنامج واحد مع المناطق المحررة، وفي أول زيارة لرئيس الجمهورية العماد إميل لحود حدثته عن هذا، وفي أول لقاء رسمي مع الرئيس بشار الأسد سنطلب منه هذا، وهو الذي فتح باب العناية للاقتصاد في سورية، ولبنان مرتبط بسورية في وحدة المصير ومن ضمنه الشأن الحياتي والإنمائي والاقتصادي..

سلمنا القضاء شبكة تعمل لمصلحة إسرائيل

ولقد وصف الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصر الله الشروط التي تفرضها الدول المانحة على لبنان من أجل عقد مؤتمرها، بأنها «تعجيزية وتأتي للنيل من لبنان والعمل على تجريد المقاومة من سلاحها »وشبهها بـ «الاحتلال الإسرائيلي» وأشاد في حديث إلى وفد نقابة المحررين برئاسة النقيب ملحم كرم، «بالثقة الكاملة» التي قامت بين رئيس الجمهورية والحكومة إميل لحود وسليم الحُص من جهة والمقاومة من جهة أخرى في ما يتعلق بملف الجنوب معتبرًا أنها سهلت الانتصار الذي تحقق.. وأشار إلى ما يحدث الآن وقال: إن إسرائيل يجب ألا تطمئن لحظة واحدة مادام هناك أسرى ومفقودون وأراضٍ محتلة مثل مزارع شبعا وسواها..

وأكد التزام المقاومة ما تقوله الدولة. وأضاف: «إذا قالت إن شبعا ومزارعها أراضٍ لبنانية، كان على المقاومة أن تعمل جهدها لتسهم في استرجاعها إلى الوطن..»

ونفى أن تكون المقاومة أنشأت كيانًا أمنيًا رسميًا.. وأعلن عن كشف شبكة تخريب سرية كانت تعمل لمصلحة إسرائيل بعد جلاء القوات الإسرائيلية ولديها أجهزة اتصال بها، وكانت تخطط لعمليات قتل في الشريط الحدودي، وقد سلم الحزب أفرادها إلى القضاء اللبناني.

وأكد أن كل ما قامت به المقاومة هو تسليم المطلوبين إلى الدولة ولم تتولَّ يومًا شأن التحقيق معهم أو معاقبتهم في إشارة إلى المعاملين مع إسرائيل وعناصر «جيش لبنان الجنوبي» السابق.. وأضاف: «إن هناك من يقول إن القضاء يتساهل أما نحن فنؤمن بالقضاء وبعدالته..»، وعن تشكيل الحكومة المقبلة قال:

إن ثقة «حزب الله» غالية ولن تمنح بسهولة لمن لا يستحقها نحن لا نتدخل في قضايا المحاصة ولا نبحث في الأسماء، وما يهمنا البرنامج وليس مهمًا أن نكون ممثلين في الحكومة أم لا.. المهم أن تكون الحكومة قادرة على تحرير لبنان من صعوبات كثيرة خصوصًا على الصعيد الاقتصادي وقضية ملف الجنوب الذي لا يزال مفتوحًا..

وفي الوفاق الوطني لفت النظر إلى المصارحة والتفاهم بعيدًا عن المذهبية، وقال:

«إن حزب الله لم يساوم للحصول على مكاسب وأن التحالفات التي حصلت كانت قائمة قبل الانتصار..» واعتبر أن الحوار الوطني لا يجوز أن ينطلق من مسبقات بل يجب أن يكون نتيجة دراسة، وجلوس إلى طاولة ومحاولة للوصول بالمشكلات إلى حلول تُرضي كل الفُرقاء..

وعن العفو عن الدكتور سمير جَعْجَعْ وعودة ميشال عُونْ أكد أن الشأن قضائي ويجب أن يبقى في إطاره.. وقال: عن استمرار الاستنهاض الطائفي يقود إلى حرب أهلية ويمهد لها.. مشددًا على ضرورة التعاطي معه بموضوعية وهدوء ومن منطلق الإيمان بضرورة حصول الاستقرار في لبنان..

تفاصيل الـ ٨ دقائق التي هزت إسرائيل

العملية في حد ذاتها وكيف تمت.. في معلومات التي وردت أن قيادة «حزب الله» استبقت التنفيذ بعملية مراقبة طويلة النفس للشريط المسيَّج والمراكز العسكرية الإسرائيلية امتدت أسابيع، وقبل العملية الأخيرة بساعات قليلة صدرت أوامر واضحة إلى القيادة العسكرية بالتوجه إلى الجنوب، وأسندت إلى كل مجموعة مهمة واضحة. مثل هذه الأوامر كانت عادة تُعطَى في كل مرة يظهر أمين عام الحزب في إحدى القرى الجنوبية أو البقاعية المتقدمة، مما يدل على أن السيد حسن نصر الله كان في المنطقة لحظة التنفيذ..

المهم أن الجهاز الأمني التابع للحزب كان مستنفرًا في معظم المناطق الحدودية من دون أن تُعرف الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذا الاستنفار، لكن «الحجة» المعلنة كانت أن «السيد» – أي الأمين العام – قد يكون في زيارة لبعض أسر الشهداء أو المعتقلين، وأن حمايته في هذه المرحلة تتطلب يقظة وخاصة في ضوء المعلومات التي تتجمع عن خطة أو خطط إسرائيلية جديدة لاغتياله، وكل هذا أبقى حركة الحزب ناشطة طوال الساعات التي سبقت التنفيذ..

وتقول رواية أخرى أن مسئولَيْن عسكريَّيْن كبيرَيْن تابعين مباشرة للأمين العام هما اللذان أشرفا على التخطيط والتنفيذ بعد دراسة وافية وتدقيق في كل التفاصيل الميدانية، وأن حسن نصر الله تابع بنفسه كل مراحل التخطيط وحرص على أن يكون قرب الموقع الذي شهد عملية الأسر كي يطمئن إلى أن كل شيء في محله، من دون أن يمر بالأقنية الأمنية التقليدية.. وهذا يعني أن الأمين العام هو الذي أعطى الأوامر بنفسه ودرس بنفسه، واستعان بمستشاريه قبل أن يعلن أنه يتحمل مسئوليتها بشكل كامل، وقبل أن تتحول بيروت إلى مركز وساطات دولية من أجل تأمين المقايضة..

وفي تفاصيل أخرى أن المجموعة التي تولت التنفيذ الميداني بدأت بإطلاق قنبلة صوتية أمام الدورية الإسرائيلية. عقبتها زخات نارية في الهواء قبل أن يتوجه أحد أفراد المجموعة ليقف أمام المجنزرة ويطلب من جنودها الترجل مهددًا بتفجيرها إذا

هم لم يذعنوا، وبسرعة نزل الجنود الإسرائيليون وانبطحوا أرضًا.. فعالجهم أفراد المجموعة بوخز الإبر المخدرة، وتم إخراجهم محمولين على الأكتاف قبل أن تتحرك الطائرات المروحية لترسم دائرة نار في المنطقة التي حصلت فيها العملية، ثم تبدأ بتعقب كل السيارات المدنية لشل حركتها في اتجاه الشمال..

وما حصل في النهاية هو أن مجموعة من سبعة كوادر هي التي تولت التخطيط والتنفيذ ببرودة وثقة استنادًا إلى رصد ميداني لكل المعطيات وتصور واقعي لكل الاحتمالات.. والعملية التي أسر فيها العسكريون الثلاثة على طريق «بركة النقار» لم تستغرق سوى ثلاث دقائق، وكانت أشبه بالأفلام البوليسية، أما نقل الأسرى إلى الداخل فقد تطلب خمس دقائق تقريبًا، بما في ذلك القفز من فوق «الخط الأزرق» ونُقل الإسرائيليون إلى حيث لا يعرف بهم أحد..

وفي المعلومات التي توفرت حتى الآن أن الجنود أصيبوا بالذهول منذ انفجرت القنبلة الصوتية، ولم يتمالكوا أعصابهم أمام رؤية رجال «حزب الله» على طريق شبعا في منطقة وعرة جدًا.. ثم إن القصف الذي استهدف مواقع الجيش الإسرائيلي في المنطقة لحظة تنفيذ العملية شغل هذه المواقع بحماية نفسها، فتناست أمر الدورية التي وقعت في كمين المقاومين السبعة. ثم إن الإمدادات الإسرائيلية السريعة التي كان يفترض أن تصل إلى بقعة الكمين تأخرت لأنها كانت تجهل طبيعة ما يدور في هذه البقعة، الأمر الذي أعطى المجموعة المنفذة وقتًا كافيًا للخروج من المنطقة..

نصر الله يدعو قمة الدوحة إلى عزل إسرائيل

طالب الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصر الله القمة الإسلامية المنعقدة في الدوحة بخطوات جدية لقطع علاقات الدول العربية والإسلامية مع إسرائيل داعيًا إلى تعطيل مفاعيل الضغوط الأمريكية على الحكومات والأنظمة.. كما دعا إلى عزل إسرائيل مجددًا في المنطقة وتقديم الدعم لشعب فلسطين حتى لا يحاصره أحد.. وقدر قيام قطر بإقفال مكتب إسرائيل التجاري لديها ولو متأخرًا..

وقال نصر الله في كلمة له في احتفال بيوم شهيد «حزب الله»:

في سنة ٢٠٠٠، بالمقاومة في لبنان والانتفاضة في فلسطين، الوقائع تجعلنا نقترب من النبوءات. وهي أن مشروع إسرائيل الكبرى سقط..

وأضاف: «يجب أن يشعر أي نظام عربي أنه إذا لم يقطع علاقاته مع إسرائيل فإنه مهدد بالسقوط..» وهذا يجعل السيد الأمريكي يتفهم ظروف هذا النظام العربي أو هذا الزعيم العربي، وقال: «لا يجوز أن تهدأ الشوارع العربية، ولا يجوز أن يتحول قتل الشعب الفلسطيني اليومي إلى خبر عادي.. وعن التهديدات الإسرائيلية للبنان وسورية قال: «إن الإدارة الأمريكية وسفيرها في بيروت تساعد في نقلها كل يوم.» واعتبرها تهويلاً وقال:

«لا تخافوا.. فالخائف هو رئيس وزراء إسرائيل (إيهود باراك) ورئيس الأركان (شاؤول موفاز) واشكينازي.. والمستعمرات».. وهدد بدوره قائلاً:

«يخرقون الأجواء ويرسلون المروحيات ويحاصرون البحر.. هذا لن يبقَى من دون ردٍّ، ولا يغير من حقنا في متابعة تحرير أرضنا وأسرانا والتربص والانتظار ومراقبة التطورات في فلسطين المحتلة، ولا يظن الصهاينة أن في إمكانهم التمادي.. ولن نتخلّى عن مسئولياتنا، لا تجاه لبنان ولا تجاه الشعب الفلسطيني والقدس والمسجد الأقصى..

حزب الله الفلسطيني

هل يمكن أن ينشأ حزب الله الفلسطيني على غرار حزب الله اللبناني؟. ما هي إمكانية ذلك، وهل يفعل بإسرائيل ما فعله حزب الله اللبناني بها؟. هل الظروف الفلسطينية مشابهة للظروف اللبنانية؟.. أم أن تلك الظروف –الموضوعية الذاتية – أفضل أم أقل ملاءمة لنشأة مثل هذا الحزب؟..

سنحاول الاقتراب من التجربتين اللبنانية، والفلسطينية، ونحدد بالتالي السيناريوهات المحتملة في هذا الإطار.

إذا قلنا إن حزب الله اللبناني الذي نشأ في أوائل الثمانينات على يد مجموعة من المجاهدين وعلماء الدين أمثال راغب حرب والسيد عباس الموسوي الأمين العام

الأول للحزب والذي استشهد بعد ذلك على يد القوات الإسرائيلية بعد أن رصدته أجهزة العدو في عودته من حفل تأبين ذكرى الشيخ راغب حرب، ومن ثم أطلقت الطائرات الإسرائيلية الصواريخ على موكبه فاستشهد مع زوجته وابنه، وإذا قلنا إن ذلك الحزب قد امتلك الرجال المؤسسين الأفذاذ من أمثال راغب حرب وعباس الموسوي ثم السيد حسن نصر الله، فإن الواقع الفلسطيني به رجال أيضًا، بعضهم استشهد من أمثال الشهيد فتحي الشقاقي، ونبضهم لا يزال حيًا، مع الأخذ في الاعتبار أن الخطاب السياسي لكل من راغب حرب وعباس الموسوي شديد التشابه مع الخطاب السياسي لفتحي الشقاقي، والثلاثة قدموا أرواحهم كدليل على الوعي والإخلاص، وفي الواقع الفلسطيني هناك الشيخ أحمد ياسين «حركة حماس» ولكن خطابه السياسي مختلف بالطبع، ربما لأن الواقع الفلسطيني مختلف.

إذن فالخطاب السياسي القادر على تحريك الجماهير في كل من لبنان وفلسطين موجود، بل ربما كانت الآثار الفكرية للشهيد الدكتور فتحي الشقاقي أكثر من تلك الخاصة بالشيخ راغب حرب وعباس الموسوي، هذه نقطة لصالح الفلسطينيين، وكذلك هناك ملحمة متصلة أكثر عمقًا تتصل بذلك الخطاب منذ ثورات العشرينات والثلاثينات وعز الدين القسام «الشيخ المجاهد» في حين أن الخطاب السياسي لحزب الله وإن كان عميقًا في التربة اللبنانية وسابقًا على نشأة حزب الله بالطبع، إلا أنه لا يصل إلى عمق الخطاب الفلسطيني بهذا الصدد، ونقصد ذلك الخطاب الذي يستلهم الإسلام في الكفاح الشعبي ويعتبر القضية الفلسطينية قضية مركزية للأمة الإسلامية والجماهير العربية.. وأن الكفاح الشعبي المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، كامل التراب الفلسطيني وأن إسرائيل لا تفهم سوى لغة القوة، وأن الصراع صراع حضاري عنيد في الزمان والمكان، وأن إسرائيل غُدة سرطانية، ومفرزة استعمارية متقدمة في المنطقة، ووكيل عن الاستعمار الغربي في إطار الصراع ضد ذلك الاستعمار لتحقيق التحرير والنهضة..

الظروف التي نشأ فيها حزب الله وطريقة نشأته – في رأينا ظروف أشد صعوبة من مثيلتها الفلسطينية، فحزب الله نشأ بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، وذلك الاجتياح الذي شهد مقاومة باسلة من مجموعات إسلامية مرتبطة بكل من عباس

موسوي وراغب حرب، ومن ثم تطورت فكرة المقاومة إلى حزب الله مع الأخذ في الاعتبار هنا أن الظرف آنذاك كان هيمنة إسرائيلية واحتلالاً وحكمًا مارونيًا عميلاً «بشير الجميل» وخروج المنظمات الفلسطينية من بيروت، ثم حربًا أهلية لبنانية استغرقت أكثر من ١٠ سنوات، وتشرذمًا عربيًا غير عادي بعد توقيع الرئيس المصري السابق أنور السادات لاتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩، والشيء الوحيد الإيجابي كان الدعم النفسي والمعنوي لجماهير الشيعة في لبنان – وهم العمود الفقري لحزب الله – بعد انتصار الثورة الإيرانية عام١٩٧٩، والاهتمام الشخصي للإمام الراحل آية الله الخُميني بقضية المقاومة ضد الكيان الصهيوني ودعم القضية الفلسطينية..

الخلفية الفلسطينية أكثر اتساعًا، فإذا كانت المقاومة اللبنانية قد نشأت في أحضان المواجهة ضد الاجتياح الصهيوني، فإن ظروف انتفاضة عام ١٩٨٦ خلفت أوضاعًا فلسطينية أفضل، وكذلك فإن الموضوع الطائفي – وهو اعتماد حزب الله على عناصر الشيعة تحديدًا في لبنان – وإن كان تجاوز ذلك في حركته وخطابه السياسي واستطاع بناء علاقات جيدة مع مختلف الطوائف، إلا أنه يظل في النهاية حزبًا شيعيًا – فإن حزب الله في فلسطين لو تكون من المقاومة الإسلامية لن يعاني مثل تلك المشكلة، وسوف يمثل كل الشعب الفلسطيني بلا استثناء المسلم والمسيحي على حد سواء، لأن المسألة الطائفية هنا غير مكرسة، وهي ميزة لا شك فيها لصالح الفلسطينيين.. وإذا قلنا إن تعميد المقاومة اللبنانية بالدم والشهادة وبالتالي المصداقية جاء عبر حادثة نسف مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور عام ١٩٨٣ على يد أمير الشهداء قاسم قصير، فإن المقاومة الإسلامية في فلسطين المحتلة قد نفذت عشرات العمليات الاستشهادية على مدى العشر سنوات السابقة، على يد رجال «حماس والجهاد الإسلامي»، وهي عمليات لا تقل أهمية عن العمليات الاستشهادية لحزب الله.

وإذا كان حزب الله في لبنان قد اعتمد سلاح الإيمان والإرادة، وآمن بأن الإنسان أقوى من التكنولوجيا، وأن إرادة الأمة أقوى من كل ترسانات الأسلحة ومكر الأجهزة الاستخباراتية، وأن بالإمكان هزيمة الكيان الصهيوني، وأثبت بانتصاره على

إسرائيل وإجبارها على الفرار من جنوب لبنان بلا قيد أو شرط، أن بإمكان قوة صغيرة مكافحة أن تنتصر على أقوى قوة إقليمية ومن ورائها أكبر قوة عالمية، وكل هذا بالطبع موجود في تراث حركة المقاومة الإسلامية الفلسطينية وحاضر في ذمتها وأدبياتها، وربما الشيء الوحيد في هذا الصدد هو أن التأييد الإيراني ـ والدعم بالتالي وإن كان موجودًا في الحالتين ـ فهو أكثر عمقًا واتساعًا في حالة حزب الله اللبناني..

من وجهة نظرنا فإن الظروف الموضوعية في فلسطين المحتلة تساعد أكثر في إذكاء روح المقاومة، فمعاناة الفلسطينيين الشديدة أكثر بالطبع من معاناة الشعب اللبناني، وإسرائيل التي تحاصر المناطق وتحرم الفلسطينيين من العمل وتدني الأوضاع الاقتصادية في غزة والضفة وتفشي حالة البطالة، والقمع الإسرائيلي المستمر كلها أمور تصب في خانة الثورة والمقاومة، بل وفشل مشروع أوسلو والتسوية وإحساس الفلسطينيين بعدم جدوى السلام على مستوى الكرامة الوطنية، وعلى مستوى الظروف المعيشية، كل هذا جعل الشعب الفلسطيني برمته في حالة استنفار –فظهرُه إلى الحائط وكرامته مجروحة، وكذلك فإن هناك عمقًا استراتيجيًا مهمًا يتمثل في وجود ١.٢ مليون فلسطيني عربي يعيشون داخل أراضي ١٩٤٨، وهؤلاء بدورهم يتعرضون للقمع والاضطهاد والتمييز العرقي على يد الدولة، وعلى يد المستوطنين والمتطرفين والإسرائيليين، وهويتهم وإحساسهم بالقضية متصاعد ولم يعد محل شك، وهؤلاء يمثلون اختراقًا مُهمًا في جسم المجتمع الإسرائيلي، فهم يعيشون تحت جلد الإسرائيليين وفي نخاعهم العظمي، وإذا ما تم استخدام هذه الورقة فإن نهاية إسرائيل قريبة جدًا إن شاء الله تعالى، إذا فإن وجود الفلسطينيين سواء داخل أراضي ١٩٤٨ أو المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ تحت جلد إسرائيل هي ميزة مهمة للمقاومة الفلسطينية، والإسرائيليون أنفسهم يدركون هذه الحقيقة، وقد عبر عن ذلك عدد من كبار ضباط العدو الصهيوني، فقد نقلت صحيفة معاريف الصهيونية عن ضابط إسرائيلي كبير في قطاع غزة قوله إن الجنود الصهاينة الذين خدموا في جنوب لبنان ولم يخشوا حزب الله يخافون الآن من الخدمة العسكرية داخل قطاع غزة، وقد اعترف أحد الضباط بذلك بقوله:

«إن الخوف الذي يأخذ تعبيراته في حالات الانهيار النفسي التي تعرض لها

العشرات من الجنود أثناء تأدية مهامهم العسكرية في قطاع غزة......»، وفسر ضابط آخر ذلك بقوله:

«إن شعوري بالخوف من الخدمة في قطاع غزة رغم أنني خدمت في جنوب لبنان هو إننا كنا نواجه حزب الله في لبنان وهو بعيد عنا في أغلب الحالات لكننا في قطاع غزة نشعر بأن حزب الله يعيش معنا لحظة بلحظة، يسير معنا في الطرقات، كل طفل، كل امرأة، كل شرطي فلسطيني يقابلك في الطريق يمكن أن يتحول فجأة إلى عنصر حزب الله ويطلق عليك النار من مسافة قصيرة أو يتفجر بالقرب منك»..

وإذا كان حزب الله في لبنان قد استخدم مقولة أنه حركة تحرر وطني يريد تحرير الأراضي اللبنانية، وبالتالي استطاع أن يكتسب مشروعية لبنانية وعربية وعالمية رغم أنف الجميع، فإن ذلك موجود بالنسبة لحالة المقاومة الفلسطينية بل وبصورة أشمل، فكل فلسطين محتلة وكل الشعب يعاني من الطرد والمذابح والقمع..

وإذا كان حزب الله قد استخدم الخطاب الإسلامي المجاهد في حشد جماهيره والحصول على تأييد شعبي عربي وإسلامي، واستطاع أن يمتلك وجدان الجماهير العربية، بالتالي فإن ذلك أيضًا متاح بالنسبة للمقاومة الفلسطينية، بل هناك ميزات نوعية مهمة في هذا الصدد، فالنصوص الدينية تدعو إلى قتال الإسرائيليين تحديدًا وتتحدث عن صراع على أرض فلسطين، وأن أرض فلسطين أرض مباركة، وكذا وجود المسجد الأقصى والمقدسات الإسلامية يجعل الوجدان الجماهيري في حالة توتر دائم.. وكل هذا لصالح المقاومة..

لو أجمعت فصائل المقاومة الفلسطينية أمرها، وارتفعت فوق خلافاتها واتخذت طريق حزب الله، فإن الكيان الصهيوني الذي بدا هشًا أمام سكين المقاومة اللبنانية سيكون أكثر هشاشة أمام المقاومة الفلسطينية، ولن يصمد التماسك الاجتماعي الإسرائيلي كثيرًا، وسوف يحدث التفسخ والتشرذم بين فئات المجتمع الإسرائيلي، وربما نكتشف أن نهاية إسرائيل تحت وطأة المقاومة قريبة جدًا، بل أقرب من العين إلى الحاجب..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

.. دور الأصولية الإنجيلية في قيام ودعم إسرائيل

الأصولية الإنجيلية ، أو الصهيونية المسيحية ، هى تيار مسيحى كبير له الكثير من الأتباع والمؤسسات ومراكز النفوذ والكنائس والصحف والقنوات التليفزيونية والإذاعات والبنوك وغيرها فى أوروبا وأمريكا ، ويعتمد هذا التيار أساساً على أتباع المذهب المسيحى البروتستانتى .

وقد لعب هذا التيار دوراً كبيراً فى نشأة إسرائيل ودعمها حتى اليوم وله نفوذ كبير داخل مؤسسة الرئاسة الأمريكية بل إنه يلعب دوراً مهماً فى توجيهها ، بل إن رؤساء أمريكيين مثل ريجان كان من المنتمين إلى هذا المذهب وكذلك يتأثر بهم الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن .

ويؤمن أتباع هذا المذهب أن هناك ثلاثة إشارات إلهية يجب ان تتحقق قبل أن يعود المسيح الى الأرض وهى قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات ، وامتلاك مدينة القدس ، وإعادة بناء هيكل سليمان ، وأنه بعد تحقق تلك الإشارات فإن معركة هرمجدون وهي معركة يعتقد الإنجيليون أنها ستقع في سهل مجدون القدس وعكا وأن التنبؤ بها ورد فى أسفار حزقيال ويوحنا ويوشع وهى تقول إن قوات الكفار سوف تدمر فيها، وإن المسيح سوف يظهر فوق أرض المعركة ويرفع بالجسد المؤمنين به ويخلصهم من الدمار ومن ثم يحكم العالم مدة ألف عام حتى تقوم الساعة .

ووفقاً لهذه العقيدة الدينية فإن الإنجيليون يعتبرون أن دعم قيام إسرائيل واجب

شرعى مسيحى وكذلك دعم توسعها والاعتراف بالقدس عاصمة لها وكذلك تمويل الاستيطان اليهودى فى الأرض المحتلة ، بل أكثر من هذا فإن عليهم دعم المخططات الرامية إلى هدم المسجد الأقصى وإعادة بناء هيكل سليمان .

وفى الحقيقة فإن نشأة الأصولية وانتشارها يخضع لأكثر من تفسير ، فالبعض يعتقد أن اليهود نجحوا فى التسلل إلى دوائر الكهنوت المسيحى واستطاعوا إدخال العقائد الخاصة بقيام إسرائيل واحتلال القدس وإقامة هيكل سليمان فى صلب الإيمان المسيحى وخاصة البروتستانتى وأن ذلك تمهيد لعودة المسيح بحيث أصبح دعم المخطط اليهودى لإقامة إسرائيل من الفرات الى النيل واجب مسيحى شرعى .

ويرى البعض الآخر أن دهاة الساسة الأوروبيين ، المعادين للسامية والكارهين لليهود هم الذين أنشؤوا هذا المذهب لضمان تأييد مسيحى واسع لذلك على أساس أن هذا الأمر يجعل اليهود يفكرون فى قيام وطن لهم فى فلسطين على حساب العرب المسلمين ، وبذلك يضرب هؤلاء عصفورين بحجر واحد ، أولهما هو التخلص من اليهود على أساس أنهم سبب البلاء فى أوروبا وأنهم نفاية بشرية يجب أن تتخلص منها أوروبا ، وفى نفس الوقت تحقيق نوع من التآمر ضد العرب والمسلمين واستخدام اليهود كقفاز لضرب الإسلام والمسلمين على اعتبار أن هناك عداءً تاريخياً وصراعاً مستمراً لم يحسم حتى الآن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية .

وفى الواقع فإننا نرى أن التفسيرين صحيحان وأن المخطط اليهودى تلاقى مع رغبات دهاة الساسة الأوروبيين المعادين للسامية وأن اللقاء بين الرغبتين أنشأ هذا التيار ونفذ هذا المخطط فقيام إسرائيل وتوسعها يحقق هدف اليهود ويحقق هدف الأوروبيين فى وقت واحد على حساب العرب والمسلمين .

***

وإذا بحثنا فى هذا التيار وظروف ظهوره ، نجد أنه اتجاه قديم فى السياسة الأوروبية ، فعلى حين كانت الكنيسة الكاثوليكية تتمسك باعتقادها بأن ما يسمى بالأمة اليهودية قد انتهى وأن الله طرد اليهود من فلسطين الى بابل عقاباً على صلب

المسيح ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن النبوءات الدينية التى تتحدث عن العودة تشير إلى العودة من بابل وأن هذه العودة قد تمت بالفعل على يد الإمبراطور الفارسى قورش.

ثم جاءت ما يسمى بحركة الإصلاح الدينى المسيحى الذى تمخضت عنه البروتستانتية ثم انتشار المذهب البروتستانتى فى أوروبا وأمريكا ليكون الأرض الخصبة لنشأة المسيحية الصهيونية والإيمان بضرورة قيام إسرائيل وبناء المعبد كتمهيد ضرورى لظهور المسيح ، وتكريساً لهذا التحول أصبح العهد القديم «التوراة» هو المرجع الأعلى لفهم العقيدة المسيحية وبلورتها ، وفتح باب تفسير نصوصه أمام الجميع لاستخراج المفاهيم الدينية دون قيود كما تم اعتبار اللغة العبرية باعتبارها اللغة التى أوحى بها الله إلى أنبيائه واللسان المقدس الذى خاطب به شعبه المختار هى اللغة المعتمدة للدراسة الدينية ، ومن خلال ذلك تغلغل الفكر اليهودى إلى قلب الحركة الدينية المسيحية عموماً والبروتستانتية خصوصاً .

ثم بدأت الدعوة إلى قيام إسرائيل فى فلسطين تظهر على يد علماء الدين المسيحى البروتستانتى ثم رجال السياسة البريطانيين والأوروبيين مثل عالم اللاهوت البريطانى توماس برايتمان ١٥٦٢ – ١٦٠٧ والسياسى البريطانى هنرى منشن ١٦٢١ ثم العالمان الإنجليزيان جوانا والينزر كارترايت ١٦٤٩ ثم السياسى البريطانى كروميل ١٦٤٩ ، ثم الفرنسى فيليب جنتل ١٦٥٦ ،لم يقتصر الأمر فى هذا الصدد على علماء الدين والسياسيين بل تعداه الى الأدباء والفنانين مثل ميلتون ولورد بايرون وكولريدج وألكسندر بوب وجان راسين وجورج إليوت وغيرهم .

ثم تبنى هذه الدعوة اللورد الإنجليزى شافتسبرى ١٨٨٢ وكذلك دوق كنت وجلادستون واللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانى ١٨٦٥ ، بل حتى نابليون بونابرت قد تبنى الدعوة إلى إقامة وطن لليهود فى فلسطين ووجه الجنرال بونابرت نداء إلى اليهود ودعاهم فيه بالورثة الشرعيين لفلسطين وطالب فيه بإقامة دولة لليهود فى فلسطين وذلك فى أثناء حملته على الشرق ١٧٩٨ – ١٨٠١ .

واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن ظهر تيودور هرتزل فتبنى هذا الأمر ودعا

اليهود الى العمل على تحقيقه وتم بلورة ذلك فى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، ثـم تـدافعت الجهود اليهودية والأوروبية الى أن تمخضت عن وعد بلفور سنة ١٩١٧، وبعد ذلـك حظيت الدعوة بدعم كامـل مـن أوروبـا وأمريكـا إلى أن قامـت دولـة إسـرائيل عـام ١٩٤٨.

الصهيونية المسيحية فى أمريكا

مع تصاعد قوة ونفوذ الولايات المتحدة ، ومع زيادة وزنها الاقتصادى والسياسى والعسكرى نشطت داخلها الحركـة المسـيحية الصـهيونية ويبلـغ عـدد المنتمـين الى الكنائس الإنجيلية التى تعتقد بالمسيحية الصـهيونية وضـرورة قيـام إسـرائيل وبنـاء الهيكل تمهيداً لعودة المسـيح حـوالى ٧٧ مليـون أمريكـى ينتمـون الى ٢٠٠ طائفـة ، وتمتلك هذه الاتجاهات فى أمريكا العديد من قنوات التليفزيون حوالى ١٤٠٠ محطة تليفزيون وإذاعة ، وحوالى ٤٠٠٠ مقدم برامج والعديد من الصحف ووكالات الأنباء بل ومنهم العديد من الشخصيات الأمريكية البارزة كان منهم الرئيس ريجان والقـس سيجوارت والقس فالويل والقس بات روبرتسون والعديد مـن أعضـاء الكـونجرس ودوائر النفوذ المالى والإعلامى والسياسى الأمريكى ، ويتأثر بهذا المـذهب الـرئيس بوش الابن ووزير دفاعه رامسفيلد ووزير العدل أشكروفت ، ويستطيع هـؤلاء إقنـاع الـ ٧٧ مليون من أتباعهم بأن دعم إسـرائيل واجـب مسـيحى وكـذلك ، يسـتطيعون إقناع عدد أكبر من غير أعضاء الكنائس الأصولية ، أى أنهم عملياً قادرون عـلى خلـق رأى عام واسع جداً فى أمريكا لتأييد إسرائيل ودعمهـا ناهيـك عـن النفـوذ اليهـودى التقليدى فى الكونجرس والإعلام ودوائر المال .

وعلى أى حال فإن مجرد نظرة على المؤسسات التابعة للكنـائس الإنجيليـة التـى تـؤمن بالمسـيحية الصـهيونية يـدلنا إلى أى مـدى وصـل نفـوذهم المـالى السياسـى والإعلامى فى أمريكـا ، فهنـاك عـلى سـبيل المثـال لا الحصـر المصـرف الأمريكـى المسيحى من أجل إسرائيل ، مؤتمر القيادة الوطنيـة المسـيحية مـن أجـل إسـرائيل ، منظمة جبل المعبد ، وتبلغ هذه المنظمات فى أمريكا عموماً حوالى ٢٥٠ منظمة تـدير آلاف المصارف والصحف والمؤسسات المالية والإعلامية .

وتبشر هذه المنظمات المسيحية بالعديد من المفاهيم داخل أمريكا وخارجها فهى تؤمن بأن دعم إسرائيل هو التزام دينى ثابت وليس مجرد التزام سياسى متغير ومتحرك ، كما تعتبر شرعية الدولة اليهودية مستمدة من التشريع الإلهى وبالتالى اعتبار قيام الدولة تحقيقاً للنبوءات الدينية ، التشديد على أن أرض إسرائيل هى كل الأرض التى وعد الله بها إبراهيم وذريته ، وبالتالى تشتمل كل الأرض الموعودة من النيل إلى الفرات ، استمرار العمل بالشعار الذى يقول: إن الله يبارك إسرائيل ويلعن لاعنيها ، وبالتالى فإن دعم إسرائيل طريق إلى بركة الرب ، بل إنه عندما يتناقض القرار الإسرائيلى مع مواثيق الشرعية الدولية أو القانون الدولى فإنه لا اعتبار لذلك ويجب احترام القرار الإسرائيلى لأنه تعبير عن إرادة الرب ، أما القوانين الدولية فإنها تعكس إرادة الإنسان ، ومن الضرورى احترام إرادة الرب إذا ما تناقضت مع إرادة الإنسان.

.. زوال إسرائيل
نبوءة قرآنية وحتمية تاريخية

هل هو إغراق فى التفاؤل كرد فعل على حالة شديدة الصعوبة والقسوة تمر على المنطقة وعلينا.. أم هو نوع من خداع النفس أو الأمانى الحلوة فى الأيام المرة، أم نوع من الهروب من مواجهة تحديات ضخمة تمثلها جيوش وبواخر وأسلحة ودمار وقتل وترويع وتدخل سافر فى شئوننا وصل إلى حد تحديد ما نتعلمه وما لا نتعلمه.. أم هو نوع من التشبث بالأمل حتى لا نستسلم لليأس؟

ليس هذا ولا ذاك.. بل هو الحقيقة إن شاء الله، فإذا كنا نؤمن حقا بالقرآن الكريم، فإن النبوءة القرآنية تتحدث بالفعل عن زوال إسرائيل ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء].

وإذا كان القرآن الكريم يتحدث عن زوال إسرائيل فإن هذا يصل إلى درجة اليقين المطلق لدى كل مسلم، وهو يقين مفيد لجعله لا ييأس أبدا مهما اختل ميزان القوي، ومهما كانت الظروف الدولية والإقليمية صعبة، لأن الله تعالى الجبار المتعال القادر على كل شيء، والأكبر من كل قوة هو الذى وعد بذلك ووعده الحق إن شاء الله

تعالي، وبالتالى فإن استمرار المقاومة بكل أشكالها، ومهما كانت الصعوبات هو الطريق الصحيح والمشروع والمتفق مع المنهج القرآني، وهذا فى حد ذاته إحدى علامات النصر إن شاء الله.

زوال إسرائيل أيضا حتمية تاريخية، ذلك أن إنشاء دولة إسرائيل هو على عكس حركة التاريخ والجغرافيا، وهو نوع من تثبيت جسم غريب فى كائن حى يرفضه، ومهما كانت قوة اللصق والتثبيت فإنها ستنتهى يوما، وهذه المنطقة العربية الإسلامية، منطقة شديدة العمق حضاريا وثقافيا، وذات كثافة سكانية عالية ولا يمكن بكل الوسائل والطرق ولا حتى بالإبادة تفريغ المنطقة من السكان، أو تفريغها من وجدانها الثقافى والديني، ولأن المنطقة هى أعمق مناطق العالم ثقافة، فهى ستلفظ بالضرورة هذا الجسم الغريب، وإذا كان الغرب قد أراد أن يتخلص من المشكلة اليهودية بإنشاء إسرائيل، وليستفيد منها فى نفس الوقت كمغرزة عسكرية متقدمة ضد قلب العالم العربى والإسلامي، فإنه أيضا كان يدرك أن المنطقة لن تقبل ذلك، لا بسهولة ولا بصعوبة، ولم يكن هذا يهم الغرب بالطبع، فلسان حاله يقول فليذهب العرب واليهود معاً إلى الجحيم، ولأن اليهود أغبياء فقد بلعوا الطعم، ومارسوا غدرهم وحقدهم على المسلمين بلا هوادة، ولكن ذلك أيضا لن يفلح فى تثبت كيان مفتعل وملفوظ جملة وتفصيلا.. مهما كانت القوة العسكرية الإسرائيلية، ومهما كانت قوة الدعم الأمريكية والغربية للكيان الصهيوني، ومهما كانت وسائل الترهيب فلن تفلح فى القضاء على مقاومة الجسم العربى الإسلامى ولا القضاء على مناعته فى مواجهة هذا الجسم الغريب، ومهما كانت قوة التضليل وغسيل المخ وقوة الإغراءات والمشروعات لإقناع الشعوب بقبول التعايش مع إسرائيل أو التخلى عن الهوية والثقافة أو تفسير الإسلام تفسيرا جزئيا أو مغلوطا فإن ذلك لن ينجح بل هو أحد المستحيلات والله متم نوره ولو كره الكافرون .

المنطقة العربية والإسلامية وتحديدا قلبها فلسطين، ليست منطقة خالية من السكان، ولا خالية من الثقافة، بل هى عميقة وكثيفة حضاريا وبشريا، بل ربما هى الأعمق والأكثف فى العالم، وهكذا فإن زوال إسرائيل حتمية حضارية، قد ينجح

الضغط فى تثبيت مؤقت لذلك الكيان، قد يتورط حاكم أو مجموعة بشرية أو دولة أو حتى جيل بأكمله فى التعايش المستحيل مع إسرائيل، ولكن هذا ضد منطق الأشياء ولن يستمر طويلا.

هذه الحقيقة بدأ يدركها مفكرو وقادة العدو الصهيونى أنفسهم، فهم يتحدثون عن وطن بلا مستقبل، أو أنهم أخذوا أكبر مقلب أو خازوق على حد تعبير أحد الشعراء الصهاينة فى استقباله لأحد المهاجرين الجدد قائلا له: تعال واجلس على الخازوق مثلنا .

المقاومة هنا شرط لازم لزوال إسرائيل.. والمقاومة قد اندلعت بالفعل وامتلكت الطريق الصحيح، بل وأفرزت ظاهرة رائعة وهى العمليات الاستشهادية.. وهذا سلاح لا يمكن القضاء عليه، لقد تمت عمليات استشهادية فى جميع أنحاء فلسطين المحتلة، فى الجليل، وتل أبيب ويافا وعكا وفى الضفة وغزة، وضد مستعمرات شديدة الحراسة وضد مستوطنين مسلحين، وضد كتائب الجيش الصهيونى ذاتها تمت هذه العمليات فى جميع الأحوال والأوقات، وهذا يعنى أن كل الاستخبارات والتحصينات والأقمار الصناعية ووسائل التكنولوجيا الحديثة والقديمة لم تكن حائلا دون استمرار هذه العمليات، لا إمكانات الجيش الصهيونى ولا الجيش الأمريكى ولا محاولات السلطة، ولا الضغوط الدولية ولا حالة الهجوم الإعلامى المستمر على تلك العمليات ووصفها بالإرهابية، ولا محاولات إرهاب الشعب الفلسطينى وترويعه، ولا الاغتيالات ونسف البيوت ولا الأسوار والأطواق الأمنية حالت دون استمرار ونجاح تلك العمليات، والقيمة الكبرى لتلك العمليات ليس فى مدى ما تحدثه من خسائر فى صفوف العدو، بل بما تبثه من رعب فى نفوس الإسرائيليين وما تحدثه بالتالى من خلل فى المجتمع الإسرائيلي، بل ما تحققه من نسف لفكرة الصهيونية ذاتها، لأن الفكرة الصهيونية بالنسبة لليهود الصهاينة هى التجمع فى مكان آمن وطن قومى بعد أن عانى اليهود من الاضطهاد العنصرى فى أوروبا تحديدا!! وهذا بالطبع ليس ذنب العرب والمسلمين الذين يعاملون غير المسلمين بمن فيهم اليهود معاملة تليق بالعدل الإسلامى والأوامر الشرعية

الإسلامية، ولعل ممارسات التاريخ القديم والحديث تؤكد ذلك، المهم أن الغرب نجح فى إقناع اليهود بأن فلسطين ستكون مكانا آمنا بالنسبة لهم، فهى أرض بلا شعب، ومنطقة سوف تقبل بهم بالقهر والإغراء، وهى أيضا ترجمة للتفسير المحرف للتوراة أو التلمود، ولكن جاءت حقائق التاريخ والجغرافيا والثقافة والمقاومة لتقول العكس، فالشعب الفلسطينى موجود، وهو لن يفرط فى أرضه، وهو يمتلك أعلى نسبة خصوبة قادرة على إحداث توازن سكانى باستمرار مهما استمرت عملية الإبادة الصهيونية، والثقافة العربية الإسلامية عميقة الجذور لن تسمح بقبول دائم لإسرائيل فى المنطقة، والنص القرآنى والمفاهيم الإسلامية الثابتة منتشرة بقوة فى المنطقة المحيطة، وهذا معناه استمرار الدعم المادى والمعنوي، بل وخروج الاستشهاديين من غير الفلسطينيين من العرب والمسلمين، والممارسات الإسرائيلية والأمريكية فى المنطقة تدفع الشعوب دفعا إلى إدراك أن الجهاد والمقاومة ليست فقط فريضة شرعية بل هى ضرورة حياتية وطريق بلا بديل وإلا فالموت والخضوع وفقدان الكرامة..

وبذلك كله وبغيره كثير، أصبحت فلسطين أقل الأماكن فى العالم أمانا بالنسبة لليهود وهذا ينسف فكرة الصهيونية من جذورها، وهكذا فإن المقاومة فى الحقيقة والتى وصلت إلى حد مطاردة الإسرائيليين فى بيوتهم ومطاعمهم ونواديهم ومستوطناتهم وثكناتهم العسكرية، بل وخارج فلسطين ذاتها فى كينيا على يد فدائيين ليسوا فلسطينيين، بل مسلمين ينتمون إلى تيارات عربية أخري، هذه المقاومة تقول إن فكرة الوطن الآمن فكرة مزيفة، وأن على يهود إسرائيل أن يعيشوا فى خوف ورعب دائم، وإذا كان الأمر بالنسبة للإسرائيلى مفهوما حين يقوم بالقتال من أجل إنشاء وطن واستمراره وتثبيته، فهذا لا يكون إلا لفترة محدودة وبتضحيات معينة، أما أن تتحول المسألة إلى قلق وخوف دائمين، واستنفار مستمر وقتال بلا نهاية منظورة فهذا فوق الطاقة، وإذا كان ذلك هو قدر العرب والمسلمين، لأن هذه بلادهم وليس لهم بلاد غيرها، فإن ذلك ليس حتميا بالنسبة ليهود إسرائيل، لأنهم يمكنهم العودة من حيث أتوا أو أتى آباؤهم، وبديهى أن حلم الاستقرار والتمتع بمباهج الحياة حلم كل إنسان، وخاصة الأجيال الجديدة فى إسرائيل، وهكذا فالمقاومة نسفت الفكرة الصهيونية، أما سيناريو زوال إسرائيل فهو مجرد تفاصيل.

تفسخ وانهيار المجتمع الإسرائيلى من الداخل، وشيوع حالة الخوف والفزع لدى الإسرائيليين أحرص الناس على حياة وتشقق فكرة الصهيونية ذاتها أمر أصبح محسوساً ومعروفا وترصده مراكز الأبحاث، بل يراه أى مفكر موضوعى داخل إسرائيل أو خارجها، بل إن تقريرا أعدته لجنة مشتركة من الكنيست ومجلس الوزراء الإسرائيلى عام ٢٠٠٧ وجاء بعنوان الواقع فى إسرائيل يصل إلى نفس النتيجة وهو أن الأمور لو سارت بنفس الطريقة فسوف ينهار المجتمع الإسرائيلى من الداخل خلال ٢٠ عاما وأنه لابد من علاج الموضوع.. وبديهى أن تلك أمانيهم، فالعلاج موضوعيا وحضاريا واستراتيجيا مستحيل، المهم أن التقرير يتحدث عن أن المقاومة والانتفاضة تسببت فى عجز فى الميزانية بلغ ٣٠٪ من عام ٢٠٠٠ وحتى الآن سنويا، وأن الميزانية العسكرية تستهلك ٦٠٪ من عائدات إسرائيل القومية، وإذا كان علاج ذلك ميسوراً عن طريق ضخ الأموال لإسرائيل من أمريكا أو الدول التى صنعت إسرائيل وتستفيد منها مثل أمريكا حاليا، فإن علاج الخوف والفزع الإسرائيلى لا يمكن أن يتم لا عن طريق أمريكا ولاغيرها، يتحدث التقرير أيضا عن أن ٣٠٪ من المواطنين لديهم رغبة أكيدة فى مغادرة إسرائيل، وأن ١٣٪ من الأسر الإسرائيلية ترفض الإنجاب، وأن معدل المواليد انخفض بنسبة ٥.٢٪، وتقول الأسر الرافضة للإنجاب برغم توفر المقومات الشخصية والاقتصادية لذلك إنها لا تريد إنجاب أطفال ليموتوا وأن أحدا فى إسرائيل لا يضمن الآن العودة إلى أطفاله سالما أو عودة أطفاله إليه من المدرسة سالمين!!.

ويرصد التقرير حالة الهروب من الجيش أو رفض الخدمة فى الأراضى المحتلة وتدنى حالة الشعور بالوطنية لدى الجيل الجديد الذى يعبر عن رغبته فى العيش بأمان وأنه من الصعب استمرار التوتر إلى الأبد!!، ويعترف التقرير أن هناك شعورا بعدم الأمان يسيطر على الإسرائيليين، وأن الأولاد والأمهات والزوجات يخشون الآن النزول إلى الشوارع أو التسوق وأن المسألة قد انتقلت من كوننا كنا يقصد إسرائيل نتحكم فى مصائر الفلسطينيين إلا أن الفلسطينيين هم الذين قد يتحكمون فى مصير إسرائيل خاصة أنهم يتحركون بلا نظام ومن الصعب بالتالى الإمساك بتلابيبهم أو تحديد وسيلة ناجحة للقضاء على إرهابهم!!

.. سليمان خاطر

بطل سيناء.. الجندي المصري الذي دافع عن كرامة مصر وجيشها

المقدمة

قضية سليمان خاطر – ليست قضية عادية – إنها قضية سياسية تحمل كل ملامح القضية السياسية دون نقصان. بل ربما كانت القضية السياسية الأوضح والأقوى في تاريخنا المعاصر – ربما لا يشابهها في ذلك سوى قضية سليمان الحلبي – الذي تشابه معه في الاسم وفي الهدف وفي التركيب النفسي.

ووضوح القضية من ناحية. وظروف توقيتها من ناحية أخرى أعطاها زخماً غير عادي – وجعل الجميع في طول وعرض العالم الإسلامي والعربي ومصر يتضامن بلا تحفظ مع سليمان خاطر – اللهم إلا بعض المرتزقة – أو أدعياء الحكمة الفارغة.

وقضية سليمان خاطر لم تأخذ حقها في الواقع نظراً لاعتبارات كثيرة بعضها برئ وبعضها خبيث. ولقد أساء البعض بحسن نية إلى قضية سليمان وآخرون بسوء نية مما سوف نوضحه إن شاء الله.

قضية سليمان أيضاً لن تفهم إلا إذا فهمنا وربطنا هذه القضية بالقضية الكبرى وهي قضية الصراع مع الكيان الصهيوني والاستعمار عموماً.

إن الرابح الأكبر في هذه القضية كانت الجماهير المسلمة التي انطلقت وخاصة في الزقازيق والمنصورة والقاهرة والإسكندرية كالبركان لتضع هيكل الأحزاب

السياسية جميعها في مأزق وتكشفها وتعريها وهي التي لم تتجاوب بما يكفي مع الجماهير – اللهم إلا البعض – وليست هذه شهادة لهذا البعض بقدر ما هي الحقيقة التي كشفت في الوقت ذاته عداء حزبين آخرين لأمتنا – هما حزب الوفد وحزب التجمع فضلاً عن الحزب الوطني.

والملاحظة الهامة هنا أن الجميع حاول أن يستفيد من قضية سليمان خاطر. إما لاثراء النضال الإسلامي ضد الصهيونية والاستعمار وإما لتغطية عجز وفشل الأحزاب العلمانية في مصر وفي خارجها.

قضية سليمان خاطر .. جزء من الصراع الإسلامي الصهيوني

منذ أن تعرضت أمتنا للغزوة الصهيونية في أواخر القرن الماضي وطوال هذا القرن فإن منهجين في مواجهة تلك الغزوة قد تبلورا وعبرا عن نفسيهما وتطوراً مع التاريخ حتى اليوم.

المنهج الأول: خط العلماء والجماهير

يرى هذا الخط أن الغزوة الصهيونية هي حلقة من حلقات الصراع التاريخية بين القوى الربانية وبين القوى الشيطانية – المتمثلة هذه المرة في الاستعمار والصهيونية. كما يدرك هذا الخط أن حضارة الأمة ووجدان الجماهير هو المستهدف هذه المرة – تمهيداً لتصفية الكيان الحضاري لأمتنا وتوجهاتها الربانية في تحرير العالم، وبالتالي فإن الصراع يمتد في الزمان والمكان ليأخذ أبعاداً عميقة ودرامية عبر التاريخ كله وعبر العالم بأسره.

من هنا فإن التناقض بين أمتنا وبين الكيان الصهيوني رأس الحربة الشيطانية تناقضاً جوهرياً. لا يمكن حله إلا عبر الكفاح المسلح الطويل لإنهاء الحقبة الاستعمارية بكاملها وتدمير الكيان الصهيوني تماماً وبلا أدنى فرصة في اللقاء على أي أرضية كانت تدرك جماهير هذا الخط أن الأسلوب الصحيح لإدارة الصراع مع الكيان الصهيوني لابد أن يستند إلى:

- فهم طبيعة التحدي
- فهم طبيعة وتركيب العنصر المادي.
- فهم شروط وخصائص عمل قواها الذاتية.

ومن هذا المنطلق ترى الأمة أن الكيان الصهيوني كيان توراتي استعماري – استيطاني – عنصري. فاشي – وأن التحدي هو حضاري في المقام الأول. وأن قوانا الذاتية لا تنطلق إلا من خلال الإسلام لأن أمتنا هكذا كانت وهكذا ستكون بإذن الله تعالى.

وبناء على ما تقدم – كان خط العقيدة الإسلامية وحرب التحرير الشعبية طويلة المدى هو الشعار الذي اختارته جماهير الأمةو والعلماء ومارسته منذ أول يوم في المواجهة فمنذ أن وطئ اليهود أرضنا في فلسطين – وقف الفلاحون يتصدون للغزاة في قرية الخفيرة – وملبس (بتاح تكفا) عام ١٨٦٦م. ثم ما لبث الكفاح المسلح أن تمخض عن ظهور عدد من المنظمات التي خاضت غمار الكفاح المسلح والثورة المسلحة مثل جمعية «الفدائية» الأمر الذي أدى في النهاية إلى قيام ثورة ١٩٢٠ ثم ثورة البراق ١٩٢٩ – منظمة الكف الأخضر بقيادة أحد طافش أواخر ١٩٢٩ – انتفاضة ١٩٣٣ ثورة الشيخ عز الدين القسام ١٩٣٥– الثورة الكبرى ١٩٣٦. القتال في الأربعينات ومشاركة الحركة الإسلامية في ١٩٤٨. ظهور فتح «العاصفة» ٦٥ – معركة الكرامة ١٩٦٨ – معركة السويس بقيادة الشيخ حافظ سلامة ١٩٧٣ – معارك لبنان ١٩٨٢/ ١٩٨٦ – اغتيال الملحق الإداري الإسرائيلي في القاهرة ١٩٨٥ – قيام الجندي سليمان خاطر بقتل ٧ من اليهود في ١٥ أكتوبر ١٩٨٥.

المنهج الثاني الأحزاب العلمانية – الوجهاء

وأصحاب المنهج الثاني إما أنهم وجهاء يخافون على مصالحهم الضيقة ويبحثون عن صيغة اتفاق مع الكيان الصهيوني تحقق للطرفين مصالحهما أو أنهم علمانيون لا يجدون في عقيدتهم مبرراً لمواجهة إسرائيل حيث أنهم إفراز لنفس الشيء الذي أفرز الكيان الصهيوني «الحضارة الغربية» وبالتالي فليس هناك تناقض جوهري بين هؤلاء

وبين الكيان الصهيوني – وإنما هناك تناقض ثانوي يتسع ويضيق حسب معطيات ومعادلات الصراع في المنطقة وطبيعي أن هذه القوى مترددة – تقاتل بشكل جزئي لتحسين ظروف التفاوض ليس إلا. أي أن الخط الأساسي لهذه القوى هو خط التفاوض ومحاولة البحث عن صيغة تعايش مشترك مع الكيان الصهيوني – ومن هنا فقد مارست هذه القوى – والتي ظلت تحكم العالم العربي منذ هذا القرن وحتى الآن – أسلوب الحلول الوسط والمفاوضات واللعب على التناقضات الثانوية بين الكيان الصهيوني وبين دول المعسكر الشرقي أو الغربي. ومنذ اليوم الأول للصراع نسمع عن مفاوضات لندن ١٩٢١ – الكتاب الأبيض البريطاني والثاني – مفاوضات رودس ١٩٤٩ وقرار ٢٤٢، ٣٣٨ مبادرة روجرز ١٩٧٠ – كامب ديفيد – الاتفاق الأردني الفلسطيني – إعلان القاهرة ...... إلخ.

علاقة الباعث بمعادلات الصراع في المنطقة

القضية السياسية هي القضية التي يكون الباعث عليها سياسياً فإن كان في سبيل إحداث تغيير في صالح الشعوب – من أجل حريتها – أو كرامتها فهي نوع من النضال وإن كانت بهدف التخلص من زعيم وطني أو مفكر مبدع على يد أجهزة القمع الدولة أو المحلية فهي أيضا سياسية ولكنها مدانة شكلاً وموضوعاً.

والسؤال الآن.. هل قيام سليمان خاطر بقتل ٧ من اليهود يعد عملاً من أعمال النضال – أم لا؟

وللإجابة على السؤال ينبغي أن نقرر عدداً من الحقائق التي اتفق عليها الجميع على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم.

أن هناك صراعاً بيننا وبين الكيان الصهيوني – صراعاً نراه نحن صراعاً بين الأمة الإسلامية ككل وبين الكيان الصهيوني والاستعمار بكافة فصائله ويراه البعض الآخر صراعاً قومياً أي بين العرب «كقومية» وبين الكيان الصهيوني – ويراه البعض الآخر صراع إقليمياً بين مصر وإسرائيل – أو بين دول أخرى وإسرائيل..

وفي الواقع فإن تكييف قضية سليمان مرتبط أشد الارتباط ببواعثه على الأقدام

على هذا العمل وبصورة مؤقتة لن نقدم تفسيرنا لبواعثه في هذا الفصل وسنترك هذا الأمر لفصول لاحقة بعد دراسة أوراق القضية والأقوال ولكن بصورة مبدئية سنفرض أن الباعث كان مصرياً – قومياً – إسلامياً. ونناقش ذلك من زاوية علاقة ذلك بالقضية عموماً – هل هي قضية نضال أم لا؟ فإن كان الباعث مصرياً. على أساس أن هناك صراعاً إقليمياً بين مصر وإسرائيل. فتكون حقائق الموقف كالتالي:

(مصر – إسرائيل): اتفاقية بين الطرفين «كامب ديفيد» – حالة تطبيع وسلام. إسرائيل لا تحتل حاليا أي جزء من سيناء اللهم إلا طابا المتنازع عليها – خلافات حول طابا تطلب مصر فيها التحكيم – مراوغات إسرائيلية. علاقات خاصة بين مصر وأمريكا الحليف الأكبر لإسرائيل. محاولات مصرية لعمل تسوية شاملة بالاتفاق مع الأردن – ياسر عرفات.

وبالتالي تكون عملية القتل في عكس اتجاه مصلحة مصر كدولة بمعزل عن العرب والمسلمين – لأن هذا يعطي الفرصة لإسرائيل للتخلص من التزاماتها أو يعطيها المبرر لإعادة احتلال سيناء أو يعطيها المبرر لرفض السير في عملية التسوية بالاتفاق مع مصر وأمريكا كما أن العملية تحرج الحكومة المصرية في علاقاتها الخاصة مع أمريكا التي تقدم المعونات لمصر – وبالتالي يكون العمل موجها في الأساس إلى صدر الحكومة المصرية – بمعنى أن يكون سليمان داخل تنظيم يستهدف إضعاف الحكومة المصرية – وهو أمر غير صحيح بالقطع.

وإن كان الباعث قومياً – فتكون المعطيات كالتالي:

محاور عربية – مصر الأردن – ياسر عرفات – وهي تسعى جاهدة لإثبات حسن نيتها تجاه الكيان الصهيوني والسير قدماً في عملية السلام وبالتالي فهذا العمل لا يخدمها.

محور آخر – (السعودية – سوريا): وهي أيضا تريد سلاماً ولكن بشكل آخر وبشروط أخرى. وهذا العمل أيضاً لا يخدمها على المستوى الاستراتيجي وإن كان يخدمها على المستوى التكتيكي.

وبالتالي فالعمل الذي قام به سليمان خاطر لا يكون قومياً في الاتجاه الصحيح.

وإن كان الباعث إسلامياً – فالأمة والعلماء يتبنون بوضوح خط الكفاح المسلح – ورفض كافة أشكال الحلول الوسط والتسوية مع إسرائيل. بل ويرى هؤلاء ضرورة إزاحة إسرائيل بكاملها من الوجود وعودة الحق لأصحابه. وبالتالي فأي عمل عسكري فردى أو جماعي ضد الكيان الصهيوني هو تكتيكاً واستراتيجياً في الاتجاه الصحيح. وبالتالي يصبح ما قام به سليمان خاطر هو عمل متكامل ورائع وفي الاتجاه الصحيح.

أضف إلى هذا أنه من الناحية الأخلاقية والشرعية فإن سليمان أطلق النار على عزل فإذا كان الباعث إسلامياً فهو عمل صحيح تماماً. على أساس أن الرؤية الإسلامية للصراع ترى أن كل من هو مقيم في إسرائيل من اليهود حلال الدم على أساس أنه يقيم في غير وطنه وبطريقة غير شرعية كما أنه في حالة صراع شامل معنا وبالتالي ففي كل لحظة هو مستهدف ولا يخرجه من حالة إهدار دمه إلا خروجه من فلسطين المحتلة وعودته إلى البلاد التي جاء منها.

أما من الناحية القومية – التي ترى إمكانية التعايش مع الكيان الصهيوني وحددت أهدافها في انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلت ١٩٦٧ وإقامة كيان فلسطيني على تلك الأرض والاعتراف بإسرائيل (قمة فاس) فإن دعاة التوسع فقط في إسرائيل هم أعداؤنا وبتالي فإطلاق النار على عزل من الوجهة القوميةم عمل جبان.

والشيء نفسه بالنسبة لمصرية البواعث مع شئ من التوسع ويصبح العمل من الناحية «المصرية» عملاً فيه كثير من الخطأ والخسة.

وهناك إضافة في هذا الصدد إن الباعث الإسلامي يحمل في طياته حباً للعرب ولمصر ولكن بمنظور إسلامي ويصبح العمل متكاملاً ورائعاً وشجاعاً.

نبذة عن قضايا الاغتيالات السياسية في مصر

شهدت مصر في تاريخها المعاصر عدداً من قضايا الاغتيالات السياسية كان أهمها قيام المجاهد المسلم «سليمان الحلبي» باغتيال الجنرال كليبر قائد الحملة

الفرنسية على مصر بعد رحيل نابليون بونابرت – وقد تبين من التحقيق أن الدافع كان إسلامياً فقد كان سليمان الحلبي طالباً في الأزهر.

وقد ساعده في العملية عدد من طلاب الأزهر – كما كان استصدر فتوى من العلماء. وقد أوضح سليمان الحلبي هدفه من عملية الاغتيال بأنه «مغازاة في سبيل الله» – وقعت في يوم السبت ٢١ محرم ١٢١٥هـ (يونيو ١٨٠٠م). راجع كتاب الدكتور محمود متولي «مصر وقضايا الاغتيالات السياسية» دار الحرية ١٩٨٥.

اغتيال بطرس غالي رئيس النظار ووزير الخارجية على يد إبراهيم الورداني – وظهر من التحقيق أن الورداني كان عضواً في جمعية «التضامن الأخوى» ذات الأغراض الدينية – وكان السبب دفاع بطرس غالي عن الشروط المقترحة لمد امتياز شركة قناة السويس وقد أعدم إبراهيم الورداني في ٢٨/ ٦/ ١٩١٠ وقد شيعه الوجدان الشعبي بالأغاني الشعبية من مثل:

قولو لعين الشمس ما تحماش   أحسن غزال البر صابح ماش

وقد حدثت واقعة الاغتيال في ٢٠/ ٢/ ١٩١٠ (محمود متولي – مرجع سابق)

عدد من محاولات الاغتيال لكل من محمد سعيد باشا واللورد كتشنر مايو ١٩١٢ – أغسطس ١٨١٢ – وقد دلت التحقيقات على علاقة المتهمين بالشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد من قيادات الحرب الوطني.

(محمود متولي. مرجع سابق)

محاولتان لاغتيال السلطان حسين كامل الأول – في ٨/ ٤/ ١٩١٥، ٩/ ٧/ ١٩١٥. وذلك لقبوله التنصيب من قبل بريطانيا وليست دولة الخلافة الإسلامية. (محمود متولي. مرجع سابق)

عدد من محاولات الاغتيال للسياسيين المرتبطين بالاحتلال وبعض رجال الاحتلال والأجانب والعسكريين الأجانب ومن ارتبط بهم من ١٩١٠ – ١٩٤٦.

(محمود متولي. مرجع سابق)

محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر في ميدان المنشية ١٩٥٤.. وقد اتهمت فيها جماعة الإخوان المسلمين – إلا أن الجماعة تعتبرها حادثة ملفقة.

قضية اغتيال الرئيس أنور السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١ على يد منظمة الجهاد الإسلامي أثناء العرض العسكري وقد حكم بالإعدام على خمسة من المتهمين هم محمد عبد السلام فرج – خالد أحمد شوقي الأسلامبولي. عبد الحميد عبد السلام. عطا طايل حميدة – وكانت الدوافع إسلامية.

نقاط الاتفاق والخلاف بين عملية نويبع وغيرها من القضايا

قضية سليمان خاطر – تشبه إلى حد كبير قضية سليمان الحلبي – من حيث الدوافع – ومن حيث الظروف – من حيث المجني عليهم فكل من سليمان الحلبي وسليمان خاطر متدين – حساس يريد الجهاد في سبيل الله. وكل منهما قتل أجانب كانوا في حالة صراع مع أمتنا (كليبر) – (اليهود).

وكل منهما أيضا كانت لديه البواعث الآتية للعمل فقد قام كليبر بالتنكيل بالقاهرة وقتل أهلها وتغريمهم الغرامات واقتحام الأزهر. واليهود أيضاً ذبحوا أبناءنا في دير ياسين – صابراً وشاتيلا – أحرقوا المسجد الأقصى – طاردوا الفلسطينيين في كل مكان حتى في تونس.

ومن هنا فقد حظى الاثنان بإجماع شعبي هائل لم يتيسر مثله لغيرهما.

كما أن قضية سليمان تتفق مع قضية الأسلامبولي من حيث أنهما استفادا من وجودهما بالخدمة العسكرية لأداء عملهما المستهدف – إلا أن قضية سليمان تختلف عن قضية الأسلامبولي من أن المستهدف في حالة الأسلامبولي هو رئيس جمهورية مصر الذي قام بأعمال غير وطنية ومرفوضة ولكن كونه مصرياً برغم ذلك قلل من حجم التأييد الشعبي الذي لمسناه في حالة سليمان الذي أطلق النار على الأجانب.

***

دراسة شخصية سليمان خاطر

سنحاول هنا وضع صورة لشخصية سليمان خاطر. من خلال أقوال الأم. شهادات المحيطين به – من أقواله ذاتها.

وكذلك من التقرير الطبي الذي أجراه الأطباء على سليمان ومن دراسة أوضاعه الأسرية. الخلفية الثقافية – جو الريف الذي عاش فيه.

البيانات:

سليمان محمد عبد الحميد خاطر ٢٥ سنة. مواليد سبتمبر ١٩٦٠ من بلدة أكياد مركز فاقوس – محافظة الشرقية.

نشأ سليمان في أسرة ريفية. كان والده يعمل مزارعاً. توفي والده في عام ١٩٧٩ – سليمان هو أصغر خمسة أشقاء ثلاثة من الذكور واثنين من الإناث – شقيقاه الأكبران يعملان أحدهما في القاهرة والآخر في الكويت.

جند سليمان في ٤/ ١٠/ ١٩٨٢ وانضم إلى قوات الأمن المركزي بجنوب سيناء في ١/ ٦/ ١٩٨٣. حصل على الثانوية العامة ١٩٨٣ القسم الأدبي – التحق بكلية الحقوق جامعة الزقازيق.

نحيل الجسم – نظيف الملبس في غير تكلف – طويل الجسم – وسيم

شهادة الأم:

سليمان عمره ما قتل فرخة – كان حنين وهادي وطيب محترم ومعتز بنفسه وبكرامته. صريح وصامت.

إبني عاقل ومؤدب وحنين – كان دايماً يروح يصلي فرائض الصلاة في الجامع وكان بيصوم أيام الاثنين والخميس أسبوعياً وكان بيصلي بالناس في الجامع (يؤمهم).

لم يفكر في عرائس أو زواج – وما يعرفش العلاقات المنحرفة لأنه كان بيصلي ويصوم ودائماً متوضئا وعارف ربنا.

(من تحقيق جريدة الأهالي – ثروت شلبي – ١٦/ ١٠/ ١٩٨٥)

شهادة الأخ (عبد المنعم خاطر) ٣٥ سنة

سليمان بالنسبة لي لم يكن أخاً أصغر بل كنت أعامله كابن لي منذ وفاة والدي. اعتقد من وجهة نظري – وعلى ما سمعت – أنه كان يرى أموراً غير طبيعية وشاذة من الإسرائيليين على الحدود والتي استفزته كمسلم غيور على دينه وكرامة بلده فمن غير المعقول أن يأتي هؤلاء اليهود وهم عرايا خالص ويمارسون العملية الجنسية أمامه أثناء أدائه خدمته الوطنية وكذلك أمام زملائه بصفة يومية ومستمرة لإثارة أعصابهم ومحاولة إضعاف نخوتهم الوطنية وإشعال غرائزهم ولما كان سليمان وزملاؤه لا يلبون نزواتهم الشاذة والغريبة عن ديننا الإسلامي وبلادنا – فلقد آثار ذلك حقدهم لعدم تحقيق مآربهم التي يستهدفونها من جراء هذا فكانوا يصفونهم بالمتخلفين مما كان يزيد غضبهم وحقدهم.. (ثروت شلبي – مرجع سابق)

الشهود

اللي أعرفه عنه إنه إنسان في حالة وليس له أي نشاط غير عادي ودائما في مذكراته أو خدمته ودايماً مواظب على الصلاة زي أي إنسان عادي وليس له مشاكل مع زملائه وليس له أي شكاوي وشخص عادي جداً ومحبوب من زملائه وليست له أي تصرفات مريبة أو شاذة أو تلفت النظر وليس به أي تطرف أو تزمت ولم ألحظ عليه أي شئ غير عادي.

من أقوال الرائد أحمد كمال الدين حسن الشيخ القائد المباشر لسليمان :

ص١٢، ص ١٣ – بتحقيقات النيابة العسكرية

كويس ومؤدب وسلوكه عادي جداً. وأنه بيصلي زي ما كلنا بنصلي.

من أقوال. الملازم أحمد محمد سلطان

ص١٨ من تحقيقات النيابة العسكرية

وفي تعليق نفس الشاهد على قول أحد الإسرائيليين الذين قاموا بالإبلاغ أنه سمع

في نقطة ٤٦ أن الجندي الذي أطلق النار مختل عقلياً. قال الملازم أحمد سلطان – أنا ما سمعتش الكلمة دي من حد لم تقل أمامي. **ص١٩ – تحقيقات النيابة العسكرية**

شخص عادي جدا – أخلاق – وفاهم شغله.

من أقوال الشاهد جمال أحمد رياض – أمين شرطة ص٢٠ – نيابة عسكرية

هو إنسان عادي ومؤدب وفي حالة وأخلاق

من أقوال الجندي حسن الخولي ص٢٦ – تحقيقات النيابة العسكرية

سلاحه دائماً جاهز – كان يبقي منظفه ومجهزه ومركب فيه خزنة وشادد طلقه ومأمنه والثلاثة خزن الثانية جنبه وكان دايماً سلاحه متعمر.

من أقوال الجندي عطية إبراهيم علي ص٢٩ – تحقيقات نيابة عسكرية

التقرير الطبي:

وتحت عنوان ملخص الحالة – جاء في التقرير الطبي بالحرف الواحد «الرقيب سليمان عبد الحميد ليس به مرض عقلي أو تخلف أو صرع ويعتبر مسئولا عن تصرفاته – إلا أنه يعاني من حالة عصبية شديدة عبارة عن خلفية اكتئابية مع حالات قلق شديد ورعب ومخاوف مرضية ومتعددة خاصة من الظلام ومن رؤية الدم مع استعداد لحدوث حالات مؤقتة من الانفصال عن الواقع عن حدوث الانعصابات (الضغوط النفسية الشديدة).

من أقوال سليمان خاطر:

لقد أديت واجبي في حدود التعليمات التي كان يفترض أن ينفذها أي إنسان في مكاني – حافظت على موقعي – ومنعت الأجانب من دخوله – إنني أشعر بالرضا الكامل.

إني أؤمن بالله عز وجل ولا أخشى الإعدام – وأؤمن أن أي إنسان لن يؤخر أو يقدم لحظة في عمري – ما أخشاه أن يكون الحكم على سبباً في أن يعيد كل جندي حساباته عندما يواجه موقفاً مماثلاً يحتم عليه أن يؤدي واجبه فيتردد أو يتخاذل أو

تختل عقيدته في هذه اللحظة لأنه يخشى حساباً جائرا.

من حديث سليمان خاطر إلى جريدة الشعب ١٧/ ١٢/ ١٩٨٥

وكله عمال يشتغل مع الأجانب وهيضيعوا البلد.

من أقوال سليمان خاطر ص٤٤ - تحقيقات النيابة العسكرية

الظروف الموضوعية التي نشأ فيها سليمان خاطر

نشأ سليمان في قرية أكياد - أي أنه حمل معه ثقافة الريف المصري - وهي ثقافة تتسم بالروح الإسلامية العالية - وتحمل المسئولية - وكراهية اليهود لأنهم أعداء الله.

ثم أن أكياد أحدى قرى مركز فاقوس المعروف بميوله الإسلامية الجهادية مثله مثل معظم مراكز الشرقية التي كانت دائماً في خط التماس سواء مع القوات الإنجليز قبل ١٩٥٢ أو مع القوات الصهيونية بعد ذلك. كما أن الشرقية كانت نقاط الانطلاق التي انطلق منها العمل الفدائي المسلح ضد الانجليز والصهاينة في كل فترات الصراع. بما يشكله ذلك من وجدان شعبي وقصص بطولة - وعلاقات مباشرة بالمجاهدين فضلاً عن أن أبناء الشرقية كانوا في طليعة المجاهدين. وبديهي أن سليمان قد حمل داخل وجدانه كل هذا الزخم.

فإذا انتقلنا إلى مجمل أوضاع مصر نجد أن سليمان قد شرب مرارة هزيمة ١٩٦٧ وعمره ٧ سنوات بطريقة مؤلمة حيث شهدت قرية أكياد تدفق سيول المهاجرين من مدن القناة في ١٩٦٧ وما بعدها وهي تجربة مفعمة بالألم والمرارة لمن عاشها خاصة إذا كان طفلاً - حيث كان المهاجرون لا يجدون مأوى ولا طعاماً وكان الأهلون يسعون في جمع الطعام والغطاء والكساء لهم. كما أن المنسحبين من سيناء كانوا قد حطوا رحالهم في الشرقية.

وبهديهي أن قرية أكياد قد نالها نصيب من ذلك وبديهي أن سليمان قد حفر بداخل وجدانه صورة جيش منسحب - بملابس ممزقة - قذرة أو حتى بدون

ملابس – أقدام متورمة. وغضب هائل على المتسببين في الانسحاب والهزيمة من القيادات الجاهلة العسكرية والسياسية التي أضاعت شرف جيشنا ووطننا في ٦٧.

ثم إن سليمان أدرك وعاش انتصار ٧٣ ثم قيام السادات بتضييعه بتنازلاته المهينة الواحدة – تلو الأخرى. وبديهي أن سليمان عاش كواحد من أبناء الشعب الجادين عاش تجربة التمسك بالإسلام وتلاوة القرآن والتردد على المساجد فأدرك قيمة الجهاد ومقامة وأدرك أكثر عداء أمتنا لليهود – أي أن سليمان لم يكن إلا نموذجاً طبيعياً لأي مصري في هذه المرحلة.

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أسرة سليمان ذاتها – أما قوية – صامدة شديدة التمسك بالإسلام. حريصة على تنشئة ابنها نشأة إسلامية. تروى له القصص الشعبي المرتبط بالرسول عليه الصلاة والسلام – أو القصص الشعبي المنتشر في الريف والذي يعكس كراهية الظلم والطغيان وضرورة الانتفاض من أجل الكرامة والمحافظة على عزة النفس.

إن قراءة في كلمات أم سليمان. سواء لجريدة الأهالي أو جريدة الأحرار ستجعلنا ندرك كم هي المرأة المصرية الريفية رائعة ففي ردها على سؤال «ما هو شعورك لما عرفتي أن ابنك سليمان قتل سبعة إسرائيليين» قالت: «أنا فرحت وزعلت في نفس الوقت – ودعيت له ربنا يوقف له ولاد حلال.. ويكفيه شر حاكم ظالم».

أي أن الأم تفرح لقتل اليهود. تخاف على ابنها – تأمل في تعاطف أولاد الحلال مع ابنها – تخاف ظلم الحكام الذين يقدمون الاعتبارات الدولية على كرامة بلادنا وأبنائها.

وتكمل الأم. فرحت لأن اليهود دول ماتوا – لاحظ أن الأمم تقول يهود برغم أن المحرر يسألها بصيغة الإسرائيليين وليس اليهود. وهذا هو الفرق بين الوجدان الشعبي الفطري النظيف وبين التشوه والاغتراب الذي يعانيه مثقفونا.

وزعلت عشان خفت على مصير ابني سليمان ليقتلوه عشان كده. وأما قلبي مولع نار ومش بانام لغاية ما أشوف ابني ضناي بعيني وأطمئن أن مفيش حد ضربه «أي أن

الأم تخاف من التعذيب داخل السجون المصرية».

وفي رد على سؤال آخر لنفس المحرر (ثروت شلبي):

ما رأيك في قتل ابنك للإسرائيليين؟ قالت الأم:

طول عمرنا نعرف أن اليهود أعداؤنا – أولادي كانوا بيروحوا الجيش علشان يحاربوا إسرائيل ويقتلوهم وقبضوا عليهم.

أما إخوة سليمان – فقد شاركوا في الحروب مع الكيان الصهيوني – كما أن هناك ووفقاً لما توفر من معلومات تضامنا أسرياً واضحاً وحباً متبادلاً بين الإخوة.

هذه هي شخصية سليمان – شخصية أصيلة – شخصية بلده شخصية مصر التي عاشها – أضف إلى هذا أن سليمان عاش بنفسه مأساة قتل أطفال مدرسة بحر البقر على أيدي الطيران الصهيوني.

إن إضافة الأجزاء السابقة إلى بعضها تساعد إلى حد بعيد في رسم صورة لسليمان خاطر. فهو عاقل – وليس مجنونا كما ادعى المجانين – مهذب – محترم يعرف شغله – يؤدي واجبه – منظم يحرص على سلاحه – نظيف في غير تكلف – وسيم – طويل القامة – يحرص على الصلاة – يؤم الناس في المسجد لا يحب العلاقات غير الشريفة.

أي أنه شخصية ممتازة جمعت بين مميزات الإنسان الريفي وبين مميزات المجاهدين – كما أنه على علاقة قوية بالله تعالى. يخاف على بلاده من منطلق إسلامي يؤمن بالقدر ولا يخشى في الحق لومة لائم – يدرك أن البشر لا يستطيعون أن يقدما أو يؤخروا في عمره حساس رقيق أي أننا أمام شخص متزن – من أسرة متماسكة – محبة لبعضها – الأم صلبة وقوية ومتمسكة بدينها.

ليس هناك إذا ما يدعو لأن يكون معقداً – لا شخصياً ولا أسرياً ولا مجتمعياً. وهو شخص قيادي ويؤم الناس في الصلاة – معتز بنفسه يثور لأي مساس بعزته وكرامته وهذه صفات المسلم الحق.

الجزء الوحيد الذي ربما لا يكون متسقاً مع ذلك هو الجزء الخاص بالتقرير الطبي والذي جاء به:

إلا أنه يعاني من حالة عصابية شديدة عبارة عن خلفية اكتئابية مع حالات قلق شديد ورعب ومخاوف مرضية متعددة خاصة مع الظلام ومن رؤية الدم مع استعداد لحدوث حالات مؤقتة من الانفصال عن الواقع عند حدوث الانعصابات (الضغوط النفسية الشديدة).

وفي الواقع فهذا الجزء إن صح لا يشكل أي تعارض مع شخصية سليمان المتزنة العاقلة. بل هو مجرد عيب نفسي وكل الناس تعالى من العيوب النفسية وليس هناك شخص سليم ١٠٠٪ أضف إلى ذلك أن التقرير ذاته جاء به أن الرقيب سليمان خاطر ليس به مرض عقلي أو تخلف أو صرع ويعتبر مسئولا عن تصرفاته.

وعلى كل حال فأي ملم بشئ من الطب النفسي يدرك أن ما جاء في التقرير لا يعد مرضاً عقلياً أو تشوهاً في الشخصية وهذا كله إذا صح هذا التقرير على أساس أن هناك شكوكاً تدور حول أن الأطباء الذين أوقعوا الكشف الطبي على سليمان أرادوا أن يفتحوا ثغرة يمكن منها تبرئة سليمان يحرص على إظهار رفضنا للعدو الصهيوني أو تصرفاته اللاإنسانية وخاصة في تونس في ١ أكتوبر ١٩٨٥.

من ناحية أخرى فإنه لا تناقض بين إسلامية سليمان وحبه لمصر فهذا أمر بديهي اللهم إلا في أذهان المغتربين الذين يريدون تجريد الوطنية من بعدها التاريخي والجغرافي باعتبارنا جزءاً من الأمة الإسلامية – ويريدون قصر الوطنية على الإقليمية المصرية الضيقة الأفق.

الواقعة نفسها – كيف حدثت؟

هناك أجزاء من الواقعة اتفق الجميع عليها – سليمان – الشهود وهناك أجزاء أخرى مختلف عليها وحدث فيها تضارب.

وسوف نسرد الأحداث المتفق عليها – ثم نناقش الأجزاء المختلف عليها – كما سنناقش التفسيرات التي أعطاها المحللون للواقعة ذاتها.

ففي يوم ٥ أكتوبر ١٩٨٥ – قبيل الغروب – كان الجندي سليمان محمد خاطر في خدمته التي بدأت الساعة الثانية ظهراً – على نقطة مرتفعة عن الأرض ١٥٠ متراً. في مكان على هيئة صحن جلس الجندي سليمان وتحته الخليج - ومعه السلاح الذي كان جاهزاً ومعمراً كعادة سليمان دائما – صعدت مجمموعة من اليهود أكثر من «٧» – أطلق سليمان النار على اليهود. مات ٧ وجرح اثنان – كان القتلى هم كل من:-

شلاح عامان (ذكر) – بوم أمير (ذكر) – باري دينا (أنثى) – جريفل أنيتا (أنثى) – شيلا زيليل (أنثى) أوفرى توريل (أنثى) – شيلاك ايلانا (أنثى).

والجرحى كل من: أجود بوم (ذكر) – موشي بوم (ذكر) ونجا عدد آخر فر من المكان – فحصت الجثث في مستشفى نويبع المصري ولم تشرح وفقاً للتقاليد القانونية المصرية تم نقلها إلى إسرائيل سريعاً.

سلم الجندي سليمان خاطر نفسه إلى الرائد أحمد الشيخ بعد مكالمة تليفونية معه.

السلاح المستخدم هو البندقية الآلية رقم ١٢٢٣٤٠٨ عيار ٧.٦٢ × ٣٩.

أي أن هناك اتفاقا بين الجميع على أن العملية قد تمت في موقع خدمة سليمان التي ترتفع ١٥٠ متراً عن سطح الأرض.

وأن عدد ٧ قتلى – ٢ جرحى – فرار آخرين – أن الوقت كان إما مظلماً أو على وشك الإظلام.

أن الجثث لم تشرح في مصر.

الأشياء التي لم يتفق عليها الشهود وسليمان

هل قال سليمان للجندي عطية إبراهيم «انزل بلغ الضابط أن سليمان قتل أجانب، أم قال: «انزل بلغ الضابط أن سليمان سيقتل أجانب». أم أن شيئا من هذا لم يحدث أصلاً.

لقد قال الجندي عطية إبراهيم في التحقيق الذي أجرى بواسطة شرطة نقطة نويبع

بعد ساعات من الحادثة «إن سليمان قال انزل قول للضابط إن سليمان قتل أجانب» ثم عاد الجندي نفسه ليضيف حرف السين إلى كلمة قتل فجعلها سيقتل في التحقيق الذي أجرته النيابة العامة – ثم قال أيضا (سيقتل) أمام النيابة العسكرية – إلا أنه عاد وأنكرها وقال «قتل» في النيابة العسكرية بعد ذلك – وقد برر الجندي عطية إبراهيم ذلك في المرة الأخيرة أمام النيابة العسكرية قائلاً بأن كلام علي إبراهيم أحمد صح حيث أنني الذي أوعزت إليه أن يقول أقوالاً غير التي حدثت على أساس أن تتطابق أقوالنا. وقد اعترف الجندي عطية أيضاً بأنه لم يحدث أن قال للجندي سليمان خاطر إن هناك أجانب يريدون الصعود إلى الجبل وأنه قال له إنه يعتزم قتل هؤلاء الأجانب.

ص ٨٠ النيابة العسكرية

وفي رد الجندي عطية إبراهيم على سؤال وجهته له النيابة العسكرية هل معنى ذلك أنك طلبت من الجندي على أن يقول أقوالاً غير التي حدثت؟

- أيوة أنا قلت له بعدما سألني قلت إيه عشان أقول زيك.

س – ولماذا لم تقولا الحقيقة أنتما الاثنين؟

ج – مش عارف احنا ليه كذبنا وماقلناش الحقيقة.

ملحوظة: يلاحظ أن المتهم بكى وسألناه عن سبب ذلك فقرر أنه يبكي ندماً لأنه ليلة ما رحت السجن خرج سليمان وطلب من الحرس أن يسلم على وطبطب علي.

ملاحظة: تنازل سليمان عن حقه في مواجهة الجنديين وقال إنهما كانا أكثر وعياً منه في تلك اللحظة وربما تكون أقوالهم هي الأصح لأنه لم يكن يدري بما يحدث.

هل قال الأجانب لسليمان شالوم؟

وهذه نقطة أخرى اضطربت فيها أقوال الشاهدين السابقين. فقد قالا أولاً إنهم قالوا لسليمان شالوم ثم عادا وقالا إن ذلك لم يحدث وبرر عطية هذا بنفس التبرير السابق.

وبالطبع فإن هذا التضارب في أقوال الشهود أمر جوهري في القضية على أساس.

إنه إن صح أن الجندي عطية قد قال لسليمان – إن الأجانب يصعدون – وأنه قال لـه إنه سيقتل الأجانب وطلب منه أن يذهب إلى الضابط ليخبره بذلك وأن الأجانب قالو شالوم« لسليمان. معنى هذا أن هناك سبق إصرار ووعياً كاملاً من سـليمان – كمـا أن سليمان قد عرف جنسية هؤلاء الأجانب بأنهم يهود من كلمة شالوم، «بالعبرية تعنـي التحية» – وهذا كله يجعل أقوال سليمان غيـر متماسـكة – أمـا إذا كـان هـذا مجـرد اختلاق من الجندي عطية والجندي علي فنحن هنـا أمـام أقـوال متماسـكة لسـليمان وموقفه يكون أفضل هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وهذا هو المهـم. هـل تضـارب الشاهدين كان بسبب ضغط خارجي ولماذا. أم كان بسبب محاولة كل منهما دفع أي شبهة عن نفسه.

وفي الواقع فإن وجود سبب خارجي قد تبناه بعض المحللين ومنهم الأستاذ أحمد عز الدين (جريدة الشعب) ١٧/ ١٢/ ١٩٨٥. وقد قال الأستاذ أحمـد عـز الـدين هـل يمكن أن نجزم بعد ذلك بأن هناك أصابع أجنبية تبدو واضحة خلف هـذه المحاولـة المركبة؟ ونحن نضم صوتنا إلى صوته في التساؤل – وإن كنا نميـل إلى تفسـير الـدافع على كذبهما من أنه محاولة للإفلات من أي مسئولية ولو صغيرة. وقد ندما على ذلـك واعترفا بالحقيقة مما يجعل هذا التضارب في النهاية قد حسم لصالح أقـوال سـليمان خاطر.

علامات استفهام واسعة

جاء بأقوال الشهود أن هناك كاميرا كانت موجودة لدى اليهـود الـذين صـعدوا – فأين اختفت هذه الكاميرا ولماذا اختفت؟

- لماذا تواجد المستشار السياسي للسفارة الإسرائيلية بالقاهرة على بعـد أمتـار من الحادثة – وهل كان ذلك من قبيل الصدفة؟

- لماذا صعد هؤلاء اليهود إلى تلك الربوة العالية مع آخر ضوء من النهار؟ وما علاقة السياحة بالظلام؟!.. وخصوصاً أن المنطقة خطرة بالنظر إلى نشاط الـذئاب في ذلك الوقت!!

- وكيف نقبل أن يتسلق السياح ومعهم أطفال مرتفعاً قدره ١٥٠ متراً في الظلام!!

جاء بأقوال سليمان بأن نقطة الحراسة كان بها أجهزة يخشى من معرفة العدو لها – ولعل ما يؤكد ذلك أن أول أمر أصدره قائد النقطة هو سرعة تفكيك جهاز الإرسال من أعلى – بل والأكثر من ذلك أن سليمان خاطر ظل يصرخ فوق الجبل «اقفلوا الطريق – عشان محدش يبلغ إسرائيل – والبلد تنضر».

ما هو السر في اهتمام المستشار السياسي للسفارة الإسرائيلية بالاتصال بإسرائيل أكثر من اهتمامه بالجرحى؟

لماذا تم رفع الجثث والفوارغ والطلقات، دون تعليمات النيابة كما هو المتبع وفقاً للقوانين المصرية؟!

التصور المنطقي للحادث

في رأينا الشخصي – وليس هذا إلا مجرد اجتهاد – أن التسلسل المنطقي للحادث كان كالتالي:

- سليمان شخصية عاقلة. سوية – علاقته قوية بالله سبحانه وتعالى مهتم بشؤون وطنه بدوافع إسلامية. يكره اليهود كراهية شديدة وفقاً لثقافته الدينية. «نشرت لسليمان صور عديدة التقطت له قبل الحادث. منها صورة يمسك في إحدى يديه كتاب الله وبيده الأخرى بندقية آلية – وصور أخرى يرى في خلفيتها على البراميل كلمات وقع تحتها سليمان خاطر مثل. لا إله إلا الله محمد رسول الله – الله أكبر – مصر أولاً وفوق الجميع – الله غايتنا – والإسلام ديننا – والرسول زعيمنا – والموت في سبيل الله أسمى أمانينا»

سليمان يعرف واجبه جيداً. يحرص على سلاحه نظيفاً ومعمراً دائما – يدرس بالجامعة – أي أنه مهتم بشؤون وطنه وقضايا أمته – من قرية أكياد. أي أنه شاهد مآسي الانسحاب في ١٩٦٧ ومآسي التهجير.

شاهد بنفسه مذبحة بحر البقر التي قام فيها الطيران الصهيوني بدك الأطفال وقتلهم في المدرسة الابتدائية ببحر البقر – وبما أنه جامعي فقد قرأ عن الصراع مع الصهاينة – عرف شيئا عن مذابح دير ياسين – صابراً وشاتيلا – قرى الجنوب اللبناني – وجرائم اليهود التي لا تنقطع على أمتنا قرية أكياد ذاتها بما أنها جزء من محافظة الشرقية فبالتأكيد تحمل جواً جهادياً على أساس أنها محطة المجاهدين من وإلى القناة ضد الإنجليز وضد اليهود. وبما أنه متدين فهو يرفض السلام مع إسرائيل.

بالطبع كل هذا في عقل وقلب سليمان يجعله يتمنى الانتقام من اليهود إذا حانت الفرصة – أضف إلى ذلك أن سليمان لمس بنفسه الإفساد الصهيوني لأبنائنا في سيناء – وقرأ عن شبكات التجسس الصهيونية في بلادنا التي تحدثت عنها صحف المعارضة – وبالتأكيد فقد عرف عن قرب كيف يتم التعاون مع بعض قليل الذمة والخلق لتهريب المخدرات عبر سيناء. وأكثر من ذلك يعرف بحكم موقع عمله كيف أن اليهود لا يكفون عن التجسس تحت ستار السياحة – جاء في أقوال سليمان «أن الرائد أحمد الشيخ – ومدحت طه بس هما الناس اللي في سيناء شغالين وما حدش شغال غيرهم – وكله عمال بيشتغل مع الأجانب وهيضيعوا البلد وشغلوا عليهم المخابرات وشوفوهم بيروحوا فين». **تحقيقات النيابة العسكرية**

وجاء بأقواله أيضاً «ممكن شاب ثاني يسيب نفسه أمام الحاجات دي زي ما حصل قبل كده على حدود طابا وكانوا بيعدوا ويخشوا الشاليهات وأنا سمعت إن واحدة عملت مسطولة ودخلت نامت في الشاليه اللي فيه جهاز الإشارة وطبعاً دي جاية مأمورية وأخذت التردد أكيد ومشيت».

في يوم ٥ أكتوبر ١٩٨٥ – الساعة الخامسة مع آخر ضوء. كان الجندي سليمان محمد خاطر في خدمته الأخيرة حيث كان من المقرر أن ينهي خدمته العسكرية يومها. صعد إلى نقطته المرتفعة ١٥٠ متراً عدد من الأجانب – معهم كاميرات. عرف سليمان أنهم يهود. دار في عقل سليمان شريط سريع عن جرائم اليهود مع أمتنا وآخرها ما حدث في تونس في ١ يوم أكتوبر ١٩٨٥. قدر سليمان وفقاً لخبرته السابقة أن هؤلاء جاءوا للتجسس. فما الذي يدفعهم إلى الصعود في آخر ضوء – والظلام

قادم. ومعهم كاميرات هل جاءوا في آخر ضوء لينسحبوا بعد أداء مهمتهم في جنح الظلام.

كان بالنقطة جهاز إرسال هام يجب إخفاؤه عن العدو لمصلحة البلد – كان أمام سليمان عدد من الخيارات – إما أن يتركهم مثلما يفعل الآخرون أو يكون رجلا ويؤدي واجبه الذي يمليه عليه دينه ووطنيته – هل يجب عليه في تلك اللحظة أن يفكر في نفسه أم يفكر في أمته. يجب أن يفكر في أمته. هل يستطيع أن يمنعهم بدون قتلهم – وحتى إذا نجح فهو يعرف أنهم سيعودون بأكثر من وسيلة. ثم إنه سينهي خدمته – وهذه فرصته يجب ألا يفوتها للانتقام لأطفال بحر البقر – صبراً وشاتيلا. هل يكون إطلاق النار عليهم هو الحل الوحيد كيف يمكن تنبيه الغافلين في أمتنا على حقيقة ما يحدث في سيناء خصوصاً ومصر عموماً يجب أن يكون صوته من خلال البندقية وإلا فلن يسمعه أحد. هل يسبب ذلك تعقيدات دولية لمصر – وهل هناك أكبر وأخطر من ترك هؤلاء يفعلون ما يفعلون. هل قتل العزل حرام بالنسبة للساكنين في أرض فلسطين المغتصبة فالجميع حلال الدم – وإلا فلماذا لا يعودون إلي بلادهم ويتركون لنا بلادنا والمغتصب سواء كان مسلحاً أو أعزل هو حلال الدم. اتخذ سليمان القرار. سلاحه كان جاهزاً – فرغه في هؤلاء المغتصبين – عمر الخزنة الثانية وفرغها أيضا والثالثة. أحس سليمان أن الله راض عنه وأنه أدى واجبه.

جاءوا لإخلاء القتلى – عرض مساعدته. قالوا له لا داعي اتصل بالرائد أحمد الشيخ – سلمه نفسه – رفض الجندي المعين حراسة له أن يحمل خلفه بندقية.

تفسير بعض التناقضات وفقاً لإجتهادنا الشخصي

- لماذا تم رفع الجثث والفوارغ والطلقات قبل أمر النيابة؟! ربما كان ذلك اجتهاداً شخصياً من القوة المصرية لإعادة تصميم مسرح الجريمة بما يتفق ومصلحة القوة حتى لا تطول المسئولية أحداً غير سليمان أو ربما لتخفيف المسؤولية عن سليمان ذاته.

- لماذا ادعى نائب المأمور المقدم حسن خلف عاشور أنه حاول إقناع

سليمان بتسليم نفسه.. ربما ليدفع عن نفسه المسئولية.

- هل من الصدفة تواجد المستشار السياسي للسفارة الإسرائيلية قرب الحادث؟!

- ليس صدفة بالطبع – بل جاء يشرف على أهم عمليات التجسس التي استهدفت النقطة التي كان فيها سليمان خاطر. وعمليات التجسس تجري على قدم وساق بإشراف السفارة الإسرائيلية. ليس التجسس فقط ولكن للإفساد أيضا. ليس في سيناء وحدها ولكن في مصر كلها.

- لماذا اهتم الملحق السياسي الصهيوني بالاتصال بإسرائيل قبل الاهتمام بالقتلى والجرحى؟! لتدبير أمر إخفاء معالم التجسس – وخصوصاً أن الكاميرا اختفت وربما هناك أجهزة أخرى تم تهريبها على عجل ولا نعرف ما هي.

- لماذا أصر سليمان على تسليم نفسه للرائد أحمد الشيخ بالتحديد؟

يبدو أن الرائد أحمد الشيخ كان يتمتع بثقة الجميع وهو وفقاً لرواية سليمان هو وزميل له آخر هم وحدهم الشغالين – وهي تعني وفقا لرواية سليمان أنهم هم الذين لا يقعون فريسة للإغراء الصهيوني المادي والجنسي وبالتالي فهم يحاولون على قدر الإمكان تقليل نسبة الاختراق الصهيوني والتصدي له. كما أن الرائد أحمد الشيخ وفقاً لرواية سليمان شخص آمين وبالتالي فهو وحده المؤهل لحمل بيان سليمان إلى العالم الإسلامي والعربي ومصر. ومن المعروف أن كل قضية سياسية يحرص القائم بها على إصدار بيان يوضح فيه بواعثه وأهدافه وإلا فلا قيمة لها. وهكذا فقد قال سليمان للرائد أحمد الشيخ بياناً كالتالي «إن الأجانب بيعدوا عرايا. واحنا بلد مسلمين ودي حاجة تتنافى مع الدين والإسلام» وقد كان أحمد الشيخ أميناً فنقلها كما هي. وأصر عليها مرتين في التحقيق.

- لماذا حاول سليمان إلا دعاء بأنه لم يكن مدركاً لما يحدث أثناء إطلاق الرصاص عليهم؟ الأمر الذي لا يتفق مع تحقيق الفائدة السياسية للحادث؟

يبدو أن ذلك يرجع إلى أن سليمان أحس بعد تسليم نفسه أن هناك تعاطفاً واسعاً معه على مستوى الجنود والضباط والنيابة العسكرية بل ورئاسة الجمهورية ذاتها والأطباء العسكريين والأحزاب والقوى السياسية ويبدو أن هذا التعاطف قد نقل له عن طريق الحراس كما أن الجميع كان يعامله كبطل وليس كمتهم – الأمر الذي جعل سليمان يفكر في إمكانية تبرئته أو صدور حكم مخفف جداً عليه. وقد راعى سليمان ألا يكون ذلك على حساب الأثر السياسي للحادث في أقواله التي أدلى بها – وكان تكتيكه أن رسالته قد فهمها الجميع وأن طريقته في الدفاع ستفهم لدى الجميع على أنها محاولة ذكية – وهي في الواقع كذلك – للإفلات من قبضة المحكمة مادام الجو ملائما لذلك. وفي رأينا الشخصي أن سليمان قد وجد تشجيعاً على ذلك من الجميع – فالمتعاطفون معه يهمهم تبرئته أساساً وخصوصا أن ذلك لن يؤثر على مضمون عمله السياسي – كما أن الحكومة أيضاً يهمها ذلك على أساس أن ذلك يخفف من اشتداد المعارضة للسلام مع إسرائيل ويقلل حجم الزخم المترتب على إصرار سليمان على تسييس القضية داخل أروقة المحكمة. كما أن ذلك يعطي الحكومة فرصة عدم إعدامه لأن إعدامه سيترتب عليه آثار سياسية واسعة على المستوى الشعبي قد تسبب مشاكل لا حصر لها للحكومة خاصة في هذه الظروف وخاصة أن هناك الآن صحافاً معارضة وحرية كبيرة تسمح بتحويل القضية إلى قضية بين الشعب والحكومة.

وفي الواقع فإن الحكومات تحرص على تخفيف الزخم السياسي لأي قضية والدليل على ذلك أن المشير عبد الحليم أبو غزالة كان قد صرح إبان اغتيال السادات. بأن عملية الاغتيال لا تحمل أبعاداً سياسية وأن الذين قاموا بها ليست لهم ارتباطات سياسية خاصة – إلا أن مجريات الأمور قد أسقطت هذا التفسير فيما بعد خاصة بعد أحداث أسيوط وإصرار المتهمين على تسييس القضية ورفض محاولات الدفاع عنهم عن غير الطريق السياسي.

وفي الواقع فإن كان هذا التفسير صحيحاً. فهو تكتيك جيد من سليمان خاطر – لأن لكل قضية ظروفها – وإذا كان هناك إمكانية حقيقية في الإفلات فلا مانع من

الإستفادة بها مادام ذلك لا يؤثر على مضمون الحدث بصورة رئيسية إلا أن الدراسة المتأنية لمجمل القضايا السياسية في مصر يعطينا الانطباع بأن سليمان خاطر لو تمسك في أقواله بمسئوليته عن العمل وإدراكه ووعيه له وأن سبب قيامه به كان يرجع إلى ضرورة المحافظة كجندي على ما تحت يده من أجهزه لا يجب اطلاع العدو عليها مهما كان الثمن – وأنه لم تكن هناك طريقة أفضل من ذلك لأداء هذا الأمر – ربما كان الحكم أفضل بالنظر إلى أن الأحكام في القضايا السياسية مرتبطة بعدد من العوامل خارج قاعة المحكمة يأتي على رأسها التضامن الشعبي – ولكن على كل حال. فقد كان سليمان بطلاً بكل المقاييس لأنه عبر في لحظة تاريخية عن ضمير أمة.

محاولات للتشويش على بطولة سليمان

كانت رسالة سليمان خاطر إلى الأمة من القوة والوضوح بحيث أنها كانت كالشرارة التي اندلعت بين الجماهير فأحدثت تفاعلاً وتلاحماً أدى إلى أن تقف الأمة لها صفاً واحداً خلف سليمان. وكانت أحداث جامعة الزقازيق – بل ومدن الشرقية كلها ومعظم مدن وقرى مصر من القوة والصمود مما دفع الصحف القومية إلى الخروج عن صمتها في محاولة لتطويق الحالة التي ظهرت حتى لا تتحول إلى ثورة شاملة.

فبعد استمرار انتفاضة الزقازيق ستة أيام متواصلة بنفس القوة بل وزيادة. خرجت عدة صحف قومية بأقلام كبار كتابها مثل إبراهيم سعده – محفوظ الأنصاري – مكرم محمد أحمد – صلاح منتصر في محاولة تفتقر إلى الموضوعية والاحترام للتقليل من شأن العمل الذي قام به الجندي البطل سليمان خاطر – وسحب الرصيد السياسي للحادث وتطويق الآثار الإيجابية للحادث على مستوى النضال الشعبي في مصر والعالم العربي والإسلامي وكانت أبعاد المحاولة كالتالي.

- أن الصحف المعارضة قد صورت الأمر على غير حقيقته نظراً لسكوت وتجاهل الصحف الحكومية للموضوع.

- أن الضغوط الشعبية للتضامن مع سليمان خاطر تدخل في صميم عمل

القضاء المصري – وأنها دعوة للفوضى وتقلل من مصداقية استقلال القضاء المصري أمام العالم.

- إنه ليس هناك بطولة، بل عمل جبان تم فيه إطلاق الرصاص على مجموعة من العزل – النساء – والأطفال بلا مبرر من شخص لا يدرك ما يفعل ولو لحظياً.

- أن سليمان خاطر لم يتعرض لأي شكل من أشكال التعذيب أو الضغوط أثناء التحقيق معه.

- أن القضاء العسكري – هو القاضي الطبيعي أمام سليمان خاطر.

- أن هناك محاولات تتستر وراء الدين تحاول استثمار قضية سليمان خاطر.

- أن هناك من الإحباط العام لدى القوى السياسية يجعلها بعد إفلاسها ويأسها تبحث عن أي بطل – ترفعه إلى السماء، تهتف بحياته – تمشي خلفه – تفرغ فيه وله شحنات عواطفها المكبوته تعلق فوق أكتافه وحول رقبته «عقود أحلامها الضائعة»، وأن الحكومات المهانة – والقوى السياسية العاجزة – جعلت من سليمان المهدي المنتظر الذي سينتشلهم من عجزهم وسيخرجهم من عزلتهم.

- أن على الجانب الإسرائيلي عناصر متطرفة – تريد الانتقام ويجب ألا نعطيهم الفرصة.

- أن تركيبة سليمان التي جاءت من خلال معرفة حياته وأقواله في التحقيق لا تؤهله لدور البطل – بل هو مجرد إنسان عادي. حساس. رقيق.

- أن هناك إجماعاً على القرف من إسرائيل ومن ممارستها وقد ظهر ذلك في صورة التضامن مع سليمان.

مناقشة الأفكار والتحليلات السابقة

- بالنسبة لسكوت الصحف القومية عن نقل صورة أمينة!! للقضية مما جعل صحف المعارضة تنسج من خيالها صورة غير حقيقية للأمر كله – نرد على ذلك بسؤال. لماذا سكتت!! هل منعها أحد!! – ثانياً متى كانت الصحف القومية أمينة!!

- بالنسبة للتضامن الشعبي مع سليمان على اعتبار أنه تدخل في عمل القضاء – وأنها دعوى للفوضى – وأنها تقلل من مصداقية القضاء المصري أمام العالم.

أولا: ليس شرطاً أن يكون التضامن مع سليمان خاطر محاولوة للضغط على القضاء والدليل على ذلك أنه في كل دول العالم تتناول الصحافة قضايا كثيرة معروضة على القضاء دون أن يتهمها أحد بذلك.

ثانيا: أننا نؤمن ونطالب باستقلال القضاء بل نعتبره الإيجابية الرئيسية للحكم الحاضر ولكننا في الوقت نفسه نسأل الصحف الحكومية – ما دام أمر استقلال القضاء يهمكم إلى هذه الدرجة وأن العدل أصبح يجري في دمائكم وتطالبون بتوقيع عقوبة على كل من اقترف ذنباً. فأين هذه الحمية بخصوص الذين عذبوا الإنسان المصري حتى الموت أو دون الموت أو كليهما – وهل الاعتداء على اليهودي فقط هو الذي يستفزكم – نريد منكم حملة لمحاكمة المتهمين في قضايا التعذيب.

وثالثا: لماذا لا نعتبر أن التضامن الواسع مع سليمان خاطر هو الضمان الحقيقي لاستقلال القضاء على أساس أن ذلك يمنع الضغوط الأمريكية والصهيونية من التدخل في القضية في محاولة للتأثير على القضاء المصري.

- بالنسبة لكون سليمان لم يتعذب ولم يتعرض لأي شكل من أشكال الإكراه – نعم نعترف بهذا ونسجله لصالح القضاء العسكري والنيابة العسكرية – ومعاملة الإنسان وفقاً للحقوق التي أعطاها الله له – ونرجو أن يحتذى جهاز أمن الدولة بذلك.

- بالنسبة للقضاء العسكري – هل كان هو القضاي الطبيعي بالنسبة لسليمان – نعم هو القاضي الطبيعي – وإن كان في الوقت نفسه لم يسمح للمراسلين بالحضور – ونعتبر بأن المعارضة أخطأت عندما طالبت بنقله إلي القاضي المدني – وأظن أن جماهير الزقازيق كانت أكثر صدقاً وحماساً ووعياً حينما طالبت بالإفراج الفوري عن سليمان خاطر. ليس لأنه أمام قاض غير طبيعي ولكن لأنه لم تكن هناك جريمة أصلاً من ناحية أنه كان يجب إجراء تحقيق مبدئي قبل توجيه التهمة لسليمان على أساس

أنه تصرف التصرف الطبيعي – ومن ناحية ثانية أنه من الواجب محاكمة سليمان وفقاً للشريعة الإسلامية هذا إذا ثبت أن هناك تجاوزاً منه – والاعتراض الرئيسي كان على اتخاذ الإجراءات بهذه السرعة وبهذه الطريقة مما يوحى بأن هناك رغبة في إرضاء الصهاينة وليس إجراء العدل. ومرة أخرى فإن المعارضة لم تكن على مستوى وعي الجماهير.

- إن سليمان ليس بطلا – بل هو مجرد إنسان عادي. حساس رقيق – أو أنه ليس بطلا باعتباره قتل مجموعة من العزل. بالطبع كانت هذه أسوأ الأجزاء في دفاع الصحف الحكومية عن موقف الحكومة. وهذا الأمر يذكرني بقول السادات ذات مرة للصحفيين عندما تجاوزوا الحدود في الدفاع عن إسرائيل إنه يريد مؤيدين للسلام – لا عملاء لإسرائيل – ومن الطبيعي أن نغضب نحن هنا من أجل سليمان.. ونرد على تلك الأقلام ببديهية صغيرة. إن الشخص الحساس – الرقيق بالتأكيد هو الأرض الخصبة للبطولة ثم إن البطولة لا تحتاج إلى سوبرمان ليؤديها – بل أي شخص عادي يأخذ موقفاً صحيحاً في لحظة تاريخية يخدم به قضية أمته – ويدافع عن شرفها هو في الواقع بطل. وبطولة سليمان تنبع من أنه عبر بصدق عن وجدان ١٢٠٠ مليون مسلم في العالم – وكل المستضعفين في مواجهة الاستكبار والعنصرية – حتى وإن كان قتل عزلاً فالحقيقة أن كل من يسكن فلسطين المحتلة من اليهود المهاجرين وأولادهم – ووفقاً لهدف الهجرة والاستقرار في فلسطين هو حلال الدم قطعاً – أعزل أم مسلحاً وأن الحل الوحيد أمامه هو العودة بأولاده من حيث جاء – فليس من الطبيعي أن يحتلونا ثم يقولون نحن عزل، أو فرقوا بين الأعزل والمسلح، إن الجميع في الكيان الصهيوني جزء من آلة الاستيطان والاحتلال والعنصرية وإرادة تدمير حضارة أمتنا وتشريد شعوبنا وهنا نقطة غابت عن هؤلاء دلالتها، أن مسئولين كباراً جداً أعربوا عن تقديرهم لسليمان – بل إن بعضهم قد عانقه وقبله.

- بالنسبة لكون البعض قد خلط شعوره بالقرف تجاه ممارسات إسرائيل بشعوره بالتضامن مع سليمان – فهذا أمر طبيعي أو ليس سليمان جزءاً من الرد على الممارسات الصهيونية.

- بالنسبة للتحذير الخاص بوجود عناصر متطرفة في الكيان الصهيوني تريد انتهاز هذه الفرصة لضرب مصر واحتلال سيناء وهذه النقطة بالذات تعد في حد ذاتها كارثة تستدعي التحقيق مع هؤلاء الذين كتبوها إما أنهم عملاء أو أنهم مغفلون – وكيف يصبح المغفلون رؤساء تحرير!! – إن هناك بديهية يعرفها أصغر مشتغل بالسياسة أو الفكر أو حتى الصراع العائلي وهي أن التنازل لا يؤدي إلا إلى مزيد من التنازل. وأن محاولة إرضاء عدو كاليهود بهذه الطريقة لن يزيده إلا عدواناً. ولن يمنعه من ضرب مصر أو احتلال سيناء. وأية قراءة في تاريخ اليهود في المنطقة يثبت ذلك كان على هؤلاء إن كان حقاً يهمهم حماية أرض مصر وسيناء أن يهتموا بالاستعداد العسكري، وأن يحيوا ما فعله سليمان خاطر باعتباره قد تصدى للاختراق الصهيوني الذي يمارس جهاراً نهاراً بهدف إضعاف مصر دائماً، كان على هؤلاء أن يفهموا أنه لا التطرف ولا الاعتدال هو الذي يحكم قراراً مثل هذا بقدر ما هو مصالح إسرائيل من وجهة نظر قيادتها وقوة مصر التي هي الرادع الوحيد وليس محاولة إرضاء المتطرفين أو المعتدلين.

- بالنسبة للإحباط العام الذي تعانيه الحكومات والمعارضة في المنطقة على حد سواء مما جعلها تبحث عن بطل – وجدته في سليمان – ففي الواقع هذه كلمة فيه شيء من الحقيقة وأجزاء ضخمة من الكذب والتضليل – فصحيح أن الحكومات والمعارضة العلمانية تعاني حالة من الإحباط واليأس وعدم القدرة على التفاعل والاستجابة للتحديات التي تواجهها وشعوراً متزايداً بالعجز جعل أحد الشعراء السوريين ينتحر إبان الاجتياح الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢. إلا أن ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق بالنسبة للجماهير التي تعرف دائماً طريقها وتمتلك حيوية مذهلة – تستمدها من الإسلام والدليل على ذلك أنه برغم أن كل الصحف من كل الاتجاهات قد تكلمت عن حالة اليأس العربي أو العجز العربي أو مرحلة السقوط العربي... إلخ فإن الجماهير المسلمة والمقاومة الإسلامية قد استطاعت أن تحقق ضربات مذهلة لكل القوى مجتمعة أمريكا – فرنسا – إسرائيل – الكتائب – العجز العربي أو التواطؤ العربي ليس هذا فحسب بل أنها استطاعت أن تجبر إسرائيل على

الانسحاب من الجنوب اللبناني مرغمة بل وأن تحدث شروخا هامة لبنية المجتمع الصهيوني – هذا بالإضافة إلى أن الحركة الإسلامية قد استطاعت أن تحقق انتصارين من أكبر الانتصارات في المنطقة في أقل من عشرة أعوام هما قيام الثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩ – اغتيال السادات ١٩٨١.

بل هناك أيضاً ذلك الصمود الإسلامي المذهل لشعب أفغانستان – وثورة شعب السودان على نميري والإطاحة به إبريل ١٩٨٥. أضف إلى ذلك اغتيال الملحق الإداري الصهيوني في القاهرة – محاولات نسف لسفارة الإسرائيلية في مصر عدة مرات.

إذ فلا عجز إلا في صفوف القوى الملفوظة من الشارع العربي «الحكومات – المعارضة العلمانية» – وفي الواقع فإن هذه لم ولن تحقق يوماً أي انتصار بسبب طبيعة تركيبها وتوجهاتها المعادية لوجدان الأمة.

التضامن الشعبي مع سليمان خاطر.. محاولة للفهم والتحليل

المتابع المدقق سيكتشف للوهلة الأولى أن الجميع كان قلبه مع سليمان خاطر – كل القوى بلا استثناء – حتى الحكومة المصرية. أجهزة القضاء العسكري – قيادات الجيش – الصحف العربية – الجماهير العربية – شعوب العالم الإسلامي – كل المستضعفين في العالم – ولكن في الواقع ليس كل من كان قلبه مع سليمان فإن سيفه كان معه. كما أن دوافع كل من هؤلاء كانت مختلفة.

الحكومة المصرية، كان قلبها مع سليمان، ولكن سيفها كان في عكس الاتجاه – قلبها كان مع سليمان باعتبار أن عناصر الحكومة ليسوا إلا أفراداً مسلمين في النهاية لهم مشاعر كل المسلمين وإن كانت كامنة – كما أن الغيظ والإحراج الذي تسببه ممارسات إسرائيل للحكومة المصرية يجعلها بالتأكيد محتاجة إلى عمل من مثل ما قام به سليمان – أما لماذا كان سيفها على سليمان فلأسباب أمريكية وعسكرية واقتصادية وكامب ديفيدية – وهي أمور يجب أن تتحرر الحكومة المصرية منها. والقوى السياسية في مصر والعالم العربي والإسلامي – انقسمت قسمين القسم

العلماني من تلك القوى وهو عبارة عن دوائر صغيرة من المثقفين وأحزاب بلا جماهير. وهذه اكتفت بالبيانات أو التوقيعات أو جمع التبرعات – ودوافعها كانت مثلما قالت الصحافة القومية المصرية تبحث عن مخلص يخلصها من عجزها ويأسها وحالة الأحباط التي تعانيها – وقد تراوحت مواقفها «البيانية والصحفية طبعاً» بين الحماس لسليمان أو ادعاء الحماس لسليمان ولكل أسبابه وسوف نضرب مثلاً على ذلك بموقفي حزب الوفد – والتجمع في مصر – حزب الوفد مثلاً ولأنه مشارك في الحكومة ولو بطريقة غير رسمية ويحاول إرضاء نفس القوى التي تحاول الحكومة إرضاءها – تأخر جداً في إظهار التأييد لسليمان خاطر – ثم جاء تأييده بعد أن كان لابد من التأييد أو السقوط وإن كان فاتراً – الأكثر من ذلك أن صحيفته – رفضت نشر بيان بمطالب طلاب جامعة الزقازيق المنتفضين أبان انتفاضتهم – كما أنه لم يصدر بيان رسمي بموقف الحزب حتى الآن – وإن كان هناك بيان فيبدو أنه بيان سري لم ينشر!!

أما جريدة حزب التجمع فقد تحمست لسليمان – ولكن بشرط واحد أن يكون التضامن معه صحفياً وداخل إطار مقرات الأحزاب فقط – بل إن خالد محيي الدين رفض الذهاب إلى الأزهر مع المهندس إبراهيم شكري للتضامن مع سليمان خاطر – كما رفض الذهاب إلى أكياد ليلة إصدار الحكم كما فعل المهندس إبراهيم شكري رئيس حزب العمل. وفي الحقيقة فإن صحيفة الأهالي تحمست لسليمان خاطر باعتبار أن من أهدافها إسقاط كامب ديفيد وعمل سليمان يأتي على هذا الخط – وإن كان هناك علامات استفهام قد ظهرت حول جدوى مقاومة ومعارضة كامب ديفيد إذا كانت هناك موافقة على قرار ٢٤٢، مبادرة روجرز على أساس أنه قرار ٢٤٢ أسوأ من كامب ديفيد باعتراف ياسر عرفات ذاته الذي أيد القاهرة ولم يؤيد قرار ٢٤٢ في أكثر من مناسبة.

على كل حال فقد كان المد الجماهيري الواسع هو السبب الرئيسي في حماس التجمع والوفد لقضية سليمان خاطر وإن كان هذا التحمس قد جاء بطريقة «طبيخ المرأة لضرتها». يبقي أن نقر حقيقة وهي أن الفضل يرجع لجريدة الأهالي في كشف

تمسك سليمان بالإسلام وكذلك تمسك أسرته بالإسلام وذلك عن طريق التحقيق الذي قام به ثروت شلبي – أو نشر أجزاء من محضر التحقيق مع سليمان خاطر والأسباب كانت صحفية طبعاً.

وكذلك يرجع الفضل لجريدة الوفد في إظهار الجذور الإسلامية لسليمان خاطر عندما نشر أيمن نور – الصحفي بالجريدة – تحقيقاً وصورة لسليمان خاطر وهو ممسك بيده كتاب الله – وبيده الأخرى سلاحه. «وأيضا كانت الأسباب صحفية».

وإن كانت الصحيفتان لم تقبلا أيضا نشر مطالب طلاب الزقازيق أو المنصورة أو القاهرة برغم إرسالها لهم بالبريد المسجل – كما أن الصحيفتين تجاهلنا تسجيل الشعارات التي رددها المتظاهرون برغم مخالفة هذا للقواعد الصحفية. كما تجاهلت الصحيفتان صوراً لسليمان خاطر أظهرت أنه كتب على البراميل خلفه – الله أكبر «لا إله إلا الله – الله غايتنا والرسول زعيمنا – الإسلام ديننا – والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

والشيء الذي ينبغي تسجيله هنا هو أن أكثر الأحزاب تضامناً مع سليمان خاطر كان حزب العمل وخاصة المهندس إبراهيم شكري والمستشار الدمرداش العقالي نائب رئيس الحزب وكذلك أمين الشباب بالحزب مجدي أحمد حسين ورئيس تحرير جريدة الشعب «عادل حسين» – وإن كانت أيضا هناك الكثير من التحفظات على تغطية الجريدة للأحداث ويبدو أن ذلك الصدق في التضامن يرجع إلى أن الحزب ليس علمانياً – أو هي محاولة لإثبات شراسة الحزب وقوته في المعارضة وهو المتهم بأنه حزب كان قد أيد كامب ديفيد يوماً – أو أنه نشأ بقرار ساداتي – أو قبل التعيين في مجلس الشعب ١٩٨٤.

الجماهير المسلمة تنتفض

في الواقع أن القضية الوطنية وتحديد قضية الصراع مع الكيان الصهيوني هي القضية ربما الوحيدة التي كانت مواقف الحركة الإسلامية دائماً في منتهى القوة والحسم والوعي ولعل ذلك يرجع فيما يرجع إلى الموقف القرآن الواضح ضد

اليهود – وإلى التراث الإسلامي المفعم بالكراهية لليهود بسبب مؤامراتهم على الرسول ﷺ وعلى الأمة الإسلامية دائما.

وفي الحقيقة فإنه إذا كانت الحركة الإسلامية دائما قد أخذت موقفاً مبدئياً ثابتاً من الصراع مع اليهود سواء في الثلاثينيات أو الأربعينيات أو الخمسينيات أو الستينيات أو السبعينيات أو الآن كالتالي:-

- ضرورة إزاحة اليهود من كل فلسطين.
- رفض كافة أنواع الحلول الوسط – المساومة – التفاوض عقد الاتفاقات – أي شكل من أشكال التعايش.
- اعتبار الكفاح المسلح هو الحل الوحيد للقضية.
- اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية.

ولعل ذلك الموقف الواضح وعشرات المعارك التي خاضتها الجماهير المسلمة أو عناصر الحركة الإسلامية بدءاً من عز الدين القسام وما قبله وانتهاء بسليمان خاطر – ذلك الموقف الذي يستند إلى وجدان شعبي صريح وقاطع قد جعل القوى الأخرى تحاول التمسك بشيء من الصلابة على عكس أيديولوجيتها فاليسار يحاول يائسا أن يلحق بقطار الرفض وهو الذي قاتل إلى جانب اليهود في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات.

واعترف بالكيان الصهيوني سريعاً – ووافق على قرار ٢٤٢، مبادرة روجرز – الاتفاق الأردني الفلسطيني – إعلان القاهرة.. إلخ – مما جعل بعض المفكرين من أمثال الأستاذ طارق البشري يتهم اليسار بأنه صنيعة الصهيونية بل جاء بالتحديد لخدمتها.

وكذلك اليمين العلماني الذي لم يشارك ولن يشارك في مواجهة إسرائيل بسبب ارتباط مصالحه بمجمل مصالح الاستعمار الأمريكي. كل هذا جعل من الطبيعي أن تكون الجماهير المسلمة تفهم رسالة سليمان خاطر وتعتبره أحد رموزها وتدافع عنه

باعتباره أحد أبنائها وأحد رموزها.

وقد ظهر ذلك جلياً في الوجدان الشعبي الذي راح يتكلم عن سليمان باعتباره رجلاً مسلماً رفض الإغراء الجنسي وأطلق النار على اليهود ولم يقبل أن يتركهم يعرفون أسرار جيش مصر وكذلك في الانتفاضات العارمة التي شهدتها معظم مدن مصر وخاصة الزقازيق. وفي هذا الصدد. فقد أصدرت الاتحادات الإسلامية الطلابية بياناتها للإعراب عن التضامن مع سليمان خاطر. كما حدثت تظاهرات طلابية في المنصورة والقاهرة والإسكندرية وكذلك تشكلت لجنة إسلامية للدفاع عن سليمان خاطر في جامعة المنصورة – إلا أن الجزء الرئيسي من حركة الجماهير المسلمة كان في جامعة الزقازيق ومدن وقرى الشرقية.

ففي يوم السبت ٢١/ ١٢/ ١٩٨٥. حاول الطالب صابر عبد الرحمن محمد صابر – وهو أحد عناصر الجماعة الإسلامية بكلية التربية جامعة الزقازيق أن يعقد مؤتمراً طلابياً للتضامن مع سليمان خاطر – فقامت إدارة الجامعة بتحويله إلى مجلس تأديب وتلفيق تهمة الاعتداء على إحدى الموظفات لأنها ليست محجبة وتم اتخاذ قرار بفصل الطالب المذكور. ويبدو أن هذه كانت الشرارة التي أشعلت كل شئ فقد تجمع الطلاب – وبدأت أوسع انتفاضة في تاريخ الجامعات المصرية منذ ١٩٥٢ وحتى الآن.. وقد بدأت في الساعة الحادية عشرة ظهر يوم السبت ٢١/ ١٢/ ١٩٨٥. حيث بدأ الطلاب يرددون شعارات إسلامية – وشعارات للتضامن مع سليمان خاطر – وبدأ عدد الطلاب يتزايد بصورة مطردة إلى أن وصل إلى عدة آلاف طافوا بالجامعة ورددوا عدداً من الشعارات كالتالي:

إسلامية .. إسلامية لا شرقية .. ولا غربية

ثورة .. ثورة في كل مكان حتى يفرج عن سليمان

خيبر خيبر يا يهود .. جيش محمد سوف يعود

لا إله إلا الله.. اليهود أعداء .. سليمان من جند الله

باسم الله باسم الله .. وسليمان أيدناه.

وظلت الانتفاضة تتسع حتى جاء رئيس الجامعة – فتفاوض مع الطلاب .. وطالبوا بالإفراج الفوري عن سلميان خاطر – إلغاء مجلس التأديب الخاص بالطالب صابر عبد الرحمن محمد صابر – تطبيق الشريعة الإسلامية – فرض الحجاب على طالبات الجامعة. وقد وعد رئيس الجامعة بإرسال برقية للتضامن مع سليمان خاطر ووافق على إلغاء مجلس التأديب الخاص بالطالب صابر عبد الرحمن وراوغ في المطلبين الأخيرين. إلا أن جماهير الطلاب رفضت ذلك وقررت عمل مؤتمر طلابي موسع في اليوم التالي.. وفي اليوم التالي تم عقد المؤتمر الذي اشترك فيه الجميع بلا استثناء – وقد ظهرت قوتان أساسيتان أثناء المؤتمر وأثناء الحوار حول المطالب.

القوة الأولى: عناصر إسلامية تمسكت بمطلب الالتزام بالحجاب – تطبيق الشريعة الإسلامية.

القوة الثانية: عناصر إسلامية تضع العمل السياسي أو النضال السياسي على رأس مهماتها إن لم تكن المهمة الأكبر والأهم من وجهة نظرها. وهذه القوة حاولت تسييس المطالب بحيث تكون – إلغاء كامب ديفيد – إعلان حرب التحرير الشعبية الإسلامية ضد الكيان الصهيوني – أسلمة السياسية الخارجية لمصر.

واتفق الجميع بالطبع على ضرورة إطلاق سراح سليمان خاطر والتضامن معه

وقد شهدت الجامعة في هذا اليوم أكبر مظاهرة بلغت حوالي ٢٠ ألفا طافت حول أرجاء الجامعة وقد رفعت نفس الشعارات السابقة إلا أنها أضافت إليها عدة شعارات أخرى كالتالي:

العقيدة الإسلامية – حرب التحرير الشعبية هي الحل للقضية دم المسلم مش قربان – لليهود والأمريكان .. سليمان خاطر قالها في سينا .. عبر عنا وعن أمانينا.

وقد اتفق المتظاهرون على عدد من المطالب كالتالي الإفراج الفوري عن سليمان خاطر – تطبيق الشريعة الإسلامية.

وفي اليوم الثالث تصاعدت الانتفاضة.. فشارك فيها أكثر من ٤٠ ألفا – وتكلم الخطباء فيهم فربطوا بين سليمان خاطر – وعز الدين القسام – حافظ سلامة – راغب حرب – خالد الإسلامبولي – كما تكلم البعض عن اليهود في القرآن وكان الجو حماسياً بطريقة مذهلة وقد حدثت محاولات شتى لإجهاض الإنتفاضة وذلك بتوزيع بيان صادر من اتحاد طلاب الجامعة – المعروف أن جامعة الزقازيق فقط هي التي يوجد على رأسها اتحاد غير إسلامي بعكس الجامعات الأخرى التي يسيطر الإسلاميون على اتحادات الطلاب بها – وقد حاول البيان تبني بعض المطالب مثل الإفراج عن المعتقلين فوراً وتعويضهم – وتعويض الجرحى نتيجة الصدام بالأمن ... إلخ.

ووعد البيان بالسعي والتضامن مع سليمان خاطر ولكن بصيغة غامضة. إلا أن الطلاب أخذوا البيان وقام واحد منهم بتمزيق البيان على مكان عال وتبعه الطلاب وانتهت المحاولة واستمر المد الطلابي عالياً.. كما قام اتحاد عدد من الكليات التي يسيطر عليها الاتجاه الإسلامي مثل كليات الهندسة والطب – الطب البيطري – العلوم – الصيدلة بتوزيع بيان آخر تحت عنوان سليمان – إسلام البطولة وكان بياناً قوياً إلا أنه كان أقل من حماس الطلاب الذين تقبلوه واستمروا في هتافاتهم وخطبهم كان الجو مفعماً بالحماس – وقرر الطلاب الخروج إلى خارج الحرم الجامعي واصطدم بهم الأمن في معركة حامية الوطيس وقام الأمن بإطلاق عشرات الألوف من القنابل المسيلة للدموع والقذائف المطاطية دون جدوى – وقد نجح الطلاب في اختراق حاجز الأمن والوصول إلى قلب مدينة الزقازيق وانضم إليهم تقريباً كل أهال المدينة وكذلك طلبة الإعدادي والثانوي والمعاهد الصناعية كما لوحظ مشاركة ضخمة جداً من الفتيات مما اعتبره البعض انتفاضة حقيقية في المدينة – وقام المتظاهرون باحراق العلم الصهيوني والأمريكي عدة مرات – كما حملوا خريطة للعالم الإسلامي وبداخلها المسجد الأقصى داخل قضبان حديدية وقد صلى المتظاهرون الظهر والعصر «صلاة حرب» كما رددوا الآذان مع المؤذنين وأصبحت المدينة كلها على قلب رجل واحد تهتف من أجل سليمان ابن الشرقية وقد ظهرت هتافات جديدة مثل:

- إعدام سليمان .. عار .. عار.
- يادي العار .. يادي العار .. مسلم يضرب أخوه بالنار.
- يا شرقية قولي الحق.. ابنك بطل واللا لأ.
- رغم الفقر والتبعية .. مصر هترجع إسلامية.
- بيجين .. ريجان.. جورباتشوف.. كأس المر علينا يطوف.
- المسلم وطني غيور .. لا بيساوم ولا بيخون.

واستمرت الانتفاضة على هذا النمط حتى يوم السبت ٢٨/ ١٢/ ١٩٨٥. حيث حكم على سليمان بالحبس فقط وليس الإعدام. كما سرت شائعة بأنه لن يقضي العقوبة بالسجن وأن الحكومة المصرية ستفرج عنه في أقرب فرصة.

كيف مات سليمان خاطر ؟؟

تحقيق سياسي

كيف مات سليمان خاطر؟ هل حقا انتحر؟ هل اغتيل؟

هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه من خلال عملية تحقيق سياسي وليس جنائياً.

البيان الرسمي:

في ظهر الثلاثاء الموافق ٧ يناير ١٩٨٦ صدر بيان رسمي عن وزارة الدفاع المصرية جاء فيه أن الرقيب شرطة سليمان محمد خاطر توفي في مستشفى السجن الحربي. وذلك بأن شنق نفسه بمشمع الفراش الخاص به. بعد أن علقه في شباك غرفته وأن طبيب المستشفى فور علمه بالحادث - قام بفك رقبته والكشف عليه وإجراء تنفس صناعي وتدليك لعضلة القلب – إلا أنه فارق الحياة.

أضاف البيان أن المدعي العام العسكري ونائبه ورئيس النيابة المختصة قد انتقلوا إلى السجن حيث باشرت النيابة العسكرية التحقيق وندبت كبير الأطباء الشرعيين لتشريح الجثة وبيان ساعة وتاريخ الوفاه.

أدلة المقتنعين بالانتحار:

- أن الطبيب الشرعي الذي أجري الفحوص الطبية على جثة سليمان خاطر قال أن الانتحار سببه اسفكسيا الشنق.

(عن جريدة المساء القاهرية ٨/ ١/ ١٩٨٦)

- أن سليمان خاطر كان قد صرح لرئيس تحرير المصور أنه لا يطيق الضجة التي أحدثتها قوى تريد استثماره.

(المصور ٩/ ١/ ١٩٨٦)

- أن أحزاب المعارضة تشكك في عملية الانتحار بهدف إحراج النظام. (د. عبد الأحد جمال الدين الأمين العام للحزب الوطني) (المساء ٨/ ١/ ١٩٨٦)

- أن الجندي سليمان خاطر مصاب بمرض الصرع الحركي الذي ينتاب المريض على فترات متقطعة تجعله يتحرك بدون وعي ويأتي بأفعال خارجة عن إرادته وعندما يرجع إلى حالته قبل هذه النوبة لا يتذكر ما قام به. وهذا النوع من المرض يصيب الإنسان نتيجة تعب نفسي بالإضافة إلى عدة جوانب أخرى تتعلق بالتربية أو البيئة أو الفشل في الدراسة وغيرها.

(المساء ٨/ ١/ ١٩٨٦)

تهافت الأدلة السابقة:

ما أن علمت جموع الشعب المصري نبأ موت سليمان خاطر حتى كان التحليل الشعبي – الصحيح غالباً – يرفض فكرة الانتحار بل ويتهم المخابرات الإسرائيلية بالتحديد بأنها وراء الحادث كما اندلعت المظاهرات في جامعات القاهرة وعين شمس والأزهر والزقازيق – كما قام الطلاب بأداء صلاة الغائب على روح الشهيد كما وصفته بياناتهم – أي أن الوجدان الشعبي يرفض فكرة انتحار سليمان – لأن المنتحر ليس مسلماً – فكيف يطلقون عليه اسم الشهيد إلا إذا كان هناك اعتقاد كامل بأنه قد تم اغتياله. مع العلم أن تلك التظاهرات والصلوات وغيرها حدثت من قبل

صدور أي صحيفة معارضة تشكك في الموضوع أو أي توجه إلى احتمال اغتياله أو غيرها لأن الانتفاضات حدثت يوم الثلاثاء – الأربعاء ٧، ٨/ ١/ ١٩٨٦ – وقد صدرت صحيفة الشعب صباح الثلاثاء ولم يأت فيها ذكر أي شئ وهذا بديهي لأن الحادث وقع بعد صدورها وكذلك خلت جريدة الأهالي من أي إشارة اللهم إلا البيان الرسمي!! كما أنها حاولت بطريقة ملتوية أن تجهض أي حركة وذلك بتلميحها إلى تصريح لوزير الداخلية بنيته في ضرب المعارضة والحركة الطلابية – وهو تصريح لم يحدث كما أن وجود مثل هذا التهديد في هذا الوقت يعتبر ضرباً للحركة الشعبية في ظهرها بتخويف الطلاب، على كل حال البيانات الطلابية لم تتحدث فقط عن رفضها فكرة الانتحار بل وأكدت على اتهام اليهود بتدبير اغتيال الشهيد كما دعت إلى الاستعداد لمواجهتهم باعتبارهم العدو الجوهري لنا.

وفي الواقع فإن نظرية انتحار سليمان خاطر تفتقر إلى الكثير من الموضوعية على النحو التالي:

- إن حكاية «الصراع الحركي» المصاب به سليمان هي حكية ملفقة تماماً – فلم يثبت في التقرير الطبي شيئ من هذا بل جاء في التقرير الطبي أن الرقيب سليمان عبد الحميد خاطر ليس به مرض عقلي أو تخلف أو صرع ويعتبر مسئولا عن تصرفاته.

(راجع التقرير الطبي – وفصل دراسة في شخصية سليمان)

- أن القول بأن سليمان خاطر مصاب بمرض «الصرع الحركي» الذي ينتاب المريض على فترات متقطعة تجعله يتحرك بدون وعي ويأتي بأفعال خارجة عن إرادته – تسقط مصداقية حكم المحكمة العسكرية – فكيف يكون الأمر خارجاً عن إرادته وكيف يصدر عليه حكمه بالأشغال الشاقة المؤبدة!!

- من المعروف أن المحكمة العسكرية قالت في حيثيات حكمها المنشورة في جريدة الأهرام – الأحد – ٢٩/ ١٢/ ١٩٨٥ أن سليمان لا يعاني من أي مرض عصبي أو نفسي يخرجه عن وعيه وأنه مسئول عن إرادته وتصرفاته.

- أنه لم يكن هناك لا مشاكل نفسية – ولا تربية خاطئة ولا بيئة تسمح بظهور – مرض نفسي ولا فشل في الدراسة. فسليمان شاب وسيم – يصل طوله إلى ١٨٠سم – ناعم الشعر. من أسرة متماسكة يدرس في كلية الحقوق جامعة الزقازيق – السنة الثالثة. (راجع فصل دراسة شخصية سليمان خاطر)

- أن شهادة الأم والأخ ورفاق السلاح من جنود وضباط وأمناء شرطة أجمعت على أن سليمان شاب سوي – منضبط – يؤدي عمله على الوجه الأكمل – لا يثير مشاكل – على خلق – حريص على الصلاة وقراءة القرآن.

(راجع شهادات الأم والأخ والرائد أحمد الشيخ – الملازم أحمد محمد سلطان – أمين الشرطة جمال أحمد رياض – الجندي حسن الخولي – الجندي عطية إبراهيم علي في فصل دراسة شخصية سليمان خاطر).

- يبقى أن نقرر – أن هناك تساؤلاً آخر وهو أنه مع التسليم بأن سليمان شخص سوي ألا يمكن إعتبار إصدار حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة مدعاة ليأسه وبالتالي إقدامه على الانتحار – وفي الواقع فإن هذا السؤال أيضا متهافت لأنه لم تسجل حالات انتحار بسبب حكم مثل هذا على الجنائيين أو السياسيين أو تجار المخدرات فما بالك بإنسان مؤمن أدى عملاً يرى أنه في سبيل الله ثم الوطن كما أن الجماهير قد تضامنت معه بصورة مذهلة لم تحدث في تاريخ الاغتيال السياسي في مصر بل واعتبرته بطلاً ورفعته إلى مكان سام لم يبلغه مصري من قبل – بل جمعت كل القوى السياسية والجماهير بل وقطاعات الحكومة والجيش على بطولة سليمان – أضف إلى هذا أن مسئولا كبيراً جداً قد صرح لقيادات الأحزاب أن سليمان في مكا الإبن بالنسبة له وأنه سيفرج عنه قريباً جداً وبالطبع هذا الكلام وصل إلى سليمان – فما هي دواعي اليأس إذن – إن كل شئ يدعو إلى التفاؤل والفخر.

- أن تركيبة سليمان الدينية والنفسية لا تسمح عقلياً بمثل هذا العمل إطلاقاً – راجع فصل دراسة في شخصية سليمان.

- أن حكاية أن أحزاب المعارضة هي التي تروج لذلك مجرد جعجعة ومن

قبيل الدخان في الهواء. فالجماهير عبرت عن رفضها في رواية الاغتيال قبل أن يصدر بيان واحد عن أي حزب معارض في هذا الاتجاه كما سبق أن بينا أضف إلى هذا أن كبار قيادات حزب الوفد – أكبر الأحزاب المعارضة – قد صرحوا لجريدة الأهرام – الخميس ٩/ ١/ ١٩٨٦ بالتالي الدكتور وحيد رأفت – نائب حزب الوفد – ناشد أحزاب المعارضة عدم استغلال حادث انتحار سليمان خاطر لإثارة الطلاب والشباب لأن مصر تمر بظروف تستدعي ضرورة الاستقرار – وقال إن البعض هو المسؤول عن ارتكاب سليمان لحادث الانتحار حيث صوروه على أنه بطل لا يجب أن يحاكم.

• وأضاف أن سليمان خاطر قد أصيب باكتئاب نفسي شديد عقب الحكم عليه بالسجن المؤبد مما دفعه إلى «الانتحار» ولو كانت محاكمته مرت بهدوء ودون أي إثارة لما أقدم سليمان على الانتحار خاصة وأن هناك من سجنوا قبله ولم يفكروا في الانتحار لأنه كان هناك دائماً أمل في تخفيف الحكم.

• أما علوي حافظ عضو الهيئة العليا للوفد وعضو اللجنة البرلمانية للوفد – فقد صرح للأهرام أيضا في نفس التاريخ والمكان – أن حادث انتحار خاطر يؤكد أنه كان غير سليم عقلياً!

• أما رواية مكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور من أن سليمان قد صرح له أنه لا يطيق الضجة التي أحدثتها قوى معينة حوله – فطبعاً لا يعتد بهذا الكلام لأن صاحبه في ذمة الله – والكلام على لسان الموتى هي إحدى الطرق المعروفة للفبركة الصحفية – كما أن الكلام ذاته لا قيمة ولا مغزى له بفرض صحته اللهم إلا أن يكون سليمان قد قاله كنوع من الالتماس إلى السلطات لتخفيف الحكم عليه بما يعني أنه لم يكن يفكر في الانتحار.

• في هذا الإطار ينبغي أن نضيف تصريحات الأم وإخوة وأصدقاء سليمان تعليقاً على الحادث والتي نقلتها جريدة الوفد في عددها ٩/ ١/ ١٩٨٦. حيث قالت الأم إن سليمان لم ينتحر – هذا كذب وافتراء – لقد طلب مني أن أبعث إليه بالكتب

الجامعية حتى يذاكر ويدخل امتحان الحقوق – وأنه قال لها اعتبريني مسافراً وسوف أعود إليك عندما يأذن الله.

- وكذلك في تعليق أحد أصدقاء سليمان زاهر عبد الله في نفس الجريدة.. وهو ابن عم سليمان قال: مستحيل أن يكون سليمان قد انتحر – إنه مؤمن بالله – ويؤدي الصلوات – والمؤمن لا ينتحر أبداً. لقد كان متفائلاً بعد الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.. وهذا التفاؤل لا يدفع الإنسان إلى الانتحار كل ما يقال عن انتحاره كذب في كذب.

- أما صديقه خالد أبو رزقة فقال: إنني أعرفه منذ الصغر – إنه متدين وكان يرشدنا إلى الطريق الصحيح ويقول لي خلي ربنا في قلبك يا خالد تنفتح لك الأبواب.

- أما تصريحات شقيق سليمان لوكالة رويتر فتعد أهم ما في الموضوع حيث أنها قد تضع أيدينا على خيط هام – فقد صرح شقيق سليمان لوكالة رويتر أنه ينفي دخول سليمان مستشفى السجن الحربي للعلاج من البلهارسيا وأنها المرة الأولى في تاريخ السجن الحربي – يتم إدخال مريض بالبلهارسيا إلى مستشفى السجن للعلاج – وأكد أن شقيقه كان يعالج من إصابته بارتجاج في المخ على أثر اعتداء صحفي إسرائيلي على سليمان بواسطة آلة التصوير وذلك بضربه بها على رأسه.

- أكد محامي سليمان الأستاذ عبد الحليم رمضان أن سليمان قد نحر ولم ينتحر وذلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده مساء الثلاثاء ٧/ ١/ ١٩٨٦ – كما صرح المحامي ذاته أنه التقى مع سليمان خاطر قبل وفاته بيوم واحد – ووجده في حالة معنوية ممتازة خاصة أن مكرم محمد أحمد رئيس تحرير مجلة «المصور» أبلغ سليمان أن رئيس الجمهورية ينوي تخفيف الحكم على سليمان وأدت هذه الأقوال إلى رفع معنويات سليمان.

يبقى أن نضع بعض التساؤلات كالتالي:

- وفقا للبيان الرسمي فإن انتحار سليمان كان نهاراً. فأين كانت الحراسة؟! وكل الموجودين بالمستشفى.

- هل يصلح المشمع (الذي يتمطط) لعملية الشنق؟!

التفسير الأكثر واقعية:

بالطبع ستظل كثير من علامات الاستفهام معلقة. وبالطبع سيظل ملف سليمان خاطر مفتوحاً لمدة طويلة. وبالطبع ستظهر الحقيقة كاملة في يوم من الأيام.

وإذا كنا ووفقاً لما سبق قد استبعدنا تماماً انتحار سليمان خاطر – فإننا ننحاز إلى الرأي الذي عبر عنه وجدان الجماهير وهتافات الطلاب وبياناتهم وهو توجيه الاتهام للمخابرات اليهودية.

ويبقى أن تكون التفسيرات الواقعية كالتالي:

- إسرائيل لها سجل حافل في مطاردة والانتقام من أي شخص أو مجموعة قتلت يهودياً حتى ولو كان ذلك من ألف عام وفي هذا الصدد فإننا نذكر بعملية اختطاف «إيخمان» أحد مساعدي هتلر من الأرجنتين وتهريبه حياً إلى إسرائيل حيث حوكم وأعدم (١٩٥٣) وهي عملية أغرب من الخيال.

- وكذلك اغتيال قيادات منظمة تحرير فلسطين في بيروت رداً على عملية ميونيخ. وكذلك عشرات العمليات الانتقامية التي قامت بها إسرائيل رداً على أي عملية فدائية.

- أن مصر مخترقة أمنياً وأخلاقياً من قبل إسرائيل عن طريق الليونز والروتاري وغيرها وهي الأمور التي أكدها سليمان ذاته في أقواله.

(راجع أقوال سليمان)

- أنه من الطبيعي أن ينتقم اليهود من سليمان أما كيف حدث ذلك – فهذا ما سوف تكشف عنه الأيام.

- أنه من الطبيعي – نظراً للتعقيدات الدولية التي تعاني منها مصر – ألا يتم توجيه الاتهام إلى إسرائيل منعاً لإثارة الحساسيات الدولية ومنعاً لإشعال الشارع

المصري الذي سيطالب ساعتها بالانتقام.

- أن محاولة قيادات الوفد لتأييد «انتحار سليمان» جاءت لنفس الأسباب التي دفعت الحكومة لهذه الرواية باعتبار أن الوفد يريد أن يقول للقوى الدولية أنه سيكون مرناً إذا ما جاء للحكم – وأنه البديل الأفضل في هـذا الظـرف – وبصـراحة فهـذه لا أخلاقية – بل خيانة لمشاعر الأمة سيدفعون ثمنها يوماً.

ونختم هذا التحقيق السياسي بالشعارات التـي رفعهـا طـلاب جامعـة الزقـازيق عقب إعلان الوفاة.

- يا يهود .. يا يهود سليمان على طول موجود..
- لا إله إلا الله .. سليمان في رحاب الله
- يا سليمان يا شهيد.. دمك غالي مش زهيد.

.. علاقة المقاومة بالبنية الاجتماعية

إذا تتبعنا حركات المقاومة العربية والإسلامية في التاريخ المعاصر نكتشف حقيقة واضحة للعيان ، وهي أن الحكومات والدول والجيوش النظامية فشلت دائما في مواجهة الغزو الخارجي في حين نجحت المقاومة الشعبية في ظروف معينه ، وهذه الظروف تحديدا هي ما ينبغي معرفته ودراسته حتى ننجح في مواجهة هذا التحدي ، وهو التحدي الذي نعاني منه منذ قرنين على الأقل وبصوره مستمرة ، السبب في فشل الجيوش النظامية والحكومات والدول ونجاح المقاومة الشعبية في ظروف معينة ، هو أننا أولا امة ذات طبيعة خاصة ، وأنها امة ذات ثقافة معينه وهي الثقافة الإسلامية ومن ثم فإن هذه الأمة والجماهير لن تتحرك إلا من خلال الوجدان الإسلامي ، وبما أن الحكومات والدول والجيوش لم تكن تنطلق في عمليه المواجهة من خلال المنظومة الإسلامية بسبب قيام انظمه حكم ودول تتبنى مرجعيات أخرى مخالفة أو ليست نقية تماما بالنسبة لهذا الوجدان الإسلامي ، فإن الفشل هنا بديهي ، فكيف نواجه منظومة حضارية تغزونا بجيوشها وبثقافتها وحضارتها بقيم وثقافات ومرجعيات مستمدة من نفس الأرضية الحضارية المعادية أو لا تخالفها تماما ، لأن أي قدر من الميوعة وعدم الحسم في رفض المنظومة المعادية يعني مباشرة أننا تمت هزيمتنا قبل أن تبدأ المعركة.

ولكن هذا بالطبع لا يكفي لتفسير الظاهرة ، ولا بد من البحث عن أسباب أخرى

لظاهرة نجاح عمليات المقاومة في ظروف معينه وفشل الحكومات والجيوش في مواجهة الغزو الأجنبي.

لدينا العديد من التجارب الناجحة في حركات المقاومة، المقاومة الشعبية المصرية ضد الحملتين الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١ م والإنجليزية «حمله فريزر» ١٨٠٧م ، مع ملاحظة انه على حين قاومت كل قرية ومدينه في مصر بما فيها القاهرة ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١م وكذا قاومت القوى الشعبية حملة فريزر بعد فشل المماليك في مواجهة الفرنسيين عام ١٧٩٨ وهزيمتهم في معركة إمبابه ، وكذا غياب الحكومة « حكومة محمد علي عن عملية المواجهة ضد حملة فريزر ١٨٠٧ لأنه كان بالصعيد مع جيشه يطارد فلول المماليك المعارضين لحكمه ... فإنه في عام ١٨٨٢م عندما دخل الجيش الإنجليزي القاهرة لم تنطلق عليه رصاصه واحدة بعد هزيمة جيش العرابيين في التل الكبير !!

وهناك أيضا تجربه المقاومة الشعبية في الجزائر وتونس والمغرب وفلسطين وسوريا والشيشان وإندونيسيا وغيرها ، وهناك المقاومة الشعبية المصرية في السويس بقيادة الشيخ حافظ سلامه سنه ١٩٧٣م وكذا المقاومة الشعبية في لبنان «حزب الله » وتحقيقها انتصارين كبيرين على إسرائيل عام ٢٠٠٠ ، وعام ٢٠٠٦ وهناك حركات المقاومة الفلسطينية « حماس ، الجهاد وغيرها ».

وإذا درسنا البنيه الاجتماعية التي أدت إلى ظهور ونجاح تلك الحركات نجدها تتلخص في عامل رئيس هو ضعف الحكومات ووجود بنيه اجتماعيه أصليه أقوى من الدولة ، مع وجود عوامل أخرى طبعا ، ولعل هذا العامل الرئيسي هنا هو موضوع بحثنا.

***

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر كان هناك بنيه سياسية واجتماعية واقتصادية معينة ، كان هناك السلطان الذي يعين الوالي والوالي يحكم عن طريق الديوان والمماليك ، ولكن هؤلاء جميعا كانوا في القلعة ، يديرون الأمور السياسية

والعسكرية وجمع الضرائب دون تغول ولا نفوذ حقيقي اكثر من ذلك على الجماهير ، وفي المقابل كان هناك الأزهر ، وعلماء الأزهر الكبار والمتوسطين والصغار ، وهؤلاء كانوا يديرون الحياة الاجتماعية في المدن والقرى وكل مكان ، وكان هناك ارتباط عضوي بينهم وبين الجماهير ، فهم يفتون لهم في الأمور الدينية والدنيوية، ويحكمون بينهم ويديرون مجتمع أهلي كامل شبه مستقل سياسيا واقتصاديا عن الحكومة ، وحتى الحكومة ذاتها كانت تلجأ لعلماء الأزهر في معظم المشاكل الحادثة ، وإذا حدث احتكاك بين الجيش « المماليك » وبين الأهالي فإن علماء الأزهر هم من كان يقود الأهالي لاستعادة الحقوق وتحقيق نوع من التوازن ، أو حتى تهدئة الأهالي والوساطة لدى الوالي.

وكان الأزهر مستقلا في أموره الاقتصادية عن الدولة ومن ثم كان حرا في قراره ولم يكن مسلوب الإرادة تجاه السلطه ، كان هناك نظام الأوقاف التي يديرها العلماء والأهالي أو يمكن أن نقول الميزانية المستقلة، من ناحية ثانية كان هناك الطوائف والحرف ، ولكل حرفه شيخ أي نقابة ورئيس نقابة ، نقابة العطارين والنحاسين والحدادين والنجارين ... بل وهناك طائفة الأشراف ونقيب الأشراف وكل هؤلاء يديرون أعمال الأهالي بصورة مستقلة أو فيها قدر كبير من الاستقلال عن الحكومة ، وكان هناك نمط من الاقتصاد شديد الاستقلال ، فهناك الزراعة وهناك الحرف المرتبطة بالخامات المحلية والخبرات المحلية والاستهلاك المحلي ، كصناعة الفخار والحصر ، والجريد والأخشاب ... الخ

ومن ثم فإن سقوط حكومة المماليك بعد معركة إمبابه سنه ١٧٩٨ لم يؤد إلى انهيار المجتمع ، لأنه المجتمع كان أقوى من الحكومة ويستطيع أن يعيش معها أو بدونها ، ومن ثم استمرت المقاومة الشعبية في كل مكان في مصر ضد الوجود الفرنسي ، وشارك فيها كل الناس بقيادة علماء الأزهر ، شارك فيها الفلاحون والحرفيون والأشراف وعلماء الأزهر ، والتجار وسجلت تلك المقاومة أروع سطور البطولة والفداء والسخاء ونجحت في هزيمة الحمله الفرنسية واندحارها وخروجها عام ١٨٠١، وأفرزت الحركة الشعبية قيادتها الطبيعية من علماء الدين والتجار

والأشراف من عمر مكرم ، الشيخ السادات ، السيد أحمد المحروقي كبير التجار ، والشيخ القويسني ، والجوسقي .. الخ

نفس الأمر حدث عام ١٨٠٧ حين كان محمد على غائب في الصعيد يطارد المماليك وقامت القوى الشعبية بتجهيز المقاومة والمتطوعين من الأهالي بقيادة السيد عمر مكرم حيث ذهبت إلى رشيد والحماد وبمساعده أهالي رشيد والحماد تم دحر حمله فريزر ١٨٠٧م.

وهكذا فقد نجحت المقاومة الشعبية في تحقيق انتصارين في اقل من عشر سنوات، على أقوى قوتين في العالم في ذلك الوقت إنجلترا وفرنسا بل وعلى أبرع القواد العسكريين في ذلك الزمان ، بل وربما في تاريخ فرنسا وإنجلترا ، وهما نابليون بونابرت ، والجنرال فريزر، وبديهي أن الإمكانات العسكرية بين الطرفين لم تكن متكافئة بالمرة ، فالقوات الفرنسية والإنجليزية كانتا تملكان أحدث وسائل القتال من مدافع وبوارج وأفضل الجنود المدربين فضلا عن احدث التكتيكات العسكرية.

***

في عام ١٨٨١ اندلعت الثورة العرابيه وهذا بفضل جهود كثيرة قام بها علماء الدين وخاصة عبد الله النديم ورغم أنها كانت ثوره شعبيه إلا أنها تحولت إلى حكومية برئاسة محمود سامي البارودي ، وكان عرابي وزيراً للحربية وقائدا للجيش وبديهي أنها طالما كانت المعركة بين قوتين عسكريتين منظمتين ، فإن الفوز يكون لصاحب الإمكانيات العسكرية الأكبر ولأننا منذ عده قرون أضعف من عدونا عسكريا وتكنولوجيا فإن استخدام الجيش والدولة في المواجهة يؤدي إلي نتيجة حتمية وهي الهزيمة ، وقد حدث هذا دائما وآخر ما حدث مع جيش صدام حسين رغم كونه جيش قوي يتمتع بقياده حازمة ، في حين نجحت المقاومة العراقية في تعطيل المشروع الأمريكي وتكاد تنزل الهزيمة بالجيش الأمريكي.

والذي حدث أنه بعد هزيمة الجيش المصري بقياده عرابي في معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ تحركت القوات الإنجليزية إلي القاهرة ولم تحدث مقاومة شعبيه كما

حدث في مواجهة الحملتين الإنجليزية والفرنسية سابقاً.

وهذا يرجع إلى أن محمد على كان قد نجح في ضرب البنية الاجتماعية المتميزة والتي تفرز المقاومة ، كان محمد على قد نجح في إقامة دوله عظيمة جدا وقويه جدا ، جيش كبير وأسطو ل ضخم وصناعات حربيه واستراتيجية ، ولا بأس في كل ذلك ولكنه كان على حساب البنية الاجتماعية الأهلية المستقلة ، لقد ربط كل شي بنفسه ومشروعه وجيشه ، أصبح العامل والخبير والمهندس في علاقة مباشرة مع الدولة والإدارة ، فهي التي تدير المصانع وتنشئ الجديد منها ، وهي التي تدفع المرتبات وهي التي تأخذ الإنتاج ومن ثم فإن البنية الاجتماعية المهنية أصبحت جزءا من الدولة ولا تستطيع أن تعيش بدونها ، نفس الأمر بالنسبة للزراعة ، فبدلاً من زراعة الحبوب والخامات التي يتم تصنيعها محليا ومن ثم تحقيق نوع من الاستقلال الاقتصادي عن الدولة والعالم بالنسبة للفلاحين ، فقد قام محمد على بتأميم الزراعة ، وتحديد ما يتم زراعته وخاصة المحاصيل النقدية كالقطن والكتان ...الخ .

المهم في النهاية أن الفلاح أصبح يعتمد في حياته على ما تعطيه له الدولة ، ومن ثم فإن المجتمع الأهلي في القرية قد ضعف إلى حد كبير ، نفس الشيء يقال عن التجارة الداخلية والخارجية التي احتكرتها دوله محمد علي، ومن ثم لم يعد التجار يمثلون الممول الطبيعي للمقاومة كما حدث في إبان الحملة الفرنسية « السيد أحمد المحروقي مثلا » ، أكثر من هذا فإن محمد علي ضرب مؤسسه الأزهر ، ونقابة الأشراف وصادر الأوقاف ، وأصبحت ميزانية الأزهر ومعاش علماء الأزهر من الدولة ، وطارد الزعماء الوطنين مثل عمر مكرم وأنهى من ثم أي زعامة اجتماعيه أو سياسية أو دينه خار ج مؤسسة الدولة وصحيح أن محمد على قد بنى دوله قويه جدا ولكنه أضعف المجتمع جداً ، ولما انهزم مشروع محمد على في عام ١٨٤٠ وما كان له إلا أن ينهزم لأن الدولة الغربية ستظل الأقوى عسكريا مهما فعل محمد علي ومن ثم سقط المشروع وضعف المجتمع ، فلما جاءت القوات البريطانية عام ١٨٨٢ لم يكن هناك مجتمعا قادرا على إفراز مقاومة قادرة على هزيمة الغزو ، وبدأت الحركة الوطنية المصرية تعيد بناء نفسها بقياده مصطفى كامل وتحاول ترميم المجتمع بإنشاء

النقابات والتعاونيات «عمر لطفي رائد النقابات والتعاونيات » في بداية القرن العشرين ، إلا أن ما تم ترميمه من المجتمع لم يسمح إلا بقدر من النضال السياسي ثم اندلاع ثوره ١٩١٩التي فجرها الحزب الوطني وسرقها سعد زغلول والوفد.

***

في عام ١٩٧٣ نجحت القوات المصرية في عبور قناة السويس وتحرير جزء من سيناء ، وكان هذا لا يرجع إلي القوه العسكرية المصرية بل إلى نوع من الروح الإسلامية التي سمحت بها حكومة السادات في ذلك الوقت في إطار صراعها مع الناصريين والشيوعيين ، وكذلك إلى استخدام أسلوب الإنسان في مواجهة التكنولوجيا ، فرد المشاة الذي يحمل سلاحا مضادا للدبابات « نموذج عبد العاطي» ... أي أن هذا النجاح الجزئي في حرب رمضان لم يكن يرجع إلى قوة الدولة أو الجيش ، المهم انه بعد عدة أيام من هذا النجاح قامت القوات الصهيونية بإحداث ثغره في النقطة المفصلية بين الجيشين الثاني والثالث ، هي ثغره الدفرسوار ، وتسللت منها إلي غرب قناة السويس واتجهت جنوبا إلى مدينه السويس ، وكانت تلك القوات تستهدف احتلال مدينة السويس ، ولو حدث هذا لا قدر الله لكان معناه إكمال حصار الجيش الثالث أي حبلا يلتف على عنق ذلك الجيش ، والوصول أيضا إلى طريق السويس القاهرة ، أي مسدس مصوب للقاهرة ، وقد صدرت الأوامر بالفعل لمحافظ المدينة بتسليمها لأن الأوضاع العسكرية والتموينية حسب تقدير القيادة لم تكن تسمح بالصمود ، ولكن المقاومة الشعبية اندلعت فورا بقيادة الشيخ حافظ سلامة ، وتم اعتبار مسجد الشهداء مركزا للقيادة ، وتم توزيع كمائن وتوجيه متطوعين إلى مداخل السويس وحدثت عمليه مقاومة رائعة انتهت بمنع الإسرائيليين من دخول المدينة ... وقد أعترف العدو والصديق بأهمية ذلك الدور الذي لعبته المقاومة الشعبية في السويس ، وأنه لولا تلك المقاومة لتغيرت نتيجة حرب رمضان ١٩٧٣.

ما الذي جعل هذه المقاومة تأخذ القرار ، ما الذي أعطى الشجاعة للشيخ حافظ سلامة بالتصدي لهذه المسئولية الضخمة على عكس إرادة القيادة السياسية ... ذلك

يرجع في رأيي إلى أن الفترة من ١٩٧١-١٩٧٣ تم فيها نوع من تقوية المجتمع ، والسماح بالتعبير عن الوجدان الإسلامي ، وإعادة الاعتبار لعلماء الإسلام ، وإحساس الناس بأن الدولة لم تعد مرعبة وأنه من الممكن عمل مقاومة رغم أنفها . وقبل ذلك كان قد سمح للجمعيات الأهلية بالعمل ومنها جمعية الهداية الإسلامية التي كانت يقودها الشيخ حافظ سلامه، وكانت تقوم بعمل اجتماعي كبير في مدينة السويس مما أدى إلى تقوية ارتباطها بالجماهير ، وكذلك كانت تقوم بتنظيم قوافل من علماء الأزهر قبل الحرب إلى كل الوحدات العسكرية المصرية لرفع الروح المعنوية للجنود ، وتأكيد القيم الإسلامية والوجدان الإسلامي وكذا لأن الدولة كانت ضعيفة أو غير متغولة فلم نجد صعوبة في العمل .

إذا جئنا إلي حزب الله أو المقاومة اللبنانية مع الأخذ في الاعتبار عوامل أخرى مثل وقوف دولة إيران وراء الحزب . ولكن هذا لا يكفي بالطبع لتحقيق انتصارين كبيرين على أقوى جيش في المنطقة ومن أقوى جيوش العالم وهو الجيش الإسرائيلي ، إذا جئنا إلى هذا النموذج ، نجد أن الحزب نشأ في ظروف غير مواتية إقليميا ودوليا ، ولكن كان هناك ضعف شديد في الدولة اللبنانية في بداية الثمانينات بعد الخروج من الحرب الأهلية ، مما سمح للحزب بالعمل وكذا الضعف التقليدي لأي حكومة لبنانية فيما بعد بسبب التوازن الطائفي ومن ناحية أخرى فإن البنية الثقافية والدينية والاجتماعية في جنوب لبنان وبعلبك والضاحية الجنوبية لبيروت والبقاع الغربي تسمح بأن يظل الحزب أقوى من الدولة ، أي أن المجتمع الحاضن للمقاومة هنا أقوي من جهاز الدولة ، ومن ثم فإن تحقق هذا الشرط ، شرط البنية الاجتماعية المواتية كان هو العامل الأساسي في تحقيق انتصارين كبيرين عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠٦ مع عدم تجاهل عوامل أخرى بالطبع بالنسبة لتجربه حزب الله تحديدا.

.. قاتلنا فانتصرنا

موجز لبطولات الجيش المصري في حرب رمضان وتحية عطرة للشهداء

مقدمة

لم تكن حرب رمضان مجرد حرب عسكرية انتصر فيها الجيش المصري على القوات الصهيونية. إنها أكبر من مجرد حرب وأكثر من مجرد انتصار ولا يعرف أهمية تلك الحرب – وهذا الانتصار إلا من عاش تلك الفترة وما قبلها وعانى من عشرات المشاعر والتحولات وخاصة هذا الجيل الذي كان في بداية وعيه السياسي بما حوله وبما يعيشه. وكنت واحدًا من هؤلاء.

وأذكر أنني كنت في عام ١٩٧١ في بداية المرحلة الثانوية – وكيف أنني كنت أشعر بيأس قاتل وإحساس بالضياع عقب سلسلة من المقالات كتبها الصحفي محمد حسنين هيكل في جريدة الأهرام قال فيها إن حالة الاسترخاء العسكري «اللا سلم واللا حرب» سوف تستمر طويلاً لأن تلك الحالة تتفق مع مصالح الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وأوروبا الغربية وكل من هب ودب – وإن الجيش المصري غير قادر نظريًا وعمليًا على العبور، وأعتقد أن حالة الإحباط المرير لم تكن من نصيبي وحدي بل كانت من نصيب كل مصري.

وعلى الجانب الآخر. في ذلك اليوم من رمضان عندما انطلقت القوات الصائمة لتعبر قناة السويس وتلتحم في قتال مباشر مع القوات اليهودية – كان تيار من الدم الجديد يسري في عروقنا وقلوبنا – وكيف ارتفع اهتمامنا بالأحداث إلى درجة تفوق

الوصف – وكيف كنا نتابع أنباء المعارك لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة عبر موجات كل الإذاعات التي يستطيع الراديو التقاطها. ليس هذا فحسب – بل كان هناك تحليلان يوميان طويلان عن أنباء المعارك كنا نستمع إليهما في المسجد عقب صلاة العشاء وصلاة الفجر يوميًا – وهما الصلاتان اللتان يكتظ خلالهما المسجد بالمصلين في شهر رمضان الكريم.

وأذكر أنه منذ اليوم الأول للمعركة – كان الشعب – كل الشعب – على قدر هائل من المسئولية والمشاركة والإيجابية. وكيف أننا ذهبنا في يوم ١١ رمضان وهو اليوم الثاني للمعركة إلى الوحدة الصحية بقريتنا دنديط مركز ميت غمر – دقهلية نطلب إلى طبيب الوحدة أن يأخذ منا دماءً للجرحى والمصابين – وكيف أنه اكتفى بأن سجل أسماءنا وطلب الانصراف حيث إن إمكانيات تخزين الدم ليست متوفرة لديه وأنه عند الحاجة سوف يتصل بنا – وكيف أنه قد تعجب لأن القافلة كانت كبيرة جدًا بحيث إنها تضم أبناء القرية جميعًا رجالاً ونساءً وأطفالاً، وأذكر أننا جلسنا في فناء الوحدة الصحية صائحين بضرورة السماح لنا بالتبرع بالدم وأننا لن ننصرف دون ذلك – وكيف أن بعضنا قام فينا خطيبًا وأرشدنا إلى أن المشاركة في المعركة ليست قاصرة على التبرع بالدم، وأن هناك وسائل أخرى – وكيف أننا اتفقنا على تشكيل مجموعة عمل تنطلق من المساجد وتقوم بزيارة أهالي الجنود وتقديم أي خدمة لهم – كما أننا قررنا أن نجمع من أهالي القرية الخبز والسمن والسكر المعد لعمل كعك العيد وإرساله إلى الجنود في جبهة القتال.

***

استطاع المقاتل المصري في حرب رمضان – برغم ميل التوازن العسكري لصالح العدو – استطاع أن يحقق نصرًا تاريخيًا وأن ينجز إنجازات عسكرية فذة على كل مستوى – واستطاع الشعب المصري أن يحقق تفاعلاً ومشاركة هائلة. وكل هذا يثبت أن الإنسان المصري أصيل وكفء – وأنه قادر دائمًا على تحقيق الانتصار في كل مجال. إن العيب دائمًا لم يكن في هذا الإنسان – بل في القوى التي ضربت حصارًا طويلاً حوله بهدف حرمانه من المشاركة في بناء حياته والاكتفاء بدور المتفرج. بل

إننا نؤكد أن تلك القوى مازالت تعمل فينا فعل الإثم وتهدف إلى إسقاط ثقة الشعب في نفسه وسحب كل ما من شأنه أن يحقق له تلك الثقة وإيهام الشعب بأنه متخلف وغبي وغير قادر بل واستئصال كل إنسان متماسك وجريء وشجاع ويفكر إما بالقهر والذل أو الاعتقال أو الرشوة – «الترهيب والترغيب».

إن حرب رمضان والمشاركة الشعبية فيها وذلك التلاحم الفذ بين كل قطاعات الشعب المصري والجيش المصري لو قدر لآثارها النفسية أن تعمل عملها لكان واقعنا الآن مختلفًا – ولكن القوى المتربصة بنا عملت بلا كلل ولا ملل على تآكل تلك الآثار وسحبها من وعي أمتنا وتغييب جوانبها الإيجابية وذلك لحساب أعدائنا الذي لا يريدون لنا خيرًا ولا تقدمًا ولا رقيا.

إننا في هذا البحث الموجز سنقدم ملامح من معجزات الجيش المصري الفذ والشعب المصري الأصيل – دون أن نتطرق إلى الإدارة السياسية لآثار المعارك وإن كان لنا رأي مخالف لما هو سائد أو ساد بشأنها وذلك لأن هذا ليس داخلاً في الموضع في هذا البحث ويمكن أن يكون موضوعًا لبحث مستقل، إننا هنا سنكتفي بالإجابة على سؤال هام – لماذا انتصرنا في رمضان – وما هي العوامل الموضوعية التي أدت إلى هذا الإنجاز الرائع – وهل يصلح الإنسان المصري بتركيبته الخاصة أن يخوض معاركه في كافة المجالات وأن ينتصر فيها.

***

إننا أيضًا لن نتطرق إلى موضوعات أخرى جانبية – ليس لعدم أهميتها ولكن لأن لها أبحاثا مستقلة ربما نعود إليها يومًا – مثل موضوعات الخلاف حول طريقة معالجة الثغرة أو قبول وقف إطلاق النار أو هل كانت المعركة معركة تحرير أم تحريك – وغيرها من القضايا المرتبطة بالمفاوضات التي أعقبت الحرب.

الجيش المظلوم

والأصح أن نقول الشعب المظلوم – فليس الجيش وحده الذي ظلم ولكن الشعب كله – فمن ناحية فالجيش جزء من الشعب وما يمس هذا يمس ذاك ومن

ناحية ثانية فالهزائم أو الانتصارات لا تمس الجيش وحده ولكنها تمس الشعب كله، بل تمس كل الأمة الإسلامية لاعتبارات كثيرة. ومن ناحية ثالثة فإن السياسة المتبعة والتي أدت إلى الهزيمة كانت موجهة إلى الشعب كله وليس الجيش وحده.

والآن لنصل إلى سؤال هام – هل انتصار رمضان هو القاعدة وغيره الاستثناء – أم العكس صحيح وخاصة أن الهزائم كانت ثلاثا في ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ والانتصار كان وحيدًا في ١٩٧٣.

وفي الواقع فإن الإجابة على السؤال تفتح عددًا من القضايا الهامة – بل وتعري أكاذيب المدرسة الاستعمارية.

فالمدرسة الاستعمارية تروج دائمًا بأنه لا قبل لنا بمحاربة إسرائيل ولا الانتصار عليها – لسبب بسيط هو أن إسرائيل جزء من الحضارة الغربية المتفوقة علينا تقنيًا وعسكريًا. وهؤلاء يحسبون النصر والهزيمة بالعدد والعدة مخرجين من حساباتهم أن الله سبحانه جعل الإنسان هو الأقوى دائمًا، وأمد عباده المؤمنين بالمدد من عنده. إن المدرسة الإسلامية ترى أن الشعب المصري والجيش المصري والإنسان المصري قادر على سحق العدوان والانتصار على اليهود طالما استخدم طاقاته الكامنة والروحية والمادية وأنه في أي مرة يلتحم هذا الإنسان في قتال مع العدو فإنه يثبت ذاته وينتصر.

وعلى حين ترى المدرسة الاستعمارية أن حرب ٧٣ كان الانتصار فيها للجندي المصري لأسباب سياسية دولية وعالمية وتكتيكية أي أنه كان بسبب الظروف الدولية فإننا نرى أن الانتصار كان لأسباب ذاتية محضة دون إغفال أهمية العوامل الأخرى وفي الحقيقة فإن الإنسان المصري والجندي المصري لم يهزم قط، ولكن الذي هزم هي القيادة السياسية الجبانة أو الخائنة أو المترددة أو الفاسدة، ففي حرب ١٩٤٨ لم يهزم الجندي المصري أو العربي ولكن هزم الملوك والرؤساء الذي تخبطوا في قراراتهم أو خان بعضهم أو أمدوا الجيوش بالأسلحة الفاسدة إلى غيره من الأسباب وقبلوا في النهاية بالهدنة!!.

وفي حرب ١٩٥٦ لم يسمح للإنسان المصري بمواجهة إسرائيل في سيناء بل صدر قرار بالانسحاب بحجة مواجهة الجيش الإنجليزي والفرنسي في القناة.

وإذا كان البعض قد وجد الحجة التي يتذرع بها تبريرًا للانسحاب في عـام ١٩٥٦ – فإن وقائع الانسحاب في حرب ١٩٦٧ تقطع بوجود خيانة كبيرة في قمة السلطة وفي أقل الأحوال إهمالاً منقطع النظير.

إننا سندرس بشيء من التفصيل وقائع حرب ١٩٦٧ لنؤكد أن الجـيش المصـري مظلوم مظلوم مظلوم.

إن هزيمة ١٩٦٧ كانت بسبب الخيانة أو الإهمال في قمة السلطة – تلـك السـلطة التي اتسمت بالفساد حتى أخمص قدميها أو تلك التي اتسمت بالجهـل أو الخيانـة أو الاستبداد.

كانت تلك السلطة قد استطاعت عبر ممارسات طويلة أن تكبـل حركـة الشـعب كله. وأن تصرفه تمامًا عن المشاركة في بناء حياته السياسـية والاجتماعيـة. وراحـت تردد أن الزعيم ملهم – وأنه لا داعي لأي من الشعب أن يفكر أو يقاتل أو يعمـل. مـا عليه إلا أن ينتظر لينفذ أوامر الزعيم الملهم، وويل كل الويـل لمـن تسـول لـه نفسـه بالتفكير – فالتفكير في عرف تلك السلطة جريمة كبرى جزاؤها القتـل أو السـجن أو التعذيب.

كانت تلك السلطة قد مارست أبشـع أسـاليب القهـر والتعـذيب بحـق الإنسـان المصري في محاولة لإسقاط ثقته بنفسه – والأدهـى مـن ذلـك أن تلـك القيـادة قـد ورطت بعض قطاعات الجيش في المشاركة في قهر الشعب حتى تحقق الانفصام بين الطرفين. وكان على رأس قيادة الجيش مجموعـة المشـير عـامر المعروفـة بفسـادها وانحرافها المالي والأخلاقي – وهكذا هيئوا الظروف كلها لإلحاق الهزيمـة بأمتنـا – كانت أمة وراء الأسوار، وجيشا ذا قيادة منحرفة وبـرغم كـل هـذا كـانوا يـدركون أن الجيش والشعب بداخله ثقة لا حد لها وخبرة تاريخية هائلـة وخـافوا إن تركـوا هـذا الجيش ليقاتل فلربما ينتصر وهكذا أصدروا القرار الخائن بالانسحاب.

إننا أمام مجموعة من الحقائق التي اتفق عليها الجميع لندرس ماذا حدث في ١٩٦٧.

- صدر قرار من القيادة السياسية «عبد الناصر» بمنع التدريب العسكري لطلاب المدارس والجامعات!!

- كانت إسرائيل قد حصلت على أعظم كسب لها وهو إنهاء الحصار المصري عليها في البحر الأحمر بمرور الملاحة الإسرائيلية والتجارة الإسرائيلية في مضايق تيران بمقتضى تسوية فبراير ١٩٥٧ في أعقاب حرب ١٩٥٦ وهي التسوية التي لم تعرف الجماهير المصرية

- أو العربية عنها شيئًا.

- في ١٣ مايو ١٩٦٧ أبلغ وزير الدفاع السوري حافظ الأسد المشير عبد الحكيم عامر رئيس الجمهورية ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية عن حشود عسكرية إسرائيلية كثيفة على الحدود السورية على جبهتين في الشمال والجنوب من بحيرة طبرية.

ومن المعروف الآن في ضوء الوثائق أن قصة الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا كان مصدرها السوفييت، قصة كاذبة – وقد عرفت القيادة المصرية في الوقت المناسب بذلك – إلا أنها استمرت في تصعيد الموقف.

- في ١٥ مايو ١٩٦٧ رفعت حالة الطوارئ في الأراضي المصرية إلى الدرجة القصوى. وفي نفس اليوم أعلن عبد الناصر أنه أصدر أوامره بإرسال القوات المصرية إلى سيناء. وفي أثناء تقدم القوات المصرية في سيناء يوم ١٦ مايو طلب رئيس الأركان المصري الفريق محمد فوزي من الجنرال الهندي ريكي سحب القوات الدولية من خط الهدنة على الحدود الشرقية ولكن يوثانت سكرتير الأمم المتحدة في ذلك الحين أصر على أن أي طلب لإبعاد القوات الدولية من الحدود الدولية يقتضي طلب إخلاء كامل لجميع القوات الدولية من غزة ومن سيناء، فردت مصر بطلب سحب القوات الدولية كلها يوم ١٨ مايو وفي اليوم التالي وافق يوثانت على الانسحاب وفي يوم ٢٠

مايو تم سحب هذه القوات من جميع مواقعها في قطاع غزه وسيناء وفي اليوم التالي ٢١ مايو كانت القوات المصرية تحتل مواقعها في شرم الشيخ – وفي يوم ٢٢ مايو أعلن عبد الناصر قراره بإغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، وبذلك أصبحت الحرب أمرًا محتومًا.

إذن فإن كل شيء كان يقود حتمًا إلى حرب – فلماذا كان التقصير والإهمال من القيادة السياسية ما دام الجميع يعرف أن الحرب محتومة – ربما يقول قائل إن عبد الناصر لم يكن ينوي الدخول في حرب – وإنه كان يفعل ما يفعل بهدف الضغط وتوريط الأطراف وخاصة الاتحاد السوفيتي ليس إلا – ولكن هل هذا منطق؟ – وكيف يتلاعب عبد الناصر بمصير أمة وجيش ما دام غير مستعد للحرب. وإذا كان هذا منطقه فهو منطق مضحك – فمن يدخل إلى منطقة الحرب الحتمية دون استعداد هو خائن لأمته ولا شك – وإن كانت الأمور قد قادته رغم أنفه إلى ذلك فهو أحمق. وفي الحالتين لا ذنب للجيش المصري في شيء.

وربما يقول آخر إن السوفييت استدرجوا عبد الناصر وإن قصة الحشود الإسرائيلية على الجبهة السورية لم تكن صحيحة. ولكن من يُستدرج لا يصلح أن يكون زعيمًا. فضلاً عن أن القيادة المصرية كما هو ثابت قد علمت بأن قصة الحشود كانت زائفة في الوقت المناسب ولكنها اختارت المضي قدمًا في التصعيد ومعنى هذا أنها كانت تريد الدخول في الحرب وأن الأمر كله كان مجرد لعب غير مسئول بمصير أمة وجيش.

إن الأقرب إلى الفهم أن عبد الناصر كان يعرف أنه غير قادر على الحرب ومع ذلك اختار التصعيد حتى يدمر القوات المسلحة المصرية وذلك في إطار صراعه على السلطة مع المشير عامر وكانت الأمة هي الضحية والجيش هو المذبوح على رمال سيناء.

من الثابت أن رأي العسكريين المصريين استقر على عدم ضرورة إرسال قوات مصرية إلى شرم الشيخ تفاديًا لاتخاذ قرار بإغلاق خليج العقبة يجعل الحرب بين مصر وإسرائيل محتومة – ولكن عبد الناصر تجاهل هذا القرار وأصدر قرارًا بإرسال

القوات المصرية إلى شرم الشيخ كما استصدر قرارًا من اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي في جلسة خاصة بإغلاق خليج العقبة وتصعيد الموقف وطلب سحب القوات الدولية.

وقد ظهر على أثر ذلك القرار رأي في القيادة العسكرية المصرية يرى توجيه ضربة جوية لإسرائيل لانتزاع السيطرة منها ولكن عبد الناصر عارض هذا الرأي على أساس أنه يعرض مصر لمواجهة مع الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه طلب إلى القيادة العسكرية الاستعداد لتلقي ضربة جو إسرائيلية، وكان عبد الناصر يعلم علم اليقين أن إسرائيل تستعد للهجوم وأن احتمالات الحرب تتصاعد من ٥٠٪ عند بحث موضوع غلق خليج العقبة يوم ٢٢ مايو إلى ٨٠٪ عند اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي إلى ١٠٠٪ عندما أعلن عبد الناصر قراره بإغلاق خليج العقبة.

- وفقًا لرواية صالح مرسي – فإن شبكة مصرية تعمل داخل إسرائيل كانت قد استطاعت أن تحصل على الخطة الإسرائيلية لحرب ١٩٦٧ كاملة وخاصة عملية ضرب المطارات – وأن تلك الخطة قد وصلت إلى الرئيس

- عبد الناصر – إلا إنها لم يلتفت إليها وأهملت. ومعنى هذا أن الإهمال كان قد وصل إلى مستوى غير مقبول أو هناك خيانة متعمدة من جانب عبد الناصر.

إن وضع تلك الحقائق جنبًا إلى جنب يوضح وبما لا يدع مجالاً للشك أن عبد الناصر اختار التصعيد واختار الحرب مخالفًا رأي القيادة العسكرية وأنه رفض توجيه الضربة الأولى – واختار أن نتلقى نحن تلك الضربة وأهمل عن عمد أو بإهمال تقرير الشبكة المصرية عن الخطة الإسرائيلية ومعنى هذا كله ببساطة أنه وفقًا للظروف الموضوعية أنه اختار أن يتم تدمير الجيش المصري وإلحاق الهزيمة به – وقد يكون التفسير أن ذلك تم في إطار رغبة عبد الناصر في إزاحة المشير عامر الذي أمسك بتلابيب الجيش المصري. حيث إن الهزيمة سوف تؤدي حتمًا إلى نهاية المشير عامر – وقد يقول رأي آخر إن عبد الناصر فعل ذلك عن عمد لأنه كان ضالعًا في الخيانة والعمالة للأمريكان – راجع جلال كشك – «ثورة يوليو الأمريكية». وأيًا

كان التفسير فإن حجم الكارثة التي لحقت بأمتنا كـان مروعًـا والمسـئولية تقـع عـلى عاتق عبد الناصر والمشير معًا ولا ذنب للجيش المصري في شيء.

- على الرغم من علم القيادة السياسية والعسكرية بنية إسـرائيل في توجيـه ضـربة جوية وشيكة – إلا أن الضربة الجوية الإسـرائيلية وقعـت بينمـا كانـت هيئـة القيـادة العامة في الجو في الطريـق إلى أحـد المطـارات الحربيـة ممـا أدى إلى عـدم اعتـراض وسائل الدفاع الجوي المصري للطائرات الإسرائيلية بفاعلية مما أدى إلى تـدمير ٨٥ – ٩٥٪ من الطائرات المصرية المقاتلـة والقاذفـة عـلى الأرض فضـلاً عـن تخريـب معظم المطارات المصرية!!.

وهذا يؤكد أن قوات الدفاع الجوي لم تكن مقصرة – فقد شلت يدها عـن العمـل بسبب وجود هيئة القيادة العامة في الجو – الأمر الذي يبـرئ سـاحة الجـيش ويؤكـد وجود خيانة أو إهمال في قمة السلطة. فكيف تكون طائرة هيئة القيادة العامـة في الجـو في وقت يعرف فيه الجميع أن إسرائيل على وشك توجيه ضربة جوية!!.

- في مساء ٦ يونيو ١٩٦٧ صدر قرار بالانسـحاب مـن كامـل سـيناء في حـين أن الأمور لم تكن تدعو إلى اليأس في أعقـاب الضـربة الجويـة الإسـرائيلية لأن الطيـارين المصريين لم تكن قد نزلت بهم خسارة تذكر، وكان يمكن تدبير الطائرات مـن الـدول الصديقة – كما أن أوضاع القوات البرية في سيناء لم تكن تبرر قرار الانسحاب – وقـد أدى التخبط في القرارات إلى كارثة مروعة حيـث أصـبحت القـوات المصـرية صـيدًا سهلاً للطيران الصهيوني حتى بلغت الخسائر نحـو ٩٠٪ مـن الأسـلحة والمعـدات، وكان قرار الانسحاب قد اتخذ بين المشير عامر والرئيس عبـد الناصـر دون الرجـوع إلى رأي هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية.

وهكذا فإن ملابسات حرب ١٩٦٧ تؤكد أنه لم يكن للمقاتل المصري ذنب فيمـا حدث ولم يكن الجيش المصري إلا ضحية عبد الناصر وعامر.

***

أي أسى يشعر به المرء تجاه ما حـدث في ١٩٦٧، وكيـف مـارس جنـود اليهـود

إذلالا بحق جيشنا وأمتنا لم يكن لهما يد فيه. إن الإنسان يشعر بقدر هائل من المـرارة تجاه هؤلاء الذين تاهوا في سيناء أو هؤلاء الـذين أصـبحوا طعامًـا للنابـالم أو هـؤلاء الذين تورمت أقدامهم من المشي، وهم يصلون إلى مشارف القنـاة أو مـدن محافظـة الشرقية وما حولها وملايين المهجرين من سكان منطقة القناة الـذين اتخـذوا العـراء مأوى لهم نتيجة أخطاء عبد الناصر وعامر أو خيانتهما أو خيانة أحدهما.

حجم الإنجاز

لن نستطيع أن نفهم حجم الإنجاز الذي قام به الجيش المصري في حرب رمضان ما لم نضع في اعتبارنا حجم تسـليح الطـرفين – والتحصـينات الهائلـة التـي اسـتطاع الجندي المصري أن يتغلب عليها.

عقـب حـرب ١٩٦٧ المشـئومة والتـي عرفنـا أن الجـيش المصـري والإنسـان المصري لم يكن لهما ذنب فيما حدث فيهـا، انطلقـت أبـواق الاسـتعمار في الخـارج والداخل تحاول استئصال ثقة الإنسان المصري في نفسه، وتحاول إيهامه بأنه إنسـان متخلف وغير عصري ولا يصلح للقتال؛ كانت الحملة من القوة والشراسة والخبـث بحيث إن خطرها كان محدقًا – ولكن الإنسان المصري كان يستلهم وجدانه ويصـبر ويتماسك.

إن أول أهداف الاستعمار دائمًا كانت الإنسان، كانت المخططـات الاسـتعمارية التي نفذتها أبواق الاستعمار تعمل منذ فترة طويلة وبالتحديد منـذ الحملـة الفرنسـية على مصر في عام ١٧٩٨ – حينما اكتشف المستعمر أن هناك مصادر للقوة بـين أمتنـا ستظل عائقًا أمام تحقيق أهداف الاستعمار – كان عنصر الإيمـان والثقـة بـالله تعـالى والتمسك بقيادة العلماء المجاهدين، واستلهام روح الإسلام وخاصة الصـدر الأول منه من العوامل الهامة التي تحطمـت عليهـا الحملـة الفرنسـية وبعـدها حملـة فريـزر ١٨٠٧م – ومن يومها والاستعمار وتلامذته من أبناء المدرسة الاستعمارية يعملـون ليل نهار وفق مخطط محدد لفصم ذلك الإنسان عن نفسه، وعن دينه، وعن وجدانـه، وكذلك عزله باستمرار عن طريق الحكم الشمولي والديكتاتوري، ثم التـرويج لعـدم

صلاحية هذا الإنسان. وكانت حرب ١٩٦٧ فرصة هائلة ومادة خصبة لتلك المدرسة الاستعمارية. كان الإنسان المصري قد عانى كثيرًا من العزلة والتعذيب والإذلال على يد نظام عبد الناصر وها هو يتعرض عقب الحرب إلى عملية نفسية معقدة تستهدف إسقاط ثقة هذا الإنسان بنفسه نهائيًا.

كان الإعلام الإسرائيلي والغربي وبعض المرتزقة من العرب والمصريين يساهمون في هذا الأمر بلا تقاعس. ولم يتجرأ أحد على وضع التصور الصحيح لحرب ١٩٦٧ وملابساتها وفضح ما حدث فيها. وبدلاً من الاعتراف بالإهمال أو الخيانة في قمة السلطة وتحميل القيادة السياسية نتائج أعمالها وبالتالي تبرئة ساحة رجال الجيش – راح ذلك الإعلام يقدم صورة عكسية على طول الخط.

كانت الصورة التي رسمها الغرب والإعلام الموالي له كالتالي: إسرائيل دولة عظمى – إسرائيل لا تهزم – الجيش الإسرائيلي لا يقهر – العرب غير قادرين على الحرب – الجندي المصري لا يصلح للقتال – لن نستطيع العبور إلا بقنبلة ذرية، سيتم تدمير الجيش المصري بكامله إذا حاول العبور.

الجنرال موشى ديان – وزير الحرب المنتصر في ١٩٦٧ يقول أمام مؤتمر عقد في إسرائيل في يونيه ٧٣ «طالما أن لنا جنودًا إسرائيليين، وأن قناة السويس هي حدودنا العسكرية، وأن العرب هم أعداؤنا فإن كل شيء على ما يرام».

الجنرال أريل شارون – ٢٠ يوليو ١٩٧٣ – على صفحات جريدة معاريف الإسرائيلية «إن إسرائيل الآن قوة عسكرية عظمى – فأي دولة أوروبية أضعف منها عسكريًا»، وأضاف ذلك الجنرال «إنني أرى أنه ليس هناك أي هدف عسكري أو مدني من الخرطوم حتى بغداد والجزائر بما في ذلك ليبيا – إلا ويستطيع جيش الدفاع الإسرائيلي غزوه في أسبوع واحد».

سأل أحد الصحفيين جنرالاً إسرائيليا «ماذا يحدث لو حاول المصريون عبور القناة – فقهقه الجنرال وأخذ يدق بيده على فخذيه ثم قال: «إنني بمفردي وبمدفع هاون عيار ٨١ أستطيع أن أوقف عبورهم».

وعلى الجانب الغربي والعالمي – أصدر وزير المالية الهولندي أمرًا إلى دار سك النقود بأن تبادر بسك ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية تكون صورة موشي ديان «بالرباط على عينه اليسرى» فوق وجهها الأول وتكون النجمة السداسية نجمة صهيون على وجهها الثاني.

ولقد صدرت هذه الميداليات بالفعل وسرعان ما تحولت إلى موضة انتقلت من هولندا إلى أوربا الغربية.

وفي سلسلة من التحقيقات التي نشرتها صحيفة الديلي تلجراف عن جيش إسرائيل الأسطوري قال المحرر العسكري للصحيفة «إن حرب الأيام الستة. يجب أن تكون البوصلة الهادية لكل العسكريين الغربيين وغير الغربيين. وكل المسئولين في الأكاديميات العسكرية في العالم».

لم تقتصر تلك الحملة على الإعلام الإسرائيلي ولا الإعلام الغربي بل هناك في مصر ذاتها والعالم العربي من تلاميذ المدرسة الاستعمارية من راح يردد هذا الكلام وأكثر منه وسوف نكتفي بتلك المقالة الشهيرة التي كتبها الصحفي المعروف محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وقتها تحت عنوان «تحية إلى الرجال» قال فيها إن العبور مستحيل – وإن جيش إسرائيل لا يقهر – وإن العبور سوف يكون مذبحة حقيقية للجيش المصري وأسهب فيها في وصف قوة العدو.

***

وعلى الجانب الآخر – كانت الحركة الإسلامية – وعلماء الدين الشرفاء يتصدون تحت السطح وفي عمق المجتمع المصري لتلك الحملة وكانوا دائمًا يرددون أن الإنسان المسلم بخير وأنه قادر على تحقيق النصر – وأن زوال إسرائيل هي حتمية قرآنية – وكانوا يوزعون كتيبات تحتوي على الآيات والأحاديث التي تؤكد فناء إسرائيل وأنها إلى زوال – وأن الجندي الصهيوني جندي جبان لا يقاتل

إلا من وراء ستر. وكان هؤلاء المجاهدون يعملون تحت السطح برغم مطاردات البوليس لهم وبرغم غياب الكثير من الرجال في السجون والمعتقلات،

وكانوا يؤكدون دائمًا أن

ما حدث في ١٩٦٧ لم يكن إلا بسبب الخيانة والإهمال في قمة السلطة وأن الجيش المصري مظلوم وأنه إذا قدر لـه الاشـتباك في قتـال حقيقـي مـع العـدو فـإن قدراتـه وكفاءته سوف يشهد لهما العالم – كما كانوا يؤكدون أن الإنسان المـؤمن أقـوى مـن كل الأسلحة وأن الحسابات العسكرية لا تكون بالمعدات ولكن بـالإرادة والإيمـان والتصميم والعزم.

***

كان من ضمن الحملة الإعلامية التي شنتها القوى الاستعمارية على أمتنا أن هناك تفوقًا عسكريًا إسرائيليًا هائلاً – ورتبت تلك القوى على هذه المقدمة نتيجة تقول إنـه ما دام هناك تفوقًا عسكريًا إسرائيليًا هائلاً – فإنه لا أمل في القتال أو التحرير أو النصر – خاصة وأن ذلك التفوق مرشح للاتساع وليس العكس.

أما المدرسة الإسلامية – فكانت تقول نعم هناك تفوق عسكري إسـرائيلي هائـل بل وخطير وهو مرشح للاتساع – ولكن لدينا سلاحًا فتاكًا وهـو الإنسـان المـؤمن – صاحب الإرادة. والعزيمة والتصميم – وإن الإنسان المؤمن أقوى من كل الأسـلحة – التقليدية والذريـة والإليكترونيـة – وإن المقاتـل المصـري قـادر بـأدوات بسـيطة ومتاحة على تحقيق النصر مهما كانت قوة أسلحة العدو ومعداته.

ولا شك أن انتصار رمضان برغم ذلـك التفـوق الرهيـب في السـلاح الإسـرائيلي يؤكد نظرية المدرسة الإسلامية – ويؤكـد أن حجـم الإنجـاز الـذي حققـه المقاتـل المصري كان هائلاً.

والآن لنحاول أن نقترب من الصورة – لنرى كم كانت المهمة صـعبة بـل وشـبه مستحيلة وذلك بالاستناد إلى الحسابات العادية – ولنـرى كـم كـان سـلاح الإيمـان والإرادة فعالاً إلى أي مدى حيث حول تلك المهمة المستحيلة إلى مهمـة ممكنـة بـل وحقيقية.

– في سبتمبر من عام ١٩٧٣ قال الخبير العالمي «هو لبـروك» في مجلـة السياسـة

الخارجية الأمريكية التي يعمل أيضًا رئيسًا لتحريرها:

«إن إسرائيل لم يسبق لها طوال تاريخها أن كانت آمنة بمثل هذا القدر ولا متفوقة من وجهة النظر العسكرية بمثل هذا التفوق – وبعد انقضاء ست سنوات على حرب الأيام الستة فإن نشوب حرب صريحة بين إسرائيل وجيرانها العرب يبدو أقل احتمالاً مما كانت عليه في أي وقت من الأوقات».

– في شهر أغسطس ١٩٧٣ صدر التحليل الأخير للميزان العسكري عام ١٩٧٣ – ١٩٧٤ عن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية بلندن وقد جاء في هذا التحليل أن التفوق الجوي الإسرائيلي قد تدعم بدرجة كبيرة وأنه من دواعي فخر إسرائيل أن لديها أفضل الطيارين في العالم».

– في أبريل ١٩٧٣ زار كبير الخبراء السوفييت الجنرال «لاشنكوف» مصر وفي معرض تعليقه على استحالة العبور – من وجهة نظره طبعًا – قال الجنرال لاشنكوف للواء سعد مأمون «أنكم تفكرون في الحرب بأساليب عام ١٩١٤ قبل أن تخترع الدبابات» وأضاف «وهل تتصور يا جنرال أن المقاتل الفرد في الحرب الحديثة يستطيع أن يتصدى لدبابة؟ إن دبابات إسرائيل أمامكم ولن تستطيعون مقاومتها».

– وقال جنرال سوفيتي آخر للمشير أحمد إسماعيل قبل الحرب بشهور مشيرًا إلى الساتر الترابي المرتفع «إنكم تحتاجون إلى قنبلة ذرية لكي تتغلبوا على هذه المشكلة!!».

والآن لنصل إلى العقبات والتحديات والتحصينات التي كان على المقاتل المصري أن يتغلب عليها.

أخطر مانع مائي في التاريخ:

عرف التاريخ العسكري كيف اضطرت بعض الجيوش إلى عبور موانع مائية ولكن هذا التاريخ العسكري لم يعرف مانعًا يصل في خطورته إلى ما وصلت إليه قناة السويس للأسباب الآتية:

- أن جوانب القناة لا تنحدر بشكل تدريجي كما هو معروف بالنسبة للأنهار والقنوات العادية – وإنما تقف جوانبها بشكل رأسي تقريبًا وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد – بل إن هذه الجوانب أو الشواطئ مكسوة بالدبش والأسمنت علاوة على ألواح وشرائح الصلب على جانبي القاع لتقويتها ولتحول دون انهيار الجانبين وهي بهذا الشكل تمنع نزول وصعود المركبات البرمائية إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة تتطلب أعمالاً خاصة.

- على حافتي القناة ينهض ساتران ترابيان هائلان يصل ارتفاعهما إلى ٢٠ مترًا – الساتر الذي أقامته القوات المصرية على الضفة الغربية والذي يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه قبل عبور القناة، ثم الساتر الذي أقامه الإسرائيليون على الضفة الشرقية «والذي يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه بعد عبور القناة».

- عرض القناة الذي يتراوح بين ١٨٠، ٢٢٠ مترًا لا يسمح للقوات بالمناورة والانتشار أثناء العبور بل إنه يتسبب في الازدحام والكثافة مما يجعل القوات هدفًا سهلاً لضربات العدو.

- لا يوجد في القناة مكان ضحل أو مخاضة كما يقول العسكريون، وأهمية هذه المخاضة تتمثل في احتمال أن يضطر المقاتلون إلى الخوض في المياه على أقدامهم وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم ليس هذا فقط بل إنها تعتبر من أعمق الموانع المائية إذ يصل عمقها إلى ١٨ مترًا، كما أن سطح الماء ينخفض عن مستوى حافة الشواطئ بحوالي ٤ أمتار الأمر الذي يحتم تكسير وتسوية حافة الشاطئين لكي يتيسر رسو وسائل العبور المختلفة.

- التيار المائي في قناة السويس متغير السرعة من مكان لآخر بل من ساعة إلى أخرى وهذا يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة لتثبيت رءوس كباري العبور.

نظرا لأن تصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر فإن المد والجزر فيها يمثلان مشكلة أخرى إذ يتغير مستوى مياه القناة ٤ مرات خلال اليوم الواحد ويبلغ فارق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جزر حوالي ٦٠ سم في الشمال ويتزايد إلى مترين قرب

السويس.

الساتر الترابي:

- أقام الإسرائيليون ساترًا ترابيًا عملاقا على طول الضفة الشرقية للقناة. وظلوا يزيدون في ارتفاعه حتى وصل إلى ٢٠ مترًا.

- قام الإسرائيليون بزراعة جوانبه بحقول من الألغام بالغة الكثافة.

- أنشئ فوق قمته الترابية الأطراف مرابض للدبابات المدرعة الإسرائيلية بفاصل يتراوح بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ متر ومعنى ذلك أن كل كيلو متر واحد يشمل ٨ مرابض ولو قمنا بعملية حسابية بسيطة لوجدنا أن خط المواجهة الذي يصل إلى ١٧٠ كيلومترًا يحتوي على ١٣٦٠ مربضًا للدبابات والمدرعات ولنا أن نتصور كمية النيران التي تنهال من هذه المرابض على القوات التي تستعد للعبور – كما أن هذه المرابض تم إعدادها بحيث تقوم بإنتاج نيران جانبية مؤثرة توجه إلى القوات أثناء العبور.

- حتى لو جردنا هذا الساتر الترابي من كل هذه التجهيزات الكفيلة بوأد عملية العبور في مهدها، فإن مجرد تسلقه بارتفاعه الحاد يمثل مشكلة كبيرة أمام الأفراد المشاة الذين يحملون على ظهورهم معدات ثقيلة جدًا فكيف يكون الحال إذا كان عليهم أن يتسلقوه وسط جحيم النيران الذي يتربص بهم.

- وإذا نجح المشاة في عبور الساتر – فكيف يمكن للمدرعات أن تعبره بأسرع ما يمكن – خاصة أن القوات المصرية لا تملك قنبلة ذرية ولا عصا سحرية.

- أنشأ الإسرائيليون عددًا آخر من السواتر الترابية على عمق يتراوح بين واحد وثلاثة كيلومترات من الشاطئ الشرقي للقناة بنظام خاص، وهذه السواتر تستخدم كخطوط ومرابض نيران إضافية للدبابات وهي تلعب دورًا مؤثرًا في تحقيق عنصر الدفاع المحرك وهو تكبيد القوات المهاجمة أكبر خسائر ممكنة.

***

سلاح إسرائيل السري:

أعدت القوات اليهودية أجهزة لضخ مواد ملتهبة على الشاطئ الشرقي للقناة وقد صممت هذه الأجهزة بحيث تكون قادرة على أن تضخ وتدفع على سطح المياه بطول امتداد القناة مزيجًا من النبالم والزيوت المشتعلة وكميات من الكيروسين لتكوين طبقة من النيران فوق سطح المياه وبذلك تتحول القناة نفسها إلى حاجز من اللهب يستحيل اختراقه وكانت هذه الأجهزة الرهيبة تتكون من عدد من المستودعات الضخمة المعبأة بالخليط سريع الالتهاب، ولها صمامات تتحكم فيها طلمبات ضخ ماصة كابسة ويخرج منها خط من الأنابيب بقطر ٦ بوصات وتنتهي بفتحات تحت الماء على مسافات متقاربة وبشكل أكثر تركيزًا في جميع الأماكن الصالحة للعبور، وكان كل مستودع قادرًا على ضخ ٢٠٠ طن من هذه المواد الملتهبة وكانت جميع المستودعات مدفونة تحت سطح الأرض حتى يستحيل ضربها بالمدفعية – وحينما تمكنت القوات المسلحة المصرية من الحصول على عينة من هذه المواد الملتهبة تمت تجربتها بنفس النسب على مياه النيل وعندما قيست درجة حرارة المياه في السطح بعد اشتعالها اتضح إنها وصلت إلى ما يقرب من ٧٠٠ درجة مئوية – أي أنها كانت من القوة والبشاعة بحيث تحول القناة إلى قطعة من جهنم حتى أنها تشوي الأسماك مهما هربت إلى القاع وتلفح حرارتها أي شخص يبعد عنها بمسافة ٢٠٠ متر.

خط بارليف:

أنشأ اليهود على طول ضفة القناة الشرقية سلسلة من النقاط الحصينة «خط بارليف» وذلك لتكون مانعًا آخر في وجه عبور القوات المصرية.

يقول موشى ديان عن هذا الخط «إن عمليات العبور المصرية إذا حدثت لن تؤثر على قبضة إسرائيل الحازمة المتمثلة في خط بارليف المنيع – وسوف يتلقى المصريون الرد الحاسم لأن التحصينات الإسرائيلية في خط بارليف أكثر قوة وتنظيمًا ويمكن القول إنه خط منيع يستحيل اختراقه، إننا أقوياء بدرجة تكفي للاحتفاظ إلى الأبد بخط بارليف الذي أنفقنا على إنشاء تحصيناته مبالغ طائلة».

وقد استفادت إسرائيل من تجارب خطوط الدفاع السابقة وأضافت إليها. حتى كان خط بارليف عملاقًا بالمقارنة بتلك الخطوط. وقد ظلت العقلية الإسرائيلية العسكرية تضيف إلى هذا الخط تحصينات أخرى عامًا بعد عام حتى أصبح من وجهة النظر العسكرية خطًا منيعًا يستحيل اختراقه – فلكل دشمة من هذا الخط تجهيزات تجعلها قلعة مستقلة يمكن أن تصمد بمفردها و تعطي كمية هائلة من النيران – كما أنها لا تتأثر بطلقات المدفعية أو قصف الطائرات كما أنها مصممة بحيث تكون صالحة لاستخدام كافة أنواع الأسلحة وكان الهدف من هذا الخط هو ترسيخ الوجود العسكري اليهودي في سيناء ووقاية الجنود الصهاينة ضد التأثير النيراني للمدفعية والطائرات المصرية مع تحقيق القدرة على الصمود ضد أي هجوم بري من أي اتجاه – وفي الوقت نفسه تتيح تجهيزات الحصون إمكانية توجيه ضربات تدميرية للقوات المصرية لإجهاض أي محاولة أو حتى فكرة للعبور، وإعطاء إنذار مبكر ببدء العمليات من جانب القوات المصرية، وإعطاء معلومات دقيقة بوسائل الاستطلاع الموجودة في المواقع الحصينة والمستفيدة من ارتفاع الساتر الترابي عن عمليات الإعداد وعمليات اقتحام القناة وخاصة في المراحل الأولى، والسيطرة على المناطق الصالحة للعبور والطرق الطويلة التي تؤدي إلى عمق سيناء، وإدارة نيران المدفعية وتوجيه الطيران الإسرائيلي.

– يقول توماس تشينهام مراسل وكالة اليونايتدبرس عن هذا الخط «إن الجيش المصري – على الرغم من آلاف القصفات من المدفعية الثقيلة والهاونات والصواريخ، قد يفشل في تدمير حصن واحد من حصون خط بارليف».

الذراع الصهيونية.. الطويلة

كان سلاح الطيران الصهيوني يمثل ولا شك عقبة ضخمة وتحديًا هائلاً أمام الجندي والجيش المصري. فما لا شك فيه أن الطيران الصهيوني كان متفوقًا من حيث العدد والنوع بطريقة كبيرة جدًا. كما أن ذلك السلاح كان يمتلك التجهيزات والمعدات الإليكترونية المعقدة والحديثة وأجهزة الرادار وكذلك يمتلك الطائرات ذات المدى البعيد – أضف إلى ذلك أن القواعد الجوية الإسرائيلية كانت بعيدة عن

مدى الطائرات المصرية بعد احتلال سيناء في حرب ١٩٦٧ وقد أكد معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن في تقرير عام ١٩٧٣ التفوق الجوي الإسرائيلي، ولعل ما يوضح هذه الصورة قول هنري كيسينجر بعد يوم واحد من حرب رمضان عندما التقى بالدكتور محمد حسن الزيات «ماذا نستطيع أن نفعل من أجلكم؟ إن الطيران الإسرائيلي سوف يمزقكم إربًا إربا في غضون الأربع والعشرين ساعة الأولى من الحرب».

المدرعات الإسرائيلية:

تقول مجلة «أرمور» العسكرية الأمريكية في عام ١٩٧٣ : «إن سلاح المدرعات الإسرائيلي من أقوى أسلحة المدرعات في العالم» وفي تحليل نفس المجلة لأرقام الدبابات والمدرعات والعربات والألوية الميكانيكية التي يتكون منها سلاح المدرعات الإسرائيلي وصلت المجلة في النهاية إلى القول بأن ٧٨٪ من المدرعات الإسرائيلية متفوقة من حيث العدد والنوع والقدرة على الحركة والتسليح على الدبابات العربية.

***

إذن فقد كان حجم التحديات هائلاً وكانت المصاعب والتحصينات كثيرة، كان هناك تفوق جوي إسرائيلي هائل – والقتال تحت وطأة هذا التفوق الجوي مخاطرة كبيرة – وكانت أجهزة الحرب الإليكترونية المعقدة موجودة بوفرة لدى الإسرائيليين – كما كانت أقمار التجسس الأمريكية تزود الإسرائيليين بالمعلومات أولاً بأول، وكان هناك تفوق في المدرعات وكان هناك أخطر مانع مائي في التاريخ «قناة السويس»، وكان هناك الساتر الترابي. ثم خط بارليف – وما أدراك ما خط بارليف – ثم أنابيب النابالم والمواد الملتهبة، كان كل هذا موجودًا وعلى الجانب الآخر كان السلاح متواضعًا – والميزان العسكري من حيث التسليح مختلاً لصالح العدو – ولكن هناك إنسانا – إنسانا مؤمنا بربه ودينه ووطنه إنسانا استطاع أن يقهر المستحيل – وأن يتخطى تلك العقبات والتحصينات وأن ينزل بالعدو هزيمة قاسية. إنسانا استطاع أن يتجاوز التفوق في السلاح بسلاح الإيمان – واستطاع بالإرادة أن يعبر

أخطر مانع مائي وأن يفتح الثغرات في الساتر الترابي وأن يعطل خراطيم النابلم والمواد الملتهبة – بل وأن يزيل خط بارليف الرهيب.

إننا إذا قارنا بين حرب ١٩٦٧. وبين حرب رمضان – نجد أن ميزان القوى العسكري من حيث التسليح بين الطرفين في الأولى متوازنًا وفي الثانية مختلاً – ومع ذلك فإن النتائج كانت عكس ما تقوله موازين القوى – ما هو المتغير الذي حدث والذي أدى إلى هذا؟ أولى المتغيرات أن الجيش المصري لم يُسمح له بالقتال في الأولى ولكن هذا الجيش ذاته قاتل في الثانية – وهكذا فإن الأصل في هذا الجيش وذاك الإنسان أنه قادر على القتال والنصر رغم أحلك الظروف فإن العيب لم يكن فيه أبدًا – ولكن كان في القيادة السياسية الغارقة في الإهمال أو الخيانة والتي تفرض عليه في كل مرة الانسحاب قبل القتال – ولكن عندما قاتل هذا الجيش انتصر. وهكذا فإن حرب رمضان هي الأصل وغيرها هو الاستثناء – وهي وحدها الصالحة لتقييم أداء الرجال في المعارك.

قبل حرب ١٩٦٧ – كان الإنسان المصري ممزقًا بفعل عوامل القهر والتعذيب والانفصام النفسي الذي حاولوا إحداثه به عن طريق عزله عن دينه وعن ربه وتلقينه مبادئ ما أنزل الله بها من سلطان – وقبل حرب رمضان – كانت الحركة الإسلامية وعلماء الدين المجاهدين برغم السجن والتشريد تعمل بنشاط لإعادة ثقة الإنسان في نفسه وتحليل الأسباب الحقيقية للهزيمة في ١٩٦٧ والتركيز على قضايا الجهاد والقتال وسير الغزوات والمعارك التي خاضها الرسول والصحابة في الصدر الأول من الإسلام وكذلك أخبار الانتصارات والمعارك الكبرى ضد الصليبيين والتتار – كان هذا كله يحدث رغم أنف النظام أو تحت السطح – بل إن النظام اضطر إلى السكوت على قيام الجنود بتشييد المساجد في وحداتهم العسكرية وإقامة الصلاة الجامعة بها وتدارس آيات الجهاد والقتال في الوحدات العسكرية. وكانت النتيجة الحتمية لكل هذا أن أصبح هناك جامعًا وجدانيًا كبيرًا يجمع بين المقاتلين. الذين انطلقت صيحتهم بدون ترتيب في وقت واحد في كل مكان «الله أكبر» لتهز صروح الطغيان ولتتجاوب مع إرادة الله في النصر ولتحقيق أعظم حافز معنوي في التاريخ

وكـان مـن الطبيعـي أن يقهـر الجنـود المؤمنـون الحـاجز المـائي والسـاتر الترابـي وتحصينات خط بارليف – وأن ينتصـروا رغـم التفـوق الجـوي الإسـرائيلي وكفـاءة المدرعات اليهودية. كان الإنسان متسقًا مع نفسه ومع وجدانه فلما قاتل انتصر.

ولكي ندرك حجم الإنجاز الهائل الذي تم لنقرأ معًا ماذا حقق الجنود المؤمنـون الصائمون ذوو الجوارح المتوضئة. وسنقدم شهادات من العدو نفسه.

في مجلة «لانوفيل أو بزفـاتور» الفرنسـية كتـب فيكتـور سـيجلمان وهـو كاتـب يهودي مقالاً بعنوان «نهاية دولة إسرائيل الكبرى» قال فيه: «لقد اختفت تمامًـا أغـاني الانتصار التي كانت ترددها إذاعة إسرائيل بعد حرب ٦٧ – وحل محلهـا الآن أغـان تقول كلماتها «باسم الجنود الذين احترقوا في دباباتهم، باسم الطيـارين الـذين هبطـوا والنيران مشتعلة في أجسادهم، باسم وباسم وباسم».

وتقول جولدا مائير: «لا شيء أقسى على نفسي من كتابة ما حدث في ١٩٧٣ فلـم يكن حدثًا عسكريًا رهيبًا فقط – وإنما كان مأساة عاشت وسوف تعـيش معـي حتـى الموت». وتضيف «إن صدمتنا لم تكن فقط في الطريقة التـي حاربونـا بهـا ولكـن لأن عددًا من المعتقدات الأساسية التي آمنا بها قد انهـارت – كانـت أخبـارًا مروعـة مـن الجبهة تأتينا دائمًا».

- في اليوم الرابع للقتال ٩ أكتوبر ١٩٧٣ صرح موشى ديان للصحف «لن أخفـي عليكم أن قواتنا في الجـولان وفي قنـاة السـويس في حالـة ذعـر تـام – ولم يعـد لخـط بارليف وجود، كما أن أجهزة إشعال مياه القناة صارت خرافة، وأصارحكم بـأنني لا أتمنى أن أكون في هذه اللحظات في موقف رجال مدرعاتنا.. أما سلاحنا الجوي فقـد تم تحييده وقد بلغت خسائرنا فيه في اليوم الأول فقط – ستين طائرة منهـا ٣٦ طـائرة فانتوم».

حقًا لقد كان حجم الإنجاز الذي حققه الرجال بوسائلهم البسيطة هائلاً.

الإنسان – الإنسان

«المشاة المصريون مفاجأة رهيبة لنا – كل التقارير تقول بأن ضرباتهم لمـدرعاتنا

وحصوننا بالغة الدقة والجسارة – لقد اتضح أن ذراع هؤلاء المشاة المصريين أطول من مدافع دباباتنا – بل إن بعضهم كان يلقي بنفسه فوق الدبابات ليفجرها».

من أوراق «دافيد اليعازر» رئيس الأركان الإسرائيلي في حرب رمضان

ولكن ما حدث – كيف حدث – كيف استطاع الإنسان المسلم أن يحقق ذلك الإنجاز. وإذا كانت كل الحسابات العلمية والعملية تقول في ذلك الوقت إن العبور مستحيل – فلماذا نجح العبور؟ إننا أمام مدرستين في التفكير – المدرسة الاستعمارية – التي تحسبها بالكمبيوتر وتحاول أن تلقي في روعنا أن الآلة والكمبيوتر والطائرة والدبابة والصاروخ هي العوامل الحاسمة – وهناك المدرسة الإسلامية التي لا تقلل من أهمية الآلة والكمبيوتر والطائرة والصاروخ وغيرها – ولكن تقول إن الإنسان ذاته أقوى من كل هذه الأشياء وقادر على تجاوزها – وخاصة إذا استمد هذا الإنسان قوته من الله تعالى – القادر على كل شيء. والذي وعد جنده بالنصر. كانت مفاهيم تلك المدرسة تنتشر بين الرجال في كل موقع برضا النظام أو رغم أنفه – فوق السطح وتحت السطح وقد تجسدت تلك المفاهيم في تلك الصيحة الهائلة التي أطلقها الجنود في وقت واحد في كل جبهات القتال في العاشر من رمضان – تلك الصيحة التي روعت جنود الاحتلال وجعلتهم يفقدون صوابهم ويتحولون إلى قطعان من الماشية تنتظر الذبح، تلك الصيحة التي خلقت من الجنود في كل موقع كتلة واحدة متماسكة تستمد قوتها من الله تعالى القاهر فوق كل قوة والقادر فوق كل متكبر.

إن تتبع يوميات معركة رمضان يؤكد صحة النظرية الإسلامية التي ترى أن الإنسان أقوى من كل الآلات والأسلحة والحاسبات الآلية طالما كان يستخدم ما هو متاح لديه من طاقات وطالما كان يبذل كل ما في وسعه من جهد.

فعلى مستوى التدريب – بذل الرجال كل ما في وسعهم في هذا التدريب – وعلى مستوى التفكير فكر الرجال في كل صغيرة وكبيرة، ودرسوا كل الاحتمالات، وعلى مستوى التمويه نجح الرجال في إخفاء معالم تحركهم، وفاجئوا العدو به، وهكذا

أكدوا أن الإنسان المصري قادر على خداع اليهود أساتذة المكر والخداع.

كان الخبراء السوفييت قد خرجوا من مصر عام ١٩٧٢ – حاملين معهم أسلحتهم وأجهزتهم – ولعل هذا يؤكد أن العمل كان مصريًا صميمًا فلم يشارك فيه الخبراء السوفييت ولا أجهزتهم – الأمر الذي يؤكد أصالة وشجاعة وتفوق الجندي المصري، كانت الإمكانيات محدودة للغاية بعد أن تباطأ السوفييت في إعطاء مصر حاجتها من السلاح واعتمد الرجال على الوسائل المصرية المتاحة لتحقيق العبور واقتحام الصعاب.

ففي مرحلة الإعداد والتحضير – قام الجيش المصري بالعديد من تجارب العبور على موانع مائية تشبه قناة السويس إلى حد كبير جدًا، وقام سلاح المهندسين المصري بإعداد وتوفير معدات ومهمات العبور فتم تصنيع ٦٠٪ من الكباري محليًا، وتمت صناعة ٧٥٪ من قوارب الاقتحام التي وصل عددها إلى ٢٥٠٠ قارب وتم التدريب الشاق على إقامة الكباري في أسرع وقت – برغم بدائيتها وعلى استخدام القوارب بشكل منظم جدًا.

– قام العلماء من رجال القوات المسلحة المصرية بدراسة بالغة الدقة لكل ما يتعلق بالقناة كمانع مائي – كما تم تحديد أصلح الأماكن لإقامة المعابر واختيار أنسب الأوقات باليوم والساعة كما تم تحديد وإعداد الطرق والممرات اللازمة لوصول المركبات إلى أماكن العبور – كما تم إعداد الخطط المناسبة للتنسيق بين مختلف أفرع القوات المسلحة فقام سلاح الجو بدوره وقامت المدفعية بدورها وقام رجال الصاعقة البواسل بالعمل خلف خطوط العدو وتعطيل قواته – كما أن تلك القوات الخاصة استطاعت أن تبطل استخدام خراطيم المواد الملتهبة، وذلك بأن قامت مجموعتان من رجال الصاعقة قبل ساعة الصفر بوقت كاف بالتسلل إلى الضفة الشرقية للقناة وسدت مواسير المواد الملتهبة بتركيبة معينة من الأسمنت وبعض اللدائن سريعة التصلب كما قامت المجموعة الثانية بقطع خراطيم الطلمبات الماصة الكابسة.

وفي مواجهة الساتر الترابي – وبعد أن أثبتت التجارب عدم جدوى استخدام

المفرقعات أو غيرها من الوسائل ضده تفتق ذهن ضابط مهندس شاب عن اقتراح باستخدام طلمبات المياه «أسلوب التجريف» وهكذا نجحت تلك الفكرة الرائدة في فتح الثغرات اللازمة لعبور المركبات في الساتر الترابي. على أن تقوم قوات المشاة في الوقت نفسه بالعبور فوق الساتر الترابي بأسلحتها وذلك باستخدام عربة يجرها الجنود تحمل لهم الأسلحة والذخيرة اللازمة للتعامل مع العدو وخاصة الطلقات والمدافع الصغيرة المضادة للدبابات.

***

وهكذا نجحت خطة التغلب على المانع المائي والساتر الترابي – وإذا ما حللنا عناصر تلك الخطة نجد أنها اعتمدت على الإنسان أولاً وأخيرًا، ففي مواجهة خراطيم المواد الملتهبة كان الاعتماد على العنصر البشري «رجال القوات الخاصة وبأدوات بسيطة جدًا» فقامت هذه القوات إما بسد فوهات الأنابيب بالأسمنت واللدائن – أو بقطع خراطيم الطلمبات الماصة الكابسة، وهكذا كان العنصر البشري هنا فاعلاً – لأنه لو قدر لهذه المواد أن تعمل لكانت النتيجة مروعة – وبدهي أنه سبق تنفيذ هذه العملية عمليات بحث شاقة واستطلاع وتحديد دقيق لأماكنها وكل هذا الجهد يعتمد أساسًا على الإنسان.

قارن بين هذا العمل وبين إلغاء هتلر لعملية عبور مشابهة بسبب وجود مواد ملتهبة قابلة للاشتعال في معاركه مع بريطانيا في الحرب العالمية الثانية.

وفي مواجهة المانع المائي تم الاعتماد على الأدوات المحلية لصنع الكباري والقوارب – وتم التعويض عن بدائية الأدوات بكفاءة الرجال وشجاعتهم وهكذا فإن استخدام الأدوات المحلية يؤكد إمكانية تجاوز ضعف الإمكانيات بالمزيد من الاعتماد على الطاقات الإنسانية – أضف إلى هذا أن الدراسة المضنية والتدريب الشاق على العبور واختيار أفضل الأماكن والأوقات للعبور يؤكد صحة النظرية الإسلامية – فكل تلك الأمور هي جهد إنساني أولاً وأخيرًا.

وللتغلب على الساتر الترابي الذي وصفه أحد الخبراء الروس بأنه يحتاج إلى قنبلة

ذرية – استخدم المصريون فكرة عبقرية وهي استخدام طلمبات المياه «التجريف» وهي فكرة بسيطة وأدواتها متاحة وتؤكد أيضًا أن الإنسان بمزيد من الجهد والتفكير والإخلاص قادر على تجاوز أقوى الصعوبات، أضف إلى ذلك استخدام المشاة لعربة يد تحمل الأسلحة والذخيرة اللازمة وهي فكرة بسيطة أيضًا قد مهدت الطريق أمام تلك القوات لتسلق الحاجز الترابي منذ اللحظة الأولى – وهو الأمر الذي كان صعبًا بل مستحيلاً ما لم يتخفف الجندي من حمولته لو حملها على كاهله وأراد أن يتسلق بها الساتر. وكانت هذه الأسلحة والذخيرة لازمة لاقتحام خط بارليف والتعامل مع الدبابات.

وعلى مستوى القوات الجوية المصرية – فإن الطيارين البواسل قد حولوا طائراتهم الأقل كفاءة إلى طائرات أكثر كفاءة من العدو وذلك اعتمادًا على حسن تدريبهم وعلى شجاعتهم المنقطعة النظير، والأمر ذاته ينطبق على رجال المدفعية والدفاع الجوي، وكل هذا الجهد الإنساني ساهم في نجاح العبور حيث ساهمت الضربة الجوية والمدفعية في تعطيل وشل قوات العدو فترة كافية تسمح بالعبور، وكذلك قيام رجال الصاعقة بمهمتهم خلف خطوط العدو – وهو أيضًا أمر يعتمد على شجاعة وبسالة وحسن تقدير هؤلاء الرجال للأمور وكلها أمور إنسانية.

إذن كل هذا يؤكد أن الإنسان هو العامل الأهم في القتال – وهو ما تؤكده المدرسة الإسلامية. وهي تؤكد كفاءة وقدرة الإنسان المصري على عكس ما تروج المدرسة الاستعمارية.

ونصل الآن إلى خط بارليف. ذلك الخط من الاستحكامات والتحصينات الذي أقامته إسرائيل واعتبره قادتها من أكفأ الخطوط الدفاعية وأن الجيش المصري غير قادر على مواجهته. وبدهي أن هناك عمليات استطلاع ورصد قام بها رجال الصاعقة والاستطلاعات لدراسة ذلك الخط نقطة نقطة ودشمة دشمة، ودرسوا نقاط القوة والضعف فيه ووضعوا الخطط اللازمة لاقتحامه وهذا كله جهد إنساني في المقام الأول ولولا تلك الدراسة التفصيلية والدقيقة لهذا الخط لكان اقتحامه مستحيلاً. وقد كانت خطة اقتحام نقاط خط بارليف تقوم على دكه بالمدفعية الثقيلة والطيران،

على أن يقوم رجال المشاة والصاعقة باقتحام النقاط الحصينة والدخول إليها وإدارة معركة داخله. وقد نجح هذا الأسلوب أيما نجاح حيث إن الجندي الصهيوني غير قادر على المواجهة المباشرة – وكان الجنود الصهاينة يفاجئون بمن يدخل عليهم داخل حصونهم ويدير معركة معهم – وكان هذا كله يعتمد على شجاعة وكفاءة الإنسان أولا وأخيرًا – فلم تكن نيران المدفعية ولا الطائرات ولا نيران الدبابات بقادرة على تدمير هذا الخط شديد التحصين – وهذا يؤكد مرة أخرى أن الإنسان كان هو العامل الحاسم في كل مراحل المعركة.

وعلى مستوى المعركة مع سلاح الطيران الصهيوني – أقوى وأفتك الأسلحة الإسرائيلية وأشدها فعالية – والذي كانت إسرائيل تعتبره سلاحها الحاسم في المعركة – وبالنظر إلى التفوق النوعي والكمي الهائل في هذا السلاح فإن عبء شل فاعلية هذا السلاح وقعت أساسًا على وسائل الدفاع الجوي المصرية المتكونة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات والصواريخ الموجهة أرض جو وخاصة سام ٧ الذي يحمله فرد المشاة، وبالطبع فإن ذلك كان يقتضي نظامًا صارمًا من التنسيق والاستيعاب والكفاءة والتدريب للأطقم التي شغلت هذه الوسائل والتي نجحت في تحقيق غطاء فعال للقوات التي تعبر أو التي عبرت إلى الضفة الشرقية للقناة – وإذا ما وضعنا في اعتبارنا الحقيقة العسكرية التي تقول: «إن الطائرة لا تواجهها إلا طائرة» لأدركنا الإنجاز الهائل الذي حققه رجال الدفاع الجوي في تلك المعركة – حيث استطاعوا رغم الحقائق العسكرية أن يحققوا هدفهم في شكل قوة العدو الجوية اعتمادًا على كفاءتهم وشجاعتهم وبذلهم الإنساني – وهو ما يؤكد أن الإنسان كان دائمًا هو العنصر الحاسم رغم كل شيء.

فإذا وصلنا إلى سلاح الطيران المصري – والذي كان الطيران الإسرائيلي يتفوق عليه كمًّا ونوعًا. نجد أن هذا السلاح قد استطاع في الساعات الأولى للمعركة أن يقوم بضربة مركزة وحاسمة لقواعد وقوات وشبكة اتصال العدو في سيناء مما أخر دخول سلاح الجو الصهيوني سماء المعركة مما أدى إلى تحقيق عملية العبور بنجاح – وقد اعتمد سلاح الجو المصري في ذلك أساسًا على كفاءة الطيارين وفدائيتهم وروحهم

العالية – وهي أمور إنسانية أساسًا.

على أن النقطة الجديرة بالاهتمام هي تلك السيمفونية المتناسقة والمتجانسة للتنسيق بين الطيران والدفاع الجوي والتي هي أيضًا محصلة الجهد الإنساني أولاً وأخيرًا. ولعل الدور الهام والخطير الذي لعبه سلاح الطيران المصري ووسائل الدفاع الجوي المصرية في حرب رمضان يؤكد أن العيب لم يكن في رجال ذلك السلاح في عام ١٩٦٧.

ويمكننا أن ندرك خطورة ما قام به السلاح الجوي ووسائل الدفاع الجوي المصري في حرب رمضان إذا ما قرأنا ما قاله موشى ديان في اليوم الثاني من القتال «لقد استطاع المصريون تحييد سلاحنا الجوي – وإنني آمل أن يرسل لنا الأمريكيون الأسلحة التي طلبناها».

وقال الجنرال «أنتوني فارا رهوكلي» أستاذ التكتيك في الجيش البريطاني: «إن الطيارين المصريين أزالوا الدور الأسطوري للطيران الإسرائيلي في حرب ١٩٧٣ وبالتالي تضاءل دور المدرعات الإسرائيلية في تحقيق أي نجاح خلال معاركها التصادمية».

وقد قال الخبير الأمريكي روبرت هونز «إن الطيارين وسلاح الدفاع الجوي المصري والسوري استطاعوا تخفيض القوات الجوية الإسرائيلية إلى النصف في الفترة من ٦ – ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ وبنهاية هذه الفترة تضاءل نشاط الطيران الإسرائيلي إلى حد كبير وبعيد إلى أن بدأ الدعم الجوي الأمريكي بالطائرات والطيارين الأجانب».

إذا فقد كان السلاح الجوي المصري رائعًا – كما أن سلاح الجو الصهيوني قد مني بخسارة فادحة وتم تحييده وإخراجه من المعركة برغم التفوق النوعي والكمي الهائل له – ألا يؤكد هذا أن العنصر الإنساني والكفاءة القتالية كانا العاملان الأهم في هذا الصدد.

***

وإذا كانت إسرائيل تملك قوة مدرعة متفوقة على حد رأي الخبراء العالميين والذي وصل الأمر بأحدهم أن يقول: «إنها واحدة من أقوى المدرعات في العالم». فإن علينا الآن أن نرى كيف استطاع المقاتل المصري أن يواجه تلك المدرعات ويسحقها.

وقد اعتمدت الخطة المصرية على أن تكون الموجات الأولى للعبور والاقتحام للمشاة. وأن على هؤلاء المشاة أن يتصدوا للدبابات الإسرائيلية وتم تزويد هؤلاء المشاة بمختلف الأسلحة المضادة للدبابات في نفس الوقت الذي تقوم فيه المدفعية والدبابات المصرية على الضفة الغربية للقناة بالمساعدة في مواجهة تلك الدبابات كما تم عمل أكمنة يربض فيها عدد من جنود المشاة فوق الساتر الترابي في الضفة الغربية للقناة لاصطياد الدبابات الإسرائيلية بصواريخهم المضادة للدبابات «قناص الدبابات».

وقد نجحت القوات المصرية في شل فاعلية الدبابات الصهيونية واصطياد عدد كبير منها وخاصة على يد قناصي الدبابات الذين وصلت شهرة بعضهم إلى مستوى كبير مثل عبد العاطي صائد الدبابات الذي استطاع أن يدمر أكثر من عشرين دبابة.

والآن لنقرأ بعض أقوال قادة العدو لنعرف إلى أي مدى نجح المقاتل المصري في التصدي للدبابة وشل فاعلية قوات المدرعات الصهيونية. يقول زئيف شيف الخبير الإسرائيلي: «كانت إصابات رجال المدرعات كبيرة».

ويقول قائد إحدى سرايا المدرعات – الضابط «باروخ شمبر»: «نظرت حولي فشاهدت قذائف نارية مشتعلة ترقص في الجو وهي في طريقها إلى دباباتنا القريبة مني – لم أفهم بعد ماذا يحدث – ولكنني فهمت في وقت لاحق أن هذه صواريخ وأن المشاة المصريين الواقفين أمامنا لا يقلون خطورة عند الدبابة، كان هذا بالنسبة لنا مفاجأة تامة وطوال ذلك اليوم كنت أشاهد هذه القذائف النارية تتنزه في الصحراء وهي تنطلق من قلب الرمال، اشتعلت النار في دبابتي هي الأخرى قفزنا منها، كنا مذهولين، ولم يكن حظ الدبابات الأخرى في السرية بأوفر من حظنا – فعندما نظرنا

من خلف التلال الرملية، شاهدنا مشاعل محترقة كانت هذه فيما مضى دبابات السرية».

يقول الكاتب الأمريكي «كنث براور»: «في الأيام الثلاثة الأولى لحرب ١٩٧٣ على الجبهة المصرية قام الإسرائيليون بشن هجمات مضادة سريعة بالمدرعات – ولكنهم كانوا يفشلون في كل مرة ويصابون بخسائر جسيمة حتى أنه دُمر لهم أكثر من ٢٥٠ دبابة على أيدي المشاة المصريين الذين صمدوا في الصحراء المكشوفة ومعهم الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات.

وهكذا أثبت أفراد المشاة المصريين المسلحين بالأسلحة المضادة للدبابات قدرتهم على هزيمة سلاح المدرعات الإسرائيلي – وهو ما يثبت مرة أخرى أن الإنسان هو العامل الحاسم في القتال.

***

يقول موشى ديان «إن أخطر ما نواجهه الآن في سيناء هم المشاة المصريين إنهم مزودون بصواريخ صغيرة يختفون بها عن الأنظار، فإذا ما تقدمت الدبابات الإسرائيلية أطلقوا عليها صواريخهم فيصيبونها وتصبح عاجزة تمامًا».

***

إننا الآن سنرسم بطريقة موجزة صورة حقيقية أخرى حدثت على مشارف مدينة السويس في الأيام الأخيرة من رمضان توضح إلى أي مدى يتمتع الإنسان المصري بصلابة غير عادية وبقدرة فذة على المواجهة.

كانت القوات الصهيونية قد نجحت في التسلل عبر الثغرة في منطقة الدفرسوار واستطاعت أن تصل إلى مشارف مدينة السويس وأن تحاصرها وحاولت تلك القوات أن تحتل المدينة – وكان معنى احتلال المدينة لا قدر الله أن حبلاً قد التف حول عنق الجيش الثالث في سيناء – وأن القاهرة ذاتها قد أصبحت مهددة.

تعرضت مدينة السويس لقصف بشع من الطائرات والدبابات والمدفعية الصهيونية وكانت المدينة تعاني من حصار الجوع والعطش. ولكن أهل المدينة

الشرفاء قرروا أن يقاتلوا – فلم يتعود المسلمون على حد قولهم أن يستسلموا وهددت مكبرات الصوت الصهيونية بدك المدينة ولكن ذلك لم يفت في عضد أهالي المدينة.

وكعادة الأمة حين يجد الخطر فقد لاذ أهالي السويس بالمسجد – واتخذوا من الشيخ المجاهد حافظ سلامة قيادة لهم لما عرفوا عنه من طول الجهاد والبلاء في سبيل الله – واجتمع أهل المدينة في مسجد الشهداء وقرروا أن يصمدوا وأن يقاتلوا، وصمدت المدينة للحصار وتقاسم أهلها كوب الماء وكسرة الخبز – بل إنهم أرسلوا شيئًا منها إلى رجال الجيش الثالث المحاصرين في سيناء، استخدم أهالي السويس ما تيسر لهم الحصول عليه من الأسلحة من جنود الجيش الثالث في المدينة وخاصة الذين استشهدوا أو جرحوا، كان مركز القيادة في مسجد الشهداء، وانطلقت المجموعات المجاهدة من المسجد لتسد منافذ المدينة بالسيارات والمصفحات المحطمة. وقامت تلك المجموعات بعمل الأكمنة في مداخل المدينة واستطاعت أن تصد جميع الهجمات الصهيونية، وكانت الدبابات التي تنجح في دخول المدينة تتعرض للتدمير على يد الأهالي الذين استخدموا في ذلك

ما تيسر لهم من الأدوات – شارك الجميع في تلك المعارك – الرجال والأطفال والنساء – والعمال والتجار ورجال الدين – ولم ينج جندي صهيوني واحد تجرأ على دخول المدينة واستطاعت المدينة أن تظل صامدة لتخوض معركة بعد معركة شاهدة على قدرة الإنسان المصري.

إن عددًا من الملاحظات يمكن أن نسجلها هنا – فبرغم القوات الصهيونية الضخمة والمسلحة جيدًا – وبرغم بساطة إمكانيات أهالي السويس فإن أهالي السويس نجحوا في الصمود لمدة طويلة برغم الجوع والعطش وآلاف القنابل والصواريخ، ويمكننا أن نفهم شراسة المعركة إذا ما أدركنا أن العدو الصهيوني كان يعول أهمية كبيرة على سقوط المدينة لما لذلك من أثر نفسي وعسكري كبير. وكل هذا يؤكد أن الجماهير قادرة على الصمود والانتصار.

مهما كانت قوة الأعداء ومهما كانت قوة تسليحهم، وأن الإنسان هو العامل الرئيسي والأهم في المسألة.

***

على أن الأمر لم يقتصر في حرب رمضان على الأداء البطولي لرجال القوات المسلحة المصرية أو هؤلاء الأهالي في السويس أو منطقة الدفرسوار التي قدر لهم أن يواجهوا القوات الصهيونية برجولة وشجاعة. بل إن روح رمضان قد سرت في جسم الأمة كلها. كانت المشاركة الشعبية في المعركة هائلة ورائعة.

في كل قرية مصرية قريبة أو بعيدة عن جبهة القتال كانت قلوب الرجال والنساء والأطفال معلقة بالمذياع وأحاديث العلماء المجاهدين في المساجد يشرحون فيها أبعاد المعركة وما تم إنجازه في جبهة القتال – كانت المساجد كخلايا النحل يجتمع فيها كل الأهالي ليتدارسوا أمر مشاركتهم في المعركة ووسائلها – قدم الناس كل ما لديهم من ملابس وطعام لدعم رجال القوات المسلحة.

وعرض الكبير والصغير أن يتبرع بدمه، وتكونت لجان للتضامن مع أهالي المقاتلين وخدمتهم. لم يكن هناك بيت في مصر كلها إلا ووضع كل ما يملك تحت تصرف المعركة. ليس هذا فحسب – بل وعلى مستوى الأداء الوظيفي تخلص الجهاز الوظيفي المصري المشهور بالبيروقراطية من كثير من بيروقراطيته وأصبح الإنسان قادرًا على إنجاز طلباته في أسرع وقت – وقام العمال في المصانع بالعمل ليلاً ونهارًا لزيادة الإنتاج وحماية مصانعهم. كان كل شيء في مصر يتحرك بروح رمضان.

***

لماذا كان هذا – وما هي دلالاته – إن الحقائق المجردة. تقول إن العدو الصهيوني يمتلك أحدث الأسلحة وأقواها – وتقف خلفه دول حلف الأطلنطي بإمكانياتها الهائلة – وعلى الجانب الآخر يقف الإنسان المصري بأسلحة غير متكافئة ومع ذلك كانت النتيجة أن هذا الإنسان قاتل فانتصر، كان العدو يمتلك أحدث أجهزة التصنت والتجسس الإليكترونية وكان لديه المعلومات أولاً بأول عن طريق

الأقمار الصناعية وأجهزة الرصد التابعة لأمريكا ولحلف الأطلنطي – وكان لدى الإنسان المصري أن يعتمد على نفسه في الاستطلاع خلف الخطوط وأن يحصل على معلوماته بالعمليات الفدائية والتسلل.

كان العدو الصهيوني يمتلك أحد الطائرات وأقوى سلاح جوي في المنطقة – ومع ذلك نجح الإنسان المصري بالتدريب الشاق والاعتماد على الجرأة والشجاعة والفدائية وأبسط الأسلحة أن يشل حركة قوات العدو الجوية.

كان العدو الصهيوني يمتلك أقوى سلاح مدرعات – ولكن فرد المشاة والكوماندوز استطاع بما يحمله من أسلحة بسيطة أن يحول هذا السلاح إلى ركام.

كان هناك مانع مائي لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب – ولكن الرجال كان لديهم الإرادة فصنعوا المعابر والكباري والقوارب وصنعوا بأجسادهم وأرواحهم حائطًا لحمايتها واستطاعوا العبور، رغم كل هذا كان هناك الساتر الترابي الذي قال عنه أحد الخبراء الروس إنه يحتاج إلى قنبلة ذرية ولكن عبقرية الإنسان المصري وبأدوات متاحة استطاعت أن تحدث ثغرات في هذا الساتر المنيع باستخدام فكرة عبقرية لأحد المهندسين المصريين «فكرة التجريف بمضخات المياه».

وكانت هناك خراطيم المواد الملتهبة. ولكن رجال الكوماندوز المجاهدين استطاعوا أن يحيلوها إلى خراطيم صماء.

كان هناك خط بارليف المنيع – ولكن كان هناك رجال المشاه الذين اقتحموا الحصون بأجسادهم فأحدثوا ذعرًا هائلاً لقوات العدو.

كان هناك شعبًا يجاهد بجانب الجيش المقاتل – واستطاع أهالي السويس أن يصمدوا للحصار حصار الجوع والعطش والقصف وأن يحطموا كل الهجمات الصهيونية على مشارف المدينة وأن ينقذوا الجيش الثالث في سيناء وأن يحرموا القوات الصهيونية من فرصة السيطرة على مدينة السويس بما لها من آثار نفسية وعسكرية، وكان هناك الإنجاز الرائع للعمال في المصانع والفلاحين في الحقول والموظفين في المكاتب.

كان هناك الإنسان المصري. الذي قاتل فانتصر.

إذن فقد كانت حرب رمضان هي القاعدة الصالحة لتقييم الإنسان المصري وليس حرب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ – لأنه في كل تلك المعارك لم يحارب – فلا نستطيع أن نجعلها اختبارًا صالحًا – إذًا فالحقيقة الأولى هي إذا قاتل الإنسان المسلم انتصر. والحقيقة الثانية أن ذلك الإنسان أقوى من الآلة، والحقيقة الثالثة: أنه إذا وجد هذا الإنسان سواء كان مقاتلاً أو مدنيًا الظروف الصحيحة لاستخراج طاقاته فإنه يكون عبقريًا.

ولكن ما هذه الظروف الصحيحة؟

إننا إذا حللنا ظروف حرب رمضان مقارنة بظروف حرب ١٩٦٧ نجد أن الظرف الأول هو السماح لهذا الإنسان بالالتحام والقتال ونجد أن الظرف الثاني هو أن يكون الشحن المعنوي لهذا الإنسان مرتبط بعقيدته ووجدانه «الإسلام». فعلى حين كان الشحن المعنوي فيما قبل ١٩٦٧ يعتمد على عقائد وأفكار لا يعرفها ولا يفهمها بل يرفضها الإنسان المصري نجد أن الشحن المعنوي في حرب رمضان كان إسلاميًا – فمن ناحية قامت الحركة الإسلامية برضا النظام أو عدم رضاه بهذه الأمر – وقام به علماء الإسلام المجاهدين الذين ذهبوا إلى الجنود في الخنادق وتحدثوا عن بدر وحطين وعين جالوت – وقام به الجنود أنفسهم بمبادرات شخصية منهم مع بعض الضباط – وساهم في هذا الأمر أن توقيت المعركة جاء في رمضان وهو شهر انتصارات المسلمين أولاً – وهو شهر ترتفع فيه الجوانب الإيمانية للإنسان المسلم بصورة مباشرة. كما أن موعد المعركة كان في نفس ذكرى معركة بدر – أضف إلى هذا كله صيحة الله أكبر التي خرجت من صدور الجنود الصائمين.

والظرف الثالث هو أن الإنسان المصري تعرض قبل ١٩٦٧ لحالة من العزلة وفرضت عليه القيادة السياسية ألا يفكر وأن يسمع فيطيع وتم إخلاء الحياة السياسية من كل شيء ما عدا حزب الحكومة «الاتحاد الاشتراكي» ليس هذا فحسب بل إن أي صاحب عقيدة كان يتعرض للسجن أو القتل أو التعذيب – بل مورس التعذيب على الإنسان العادي في حين أن الظروف قبيل حرب رمضان كانت أفضل كثيرًا جدًا

في هذا الصدد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الآيتان ٩، ١٠ من سورة الأنفال].

مدد الله

ومدد الله تعالى لا يأتي للقاعدين أو الكسالى أو المتراخين – ولكنه يأتي للمجاهدين الذين يبذلون من الجهد أقصاه ومن العمل آخر مداه.

ومدد الله حقيقة إسلامية لا ينكرها إلا جاحد. وهي حقيقة تستند إلى صريح القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وإجماع العلماء، وقد جاء مدد الله تعالى للمسلمين في غزوة بدر وتخلف في غزوة أحد ثم عاد ليظهر في غزوة الخندق، جاء في الأولى مباشرة عن طريق الملائكة المردفين وجاء في الثالثة غير مباشر عن طريق الرياح التي اقتلعت خيام الأحزاب وألقت بهم في الصحراء، جاء في الأولى والثالثة لأن المسلمين فيهما بذلوا غاية جهدهم في القتال

أو التدبير أو استخدام المكر والحيلة، وتخلف في الثانية لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم ينفذ بعضهم خطة رسول الله ﷺ وأوامره.

ومدد الله يأتي دائمًا ولا يتخلف وهذه حقيقة هامة جدًا في وجدان المسلم تدفعه إلى الثقة بالنفس وإلى الإحساس بالتفوق بل وتحقق له من الناحية العملية فوائد جمة. فإذا كان المسلم يعرف أنه يستند في قوته إلى صاحب القوة إلى القهار الجبار فإن ذلك يجعله يخوض المصاعب، و يجعله قادرًا على اجتياز المستحيل – فأي قوة وأي مستحيل لا تقاس بجانب قوة الله تعالى وقدرته. ولعل تلك الحقيقة الهامة بما لها من آثار نفسية وعملية هامة دفعت الاستعمار دائمًا ودفعت أبناء المدرسة الاستعمارية دائمًا إلى محاولة نزع تلك الحقيقة من وجدان أمتنا وإلقاء ظلال من الشك حولها

ومحاولة تطويق آثارها وذلك لكي يسهل على الاستعمار ترويض أبناء أمتنا والتحكم فيهم ونزع كل ما من شأنه زيادة قدرتهم على المواجهة والصمود.

وهناك شرطان أساسيان لوصول مدد الله تعالى – أولهما هو طاعة الله تعالى وثانيهما هو بذل كل الجهد والطاقة.

وإذا ما طبقنا هذان الشرطان على حرب رمضان المجيدة – نجد أن طاعة الله تعالى قد تحققت وذلك لأن جنود جيشنا قد تمسكوا بأهداب تعاليم الإسلام. وشيدوا المساجد في وحداتهم العسكرية – وأقاموا فيها الصلاة بل وعقدوا ندوات حول غزوات الرسول وحول الأفكار الإسلامية عمومًا – كما أنهم دخلوا المعركة في شهر رمضان الكريم وهو الشهر الذي تتجلى فيه طاعة الله تعالى لدى المصريين – وكان أكثر هؤلاء الجنود صائمين – وإن كان الإفطار مباحًا في الحرب – بل إن صيحة الله أكبر التي انطلقت تلقائيًا من صدورهم – إنما تعبر عن مكنون صدور وتوجههم الحقيقي الذي تجلى في تلك اللحظات الهامة من تاريخنا، وعلى مستوى الإعداد وبذل الجهد فقد بذل الرجال كل جهدهم وأخرجوا طاقاتهم بكاملها. سواء بالتدريب الشاق أو قدح أذهانهم للتغلب على الصعوبات الفنية، أو محاولاتهم المستمرة للحصول على السلاح والآلات اللازمة للحرب – وما لم يتيسر لهم الحصول عليه قاموا بتصنيعه – كما بذلوا جهدهم في إعداد الخطط ودراسة كل الاحتمالات وفي الاستطلاع والرصد والدراسة الفنية لكل صغيرة وكبيرة وبذلوا جهدهم وطاقاتهم في كل مجال قبل المعركة وأثنائها.

وهكذا جاءهم مدد الله تعالى بطريقة مباشرة وبطريقة غير مباشرة – سواء في أن الله تعالى أصاب العدو بالعمى والصمم رغم أنه كان يرى ويسمع فلم يقدر حقيقة الأمر رغم أنه يراه بعينه – أو في ذلك التخبط الذي ساد صفوفه عقب المعركة – أو في توفيق الله تعالى في عمليات قواتنا أثناء العبور وبعده. أو في تلك الآيات والمعجزات التي رآها الجنود رأي العين. سواء في القذائف التي لم تنفجر أو في توجيه قذائفهم نحو دبابات العدو وأهدافه أو هؤلاء الذين يرتدون الزي الأبيض والذين رآهم معظم الجنود على الجبهة في أيام القتال والتي تواترت الأخبار التي نقلها معظم الجنود

والضباط عن حقيقة هؤلاء الملائكة الذين شاركوا في المعركة. أو في الربط على قلوب المقاتلين أثناء المعركة.

وبدهي أنه برغم تواتر تلك الروايات مما يقطع بصحتها فإن أبناء المدرسة الاستعمارية من العلمانيين واليساريين راحوا يحاولون إنكار ذلك وإلقاء ظلال من الشك حوله – وذلك خدمة لأهداف الاستعمار التي تريد اجتثاث كل ما من شأنه زيادة ثقة أمتنا في نفسها.

وقد تركزت حجج أبناء المدرسة الاستعمارية في إنكار تلك الخوارق على النحو التالي.

- إنها أمور لا تتفق مع منطق العلم.
- إنها أمور تقود إلى التفكير الخرافي وسيادة روح التواكل والعجز في صفوفنا.

والآن لنبدأ في مناقشة حجج هؤلاء – فمن ناحية منطق العلم والتفكير العلمي فإن ظاهرة ما إذا ما رآها الآلاف بل عشرات الآلاف وتواترت بشأنها الروايات – فليس من العلمية في شيء إنكارها، ولكن كان عليهم تصديق الرواية ما دامت متواترة وعدم إنكارها – ويمكنهم بعد ذلك البحث والاختلاف في تفسيرها.

على أننا كمسلمين نؤمن وانطلاقًا من الآيات القرآنية المحكمة والسنة النبوية المطهرة بأن مدد الله يأتي دائمًا للمجاهدين – وهذا الأمر في وجداننا وعقيدتنا أثبت وأرسخ من كل منطقهم ومنهجهم الذين يدعون علميته رغم أنه لا علمي ولا موضوعي.

ومن ناحية أنها أمور تقود إلى التفكير الخرافي وسيادة روح العجز والتواكل في صفوفنا – فإن كل مسلم يعلم أنه مأمور بطلب العلم – وأنه مأمور بالبحث في سنن الكون ودراستها وهناك عشرات الآيات القرآنية التي تدعو إلى ذلك – كما أن المسلم يعرف أن مدد الله لا يأتي إلا بعد أن يبذل الإنسان الجهد كل الجهد والطاقة كل الطاقة – الجهد العقلي والبدني والنفسي.

إن إيمان المسلم بأن مدد الله يأتيه لا يدفعه إلى العجز والتواكل بل على العكس تمامًا يدفعه إلى الإصرار والعمل برغم كل المصاعب لأنه يعرف أنه مهما كانت المصاعب أمامه فإن عليه أن يبذل كل جهده وأن يستنفد كل طاقته ثم يترك الباقي لله تعالى.

هل عرفنا الآن لماذا جن جنون أبناء المدرسة الاستعمارية من تواتر الروايات عن مدد الله في حرب رمضان؟!

والآن علينا أن نقدم بعض الخوارق المباشرة التي شاهدها آلاف من شهود العيان بحيث لا ينكرها إلا مكابر.

الزمان يوم عيد الفطر – ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣.

قرر أهالي المدينة – في إطار تحديهم للحصار الصهيوني أن يقوموا بأداء صلاة العيد في جماعة في مسجد الشهداء. وكان هناك رأي بعدم أدائها حتى لا يتعرض المصلون لقذائف الطيران والمدفعية الإسرائيلية.

الشهود. كل من حضر الصلاة من أهالي السويس أو جنود الجيش الثالث.

المعجزة: تنطلق آلاف القذائف من المدفعية والدبابات الإسرائيلية ويتعرض المسجد لقصف الطائرات – وتتساقط القذائف حول المسجد دون أن تصيبه ولو قذيفة واحدة أو صاروخ واحد منها – وتتم الصلاة – فقد كان المسجد في حراسة الله تعالى.

يقوم الشيخ المجاهد حافظ سلامة قائد المقاومة الشعبية بتوزيع كعكة على كل مصل «ويبلغ عددهم عدة آلاف» من صندوق وحيد للكعك كان معه. ولم ينفد هذا الصندوق.

- قام اليهود المحاصرون لمدينة السويس بمنع المياه عن المدينة وذلك بقطع مياه الترعة الحلوة عن المدينة – وتشح المياه تمامًا – ويقترح الشيخ عبد الله رضا أحد الوعاظ المجاهدين – أن يتم حفر بئر أمام مسجد الشهداء لاستخدام مياهه –

المالحة طبعًا – فمدينة السويس ليس بها مياه حلوة – في الوضوء وغسيل دورة مياه المسجد والاستنجاء والاستحمام وغيرها – ويشاء الله تعالى أن تخرج المياه عذبة – وتشرب المدينة الباسلة.

- يأتي إلى مسجد الشهداء – مقر قيادة المقاومة الشعبية – الحاج مبارك «٦٠ سنة» ويخبر الشيخ حافظ سلامة أن هناك بئرًا قديمة مهجورة اسمها بئر سيدي المدبولي – ويذهب الشيخ حافظ إلى البئر مع أهل السويس ويقرءون الفاتحة فإذا بالمياه تتدفق – فتغذي المدينة وتغذي الجيش الثالث المحاصر في سيناء واستمر تدفق المياه حتى نهاية الحصار.

- كان هناك نقص حاد في السولار اللازم لإدارة

- المخابز – ويشاء الله سبحانه أن يترك أحد الجنود سيارته المحملة بالسولار داخل إحدى الحواري بالمدينة «خشية إصابتها بالطيران على ما يبدو» وربما استشهد هذا الجندي – ويقوم المجاهدون في المدينة بالاستفادة منها وتوزيعها على المخابز – لتقوم بإعداد الخبز اللازم للمدينة المحاصرة.

- أليس هذا هو مدد الله تعالى – ولكنه جاء إلى المجاهدين في المدينة – لأن أهل المدينة بذلوا كل ما في طاقاتهم – قاتلوا بالسلاح وبأيديهم – قفزوا على الدبابات وأشعلوا فيها النار – صنعوا الأكمنة في مداخل المدينة ومنعوا القوات اليهودية من دخولها – اجتمعوا في المسجد وقرروا الصمود والقتال وتدارسوا الموقف – لم يفت فيهم حصار الجوع والعطش وآلاف الصواريخ والقذائف – تقاسموا اللقمة وكوب الماء. فجاءهم مدد الله تعالى.

الجندي أحمد العناني – من محافظة الدقهلية:

«كنت ضمن كتيبتي في منطقة كبريت – وكنا نتعرض لقصف متواصل من الطائرات الإسرائيلية. وكانت يد الله تحرسنا – كانت الصواريخ تتدفق من الطائرات كالأمطار الغزيرة. ومع ذلك كنا ننجوا في كل مرة نتعرض فيها للقصف. وفي إحدى

المرات أصاب صاروخ الموقع الذي كنت فيه. وبعد هدوء القصف. وجدت أن أشيائي كلها احترقت. كان لدي بعض الملابس والكتب والأوراق وغيرها، فحصت أشيائي فوجدتها كلها محترقة، وكانت المفاجأة حينما وجدت المصحف سليمًا لم تمسه النار رغم أنه كان في وسط ملابسي وكتبي وأوراقي – أثرت هذه الحادثة فيّ وفي زملائي وهزتنا جدًا – شعرنا أن الله معنا وأن عنايته ومدده لن يتخلفان عنا – زادتنا هذه الحادثة إصرارًا على القتال والصمود وارتفعت معنوياتنا جدًا.

- **الملازم أول أحمد منصور – الشرقية:**

كنا في مهمة خلف خطوط العدو – وكانا عددنا حوالي الـ ٥٠ فردًا. واستطاعت أجهزة الرصد الإسرائيلية أن تحدد موقعنا – وعلى الفور جاءت الطائرات الإسرائيلية – وأحسسنا أننا أصبحنا في قبضة الموت – أطلقت الطائرات الإسرائيلية علينا عشرات الصواريخ وأمطرتنا بوابل من رصاص الرشاشات ولم يقتصر الأمر على الطائرات – بل جاءت مجموعة من الدبابات حوالي ١٢ دبابة ودكت المنطقة التي كنا فيها بمدافعها – كما تساقطت علينا قذائف المدفعية الإسرائيلية، ومن العجيب أن الرصاص كان يمر من فوق رءوسنا أو يسقط حولنا – وكذلك الصواريخ والقذائف ولم يصب أحدنا بسوء. كأننا محاطون بالعناية الربانية – واستطعنا بعدها أن نحقق مهمتنا بنجاح.

– المقاتل صلاح الشيباني «الغربية» – «كنت أحد جنود الجيش الثالث في سيناء – وكان الماء قد نفد منا – وكنا نتعرض لقصف الطائرات وفي إحدى المرات سقط صاروخ بالقرب منا – وانفجرت المياه من الأرض نتيجة هذا الانفجار – ومن العجيب أنها كانت مياه عذبة – وهكذا شربنا وشربت معنا الكتائب القريبة منا.

لماذا تخلف الفن والأدب عن مواكبة روح رمضان؟

الحديث عن الحرب – وعن البطولات – عن المعارك التي تخوضها الشعوب – تسجيل الانتصارات والهزائم – العبر والدروس. كل هذا فريضة على كل أمة حية تريد أن يكون لها مستقبل – والفريضة تكون أكثر وجوبًا وأشد إلزامًا على هؤلاء

القادرين على ذلك من أصحاب الأقلام – الكاميرات – الفرش والألوان – بل وعلى المغني الشعبي على السواء.

والله سبحانه وتعالى – لفت أنظارنا إلى ذلك في كتابه الكريم – فقد أعطى القرآن الكريم مساحات واسعة لمناقشة المعارك التي خاضها المسلمون الأوائل ضد المشركين وحلل فيها أسباب النصر والهزيمة على السواء. والله سبحانه وتعالى يريد أن يعلم المسلمين درسًا – لأن البلاء في المعارك والانتصار فيها مرتبط أشد الارتباط وأوثقه بدراسة كل ما يتصل بالمعارك من دروس وعبر وتوازنات قوة وعلاقات مع المحيط الخارجي وغيرها من الظروف المحيطة بكل معركة.

ومازلنا حتى اليوم نقرأ في كتاب الله الكريم دروس وعبر معارك بدر وأحد والخندق وحنين بل والسرايا الصغيرة والكبيرة والغزوات ضد يهود المدينة وغيرها من المعارك التي خاضها المسلمون الأوائل.

إذن فتسجيل المعارك التي تخوضها الأمة بكل ملابستها ليس ترفًا بل هو فريضة والقرآن الكريم لم يقتصر على سرد المعارك بل حللها – وركز على أسباب القوة والضعف – عوامل الانتصار والهزيمة – بل وسجل حتى الظروف النفسية للمقاتلين لحظات الخوف – لحظات الشك – اختلال ميزان القوى وغيرها.

والاهتمام بالمعارك ليس قاصرًا على المسلمين الأوائل أو قل إنه ديدن كل شعب يريد أن يصنع مستقبله – ففي قصر فرساي بفرنسا مثلاً – تجد أن المصورين قد سجلوا كل معارك نابليون الكبيرة والصغيرة.

وهوليود اهتمت بتسجيل معارك المهاجرين الأمريكيين ضد الهنود الحمر – رغم ما فيها من تزوير واضح للتاريخ. لأن هؤلاء يعرفون أنهم بهذا يصنعون مستقبل بلادهم والرواية الشهيرة لتولستوي «الحرب والسلام» قد أخذت مكانًا منفردًا في تاريخ الأدب وهي رواية سجلت الحرب الروسية الفرنسية.

بل إن إسرائيل لا تترك معركة صغيرة أو كبيرة إلا سجلتها حتى أنها أنتجت فيلمًا

سينمائيًا عما يسمى «بعملية عنتيبي».

إذن تسجيل البطولات والاعتزاز بالمعارك أمر بـدهي لكـل شـعب وأمـة بـل إن الأمم أحيانًا تبحث عن حدث تافه جدًا لتصنع منه أسطورة بطولة تتغنى بها.

يقول العقيد شوقي حامد رئيس تحرير مجلة النصر – وهـو مقاتـل «إن الانطبـاع العام هو أن الأدباء لم يعبروا عـن بطـولات ١٩٧٣ التعبيـر الـذي يرتفـع إلى مسـتوى الحدث» قال العقيد شوقي حامد ذلك في مواجهة أدباء مصر – ونحـن نوافقـه تمامًـا على هذا الرأي بل إن أحدًا من الأدباء لم يستطع أن يفند أو ينفي ذلك.

فلماذا كان التعبير متواضعًا أمام الحدث؟

فيمن يكمن العيب إذًا؟ هل في الحدث ذاته؟ لا أحد يستطيع أن يقول ذلك فممـا لا شك فيه أن حرب «رمضان» كانـت معركـة بطوليـة نـادرة عـلى مسـتوى الإعـداد والتجهيز والتخطيط والتمويه – والأداء الفردي والجماعي بل والتنسيق بين مختلف الأسلحة – على مستوى غرف العمليات وعـلى مسـتوى الجيـوش والفـرق والألويـة والكتائب والأفراد – بل وعلى مستوى توازن القـوى وإحـداث نتـائج ضـخمة جـدًا بالقياس بالإمكانيات ومستوى التسليح. إن تلك المعركـة تعـد فخـرًا هـائلاً جـدًا لا ينضب للتعبير الفني بكل مكوناته. بـل إن الـتلاحم الشـعبي والتفاعـل بـين الشـعب وقواته المسلحة في حد ذاته كان من الروعة بمكان بحيث إنه يصلح لعشرات ومئات الأعمال والأشكال الفنية.

إذن العيب ليس في الحدث – قد يقـول الـبعض إن العيـب يكمـن في المعوقـات والقيود التي تقف في وجه الفن – ولكن متى كانت المعوقـات والقيـود سـببًا في قتـل الإبـداع الفنـي – ألم يعبـر المقـاتلون أصـعب مـانع مـائي – فلمـاذا لا يعبـر الأدبـاء والفنانون مانع المعوقات؟

إذن ما هو التفسير الصحيح لتخلف الفن عن مواكبة معركة رمضـان المجيـدة – وفي الحقيقة فإن هناك مجموعة من الأسباب. لعل أولهـا وأخطرهـا يكمـن في قطـاع كبير من الفنانين الذين يمتلكون الأدوات الفنية ويسيطرون على المراكز الفنية بكل ما

فيها من إمكانيات – لقد تربى هؤلاء على مائدة الاستعمار وتشربوا ثقافته وكونوا أساليبهم الفنية والفكرية استنادًا إلى وجدان حضاري مختلف عن الوجدان الحضاري لأمتنا وبالتالي مقاتلينا – فلم يفهموا ولم يستوعبوا وعندما سمعوا اندهشوا وعندما رأوا لم يبصروا – لأنهم سمعوا ورأوا إنسانًا لم يعرفوه ولن يعرفوه.

لقد كان المقاتل يستند في حرب رمضان إلى تراثه ووجدانه الحقيقي – وكان شامخًا يقف على أرضيته الحضارية الصحيحة – فكيف يستطيع هؤلاء أن يعبروا عن ذلك الإنسان وهم لا يعرفون تلك الأرضية وينكرون ذلك الوجدان، هذه ناحية – والناحية الثانية أنهم نفسيًا لا يريدون لهذا الوجدان وتلك الأرضية أن تسود بل يريدون اقتلاع هذا الإنسان من تلك الأرضية ونزع ذلك الوجدان من داخله فكيف يمكن لهم أن يعبروا عن بطولات تؤكد تلك الأرضية وهذا الوجدان.

والناحية الثالثة أن حرب رمضان أثبتت أن الإنسان المسلم قادر على النصر وقادر على القتال وقادر على العطاء استنادًا إلى دينه، وأن تلك المعركة إذا ما تم ترجمتها فنيًا فإنها ستؤكد حقيقة التركيبة الحضارية لأمتنا وتؤكد أن تلك التركيبة ليست قادرة على تحقيق الانتصار فحسب بل هي أهم شروطه – وهم يعرفون أن مهمتهم وهم كتبة السلطة وسدنتها أن يحاولوا نسبة كل نصر إلى الزعيم مثلاً وأنه برغم تخلف شعبه كان متجاوزًا!! ووجدوا أن المادة اليومية للمعارك لا تسعفهم فسكتوا ولم ينطقوا.

وهم يعرفون أيضًا أن التركيز على بطولات الإنسان في تلك المعركة ستكون بمثابة عامل هام في إيقاظ الوعي الحضاري لأمتنا وهم بالعكس يريدون غير ذلك.

وهكذا وجدناهم بين غافل وساكت أو حاول قليل منهم أن يجاري الجو ثم يعود فيلتف فقدم أعمالاً أدبية حاولت أن تلصق بذلك الإنسان قيمًا لا يعرفها وأن تزرع في وجدانه أشياءً ينكرها – فجاءت أعمالهم غريبة وقاصرة وغير مفهومة.

والناحية الرابعة أن هناك من حاول أن يلقي بظلال من الشك حول كل عمل إيجابي لأمتنا وأن يزرع فينا اليأس دائمًا وذلك خدمة لأهداف الاستعمار التي لا تريد لنا أبدًا أن تتكون لدينا شخصية الاعتزاز والثقة فتجاهلوا وخنقوا كل ما من شأنه

أن يحقق ذلك من ذكر للبطولات أو الجوانب الإيجابية في تاريخنا المعاصر بالـذات – وكان ذلك التجاهل لبطولات رمضان محاولة للقول بأنه كان استثناء وأن القاعـدة هي حرب ١٩٦٧ برغم أن الحقيقة المجردة تقول إن الإنسان الذي أعطى وانتصر في ١٩٧٣ كان قادرًا دائمًا على ذلك وأن حرب ١٩٦٧ لم يكن لـه فيهـا ذنـب – بـل كـان الذنب يرجع إلى القيادة السياسية التي أمرت بالانسحاب ولم تسمح لهـذا المقاتـل أن يقاتل وفي المرة الوحيدة التي سمح له فيها بالقتال أثبت قدرته وكفاءته.

وهناك سبب آخر هو أنه بعد مرور أقل من أربعة أعوام على حرب ١٩٧٣ دخلـت القيادة السياسية في لعبة السلام والتفاوض مما استلزم خلـق نفسـية أخـرى ضـرورية لهذا السلام وكان من الطبيعي أن تؤدي الأجواء الإعلاميـة التـي صـاحبت ذلـك إلى إحداث نوع من الإحباط داخل الوجدان الفني الشريف.

ومع هذا ورغم كل هـذا – ظهـر فريـق مـن الأدبـاء الشـرفاء – الـذين صـنعتهم المعارك أو صنعهم الوجدان الشعبي المواكب للمعارك ولم تكـن لهـم مصـلحة مـع الدوائر الثقافية المشبوهة ولم يكونوا طرفًا في لعبة السياسـة – قـدموا الأعمـال الفنيـة الشريفة والمستجيبة للحدث – وعـلى هـؤلاء وعـلى آخـرين مـثلهم عـلى الطريـق أن يحققوا العبور الفني لتسجيل بطولات حرب رمضان كما سـجل إخـوة لهـم العبـور العسكري في رمضان. وبرغم مرور تلك الأعوام على حرب رمضان فإن الأمل معقود على هؤلاء وأولئك والله معهم.

يبقى علينا أن نوجه التحية هنا إلى الأديب المسلم د. نجيب الكيلاني – فقد كـان أول من تفاعل مع الحدث وأصدر عقب المعركة روايته الجيدة «رمضان حبيبي» كما ينبغـي أن نوجه التحية أيضًا إلى الأستاذ محمود المنسـي المحـرر الأدبـي لمجلـة النصـر التـي تصدرها القوات المسلحة المصرية وهو الذي يطالـب دائمًـا بالاهتمـام بـأدب معركـة رمضان المجيدة كما أنه قدم من خلال المجلة عددًا من الأعمـال والتحقيقـات في هـذا الإطار كما أن له بعض القصص المنشورة التي استلهمت روح رمضان. وعلى كل حـال فإن الأعمال الأدبية التي خرجـت مـن عبـاءة رمضـان كانـت قليلـة جـدًا ومنهـا روايـة «الرفاعي» للأستاذ جمال الغيطاني وثلاث مجموعات قصصية أصدرتها الهيئـة المصـرية

للكتاب على أن أدب رمضان أوسع من هذا كثيرًا. ومن ناحية أخرى فإن الأشكال الفنية الأخرى كالرسم والمسرح والسينما كانت متخلفة جدًا في هذا الإطار.

قاتلنا – فانتصرنا.. نماذج لمعارك أخرى

لم تقتصر النماذج على حرب رمضان – لأن الأصل في الإنسان المصري أنه إذا قاتل انتصر – وأن الكوارث والهزائم التي لحقت بنا كانت بسبب تقصير القيادة السياسية أو إهمالها أو خيانتها، ومما يؤكد ذلك مجموعة من المعارك حدثت في أعقاب حرب ١٩٦٧. تلك الحرب المشؤومة التي لم يسمح فيها للإنسان المصري أن يقاتل – فلما قاتل انتصر.

– عقب حرب ١٩٦٧ – وبعدها بأقل من خمسة أيام – كانت قوة مصرية قد تشبثت بمواقعها شرق القناة في منطقة رأس العش ببورفؤاد، وقد حاولت القوات الصهيونية في إطار رغبتها في السيطرة على كل الضفة الشرقية للقناة أن تدمر تلك القوة الصغيرة أو أن تدفعها إلى الانسحاب إلى الضفة الغربية للقناة، وهكذا توالت الهجمات الصهيونية بالطائرات والقصف المدفعي وهجوم الدبابات – ولكن تلك القوة قاتلت ببسالة رغم الظروف النفسية وعدم تكافؤ القوى بين الطرفين واستطاعت أن تنزل بالقوات الصهيونية خسائر كبيرة – وتكررت عمليات الهجوم والصمود – وتمسكت القوة الصغيرة بمواقعها ولم تبرحها. وفي كل مرة كانت تنزل بالعدو خسائر فادحة – واضطر العدو في النهاية إلى إلغاء العملية – وهكذا أثبتت تلك القوة الصغيرة أن الإنسان المصري قادر رغم أشد الظروف قسوة على القتال والانتصار.

– في أعقاب حرب ١٩٦٧ – قام الطيران المصري – بقايا الطيران على الأصح – بإنزال ضربة جوية مكثفة وخطيرة بالقوات الصهيونية في سيناء وأوقع خسائر فادحة بها وعاد معظمها سالمًا – ولعل هذه المعركة في مثل هذا التوقيت والظروف تثبت أن العيب لم يكن في رجال الطيران المصري – طيارين وفنيين – بل كان في القيادة المتراخية.

– في عام ١٩٦٨ – بعد عام واحد من حرب ١٩٦٧ – استطاعت زوارق الطوربيد المصرية أن تدمر المدمرة الإسرائيلية «إيلات» – ولعل الفارق الهائل بين

قوة المدمرة وقوة زورق الطوربيد توضح إلى أي مدى يكون الإنسان المصري فـذا – هذا المقاتل الذي يستطيع أن يغرق مدمرة بقارب طوربيد لابد أنه جندي كفء شديد الكفاءة وجريء شديد الجرأة وشجاع شـديد الشـجاعة – وتلـك الموقعـة تثبـت أن الإنسان أقوى من الآلة وأن المقاتل المسلم إذا قاتل انتصر.

خاتمة

لا نملك بعد هذا السرد – وتلك الوقائع إلا أن نؤكد عددًا مـن الحقـائق التـي لا يرقى إليها الشك. وهي:

- أن المقاتل المسلم كفء بطبيعته – وشجاع بفطرته – وقادر على النصر.

- أن الإنسان أقوى من الآلة – فمهما كانت كفاءة السلاح وتفوقه فإن الإنسـان قادر بالصبر والشجاعة على تجاوز هذا التفوق وقـادر عـلى تحقيـق الانتصـار في كـل الظروف وفي أسوأ الأحوال – فالأصل هو الإنسان – ولعل هذا يجعلنا نقرر بوضوح أن أمتنا قادرة على تجـاوز كـل التحـديات مهمـا كانـت كبيـرة إذا امتلكـت الإيمـان والإرادة وبذلت كل ما في وسعها من جهد وطاقة.

- أن مدد الله تعالى حقيقة لا يرقى إليها الشك – وهو مدد مرتبط بشروط. أولها طاعة الله تعالى وثانيها بذل كل الجهد وأقصى الطاعة واستكمال أسباب القـوة بقـدر الإمكان.

- أن الحروب التي هُزمنا فيهـا – لا تصـلح أن تكـون معيـارًا لتقيـيم الجنـدي والمقاتل المسلم – حيث إن القيادة السياسية لم تسـمح في أي منهـا لهـذا المقاتـل أن يلتحم ويقاتل ويظهر كفاءته وشجاعته – وأنه حينما قاتل هـذا الجنـدي في المعـارك المختلفة أحرز النصر وبالتالي فإن الحقيقة الضخمة تقول:

إننا إذا قاتلنا انتصرنا

ولعل هـذه الحقـائق وغيرهـا تكـون نبراسًـا لأمتنـا الإسـلامية في صـراعها مـع الاستعمار الدولي – ولعل درس أفغانستان يؤكد هذه الحقائق.

.. فتحي الشقاقي

صوت المستضعفين

في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي

مقدمة

الحديث عن الشهيد فتحي الشقاقي، وعن جهاده، وعن مشروعه الفكري والحركي، بالنسبة لي، ليس أمرا محايدا... ذلك أن العلاقة مع الشهيد لم تكن فقد علاقة سياسية أو فكرية أو نضالية... بل كانت إنسانية في المقام الأول... ولعل إنسانية فتحي الشقاقي كانت أحد أسباب نجاحه المنقطع النظير في تحويل مشروعه الفكري إلي كيان واقعي وإلي مواقف ممهورة بالدم والفداء.

الزمان والمكان.. الحلم والأمل...الإطار التاريخي والإنساني كانوا جميعا يتشابكون كخيوط من نور لتنسج تلك العلاقة التي لم تنقطع شكلا ومضمونا منذ عام ١٩٧٨ وحتى عام١٩٨١ والتي لم تنقطع فكريا منذ عام١٩٨١ وحتى استشهاده في مالطة في ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥... والتي لن تنقطع بإذن الله لأن فكره ومنهجه ومواقفه تشكل ملحمة فكرية ونضالية تظل منارة لنا إلى أن نلقى الله تعالى...

كان اللقاء الأول في أواخر عام ١٩٧٨ علي أرض جامعة الزقازيق حيث كان فتحي الئشقاقي يدرس الطب بتلك الجامعة، وكنت أنا أدرس الصيدلة بنفس الجامعة...والكليتان متلاصقتان والعمل السياسي الطلابي الإسلامي يزيل حدود الكليات بل حدود الجنسيات.

كان هناك في خلفية العمل السياسي الطلابي وغير الطلابي في ذلك الوقت حدثان هامان أولهما تصاعد الثورة الإسلامية في إيران... التي انتصرت فيما بعد في فبراير ١٩٧٩ وأصبحت إحدى حقائق العصر وإحدى حقائق العمل الإسلامي المعاصر وثانيهما زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ والحديث عن السلام المزعوم مع الكيان الصهيوني.

عودة إلى وقائع لقائي الأول بالشهيد أواخر عام ١٩٧٨... كان الشهيد فتحي الشقاقي قد علق إحدى مقالات الحائط في كلية الطب جامعة الزقازيق، وقد شدتني تلك المقالة وأدركت على الفور كم هي مختلفة ومتميزة عن أمثالها من مجلات الحائط التي يعلقها الطلاب الإسلاميون على الحائط وعن مجمل الطرح الإسلامي في ذلك الوقت، كان فيها شيء جديد لم نألفه عن الإسلاميين وعن أطروحاتهم وأفكارهم... هل هو المنهج؟... هل هو الصدق؟ هل هو الوعي المنقطع النظير؟ هل هو كل هذا؟...

المهم أنني وقفت أمام تلك المقالة الحائطية... وأدرت نقاشا مع باقي الطلاب حولها، وكان حوارا ساخنا اندمجت فيه معهم لدرجة كبيرة جدا... وبينما أنا في قمة اندماجي وانفعالي حول تلك المقالة، رأيت شخصا يتقدم... كان سنه أكبر من الطلاب بعدة سنوات ويرتدي بالطو من الجلد، فوقع في خاطري أنه ليس طالبا بالجامعة... ثم نزع هذا الشخص تلك المقالة، وراح يطويها ليحملها معه... كان الوقت قبل العصر بقليل، ولا أدري لماذا اندفعت نحوه للتشاجر معه، طالبا منه أن يترك المقالة على الحائط عملا بحرية الرأي، وأنه لا يليق مصادرة أفكار الناس على هذا النحو، وفوجئت به يضحك سعيدا بل ويضحك عدد من الطلاب من حولي... ثم ربت على كتفي بحنان قائلا إنه هو نفسه صاحب المقالة، وأنه ينزعها اليوم حتى يعود غدا ليعلقها علي الحائط، لأنه لا يأمن إن تركها أن يمزقها أحد، من الإدارة أو الاتحاد أو الأمن ولم أشعر بنفسي حتى اندفعت إليه أعانقه ثم أبدأ معه حوارا عرفت منه على الفور أنه فلسطيني جاء ليدرس الطب بالجامعة، وأنه بالسنة الرابعة بالكلية، وأن اسمه فتحي الشقاقي... وكعادتي في التسرع والانفعال، وبكل الحيوية التي كنا

نملكها في ذلك السن وتلك الأيام رحت أناقش معه القضية الفلسطينية التي كانت أشعر أنها أهم القضايا، وأن التيار الإسلامي لا يعطيها حقها حين يضع تلك القضية على قدم المساواة مع القضايا الأخرى وأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية، أومن المفروض أن تكون كذلك، ولم يكد فتحي الشقاقي يسمع هذه الجملة..حتى بادر علي الفور بدعوتي للذهاب معه إلى بيته الذي يقيم به في إحدى ضواحي الزقازيق، حيث كان قد استأجر شقة مع عدد من الطلاب الفلسطينيين في المساكن التعاونية، وهكذا كانت تسمي وقتها ولا أدري ماذا أصبح اسمها الآن، وهي تقع بين مبنى المحافظة وطريق الزقازيق ـ القنايات في ذلك الوقت، ولم تكن بها مساكن أو عمارات كثيرة في ذلك الوقت، ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع لقائي به يوميا في ذلك المسكن أو في الجامعة حتى رحل عام ١٩٨١ وبالتحديد في أواخر أكتوبر من ذلك العام.

على مدى تلك الأعوام الثلاثة من ١٩٧٨ حتى ١٩٨١، لم تنقطع حواراتنا ولقاءاتنا... وأذكر أني تعرفت من خلاله علي عدد من الشباب الفلسطينيين، بل والمصريين أيضا، أذكر أنه كان مقيم معه في تلك الشقة طالب بالطب « فلسطيني طبعا » هو (باسل) وآخر اسمه باسم (يونس) بكلية الزراعة ثم لحق بهم فيما بعد طالب فلسطيني جاء ليدرس الطب أيضا يسمي (نافذ) وفي مساكن أخرى بالقرب من مسكنه عرفت رمضان عبد الله وكان يدرس بكلية التجارة،وأذكر أنه في أحد الأيام مرض (رمضان عبد الله الأمين العام الحالي لحركة الجهاد الإسلامي) ، وكان من المفروض أن يؤدي فتحي الشقاقي امتحانا في اليوم التالي وكان من المفروض أن يسهر الليل ليذاكر استعدادا لذلك الامتحان، ولكنه ترك كتبه وأخذ يهتم بتمريض (رمضان عبد الله)، والسهر عليه حتى اليوم التالي وذهب من عند (رمضان) مباشرة إلى الامتحان ومن العجيب أنه نجح بدون مذاكرة !!

أذكر أيضا أنني تعرفت على آخرين لم يكونوا في جامعة الزقازيق بل في جامعات أخرى كالقاهرة وعين شمس والإسكندرية وكانوا يترددون على فتحي في الزقازيق أو يصحبني لزيارتهم في القاهرة.

ومن المصريين الذين تعرفت بهم عن طريق فتحي الشقاقي أو عرّفته أنا بهم أذكر أسامة حميد الشهير بأسامة جغرافيا. وكان طالب بكلية العلوم جامعة الزقازيق ثم حصل فيما بعد علي بكالوريوس اقتصاد وعلوم سياسية ثم ليسانس آداب قسم جغرافيا وماجستير في الجغرافيا وكان عبقرية جغرافية نادرة ولا أدري ماذا حدث له بعد ذلك حيث إنه اعتقل لمدة طويلة جدا وكان يحصل على تلك الشهادات من داخل السجون غالباً.

***

كان الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي في ذلك الوقت يضع اللبنات الأولى، الفكرية والتنظيمية لحركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني مع عدد من زملائه الأوائل، وكان الحوار لاينقطع بيننا حول الحركة الإسلامية والقضية الفلسطينية، وكنا نتواصل شيئاً فشيئاً إلي إدراك مجموعة من الحقائق والنتائج.

كنا قد أدركنا في ذلك الوقت أن حركة الإخوان المسلمين لا تملك أطروحة فكرية قابلة للتطور،وأن هناك عيوبا فكرية وحركية ستوصل الإخوان المسلمين وربما تجر معها الحركة الإسلامية كلها إلى طريق مسدود، كنا نرى أن الإخوان المسلمين يتصرفون بمنطق القبيلة وأنهم يتصورون أنفسهم « شعب الله المختار » داخل الحركة الإسلامية وأنهم يهتمون ببناء التنظيم على حساب الموقف والفكرة، بمعني أن المحافظة على التنظيم لديهم أهم من اتخاذ الموقف الصحيح، وكان معنى هذا عزلتهم عن الجماهير، وتوصلنا إلي أنه من المفروض أن تكون الحركة، أي حركة إسلامية مجرد خميرة للنهضة حيث إن الأمة بكاملها هي المسئولة عن هذا التغيير،وأن الحركة الإسلامية مجرد قاطرة لهذا التغيير، أو خميرة لتحريك جسد الأمة بكامله وأن التنظيم مهما كانت قوته وعبقرية بنائه لن يكون قادرا على إحداث التغيير المنشود بمعزل عن الأمة. وكنا نرى أن التنظيم مجرد أداة ووسيلة وليس غاية في حد ذاته، وأنه يجب على كل حركة أن يكون جذرها الشعبي والجماهيري هو عنصر قوتها الأساسي وليس تنظيمها وكوادرها، وكنا أيضاً نأخذ على الإخوان المسلمين عدم إدراك الأهمية الخاصة والمتميزة للقضية الفلسطينية باعتبارها القضية

المركزية للحركة الإسلامية، وكنا ندخل في اشتباكات فكرية حادة مع عناصر الإخوان بسبب اهتمامهم المبالغ فيه بالقضية الأفغانية على حساب القضية الفلسطينية ، وكنا نرى أن معنى هذا أن هناك خللاً واضحا في البنيان الفكري للإخوان المسلمين وليس مجرد خطأ تكتيكي فقط.

وكنا نرى أن حركة – أي حركة – ينبغي أن تكون مجرد حلقة من حلقات الكفاح الإسلامي تمتد بصلة وثيقة إلى ما قبلها، وتتطور في اتجاه ما بعدها، أما اعتبار الإخوان المسلمين أنفسهم الحركة الأم هو نوع من إفقاد الحركة لنفسها وللحركة الإسلامية بالكامل أصالتها، بل ويثير حولها سؤال عن شرعية نشأتها، فهل سقطت من كوكب آخر فجأة وبلا مقدمات، والصحيح أن الحركة الإسلامية هي امتداد لمجمل النضال الوطني، الذي هو بالضرورة إسلاميا، بمعنى أنها امتداد للنضال المعاصر ضد الاستعمار، امتداد لعبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي وعمر المختار والأفغاني والنديم ومصطفي كامل ومحمد فريد وعزالدين القسام وغيرهم من زعماء الجهاد والكفاح الإسلامي المعاصر، وبدأنا بالطبع نهتم بدراسة هؤلاء وبدراسة وتتبع يوميات ومراحل هذا الكفاح الشعبي الذي لم ينقطع من أجل النهضة ومواجهة التحديات، واهتم الشهيد فتحي الشقاقي بصورة خاصة بعز الدين القسام على أساس أنه من أكبر حلقات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الصهيوني والأب الروحي لكل حركة تريد أن تفعل نفس الشيء.

وكان هناك أيضا مد متصاعد لما يسمى الآن حركة (الجهاد الإسلامي في مصر) وكذلك (الجماعة الإسلامية)، وبرغم كل الرجولة والصلابة والراديكالية التي تميز بها هؤلاء، إلا أن عيبا منهجياً خطيراً كان من سماتهم الرئيسية ألا وهو التعامل مع النصوص بشكل مجرد ومنعزل عن بعضه بعضا، وليس بحسبانها منهجا متكاملا يقدم رؤية، وكذا تحملها بقدر هائل من السلفية يحول دون إدراكها للواقع المتغير فضلاً عن ضعف الوعي السياسي لدى كوادرها.

كان الدكتور فتحي الشقاقي يحلم بحركة إسلامية معاصرة، تتجاوز فكريا وحركيا كل هذه الأخطاء، حركة ترى نفسها مجرد حلقة من حلقات الكفاح

الإسلامي سبقتها حلقات وتتبعها حلقات، حلقة تكون طليعة للأمة وخميرة للنهضة وليست بديلا عن الأمة، حركة تجعل التنظيم أداة وليس غاية، حركة تنطلق من اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، حركة تنفتح على الجميع انطلاقا من ثوابتها فلا تعزل نفسها ولا تنفصم عن جذورها الفكرية والعقائدية في نفس الوقت.

وعلى الجانب الآخر، وانطلاقا من أن القضية الفلسطينية قضية مركزية للأمة الإسلامية كان لابد من دراسة هذه القضية بكل أبعادها التاريخية والعقائدية وتشابكاتها المحلية والدولية. وأدركنا بالدراسة والمثابرة والمناقشة:

- إن إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربية[1]، وأنها آخر مراحل الصراع

(١) لا شك أن الفكرة الصهيونية فكرة استعمارية أصلاً قبل أن تكون فكرة يهودية، وهي فكرة تقوم على استخدام اليهود كمرتزقة وجماعة عسكرية لتحقيق المصالح الاستعمارية في المنطقة في إطار الصراع الغربي الإسلامي، بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، والفكرة قديمة في الفكر الاستعماري قبل أن يفكر فيها تيودور هرتزل، فهناك على سبيل المثال لا الحصر،نداء نابليون بونابرت إلي يهود العالم من أجل إعادة إنشاء مملكة القدس القديمة سنة ١٧٩٩ م وهناك دعوة الرئيس الأمريكي جون آدامز، إلى استعادة اليهود فلسطين عام ١٨١٨ م وهناك مذكرة سكرتير البحرية الإنجليزية إلي وزير الخارجية بالمرستون التي يقترح فيها دعوة أوروبا إلى إعادة اليهود إلى فلسطين عام١٨٣٩ م وهناك برنامج اللورد سافنسبري إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين سنة ١٨٤٠ م وهناك مشروع إدوارد متنورد لإقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين تحت الحماية الإنجليزية المؤقتة إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها سنة ١٨٤٥ م، وهناك كتاب أرنست لاهان المستشار الخاص لنابليون الثالث في المسألة الشرقية،إعادة بناء الأمة اليهودية ١٨٦٠، وصدور كتاب « أرض جلفاد» للورنس أوليفنت عضو البرلمان الإنجليزي ووزير الخارجية والذي يقترح إقامة مستوطنة يهودية علي مساحة مليون ونصف المليون فدان في الأردن وفلسطين عام١٨٨٠ م، وتأسيس بلاكستون في شيكاغو لمنظمة البعثة العبرية نيابة عن إسرائيل،من أجل حث اليهود على الهجرة إلى فلسطين عام ١٨٨٧،ومذكرة بلاكستون إلى الرئيس الأمريكي بنيامين هاريسون ووزير خارجيته جيمس لين للعمل علي تخفيف معاناة الشعب اليهودي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين سنة ١٨٩١، وصدر كتاب الدبلوماسي الإنجليزي وليمر هشلر في « إعادة اليهود إلي فلسطين » سنة ١٨٩٤،كل هذا قبل صدور كتاب تيودور هرتزل « الدولة اليهودية» الذي صدر عام ١٨٩٦.

بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ذلك الصراع الذي يمتد في الزمان والمكان أفقيا ورأسيا، أي أن الصراع صراع حضاري، وأنه على أرض فلسطين يتحدد مصير أمتنا وحضارتنا فإما أن ننتصر وإما أن يتحقق الهدف الغربي والإسرائيلي في القضاء على الحضارة الإسلامية.

– إنه ليس فقط يتحدد مصير حضارتنا على أرض فلسطين، بل مصير العالم بأسره، وذلك أن مشروع الهيمنة الغربي على العالم يتسبب بالطبع في شقاء معظم سكان العالم وتحويلهم إلى خدم في خلفية بيت السيد الغربي، وبالتالي فإن على الحركة الإسلامية أن تعتبر نفسها طليعة لكل المستضعفين في العالم وقيادتهم في معركة ضد آلة النهب والقهر الغربي، وأن الإسلام ينبغي أن يكون بالإضافة إلى أنه دين جزء هام من العالم، فهو أيديولوجية [١] كل الفقراء والمستضعفين من مختلف الأجناس والحضارات.

– إنه مادام الصراع صراعا حضاريا، أي صراع وجود وليس حدود فإن المفاوضات [٢] والحلول الوسط وما يسمى بالسلام هي مجرد أوهام وفخ

(١) وفي هذا الصدد أيضاً يقول جمال حمدان في كتابه (استراتيجية الاستعمار والتحرير) صـ١٦٨ « التقت الإمبرالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو المصلحة الاستعمارية المتبادلة فيكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار وذلك ثمنا لخلقه إياه وضمانة لبقائه ». ويقول أيضا في نفس الكتاب صـ١٧٦ « الاستعمار هو الذي خلق إسرائيل بالسياسية والحرب وهو الذي يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال وهو الذي يضمن بقاءها ويحميها علنا ».

(٢) ويؤكد روجيه جارودي على هذه الحقيقة أيضا قائلا: « إن الأب الروحي للصهيونية تيودور هرتزل أشعل الرغبة الاستعمارية في خلق إسرائيل وقدم لها مبررات إقامة هذه الدولة على أساس أنه إذا قامت إحدى الدول الاستعمارية بحماية هذه الدولة اليهودية، فستتمتع بميزة علي جميع خصومها لأن هذه الدولة ستعتبر رأس حربة مغروسة في المنطقة من أجل تغلغل استعماري»، وكتب هرتزل في عام ١٨٩٥ في كتابه،الدولة اليهودية قائلا: « ستكون هذه الدولة بالنسبة إلى أوروبا متراسا ضد آسيا وستكون بمثابة الحصن المتقدم للحضارة ضد البربرية» وفي محاضرة روجيه جارودي في ١٣/ ١٠/ ١٩٩٦ فندق الماريوت – القاهرة قال: إن إسرائيل ستلعب دوراً هاماُ في المواجهة الحضارية بين العالم الغربي والإسلامي نظرا لموقعها الاستراتيجي في قلب العالم الإسلامي. =

لاستدراج القوى المناضلة إلي مستنقع الخيانة، وأن إسرائيل بكاملها كيان غير شرعي وأنه لا حل هناك سوى الأيديولوجية الإسلامية وحرب التحرير الشعبية لتحرير كامل التراب الفلسطيني، وأنه ينبغي أن يشارك في ذلك الصراع كل فلسطيني وكل عربي وكل مسلم وكل مستضعف.

- إن طبيعة الصراع، وطبيعة تركيب المجتمع الإسرائيلي، وطبيعة المواجهة مع الغرب تستدعي إسلامية [(١)] الصراع بالضرورة، ويستدعي تلك الإسلامية أيضا أن جماهير أمتنا لا تتحرك الآن خلال وجدانها الديني.

- إنه كان من الطبيعي أن تتساقط القوي المختلفة في مستنقع التفاوض وأنه لا يعصم من هذا المستنقع إلا ثلاثة شروط هي « الإسلامية والجماهيرية والكفاح المسلح، وأن افتقاد أي من هذه الشروط الثلاثة يؤدي إلى عدم القدرة على الاستمرار في المواجهة والسقوط بالتالي عند المنحنيات الصعبة في مراحل الصراع[(٢)].

- إن الكيان الصهيوني مجرد وكيل دولي للاستعمار، وأن الحديث عن الوعد الإلهي لبني إسرائيل حديث مغلوط، لأن يهود إسرائيل أولا ليسوا هم أبناء اليهود الأوائل من ناحية [(٣)]، وحتى لو فرض أنهم أبناؤهم فقد فقدوا أهليتهم بسبب عصيانهم التاريخي المستمر لأنبيائهم وأنه بعد الإسلام بالذات فإن الأمة الإسلامية هي الأمة الرسالية ونحن أولى من اليهود بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسي ويوشع وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم، وأن هؤلاء قد بايعوا الرسول أثناء رحلة الإسراء والمعراج عندما أمهم عليه السلام في بيت

= راجع في هذا الصدد. د.محمد مورو « الإسلام أيديولوجية الفقراء: مقدمة في لاهوت التحرير الإسلامي . مجلة المختار الإسلامي العد ١٤٢، جمادى الآخرة ١٤١٥ ـ نوفمبر ١٩٩٤.

راجع في هذا الصدد ـ د. محمد مورو ـ كتاب «التحدي الإستعماري الصهيوني ـ وجهة نظر إسلامية باب » نهج المفاوضات ـ نهج خيانة نهج تردد « دار الفتي المسلم القاهرة ١٩٨٤.

(١) راجع نفس المرجع السابق باب « منهج لفهم الصراع».

(٢) نفس المرجع السابق باب نهج خيانة نهج تردد.

(٣) راجع جمال حمدان كتاب «اليهود» كتاب الهلال فبراير ١٩٩٦ ـ القاهرة.

المقدس ليلة الإسراء والمعراج [١]. وأن الموقف الديني الصحيح هو تنحي اليهود عن يهوديتهم ودخولهم في الإسلام، وأن موسى ويوشع وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل لو بعثوا اليوم ما كان بوسعهم إلا الدخول في الإسلام، باعتباره هو الدين الحنيف الذي جاء إبراهيم به أصلا من عند الله والذي كان عليه إسحاق ويعقوب ويوسف والذي جاء محمد ليكون خاتم الأنبياء وجاء المسلمون ليكونوا ورثة كل وعد إلهي.

وأنه من منطلقات دينية فإننا ننحاز نفسيا وتاريخياً إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع بن نون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ضد المشركين في ذلك الوقت، ولكننا نعتبر أنفسنا – وليس الصهاينة – ورثة هؤلاء الأنبياء.

– إنه ينبغي لكي نحقق مشروعنا في تحرير فلسطين، بل وتحرير كل مستضعفي العالم أن نفرق بين الإسلام الرسال وبين الإسلام القبلي أو العشائري أو غير الرسالي عموماً، فالإسلام الرسالي يهتم بالعقيدة والفقه ويهتم أيضاً بنفس القدر بالتطور التاريخي للصراع الإسلامي مع القوى الاستكبارية، ويدرك دوره كطليعة مؤمنة في تلك اللحظة من عمر الأمة ويدرك مهمات الأمة ورسالتها تجاه العالم بأسره في أي لحظة من لحظات التاريخ، وأن الإسلام الرسالي لا يتصرف كبديل عن الأمة ولكن كطليعة لها، وأنه يمتلك منهجاً يتعامل به مع القرآن والسنة والواقع، ولا يتعامل معها كمجموعة النصوص المفرقة والمنعزلة عن الواقع وأن الإسلام الرسالي يعرف ويدرك أن الصراع في تلك المرحلة ليس إلا حلقة من سلسلة الصراع الطويل بين القوى الإسلامية الربانية والقوى الاستكبارية، غير مقطوعة الصلة بما قبلها ولا ما بعدها وبالتالي فهو يمتلك تفاؤل التاريخ وحيوية المستقبل، وأن الإسلام الرسالي ذو توجه جماهيري ورسالة نحو المستضعفين وبالتالي يعرف أن حليفه الطبيعي هو الجماهير المطحونة والكادحة، وأن واجبه تجاه الله تعالى يقتضي الوقوف بحزم ضد كل أشكال الاستبداد السياسي والظلم الطبقي، ويقف مع حق الجماهير في

(١) راجع كتب السيرة في هذا الصدد.

الحرية والعدالة والحياة الكريمة، ويقف مع كل المستضعفين في الأرض، وأن الإسلام الرسالي يدرك أن سلاحه الوحيد ـ حاليا ـ هو الجماهير الواعية ولذلك فهو يثق فيها ثقة مطلقة ولا يتآمر عليها أو يخون قضاياها الحياتية والحضارية والقيمية وأنه يتحرك بنفسية المنتصر حتى في أحلك الظروف، الإسلام الرسالي هو التقوى والعقيدة الصحيحة وهو التصدي للاستعمار والصهيونية والاستغلال والنهب والاستبداد،الإسلام الرسالي هو عز الدين القسام وفتحي الشقاقي، الإسلام الرسالي وفق المنظور السابق طويل النفس بلا حدود لأن عمقه الجماهير وليس التنظيم، ولا يسقط قط في المساومة والحلول الوسط، وهو شاهد على الأمة وعلى العالم ويمتلك حيوية مذهلة.

- كان فتحي الشقاقي يعمل لإنجاز هذا المشروع الفكري والحركي، كان يقضي ليله ونهاره في العبادة والنضال السياسي، أو الدراسة أو الكتابة. وشاء الله أن يقيض له في ذلك الوقت(مجلة المختار الإسلامي) التي ظهرت في تلك الآونة. وعلي مدي٢٧ شهراً أي سبعة وعشرين عدداً من تلك المجلة نجح فتحي الشقاقي وعدد من زملائه في إثراء تجربته الفكرية والتبشير بمفاهيمه المنهجية من خلال تلك المجلة،وكان ينشر بها أبحاثه ودراساته تحت اسم عزالدين الفارس، وكانت تلك الأبحاث والدراسات تقوم على منهج متماسك وعلى لغة مميزة، هي قطعة من أروع أنواع الأدب الجميل، ودون أن تفقد مضمونها الفكري ولعل هذه كانت إحدى مميزات فتحي الشقاقي الذي كان يكتب لغة شعرية و أطروحة فكرية في نفس الوقت، وتلك إحدى ملامح عبقريته التي ساهمت في نجاح تجربته ومشروعه الفكري والحركي.

***

وأذكر الآن أن هذا المعسكر كان بمثابة المؤتمر التأسيسي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين قد تم من خلال معسكر فكري ودراسي وتثقيفي تم على أرض الزقازيق الطاهرة، في عدد من مساكن الطلاب الفلسطينيين بجامعة الزقازيق، وقد حضره الرعيل الأول من الفلسطينيين الذين كانوا عماد هذه الحركة وكان في

مقدمتهم د. رمضان عبد الله الأمين العام الحالي لحركة الجهاد وكان مسئولا عن هذا المعسكر... وكان هناك عدد من المصريين أيضا، وكنت أنا أحدهم بالطبع، وكان هذا تقريباً في نهايةعام١٩٨٠، ويعد هذا المعسكر هو الباكورة الأولى لحركة الجهاد الفلسطيني.

***

تسارعت الأحداث فيما بعد، وحدثت اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١، ولأن الهم الإسلامي واحد، فقد فكرنا مع فتحي الشقاقي في عمل نوع من النضال السياسي المدني ضد تلك الإجراءات، واقترح البعض المشاركة في اعتصام داخل الجامع الأزهر بالتنسيق مع مختلف القوي الإسلامية، وتم الاتصال بجماعة الإخوان المسلمين فرفضت كعادتها وقالت إنها سوف تتصرف بمفردها وفقا لأولوياتها ولم تفعل شيئا بالطبع وكذلك تم الاتصال بعدد من الجماعات الإسلامية وحركة الجهاد الإسلامي المصري، وكان أسامة حميد هو حلقة الاتصال، فأخبروه أنهم يفكرون في عمل أكبر من هذا بكثير، ولم نكن ندري ماذا يقصدون بذلك إلي أن حدثت عملية اغتيال السادات وأحداث أسيوط في أكتوبر عام ١٩٨١ [1]،وعلي أثرها تم القبض علي عدد كبير من العناصر الإسلامية وكان منها أسامة حميد الذي تم توجيه الاتهام له ضمن قرار اتهام قيادات جماعة الجهاد التي ضمت أكثر من ٣٠٠ متهم كان ترتيب أسامة بينهم ٢٧٣، وكذلك تم اعتقال علي مجاهد، وأيمن عبد الستار وتم فيما بعد اعتقال عدد من الفلسطينيين، كما تم مداهمة بيوت كل من خالد عبد العظيم وأسامة الشافعي إلا أنهما نجحا في الهرب، وقد نجح أيضا الدكتور فتحي الشقاقي في الخروج من مصر في آخر أكتوبر عام ١٩٨١ قبل قليل من إصدار قرار باعتقاله وعدد آخر من الفلسطينيين فيما عرف وقتها بقضية (الطلائع الأولي)،وأذكر أنني كنت آخر المصريين الذين رأوا فتحي الشقاقي قبيل رحيله من مصر في ذلك الوقت وكنت قد كونت رأيا في ذلك الوقت لم يوافقني بالكامل

(١) راجع د. محمد مورو ـ تنظيم الجهاد الأيديولوجية والجذور ـ العربية الدولية للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ١٩٩٠.

عليه، وهو أنه مع كل التقدير لما قام به هؤلاء الذين اغتالوا السادات، فإن مصر لا ينفع فيها العنف، بل النضال السياسي باعتبار النضال السياسي حلقة وسط بين العنف وبين منهج التربية الإخواني المعروف، وأن من الحساب السياسي الاستراتيجي ألا تتورط حركة الجهاد الفلسطيني ـ وبعد اليوم ـ في علاقات مع الحركة الإسلامية في مصر مادامت دخلت في صدام عنيف ودموي مع النظام، لأن من المفروض أصلا أن نوجه بنادقنا إلي عدو واحد فقط هو إسرائيل، أو حتى ضد المصالح الأمريكية، وأنه مادامت الحركة الإسلامية في مصر لم تعرف أولوياتها، وأنه كان عليها أن توجه عملها العسكري ضد إسرائيل أو حتى أمريكا، وبصرف النظر عن مشروعية الصراع مع الحكومة والشرطة المصرية، فإنه في كل الأحوال فإن على حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني أن تؤكد على ضرورة التوجه ضد إسرائيل دون التورط في صدامات مع الأنظمة العربية على قدر الإمكان تحقيقاً لروحها ومنهجها أولاً، وتفادياً لثمن باهظ يمكن أن تدفعه بلا ضرورة ثانياً.

***

وبالطبع في الفترة من ١٩٨١ ـ حتى عام ١٩٨٣ كانت كلها مطاردات أمنية لي ولغيري وكنت في تلك الفترة قد أنجزت بعض الدراسات حول القضية الفلسطينية نشرت بعضها في مجلة (الطليعة الإسلامية) التي كانت تصدر في لندن، وهي دراسات مثل:«قراءة في حرب صيف ١٩٨٢ »، علي حلقتين في أعداد يونيه ويوليو سنة ١٩٨٣ ،ثم دراسة حول (تاريخ فلسطين الحديث) في عدد لاحق في نفس المجلة [(١)] « الطليعة الإسلامية » وكنت قد اعتقلت في ذلك الوقت مع عدد من المصريين والفلسطينيين بتهمة مناهضة إسرائيل ودعم حركة الجهاد الفلسطيني وتشكيل تنظيم يستهدف القضاء على إسرائيل والسعي لتنفيذ عمليات ضد الكيان الصهيوني انطلاقا من الحدود المصرية... وكان من المعتقلين معي في هذه القضية خالد عبد العظيم، ومحمود يوسف سليمان فضلاً عن آخرين كانوا لا يزالون في

---

(١) نقل لي البعض أن الدكتور فتحي الشقاقي قال معلقا على هذه الدراسات إنها تقدم منهجا فذا في فهم الصراع.

السجون وتم التحقيق معهم في نفس القضية مثل أسامة حميد وعلي مجاهد، وكان معنا عدد من الإخوة الفلسطينيين أيضاً منهم الدكتور جميل يوسف عليان مثلاً، كما تم التحقيق مع الأستاذة صافيناز كاظم بنفس التهم إلا أن حجمها الثقافي أدى إلى الإفراج عنها فور التحقيق، والحقيقة أن التهم كان فيها مبالغة كبيرة، فإن العمل الوطني الوحيد الذي قمت به هو تهريب مكتبة الدكتور فتحي الشقاقي الذي كان تركها بشقته بالزقازيق وقد قمت شخصياً بقيادة سيارة نصف نقل تم استئجارها لهذا الغرض وحملنا فيها أمهات الكتب التي كانت في مكتبة الدكتور فتحي الشقاقي وسرت بها وكان معي زميلين فلسطينيين أحدهما اسمه نوفل والآخر لم أعد أذكر اسمه الآن، وقطعنا سيناء بالكامل حتى رفح المصرية، وتم إنزال الكتب لدي بعض الأسر الفلسطينية هناك والذين كانوا يستعدون لدخول رفح الفلسطينية في إطار لم شمل الأسر الفلسطينية وفقاً لاتفاقية كامب ديفيد، وتم حمل الكتب معهم فيما بعد عندما تم رحيلهم إلى رفح الفلسطينية وبذلك وصلت كتب الدكتور فتحي الدراسية والفكرية إلى الأرض المحتلة.

وبعد أن تم الإفراج عنا في أوائل عام ١٩٨٤ كررت التأكيد على موقفي بخطأ وجود اتصال بين حركة الجهاد الفلسطيني والحركة الإسلامية في مصر على خلفية أن الصدام الذي تقوم به الحركة في مصر وكذا العنف الذي تتجه إليه سيجر حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين إلى معارك لا طائل من ورائها، ويضر باستراتيجيتها ومواقفها الفكرية و الحركية،وظل هذا موقفي دائما على عكس بعض الإخوة المصريين والفلسطينيين الذين صمموا على السعي في نفس الطريق الوعرة والمكشوفة طبعا بعد أن عرفت أجهزة الأمن كل شيء عن هذه الاتصالات من خلال تحقيقات١٩٨١ و ١٩٨٣، وتم اعتقال عدد كبير آخر في عام ١٩٨٧ بنفس التهم ولنفس السبب، وكنت أيضا من ضمنهم رغم موقفي السابق، وكانت هناك أشياء لا أدري عنها شيئاً، وكان التعذيب هذه المرة بشعاً،وانتهت التجربة بعد أن قرر الدكتور خالد عبد العظيم وآخرين اعتزال العمل السياسي برمته بعد أن تعرضوا لتعذيب أقل ما يقال فيه إنه كان« تعذيباً وحشياً ».

ومن الجدير بالذكر أن نسجل هنا أنـه في قضـية الطلائـع عـام ١٩٨٧، تكـررت نفس التهم وهي مناهضة دول صديقة« إسرائيل » ودعم حركة الجهـاد الإسـلامي، والتخطيط لعمليات عسكرية ضد إسرائيل انطلاقا مـن الحـدود المصـرية، وأنـه تـم التحقيق في هذه القضية أيضاً مـع كـل مـن الحـاج حسـين عاشـور صـاحب مجلـة (المختار الإسلامي) والـدكتور محمـد يحيـي أحـد أهـم كتـاب المجلـة نفسـها، وكذلك مع الأستاذة صافيناز كاظم الكاتبة الإسـلامية المعروفـة والـدكتور إبـراهيم الدسوقي شتا أستاذ اللغات الشرقية بجامعة القاهرة.

***

وبنهايـة رحلـة الاعتقـال عـام ١٩٨٧ وبعـد الإفـراج عنـي في عـام ١٩٨٨ انقطعت تقريباً كل صلة مع الدكتور فتحي الشقاقي، اللهم إلا متابعة أعماله الفكريـة في المجلات والصحف ومتابعة أخبار حركته المباركة بالطريقة نفسها، وإن كنت قد ظللت مرابطا على ثغر الفكر والصحافة [1] دفاعاً عن القضية الفلسطينية وإثراء للفكر نفسه والمشروع نفسه الذي يقدمه فتحـي الشـقاقي وإخوانـه إلى أن دهمتنـا أخبـار اغتياله على يد الموساد في مالطا في ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥.

محطات في حياة الشهيد فتحي الشقاقي

- فتحي إبراهيم عبد العزيز الشقاقي

- ترجع أصولة العائلية إلى قرية زرنوقة القريبـة مـن يافـا بفلسـطين المحتلـة، والتي هاجرت منها أسرته إلى مدينة رفح بعد احتلال الجزء الأول من فلسطين عـام ١٩٤٨.

(١) قدمت في تلك الفترة مئات المقالات الصحفية والدراسات في المختـار الإسـلامي، العـالم اللندنيـة، العرب اللندنية، اليومية، الشعب المصرية وغيرهـا دفاعـا عـن القضـية الفلسـطينية وإثـراء لمشـروع الدكتور فتحي الفكري وكذلك عدد من الكتب مثل « سليمان خاطر »، « إعدام كاهانا » « أيمن حسن » « حمـاس والجهـاد » (الجهـاد في سـبيل الله: حـزب الله نموذجـاً) فضـلاً عـن كتـابي التحـدي الاستعماري الصهيوني وجهـة نظـر إسلامية ــ ١٩٨٤، « والقضـية الفلسـطينية مـن عبـد الناصـر إلى السادات» ١٩٨٥.

- ولد الشهيد في مدينة رفح بقطاع غزة عام ١٩٥١.

- درس العلوم الرياضيات في جامعة بيرزيت وعمل مدرسا في القدس، ثم درس الطب في مصر بكلية الطب جامعة الزقازيق وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة عامة ١٩٨١ وعمل طبيبا في القدس أيضا.

- انخرط في العمل السياسي والنضال منذ وقت مبكر وشارك في نشاطات تنظيمية منذ منصف الستينات.

- التحق عام ١٩٦٨ بالحركة الإسلامية في فلسطين.

- أسس مع عدد من إخوانة حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين في نهاية السبعينات.

- اعتقل عدة مرات منها في مصر عام١٩٧٩ بسبب تأليفه كتبا عن الثورة الإسلامية في إيران، ثم في فلسطين المحتلة عام ١٩٨٣، ثم عام ١٩٨٦ ثم أبعد عن فلسطين المحتلة عام ١٩٨٨ إلى لبنان بعد اندلاع الانتفاضة المباركة في فلسطين عام ١٩٨٧.

- تنقل منذ ذلك الوقت في بعض العواصم العربية والإسلامية لمواصلة طريق الجهاد ضد العدو الصهيوني.

- متزوج وله ثلاثة أطفال هم إبراهيم وخولة وأسامة.

- اغتالته أجهزة الموساد الصهيونية في مالطا يوم الخميس ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥ وهو في طريق عودته من ليبيا، بعد جهود قام بها لدى القيادة الليبية بخصوص الأوضاع المأساوية للشعب الفلسطيني.

(١)

القضية الفلسطينية قضية مركزية
الشقاقي يعدل الهرم المقلوب

تحتل القضية الفلسطينية مساحة هامة في المشروع الحضاري الإسلامي، ويمكننا أن نقول « إن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية أمر يدخل في صميم المشروع الإسلامي.

وهذا الأمر يرجع بالطبع إلى أسباب تاريخية ومستقبلية في نفس الوقت، فمسيرة الإسلام الحضارية دخلت في الكثير من التحديات والصراعات ونجحت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين في حسم الصراع لصالحها ضد الكثير من القوي الاستكبارية، ولم يصمد أمام الزحف الإسلامي إلا الحضارة الغربية، ودخل الإسلام مع تلك الحضارة الغربية صراعاً مريراً بدءا من عهد الرسول وحتى اليوم، واستطاعت أمة الإسلام أن تحقق النصر في الكثير من المواقع والغزوات على الحضارة الغربية، ولم تكن الحروب الصليبية في الشرق العربي إلا إحديس المحطات في هذا الصراع الذي استمر في الزمان والمكان وبمساحة واسعة في شمال أفريقيا والمغرب العربي وفي الشام وأوروبا ذاتها أيام مجد الخلافة العثمانية وفي البحر المتوسط كرا وفرا، ونحن الآن ومنذ قرنين من الزمان تقريبا نتعرض لضغط وهزيمة أمام الحضارة الغربية، والتي استخدمت في نهاية المطاف اليهود كأداة لتحقيق الحلم الأوروبي بالقضاء على الحضارة الإسلامية.

وهكذا فإن إسرائيل تمثل رأس الرمح الغربي ضدنا ويشكل التحدي اليهودي الغربي أحد أهم معطيات التاريخ المعاصر، فالغرب استخدم اليهود عندنا للتخلص منهم من ناحية، وللكيد لنامن ناحية أخرى واليهود استغلوا الوجدان الغربي الصليبي والمخططات الغربية المتآمرة ضدنا لتحقيق هدفهم في احتلال فلسطين

وإقامة إسرائيل الكبري من النيل إلى الفرات فيما بعد.

ومن ناحية أخرى فإن فلسطين أرض مباركة، وفيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهي في القلب من العالم الإسلامي، والضربة التي تكون في القلب تمس الكيان كله.

لهذه الأسباب فإن الصراع على أرض فلسطين يمثل المسألة الأهم في مستقبل الحضارة الإسلامية، فعلى أرض فلسطين يتحدد مصير الأمة الإسلامية فإما النصر وبداية الصعود الإسلامي الثاني وإما الإبادة والنهاية لحضارتنا لا قدر الله.

وهكذا فإن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية يشكل رقما هاما في المشروع الحضاري الإسلامي.

***

والقضية الفلسطينية بالنسبة للشقاقي هي القلب والعقل ما، فكرا وحركة وجهادا وتنظيما، والقضية الفلسطينية بالنسبة لتيار الشقاقي قضية مركزية للحركة الإسلامية وللأمة الإسلامية، وقد قدم الشقاقي إسهاما فكرياً نظريا رائعا لتأصيل هذه المعركة ووضعها على محك التطبيق العملي والشعار السياسي وبناء التحالفات التكتيكية والاستراتيجية بل وكذا موقفه النقدي من الحركات الإسلامية ومن الإسلاميين عموماً ومن كل القوى والدول والحركات.

يرصد الشقاقي مواقف الإسلاميين حول القضية الفلسطينية في ملف له بعنوان القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة في العدد١٣من مجلة المختار الإسلامي،يوليو ١٩٨٠ قائلا « تفاوتت مواقف الإسلاميين من القضية الفلسطينية إلى درجة تثير الدهشة، فمنهم من يتجاهلها وكأنها قضية سياسية ـ لا تتجاوز قضية الخلاف بين عمان ورأس الخيمة– ويتصورون ـ وكطريقتهم المعتادة في التصور ـ أن قيام دورة إسلامية في المنطقة سينهي المشكلة تماما وسيحسم الصراع الطويل ويعيد فلسطين إلى أهلها خلال ساعات ولو سئل هؤلاء عن الدولة الإسلامية التي يريدونها لا تسمع منهم إلا قولاً واحدا :إن ذلك ليس من شأننا التفكير فيه والتخطيط

له،علينا نحن العمل والعمل فقط.وهؤلاء للأسف يجهلون مرحلتهم ويجهلون أدواتهم، ذلك لأنهم يجهلون جوهر الصراع الدائر على أرض الوطن الإسلامي الآن، قبل جهلهم بالقضية الفلسطينية وموقعها من المرحلة ومن دائرة الصراع، ومن الإسلاميين من يتصدى للقضية الفلسطينية ويقترب منها ومن دوامة الصراع السياسي حولها مقدما موقفه كتعبير عن الموقف الإسلامي ـ كما يظن ـ ومراوحا في ذلك بين التنازل السياسي في التحليل والرؤية إلى جزيئات استطاعت الدول الكبرى أن تقدمها لنا وكأنها هي كليات القضية، وبين الموقف اللاتحليلي والعاطفي الذي يرى أن فلسطين هي أرض المقدسات الإسلامية وأن الأيدي الإسلامية المتوضئة هي التي ستحررها وكفى الله المؤمنين شر الدراسة والوعي والتحليل، والحقيقة أن تلك المواقف جميعها التي بنيت على فهم سطحي أو على عدم فهم أصلا لمهام الحركة الإسلامية المعاصرة ولأصول القضية الفلسطينية هي مواقف غير أصلية في تراث الحركة الإسلامية فعندما تقدم حسن البنا رحمه الله إلى فلسطين ليضع على أرضها قواعد إخوانية جديدة –وعندما قدم الإسلاميون خيرة شبابهم شهداء على أرض فلسطين بين ٤٧–١٩٤٨ كانوا في الحقيقة يكرسون الشعلة التي تقدم الشيخ المجاهد عز الدين القسام في منتصف الثلاثينات في أول محاولة لإضاءتها ».

وبتحليل مضمون ذلك التحليل النقدي للدكتور الشقاقي نجده يقدم أولاً رؤية نقدية لمواقف الحركة الإسلامية من القضية الفلسطينية فهي مواقف لا تلبي طبيعة التحدي ولا تستجيب لخطورة القضية ومركزيتها وهو هنا لا ينقد فقط مواقف الإسلاميين تجاه القضية الفلسطينية ولكن أيضا يضرب بفأس نقدي نوراني في أمراض وعيوب الحركة الإسلامية المعاصرة فهناك غياب للدراسة والوعي والتحليل، واكتفاء بمفاهيم عمومية ومواقف لا تدخل في صميم المشكلة بحثا ودراسة وجهادا، وهناك فهم سطحي أو عدم فهم أصلا ويرجع الدكتور فتحي عدم الفهم هذا أو الفهم السطحي،إلى عدم فهم الإسلاميين أصلا لمهام الحركة الإسلامية المعاصرة ولأصول القضية الفلسطينية و نحن بدورنا نؤكد على ما قاله الدكتور فتحي الشقاقي فأين الوعي والتحليل والدراسة التي قدمها الإسلاميون خارج تيار

الشقاقي الفكري والحركي، لطبيعة الصراع، وطبيعة تركيب العدو الصهيوني، ودراسة إسرائيل كجزء من مشروع الهيمنة الغربية أو وضع المشكلة في سياقها التاريخي والحضاري باعتبارها جزءا من الصراع الطويل الممتد في الزمان والمكان بين الحضارة الإسلامية التي تمثل الحق والعدل والحرية والحضارة الغربية التي تمثل القهر والوثنية والنهب والعنصرية... بل أين هي الدراسات والتحليلات التي تحل إشكاليات الواقع المعاصر؟ بل أين هي الدراسات والتحليلات التي تعرف الحركة الإسلامية باعتبارها حركة تحرر وطني تستند إلى الأصول الإسلامية، وليست مجرد فرقة دينية أو سياسية قديمة أو حديثة؟، إن الحركة الإسلامية المعاصرة لم تجب على سؤال: من نحن؟ وماذا نريد؟ فهل كان من الممكن أن تجيب على أسئلة وإشكاليات صراع معقد ومتشابك مثل الصراع مع الكيان الصهيوني ومشروع الهيمنة الغربي برمته.

ويسخر الدكتور فتحي الشقاقي من نمط التفكير السائد لدي الإسلاميين محددا أحد أسباب عدم انتصار هذا التيار حتى الآن رغم كل الظروف الموضوعية التي تعمل لصالحه.. فهم يتصورون كطريقتهم المعتادة في التصور، المصابة بالتعالي وسوء الفهم وأحيانا الجهل، أن قيام دولة إسلامية في المنطقة سينهي المشكلة تماماً وسيحسم الصراع الطويل ويعيد فلسطين لأهلها خلال ساعات وهم هنا أولا لا يقدمون حتى تصوراتهم عن تلك الدولة الإسلامية المنشودة، ما شكلها؟ ما طبيعتها؟، ما أولوياتها؟، ما برامجها؟، ومواقفها وتحدياتها؟، وكأننا نعيش في كوكب آخر منعزلين عن الصراعات العالمية ومنبتّي الصلة مع التاريخ والجغرافيا، ويهربون من الإجابة بقولهم: إن ذلك ليس من شأننا التفكير فيه أو التخطيط له علينا العمل والعمل فقط، وهل يمكن العمل بدون خطة استراتيجية وتكتيكية؟ وهل نحن نعمل في فراغ مثلا؟ وحتى إذا صح هذا بالنسبة للحركة الإسلامية في بنجلاديش ـ وهو لا يصح أيضا ـ فإن من غير المعقول أن يصح هذا في وسط معمعة هذا الصراع الكوني على أرض فلسطين وفي المنطقة المحيطة به.

إلا أنه من المفيد هنا ـ أن ننقد الدكتور فتحي الشقاقي أيضا لأنه بعد أن ضرب

فأسه النقدي النوراني في جوهر المشكلة وأسباب المرض عاد ليعطي نوعا من الاعتذار في محاولة مفهومة لعدم استثارة قوة سياسية بعينهاـ الإخوان المسلمون ـ وللفت نظرها أن مؤسسيها التفتوا إلى طبيعة المعركة، فلماذا هم يتراجعون ويكونون أقل وعيا وفهما وحركة من جيل المؤسسين، ورغم أن هذا صحيح جزئياً إلا أن النقد الموضوعي الشامل لا يتفق مع الدكتور الشقاقي في تلك النقطة، إنه يلفت نظر جيل الإخوان المسلمين الحالي إلى ممارسة الإمام الشهيد حسن البنا في هذا الصدد الذي أدرك قواعد الصراع واستجاب للتحدي، ولذلك الجيل الإخواني في عام ١٩٤٧-١٩٤٨ الذي قدم خيرة شبابه شهداء على أرض فلسطين، والذين كرسوا شعلة الوعي المضيئة للقضية الفلسطينية كقضية مركزية للحركة الإسلامية، ومع كل التقدير والاحترام لجهود البنا التاريخية في تلك الفترة، ولإسهامات ذلك الجيل الإخواني الذي قدم خيرة شبابه شهداء على أرض فلسطين نسأل سؤالاً مهما لماذا لم تستمر تلك المسيرة الجهادية؟ لماذا تراجع الاهتمام بالقضية الفلسطينية لدى هؤلاء؟، لماذا لم تقم حركة الإخوان المسلمين في فلسطين باستمرار الكفاح المسلح ضد الكيان الصهيوني منذ ١٩٤٨ وحتى فترة طويلة؟ أو لماذا تركت القضية إلى القوى العلمانية أو الوطنية على اختلاف مشاربها واتجاهاتها تعيش بها وعليها وتصل بها في النهاية إلى المأزق المعروف نقول « لو » أن الإخوان المسلمين في فلسطين استكملوا ما بدأه البنا، وساروا في طريق الكفاح المسلح، لتغير وجه المنطقة ولما كان المسار الفلسطيني قد وصل إلى هذا المأزق، ولما كان المسار العربي برمته قد وصل إلي هذه الأوضاع المأساوية، ولكان من المستحيل عمليا وصول الأنظمة الاستبدادية إلى الحكم في الوطن العربي والتي استخدمت شعارات الصراع مع إسرائيل بعد أن سقط الشعار من القوى الإسلامية، بل لما كانت القوى الإسلامية قد تعرضت لهذا الليل الطويل من الاضطهاد والتعذيب والسجن وأعواد المشانق، وهذا بالطبع رد على هؤلاء الذين سيبررون تراجع النضال الإسلامي ضد التيار الصهيوني بعملية الحصار والاضطهاد التي تعرضت لها الحركة الإسلامية في بلدان الوطن العربي المتاخمة لفلسطين، وهي بالطبع حجة البليد ووضع للهرم على راسه بدلا من قاعدته، فلو كانت الحركة الإسلامية وخاصة في فلسطين ـ قد سارت في

طريق الكفاح لكانت الشعوب وقفت وراءها هي وليس وراء قوى العسكر أو العلمانيين ولكان هؤلاء لم يجدوا شيئاً ليركبوه للوصول إلى السلطة وممارسة أعمالهم الخبيثة.

والحقيقة العارية ـ بلا معاملات السياسة والظروف ـ أنه لو كان البنا قد وضع القضية الفلسطينية كقضية مركزية في صلب منهجه ومشروعه السياسي والحضاري لما أمكن التراجع بهذا الحجم لدى الأجيال التي تلته عن هذا الشعار والنضال والجهاد ومن أجله..

ونضيف هنا أسئلة وأحداث لا سبيل لنكرانها والشك فيها فما الذي يجعل رجلا مثل الشيخ حافظ سلامة هو الذي يقود جهاد شعب السويس في مقاومته ضد الجيش الإسرائيلي عندما حاول هذا الجيش احتلال مدينة السويس عام ١٩٧٣ وأين كان الإخوان المسلمون... وما الذي يجعل رجلا مثل الشيخ أحمد المحلاوي هو الذي يقود المعارضة السياسية لكامب ديفيد ومشروع السادات التصالحي مع إسرائيل في نهاية السبعينيات، وما الذي يجعل الدكتور الشقاقي نفسه وحزب الله في لبنان هما اللذان يعيدان الوجه الإسلامي للمقاومة المسلحة ضد الكيان الصهيوني ثم تأتي حماس معهم وكرد فعل لهما، ولماذا لا تتفجر الانتفاضة إلا بعد نضال سياسي لتيار الدكتور الشقاقي في الأرض المحتلة، ما الذي يجعل كل هذا يحدث لو لم يكن هناك خلل في المنهج الإخواني ـ ليس تكتيكيا بل استراتيجياً.

نعود إلى الدكتور فتحي الشقاقي حيث يحلل لنا طبيعة الصراع ويعطيه أبعاده التاريخية والحضارية وهي محاولة رائدة له بالطبع، استحق بها أن يكون رمزاً للمرحلة بل رمزا لحركة الإسلام في القرن العشرين في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي.

يقول الدكتور الشقاقي:« علينا أن نلجأ وبدقة إلى حركة التاريخ فوق أرض الوطن الإسلامي كأداة تملكها وتسيرها سنة الله المؤثرة في هذا الكون، لنحاول استيعاب جذور القضية الفلسطينية وعلاقتها بأزمة الوطن الإسلامي ككل، ذلك إن

أردنا أن نعي مرحلتنا وأن نعي أهدافنا وأدواتنا وإن أردنا أيضاً أن نقترب مرة أخرى من شعلة الوعي والثورة » والشقاقي هنا يلفت النظر إلى أن القضية الفلسطينية ـ هي جزء من قضية الوطن وبالطبع فإنها في القلب من هذا الوطن كقضية وكجغرافيا وتاريخ وكرمز ديني.

ويستكمل الدكتور الشقاقي: « لقد حكمت الدولة العثمانية فلسطين كجزء مهم من الارض الإسلامية وعندما بدأت التوجهات اليهودية الصهيونية إلى فلسطين في نهاية القرن الماضي أعيد التشكيل الإداري في المنطقة لتصبح فلسطين وحدة إدارية تابعة مباشرة للصدر الأعظم في اسطنبول،هكذا كان المنظور الإسلامي يتعامل مع الأرض الإسلامية ولم يكن قد برز بعد مفهوم الحدود التاريخية للوطن الذي سيشكل فيما بعد أسس الاتجاهات الوطنية في المنطقة العربية كما أنه سيشكل أساس الفكر التوسعي الصهيوني، ولكن الصراع الحاد المتواصل بين الإسلام كمجتمع ونظام بين الإسلام كتيارات فكرية واجتماعية الذي استمر طوال القرن التاسع عشر على أرض الوطن الإسلامي كان قد استطاع على مشارف القرن العشرين أن يقدم نتائجاً في غاية الخطورة فمنذ الحملة الفرنسية وحتى الحرب العالمية الأولي والغرب يحاول وبكل الوسائل تدمير الحائط الإسلامي الصلب الذي يمنع سيطرته على مكامن الثورة في العالم ويشكل تهديدا أصيلاً لقيمه وبنيان نظامه وهكذا فقد استخدم الغرب حرابه العسكرية وبعثاته التبشيرية ومدارسه العلمانية ضمن هجمة عريضة ومتواصلة كان أخطر أدواتها تلك النماذج من أبناء المجتمع الإسلامي التي هزمت روحيا وفكريا وعملت كأدوات لعلماني الغرب ولأطروحاته السياسية القومية وبالذات ضد وطنهم، وهكذا ومع بداية القرن العشرين كان حزب الاتحاد والترقي يدعو إلى قومية طورانية في تركيا وكانت الأحزاب والجمعيات العربية مثل « العربية الفتاة، وجمعية العهد وجمعية بيروت الإصلاحية وحزب اللامركزية» وأخري كثيرة تدعو إلى قومية عربية ودولة عربية مستقلة عن دولة الخلافة.

وعلى الجانب الآخر كانت الحركة الصهيونية كتعبير عن الفكر اليهودي

التـاريخي تحـدد ملامحهـا السياسـية في أوروبـا كحليـف أصـيل سياسـيا وفكريـا للاستعمار الإمبريالي ضد ثروات الشعوب وللهجمة الغربية ضـد الإسـلام ووطنـه، وهكذا ولـدت الحركـة القوميـة العربيـة ابنـا شـرعياً للهجمـة الغربيـة ضـد الـوطن الإسلامي وبدت الحركة الصهيونية جزءاً أصيلاً من تلك الهجمة بكل ملامحها ».

وهكذا فإن الشقاقي يصل إلى الكثير من الحقائق التاريخية التي لابد منها لفهـم طبيعة الصراع ولتحديد التحديات ووسائل الاستجابة الصحيحة والمكافئة لها.

ففي إطار الصراع التاريخي بين الإسـلام والغـرب، كـان الغـرب منـذ الحملـة الفرنسية يحاول بكـل الوسـائل تـدمير الحـائط الإسـلامي وذلـك بسـبب الصـراع التقليدي الذي يجعل من الحضارة الإسلامية تهديدا مستمرا و أصيلا للغرب وقيمه وبنيان نظامه، وبسبب رغبة الغرب أيضا في الوصول إلى مكامن الثروة في العالم التـي كان الحائط الإسلامي يمنعه عنها.

إن الغرب اسـتخدم في ذلـك الصـراع الكثيـر مـن الأدوات بـدءا مـن الجيـوش العسـكرية وبعثـات التبشـير وانتهـاء باسـتخدام طـابور خـامس مـن داخـل الـوطن الإسلامي من هـؤلاء المغتـربين المهـزومين روحيـا أمـام الغـرب والـذين عملـوا، كأدوات لعلمانية الغرب ولأطروحاته السياسية والقومية بالذات ضد وطنهم.

إن الغرب استخدم الحركة الصهيونية كجزء من أدوات تحقيق هذا المخطط بـل وأخطر هذه الأدوات جميعاً، ويرى الشقاقي أن الحركة الصـهيونية جـزء أصـيل مـن الهجمة الغربية بكل ملامحها، وأن الصهيونية بـدورها رأت نفسـها كحليـف أصـيل سياسياً وفكرياً للاستعمار الإمبريالي ضد ثـروات الشـعوب وللهجمـة الغربيـة ضـد الإسلام ووطنه.

***

ويرصد الدكتور الشقاقي « في وعي فذ العلاقة الجوهرية بين الاسـتعمار وبـين حركة القومية العربيـة والتـي أدت ممارسـاتها وخياناتهـا إلى نجـاح الغـرب في زرع الكيان الصهيوني في فلسطين.

يقول الشقاقي: « في ظل تلك المرحلة بدأت الاتصالات بين الشريف حسين ممثل الحركة القومية العربية والسير مكماهون ممثل صاحب الجلالة ملك بريطانيا، قدم الشريف حسين رؤيته للمستقبل ضمن تكوّن مملكة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية تضم المنطقة العربية شرق السويس والجزيرة العربية إلا أن مكماهون منعه الدخول في تفاصيل الحدود، وبعد إلحاح وافق على ذلك مستثنياً فلسطين وبعض أجزاء بلاد الشام الأخرى من الدولة المطلوبة ولم يقدم البريطانيون أية ضمانات حقيقية للأحلام القومية العربية ورغم ذلك دخل القوميون العرب الحرب إلى جانب بريطانيا وضد الدولة العثمانية، لقد كانت المملكة العربية التي أرادها الجيل الأول من القوميين العرب نكوصا للوراء عن الدولة الإسلامية الكبيرة والشاملة لعدة قوميات وفي ظل الحرب العالمية الأولى احتلت بريطانيا فلسطين وأعلن وعد بلفورد أو عرفه العرب ونصب المؤتمر السوري الذي ضم ممثلين عن سوريا الكبرى محاولين بذلك سبق الأحداث، وعندما هزمت حكومة فيصل أمام القوات الفرنسية تم قبوله وعائلته للتسوية البريطانية بإعلانه ملكاً على العراق، نسي ذلك الجبل من القوميين العرب الذي كانوا في أغلبهم ينتمون إلى طبقة كبار الملاك، نسوا إلى حد ما تلك الفكرة القديمة لتأسيس دولة عربية كبرى وتوزعت اهتماماتهم بين دولة سورية وبين أوطان صغيرة مستقلة، لقد وقف القوميون وكبار الملاك، في شرق المنطقة العربية من الوطن الإسلامي مع فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية كتعبير عن هزيمتهم الفكرية والروحية والنفسية أمام فكر الغرب القومي العلماني،وكتعبير أيضاً عن طموحاتهم باستقلال اقتصادي عن الحكومة المركزية في اسطمبول، إذ لا خوف من المستقبل ماداموا هم الذين سيحكمون دولة المستقبل تلك،هذا هو الإطار العام الذي حكم الصراع في المنطقة ككل بين الحربين العالميتين أو بين وعد بلفور والهجمة الأولى عام ٤٨ ».

وهكذا ضاعت فلسطين... أو قل بدأ ضياعها ثم استكمل جيل العلمانيين والتغريبيين الذين حكموا المنطقة تضييعها... وهنا يرصد الشقاقي تراجع فكرة الوحدة الإسلامية والوطن الإسلامي، وبروز فكرة القومية العربية ويرى أنه بين هذا التراجع وذاك الصعود كان ضياع فلسطين.

ويستكمل الشقاقي دراسة الظروف والأوضاع التي أدت إلى ضياع فلسطين فيقول: « صاحب نهاية الحرب الأولى ازدياد الهجرة الدولية إلي فلسطين بعد الاحتلال البريطاني وإعلان وعد بلفور مباشرة وقد تحركت الجماهير الفلسطينية بحسها التاريخي ضد الهجمة ولكن الوجهاء والملاك الذين قادوا الانفصال عن الدولة العثمانية متحالفين مع بريطانيا عادوا مرة أخرى وضمن ظروف تدهور سياسي وحضاري شامل ليقودوا الجماهير وحركتها فأنشئت الجمعيات في المدن الفلسطينية وقادها الوجهاء والتجار وقد عقد ممثلو تلك الجمعيات المؤتمر الفلسطيني الأول في يناير ١٩١٩ وكان عدد المؤتمرين ٢٧ منهم ١١ أصدقاء لبريطانيا و٢ أصدقاء لفرنسا من المستقلين و١٢ من أنصار الوحدة القومية العربية، وكان واضحا أن المؤتمر ورئيسه « موسى كاظم الحسيني » سيقفون موقف المهادنة من بريطانيا وأن اتجاه المؤتمر العام سيفهم الصراع على أنه صراع مع الصهاينة فقط وعندما أعلنت بريطانيا الانتداب على فلسطين وعينت الصهيوني هربرت صموئيل مندوباً سامياً لها في القدس ليسرع في تنفيذ وعد بلفور لقيام وطن قومي لليهود قام صموئيل بتشكيل مجلس استشاري له من اليهود والمسلمين والمسيحيين وكان من أبرز أعضاء المجلس من العرب « إسماعيل الحسيني وفريح أبو مدين وسليمان ناصيف وعبد الرزاق طوقان وهم جميعاً ينتمون إلى فئة الوجهاء والملاك أصدقاء بريطانيا،نفس هذه الفئة ستشكل الحزب الوطني بقيادة عارف الدجاني وراغب التشاشيبي وسليمان الفاروقي ليكون أداة ضد الوطن ومع بريطانيا، ولقد قام الفلسطينيون بثلاث انتفاضات دموية قبل مطلع الثلاثينات، كانت الأولى سنة ١٩٢٠ والثانية سنة ١٩٢٣،وكانت في ظل أطروحات نفس الزعماء ضد التواجد الصهيوني فقط، ولكن في عام ١٩٢٩ وعندما حاول اليهود الاقتراب من المقدسات الإسلامية في القدس ثارت الجماهير متجاوزة قياداتها ضد اليهود وضد بريطانيا ومؤسساتها الحكومية،لقد أصبح واضحا رغم تضليل الزعماء من الملاك والوجهاء أن الصراع ضد الهجمة بطرفيها بريطانيا والحركة الصهيونية معا وعلى رأس التنظيمات الداعية إلى مهاجمة بريطانيا كانت جمعية الشباب المسلم في حيفا ذات

الصلة الوثيقة بالشيخ القسام، وفي مطلع العام الحادي والثلاثين عقد في القدس ما سمي بالمؤتمر الإسلامي الذي سيطرت عليه نفس العناصر القيادية المرتبطة ببريطانيا، وبالتالي فإن المؤتمر رغم شمولية تمثيله للمسلمين في العالم من سنة وشيعة في المنطقة العربية والهند وإيران إلا أنه لم يستطع التقدم إلى الأمام، وعقب المؤتمر مباشرة أصبحت التيارات السياسية في الساحة الفلسطينية واضحة ومميزة، فقد حافظت العناصر القومية التقليدية على أفكارها ومنهجها في العمل ضمن حزب الاستقلال، عجاج نويهص وأسعد داغر وعزة دروزة وصبحي الخضرا وشكل الوجهاء أصدقاء بريطانيا حزب الدفاع الوطني « راغب النشاشيبي » وقدمت عائلة الحسيني رؤيتها الوسطية الوطنية ضمن الحزب الوطني الفلسطيني « جمال الحسيني » ومباركة المفتي « الحاج أمين الحسيني » وكان الحزب مزيجا من الأحلام القومية وآمال الاستقلال الوطني وشيئاً من الحس الإسلامي،ولكن تلك الاتجاهات لم تكن قادرة ـ نظراً إلى المواقع الفكرية اللاإسلامية- على تحديد جوهر الصراع والتقدم نحو حسمه وكان لابد للجماهير بوعيها الإسلامي وبحسها التاريخي أن تقدم رؤيتها ومنهجها فكانت حركة عز الدين القسام، ويستمر الصراع في تصاعده بين الجماهير من جهة وبريطانيا والحركة الصهيونية من جهة أخرى بينما قيادات الوجهاء مازالت تتسلق أكتاف حركة الجماهير كزعامة رسمية، وعندما تفجر الصراع بشكل شامل وعنيف سنة ١٩٣٦ تشكلت قيادة الثورة من عوني عبد الهادي، وأحمد حلمي باشا، وراغب النشاشيبي وجمال الحسيني وعبد اللطيف صلاح وحسين الخالدي « نفس الوجوه ونفس الممارسة فقد كانوا ممثلين لمرحلة بأكملها فعندما كانت الجماهير تقدم دمها على ساحة الجهاد كانوا هم خارج الساحة يقودون المعركة، وبعد ستة أشهر من الجوع والقهر والدم جاءوا هم وحلفاؤهم من الزعماء العرب في الممالك العربية » مصر والأردن والسعودية، والعراق« ليأمروا الجماهير بوقف المعركة لأن الصديقة بريطانيا ستتفهم مطالبنا.

والشقاقي هنا يضع ملامح المنهج الصحيح للمواجهة، هو يعري ويكشف مناهج أخرى تشكلت وما كان لها إلا أن تفشل في تلك المواجهة منهج الزعماء الوجهاء والعلمانيين وأصدقاء بريطانيا الذين يعزلون الهجمة الصهيونية عن منهجها

الأصيل وهو مشروع الهيمنة الغربي فيهاجمون الصهاينة ويتركون بريطانيا،أو حتى يثقون في وعود الصديقة بريطانيا التي هي ممثلة مشروع الهيمنة الغربي في ذلك الوقت فكيف نحل مشكلاتنا وننتزع حقوقنا بالثقة في عدونا الذي اعتدى على تلك الحقوق وسلبها وانتهكها، وهكذا كان هذا المنهج الفاشل والذي كان يتسلق على أكتاف الجماهير هو سبب تكريس ضياع فلسطين والاستمرار في منطق اللامعقول وفي المقابل كانت الجماهير تدفع الدم بالحس الإسلامي والوعي التاريخي، وتعرف شيئا فشيئاً طبيعة المعركة وكونها معركة ضد الهيمنة الغربية ورأسها الصهيوني، وبدءا من عام ١٩٢٩ بدات الجماهير تهاجم إنجلترا والصهاينة علي حد سواء، ويرجع ذلك إلى طليعة مجاهدة اكتشفت طبيعة الصراع في ذلك الوقت وهي جمعية الشباب المسلم ذات الصلة بالقائد التاريخي الفذ عز الدين القسام... وتعتبر هذه الطليعة المؤمنة المجاهدة الواعية بجوهر الصراع ويعتبر رمزها التاريخي الشهيد المجاهد عز الدين القسام بمثابة العمق التاريخي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين ورمزها التاريخي أيضا الدكتور فتحي الشقاقي وهذه وتلك أدركت أن المواجهة شاملة مع مشروع الهيمنة الغربية برمته ومع رأس الحربة في ذلك المشروع « الصهاينة » وبأن الكفاح الجماهيري المسلح والواسع والنضال السياسي ضد الغرب كفكر وثقافة وقيم ووجود عسكري وسياسي هو فريضة شرعية وضرورة استراتيجية وشرط أساسي لصحة طريق المواجهة لاستعادة الحقوق وحسم الصراع الحضاري، طال الزمن أم قصر.

***

ويستمر الدكتور فتحي الشقاقي في تحليله الفذ قائلاً « وقد شهدت الأربعينيات الذروة الأولى للصراع على فلسطين وبحلول عام ١٩٤٧ كان الاستعمار الغربي بكل قواه ضمن لحظة حاسمة من الهجمة على الوطن الإسلامي يقف وراء الحركة الصهيونية ومعها من أجل قيام إسرائيل،وعلى الجانب الآخر كانت الزعامات الملكية العربية ووجهاء وملاك فلسطين قد نشأوا في أحضان الهجمة الغربية،وقادوا قبل خمسين عاما عملية تحطيم الدولة الإسلامية ويريدون اليوم مواجهة الحركة

الصهيونية وهو أمر يثير الدهشة وكان يومها أيضا بإمكان الجماهير الإسلامية أن تقدم لأمتها وجها حقيقيا وأصيلا ولذا فقد دخلت الفصائل الإسلامية الإخوانية من مصر والأردن وسوريا إلى ساحة الصراع وحين كان الجميع يهزمون ويتراجعون كان الإسلاميون يثبتون ويستشهدون ولكن المرحلة كانت أكبر من طاقتهم.

واستطاع التحالف الصهيوني الغربي في النهاية إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين كتجسيد مجتمعي وحي ومستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي، وسقطت كل الرؤى القديمة لمستقبل المنطقة بعد هزيمة الدولة الإسلامية، سقطت لأن قياداتها لم تخض في الحقيقة معركة ضد الغزو، فقد كانت في جانبه بقصد أو بدون قصد وكانت تتزعم معركة زائفة لصراع لم تع جوهره فحتى سنة ١٩٢٩ كانت تلك القيادات تصور اليهود فقط كطرف للصراع بينما الجماهير بحسها الإسلامي تشعر أن بريطانيا هي الطرف الآخر وحين دعا أئمة المساجد الجماهير إلى عدم دفع الضرائب لحكومة بريطانيا الكافرة كتصعيد للصراع وقفت القيادات من الملاك والوجهاء ضد الدعوة خوفا على أملاكهم من رد الفعل البريطاني وحين تقدمت الحركة الإسلامية الثورية بقيادة الشيخ عز الدين القسام رافعة السلاح في وجه بريطانيا لم تتكلف تلك القيادات المزعومة مجرد السير في جنازة الشهداء، وفي حمى معارك النكبة الأولى كانت الجماهير تستشهد وهم يتفاوضون وكانت بإسلامها مصممة على مواصلة الصراع وهم يوقعون اتفاقات الهدنة وكان لابد أن تسقط أنظمتهم الواحد تلو الآخر وأن تسقط أطروحاتهم ومناهجهم فقد قادوا المرحلة من بداية القرن إلى النكبة الأولى فلم يعطوا الأمة إلا الجوع والتضييع وفقدان الذات وتكريس قواعد الهجمة الغربية الاستعمارية على أرض فلسطين على طول الوطن الإسلامي وعرضه بأحزابهم وأفكارهم وقيمهم وهزيمتهم، كانوا جزءاً من الهجمة لا يتجزأ.

وفي الحقيقة فإن الإنسان أمام هذا الوعي الفذ والتحليل الدقيق لا يستغرب أن يكون من اكتشف هذه الحقائق... هو ذاته من يحولها إلى حركة جهاد تحمل السمات والملامح الصحيحة للمواجهة، بل وأنه يستشهد دفاعاً عنها، ومن يستحق الشهادة

أكثر من الشقاقي.

اكتشف الشقاقي هنا، أو قل أكد اكتشافاته السابقة وأضاف إليها اكتشاف وأكد أن التحالف الغربي هو الذي أقام دولة إسرائيل على أرض فلسطين كتجسيد حي ومجتمعي ومستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي...وكان من الطبيعي والحال هذه ، أن تكون المواجهة ضد مشروع الهيمنة الغربي برمته وضد التجسيد الحي والمجتمعي والمستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي « إسرائيل » ولكن هل كان يمكن للقوى والرموز والزعامات التي تربت ونشأت في أحضان الغرب وتحمل نفس قيمة إن لم تكن خائنة أصلا أن تواجه مشروعا هي ذاتها جزء لا يتجزأ منه..

وهل كان هناك نتيجة أخرى يمكن أن يوصلنا إليها هؤلاء الذين تربوا في الغرب سوى قيام إسرائيل في ١٩٤٨.

وهل هناك من يواجه إلا الجماهير بحسها الإسلامي وبوعيها التاريخي..ولكن أين الطليعة القادرة على شد الجماهير وتعبئتها؟ وبعد القسام أن كان الإخوان مثلا؟!. ولماذا توقف العمل الصحيح وفقا للرؤية الصحيحة؟ اللهم إلا في بعض حالات لا يمكن أن تشكل ظاهرة، ولماذا تركت الجماهير تحت رحمة قوي هي جزء من الهجمة ذاتها تتسلق على أكتافها وتتاجر بدمها وتتفاوض على مصالحها وتصل إلى حلول وسط تحقق لها مصالحها الطبقية وتحصن ممتلكاتها الاقتصادية خوفا من بريطانيا وغيرها، أو حتى تقتسم فئات النهب مع مشروع الهيمنة الغربي ثم تدعي الثورية.

وفي الحقيقة فإن كل الحقائق التي رصدها الشقاقي هنا، كانت ولا تزال منهاجا مفسراً لكل الأحداث والقوى والمعادلات حتى يومنا هذا.

***

ويستطرد الشقاقي قائلاً:« كان من الطبيعي أن تتصدى الحركة الإسلامية لقيادة المرحلة التالية إلا أن ظروف نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات السياسية

والاجتماعية والاقتصادية وعنف التدخل الغربي في الوطن الإسلامي لم تسمح لها بذلك، وقد انتهت النكبة الأولى بتوجيه ضربات قوية إلى آمال الجماهير وإلى إسلامها وإلى أرضها وتقدمت إلى السلطة العناصر العسكرية في انقلابات متواصلة تقدم أطروحاتها القومية الجديدة وتوثق علاقتها بالغرب سواء الرأسمالي أو الشيوعي، وتدعي أنها جاءت لتعيد إلى الأمة وحدتها ولتبني مستقبلها ولتحقق لها العدل الاجتماعي والرفاهية والتقدم ولكن انتماءها القومي العلماني في الخمسينيات وانتماءها الاشتراكي العلماني في الستينيات كانا يحددان موقعها تماما من قضية الصراع على أرض الوطن الإسلامي، لقد كانوا أطروحة جديدة فقط للهجمة الغربية ضد الإسلام ومع الغرب دائما سواء الشيوعي أو الرأسمالي ضد استقلال أمنهم وكانوا مع القهر والاعتقال والاغتيال ضد سلام الأمة وحرية مفكريها ورجالها، وكانوا مع رفاهيتهم وأرصدتهم ضد طموحات الأمة في النمو والتقدم والرفاهية، كان هذا هو إطار المرحلة التالية من النكبة الأولى في ١٩٤٨ إلى النكبة الثانية في عام ١٩٦٧ وحتى على النطاق الفلسطيني البحت فقد نمت نفس الاتجاهات الممثلة للأنظمة العسكرية العربية وفي حمى الغياب القاتل للوعي في تلك المرحلة غاب مرة أخرى الوعي الجوهري والتاريخي الصحيح للقضية الفلسطينية بل أن مختلف الاتجاهات الموجودة الآن على الساحة الفلسطينية ضمن إطار منظمات المقاومة تعود بأصولها إلى تلك المرحلة وربما قبلها بقليل، وكانت النكبة الثانية في صيف عام ١٩٦٧ انهيارا شاملا للثوريين الاشتراكيين من العسكر ولأنظمتهم ولمناهجهم، لقد سقطوا أولاً حين ضاعت وعودهم في ظل ممارستهم وسقطوا ثانيا حين قدموا بقية الأرض والتاريخ فداء لوجودهم وبقاء تسلطهم على روح أمتنا، وكان لابد عقب النكبة الثانية أن تعود الأمة إلى أصالتها وإلى حسها الإسلامي ووعيها التاريخي وتتلمس به طريقها بعد سنوات التضييع والسقوط، كان لابد أن تدرك أي منحدر خطر قد وصلت إليه بعد أن ضيعوا هويتها الإسلامية وبعد أن أسلمت قيادها إلى أعدائها وتلاميذهم الشرعيين، ومع مطلع السبعينيات كان المد الإسلامي الشامل في الوطن الإسلامي هو الرد الطبيعي والعلمي على المراحل السابقة التي أدت بأمتنا إلى نكبتين مروعتين في أقل من عشرين عاماً، وتكشفت

مساحة الصراع عن تيار إسلامي متصاعد يتقدم لحسم هذا الصراع لصالح أصالة الأمة واستقلالها وتقدمها الحقيقي وعلى الجانب الآخر كانت تقف قوى الغرب الاستعمارية وامتدادها من أنظمة وأحزاب قومية واشتراكية ووطنية بجانب إسرائيل كتجسيد للهجمة ضد الإسلام.

وبالطبع فإن الدكتور الشقاقي قد أصاب كبد الحقيقة حينما رصد التيارات الحاكمة في الوطن الإسلامي، والتي هي امتداد لنفس التيار الذي نشأ في أحضان الغرب وهو جزء لا يتجزأ من الهجمة الغربية على الوطن الإسلامي، وبالتالي فهو غير قادر على المواجهة وكان الطبيعي أن يقودنا هؤلاء إلى نكبتين مروعتين في أقل من عشرين عاما.. وبديهي أن الشجرة العلمانية التغريبية الخبيثة « القومية الإقطاعية » ما كان لها إلا أن تنتج أجيالاً أخرى من نفس الشجرة القومية العسكرية ثم القومية الاشتراكية « وذلك لتجديد شبابها والاستمرار في سياسة الخداع وامتطاء رقبة وأكتاف الجماهير، بل أن التطور الذي حدث في القومية الإقطاعية تجاه القومية الاشتراكية كان جزءا من الخداع وإلهاء الجماهير بقضايا أخرى غير قضية صراع الوجود والاستمرار في تنفيذ المخطط الغربي وكان هذا التطور باتجاه الاشتراكية القومية بتشجيع من الغرب وإسرائيل بالطبع.

ولكن لنا بعض الملاحظات على رؤية الدكتور الشقاقي بخصوص الحركة الإسلامية... فنحن لا نرى معه أن ظروف نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينات لم تسمح للحركة الإسلامية بالتصدي لقيادة المرحلة كما كان متوقعا بعد النكبة الأولى، لأنه أولا ليس هناك ظرفا يمنع حركة من التصدي لتحدياتها مهما كان كبيرا، ولكن هذا الظرف يحقق نتيجة عندما تكون البنية الداخلية للحركة قابلة لهذا..وعلى طريقة مالك بن نبي في مفهوم القابلية للاستعمار تقول إنه كان هناك داخل بنيان الحركة الإسلامية قابلية للاستبعاد، أو التخلي عن دورها، بل إن ما حدث لها بعد ذلك لم يكن إلا نتيجة هذه القابلية...وإذا تخلت حركة عن دورها الرئيسي وتحدياتها الجوهرية فإنها تنجذب تلقائيا إلى التطرف والتكفير وغيرها من الأمراض التي أصابت الحركة الإسلامية فيما بعد، وفي رأيي أن هناك خللا داخليا أدى إلى

هذا الأمر وهو أن الحركة وخاصة الإخوان المسلمين اعتبروا التنظيم أهم من الموقف والجماهير، واعتمدوا على الصف والكادر ولم يعتمدوا على الجماهير واستبدلوا قوة الموقف ومبدئيته بقوة التنظيم والمحافظة عليه مهما كان الثمن غاليا على مستوي الموقف والمبدأ والشهادة على المرحلة.

وكذلك فإن هذا العيب الداخلي أيا كان وذلك التخلي أو القابلية للاستبعاد هما اللذان أديا إلى ترك الأمة تقع في براثن العسكر وأبناء المدرسة الاستعمارية من حكومات وأحزاب وقوى ومؤسسات بل وأنه تتعلق هذه الرموز في غياب القيادة الطبيعية للأمة، وإذا تركنا الشعلة تسقط فمن الطبيعي أن يلتقطها المزيفون ويمارسون بها كل الجرائم ويجرون الأمة إلى نكبات مروعة. وهكذا فإن صعود العسكر والقمع الذي طال الإسلاميين والأمة عموما على أيديهم لم يكن هو السبب في استبعاد الإسلاميين عن قيادة الجماهير نحو تحدياتها الصحيحة، بل العكس صحيح تماما، فإن تخلي الإسلاميين وخاصة الإخوان عن روح المبادرة والتركيز على القضية الأم والسير في متاهات قوة التنظيم وغيرها هو الذي قاد إلى حكم العسكر وأدى إلى القمع والنكبات وهكذا فالإسلاميون مسئولون أمام الله ثم أمام الأمة عما حدث... وعموما فهناك حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أنهم أصلا لم يجربوا ذلك بعد ١٩٤٨، ولو جربوا وفشلوا لكان لهم العذر وحتى الدكتور الشقاقي يعرف وكان يثق في الجماهير، فالعيب لم يكن في الجماهير بل في غياب الطليعة، وتجربة الدكتور الشقاقي أيضا تؤكد ذلك، فالظروف الموضوعية التي نشأ فيها تنظيم الجهاد الفلسطيني أصعب كثيرا من الظروف الموضوعية في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات،فلماذا نجحت تجربته؟، لأنه حاول بصدق وإخلاص،فقط لا غير ولو كانت الحركة الإسلامية في نهاية الأربعينيات قد انحازت إلى جماهير الأمة وفقرائها و كادحيها وأصحاب المصلحة الحقيقية في النضال ووقفت موقفا ثوريا ضد الوجهاء والإقطاعيين وأصحاب المصالح المتحالفون مع الاستعمار بدلا من محاولة استدراجهم إلى صفها ـ وهيهات ـ لو كانت الحركة الإسلامية بعد ١٩٤٨ قد نفذت عمليات جهادية وفدائية واستشهادية ضد الكيان الصهيوني لما حدث أصلا ما حدث في طول المنطقة وعرضها، والصحيح والموضوعي أنه منذ ١٩٤٨ ـ

وحتـى ١٩٥٤ أو عـلى الأقـل حتـى عـام ١٩٥٢ أي أربـع سـنوات كاملـة، كانـت الظروف المحلية والدولية شديدة السهولة فالحكومات العربية كانت ضعيفة للغايـة ولا تقدر ولا تجرؤ على منع العمل الفدائي الإسلامي ضـد الكيـان الصـهيوني، ولا كانت إسرائيل قد حققت قوتها، ولا كان الغرب بحكم حالة الانهيار والتـداعي التـي أصابت قـوي الاسـتعمار القـديم «إنجلتـرا وفرنسـا» وصـعود الاسـتعمار الجديـد أمريكا« والاتحاد السوفيتي قادرا على منعها لأنه كـان في أضـعف حالاتـه أمـا وقـد أضعنا الفرصة فلنعترف بالمسئولية عن هذا الضـياع أولا حتـى لا تكـرس الأسـباب التي أدت إلى هذا الضياع، ثانياً ومن المؤسف أنه بعد ١٩٦٧ ومـع إفـلاس الأنظمـة التغريبية تماماً وصعود الحس الإسلامي الجماهيري بطريقـة مذهلـة تؤكـد حيويـة الأمة، راحت الحركة الإسلامية طول السبعينيات تهتم بالشكل على حساب الجوهر، وأصيبت بعدوى الوهابية والسلفية ولم تقدم ما يكافئ دورها الطليعي ولا مسؤوليتها أمام الله في القضية المركزية وجوهر الصراع...إلى أن قيض الله للأمة فتحي الشـقاقي ليعيد للحركة رسم خريطة وسلم الأولويات الذي كان مقلوباً.

***

يصل الشقاقي إلى بلورة رؤيته للقضية الفلسطينية قائلاً:« إن القضـية الفلسـطينية بما وصلت إليه جزء من ملامح التيارات اللاإسـلامية التـي تعاقبـت عـلى التصـدي الانتهازي لقيادة حركة الجماهير أو التي تسلمت السلطة طوال الفترة التالية لهزيمـة الدولة الإسلامية في مطلع هذا القرن، تلك القيادات التـي تمثـل التراجـع المسـتمر أمام التحدي الصهيوني الغربي، الـذي جـاء ليلغـي التـاريخ ويسـقط وعـي الأمـة ويهدم الحائط الإسلامي الصلب ويستولي على الأرض والثورة والمستقبل، كمـا أن فشل تلك القيادات في سنة ١٩٤٨ ثم في سنة ١٩٦٧ ثم عجزها عن مواصلة الصراع كنتيجة لعجزها عن فهمه قد أدى بها كما نرى الآن إلى قبول أي شيء كحـل للقضـية ويدل على ذلك ما نراه من ممارسة الجميع وإعلانهـم عـن مشـاريعهم لحـل القضـية ابتداء من الأنظمة العربية بكل أصنافها إلى من يدعون قيادة الفلسطينيين بكل انتمائهم ويبدوالإسلام وحده كدين، والإسلام وحـده كتـاريخ وحضـارة ونظـام وممارسـة،

القادر على مواجهة الأزمة وفهمها وقيادة حركة الصراع وحسم ذلك أنه هو الطرف الحقيقي والمستهدف وهو وعي الأمة وحسها.

ويضيف الشقاقي:« إن الهجمة اللاإسلامية وطرفها الأساسي وهو الغرب لم يستطع أن يقيم إسرائيل ككيان كامل فكرا ونظاما، وحضارة وهدفا، إلا عندما استطاع أن يثبت مؤسساته وأجهزته وتياراته في منطقة الوطن الإسلامي وحولها وكانت إسرائيل بالتالي جزءا مهما ومركزياً من هجمته على الوطن الإسلامي. وأمام الحركة الإسلامية اليوم إما الوعي للهجمة والتصدي لها بجميع جوانبها وإمكانياتها وأدواتها أو أن تبقى في مكانها تراوح بين التقدم مرة والتراجع مرات،إما أن تعي جوهر الصراع تماما ودور القضية الفلسطينية فيه أو أن تتعرض لأسوأ الحقب على أرض الوطن الإسلامي تلك التي تلوح في الأفق، الحقبة الإسرائيلية ».

(٢)

المواجهة الحضارية الشاملة
في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي

الإسلام شكل لهذه الأمة حضارة متميزة، ومنظومة ثقافية محددة وشخصية حضارية محددة الملامح،وهي حضارة تقوم على التوحيد والعدل والحرية،وحضارتنا تدعو إلى التعاون والاستفادة من تجارب الآخرين،ولكنها بالطبع ترفض الذوبان والخضوع للمنظومات الحضارية الأخرى،والأمر أشبه بشجرة إذا قطعتها مثلا بدعوى تثبيت شجرة أخرى فهذا ليس تعاونا وكذلك إذا طعمتها كما هو معروف في علم النبات،بشجرة أخرى ليست من عائلتها فإنها لا تستجيب ويصبح الأمر كله هراء وليس إلا من قبيل القضاء على شجرتنا الحضارية والصحيح أن نستفيد بتجارب الآخرين في طرق تنمية هذه الشجرة وتغذيتها والحصول على أحسن الثمار عن طريق تحويل هذه التجارب والأسمدة والمخصبات في داخل أنسجة شجرتنا إلى شيء جديد مرتبط بطبيعة وشخصية هذه الشجرة، أي هضمه وتحويله داخل النسيج الحي لشجرتنا الحضارية إلى جزء لا يتجزأ من شجرتنا الحضارية وليس تشويها خارجيا لها أو محاولة للصق قيم حضارية خارجية عنها ستلفظها بالطبع أو تسبب لها مشاكل تضعفها أو تؤدي حتى إلى موتها،إذن فنحن دعاة تعاون حضاري بهذا المفهوم أما المفاهيم الأخرى فهي محاولة لخداعنا وإخضاعنا تحت ستار التعاون الحضاري.

ونحن الآن أمام حضارة غربية لها القوة والسيادة علي العالم ولها منجزاتها العلمية والتقنية ونحن لا نرفض بالطبع أن نستفيد من عزمها ومنجزاتها التقنية بشرط أن يدخل ذلك في نسيجنا الحضاري ويتم هضمه وتحويله وفقا لعملية داخلية بحتة.

ولكن هل تقبل الحضارة الغربية بهذا النمط من التعاون،إنها تقوم على القهر والنهب والعنف والعنصرية وحضارتنا تقوم على التوحيد والحرية والعدل

واللاعنصرية،ولا يمكن بداهة أن يحدث تلقيح بين شجرتين حضاريتين مختلفتين إلى هذه الدرجة، والحضارة الغربية تريد الهيمنة والقضاء على الحضارة الإسلامية لأسباب كثيرة،فهل نقبل الخضوع لها والاندماج فيها؟!. والحضارة الغربية ترفض حتى إعطاء الآخرين وخاصة المسلمين علومها التجريبية ووسائلها التقنية ـ برغم أن العلم تراث إنساني،والحضارة الغربية نفسها استفادت من علوم وتقنية الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها،ولعل محاكمة المهندس المصري عبد القادر حلمي في أمريكا بتهمة سرقة التكنولوجيا الأمريكية خير دليل على ذلك.

إذن ليس هناك من سبيل أمامنا سوى انتزاع العلم انتزاعا، ليس هناك سبيل للتعاون، بل للمواجهة ـ ليس رفضا من ناحيتنا للتعاون ـ بل لأن الحضارة الغربية لا تقبل بالتعاون الحر، بل تريد الهيمنة علينا وإخضاعنا بل و إبادتنا حضاريا وبشريا، الموقف الصحيح هو المواجهة، والمواجهة تكون برفض الاندماج في حضارة الغرب، والتأكيد على الذات والهوية الحضارية لأمتنا وحشد الأمة كل الأمة لمناهضة الاستعمار والصهيونية وتحقيق النهضة، وانتزاعها انتزاعاً.

والله تعالي قد رسم لنا هذا الطريق في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾. هذه الآيات الكريمة تصف أحوالنا مع الغرب واليهود الآن، فالتحالف بين اليهود والنصارى لم يحدث إلا في السنوات الأخيرة، وكان العداء بينهما أمر ثابت بل وتعرض اليهود للاضطهاد دائما على يد الغرب وآخرها أفران هتلر، إذن فالآية تصف الأحوال المعاصرة وترسم الطريق الملائم لهذه الأحوال، وهو رفض الاندماج في حضارتهم وعدم موالاتهم، والآيات تتحدث أيضاً عن هؤلاء الذين ينتشرون بيننا الآن ويقولون لنا أنه لا يمكن مواجهة الغرب وإسرائيل لأن هناك عدم تكافؤ كبير جدا في القوة بيننا وبينهم وبالتالي علينا أن نخضع ونندمج في الحضارة الغربية، ولكن الله تعالي يطمئننا أن الصبر والصمود والمواجهة هو الطريق الصحيح لأن الله تعالى سوف يأتي بالفتح

أو بأمر من عنده.

وفي كل الأحوال فإن الخضوع والاندماج يعني بالنسبة لنا الموت الحضاري، والمواجهة قد تعني الموت وقد تعني الكثير من الخسائر، وقد تعني النصر أيضاً في النهاية، ولكن الخضوع يعني القضاء على البذور الكامنة بالإضافة إلى الساق والفروع، أما الصبر والمواجهة فقد يعني دمار الفروع والسيقان، ولكن تظل البذور كامنة تحت التربة فتعطي مرة أخرى في ظروف أفضل ساق جديدة وفروع جديدة، وتنمو الشجرة من جديد.

وهكذا فإن المواجهة الحضارية الشاملة هي إحدى سمات المشروع الحضاري الإسلامي، والمواجهة الحضارية الشاملة هي الطريق الوحيد للانعتاق نحن وغيرنا من المستضعفين في العالم من مشروع الهيمنة الغربي..

***

كان الدكتور فتحي الشقاقي من أشد المهتمين ببناء رؤية ونظرية للمواجهة ضد مشروع الهيمنة الغربي، وليس لتحرير فلسطين فقط، بل لتحرير العالم العربي والإسلامي كله، بل أيضا لتحرير كل ضحايا الحضارة الغربية وهكذا، كانت نظرية الدكتور فتحي الشقاقي بمثابة لاهوت تحرير إسلامي لكل المستضعفين في العالم من الهيمنة والنهب والقهر الغربي، ورؤية الشقاقي لمسألة الهيمنة الغربية وقضية الاستقلال والتبعية رؤية ثرية تضم ما هو تاريخي وما هو سياسي وما هو استراتيجي بل ووضع التصورات لوسائل وآليات المواجهة.

فمن الناحية التاريخية يقول الشقاقي « استؤنف الرد الأوروبي العسكري على العالم الإسلامي منذ القرن السادس عشر من قبل أسبانيا والبرتغال ثم عادت الكرة في القرن التالي على جبهة المواجهة مع روسيا القيصرية التي توسعت في القرم ثم عادت في القرن الثامن عشر لتستولي على معظم القرم وعلى رومانيا وشواطئ البحر الأسود ومنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأت خسائر المسلمين الواحدة بعد الأخرى فقد انسحب العثمانيون من اليونان وخسروا معظم المغرب العربي ومصر

والسودان وسواحل البحر الأحمر وقبرص لصالح بريطانيا وفرنسا، في حين استولت الأولى على الهند وساحل الخليج وبحر العرب وعدن، وما إن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى كان العالم الإسلامي كله محتلاً عدا السعودية وتركيا الحديثة وإيران « منبر الشرق العدد ٨ يوليو ١٩٩٣ ».

وبعد أن يستعرض الدكتور الشقاقي المراحل التاريخية للهيمنة الاستعمارية على بلادنا يصل إلى المرحلة الحديثة ويحددها بأن الاستعمار استهدف تجزئة العالم الإسلامي وخاصة قلبه العربي إلى وحدات متصارعة مقطوعة عن بعضها البعض يشعر كل منها بالحاجة إلى الأجنبي، وتسليمه مقاليد دول الاستقلال إلى نخبة متغربة، أو صديقة أو عملية للعواصم الغربية الاستعمارية وإحاطة هذه النخبة بقطاع واسع من الكتاب والصحافيين والتجار ورجال الفكر والتعليم والإدارة الذين لا يعرفون مرجعية لهم سوى المرجعية الحضارية الغربية، سواء كان ذلك بحسن نية أو سوئها، ومنع المنطقة وخاصة لكياناتها الكبرى سلماً أو حربا من أهداف النهوض المدني وتحقيق المنعة العسكرية واستغلال الثروات لصالح الشعوب ومستقبلها، بل قامت الدول الاستعمارية وما زالت بامتصاص خيراتنا، كما استخدمت القوى الغربية ثقلها الصناعي وسيطرتها على المنظومات النقدية الاقتصادية العالمية لإحكام ارتباط اقتصاد بلادنا بعجلة الاقتصاد والنقد الغربي، ثم إنشاء دولة إسرائيل كضمان للممرات الاقتصادية في المنطقة ثم حارس لنظام التجزئة وأداة قمع في يد السيطرة الغربية ويراد لها في المرحلة القادمة من خلال مشروع السلام والتطبيع الشامل معها أن تدعم النخب المغتربة وقيمها وأخلاقها في بلادنا وأن تساهم في السيطرة على أسواق المنطقة وثرواتها.

وهكذا يحدد الشقاقي آليات مشروع الهيمنة الغربية وأدواتها من التجزئة إلى منع نهضة المنطقة سلماً أو حرباً، إلى امتصاص الثروات بأكثر من طريقة ووسيلة، إلى إقامة دولة إسرائيل، ليس هذا فحسب بل إن الشقاقي يعود فيكشف آليات أخرى للهيمنة أكثر تعقيدا من خلال ضرب نظامنا الاجتماعي الذي حرس بلادنا لمدة طويلة متمثلا في العلماء ونظام الحرف والأوقاف إلى إقامة أنظمة اجتماعية تابعة

تحت شعار التحديث، ويرصد الشقاقي أيضا فشل المشروع النخبوي لأنه اعتمد على توفيق وتركيب مستحيلين بين موروثنا الفكري وقيم أوروبا الجديدة وأنه غاب عن هؤلاء أن نهوض الأمم لابد أن يقوم على قيم أساسية أصيلة وأن أوروبا الجديدة كانت تحمل مشروعا للاستعمار والهيمنة والسيطرة وأنها لن تسمح لعالم الإسلام أن ينهض من خلال الاستعانة بها صناعيا وإداريا وعسكريا ثم يرصد الشقاقي مشروعا آخراً فاشلا وهو مشروع ينادي بالتخلي عن كل موروث والخضوع الكامل لقيم الغرب ومنظومته، ويرى الشقاقي أن هذا الخيار يؤدي إلى انتهاء الأمة بأكملها وانقراضها حضاريا أو ثقافياً وربما بشرياً.

ويهتم الشقاقي بإبراز كون إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي فيرصد إدراك صناع القرار الأوروبيون في لندن وباريس وفيينا وبطرس بورج الأهمية الجيوبولتيكية لقوى المتوسط الجنوبي الشرقي أي مصر وفلسطين وأن تأمين المشروع الاستعماري يستدعي تأمين المفصل المصري الفلسطيني ومن هنا بدأت الدعوى لإقامة كيان قومي لليهود في فلسطين على يد رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون، وذلك قبل نصف قرن من تأسيس الحركة الصهيونية.

وفكر في ذلك نابليون من قبل في نهاية القرن الثامن عشر في إطار مشروعه الاستعماري.

ويرى الشقاقي أن التبعية نظام متماسك، وأن من الضروري أن نعي أنه لا يمكن تشبيه نظام التبعية بالحبال التي تربط بلادنا بالخارج، بل الأصح أن تشبه بشبكات متداخلة، والأكثر صحة أن نراها كشبكة من الأوعية الدموية تمتد في كل أجزاء حياتنا وبلادنا وتتغذي من مائنا وهوائنا وتعيش لصالح الغير، ولأنها شبكات متسعة متشعبة عميقة الجذور فلا يمكن التخلص منها دفعة واحدة أو في عقد واحد أو اثنين، وباعتبارها متصلة بالنظام العالمي كله، عالم سيطرة الغرب الأطلسي على آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية وعلى ما يسمى بالمؤسسات الدولية فإن إنجاز مشروع تقويضها لابد وأن يعتبر مشروعا عالميا.

وهكذا يصل الشقاقي إلى أن مشروع الهضيمة الغربي عالمي، ومواجهته ينبغي أن تكون عالمية،وهي دعوى إلى إقامة تحالف شعبي واسع وجماهيري يضم العرب المسلمين وكل المستضعفين في العالم ، وهكذا فإن الشقاقي هنا هو صوت المستضعفين في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي وهو داعية إلى ما يمكن أن نطلق عليه لاهوت تحرير إسلامي مقدم لكل العالم للنهوض والتحرر من الغرب لأن ثورة الانعتاق العالمي من الغرب لابد لها من جذر ثقافي لا يكون من داخل المنظومة الحضارية الغربية وإلا كان تكريسا للتبعية وإجهاضاً لحلم الثورة على الهيمنة الغربية، إذن فلا بد أن يكون هذا الجذر هو الإسلام. الذي هو عالمي بقيمه وصالح نظرياً بأيديولوجيته أن يكون جذرا ثقافياً للثورة العالمية التي تضم كل مستضعفي العالم.

ويؤكد الشقاقي على عدد من الحقائق الهامة في هذا الصدد فيقول: « إن تماسك نظام التبعية يستدعي الوعي بأن عملية الاستقلال لابد أن تواجه دوائر التبعية جميعاً، كلا على حدة ومعاً في الآن نفسه ـ وأن استقلالا سياسيا بدون التخلص من التبعية الثقافية وبدون نمط مستقل للتنمية سرعان ما سينهار تحت وطأة الضغوط وأن أي محاولة للاستقلال الاقتصادي ولامتلاك ناصية القرار السياسي في ظل دولة التجزئة سيكون ضربا من المناورة مع التاريخ كما أن محاولة إيهام الذات بأن الكيان الصهيوني محدود الخطر بمنطقة جغرافية وعلى شعب معين هو انحراف في رؤية التاريخ والواقع على السواء إذ أن استمرار بقاء هذا الكيان خطر على الناس وعلى ثقافتهم وعلى خياراتهم في التنمية والنهضة وأن مشروع الاستقلال في النهاية هو مشروع تغيير ميزان القوي العالمي أي هزيمة نظام الهيمنة وإعادة دول المنظومة الغربية إلى حجمها الحقيقي ومساعدة شعوبها ـ سلما أو حرباً ـ على التخلص من رؤيتها المشوهة لنفسها وللعالم، الرؤية القائمة على مركزية الغرب وعلى الثقافة العنصرية وعلى مفاهيم سيادة الرجل الأبيض، وهو يستدعي تحالفا عالميا بين المظلومين، وأن يكون مشروع استقلالنا ذا ارتباط عميق باستقلال الشعوب الأخرى

ويرى الشقاقي « أن المسألة الأساسية التي يجب على قادة الأمة وعلمائها وزعمائها أن يروها هي أن النهضة والاستقلال لا يمكن أن يتحققا بمجرد نشر وعي

وثقافة الاستقلال، وأن النهضة هي متغير على أرض الواقع وفي داخله ولابد أن تقترب الأمة وقادتها وزعماؤها من ملامح هذا الواقع بمثابرة واستعداد عميق لتضحية وإيمان أوسع بأن ظهرها عليى الجدار، وكما ضرب النحات في الصخر فإن كل متغير مهما صغر في الواقع يأخذنا قدما إلى مرحلة التشكيل المبدع في صورته الأخيرة ولكن وفي مراحل عديدة سيكون دمنا هو البديل عن عرق النحات ».

ويهتم الشقاقي اهتماما خاصا بالنظام العالمي للمبادلات الاقتصادية الذي يحقق أكبر قدر ممكن من النهب لصالح الغرب على حساب شعوب أمم وقارات ودول بأكملها، ويرى الشقاقي أن الغرب نهب العالم بانتظام منذ الحروب الصليبية وحتي الآن حيث نجح الغرب في استنزاف ثروات قارات ثلاث هي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، بما في ذلك الثروات المادية والإمكانات البشرية والثقافية، وتكديس هذه الثروات في الدول الصناعية الغربية، وأن النظام العالمي الجديد وبعد حرب الخليج بالذات ـ يستهدف مزيدا من النهب للدول الفقيرة عن طريق مجموعة من الآليات الاقتصادية مثل زيادة مديونية الدول الفقيرة، مزيد من الاستنزاف للثروات الطبيعية وتدمير البيئة، مزيد من الاحتضار للزراعة،وبالتالي المزيد من النزف السكاني للريف وما يتبعه من اكتظاظ مديني هائل في محيط بيئوي لا يحتمل، مزيد من البطالة وتفشي الطفيلية، مزيد من الارتفاع في معدلات التضخم، ومزيد من الاستقطاب الاجتماعي بين أقلية من السكان تستأثر بمعظم الدخل القومي مقابل أكثرية متسعة تعيش تحت خط الفقر والجوع، مزيد من اضطرابات اجتماعية لا تنتهي حيث ستجد الأنظمة نفسها في مواجهة مع الشعب وبالتالي تكون أكثر حاجة إلى الاعتماد على الغرب في تامين النظام واللجوء إلى مزيد من القمع والتبعية...

(٣)

عز الدين القسام وعز الدين الفارس

يحلو لبعض الحركات أن تزعم أنها الحركة الأم، وأنها بالتالي هي التي بدأت مسيرة الحركة الإسلامية المعاصرة، وهذا بالطبع يوقع تلك الحركات ويوقع معها الأمة في إشكاليات لا حصر لفها بل وأحيانا تهما بلا مبرر.

فإذا كانت تلك الحركات تزعم أنها حركة أم، فماذا كان قبلها، هل كانت أمة الإسلام جثة بلا حراك، لا حركة ولا طليعة مؤمنة ولا قيادة، وهل كل جهاد الأمة المعاصر ضد الاستعمار والاستبداد قبل تلك الحركات كان لا إسلاميا... إن معنى هذا أن الحركات والقوى والتيارات اللاإسلامية أصيلة في واقعنا، وأن الحركة الإسلامية الجديدة في هذا الواقع، وبالتالي من حق الناس أن تتساءل لماذا جاءت وكيف وأين ومن وراءها.. إلخ.

والصحيح أن الحركة الإسلامية المعاصرة ما هي إلا حلقة في سلسلة الكفاح الوطني الإسلامي ضد الاستعمار والاستبداد والتخلف والتبعية، وهي إذن الامتداد الطبيعي لجهاد وجهود عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي والثعالبي وعمر المختار وعمر مكرم والأفغاني والنديم ومصطفي كامل ومحمد فريد وعز الدين القسام... وغيرهم من رواد حركة التحرر الوطني ضد الاستعمار.

وهكذا فإن الصحيح أن الحركة الإسلامية حركة تحرر وطني وليست دينا جديدا أو فرقة دينية جديدة، وكفاحها الوطني استنادا إلى الإسلام أمر ليس جديدا فكل الحركات والقوى التي ناهضت الاستعمار في بلادنا والتي تصدت للغزوة الاستعمارية المعاصرة استندت إلى الدين وكانت إسلامية حتى النخاع، وكل من يطالع ويدرس حركات عبد القادر الجزائري والخطابي والثعالبي وعمر المختار وعمر مكر والأفغاني والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وعز الدين القسام وغيرهم يدرك على الفور أنها إسلامية حتى النخاع وأن إسلاميتها كانت من البداهة

وطبيعة الأشياء لدرجة لا تستدعي هؤلاء للتحدث عنها باعتبارها شيئا مميزا.

وهكذا فالحركة الإسلامية حركة أصيلة في الواقع المعاصر وتمتد بجذورها إلى حركة الكفاح الإسلامي المعاصر ضد الاستعمار وهي حلقة من حلقات الكفاح تتبعها حلقات وهذا بالطبع يحقق لها الأصالة والتجديد معاً، ويجعلها نموا طبيعياً في جسد الأمة وليس زائدة دودية عليها مهما كبرت ويؤكد على ضرورة أن تتصرف هذه الحركة بمنطلق الطليعة وأن تتصدى لقيادة الأمة في كفاحها ضد الاستعمار والصهيونية وأن تعتبر نفسها مجرد خميرة للنهضة، والأمة هي المجال الحيوي لعمل الخميرة مثل اللبن والخميرة، اللبن هو الذي يتحول إلى زبادي، وهكذا فالأمة مثل اللبن والحركة مثل الخميرة.

ولقد وعى الشقاقي أنه وحركته وتياره مجرد حلقة من حلقات الكفاح الوطني، وأنه لا يمثل رؤية دينية جديدة ولا فرقة دينية جديدة ولا قديمة، وليس متميزا عقيدة و انتماء بل هو طليعة لها و خميرة لنهضتها وحركتها وهكذا استطاع أن يحقق أقصى وأوسع انفتاح على الجماهير ولم يكن التنظيم بالنسبة له بديلا عن الجماهير،بل أداة وطليعة لتثوير الجماهير وقيادتها وحشدها وتعبئتها ولذلك كان من الصعب والمستحيل اجتثاث هذه الحركة، إلا باجتثاث الجماهير وهيهات.

كان لابد أن ترتبط هذه الحلقة بسلسة من الكفاح الإسلامي المعاصر ضد مشروع الهيمنة الغربي،وضد الكيان الصهيوني بالذات وعلى اعتبار أن الحركة فلسطينية، وقضيتها المركزية هي القضية الفلسطينية، كان من الطبيعي البحث في التاريخ المعاصر عن هؤلاء الذين فهموا القضية بصورة صحيحةن فهموها على أن إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي وأن المواجهة مع الغرب كل الغرب وليست إسرائيل وحدها، وأن الطريق إلى ذلك لا يكون إلا بتعبئة وحشد الجماهير الكادحة الفقيرة التي ليست لها مصالح مع الاستعمار ولا تخاف منه على مكاسبها وأموالها وتجارتها وأرضها ولا أوضاعها الطبقية،وأن الطريق للمواجهة ليس إلا عبر الكفاح المسلح، ولم يكن هذا منطبقا عليأي من الحركات القائمة على الساحة في ذلك الوقت، كانت هذه الرؤية بالتحديد هي رؤية حركة بدأت في فلسطين ومارست

نضالها منذ نهاية العشرينيات وحتى نهاية الثلاثينيات بوعي مبكر وإدراك فذ لطبيعة المعركة، كانت تلك هي حركة الشيخ المجاهد عز الدين القسام، ذلك الشيخ السوري الذي جاء إلي فلسطين ومارس فيها كالكفاح المسلح ضد اليهود وإنجلترا على حد سواء فأحدث بذلك نقلة نوعية في الوعي والحركة الجماهيرية الإسلامية المعاصرة.

كان الشقاقي قساميا حتى النخاع، ولكنه أضاف وأبدع ولم يقف عند لحظة تاريخية بعينها، بل تقدم إلى الأمام رابطا حركته بجذرها الصحيح، ومتجاوزا بها الأفاق ولعلنا الآن ندرك لماذا اختار فتحي الشقاقي اسما حركيا ليوقع به على أعماله الفكرية في بداية حركته وهو اسم عز الدين الفارس، إنه أخذ هنا اسم عز الدين من عز الدين القسام وأضاف إليه الفارس الذي يقود الفرس ليؤكد على طبيعة الجهاد والقتال والفروسية.

وعز الدين البقسام عند الشقاقي هو « الواجب المقدس في صراع الواجب والإمكان، هو روح داعية مسئولة في وسط بحر من اللامبالاة والتقاعس، وهو رمز للإيمان والوعي والثورة والإصرار على عدم المساومة » المختار الإسلامي العدد ١٣ يوليو ١٩٨٠.

يقول الشقاقي: « كان القسام عالما مؤمنا مسلما لا يفتر عن ترديد آيات الجهاد والآيات التي تدعو إلى النضال والتضحية وكذلك كان الشقاقي.

ويقول الشقاقي أيضا : كان القساميون يلجؤون في النهار إلى الكهوف ويصلون ويقرؤون القرآن، وفي الليل يخرجون إلى القتال، وأن القسام كان يدعو إلى الجهاد على أساس ديني وكان له شعار واحد تنطوي تحته كل مفاهيم الثورة « نصر أو استشهاد»، وكان يرفع كتاب الله في يد والبندقية في اليد الأخري، وأن إيمان القسام قد وصل إلى الذروة في تلك اللحظة التراجيدية الخالدة، التي واجه فيها قوة من ٤٠٠ إلي ٦٠٠ رجل بريطاني هو وعشرة من إخوته كانت المعركة قد بدأت في الصباح واستمرت حتى الظهر وأثناء احتدامها حاول الغزاة إغراءه بالمال والوظائف حتى أنهم عرضوا عليه منصب نائب المفتي ولكن البطل المسلم أجابهم « لن نستسلم إن

هذا جهاد في سبيل الله والوطن » ثم التفت إلى رفاقه قائلا «موتوا شهداء».

ولعل تحليل الشقاقي لحركة عز الدين القسام ودراستها بهذه الطريقة الدقيقة تؤكد على وعي الشقاقي من ناحية، وإضافته الثورية إلى التراث الثوري العالمي من ناحية أخري، وتحدد ملامح وطبيعة حركته التي أنشأها مع رفاقه فيما بعد «حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين».

يقول الشقاقي: « لم يكن القسام طوال مراحل نضاله مجرد مقاتل صلب وعنيد فحسب بل كان أيضا مفكرا داعيا يتمتع برؤية ناضجة وواضحة على المستوى الاجتماعي والمستوى السياسي حيث خاض نضالا مستمرا قبل أن يخرج للقتال، أدرك القسام أن الأمة الجاهلة لن تستطيع أن تقاوم أخطبوطا يسخر العلم لخدمة كل أغراضه، فكان القسام رجلا عالما تولى التدريس في المدرسة الإسلامية بحيفا وفي المساجد خاصة مسجد الاستقلال وكان ينشر أفكاره بين العمال والفلاحين والباعة الجائلين وكانت تجربته بتأسيس مدرسة ليلية لتعليم الأميين من الشعب تجربة رائدة على المستوى الاجتماعي، وأن القسام اهتم بالمرأة وحاول تطوير وعي النساء اللاتي كن على علاقة قوية بالتنظيم السياسي من أجل أن يصبحن عضوات عاملات ومنذ أن استقر القسام في حيفا دخل معترك النشاط الاجتماعي فانتسب إلى جمعية الشبان المسلمين ثم انتخب رئيسا لها بعد ذلك، كما استغل فرصة عمله كمأذون شرعي فكان يحضر الأفراح للتعرف على الجماهير وفهم نفسياتهم مما سهل عليه الاتصال بسائر الطبقات.

وهكذا فإن الشقاقي يكتشف من خلال حركة القسام تلك العلاقة الجدلية بين العمل السياسي والعمل الاجتماعي، وكذا يكشف إلى من يتوجه بخطابه الجهادي، إلى العمال والفلاحين والباعة الجائلين، وإلى أن من الضروري فهم نفسية الناس من خلال الاحتكاك بهم وفم الخطاب المناسب لهم.

ويؤكد فتحي الشقاقي دائما على حقيقة بديهية ـ وهي « أن القسام أدرك أن هذه الأمة التي حاول أعداؤها عزلها عن الإسلام لن تكون مستعدة للجهاد بدون إعداد

خاص وأن هذه المهمة لن تتصدى لها إلا طليعة ثورية مسلمة وأن تنظيما صلبا وفعالا ضمن نظرية ثورية واضحة المعالم من أهم عوامل الانتصار على عدو متقدم كماً وكيفاً!.

ويطرح الشقاقي الكثير من رؤيته من خلال فهمه لآليات عمل القسام، أو قل يعطي تلك الآليات إطارها النظري والعرفي ويصيغ منها نظرية ثورية تصلح لكل حركة ثورية من قبل ومن بعد، فيري الشقاقي أن من الصعب طرح مفهوم الثورة والوعي إلا من خلال علاقة جدلية بين الاثنين، وأن من الصعب دراسة الوعي والثورة منفصلين».

والحقيقة أن الوعي والثورة هما عمل واحد، فالثورة تؤدي إلى الوعي والوعي يؤدي إلى الثورة، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ويرصد الشقاقي الكثير من الخبرات الثورية والحركية من خلال دراسة تجربة القسام فيقول « استطاع القسام فهم وتحليل المجتمع والظروف السياسية بشكل متقدم واستخدام هذا التحليل في اختيار لحظة التفجير المناسبة فلم يكن متعجلا حين عرض عليه بعض إخوانه إعلان الثورة بعد انتفاضة حائط البراق لعدم كفاءة التنظيم وعدم نضج الظروف كما أنه رفض رغبة بعضهم في جلب المال بالعنف مؤمنا ومعلنا أن الجماهير ستنحاز للثورة فور قيامها.

والشقاقي هنا يضع يدنا على الكثير من الحقائق الثورية، أولها ضرورة حساب اللحظة المناسبة للتفجير الثوري ذاتيا وموضوعيا، فالاستعجال بها هو بمثابة إجهاض لجنين الثورة، والتأخير فيها بمثابة ترك الثمار تفسد على الشجرة فلا يصبح لها قيمة بعد ذلك، وثانيها ضرورة التمسك بالأخلاق الثورية ورفض تبرير الوسائل اللاأخلاقية بدعوى الحاجات الثورية مثلا، وثالثها ثقة الثائر المطلقة فى جماهير أمته.

ويضيف الشقاقي مكتشفا ومؤكدا للعديد من الحقائق الثورية والسياسية والحضارية من خلال القسام « رأي القسام أن بريطانيا هي العدو الرئيسي وأن الصهيونية تابعة لها، وأن النضال السياسي السلبي لم يعد يجدي نفعا ولابد من

اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا للنضال».

والشقاقي هنا يؤكد حقيقة كون الصراع مع الغرب كل الغرب وليس إسرائيل وحدها، وأن إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربي، وأن بريطانيا ممثلة مشروع الهيمنة الغربي في هذا الزمان والمكان هي العدو الرئيسي، وأنه بسبب طبيعة الصراع، الذي هو صراع حضاري، وصراع وجود وصراع يستهدف قلب الأمة الإسلامية بل ورأسها، فإنه لا بديل عن الكفاح المسلح، أسلوبا للنضال.

يضيف الشقاقي « كما كان القسام واضحا وصائبا في تحديد العدو فقد كان عليه أن يحدد الحليف الحقيقي، ورغم إيمانه أن العرب والمسلمين في الأقطار المجاورة هم بعد استراتيجي للشعب الفلسطيني إلا أن على الشعب الفلسطيني أن يعتمد على نفسه أولا، رأى القسام أن العمال والفلاحين هم أصدق حليف للثورة وللاستمرار بها، ولهذا كانت القيادة العليا لتنظيم القسام تتكون من عمال وفلاحين علماء وبائعي جاز متجولين أمثال «العبد قاسم، ومحمود عرورة » وأن القسام كرائد طليعي ثوري مسلم أدرك أنه في مرحلة كهذه، مرحلة البحث عن الاستقلال والحرية فلابد من الدم والثورة التي لن يقدمها إلا الكادحين في حين رفعت البورجوازية شعار الحكمة والتعقل.

وهكذا يكتشف الشقاقي أهم الدروس الثورية التي بسبب غيابها وقفت الكثير من الحركات الإسلامية في طريق مسدود ومأزق استراتيجي، ألا وهو عدم المراهنة على البورجوازية والوجهاء، لأنهم أولا أصحاب مصالح ويقتسمون شيئا من الفتات مع مشروع النهب الاستعماري، ومهما كانت درجة إخلاصهم فإنهم في النهاية سيخافون بشكل أو بآخر على مصالحهم العائلية أو الاقتصادية، وأنهم حتى ولو ارتفعوا فوق تلك المصالح فإن نفسهم الثوري قصير وقدرتهم على الاستمرار محدودة، وأنهم دائما يهربون من المواجهة الثورية بدعوى الحكمة والتعقل، وأنه بالتالي فلا حليف للثورة، ولا قادر على الاستمرار بها بنفس طويل لا ينفد إلا الجماهير الكادحة من العمال والفلاحين والعلماء والباعة المتجولين، الذين هم يعكسون وجدانا إسلاميا عميقا أولا، ثم ليست لهم مصالح تتقاطع أو تتعارض أو

تتفق مع المشروع الغربي، لأنهم بالتحديد أول ضحاياه، وهكذا فإن هناك شروطا محددة لأي عملية ثورية هي فهم طبيعة الصراع... وهي أن إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي وبالتالي فالمواجهة شاملة لكل المشروع وقواه من استعمار وصهيونية وعلمانية.

وإدراك أن صراعا كهذا لا يحل عبر المفاوضات ولا الحلول الوسط ولا دعوى التعقل والحكمة، لأنه ليست هناك مساحة من الاتفاق والاختلاف تتسع وتضيق يمكن التفاوض حولها، بل يحل بالكفاح المسلح، وأن جنود الثورة وحلفاءها ليسوا البورجوازية والوجهاء بل الكادحين والفقراء.

ولعل هذه الشروط تفسر لماذا أسقطت كل القوى اللاإسلامية أو اللاجماهيرية في مستنقع التفاوض والحلول الوسط واحدة بعد أخرى ويفسر التردد الموجود في حركة حماس بسبب مراهنتها على الوجهاء والبورجوازية أحياناً، ومراهنتها على التنظيم دائماً، ويفسر لماذا ظلت حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني بيضاء الثوب من كل تردد وتراجع ومساومة.

وشروط الاستمرار وطول النفس ثلاثة هي الإسلامية، الكفاح المسلح، الجماهيرية.

(٤)

حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين تجسيد للنظرية الثورية للشقاقي
حركة الأيديولوجيا والإرادة والدم

انطلق الدكتور فتحي الشقاقي في تأسيسه مع رفاقه حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وكذا جهاده المستمر والدائب على هذه الساحة من مجموعة من الحقائق ومستقرئات العقيدة والتاريخ والاستراتيجية، فإسرائيل ليست إلا جزءا من مشروع الهيمنة الغربي على العالم عموما والعالم الإسلامي والعربي خصوصا، وأنه لم تكن مصادفة أن يقدم الغرب وعد بلفور في الوقت الذي كان فيه يدمر بنيان الدولة العثمانية ويجتاح المنطقة عسكرياً ويخضعها إلى شبكة علاقات قائمة على الارتهان والتبعية وأن الغرب قد عمد إلى شن حربه الشاملة ضد الوطن العربي والإسلامي وتكريس القابلية للاستعمار في نفوسنا وتدمير منابع القدرة الداخلية وذلك بتحطيم المكونات العقدية والفكرية والحضارية للمجتمع الإسلامي وتغيير أنماط المعيشة والإنتاج فيه بما يخدم مصالحه وتحقيق التبعية له، وعمد الغرب إلى خلق مؤسسات موازية ومعادية لنا يديرها تلامذة له مأخوذين بثقافته، ولم تكن سوى محاكاة مشوهة وناقصة لمؤسسات الغرب في سعي منه لتدمير العقل المسلم وحشوه بمفاهيم الغرب ليقطع كل طريق على عملية التفكير في إعادة بناء المجتمع الإسلامي المقاوم، فمجرد تدمير المؤسسات الإسلامية مع بقاء العقل الإسلامي في يقظة كفيل بمحاولة البدء من جديد وكفيل بنجاح المؤسسات الإسلامية من جديد وإعادة بنائها من جديد، وأن إسرائيل وجدت لتمارس وظيفة مستمرة دائبة هي ضرب النفسية المسلمة وتحويل ميدان الحركة الحقيقية إلى ميادين وهمية تستنفد الجهد والطاقة، وقيام دولة إسرائيل أهم وأعنف وأخطر أشكال الحرب الغربية الشاملة ضدنا، وبقيامها واستمرارها في القلب من الوطن الإسلامي تكون الهجمة الغربية فد نفذت أهم وأخطر مهماتها، فنحن هنا لا نواجه مجرد تحد عسكري أو مجرد

تحد فكري وإنما نواجه تجمعاً عدوانياً استيطانياً في مكان هام وحساس من الـوطن الإسلامي يعطي للصراع كـل أبعـاده التاريخيـة والحضـارية والعقائديـة والفكريـة إضافة إلى الأبعاد العسكرية والسياسية والاقتصادية، ومع إسرائيل لم تعد ثقافة الأمـة فقط هي المهددة بل وجودها برمته.

والـدور الصـهيوني في المنطقـة لـيس قاصـرا عـلى فلسـطين أو حتـى دول المواجهة فقط، بل إن إسرائيل تعتبر حدودها الأمنيـة تشـمل باكسـتان وإيـران حتـى شمال أفريقيا ومن تركيا حتى جنوب السودان وتعتبر إسرائيل كل ما بين ذلـك ـ عـلى الأقل ـ قابلا للتدخل الصهيوني اقتصاديا وعسكريا وأمنيا.

وهكذا فالمعركة مع إسرائيل معركة الأمة كلها بطاقاتها وبفكرتها الشاملة عن نفسها وعن الآخر، إذ عندما تعتقد الأمة بقدراتها واستعدادها النفسيين عـلى مواجهـة الآخر والانفكاك من أسر تبعيته والارتهان لـه، تبـدأ في تحقيـق اسـتقلالها السياسـي وتنهض في الوقت نفسه لمعركة تحرير فلسطين،انطلاقا من أن فلسطين هي القضـية المركزية للأمة الإسلامية حيث استطاع الاستعمار الغربـي الحـديث الـذي أطلقتـه الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، استطاع بعد حوالي قرنين مـن الـزمن أن ينشئ الكيان الصهيوني الذي أصبح مركز الهجمة الغربيـة ضـد الـوطن الإسـلامي، ومركز المشروع الاستعماري، ومن هنا فإن فلسطين تأتي في قلب ومركـز المشـروع المضاد الإسلامي، فالمعركة ليست فقط بين الشعب الفلسطيني والكيان الصـهيوني بل معركة كل الأمة ضد الغرب المستعمر الذي يمد الكيان الصهيوني بكـل أسـباب الحياة والرعاية والحماية، وبدون انتظام طاقة الأمة في طريق ونهـج موحـد فسـيبقي الخلل في توازن القوي قائما ومستمراً لصالح العدو، ومن هنا تـأتي أهميـة اسـتقلال القرار السياسي والقضاء على جذور ومنبع التبعية بكافة أشكالها، ونظم مفردات قوة الأمة التي تكمن في هذا العدد البشري المتعاظم وهذا الموضع الجغـرافي المتميـز والإمكانات المادية الهائلة، إضـافة إلى التـاريخ والمـوروث الحضـاري الإسـلامي المستند إلي أيديولوجية حية باعثة، قادرة على بعث الأمة وتفجير إمكانياتهـا ونظمهـا في كينونة فاعلة ومؤثرة.

وهكذا فإن مسألة تحرير فلسطين ـ عند الشقاقي ـ هي مسألة مشروع ينتظم إمكانات الأمة ويرد على حرب الغرب الشاملة بحروب شاملة ثقافية وفكرية واقتصادية وأمنية وعسكرية، ويبقى دور المجاهدين في فلسطين وهو إحياء فريضة الجهاد ضد العدو ومشاغلته واستنزاف طاقاته وكشف وجهه البشع وتدمير ما يستطيعون من قدراته وإدامة الصراع حيا حتى وحدة الأمة وتحقيق النصر والتصدي لمؤامرات تصفية القضية التي يوجهها الغرب.

إذن فالمعركة حضارية وشاملة، وإسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي، والمعركة ضدها هي معركة كل الأمة، وليس تنظيما أو جماعة أو حكومة وبالتالي فإن هناك عدة شروط لاستمرار وديمومة ونجاح أي عمل جهادي، وهذه الشروط هي الإسلامية والكفاح المسلح والجماهيرية، ولا شك أن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين امتلكت هذه الشروط وبقدر استمرار تمسكها بها بقدر استمرارها ونجاحها التكتيكي والاستراتيجي، وأهداف هذه الحركة كما حددها الشقاقي مرحليا واستراتيجيا، مرحليا هي إحياء فريضة الجهاد ضد العدو، ومشاغلته واستنزاف طاقاته وكشف وجهه البشع، وتدمير ما أمكن من قدراته، والتصدي لمؤامرة تصفية القضية بمشاريع التسوية التي يوجهها الغرب، واستراتيجيا تحرير فلسطين، كل فلسطين والانتصار على مشروع الهيمنة الغربي بكامله، وتحقيق الانعتاق لكل مستضعفي العالم من ذلك النهب والقهر والهيمنة الغربية.

ولكن لماذا حركة الجهاد الإسلامي، ألم تكن الأطر القائمة من أحزاب وجماعات وحركات إسلامية أو وطنية صالحة لتطويرها والعمل من خلالها، بالطبع لا، لأن تلك الأطر إما فقدت إسلاميتها، وإما مارست إسلاماً شكليا، أو لم تفهم طبيعة الصراع ولم تعط قضية فلسطين حقها وحجمها الصحيح، وإما كانت حركات لا تستند إلى الجماهيرية بقدر ما تستند إلى التنظيم، وقدرة التنظيم إلى نفاد، والمحافظة عليه تجعل قيادات تلك الحركة تمارس نوعا من الوسطية والمساومة أو السكوت، وفي قضية مركزية مثل قضية فلسطين لابد من المبدئية الكاملة ولو على حساب التنظيم ولابد من المواجهة المستمرة وبلا حدود لأن الأمر يخص أمة

وحضارة وتاريخ وجغرافيا ووجود.

وهكذا كان لابد للشقاقي ورفاقه ـ مع هذا الظرف ـ أن يضربوا بجذورهم نحو القسام وأن يقيموا كيانهم المتميز كشاهد على المرحلة وأن يتجاوزوا الأطر المنهارة والمتراجعة، وطنية أو إسلامية، وهكذا لم يكن هناك بديل من إنشاء حركة الجهاد الإسلامي.

ولنترك الدكتور الشقاقي بنفسه يجيب على عدد من الأسئلة حول الحركة، عن الإرهاصات والمخاض، التاريخ والأيديولوجيا، التيار والتنظيم، عن الحلم المشروع والمستقبل.

فالحركة ـ كما يقول الشقاقي ـ «لم تخرج من فتح رغم أن بعض عناصرها عاشوا التجربة الوطنية، بكامل أبعادها، كما لم تخرج من تنظيم الإخوان المسلمين ـ رغم أن بعض كوادر الحركة عاش التجربة الإسلامية مع الإخوان ـ ويضيف الشقاقي ولكن التجربة الإسلامية المعاصرة والمناخ الديني كانت من أهم العوامل المؤثرة أو لنقل كانت بمثابة «المحضن» للحركة، وأنه رغم عمق التجربة الإسلامية وتأثيرها الهام، ومع إطلالتنا على التجربة الوطنية إلا أننا لم نكن امتداداً أو انشقاقا تنظيميا لأحد أو عن أحد ولم يجتمع عشرة أو عشرون من مثقفي الطبقة الوسطى ليشكلوا حزبا فوقيا، لم نكن جبهة شعبية تخرج من حركة القوميين العرب ولا فتح تخرج من رحم الإخوان المسلمين وبقايا الأحزاب الوطنية، كان جيل البعث في الحركة الإسلامية المعاصرة الذي جاء دوره بعد غياب شمس الخلافة الإسلامية (١٩٢٤) وتبلور منذ عام ١٩٢٨ يؤدي رسالة تيار وتنظيم ولكنه بعد استشهاد البنا يتحول إلى جيل المحنة وبعد نكبة صيف السابع والستين وسقوط بيت المقدس ذلك السقوط المدوي والزلزال في تاريخ الأمة وواقعها ووجدانها يتشكل شيئاً فشيئاً، الجيل الثالث جيل الوعي والثورة ليواجه التحدي بعد سقوط البدائل، من عذابات هذا الجيل جئنا، ومن بين أنقاض الزلزال، كانت ليالي الحلم القاسية كان السؤال الفلسطيني محور اللغز الذي كان علينا أن نفك طلاسمه بكينا وصرخنا.. تصدعت رؤوسنا.. كما نبني حرفا فوق الحرف حتى تكتمل اللقطة لنبكي من جديد فرحا في

لحظة الكشف وتواصل والتقاء التاريخ بالمطلق فوق بيت المقدس، لم نأت من السياسة إلى الإسلام ولم نأت من فلسطين إلى القرآن، ولكن الذي حدث أننا وفي ذروة المعاناة وفي أشد الفكر والجهد والعذاب، في لحظات وجد ودعاء كنا فيها الأقرب إلى الله.. شاهدنا فلسطين، شاهدناها في قلب القرآن.. شاهدنا رحلة الإسراء ذات الساعات القليلة، صورة إلهية لتاريخنا الممتد ألف وأربعمائة عام من مكة والمدينة إلى بيت المقدس، من محمد ﷺ والقرآن ينزل إلى محمد ﷺ والقرآن قد اكتمل منهجا قويما وفاعلا، من بني قريظة إلى الليكود، من حراء إلى كامب ديفيد، من وعد الأولى إلى وعد الآخرة، من جاسوا خلال الديار إلى ليسوءوا وجوهكم، من القرآن إلى القرآن، تعانقنا، صرخنا من الفرح، بدا كل شيء بعد ذلك مجرد وقت، فقد اكتشفنا كلمة السر، لم نكن وسطا حسابيا بين الإسلام والوطنية لم نكن الوسط الحسابي ولكنه الجدل الممتد من المطلق إلى التاريخ من القرآن إلى فلسطين، الجدل الذي لا يعرف فواصل العجزة، لم تكن الرحلة سهلة، الرحلة كانت مسكونة بالألغام وبالأشواك ولكن زادنا من الإيمان والثقة جعلنا دوما ضد اليأس ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾. ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وضد الخوف

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾

وضد التراجع

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

ويضيف الشقاقي «نحن حركة لا يمكن أن ترتهن لغير الله ولغير المشروع الإسلامي الواعد والمستقل عن كافة الأشكال الغامضة أو البنى المنهارة، ولأننا أدركنا بأن الأمر مجرد وقت وأننا نسابق الزمن فقد حفرنا الصخر بأظافرنا وجوعنا وفقرنا، حتى إن كثيرين سيعجبون كيف تحول الحلم إلى واقع سياسي مؤثر يتنامى

كـل يـوم في غيـاب الإمكـان المـادي، رغـم الفتنـة والإغـراءات، ولكنهـا بركـة الأيديولوجيا والإرادة والدم.

ويقدم الشقاقي المزيد من التحديد والضـوء عـلى حركـة الجهـاد الإسـلامي في فلسطين قائلا: « في زمن الغياب كنا نحلم بعـودة الإسـلام إلى دوره التـاريخي فـوق أقدس الساحات، في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس كان خيارنا أن نكـون رأس حربة ضد المشروع الاستعماري الصليبي الصهيوني، وأن ننتشر فوق أرض الإسراء والمعراج كقدر إلهي يحمل منهجا واضحا محددا لفهم الإسلام والعالم والواقع وأن نعيد صياغة الأشياء ضمن نظرية ثورية واضحة المعالم».

ويؤكد الشقاقي على البعد الجماهيري في الحركة مـن خـلال تجربتهـا في هـذا الصدد ومدى ثقته في الجمـاهير قـائلا: «لقـد اسـتطاعت الحركـة مبكـرا أن تلـتحم بالجماهير وأن تكتشف عظمة هذه الجماهير وبالمقابـل كانـت الجمـاهير تكتشـف صدق الحركة ومصداقيتها واستعدادها للتفاني والتضحية، وقد تميزت تلـك الفتـرة من عمر الحركـة بالنشـاط الجمـاهيري والقبـول الإعلامـي والسياسـي المكثـف ووصلت بذلك إلى المساجد والبيوت والشوارع والمدارس والمعاهـد والجامعـات والجمعيات والمؤسسات والنقابات واسـتطاعت تشـكيل تيـار إسـلامي جمـاهيري جهادي، وهي تحاول رسم ملامح المرحلـة القادمـة والخـروج مـن حالـة الغيـاب الإسلامي المذهل عـلى السـاحة الفلسـطينية عبـر عقـود الخمسـينيات والسـتينيات والسبعينيات إلى التمـاس في صـراع مباشـر مـع الظـاهرة الإسـرائيلية عبـر شـعارها الاسـتراتيجي « القضـية الفلسـطينية هـي القضـية المركزيـة للحركـة الإسـلامية المعاصرة »، هذا الشعار الذي بدا غريبا على أسماع البعض ولكنه تحـول في شـهور قليلة إلى تيار جهادي يتشكل في الشارع الفلسطيني المتعطش للإسلام المجاهد».

والشقاقي هنا يكشف بوعي عن عدد من الحقائق، وهي أن الغيـاب الإسـلامي عن الساحة الفلسطينية طوال ثلاثة عقود هي الخمسينيات والستينيات والسـبعينيات لم يكن بسبب رفض الجماهير لذلك بل إن الجماهير في الشـارع الفلسـطيني كانـت متعطشة للإسلام المجاهد وهذا بديهي بالطبع، إذن كان العيب في التيـار الإسـلامي

بالطبع وعندما حمل هذا التيار الشعلة واستخدم شعارا صحيحا والتحم بالجماهير كانت النتيجة مذهلة، ومن الطبيعي أن تكون مذهلة فالجماهير بطبيعتها وجدانها إسلامي وحسها إسلامي ووعيها إسلامي حتى النخاع، وهي ما غابت ولا تخلفت لحظة عن حركة إسلامية صادقة ومجاهدة وتثق في الجماهير.

ويرصد الدكتور الشقاقي العديد من العمليات الجهادية والنضال السياسي اليومي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين طوال الثمانينيات وحتى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في ٦/ ١٢/ ١٩٨٧ وأن تلك الانتفاضة كانت تتويجا لجهود ونضالات طويلة.. وإن كان الدكتور الشقاقي ـ بسبب تواضعه وأدبه ـ لم يقل إن نضالات أبناء حركة الجهاد الإسلامي في طول الوطن المحتل وعرضه كانت السبب الحقيقي لاندلاع الانتفاضة أولا، ثم لاستمرارها ثانيا، لأن الحركة استطاعت أن تعطي مضموناً واعيا وجهاديا لحركة الشعب الفلسطيني، وأن الحركة كانت تمتلك الالتحام الجماهيري والأدوات السياسية القادرة على تفجير الانتفاضة وتصعيدها إلا أن الحقيقة أن الانتفاضة الفلسطينية في أكتوبر ١٩٨٧ كانت ابنة شرعية لنضال حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وأن الآخرين كل الآخرين قد لحقوا بمؤخرة القطار عندما أقلع بالفعل وهذا بالطبع يرجع إلى أن أي حركة أخرى ـ ليست جماهيرية بالضرورة ولا تستند إلى الجماهير بل إلى تنظيم مثلاً- يمكن أن تنظم مهرجانا حافلا ناجحا أو مظاهرة واحدة ،أو اثنتين، منظمة وبراقة ولامعة وكبيرة ولكنها لا تقدر على الانتفاض الشعبي المستمر، لأن هذا من شأن القوى التي تثق في الجماهير وتلتحم بها وتعتبرها مادتها الأساسية في الصراع، وهذا بالتحديد لا ينطبق إلا على حركة الجهاد الإسلامي وبديهي أن الانتفاضة ـ كما يقول الشقاقي « لم تكن إلا مرحلة في نضال طويل وشاق وشرس وأن الجهاد المسلح هو الطريق الأكيد لتفكيك هذا المشروع الصهيوني الاستعماري».

وفي الحقيقة فإن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين مارست قبل الانتفاضة وأثناء الانتفاضة وبعد الانتفاضة هذا الجهاد المسلح ونفذت كوادرها عشرات العمليات الاستشهادية ضد العدو الصهيوني، واستطاعت أن تنزل به خسائر فادحة

أفقدته صوابه.

والشقاقي وبسبب الوعي والإخلاص والتجرد، ورغم أنه مؤسس حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين فإنه لا يجعل منها صنما يعبد من دون الله، ولا يجعلها حركة أم أو أولى أو أخيرة، بل حلقة من حلقات الكفاح الإسلامي سبقتها حلقات، تتبعها حلقات، والاسم والإطار التنظيمي ليس بالطبع شيئا خالدا مقدسا، ولكن العقيدة والهدف هما الثابتان وغيرهما بالضرورة متغير... ويرى الشقاقي أن حركة الجهاد الإسلامي قد شرفها الله بأن جعلها نواة للعمل الإسلامي الجهادي في أرض الرباط، ولكن هذا الشرف العظيم الذي جاء في ظرفه التاريخ ومرحلته التاريخية لا يعني احتكار حركة الجهاد الإسلامي للجهاد في فلسطين ولا تفردها وحدها على هذا الطريق المقدس، فالحركة في نفس الوقت الذي شكلت فيه نواة للعمل الإسلامي الجهادي كانت امتدادا أو جزءا من حركة إسلامية أوسع وأكبر كان لها دورها الريادي في اخضرار الساحة الفلسطينية بالإسلام وهكذا فحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين لا تمثل كل الساحة الإسلامية وإن كانت رافدا منها وإليها، وكونها نواة تاريخية، في هذا الظرف والمرحلة التاريخية، للعمل الجهادي في فلسطين يجعلها في طليعة المجاهدين الذين يتكاثرون يوما بعد يوم، ولكنه لا يعطيها بالضرورة أي حق للتمايز، عن الآخرين فهي جزء منهم يتعاظم ويكبر بهم،و بقدر الإيمان والتقوى والالتزام والقدرة والأهلية والاستعداد والإرادة يأخذ كلٌ دور في ساحة الجهاد على أرض الرباط، وكونها نواة تاريخية مسألة تاريخ وظرف تاريخي لا أكثر، وهي مستعدة لأن تسلم قيادتها لكل مجاهد قادر ومخلص بدون تمايز الزمان والمكان أو الأسماء، تسعى لوحدة كل المجاهدين على درب تحرير فلسطين تحت راية الإسلام العظيم، ومسألة الوحدة بالنسبة لها ليست مسألة تحالفات صغيرة أمام ظرف كبير، إنما هو التزام شرعي، آثم من يتنازل عنه، وقضية استراتيجية جاهل من لا يستبعدها أو يستبعد أهميتها، وبقدر ما نقترب من الوحدة بقدر ما نقترب من الله و من الانتصار.

(٥)

المرأة في المشروع الفكري والحركي لفتحي الشقاقي

استطاع الدكتور فتحي الشقاقي فكرا وممارسة أن يحل الإشكالية المعروفة لدى الحركة الإسلامية المعاصرة حول قضية المرأة من خلال طرح أصولي معاصر ومجاهد في نفس الوقت، فهو يرفض استلاب المرأة لقيم الغرب وثقافته ويرفض حبسها في قمقم التخلف في نفس الوقت، بل يدفعها إلى الأمام لتأخذ دورها كإنسانة مسلمة، وكمناضلة طليعية في الصف الإسلامي وكمسئولة عن حركة الإحياء الإسلامي والجهاد في سبيل الله من أجل قضايا الأمة وتحدياتها.

وفي هذا الإطار استطاع فتحي الشقاقي أن يدخل مفاهيم تجديدية وجهادية في أشد الموضوعات تقليدية تأكيدا للثوابت وانطلاقا للآفاق.

فالمرأة عند فتحي الشقاقي «تقف شاهدة على عصرها، في كل أزمان التحول العظيمة التي تحياها الأمم، وهي تراقب وتشارك وتسجل، وهي ترفع يدها في وجه الظلم والخوف والقهر، تنتمي إلى الحقيقة والأصالة والثورة في وقت واحد، طوبى لمن تأتي غدا بالحجاب ـ المختار الإسلامي ـ العدد الأول ـ ص٤٦ »وتراثنا المشتعل خصوبة وحياة لم يتوقف يوما عن صنع النماذج، ركبا تلو الآخر، وامرأة تلو الأخرى على خطى محمد صلى الله عليه وسلم وتحت ظل راية القرآن، ورغم شراسة حملات الغزو الفكري التي يقودها الاستعمار خلف مكبرات الإذاعة وشاشات السينما والتلفزة، رغم كل هذا فإن جيلا يتكون الآن وتحت ظل التحديات القائمة أكثر صلابة ووعيا بحقائق الأمور، وما ظاهرة الحجاب الذي بدأ يكسو أرضنا الطيبة إلا رمز لهوية هذا الجيل الذي نفض عن نفسه غبار التفتت والانفصام والازدواجية، واختار العودة إلى الله، والحجاب ليس شكلا تعبديا فقط كما يتوهم البعض ولكنه مسألة هوية واكتشاف للذات بعد طول سقوط وضياع في مجاهل

التغريب اللعين، ولقد فرض علينا الاستعمار ملابسه وجاء لنا ببيوت أزيائه لكي تستبعد أشياؤه هذه نساءنا وفتياتنا، كي نلهو بعيدا عن قضايانا الحيوية ولهذا كان الحجاب ويجب أن يكون قضية وطنية في غاية الأهمية، إنه رفض لروح الاستعمار ومخططاته، إنه رمز لوعينا بطبيعة الصراع رمز لإصرارنا علي مواجهة التحدي ورمز لرفضنا نهب ثروات بلادنا والعبث بمقدساتنا ـ نعم هكذا الحجاب ـ وهكذا يجب أن يكون انحيازا واع ومقدس إلى معسكر العدالة والحرية والعدل، انحيازا إلى معسكر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه الكرام ونبذ لمعسكر الطاغوت وأوليائه» طوبى لمن تأتي غدا بالحجاب ـ المختار الإسلامي ـ العدد (١) يوليو ١٩٧٩ ص ٦٤.

وهكذا فالحجاب عودة إلى الله ثم إنه أيضا مسألة هوية واكتشاف للذات ورفض للتغريب ونضال ضد الاستعمار ورمز للوعي بطبيعة الصراع.

والمرأة شاهدة على العصر، تناضل وترفض الظلم والقهر والخوف وتنتمي إلى الأصالة والحقيقة والثورة.

ويرصد الدكتور فتحي الشقاقي النضال السياسي للمرأة المسلمة المعاصرة من خلال تجربتين هما ثورة ١٩١٩ في مصر والثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩ قائلا «هكذا الحجاب ليس شكلاً نتعبده، ولكنه هوية وقضية ووظيفة فعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ نزلت السيدة المصرية إلى شوارع مصر متسربلة بالحجاب لباسا للعفة والثورة لتهتف للاستقلال وتبصق على وجه المحتل القبيح، وعندما اشتعلت ثورة الإسلام في إيران وقف العالم مشدوها وهو يرى السيدة الإيرانية تهبط من جبال قم وشيراز ومشهد وتبريز إلى شوارع طهران رافعة يدها في وجه العسكر والكلاب واحتكارات الدول الكبرى ووقف العالم مشدوها وهو يرقب النور يأتي من وجه السيدة الإيرانية المتسربلة بالحجاب ليمتد ويمتد ويبدد ظلم هذا الكون المملوء بالليل». نفس المقال السابق.

وفي أطروحة فكرية شديدة الأهمية تحت عنوان «المرأة المسلمة تيار جديد.. مهام جديدة» المختار الإسلامي، العدد (١٠) ١٤ أبريل ١٩٨٠ يحذر فتحي

الشقاقي المرأة المسلمة من المؤامرة الاستعمارية عليها بهدف تبديد إسلامها وإبعادها عن قيمها الأصيلة واستلابها لصالح منظومته الفكرية والحضارية. ويرى فتحي الشقاقي أن تدمير إسلام المرأة هو تدمير لمستقبل الإسلام، ويرى فتحي الشقاقي أن قاسم أمين كان آخر درجة في سلم الانحدار في ذلك الوقت ذلك السلم الذي بدأه الطهطاوي منبهراً بالغرب وحضارته وتلاه محمد عبده متراجعا أمام ما سمي بالهجمة العلمية الغربية محاولاً التوفيق بين الإسلام وقيم الغرب الحديثة ثم تلاه جيل بأكمله من المهزومين أمام الهجمة الغربية على الوطن الإسلامي ومن تلامذة التبشير والاستشراق ومن أبناء الأقليات غير الإسلامية، جيل عديد متعدد الأسماء طويل يمتد إلى عصرنا هذا وكان من أبرز رجاله لطفي السيد وطه حسين وشلبي شميل وفرح أنطون وبطرس البستاني وآخرون»..

كان بروز قضية المرأة إذن أحد أهم دلالات سقوط النظام السياسي للإسلام بسقوط الخلافة الإسلامية، ثم ضغط الهجمة العلمانية الغربية ومؤسساتها في الوطن الإسلامي وتلامذتها الأوفياء.

ويؤكد الدكتور فتحي الشقاقي على أن الأسلام يهتم بتعليم المرأة، ومن يقول غير ذلك جاهل أو متآمر، وأن الهدف الغربي في قضية المرأة لم يكن تحريرها ولا تعليمها بل كان الهدف شيء آخر تماماً ولقد كان الهدف هو أن تفقد المرأة أنوثتها ثم إنسانيتها وكرامتها ودينها وينتهي الأمر بتدمير البيت المسلم والنشء المسلم والمجتمع الإسلامي بأكمله.

وإزاء ذلك كله كان لابد للمرأة المسلمة أن تقف وتواجه هذا الإرهاب الفكري وتلك الهجمة الاستعمارية العنيفة، أن تقف المرأة المسلمة كواقع حي واع في وجه الهجمة الغربية وظواهرها الاجتماعية، لا موقف المتراجع المهزوم المدافع وإنما موقف المستوعب للتاريخ، الواعي لقضية الإسلام المتقدم لإزاحة تلال الخراب، لقد انتهت تلك القضية الزائفة التي روجوا لها أكثر من نصف قرن، انتهى ما يسمى بقضية تحرير المرأة بالأسلوب التغريبي أو هي على وشك الانتهاء فالواقع الإسلامي سيفرض قيما جديدة وسائل جديدة وأهداف جديدة.

والمرأة المسلمة عند الشقاقي هي امرأة منفصلة عن قيم الطبقة وعن أهداف الطبقة وعن سلوك الطبقة، فقيمها هي قيم الإسلام وأخلاقها هي أخلاق الإسلام وأهدافها هي أهداف الحركة الإسلامية، وأن الانتماء الحقيقي إلى الإسلام يبدأ أولا بالانفصال عن القيود التي تقام حولنا ضمن الطبقة التي ننتمي إليها.

والمرأة المسلمة عند الشقاقي هي التي تتحرر من قيم الجاهلية ومفاهيم الغرب والاقتراب أكثر من أهداف الحركة الإسلامية المعاصرة وممارساتها وهي أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة وعليها أهم مسئوليات تلك الحركة.

ويحدد الدكتور فتحي الشقاقي مهام المرأة المسلمة في ظل الحركة الإسلامية المعاصرة بأن على المرأة المسلمة ألا تبرر موقفها أو تحاول تخفيف وقع التزامها وإسلامها على الأخريات أو التنازل لهن، بل إن غير الإسلاميات هن المطالبات بتبرير موقفهن ومحاولة تغييره والانضمام إلى الحركة الإسلامية وقيمها وتصوراتها لا العكس.

وأن على المرأة المسلمة أن تعي قضية التحدي، وتاريخها، عليها أن تعي أن الغرب وقف أمامنا في وقت كنا فيه أكثر تخلفا على النطاق المدني منه، وفي وقت كنا فيه ابتعدنا إلى حد ما عن أصالة إسلامنا، وأمام انبهار بعضنا بتقدمه المدني استطاع أن يقدم لنا أخلاقه وسلوكه وقيمه وركز تركيزا شديدا على المرأة المسلمة لإدراكه بأن تدمير إسلام المرأة هو تدمير لإسلام المستقبل، وأن فهم قضية التحدي هو أولى الخطوات لتجاوز الهجمة، وأن على المرأة المسلمة حيث تقف أن تكون ضد السياسات التربوية والتعليمية غير الإسلامية وأن تكشف زيف المناهج التربوية والتعليمية الغربية التي استقرت داخل مجتمعاتنا وهذا أهم مجالات التغيير، إن المرأة المسلمة كأم والمرأة المسلمة كمدرسة بالذات أمامها تحد كبير لرفع الإسلام في وجه العلمانية بكل اتجاهاتها القومية والوطنية و الاشتراكية، لأن ذلك هو أهم الوسائل لبناء نشء إسلامي، والمرأة المسلمة عليها أن تقف مع الخيارات الإسلامية في مجال العمل فلا تختار إلا ما يقبله الإسلام وما يجعلها بعيدة عن الشبهات فذلك هو الوسيلة أمامنا لهز المؤسسات غير الإسلامية القائمة وعليها في نفس الوقت ألا

تهمل بيتها فهو مهمتها الأصلية نحو تغيير ملامح المجتمع فمن منزل إسلامي إلى منطقة إسلامية إلى مجتمع إسلامي، والمرأة المسلمة مطالبة بأن تتقدم بقوة إلى مجالات العمل الاجتماعي الإسلامي فحين تحاول التقدم لإزاحة الركام الطويل من القيم والمفاهيم والمؤسسات والاتجاهات غير الإسلامية علينا ألا نترك لهم مساحات العمل الاجتماعي فارغة، إن مجالات محو الأمية الكتابية والثقافية ومجالات القوافل الريفية ومجالات مكافحة الفقر في الأحياء والمدن والقرى كلها ضرورية لاقتراب المرأة المسلمة من الجماهير وآلامها تمهيدا لترشيدها ووضعها في الصف الإسلامي.

ويلخص الدكتور الشقاقي رؤيته لمهام المرأة المسلمة قائلاً: «المرأة المسلمة هي أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة، ونحو مزيد من الوعي لمشكلاتها ودورها عليها أن تبقي في تفاعل مستمر مع إطارات الحركة الإسلامية المتقدمة إلي الأمام».

(٦)

التجديد عند فتحي الشقاقي

زهور جديدة على نفس الشجرة

التجديد سنة من سنن الله تعالي في الكون والحياة، وجسم الإنسان مثلا تتجدد خلاياه باستمرار، فتنشأ خلايا جديدة وتموت خلايا قديمة ـ اللهم إلا الخلايا العصبية ـ ولكن هذا التجديد يتم من خلال الكائن الحي نفسه ومن داخله ويظل هذا الكائن الحي هو ذاته وليس شيئا مغايرا ولا ممسوخا، أي أن الجسم الحي الكائن متكامل يستخدم عناصر الماء والغذاء وغيرها في عملية تجديد مستمر لخلاياه وأنسجته أي أن التجديد يأتي من خلال هضم العوامل الخارجية واستخدامها في عملية تجديد داخلي بحتة.

والتجديد شرط من شروط النهضة والإبداع الحضاري لكن استنادا إلى الثوابت وانطلاقا منها وفي إطارها.

والدكتور فتحي الشقاقي وعى هذه الجدلية ومارسها فكرا وحركة، فهو أصولي حتى النخاع وهو أيضا مجدد كبير، ولا تناقض في هذا بالطبع، فالتجديد الإسلامي يكون انطلاقا من الأصول الإسلامية الدينية والحضارية الثابتة وإلا كان تخريبا واغترابا وإذا اقتربنا من فلسفة الدكتور الشقاقي التجديدية نجده صاغ المسألة على نحو عبقري، ففي تقديمه لسلسة دراسات تحت عنوان « نحو طلائع إسلامية واعية» قال الدكتور الشقاقي « يجب أن نواجه قضايانا بالتزام لا ينفصم عن أصول هذا الدين وبروح تجديدية باسلة ومؤمنة في وقت واحد ». العدد (١) من سلسلة نحو طلائع إسلامية واعية ـ إصدارات دار المختار الإسلامي ـ القاهرة.

وهكذا فالتجديد يجب أن يكون شجاعا وباسلا وأن يكون مؤمنا وأن يلتزم بأصول الدين ولا يخرج عنها.

ويقول الدكتور الشقاقي أيضا في نفس المرجع « إننا نعتقد أن إحدى مشاكلنا الفكرية أن هناك عدم توازن في الرؤية والممارسة فالتركيز على التسامح يجعلنا نقبل الدنية في ديننا، بينما التركز على الرفض يجعلنا نتجاهل تجارب الآخرين وإمكانية الاستفادة منها، عدم التوازن في فهم دور الغيب وفاعليته في الكون والبشر يؤدي في النهاية إلى إغفال قوانين الله وسننه الفاعلة وإلى تأليه الإنسان وتخبطه، تضخيم الماضي لا يؤدي إلا إلى العجز عن التقدم نحو المستقبل، ونسيان تجارب الماضي وتحليله علمياً لا يضع إلا النماذج التائهة المشوهة، ومحصلة لكل ذلك يجد المسلمون أنفسهم قد فقدوا أداة الوعي الصحيح وضاعوا في ذواتهم بنرجسية يحسدون عليها وأبوا عن فهم حركة التاريخ التي تحكمها سنن الله الفاعلة.

ويقول: « نحن ضد القوالب الجاهزة التي فعلها شخص ما على مقاييس شخص ما، ثم يفرضها على كل المسلمين، نحن مع أصول هذا الدين وقواعده ولكننا ضد تكوين الشخصية النمطية المتشابهة المكررة لأن هذه الشخصية ليست بالشخصية الإسلامية وليست بالشخصية المبدعة الطبيعية التي ستحمل راية هذا الدين إلى الأعلى وإلى الأمام، نحن ضد القوالب الجاهزة ومع أصالة هذا الإسلام العظيم، لأننا ننتمي إلى ذلك الجيل المتوهج المبدع من صحابة رسول الله ﷺ، ولأننا ننتمي إلى تلك الأجيال المتواصلة التي حملت رايات التجديد فتركت لنا هذا التراث العظيم، نحن مع جريان النهر وتقدمه لأننا مع منبعه وتفجره، نحن مع سقوط الأمطار ودوائر فعلها لأننا مع السحب السماوية الخيرة، ونحن مع تفتح زهور الشجر الدائم والمتواصل لأننا مع جذوره الممتدة والضاربة في عمق الخصب الإسلامي.

ويقول فتحي الشقاقي: « المطلوب الأن امتداد رأسي للفكر الإسلامي المعاصر بجانب الامتداد الأفقي المطلوب، وهو تعميق الوعي المعاصر بالإسلام، المطلوب الآن مواجهة شاملة وعميقة لهذه المرحلة الدقيقة التي يمر بها المسلمون في رحلتهم الشاقة والرائعة نحو الله العلي القدير.

وفي رؤية خلاقة ومبدعة وتجديدية يرصد الدكتور الشقاقي حال الإنتاج الفكري الإسلامي المعاصر قائلا: « من الملاحظ أن معظم الإنتاج الفكري

الإسلامي المعاصر لم يستطع حتى الآن أن ينفذ إلى أعماق مهماته أو أن يواكب هذا التصاعد في المد الإسلامي، إن كثيرا من الكتابات الإسلامية الآن لا تعدو أن تكون محاولات سهلة ومجانية لإعادة مقومات تدركها أمتنا إدراكا كاملا وسئمت غاية السأم من تكرارها وتردادها ونستطيع أن نقول إن الإنتاج الفكري الإسلامي الآن يكاد ينقسم إلى قسمين الأول هو الإنتاج الفكري الذي يلتزم بوعي أو بدون وعي بالفكرة القائلة إن كل ما أنزل الله عز وجل وحدده رسوله العظيم قد تم فهمه واستيعابه من قبل علمائنا الأوائل وأن ما علينا الآن هو إعادة ترتيب ذلك الفهم وتقديمه للناس بشكل يسهل عليهم تمثله، وهؤلاء يقفون في وجه التقدم الإسلامي لأنهم لم يعوا طبيعة الإسلام، وإمكاناته المتجددة الشاملة والواعية في كل عصر، هؤلاء ينطلقون من الجمود عند حدود الماضي ويدعون تمثيل المستقبل، أما القسم الثاني فهو الإنتاج الفكري الذي يقول بأنه «الفهم العصري للإسلام» وهو لا يعدو أن يكون محاولات تلفيقية بين جوهر هذا الدين الحق وبين المناهج الفكرية الغربية، وهؤلاء ينطلقون من واقع الآخرين وليس من واقعنا، من وعي الآخرين وليس من وعينا، وهم في غمرة استلابهم الروحي أمام الفكر الغربي يحاولون أن يمرروا على أمتنا هزيمتهم في ثوب تلفيقي يدعون إسلامه».

***

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي يرفض التراثية الواقفة والجامدة ويرفض أيضا الانطلاق من رؤية الآخرين لتلفيق نوع من الاتفاق الديني معها، وهو يرى أن الإشكالية تتحدد في كون الإنسان المسلم الطليعي المتقدم لصياغة العالم من جديد، عليه واجبات هائلة حتى يحقق شهادته الكاملة على عصره، فيحاول أن يقف مع جوهر الإسلام الحق في ضوء مكتسبات الإنسان المتواصلة في حياته الطويلة، وأن يقدم فهما حقيقاً وجادا ومعاصرا لإسلامنا بعيدا عن جمود أدعياء التراثية وأدعياء العصرية وأن يكون واعيا تمام الوعي بأن هناك أصولا في هذا الدين، أنزلها الله العزيز الحكيم في محكم آياته المباركات وأقرها رسوله العظيم وأجمع عليها صحابته وعلماء الأمة، هذه الأصول لا ينبغي الخروج عليها لأنها أمر الله عز وجل، وأنه لا

يجوز أن تتحول المحكمات إلى متشابهات، ولا يجوز أيضا تحول المتشابهات إلى محكمات، لأن في ذلك حكرا على عقل الأمة وأجيالها وفي ذلك خلل في ثقة المسلم بإمكانات هذا الدين وتجددها عبر الزمان والمكان».

ويؤكد الدكتور فتحي الشقاقي هنا على ضرورة التزام المفكر المسلم بشرطين هما أن تتحقق في شخصيته العبودية الكاملة لله ثم الوعي الشامل والدقيق بمرحلته من أجل تقدم إسلامي حقيقي.

ويضع الدكتور الشقاقي يده على نقص كبير في ظاهرة الصحوة الإسلامية ألا وهي قضية الأدب والفن، فنحن نفتقد أدبا إسلاميا طليعيا حقيقيا، فإذا كانت الحركة الإسلامية تقود محاولة التغيير وإزاحة وجه القبح الذي يغطي العالم، فكيف لا يحملها ولا تحمل هي أدبا وفنا تغييرا جديدا، كيف نفتقد الرواية الحقيقية والقصيدة المتوهجة والسينما وغيرها التي تستمد عمق الشحنة الإسلامية المتفاعلة مع عمق الحركة الكونية، فتكون شعلة الكشف أمام أمتنا ومضاء السلاح في يدها، وكيف لم نكتشف حتى الآن وسائلنا الفنية المحددة بمنظورنا الإسلامي إن كنا فعلا نمثل تناسق هذا العالم وجوهره النقي وجماله».

(٧)

الوحدة في المشروع الفكري والحركي لفتحي الشقاقي

يمكننا أن نرصد بسهولة ذلك التلازم الحيوي بين كل من الوحدة والجهاد وبين الصعود الحضاري للأمة الإسلامية، وبسقوط أو ضياع إحدى هاتين القيمتين يهبط المنحنى الحضاري للأمة الإسلامية وتتخلف على مستوى العمران والأخلاق وتتعرض للتحديات الخارجية والداخلية.

فالوحدة إذن عنصر أساسي من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي وهي أولا فريضة شرعية وهي ثانيا ضرورة للصعود الحضاري الإسلامي ولحماية الأمة من أعدائها وضرورة أيضا لتحقيق أكبر قدر من المنجزات العمرانية، وضرورة أيضا لرقي الأخلاق والسلوك لدى أفراد هذه الأمة.

والأمة الإسلامية طالما كانت موحدة كانت قوية وقادة على تحقيق رسالتها وقادرة على حماية نفسها من الأعداء وقادرة على تحقيق العمران وقادرة أيضا على الرقي الأخلاقي والسلوكي والاجتماعي، وطالما كانت مفككة كانت ضعيفة غير قادرة على أداء رسالتها غير قادرة على حماية نفسها من الأعداء وغير قادرة على تقديم إنجاز عمراني ذي شأن ومنحطة أخلاقيا وسلوكيا واجتماعياً.

والنصوص الشرعية التي تؤكد فرضية الوحدة كثيرة ومتنوعة.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢].

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥٢].

﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١].

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ونلاحظ في الآيتين الأولى والثانية أن هناك ارتباطا بين الوحدة والأمة الواحدة وبين عبادة الله في الأولى وتقواه في الثانية، وفي الآية الثالثة وضع الوحدة والاعتصام كمقابل للكفر، وجعل الوحدة والاعتصام هما الطريق إلى الصراط المستقيم وتستطيع أن تفسر الصراط المستقيم هنا بأنه طريق النجاة في الآخرة والعزة والسيادة الحضارية في الدنيا.

وفي الآية الرابعة نرى أن الله تعالى جعل الوحدة والاعتصام وعدم التفرق نوعا من النعمة وهي بلا شك نعمة عظيمة وجعلها أيضا طريقا لتجنب الهلاك في الدنيا والآخرة وهي معلم من معالم الهداية وهي إحدى آيات الله أي أن الوحدة آية من آيات الله تعالى وهي نعمة وهي طريق لتجنب البوار في الآخرة والدنيا على حد سواء.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران١٠٥].

أي أن الفرقة طريق إلى العذاب العظيم في الآخرة والانحطاط الحضاري في الدنيا والسقوط في الذلة والهوان.

ويقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

أي أن الوحدة والأخوة هي إحدى علامات الرحمة لأنها تنجي في الآخرة

وتصنع التقدم والعزة والسيادة في الدنيا.

ويقول الرسول ﷺ : «**من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**» أخرجه أبو داود .

أي أن مجرد الزحزحة عن الوحدة ولو بشبر واحد خروج على ربقة الإسلام وخلع لهذه الربقة من العنق بما يعطي الانطباع بمدى أهمية وخطورة فريضة الوحدة ويقول:«**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، ويقول: «**يد الله مع الجماعة**» أخرجه الترمذي.

ولاحظ في هذا الحديث الموجز أن مدد الله يأتي مع الوحدة أو الوحدة شرط لنزول مدد الله تعالى ومدد الله تعالى هائل، وأمة تستند إلى مدد الله تعالى ـ وهو أقوى الأقوياء ـ قادرة على النصر والسيادة والإنجاز الحضاري بصورة ضخمة جدا تتناسب مع المدد الذي تنزل من الله العزيز القدير الحكيم العليم الذي يملك خزائن كل شيء.

أي أن الوحدة فريضة شرعية، وطريق إلى النجاة في الآخرة وطريق أيضا إلى العزة والسيادة والنصر وتحقيق أكبر المنجزات العمرانية في الدنيا.

***

الوحدة الإسلامية شرط لازم لمواجهة التحديات التي تعانيها أمتنا اليوم، وطريق أكيد إلى العزة ومواجهة الأعداء والنهضة في كل المجالات والأعداء يعرفون خطورة وأهمية هذه الوحدة ولذا فإن مؤامراتهم على الوحدة الإسلامية لا تنقطع، بل تكاد نجزم أن أي محاولة وحدوية على أساس إسلامي تجعل القوى الاستكبارية تتحرك لضربها سلما أو حربا، ومن الأشياء التي يحظرها علينا الأعداء محاولات التوحد بأي صورة من الصور بين أبناء العالم الإسلامي ونحن ندعو إلى الوحدة، ندعو إلى قيام الخلافة الإسلامية باعتبارها فريضة غائبة ونسعى لتحقيق ذلك، وفي نفس الوقت ندعم ونرحب ونؤيد أي محاولات وحدوية بين هذا القطر أو ذاك، مصر والسودان مثلا، أو الوحدة العربية، أو تحقيق نوع من التنسيق في أي مجال من

المجالات بين الدول الإسلامية، أو حتى بين الشعوب والمنظمات الشعبية الإسلامية «كاتحاد المنظمات الهندسية في العالم الإسلامي» أو أي شكل من الأشكال الوحدوية بشرط واحد، هو أن تكون طريقا إلى الوحدة الإسلامية وليس بديلا عنها أو بالتعارض معها.

والأعداء سخروا أقلاما عربية وإسلامية للأسف، للشوشرة على فريضة الوحدة بعدما نجحوا في إسقاط الخلافة الإسلامية «كعلي عبد الرزاق مثلا» وعلينا في مواجهة ذلك أن نؤكد على فريضة الوحدة ونسعى لنشر الفكر الوحدوي والسلوك الوحدوي والممارسات الوحدوية وكشف صلة دعاة الإقليمية بالمشروع الاستعماري وأنهم مجرد أبواق له.

إنه برغم سقوط الخلافة الإسلامية، كأسمى تعبير عن الوحدة الإسلامية فإن المظاهر الوحدوية في وجدان الشعوب الإسلامية ما زالت والحمد لله قوية، فنحن جميعاً نؤمن بإله واحد وكتاب واحد ورسول واحد ونتجه جميعا إلى مكان واحد في الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة «وهو الكعبة»، ونحن جميعا نحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى ونحج جميعا في وقت واحد إلى مكان واحد كل عام مرة ونصوم معا رمضان من كل عام، والإحساس بمشاكل المسلمين والتعامل معهم موجود والحمد لله في كل مكان ولولا الشعور الوحدوي القوي لدى الجماهير، لما رأينا هذا التعاطف الشعبي الواسع مع القضية الفلسطينية في كل مكان من العالم الإسلامي من تركيا إلى جنوب أفريقيا ومن طنجة إلى جاكراتا، وكذلك ظهر هذا الأمر جليا في دعم الجهاد الأفغاني بالمال والسلاح، وكذلك التعاطف مع مسلمي البوسنة والهرسك وغيرها من المظاهر الوحدوية التي تعبر عن وجدان وحدودي قوي لدى الجماهير المسلمة.

وحتى المسلمون في الغربة في أمريكا واستراليا وأوروبا يتصرفون كجالية ذات سمات مشتركة نجدهم يتعاطفون مع قضايا العالم الإسلامي ويدافعون عنها ويمارسون شعائر الإسلام معا لا فرق بين التركي والمغربي والهندي.

وعلينا أن نعمق هذا الشعور الوحدوي بكل وسيلة ممكنة، علينا أن نسعى لتوحيد التقويم على الأساس الهجري مثلا في كل البلاد الإسلامية، وتوحيد بدء الصوم والأعياد في كل العالم الإسلامي وفي خارج العالم الإسلامي أيضا، وعلينا الاهتمام بإنشاء مؤسسات إعلامية ذات طابع عالمي إسلامي، ونشر تلك المواد الإعلامية التي تؤكد على قيمة الوحدة، وعلينا أن نحقق اتحادات للمنظمات المهنية في العالم الإسلامي وكذا اتحادات للهيئات الشعبية والنقابات وغيرها، وعلينا أن ندعم أي تنسيق وتعاون في أي مجال بين الشعوب الإسلامية، بل والحكومات الإسلامية إذا أمكن، ويمكن اتخاذ القضية الفلسطينية مثلا باعتبارها قضية مركزية للأمة الإسلامية كقاعدة للانطلاق الوحدوي من خلالها، والوسائل كثيرة والمهم النية والجدية في العمل.

قضية الوحدة الإسلامية لم تعد تحتمل التأجيل، لأننا بالفعل كأمة مهددون في وجودنا، وهناك مؤامرة دولية واسعة تستهدف إلغاء وجودنا من العالم أو على الأقل إلغاء وجودنا الحضاري والتحول إلى رقيق للقوى الاستكبارية، وهناك تطهير عرقي للمسلمين في البوسنة والهرسك والهند، وهناك اضطهادات وتوسع يتم على حساب المسلمين في أذربيجان وفلسطين وبورما......... والقائمة طويلة جدا، والعالم كله يتجه إلى الكيانات الكبيرة والوحدة الأوروبية والوحدة الأمريكية، دول النمور الآسيوية..... إلخ، وفي عصر الكيانات الكبرى لا بديل أمام المسلمين عن الوحدة إن أرادوا الحياة والعالم الإسلامي يمتلك مقومات اقتصادية واستراتيجية هائلة وبشرية أيضا فهناك ١٤٠٠ مليون مسلم، وهناك رقعة جغرافية هائلة تقع في أهم مناطق العالم المتحكم في أخطر طرق المواصلات والشرايين الاقتصادية الحيوية، وهناك البترول والفوسفات واليورانيوم وغيرها من المعادن التي يكاد العالم الإسلامي يمتلك معظمها، وهناك الأقاليم المناخية المختلفة التي تحقق تنوعا هائلا في الإنتاج وهناك الأراضي الخصبة وموارد المياه والطاقة الهائلة، وهناك الإنسان المسلم الذي يستطيع بالإيمان أن يكون أفضل النوعيات البشرية على الإطلاق وبعد هذا فلا حجة لنا إن تقاعسنا عن إرادة الحياة، إرادة الوحدة.

على خلاف كبير بين علماء الاجتماع في تحديد العناصر التي تشكل أمة من الأمم أو قومية من القوميات، فمنهم من يجعل تلك العناصر اللغة، الثقافة، التاريخ المشترك، التحديات المشتركة، الجغرافيا المشتركة، الجنس الواحد... إلخ، ومنهم من يرفض جعل هذه العوامل أو أحدها شرطا لازما لظهور الأمة بدليل أن هناك دولا تتكلم الإنجليزية دون أن تشكل أمة واحدة والأمر نفسه بالنسبة للعناصر الأخرى.. وهكذا إلا أن هناك عددا من الملاحظات التي ينبغي أن نسجلها هنا أولها أن هناك خلطا بين مفهوم القومية بالمعنى الغربي وبين مفهوم الأمة، وجميع مدارس الفكر الاجتماعي تحدثت عن مفهوم القومية ولم تتحدث عن مفهوم الأمة، لسبب بسيط هو أن هذا الفكر نشأ نتيجة ظهور الدولة القومية في أوروبا، وأن هؤلاء المفكرين لم يعرفوا معنى الأمة بالمفهوم الحضاري الإسلامي، وثانيها أن جميع العناصر التي اعتبرت أساسا في تشكيل قومية ما ليست سوى نتائج لتكوين هذه الدولة القومية أي أنها مجرد وصف للظاهرة وليست سببا لها، وهي نتيجة لظهور الدولة القومية وليست سببا لها، بمعنى أن اللغة مثلا والثقافة والتاريخ وغيرها نشأت بعد تكوين الأمة وكنتيجة لها وليس العكس.

وثالثها أننا أمة ذات ملامح خاصة جدا «ربانية» وبالتالي فلا يمكن إخضاعنا للمعايير الغربية لاختلاف السياق الحضاري.

وعلى أي حال فإن القرآن الكريم يحدد لنا العناصر الأساسية لأمتنا وأسباب ظهورها ونتائجها فيقول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾.

أي أن سبب نشأة الأمة وعناصر تكوين هذه الأمة، وهو الذي أعطاها المنظومة الثقافية الواحدة، ومن خلال مهمتها الموكولة إليها نشأ التاريخ المشترك والمصير المشترك... وغيرها من العوامل التي تنتج عادة عن تكوين الأمم.

الأمة الإسلامية نشأت من خلال مهمتها ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي الاضطلاع بمسئولية القضاء على الظلم والفساد والطبقية والاستبداد

والتعصب وغيرها من أنواع المنكر، وحماية الضعفاء والرحمة ودعوة الناس لكل خير ومعروف، أي الدعوة إلى المعروف ونشره ومنع المنكر والقضاء عليه سلما أو حربا، ومن خلال العمل لتحقيق ذلك نشأت الأمة الإسلامية، وهي أمة منفتحة لا تقوم على جنس أو لون أو قرابة دم أو غيرها بل هي تفتح ذراعيها لكل من يريد الدخول فيها من كل لون وجنس وأرض، والانخراط بالتالي في مهمتها في إزالة المنكر عن الأرض ونشر المعروف في ربوع العالم.

وهكذا نجد أن الأمة الإسلامية ترفض مفهوم العرقية والتفرقة العنصرية على أساس اللون أو الجنس : «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**»، « **ليس منا من دعا إلى عصبية ليس منا من قاتل على عصبية، ليس منا من مات على عصبية**».

ونجد أن الأسود والأبيض والأصفر والأحمر ـ الأوروبي والعربي والأفريقي والتركي والهندي والإيراني، من يتكلم العربية ومن يتكلم غير العربية ، كلهم جميعا شاركوا في تشكيل هذه الأمة من خلال الاضطلاع بمهامها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وتمثل «الوحدة» محورا أساسيا في المشروع الفكري والثوري للدكتور فتحي الشقاقي ولا شك أنه كرس جزءا كبيرا من مشروعه الفكري وممارساته الحركية لتأكيد هذا المفهوم ودفعه إلى الأمام، ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن واقع التجزئة والإقليمية هي إحدى نتائج النفوذ والهيمنة الغربية، وأن الوحدة بالتالي شرط لمواجهة مشروع الهيمنة الغربي.

يقول الدكتور فتحي الشقاقي في كتابه «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة ومؤسفة» من منشورات المختار الإسلامي ص ١٥:

«منذ سقوط النظام السياسي المتمثل في دولة الخلافة آخر الدول الإسلامية علي يد مصطفي كمال أتاتورك عام ١٩٢٤، والوطن الإسلامي يمر بموجات متتالية من النكبات والكوارث، التي مكنت للنفوذ والهيمنة الغربية من الاستمرار والحضور

العنيف، وربما كانت الدولة العلمانية اللقيطة التـي أفرزهـا المشـروع الاسـتعماري الحديث أحد أهم أدوات الغرب في هذا الحضور، فعـن طريقهـا تـم تكـريس واقـع التجزئة الإقليمية في مقابل الأمة الواحدة والوطن الواحد على مدى ثلاثة عشر قرنـا، ثم تكريس مناهج التغريب وآثارهـا التدميريـة في مقابـل التوحيـد ومـنهج الإسـلام طريق الحق والسلام والكرامة، كما تم في ظل ذلـك تنفيـذ أهـم أهـداف الهجمـات الغربيـة، وأكثرهـا خطـورة حـين تـم إفـراز الدولـة العبريـة في القلـب مـن الـوطن الإسلامي».

ولتحليل مضمون ما قاله الدكتور فتحي الشقاقي في هذا الصدد نجده قـد ربـط بين مشروع الهيمنة الغربي الاستعماري، وبين تكريس واقع التجزئة والإقليميـة ثـم إفراز دولة إسرائيل، وتكريس التغريـب الفكـري والثقـافي، ولا شـك أن هـذه أمـور مترابطـة بـل هـي تمثـل منظومـة سياسـية واحـدة اسـتخدمها الغـرب، فـالتجزيء والاستعمار والهيمنة الغربية والتغريب وإسرائيل، كلها حلقات في نفس السلسـلة، وبالتالي لمواجهة هذا التحدي فإن هناك التوحيد ومـنهج الإسـلام ورفـض الدولـة العلمانية اللقيطة والجهاد لتحرير فلسطين والتصـدي لحالـة الاسـتلاب والتغريـب التي يكرسها الغرب.

ويرصد الدكتور فتحي الشقاقي محاولات الغرب ومشروعه للهيمنة على العـالم الإسلامي من خلال فكرة التجزئة والتفسيخ «فالغرب قد تحـرك عـلى عـدة محـاور لضرب الثورة الإسلامية في إيران بإثارة الأقليات القومية... ثم إثارة الفتنة بين السـنة والشيعة» «الشيعة والسنة» نفس المرجع السابق ص ١٦.

ويضيف الدكتور فتحي الشقاقي «وإذا كانت كل المحاولات قد بـاءت بالفشـل فإن المحاولة الأخيرة من إثارة الفتنة بين السنة والشيعة، قد حققت بعض النجاحات لأنها تتم خارج الأرض الإيرانية ويقودها طابور ضخم من وعـاظ السـلاطين الـذين جندتهم الأنظمة الطاغوتية في هذه المؤامرة الصهيونية».

وهكذا يضع الدكتور فتحي الشقاقي يده على الجـرح تمامـا ويحـدد أن ضـرب

الوحدة الإسلامية من خلال الفتنة بين السنة والشيعة هدف ثابت لمشروع الهيمنة الغربي، بل وأيضا مؤامرة صهيونية تستهدف حماية إسرائيل وتكريس وجودها وتوسعها، لأن الوحدة طريق أكيد للقضاء على المشروع الإسرائيلي، وكذا مشروع الهيمنة الغربية. ولأن الدكتور فتحي الشقاقي يشفع القول بالعمل، فقد تصدى شخصيا، وكذا تياره الفكري والسياسي لهذه الفتنة، وكان فكرا وممارسة نموذجا للدعوة إلى الوحدة وتحقيق شروطها، والدكتور فتحي الشقاقي السني حتى النخاع ـ تصدى بجرأة لتفنيد آراء وأفكار الغرب في الفتنة بين السنة والشيعة، واستطاع أن يرصد في كتابه الوحدوي الهام «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة ومؤسفة» عشرات الأدلة الشرعية التي تؤكد وحدة الأمة الإسلامية من شيعة وسنة، فالله واحد والرسول واحد والقرآن واحد، بل والوحدة بين الشيعة والسنة ضرورة للطرفين وليست فقط مسألة شرعية، فهي أيضا ضرورة استراتيجية لمواجهة مشروع الهيمنة الغربي الذي لا يفرق بين مسلم سني ومسلم شيعي، بل يريد ضرب الإسلام كدين وحضارة بكل تياراته الفكرية والسياسية لصالح مشروع التجزئة والدولة الإقليمية العلمانية التفسيخية.

ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن الفتنة والتفسيخ وإثارة النزاعات المذهبية يكون عادة مواكبا لفترات الانحطاط والهزيمة في تاريخنا، حيث سيادة التقليد والتعصب المقيت فتحولت المدارس الفكرية التي بناها الأئمة العظام إلى أحزاب يرهب كل منها الآخر، باستخدام سلاح التكفير حينا وإشعال نار الفتنة في البيوت حينا آخر» «الشيعة والسنة» نفس المرجع السابق ص ١٨.

ويفند الدكتور فتحي الشقاقي حجج وترهات مدرسة الفتنة ورموزها ويعطي الدليل الشرعي والتاريخي على فساد هذه الحجج والآراء، ولا يقتصر الدكتور فتحي على ذلك بل يقدم عشرات الأدلة نقلا عن علماء الإسلام المحترمين ونقلا عن قيادات فكرية وحركية في جماعات الإسلام السياسي المعاصر والتي تؤكد كلها على وحدة الأمة، فهو ينقل ما يؤكد هذه الوحدة عن الحاجة زينب الغزالي والأستاذ عمر التلمساني، والأستاذ فتحي يكن، والأستاذ محمد علي الصفتاوي، وسالم

البهنساوي، وعبد المتعال الجبري، والدكتور إسحاق موسى الحسيني، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور صبحي الصالح، والدكتور عبد الكريم زيدان، والشيخ سعيد حوي والأستاذ أنور الجندي وغيرهم من القيادات الفكرية والسياسية للحركة الإسلامية المعاصرة.

كما اعتمد الدكتور فتحي الشقاقي لتأكيد الوحدة والقضاء على الفتنة على دراسة تجربة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي شارك فيها شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ محمود شلتوت وغيرهم، وأن الإمام الشهيد حسن البنا قد شارك بنشاط في هذه التجربة لأنه كان يعمل جاهدا على التقريب بين المذاهب حتى لا يتخذ أعداء الإسلام الفرقة بين المذاهب منفذاً يعملون من خلاله على تمزيق الأمة.

وكذا يرصد الدكتور فتحي الشقاقي الآراء الهامة التي تؤكد على التوحيد في مواجهة التفسيخ التي قالها علماء كبار أمثال الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد الحميد سليم والشيخ محمد أبو زهرة والدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عبد الحليم محمود والأعظمي والمودودي، وكذا عدد من الكتاب والمفكرين الإسلاميين أمثال حسن أيوب وسميح عاطف الزين والدكتور عرفات عبد الحميد والدكتور علي سامي النشار، والدكتور محمد شريف والدكتور علي عبد الواحد وافي.

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي وبمجهود كبير استطاع أن يرصد آراء العلماء القدامى والعلماء والمفكرين وأساتذة الجامعة وقيادات الحركات الإسلامية المعاصرين للتأكيد على الوحدة.

ويعلق الدكتور فتحي الشقاقي على ذلك بقوله ص ٤١ : «وبعد فهذا رأي البنا وشلتوت وأبو زهرة والغزالي والتلمساني وفتحي يكن وأنور الجندي وعبد الكريم زيدان والشكعة وخلاف والبهنساوي وسعيد حوي ووافي والأعظمي والمودودي وحسن أيوب ومشايخ الأزهر وغيرهم من أعلام المسلمين وقادتهم، فماذا تعني

هذه الأصوات الغريبة التي نسمعها من وقت لآخر تدعو للتكفير وإشعال نار الفتنة وسكب المزيد من المرارة في الحلوق والمزيد من الحقد في الصدور، ماذا يريد رسل البغضاء والوقيعة من أوراقهم ومحاضراتهم غير أن يتسع الحريق، بينما سيف المستكبرين معلق فوق رقابنا، وفي وطن يحتله أربعة ملايين يهودي، ولا نجد فيه شيعيا واحدا ماذا يجدي جر المسلمين إلى هذا المسلسل الجهنمي إلا إلهاء الناس وجرهم بعيدا عن المشكلات الحقيقية».

ولا شك أن ما قام به الدكتور فتحي الشقاقي من مجهود فكري وكذا مجهود حركي وسياسي في القضاء على فتنة التفريق بين المسلمين سنة وشيعة أمر من أهم الإنجازات الفكرية والسياسية والحركية للدكتور فتحي الشقاقي، وكان الدكتور فتحي الشقاقي بهذا الموقف نموذجا للمسلم المعاصر الذي يدرك تحديات اللحظة ويعطيها الإجابة الفكرية والسياسية الصحيحة استنادا إلى الأصول الإسلامية الثابتة.

وأذكر أنني شخصيا تناقشت مع الدكتور فتحي الشقاقي في مسألة السنة والشيعة، وقلت إن رأيي هو أن هناك بالفعل خلافات بين السنة والشيعة، وأن السني سيظل سنيا والشيعي سيظل شيعيا ولكن عوامل الوحدة ـ خاصة مع وجود التحديات- أكبر وينبغي الاعتراف بالخلاف والانطلاق إلى التعاون وهذا النمط من الوحدة واقعي وعملي ومفيد.

وإنني شخصيا أعترض على محاولات البعض تكفير الشيعة أو إخراجهم من زمرة المسلمين، فهذه محاولات أمريكية وإسرائيلية في ثياب وأقنعة مختلفة وبنفس القدر أرفض محاولات بعض القوى الشيعية للدعوى إلى التشيع بين صفوف السنة لأن هذا مدعاة للفتنة الكبير، وقد وافق الدكتور فتحي الشقاقي على ذلك تماما وقال لي إن الإمام الخوميني كان يستاء شخصيا كلما سمع عن محاولات البعض الدعوة إلى التشيع في صفوف السنة.

***

لم يقتصر الإسهام الفكري والحركي الوحدوي للدكتور فتحي الشقاقي على مسالة القضاء على الفتنة بين السنة والشيعة، بل تعداه إلى تقديم الإطار النظري الوحدوي الإسلامي، كما اهتم حركيا وسياسيا وفكريا بالحركات الإسلامية في العالم الإسلامي: في إيران والعراق وسوريا وفلسطين ومصر والأردن وتركيا والجزائر والسودان، كما أسهم في نشأة التجمعات الشعبية الإسلامية العالمية مثل المؤتمر الشعبي الإسلامي، والقيادة العالمية الإسلامية وحتى اللحظة الأخيرة من حياته كان يهتم بقضايا العالم الإسلامي في البوسنة والشيشان وأبخازيا وأذربيجان، كما اهتم بالأقليات الإسلامية في كل مكان في العالم.

ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن إحدى مهمات دولة إسرائيل التي من أجلها دعمها الغرب « أنها حارس لنظام التجزئة » وهكذا يفهم الدكتور فتحي الشقاقي أن الوحدة مستهدفة من المشروع الغربي والإسرائيلي.

ويقول الدكتور فتحي الشقاقي « لابد من وضع مسألة الوحدة على ذروة جدول أولويات المفكرين والدعاة والعلماء والتنظيمات السياسية والدول ونقل ذلك إلى أرض الممارسة الفعلية ويستدعي هذا إعادة العمل بقاعدة الأمة التاريخية » تقديم الوحدة على العدل « إذ يجب أن نسير جميعا إلى خيار الوحدة مهما كان اعتقادنا بأن في ذلك الخيار بعض الهضم لحقنا فيما نراه ـ فكريا أو سياسيا أو ماديا ـ صوابا. ولا بد أن ينعكس هذا على إنهاء حالة الصراع والتدافع بين القوى والمنظمات وعلى تقليص حالة التشرذم السياسي، وقبل ذلك وبعده لابد من إعادة الروح إلى حركة الجماهير الوحدوية، إن هناك فروقا في هذه المرحلة في مستوى المعيشة بين بلد عربي أو إسلامي وبلد آخر، وكذلك في مستوى التعليم والخدمات، وإن هذا الأمر المؤقت والعابر في معظم الحالات لابد ألا يمنع حكومة ودولة وشعبا من اختيار الوحدة مع دولة وشعب آخر. من ناحية أخرى لابد أن تلتزم قوى الأمة السياسية والشعبية بقاعدة أساسية، هي أنه في الوقت الذي لابد أن يكون فيه خيار الوحدة خيارا شعبيا، ألا يفرض بالقوة والعنف من القوي على الضعيف لما في ذلك من تقويض لقيم الوحدة ذاتها، وإلى جانب ذلك لابد من العمل ضد كل اتجاهات التجزئة، مهما كانت

راية هذه الاتجاهات. وبشكل مماثل يجب العمل ضد إقامة أية كيانات جديدة منفصلة في المنطقة » الصحراء الغربية مثلا « مهما كان الموقف من القوى التي تدعو لذلك. إن الأطر الرسمية الحالية كالجامعة العربية ومؤسساتها والمؤتمر الإسلامي ومؤسساته، لابد أن ترى من زاوية إيجابية، وأن تستخدم لتقرير التضامن وإلزام دولها الأعضاء بميثاقها وقيمها، في الوقت نفسه الذي يتم فيه تطويرها وإنجاز مشاريع وحدوية خارجها » فتحي الشقاقي ـ الاستقلال والتبعية في الحوض العربي الإسلامي مجلة منبر الشرق العدد ٨ ـ يوليو ١٩٩٣.

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي أولا يريد تثبيت حالة الواقع العربي والإسلامي وإيقاف التجزئة المستمرة ثم إعطاء الروح للبنى والمؤسسات ذات الطابع الوحدوي وتطويرها لتحقيق إنجاز أكبر ثم إنجاز مشاريع وحدوية خارج تلك البنى والمؤسسات.

وهذه بلا شك نظرة واقعية ومبدئية في نفس الوقت، ومن المهم هنا أن نلفت النظر إلى إدراك الدكتور فتحي الشقاقي أن الوحدة عمل جماهيري في المقام الأول فلابد من إعادة الروح إلى حركة الجماهير الوحدوية.

والوحدة عند فتحي الشقاقي ليست وحدة للأمة الإسلامية فقط، ولكنها أيضا دعوة للوحدة في كل عمل ومسار وحركة، فهو يؤمن بالوحدة حتى النخاع. ولأنه ابن بار من أبناء الحركة الإسلامية وأحد كبار مفكريها في القرن العشرين، فإن من الطبيعي أن يدعو فتحي الشقاقي إلى وحدة الحركة الإسلامية.

وفي هذا الصدد يقول فتحي الشقاقي في العدد ١٩ من المختار الإسلامي يناير ١٩٨١ : «إننا ندعو كل فصائل وقوى الحركة الإسلامية إلى الوحدة من خلال تصور واحد لا يتغير ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ فلم تعد اللحظة التاريخية تحتمل هذا الانهيار وهذا التشرذم وهذا الغياب. لقد قضي محمد صلي الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاما حتى انتصر على قريش، فماذا أعددنا اليوم وأمامنا مليون قريش؟ إن وحدة الحركة الإسلامية مطلب في غاية الأهمية ليس كتكتيك مرحلي، بل كقضية استراتيجية، إذ لا جدوى من الحديث عن فعالية النشاط

الإسلامي بدونها فهي تعني وحدة الإرادة الإسلامية ووحدة الوعي الإسلامي، ومن ثم وحدة الفعل والفعل الإيجابي على طريق الانتصار. وبها وحدها يصبح هذا الانهيار أحد صور التحول التاريخي نحو ميلاد جديد ونحو أزمنة جديدة، ينحسر فيها الزبد ويتنامى فيها المد الإسلامي الذي كان دوما ماكنا في الأرض.

ويضيف الشقاقي : ولكن الحديث عن الحركة سيبقى لغوا لا طائل تحته إن لم تستوعب جملة مفاهيم هامة منها:

ليس هناك معنى لحركة إسلامية لا يوجد فيها مكان للجهاد بمفهومه الشامل وبرنامج يحدد أولويات هذا الجهاد، بل ليس هناك معنى لحركة إسلامية لم تميز بعد أن حكومات الوطن الإسلامي هي نفسها تلك الوجوه القرشية القديمة، بل أشد سوءا فهي اختلفت ألوان أعلامها والنوتة الموسيقية لأناشيدها الوطنية.

يجب أن ترفض الحركة الإسلامية أي تحالفات تكتيكية أو غير مبدئية مع أي قوى سائدة وتقف مع الجماهير، القوى الحقيقية التي يجب تبني مطالبها وفضح أساليب خداعها والاعتراف بأن العزلة عنها لن تأتي إلا بمزيد من التخبط والإفلاس والانتحار السياسي.

يجب على الحركة الإسلامية أن تعي ما يحدث في الزمن الآتي من خلال رؤية تحليلية لمراكز القوة المؤثرة وأطراف الصراع، ثم تبحث عن كل هذا في التاريخ الذي ستبقي دراسته واستيعابه ملاذا آمنا لاستقرار المستقبل.

يجب أن تنظم هذه المفاهيم وغيرها من خلال برنامج متكامل للعمل يحمل رؤى واضحة الأبعاد والمعالم، ويحدد بصفة أساسية نقطة البدء والوسائل والأهداف وأولويات الجهاد، وبدون ذلك ستبقي ودوما كمن يحرث في البحر.

.. قضية اللاجئين أو أم القضايا

اعتبرت (إسرائيل) ــ بكل حكوماتها ـ من يمين ويسار ووسط: علمانيين ومتدينين، وكذا كل قواها السياسية وحتى دعاة السلام المزعومين فيها- أن موضوع حق العودة للاجئين الفلسطينيين هو خط أحمر لا يمكن الاقتراب منه، وكذا عبرت الإدارات الأمريكية المختلفة في مشروعاتها التي قدمتها للسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين عن تجاهلها لهذا الموضوع، وتبنت بالكامل إهدار حقوقهم المشروعة في العودة، وآخرها مشروع كلينتون قبيل رحيله، وإن كانت لا تمانع في المساعدة في توطينهم في أماكن غربتهم أو تعويضهم بالمال، أو تحسين ظروف حياتهم. وعلى طول مسيرة المفاوضات والاتفاقات، بل وعلى طول محطات الصراع معهم فإن قضية اللاجئين كانت هي أم القضايا وأخطرها وأكثرها إثارة للجدل، وهذا بديهي؛ فالمشروع الصهيوني برمته قائم على اغتصاب أرض من أهلها وترويعهم وتشريدهم وطردهم منها، ثم الاستيطان فوق تلك الأرض واستجلاب المهاجرين اليهود من كل مكان، ومن ثمّ حرمان أصحاب الأرض الحقيقيين من أرضهم وبيوتهم وبياراتهم .. وهكذا فإن استيطاناً يهودياً في أرض فلسطين يعني مباشرة طرد الفلسطينيين، وعودة اللاجئين تعني مباشرة طرد اليهود من الأراضي التي اغتصبوها، وهكذا فإن قضية اللاجئين هي أم القضايا وجوهر الصراع.

ولأنها كانت ولا تزال كذلك فإن الفكرة الصهيونية ارتبطت منذ البداية بأكذوبة كبرى وهي: شعب بلا أرض .. لأرض بلا شعب؛ فقد قامت الدعاية في الإعلام

الصهيوني على أن أرض فلسطين خالية من البشر، وحاولوا إقناع العالم بذلك، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير رغم أنها أكذوبة واضحة المعالم، بل وصل الكذب إلى حد أنهم أحياناً صدقوا أنفسهم أو تبجّحوا بالكذب رغم الحقيقة الماثلة للعيان؛ فجولدا مائير الزعيمة الصهيونية المعروفة كانت تكرر أنه لا يوجد فلسطينيون، رغم أنهم كانوا يحيطون بها من كل جانب سواء من عرب ١٩٤٨، أو غزة والضفة أو من قامت بنفسها بتهجيرهم أو قتلهم وترويعهم حتى يهاجروا!!

وبناء على تلك الفلسفة التي صاغت الفكر الصهيوني، اعتمد الصهاينة دائماً على تخويف الفلسطينيين وترويعهم وتنظيم المذابح حتى يضطرهم إلى الهجرة، ومن يصمد ولا يهاجر يتم مصادرة أرضه بقوانين إدارية، أو يحارب في رزقه وعيشه، وهكذا حتى يضطر أن يهاجر.

وإذا تتبعنا المدن الإسرائيلية المعروفة الآن نجد أنها قامت على أنقاض مدن وقرى فلسطينية، وعلى أراض تركها أصحابها أو تم مصادرتها، وليس هناك استثناء لهذا الأمر، أما الحديث عن أن الفلسطينيين قد باعوا أرضهم طواعية إلى اليهود؛ فهو كلام لا قيمة له؛ لأن البحوث والدراسات الرصينة قالت إنها موجودة بنسبة لا تصل إلى ٦ في الألف، وهي نسبة لا يُعتد بها أولاً، كما أنها كانت أراضي مملوكة لإقطاعيين ليسوا فلسطينيين ثانياً، بل كانت لهم إقطاعيات في فلسطين وسوريا ولبنان وربما مصر وهكذا... وثالثاً لأن السماح بهجرة اليهود إلى فلسطين ـ وهي المؤامرة البريطانية الكبرى ـ هو أصل المشكلة، فلمن كان سيبيع هؤلاء لو لم يوجد مهاجرون يهود؟

سجل الآلام الضخمة

المذابح والترويع والطرد هي الأصل، وما عداه استثناء، وهكذا فإن قضية اللاجئين تلخص قضية فلسطين كلها، والاقتراب منها يعني فتح موضوع مشروعية قيام (إسرائيل) ذاته ومشروعية بناء كل بناية ومصنع ومدرسة وجامعة بها، ومشروعية إقامة كل فرد فيها، فضلاً عن أنه يفتح سجل الآلام الضخمة التي عاناها ولا يزال

يعانيها الفلسطينيون، ولذا لجأ المفاوض الإسرائيلي إلى تأجيل البتّ في تلك القضية في كلّ مرة يتمّ الوصول إلى اتفاق، وذلك ضمن ثلاث قضايا شائكة هي القدس، والمستوطنات واللاجئون، ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا: إن أخطر هذه القضايا هي قضية اللاجئين وصحيح أن قضية القدس ذات أبعاد تاريخية وعقائدية، ولا تخص الفلسطينيين وحدهم بل العرب والمسلمين، وتتشابك فوق خيوط إقليمية ودولية، ولكنها قابلة للعمل بطريقة أو بأخرى، ويمكن لـ (إسرائيل) أن تقبل حلاً ما يعطي السيادة للفلسطينيين على المقدسات الإسلامية مع بعض الضمانات، أو حتى يمكن لـ (إسرائيل) أن تتنازل عن منطقة الأقصى للفلسطينيين، وحتى لو أدّى ذلك إلى هياج قطاع من المجتمع الإسرائيلي، وهو قطاع المتشدّدين؛ فإنه لن يؤدي إلى نهاية (إسرائيل) مثلاً، وكذا فإن المستوطنات يمكن الوصول إلى حل بشأنها، لأنها أولاً لا تمثّل إلا قطاعاً محدوداً من الإسرائيليين، وأنها ثانياً سوف تكون عبئاً كبيراً على الكيان الصهيوني في حالة الوصول إلى حل وإقامة دولة فلسطينية، فكما أنها تمثل اختراقاً لتلك الدولة، فإنها أيضاً رهينة داخل البحر السكاني الفلسطيني، وفي النهاية يمكن الوصول إلى حل ما بشأنها؛ بل لعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن (إسرائيل) تشددت بشأن قضية المستوطنات وقضية القدس لكي تجعل الاهتمام بهاتين القضيتين –وتحديداً بقضية القدس– يغطي على ما تريد من الحصول على صك فلسطيني ينهي قضية اللاجئين، أي ينهي القضية ويريح (إسرائيل) للأبد؛ لأن وجود كل لاجئ لم يعترف بشرعية الاستيطان والوجود الصهيوني ويريد العودة؛ يعني أن هناك قنبلة زمنية ستنفجر في أي لحظة، ولنا أن نتخيل قيام حركة بين المهاجرين، لا علاقة لها بالسلطة، ولا بالقوى السياسية الفلسطينية أو العربية المختلفة، ولا علاقة لها بالحكومات، ولا تهتم بغير حق العودة فقط، واستطاعت أن تثير حماس هؤلاء الـ(٧) ملايين لاجئ، لكي يتجمعوا يوماً في مكان ما في الأردن أو لبنان ويزحفوا ـ بلا سلاح ـ على (إسرائيل)، ألن تغرق (إسرائيل) في بحر البشر الفلسطيني؟

نهاية إسرائيل

هذه المسيرة المليونية الفلسطينية مشروعة تماماً، ولن تجرؤ قوة إقليمية أو دولية

على قمعها أو منعها، هذه المسيرة ليست وحدها الإجراء الممكن، بل كـذلك يمكـن التحرك دولياً في الأمم المتحدة ومراكـز حقـوق الإنسـان والتجمعـات الشـعبية هنـا وهناك لرفع قضية اللاجئين، ولكن من منظور العودة، ولا شيء سوى العودة، إنه أمر مزعج مرعب لـ (إسرائيل)، و(إسرائيل) تدرك أن التسليم بحـق العـودة يعنـي نهايـة (إسرائيل)؛ لأنها تتكون من (٤) ملايين يهودي، بالإضـافة إلى وجـود (١.٢) مليـون عربي من عرب ١٩٤٨ م بالإضافة إلى (٢.٥) مليـون فلسـطيني في الضـفة وغـزة لـن تتحمل عبء (٧) ملايين فلسطيني من الشتات، ولاسيما أن هؤلاء مشهورون بكثـرة الإنجاب، أي أن اليهود سيغرقون في بحـر بشـري فلسـطيني، وهـو مـا ينهـي وجـود الدولة العبرية تماماً.

وهكذا فإن حق العودة هو ما ترغب (إسرائيل) في الحصول على صك من السلطة الفلسطينية بإنهائه، وإنهاء القضية وإغلاقها نتيجة لذلك، حتى لا يأتي يوم بعـد عـام أو عشرة أعوام ويطالب الجيل التالي مـن الفلسـطينيين بـالعودة، وبـذلك يظـل الوضـع معلقاً فإن مطالب الأجيـال لـن تنتهـي طبعـاً وخصوصـاً إذا اسـتمر الصـراع خصـباً وساخناً والدماء تسيل.

وإذا كنا قد استنتجنا أهمية موضوع اللاجئين، وجعلناه الموضوع الأكثر خطـورة، فإنه ليس من حق أحد التسليم بإنهاء حق العودة للفلسطينيين؛ لأنه ليس حق الأجيال القادمة فحسب؛ بل هـو حـق المسـلمين في بقـاء الأرض المباركـة أرضـاً إسـلامية، فيجب ألاّ يُفرط في هذا الحق، ولا يتعارض هذا، ويجب ألاّ يتعارض أصلاً مع أهميـة عودة القدس والمقدسات الإسلامية في بيت المقدس؛ فهي كلّها قضايا هامة بالطبع؛ بل المفروض طبعاً عودة كامل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر، ومـن الشـمال إلى الجنوب.

حق العودة هو حق بدهي، وهو حـق لا يختلـف عليـه اثنـان، وهـو أيضـاً ثابـت بالشرعية الدولية بالقرار رقم (١٩٤) الذي ينص على العـودة والتعـويض؛ أي عـودة كل اللاجئين في كل مكان إلى فلسطين، وعودة المهجَّرين داخـل فلسـطين إلى قـراهم الأصلية وبيوتهم الأصلية، ثم تعويضهم عن تلك الفترة التي قضوها في المنـافي وعـن

استغلال (إسرائيل) والإسرائيليين لأرضهم وبيتهم طوال تلك المدة.

وبالطبع فإن (إسرائيل) وأمريكا، ومعهما ما يسمى بدعاة العقلانية يروّجون لمقولة أن ذلك مستحيل؛ لأن معنى عودة كل هذه الملايين نهاية (إسرائيل) وهذا غير ممكن ـ لماذا؟ .. وأن الإسرائيليين قد بنوا عمارات ومرافق ومدناً ومدارس وجامعات ومصانع على الأراضي المغتصبة. فكيف نهدم ذلك، ونعيده إلى أصحابه؟ .. وأن المطالبة بالمستحيل هو نوع من العنتريات التي عفا عليها الزمن، ومن الأفضل الحديث عن حلول واقعية؛ بمعنى توطين اللاجئين في أماكن وجودهم أو البحث لهم عن أماكن أخرى، وتحسين ظروف حياتهم ومساهمة الأسرة الدولية في تعويضهم وتمويل توطينهم، وظهرت في هذا الإطار مشروعات لتوطين اللاجئين الموجودين في لبنان، وكذا الأردن وسوريا ...الخ ولكن الفلسطينيين الموجودين في هذه البلدان رفضوا ذلك، ورفضت حكومات لبنان وسوريا ذلك أيضاً، وهناك حديث عن توطينهم بالعراق مثلاً بعد الاحتلال الأمريكي، وبالطبع فإن أحداً لن يقبل ذلك، لا الفلسطينيون ولا لبنان والعراق وسوريا ...الخ.

حق العودة هو جوهر القضية؛ لأنه يسحب شرعية وجود الدولة العبرية من أساسه، وعلينا ألا نخاف من طرح الموضوع، أي موضوع تفكيك دولة (إسرائيل) وإقامة وطن حر يعيش فيه الجميع على قدم المساواة؛ ولأن الأمر كذلك فإن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة حرصت على الحصول على اعتراف بوجود وشرعية (إسرائيل) مقابل بعض التنازلات، بل حرصت أيضاً على إلغاء ميثاق منظمة التحرير مقابل اتفاقية أوسلو، وهذا لأنها تدرك أنه بدون الحصول على صك الشرعية من العرب والفلسطينيين أنفسهم، فإن الشعور بالأمان لدى كل المغتصبين سيظل منقوصاً، وحتى لو اعترف العالم كله وبقي مجموعة من الفلسطينيين أو العرب يشكّكون في شرعية وجود الدولة العبرية، ويطالبون بتفكيكها، ولا يسلمون أو يعترفون بها، فإن ذلك يعني أن الأجيال القادمة ستجد الجذوة تحت الرماد مشتعلة أو الجذور صالحة لم تمت وربما اندلع الطوفان من جديد!!

***

إلهاء الرأي العام العالمي

وحتى يتم إرضاء أو إلهاء الرأي العام العالمي فإن مساعدة الفلسطينيين اللاجئين تتم طبعاً عن طريق وكالة غوث اللاجئين «الأونروا» التي تشكلت باقتراح من الولايات المتحدة الأمريكية، والمساعدة هنا تكمن في تأهيلهم اقتصادياً واجتماعياً وتعويضهم عن الأضرار أو بناء مخيمات لهم، أو تشغيلهم ما عدا حق العودة طبعاً، وحاولت (إسرائيل) دائماً الادّعاء أن الفلسطينيين ليسوا شعباً بل هو مجتمع من العرب يمكن أن يذهبوا ليعيشوا في البلاد العربية، وأنه ليس هناك دولة اسمها فلسطين، وأن الفلسطينيين جاؤوا إلى تلك الأرض كرعاة فقط، وهذا منذ زمن بعيد .. أما اليهود فهم شعب يتم تشكيله، ويجب إعادتهم من كل مكان لتعمير تلك الأرض التي هي بلا سكان ولا صاحب، وأنهم ـ أي اليهود ـ متحضرون، أما الفلسطينيون فهمج وبرابرة هكذا ـ يزعمون إفكاً وكذباً ـ ولا يخلو الموضوع من طرائف إسرائيلية أو أشياء تثير الغيظ اليهود الذين هاجروا من البلاد العربية إلى (إسرائيل)، ورغم أن ذلك تم بإرادتهم أولاً، أو حتى رغم أنف تلك الدول التي ما أرادت أصلاً أن يخرجوا منها، وربما منعتهم فهربوا، وثانياً تقول لهم تفضلوا وعودوا إلى بلادكم واتركوا فلسطين .. ومن الطرائف والعجائب أيضاً، أن جامعة هارفارد تبنت مشروعاً يقتضي اعترافاً ورقياً إسرائيلياً بالذنب وامتناع الفلسطينيين في المقابل باستحالة حق العودة.

والغريب أن رفض (إسرائيل) لحق العودة الفلسطيني، أي عودة الفلسطينيين إلى أرضهم التي طُردوا منها قسراً، يترافق مع إصرار (إسرائيل) على منح حق الهجرة التي سموها العودة إلى فلسطين لأي يهودي في العالم: روسي أو مجري أو ألماني أو أمريكي أو عراقي أو يمني أو حبشي أو مغربي أو إيراني رغم عدم صلة هؤلاء بفلسطين ولا أجدادهم في أغلب الأحيان لعدة آلاف من السنين، وربما بالمرة تماماً؛ حيث إن معظم اليهود الحاليين لا علاقة لهم ببني إسرائيل الأصليين كما ذكر ذلك أكثر من باحث مرموق.

حق العودة للفلسطينيين ثابت بالتاريخ والجغرافيا، رغم كل محاولات طمس الهوية، ومادام هناك شعب فهناك قضية، وخاصة أن هذا الشعب يتمسك بمفاتيح

البيوت، ويحكي الأجداد للأحفاد عن مدنهم وقراهم الأصلية وبياراتهم وحقولهم، والحق ثابت؛ لأن الاحتلال لا يلغي حق الملكية، ولأن وعد بلفور وقرارات التقسيم وغير ذلك مما أدى عملياً أو رسمياً إلى قيام (إسرائيل) غير شرعي؛ لأن الفلسطينيين لم يكونوا طرفاً فيه بل هم الضحية .عدد اللاجئين وتوزيعهم في العالم يتراوح بين ٥ و٧ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة، وهم موزعون أساساً في سوريا ولبنان والأردن والضفة وغزة ومصر وأمريكا وأوروبا، ويبقى أن من الضروري -كما قلنا- ظهور هيئة تمثلهم ليست سياسية ولا علاقة لها بمنظمة التحرير أو السلطة الفلسطينية أو أي قوى سياسية أو حكومات، تهتم فقط بتوثيق الخرائط والعقود والأوضاع والأرقام التي تؤكد حقوق اللاجئين في العودة إلى فلسطين والعمل المتواصل لتأكيد حقهم في العودة لبلادهم التي هُجِّر منها آباؤهم وأجدادهم؛ وما ضاع حق وراءه مطالب.

.. مانفستو المقاومة

مع كثرة الحديث عن مشروعات الإصلاح ، وكثرة الأطروحات التي تناقش حالة التخلف والانحطاط العربي والإسلامي ، فإن من الضروري علمياً وموضوعياً وشرعياً تحديد نقطة الانطلاق الصحيحة ومن ثم البرنامج الملائم للإقلاع من تلك الحالة التي تعاني منها أمتنا .

إذا كان من الضروري بداية لوضع تصور صحيح للإقلاع والإصلاح أن نحدد طبيعة الجماعة البشرية التي نحن بصدد تحديد أمراضها ومن ثم وضع الوصفة الصحيحة لعلاجها ، وكذا طبيعة التحدي والأمراض التي تواجهها تلك الجماعة البشرية ، أي الانطلاق من نقطة مبدئية وهي أننا لا نتعامل مع جماعة بشرية مصمتة ليس لها سمات ولا خصائص وكذلك أننا لا نتعامل مع مجموعة أحجار أو أشياء مادية تخضع فقط لقوانين وسنن الفيزياء والكيمياء . . . الخ ، لكان علينا في البداية تحديد من هي هذه الجماعة البشرية التي نحن بصددها ، وبدون الدخول في تفصيلات كثيرة فنحن أمام جماعة بشرية – العالم العربي والإسلامي – لها تاريخ وحضارة وثقافة عميقة جداً وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة فإن هذه الجماعة تتأثر بالضرورة بتلك السمات الثقافية والحضارية ومن ثم فإن تجاهلها يؤدي مباشرة إلى الفشل بل وتكريس الحالة التي نريد علاجها ، هذه الأمة إذن أمة إسلامية شئنا أم أبينا ، وبالتالي فإن المكون الرئيسي

والأساسي لوجدان وثقافة هذه الأمة هو الإسلام كدين وحضارة وثقافة بالنسبة للمسلمين (الأغلبية الساحقة) وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة ، وهكذا فإن شرط النجاح الأول لأي مشروع هو إسلاميته ونحن في الحقيقة أمام أمة هي الأعمق ثقافياً وحضارياً بلا استثناء بالنسبة لكل الجماعات البشرية (١٤ قرناً على الأقل واتساع جغرافي وامتداد زماني وثقافي وتأثير واضح للإسلام لا تخطئه عين أي مراقب) وهكذا فإن وهم تغييب الإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية – بوعي أو بدون وعي – كرهاً أو رغباً هو قفزة فاشلة في المجهول والفراغ، ولن تحدث مطلقاً مهما فعلنا أو فعل غيرنا ، إنها محاولة محكوم عليها بالفشل ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد ومسخ ذلك الكيان جزئياً ومن ثم تعطيله عن التصدي الصحيح والكفء للتحديات والأمراض ، وهذا بالتحديد هو السبب الأساسي لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الإسلامي (العلماني الليبرالي ، العلماني القومي ، العلماني الاشتراكي بكل درجاته) والنتيجة هي ما نشاهده الآن من نتائج تلك المحاولات التي استقطعت من عمرنا وجهدنا الكثير بلا طائل ، بل بنتيجة عكس المطلوب تماماً ، الإسلامية إذن هي الشرط الأولى لأي مشروع للإصلاح ، ولكن العنوان لا يكفي فلا بد من تحديد ما تحت العنوان وما بعد العنوان وإذا قلنا أن هذه الأمة غير قابلة للذوبان الحضاري لأنها الأعمق حضارياً وثقافياً ، فإن هذا يقود إلى الإيمان باستحالة هزيمتها هزيمة عسكرية وسياسية نهائية ، وإذا بدأنا من تحديد أسباب التراجع وقلنا إن المنحنى الإسلامي صمد منذ البعثة المحمدية ثم ساد العالم ، ثم ثبت هذا المنحنى ، ثم نزل وأننا الآن في حالة نزول حضاري – هزيمة تكنولوجية واضحة – يجب الاعتراف بها أولاً ، ثم العمل على تجاوزها ثانياً ، وإذا بحثنا عن سبب نزول هذا المنحنى وقبل ذلك سبب صعوده ، لكان من الممكن تلخيص المسألة في كلمة واحدة ، هي كلمة الجهاد ، فطالما قامت هذه الأمة بالجهاد ، كواجب شرعي وفعل حضاري لإنقاذ المستضعفين في العالم كلما صعد المنحنى الحضاري لأمتنا وكلما تخلينا عن هذا الواجب وأبطلنا هذه الفريضة أو اكتفينا بالدفاع توقف صعود المنحنى ثم ثبت ثم نزل ، ومن ثم فإن الصعود مرتبط باستعادة هذا الفعل ، وفي الحقيقة فإن كثيراً من الأطروحات – بعضها إسلامي طبعاً – حين

تتجاهل هذا البعد ، وتتحدث مثلاً عن التنمية الاقتصادية ، الإصلاح السياسي – التربية . . . الخ ، فإنها تكرس التخلف ، لن نحقق الوحدة مثلاً، ولا الإصلاح الاقتصادي ، ولا الإصلاح السياسي إلا إذا جاهدنا « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، « ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا » وهكذا فإن الجهاد هو كلمة السر الصحيحة والوحيدة ، الجهاد هو شرط التقدم الاقتصادي والاجتماعي وشرط التنمية الحقيقية وشرط كل شيء صحيح وجميل ، فإذا أردنا أن نحقق زراعة أو صناعة أو تعليم أو تربية أو حتى تفوق فني وأدبي فإن الجهاد هو الشرط الأول ، وهذا المعنى الصحيح للآية المذكورة سابقاً ، وللحديث الشريف كذلك . يجب بالطبع إدراك بعد الهزيمة التكنولوجية ، والاعتراف بها ويجب أن ندرك أن علينا في البداية أن نقلل سرعة نزول المنحنى الحضاري لأمتنا ، وأن نوقف هذا النزول تماماً ، ثم نحدث انقلاباً في المنحنى ثم نصعد من جديد إن شاء الله ، وبدون هذه المراحل فإننا نقفز في الهواء وهذا لعمري كان خطأ الحركات السياسية الإصلاحية عموماً والإسلامية منها خصوصاً حتى الآن ، يجب تقديم اجتهاد فكرى وحركي وفقهي يلائم هذا الظرف ويحقق أقصى قدر من فريضة الجهاد .

سندخل مباشرة في بعض الأطروحات المراوغة ، التي تقول إحداها مثلاً إننا أمة متخلفة ومهزومة (وهذا صحيح) وإن المواجهة ليست حلاً (وهذا غير صحيح) ، ومن ثم فعلينا إتباع الأسلوب الألماني أو الياباني في الإصلاح ، أي ترك موضوع المواجهة والجهاد نهائياً والتفرغ للبناء والإنتاج في محاولة لسد الفجوة التكنولوجية ومن ثم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وهذا طرح خاطئ لعدة أسباب ، فالمعركة ضد الألمان واليابانيين لم تكن معركة حضارية ولا ثقافية بل عسكرية وسياسية ، أما نحن فالمعركة ضدنا بالإضافة إلى كونها عسكرية وسياسية واقتصادية فإنها أيضا حضارية وثقافية ، نحن لسنا فقط إزاء مشروع استعماري اقتصادي وسياسي ، بل إزاء مشروع حضاري يستهدف القضاء على أمتنا ، وهناك وجدان صليبي يحرك الأعداء ضدنا ، والمواجهة مع الغرب الصليبي لم تنقطع قط في الزمان ولا المكان بدءاً من حياة الرسول ﷺ وحتى اليوم ، مرورا بالمواجهة في الأندلس

والمغرب العربي (حرب الألف عام كما يطلق عليها المؤرخون المغاربة) ومروراً بحروب الفرنجة على المشرق العربي الإسلامي ١٠٩٥ مـ - ١٢٩٥ مـ وكذا مروراً بالمواجهات التي خاضتها الدولة العثمانية ، ثم الاستعمار والصهيونية وحتى احتلال أفغانستان والعراق ، فالمسألة هنا أننا أمام عدو لن يقبل بغير الاجتثاث لأمتنا، ولن يتركنا نبني ونعمر فهو لن يقبل لنا النهضة على الأساس الإسلامي أو حتى العلماني أو على أي أساس ، ونحن أمة وسط ثقافياً وجغرافياً ولسنا جزراً منعزلة، وبالتالي فالقياس الألماني والياباني قياس مخادع وخاطئ ، بالإضافة إلى أن أمريكا والغرب كان لهم مصلحة في تقدم ألمانيا الغربية في إطار الصراع مع المنظومة الاشتراكية ، وكذا في تقدم اليابان حتى لا ينفرد الاتحاد السوفيتي أو الصين بالتمدد في آسيا وموضوع القياس الياباني والألماني خطأ مبدأي بالنظر لظروف وطبيعة الصراع مع الغرب ، وهو أكبر خطأ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية لأنه ليس هناك استقطاب يسمح بهامش من المناورة يمكن أن نفلت بها من موانع الغرب وعراقيله على نهضتنا وهكذا فإن القياس الألماني والياباني يحتم المواجهة والجهاد والمقاومة .

من الأطروحات الأخرى المراوغة ، أننا أمة لا قيمة لها وأن الدخل القومي الأمريكي مثلاً ١٣ تريليون دولار ، أما الدخل العربي والإسلامي السنوي فهو قليل جداً – العربي ٧١٧ مليون دولار – ، أي أصغر من رأسمال شركة مايكروسوفت مثلاً أو نوكيا للهواتف المحمولة أو دولة واحدة مثل إسبانيا ، وهذا صحيح ، ومن ثم فإن الغرب لا يضعنا في اعتباره وليس طامعاً فينا أو لا نشكل له أي نوع من التهديد، ولعل حجة هؤلاء هي نفسها تنسف منطقهم ، فمادمنا بلا قيمة ولا نشكل خطراً فلماذا تم زرع إسرائيل ، ولماذا تم احتلال أفغانستان ثم العراق ؟ . . هل لتدفق البترول مثلاً ؟ . . وهذا البترول مهم طبعاً ، ولكن تدفقه كان مضموناً بدون مخاطر هذا الاحتلال على الأمريكان وحلفائهم ، بل إن أحد الزعماء العرب قال ذات يوم مستغرباً ، إنهم يأخذون البترول وحتى صدام حسين شخصياً كان مستعداً لأن يضخ لهم البترول ، إذن فالمسألة لها بعدها الحضاري والثقافي والتاريخي بالإضافة إلى بعدها الاقتصادي والسياسي أما مسألة أننا لا نشكل خطراً عليهم ، فهذا كلام

جزئي ، نعم ربما لا نشكل خطراً حقيقياً أو كبيراً الآن ولكن هناك ما يسمى بالقوة الكامنة ، والمنظومة الإسلامية الثقافية تمثل خطراً شديداً على المنظومة الغربية الرأسمالية لأنها تشكل البديل الأيديولوجي لكل مستضعفي العالم للثورة على الرأسمالية بعد فشل الماركسية ولا هوت التحرير المسيحي ، وبديهي أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي كانا لا بد أن يفشلا أمام الرأسمالية لأنه من الناحية العلمية والموضوعية فإن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي قد خرجا من نفس الأرضية الحضارية التي أفرزت الرأسمالية ومن الطبيعي أن هذا سبب جوهري وبنيوي للفشل ، أما الإسلام فهو منظومة ثقافية مختلفة أولاً ليست نابعة من المنظومة الحضارية الغربية وهي ذات تراث ونصوص منحازة للفقراء ثانياً وبالتالي قادرة على تقديم التبرير النظري للثورة على الرأسمالية ، وهي ذات خطاب عالمي ثالثاً وبالتالي فهي يمكن أن تصلح كأيديولوجية أو جذر ثقافي للبشر المستضعفين والمتضررين من الرأسمالية (وهم أكثرية العالم) سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ثم إن الخطاب الإسلامي خطاب غير عنصري ، أضف إلى ذلك أن الرقعة الجغرافية المتوسطة وذات الاتساع الكبير التي يشغلها العالم الإسلامي وكثافته السكانية الكبيرة والواعدة ، ثم ثقافة القتال والجهاد ، والاعتماد على مدد الله يمكن أن تشكل مصدراً لا ينضب للمجاهدين والمناضلين ، وهكذا فإن خوف الغرب وأمريكا من الإسلام والمسلمين له أسبابه القوية والخطيرة أيضاً ، وحديث المفكرين والسياسيين الغربيين عن الخطر العربي والإسلامي ليس وهماً ولا خداعاً ، بل إدراك مبكر أو تقليدي لما يمكن أن يمثله الإسلام والمسلمون إذا ما سادت ثقافة المواجهة والمقاومة وثم استعادة فعل الجهاد الجميل .

لماذا نقول مشروع المقاومة ، ولا نقول مثلاً مشروع الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو التربية أو غيرها ؟ ! . . ذلك كما قلنا لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم إلا بالجهاد ، وذلك لأننا أمة مستهدفة ، والسيف فوق رؤوسنا ، فهل نخدع أنفسنا مثلاً ؟ . . وقد بان الأمر الآن ، فأمريكا وبريطانيا والحلفاء جاءوا بجيوشهم والانطباق الكامل بين إسرائيل وأمريكا أصبح واضحاً للعيان لا تخطئه عين وخاصة بعد ما

يسمى (بوعد بوش) الصادر مع شارون في مؤتمر صحفي ١٤ / ٤ / ٢٠٠٣ ، وهـو مفهوم من قبل ولكن ذلك لمن يريد حجة دامغة بدون جهد ! ! . .

وكذلك لأن الله تعالى وضع لنا الحل الصحيح في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[المائدة:٥١-٥٢].

وهذه الآيات تنطبق على حالتنا الراهنة تماماً ، حيث أنه لم يحدث تحالف – فضلاً عن موالاة – بين اليهود والنصارى إلا في السنوات الأخيرة ، بل كان العداء بين الطرفين هو سيد الموقف دائماً لدرجة ظهور ما يسمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية في الفكر الغربي واليهودي على حد سواء ، المهم أن هناك الآن موالاة والموالاة أعلى من التحالف بين الغرب وإسرائيل وهناك احتلال أمريكي لمناطق وبلاد عربية وإسلامية ومنطق الذين لا يريدون المقاومة ولا القتال ولا الجهاد ولا الاستشهاد يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة أي نخاف منهم لأنهم أقوى منا بمراحل نعم هذا صحيح ولكن لنا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة ، بالمقاومة الشعبية التي أثبتت نجاحها في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان ، وبسلاح الاستشهاد الذي لم يجدوا له علاجاً ، ولن يجدوا إن شاء الله – حتى الآن – وحتى بصرف النظر عن النتائج فإن الله تعالى طلب منا ذلك وفضح منطق المسارعين فيهم ، وبشرنا بأن الفتح أو أمر من عنده سوف يأتينا ، ونحن بالتالي نطرح المقاومة ومشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح وكفريضة شرعية ، وكتوجيه قرآني ، وكذلك من الناحية العلمية والموضوعية فهو سلاح وطريقة وأسلوب أثبت نجاحه ، فالمقاومة العراقية أثبتت حتى الآن أنه رغم كل الظروف الصعبة وغير المواتية نجحت في تعطيل المشروع الأمريكي ، وفي سبيلها لإنهائه إن شاء الله ، نفس الأمر بالنسبة لمشروع المقاومة في فلسطين الذي جاء أيضا في ظروف غير مواتية ، ومع ذلك هز الوجود الإسرائيلي هزاً ، وألقى بظلال من الشك حول المشروع الصهيوني ذاته كما اعترف بذلك قادة العدو وكبار مفكريه والأمر ذاته بالنسبة للمقاومة في لبنان .

مشروع المقاومة إذن أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح وإذا أدركنا أننا في حالة هزيمة تكنولوجية وأنه من المستحيل عملياً مواجهة آلة الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيوش أو الدول أو المؤسسات الرسمية «وكل التجارب دلت على ذلك» فإن التجارب ذاتها دلت على أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وتأخذ مكانها ، وهي سوف تحقق أولاً نوع من التصدي والصمود يمنع وصول المنحنى الحضاري الإسلامي إلى نقطة السقوط النهائية ، والمقاومة سوف تزيد وعي الشعوب بالتحديات التي تحيط بها ، وتوقظ هذه الشعوب وتعالج الأجزاء المريضة في الجسد العربي والإسلامي ، وبالتالي يزداد هذا الجسد حيوية ، ولا شك أن ذلك سوف يزيد قدرة هذه الشعوب على انتزاع حقوقها السياسية ، ومن هنا فإن مشروع المقاومة هو المقدمة الأولى والصحيحة والجوهرية للإصلاح السياسي ، وعلى نفس النمط هو المقدمة الأولى والصحيحة للتقدم الاقتصادي وإشاعة روح الوحدة والتكافل والحيوية والإيجابية ، بل سوف تفجر طاقة الابتكار العلمي والتكنولوجي أيضاً ، وهكذا فإن مشروع المقاومة وإشاعة ثقافة المقاومة هو الأسلوب الصحيح شرعياً وواقعياً ، وفي أسوأ الحالات فإن التخلي عن الجهاد والمقاومة يعني الإبادة والقتل والتدمير والنهاية الحضارية وتحولنا إلى عبيد أو قتل الجزء الأكبر منا وتحويل الباقي إلى عبيد أما المقاومة فهي إما نصر وإما شهادة ، وحتى لو كانت النتيجة هي الهزيمة فإن خسائر الهزيمة لن تكون أسوأ من حالة الانبطاح ، وعلى الأقل هناك الكرامة ، وهناك التجربة التي يمكن تكرارها مع الأجيال القادمة ، أي المحافظة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد .

ولن نكون مغرقين في الوهم أو التفاؤل حين نقول أن مشروع المقاومة لن يحقق فقط العزة والكرامة لنا ، بل سيكون بداية لتحرير العالم كله من الهيمنة والظلم الأمريكي الصهيوني ، وهذا سوف يرفع قيمة أطروحتنا الثقافية عالمياً ، بل يمكن أن يتحول الإسلام إلى أيديولوجية لكل المستضعفين والمناهضين للرأسمالية والعولمة، وحتى بمنطق الدعوة المباشر فإن المواجهة والمقاومة ستكون طريقاً صحيحاً لدخول الناس في دين الله أفواجاً .

.. هدم الأقصى عقيدة صهيونية

الحديث الملفق عن اكتشافات صهيونية لآثار تتصل بالتاريخ اليهودي تحت المسجد الأقصى ليس إلا مقدمة لتنفيذ الخطة الصهيونية بهدم المسجد الأقصى وهكذا فإن تهديد المتطرفين اليهود باقتحام المسجد – حديث يجب ألا يمرّ بهدوء ، ويجب أنْ يُؤخذ بجديّة ؛ ذلك أنّ التخطيط لهدم المسجد الأقصى ليس وليد هذه اللّحظة ؛ بل هو عمليّة قديمة جديدة تتكرّر وسوف تتكرّر ؛ لأنّها جزءٌ لا يتجزّأ من العقيدة الصّهيونيّة ، وهي عقيدة لا تخصّ اليهود الصّهاينة وحدهم ؛ بل تخصّ قطاعًا كبيرًا من المسيحيّة البروتستانتية (المسيحيّة الصّهيونيّة) ؛ ذلك أنّ تلك العقيدة المزعومة يؤمن أتباعها أنّ من شروط عودة المسيح ووقوع معركة (هرمجدون) للقضاء على الأشرار (المسلمين تحديدًا ، واليهود أيضا) ، وبداية ما يسمّى الألفية السعيدة – إنّ من شروط ذلك هدم المسجد الأقصى ، وإقامة هيكل سليمان في مكانه؛ حيث يعتقد هؤلاء أنّ هيكل سليمان يقع تحت المسجد الأقصى ، وهكذا فنحن أمام قوى إسرائيليّة ويهوديّة صهيونيّة ، ومسيحيّة بروتستانتيّة صهيونيّة ، والأخيرة لها أتباع كثيرون في الدول البروتستانتية ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكيّة ، وبريطانيا ، واستراليا ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ؛ فإنّ هناك داخل الولايات المتحدة نفوذًا قويًّا لتلك العقيدة ، وهناك كنائس تبشر بذلك ، وتدعو إليه ، وتجمع من رعاياها المال اللازم لتمويل عمليّة هدم المسجد الأقصى ، وبناء الهيكل، ودعم إسرائيل سياسيًّا وإعلاميًّا كجزءٍ من تحقيق شروط عودة المسيح

المزعومة ؛ كما تتمتع هذه الجماعة بنفوذٍ قويّ داخل الحزب الجمهوريّ في الولايات المتحدة ، ويتعاطف معها بصورة ضخمة رموز اليمين الأمريكي المحافظ من « ديك تشيني » إلى « دونالد رامسفيلد » إلى الرئيس « بوش » ذاته ، وكان الرئيس الأمريكي الأسبق « رونالد ريجان » يؤمن مباشرة بتلك العقيدة المزعومة ، كما تمتلك تلك الجماعة قنواتٍ تلفزيونيّةً وإذاعيّة وصحفًا ، ويتبعها عددٌ كبير من القساوسة أمثال «باث روبرتسون » والأب « جراهام » وغيرهما .

وهكذا فنحن أمام تهديد جديّ مهما كان غريبًا ومتطرّفًا لهدم المسجد الأقصى . . . الأمر الذي يستدعي تحرّكًا شعبيًّا وحكوميًّا . . . عربيًّا وإسلاميًّا .

محاولات هدم المسجد الأقصى بدأت منذ عام ١٩٦٩ م . . . أي بعد عامين فقط من الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس ؛ مما يؤكّد مدى تغلغل هذه الفكرة في العقل الصهيونيّ المسيحيّ واليهوديّ على حدٍّ سواء ، وقد كانت المحاولة الأولى لحرق المسجد الأقصى عن طريق البروتستانتي الأسترالي « مايكل روهان » في ٢١/٨/ ١٩٦٩ م ، ونلاحظ هنا أنّ ذلك الشخص ليس يهوديًّا ولا إسرائيليًّا ؛ بل مسيحيّ بروتستانتيّ أسترالي ، وقد تمّ القبض عليه واعترف بالموضوع إلا أنّ المحكمة الإسرائيليّة أصدرت أمرًا بإطلاق سراحه بدعوى أنّه مصابٌ بنوعٍ من الجنون المتقطع ، وأنّه أثناء المحاولة كان واقعًا تحت سطوة إحدى نوبات الجنون هذه ، وقد تكرّرت المؤامرات لحرق أو هدم المسجد الأقصى بعد ذلك مراتٍ كثيرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر : تآمر عدد من أتباع (عُصبة الدّفاع اليهوديّة) عام ١٩٨٠م بقيادة « مائير كاهانا » و « باروخ غرين » وخطّطوا لنسف المسجد الأقصى ، وفي عام ١٩٨٢م خطّطت جماعة سريّة صهيونيّة مكوّنة من (٢٧) شخصًا بقيادة «يهودا عتسيون» لنسف المسجد الأقصى ، وعددٍ آخرَ من المساجد في القدس المحتلة ، وقد أُلقي القبض على هؤلاء وسرعان ما تمّ إطلاق سراحهم ، ولا يزال «يهودا عتسيون » حتى اليوم يحرّض علنًا على نسف المسجد الأقصى ، وفي عام ١٩٨٩م قامت مجموعة من جماعة (غوش أمونيم) باقتحام المسجد الأقصى ، وهذه المحاولات . . . « محاولات اقتحام المسجد الأقصى » تتمّ سنويًّا ، وخاصة في

الذكرى السنويّة لهدم هيكل سليمان المزعوم ، كما قام في نفس الإطار « أرئيل شارون » قبل أنْ يصبح رئيسًا للوزراء بدخول المسجد الأقصى عام ٢٠٠٠م ، وقد قامت الحكومة الإسرائيليّة وقتها بحراسته ، بِ(٣٠٠)جندي إسرائيلي ، وقد كانت هذه المحاولة سببًا في اندلاع انتفاضة الأقصى الفلسطينيّة .

ونلاحظ هنا أنّ المؤسّسة الرسميّة الإسرائيليّة والتي لم تطلق بعد إشارة البدء في هدم المسجد الأقصى ، على أساس أنّ الظروف لم يتمّ إعدادها بعد في إطار حسابات معيّنة ؛ إلا أنّ تلك المؤسّسة تطرح حاليا فتح المسجد الأقصى لزيارة اليهود والصلاة فيه لليهود ، على غرار ما يحدث في الحرم الإبراهيمي بالخليل . . . الذي فرض عليه التقسيم الوظيفي ؛ فتحول إلى جامع وكنيس معًا. . . أي تتمّ فيه الصلاة للمسلمين واليهود على حدٍّ سواء كما أنّ المؤسّسة الرسميّة الصّهيونيّة تقوم من وقت لآخر بعمل ضربات ، وأنفاق ، ومشروعات مشبوهة حول المسجد الأقصى ، وتحته بهدف زعزعة أساساته تمهيدًا لهدمه أو سقوطه من تلقاء نفسه ، كما أنّ تلك المؤسّسة الرسميّة قد قامت بضمّ القدس رسميًّا بكاملها إلى دولة إسرائيل عقب احتلالها مباشرة ، وكثّفت عمليّات الاستيطان الإسرائيلي فيها وحولها وإنشاء مستعمراتٍ ، وهدم بيوت الفلسطينيّين فيها ، ومضايقتهم ، ودفعهم إلى ترك القدس ، وتغيير الطبيعة السكانيّة للمدينة ، وطمس المعالم الإسلاميّة والمسيحيّة فيها بهدف تحويلها إلى الطابع اليهوديّ ، وهذا كله في إطار هدم المسجد كمحصّلة ونتيجة ومن ثم بناء الهيكل ! ! .

ويعترف الصهيوني « شاحر زليغر » أنّه يوجد حاليًّا عدد من المنظّمات الإسرائيليّة متفقة فيما بينها على تدمير كل مساجد القدس في أثناء صلاة الجمعة بما فيها المسجد الأقصى ، وذلك بهدف تدمير المساجد ، وقتل أكبر عدد من المصلّين في نفس الوقت .

وفي الإطار نفسه تأسّست ما يسمى بِ « جماعة أبناء الهيكل » عام ١٩٨٨م ، وحصلت على ترخيص رسميّ إسرائيليّ بممارسة نشاطها تحت مسمى (مؤسّسة العلوم والأبحاث وبناء الهيكل) ، وكان مؤسّسها هو « يسرائيل أرييل » ، ويقوم

أعضاء هذه الجماعة المشبوهة حاليّا بجمع وإعداد المواد اللازمة الخاصّة ببناء الهيكل ، وقد أعدّت الجماعة رسمًا تخطيطيًّا للهيكل المزمع إقامته مكان المسجد الأقصى ، ويرى هؤلاء ضرورة هدم المسجد الأقصى عاجلا أو آجلا ؛ لأنّ هيكل سليمان – حسب زعمهم – يقع تحته مباشرة ، ويقول زعيم تلك الجماعة الحاخام «مناحم مكوبر» : « إنّه في كل الأحوال ، وتحت أي ظروف سوف يتمّ بناء الهيكل ، وسوف يتمّ هدم المسجد الأقصى ، وأنّه في الوقت الذي سنحصل فيه على الضّوء الأخضر سيتمّ بناء الهيكل خلال بضعة أشهر فقط باستخدام أحدث الوسائل التكنولوجيّة ، وأنّ المساجد الموجودة في تلك المنطقة – بما فيها المسجد الأقصى ، وقُبّة الصخرة – هي مجرّد مجموعة من الأحجار يجب إزالتها » .

الفهرس

